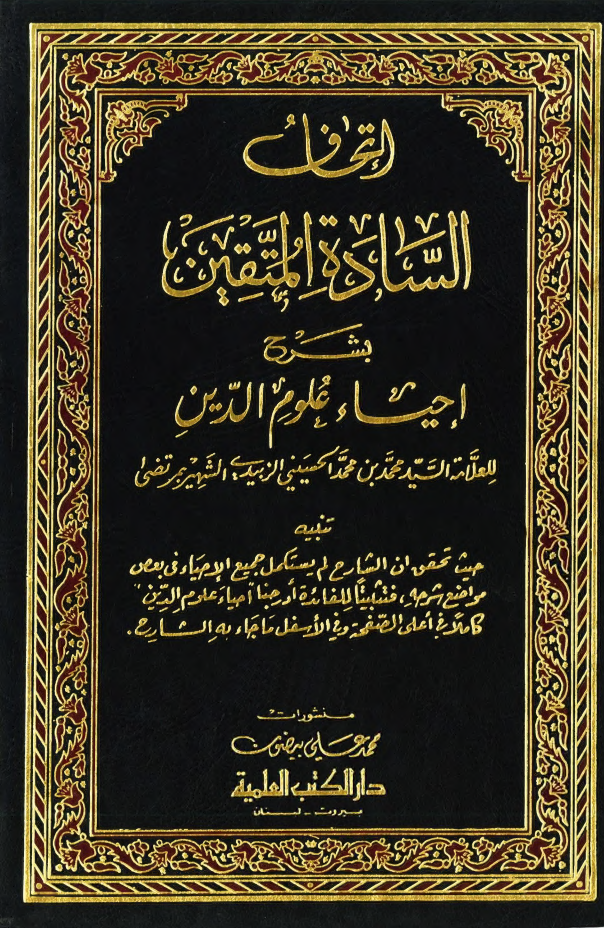

إتحاف
السادة المتقين
بشرح
إحياء علوم الدين
للعلامة السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى
تنبيه
حيث تحقق أن الشارح لم يستكمل جميع الإحياء في بعض
مواضع شرحه، فتثبيتاً للفائدة أدرجنا أحياء علوم الدين
كاملاً في أعلى الصفحة وفي الأسفل ما جاء به الشارح.
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



تصنيف

العلامة السيد محمد بن محمد الحسيني الزبيدي
الشهير بمرتضى
المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ

تنبيه

حيث تحقق أن الشارح لم يستكمل جميع الإحياء في بعض مواضع شرحه فتنبيهاً للفائدة أدرجنا إحياء علوم الدين كاملاً في أعلى الصفحة وفي الأسفل ما جاء به الشارح

الجزء العاشر

كتاب ذم الجاه والرياء، كتاب ذم الكبر والعجب، كتاب ذم الغرور، كتاب التوبة.

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

كتاب ذم الجاه والرياء
وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات
من كتب احياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً الله ناصر كل صابر

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره، وسبباً للمزيد من فضله، ودليلاً على آلائه وعظمته أحمده إلى نفسه كما استحمده إلى خلقه، جعل لكل شيء قدراً، ولكل قدر أجلاً، ولكل أجل كتاباً، واشهد أن لا إله إلا الله غير معدول به، ولا مشكوك فيه، ولا مكفور دينه، ولا مجحود تكوينه شهادة من صدقت نيته، وصفت دخلته، وخلص يقينه، وثقلت موازينه، واشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفية وخليله، أمين وحيه وخاتم رسله وبشير رحمته، ونذير نقمته، بعثه بالنور المضي، والبرهان الجلي، والمنهاج البادي، والكتاب الهادي، فاظهر به الشرائع المجهولة، وقمع به البدع المدخولة، وبين به الأحكام المفصولة ﷺ وعلى آله مصابيح الدجا، وأصحابه ينابيع الهدى وسلم تسليماً كثيراً وبعد فهذا شرح:

كتاب ذم الجاه والرياء

؛هو الثامن من الربع الثالث من كتاب الإحياء للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالي بوّأه الله في جنانه القصور المشرفة العوالي، أودعت فيه جلاً من فوائد من صدور القوم مستفاده وكشفت غررا من مطاوي متونه مستجاده، مقتطفاً من رياض المعارف اليانعة الأزهار، ممتطيا غارب سنام التوشيح البادي الأسفار، سالكاً محجة الاختصار النافع المفيد، مجتنباً طيَ مراحل التطويل والتعقيد، وعلى الله الإعانة في حسن الإبانة، فما اسعد عبدا وفقه مولاه وأعانه انه بكل خير ملي وبالفضل جدير، وهو على كل شيء قدير.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب، المطلع على سرائر القلوب، المتجاوز عن كبائر الذنوب، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا الغيوب، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات، الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا، فإنه المنفرد بالملكوت والملك، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك. والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد؛ فقد قال رسول الله ﷺ: « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة

بسم الله الرحمن الرحيم

(**الحمد لله علام الغيوب**) جمع الغيب وهو ما غاب عن الحس ولم يكن عليه علم يهتدى به العقل ليحصل به العلم، (**المطلع على سرائر القلوب**) وفي بعض النسخ أسرار القلوب، والسريرة والسر بمعنى واحد، (**المتجاوز عن كبائر الذنوب**) أي المسامح عنها بفضله والكبائر منها سيأتي التفصيل في حدّها، (**العالم بما تجنه**) أي تخفيه (**الضمائر**) جمع ضمير وهو داخل القلب (**من خفايا العيوب**) أي الباطنة منها، وبين العيوب والغيوب جناس تصحيف، (**البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات**) جمع الطوية فعيلة من الطي والمراد بها هنا باطن القلب، (**الذي لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى وخلص من شوائب الرياء والشرك وصفا**)، فشرط القبول في العمل كما له بشروطه المعتبرة وتوفيته بحقوقه وخلوصه من شائبة الرياء والسمعة وخفي الشرك وما لم يكن كذلك فهو مردود على صاحبه، وقد وردت بذلك اخبار سأتي ذكر بعضها، (**فإنه المنفرد بالملكوت والملك**) وهما عالمان فالملكوت هو عالم الغيب المختص بأرواح النفوس والملك هو عالم الشهادة من المحسوسات الطبيعية، (**وهو أغنى الأغنياء عن الشرك**). روى مسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه. وعند ابن جرير في التهذيب، والبزار في المسند بلفظ: قال الله عز وجل من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا أغنى الشركاء عن الشرك. (**والصلاة على**) سيدنا (**محمد وآله وصحبه المبرئين**) أي المنزهين (**من الخيانة**) وهي مخالفة الحق بنقض العهد في السر (**والإفك**) بالكسر وهو كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه، (**وسلم**) تسليماً (**كثيراً**).

(**أما بعد؛ فقد قال رسول الله ﷺ: « إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية »**) المشهور المتلقى ان قوله: والشهوة معطوف على ما قبله ويمكن نصب الشهوة وجعل الواو

الخفية والرياء من الشهوة الخفية التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء »، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء فضلاً عن

بمعنى « مع » أي الرياء مع الشهوة الخفية للمعاصي، فكأنه يرائي الناس بتركه المعاصي والشهوة في قلبه مخبأة وهو وجه حسن، وقيل: الرياء ما ظهر من العمل والشهوة الخفية حب اطلاع الناس على العمل. قال العراقي: رواه ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن اوس وقالا: الشرك بدل الرياء وفسراه بالرياء. قال الحاكم: صحيح الإسناد.

قلت: بل ضعيفه وهو عند ابن المبارك في الزهد، ومن طريقه البيهقي في الشعب بلفظ المصنف انتهى.

قلت: رواه ابن ماجه من طريق رواد بن الجراح، عن عامر بن عبد الله، عن الحسن بن ذكوان، عن عبادة، عن شداد ولفظه « إن اخوف ما أخاف على أمتي ان تشرك بالله أما إني لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية » وفي لفظ « اتخوّف » بدل « اخاف » « وتعبد » بل « تعبدون ». ومن هذا الوجه رواه أبو نعيم في الحلية. ورواد ضعفه الدارقطني، وعامر قال المنذري لا يعرف، والحسن بن ذكوان قال أحمد أحاديثه بواطيل. وقد رواه أحمد وزاد فيه قيل، وما الشهوة الخفية؟ قال « يصبح احدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهوات الدنيا فيفطر ».

قال العراقي: وهو حديث لا يصح ففي إسناده عبد الواحد بن زياد وهو ضعيف قال: وبتقدير صحته فابطاله صومه لأجل شهوته مكروه بخلافه لأمر مشروع عن زائر وعارض فلا تعارض بينه وبين خبر الصائم المتطوّع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء افطر انتهى.

وروى أحمد من حديث محمود بن لبيد: « إن اخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ».

ورواه الطبراني في الكبير بنحوه إلا أنه قال: عن محمود بن لبيد، عن رافع بن خديج.

(« والرياء من الشهوات الخفية التي هي أخفى من دبيب) أي حركة مشي **(النملة السوداء على الصخرة الصماء)** التي لا تجيب الصدى **(في الليلة الظلماء »)** وصف النملة بالسوداء لإرادة المبالغة في الخفاء لأنها لا ترى حينئذ، وقد ورد هكذا في الشرك الخفي، وفي حديث ابن عباس « الشرك أخفى في أمتي من دبيب الذر على الصفا » رواه أبو نعيم في الحلية، ورواه البزار من حديث عائشة بلفظ « من دبيب النمل على الصفا » وعند هناد وأبي يعلى من حديث أبي بكر « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ».

(ولذلك عجز عن الوقوف على غوائله) أي مهالكه **(سماسرة العلماء)** أي نقادهم

عامة العباد والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها. وإنما يبتلي به العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوا وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى إطلاع الخلق ولم تقنع بإطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركته ودعائه، وحرصوا على إتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات، وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له

(**فضلاً عن عامة العباد**) جمع عابد (**والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس**) خروجاً منها (**وبواطن مكائدها**) التي لا يطلع عليها سوى من خلقها، (**وإنما يبتلى بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك طريق الآخرة**) وفي نسخة سبيل الآخرة، (**فإنهم مهما قهروا أنفسهم**) بالرياضات (**وجاهدوها**) بالاختبارات(**وفطموها عن**) ثدي (**الشهوات وصانوها عن الشبهات أي عن الاقتحام فيها وحملوها بالقهر على أصناف العبادات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح**) فإنها لا تكاد تخطر له ببال وقد انسد بابها عليه، (**فطلبت الاستراحة**) السكون (**إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم فوجدت مخلصة من**) ألم (**مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى إطلاع الخلق**) عليها، (**ولم تقنع باطلاع الخالق وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده**) بل ارادت ضم حمد الناس إليه، (**وعلمت انهم إذا عرفوا تركه الشهوات**) النفسية (**وتوقيه الشبهات**) في المعاملة (**وتحمله مشاق العبادات**) من صوم في أيام الصيف وطول قيام في الصلوات وملازمة المساجد وغيرها، (**اطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء بالغوا في التقريظ**) وهو المدح على الحي كما أن الرثاء المدح على الميت (**والإطراء**) المبالغة في المدح، (**ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه، ورغبوا في بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام**) والمثول بين يديه، (**وأكرموه في المحافل**) العامة (**غاية الإكرام**) وأشير إليه بالبنان (**وسامحوه في البيع**) والشراء (**والمعاملات**) الدنيوية، (**وقدموه**) على غيره

متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللـذات وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهرة الشهوات، فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمي عن دركها العقول النافذة القوية، ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجود الأعمال، وقد أثبتت إسمه في جريدة المنافقين وهو يظن أنه عند الله من المقربين، وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة.

وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين، وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه، ويتضح الغرض منه في

(**في المجالس، وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا**) أي تذللوا (**متواضعين وانقادوا إليه في أغراضه موقرين**) أي معظمين، (**فأصابت النفس من ذلك لذة**) معنوية (**هي أعظم اللذات**) وأهنؤها (**وشهوة هي أغلب الشهوات**) وأقواها، (**واستحقرت منها ترك المعاصي والهفوات**) أي الزلات (**واستلانت خشونة المواظبة على العبادات**) الظاهرة (**لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، وهو يظن**) في نفسه مع ذلك (**أن قيامه بالله و**) أن قيامه (**بعباداته المرضية**) عند الله، (**وإنما قيامه**) في الحقيقة (**بهذه الشهوة الخفية التي يعمى عن دركها**) ويفحم عن سبرها (**الا العقول**) الكاملة (**النافذة**) بصيرتها (**القوية**) من نورها، (**ويرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة**) واتخذتها (**تزييناً للعبادة وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة**) عندهم (**والوقار وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال**) لعدم الاخلاص فيها، (**وأثبتت اسمه في جريدة المنافقين**)الذين يبطنون خلاف ما يظهرون (**وهو يظن أنه عند الله من المقربين**) من ظفره الالهية، (**وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى عنها إلا المقربون**) ممن عصمهم الله تعالى بتوفيقه، (**ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرئاسة**) كما نقله القشيري وصاحب القوت. (**وإذا كان الرياء هو الداء الدفين**) أي المدفون في باطن القلب (**الذي هو أعظم شبكة الشياطين**) الذين يصطادون بها الرجال، (**وجب شرح القول في سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه، وينصح الغرض منه في ترتيب الكتاب على شطرين**).

ترتيب الكتاب على شطرين؛ **الشطر الأول: في** حب الجاه والشهرة، وفيه بيان ذم الشهرة وبيان فضيلة الخمول، وبيان ذم الجاه، وبيان معنى الجاه وحقيقته، وبيان السبب في كونه محبوباً أشد من حب المال، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهية الذم، وبيان العلاج في حب الجاه وبيان علاج حب المدح، وبيان علاج حب كراهة الذم، وبيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم. **فهي** اثنا عشر فصلاً منها تنشأ معاني الرياء فلا بد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنّه وكرمه.

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت:

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم، بل المحمود الخمول إلا من شهرة الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه. قال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «حسب امرىء من الشر أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه إلا من عصمه الله»، وقال جابر بن عبدالله: قال رسول الله

(**الشطر الأول**) منه: (**في حب الجاه والشهرة، وفيه بيان ذم الشهرة، وبيان فضيلة الخمول، وبيان ذم الجاه، وبيان معنى الجاه وحقيقته، وبيان السبب في كونه محبوباً حباً أشد من حب المال، وبيان أن الجاه كمال وهمي وليس بكمال حقيقي، وبيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم، وبيان السبب في حب المدح والثناء وكراهة الذم، وبيان اختلاف أحوال الناس في الذم والمدح، فهي اثنا عشر فصلاً منها تنشأ معاني الرياء فلا بدّ من تقديمها**) والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه.

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت:

(**اعلم**) هداك الله بنور اليقين (**أن أصل الجاه**) مقلوب الوجه وقد وجه وجاهة فهو وجيه إذا كان له حظ ورؤية ومنه وجوه القوم ساداتهم وله جاه (**هو انتشار الصيت**) في الناس، والصيت بالكسر الذكر الجميل (**وهو مذموم بل المحمود الخمول**) وهو خفاء القدر والذكر، (**إلا من شهرة الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه، قال أنس**) رضي الله عنه: (**قال رسول الله ﷺ «حسب امرىء من الشر**) أي يكفيه منه في أخلاقه ومعاشه ومعاده (**إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه»**) لأنه إنما يشار إليه في دين لكونه أحدث بدعة عظيمة فيشار إليه بها، وفي دنيا لكونه أحدث منكراً من الكبائر غير متعارف بينهم، بخلاف ما يقارب الناس فيه ككثرة صلاة أو صوم فليس محل إشارة ولا تعجب لمشاركة غيره له، فأشار في هذا الحديث بالإشارة بالأصابع إلى أنه عبد هتك الله ستره فهو في

ﷺ : « حسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »، ولقد

الدنيا في عار وغداً في النار، ومن ستره الله في هذه الدار لم يفضحه في دار القرار. قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف انتهى.

قلت: رواه باسناد فيه ابن لهيعة وحاله معلومة ويوسف بن يعقوب، فإن كان النيسابوري فقد قال أبو علي الحافظ: ما رأيت بنيسابور من يكذب غيره، وإن كان القافي باليمن فمجهول، ثم أن لفظ البيهقي « بحسب امرىء من الشر أن يشار إليه بالاصابع في دين أو في دنيا إلا من عصمه الله ». ورواه كذلك الطبراني في الأوسط، وللبيهقي أيضاً من حديث أبي هريرة فيه عندهما عبد العزيز بن حصين ضعفه يحي والناس، وقد رواه البيهقي بسند آخر فيه كلثوم بن محمد بن أبي سروة. قال الذهبي، قال أبو حاتم: تكلموا فيه. وقد رواه أيضاً الحكيم في النوادر عن الحسن مرسلاً.

(وقال جابر بن عبد الله) رضي الله عنه: **(قال رسول الله ﷺ « حسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه. إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم »)** قال العراقي: هو غير معروف من حديث جابر، معروف من حديث أبي هريرة. رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوّله، ورواه مسلم مقتصراً على الزيادة التي في آخره. وروى الطبراني، والبيهقي في الشعب أوّله من حديث عمران بن حصين بلفظ « كفى بالمرء إثماً ». ورواه ابن يونس في تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ: هلاك بالرجل وفسر دينه بالبدعة ودنياه بالفسق واسنادهما ضعيف اهـ.

قلت: لفظ الطبراني، والبيهقي قد ذكر قبله، وأن البيهقي رواه من طريقين كل منهما ضعيف، وأما تلك الزيادة التي رواها مسلم، فقد رواها كذلك أحمد، وابن ماجه من حديث أبي هريرة بزيادة « وأموالكم » بعد « وصوركم » ورواه أبو بكر الشافعي في الغيلانيات وابن عساكر من حديث أبي أمامة. ورواها هناد في الزهد عن الحسن مرسلاً. ورواها الحكيم في النوادر عن يحي بن أبي كثير مرسلاً.

وأما حديث عمران بن حصين فلفظه عند الطبراني في الكبير « كفى بالمرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع » وفي رواية له: « كفى بالمرء من الإثم » وفيه زيادة قالوا: يا رسول الله وإن كان خيراً فهو شر له إلا من رحمه الله وان كان شرا فهو شر له. وقد رواه الرافعي في تاريخ قزوين وقال: كذا في النسخة، وربما كانت اللفظة فهو شر له إلا من رحمه الله.

وأما حديث ابن عمر، فرواه الديلمي بلفظ « كفى بالمرء من الشر أن يشار إليه بالاصابع في

ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلاً، لا بأس به إذ روي هذا الحديث فقيل له: يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع فقال: إنه لم يعن هذا وإنما عني به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه. وقال علي كرّم الله وجهه: تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم، واكتم وأصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال أيوب السختياني: والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه. وعن خالد بن معدان. إنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة. وعن أبي العالية: إنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام. ورأى طلحة قوماً يمشون معه نحواً من عشرة فقال: ذباب طمع وفراش نار. وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة. فقال:

دينه بفسق أو في دنياه أن يعطيه إلا من عصمه الله مالاً ولا يصل به رحماً ولا يعطى حقه» ورواه بهذا اللفظ الحكيم في تاريخه من حديث أنس.

(**وقد ذكر الحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**للحديث تأويلاً لا بأس به إذ روى هذا الحديث فقيل له: يا أبا سعيد إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع. فقال: إنه لم يعن هذا وإنما عني به المبتدع في دينه**) فإنه لا يشار إليه إلا إذا أحدث في الدين بدعة عظيمة تكون سبب الإشارة كما يقولون: خالف تعرف. (**والفاسق في دنياه**) بأن أحدث منكراً من الكبائر، وهذا التأويل ذكره الحكيم في نوادر الأصول، وقد روى نحوه مرفوعاً من حديث أنس وابن عمر كما تقدم قبله. (**وقال علي رضي الله عنه: تبذل ولا تشهر**) نفسك (**ولا ترفع شخصك لتعلم**) وفي نسخة لتذكر وتعلم، (**واكتم**) أمرك (**واصمت تسلم تسر الأبرار وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالى: (**ما صدق الله من أحب الشهرة**) أخرجه أبو نعيم في الحلية. (**وقال أيوب**) بن أبي تميمة السختياني البصري رحمه الله تعالى: (**والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه**) رواه أبو نعيم في الحلية، عن عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثني أحمد بن كردومن، حدثنا مخلد، عن أبي بكر بن المفضل قال: سمعت أيوب يقول فساقه. (**وعن**) أبي عبد الله (**خالد بن معدان**) الكلاعي الحمصي ثقة عابد، وكان يسبّح في اليوم والليلة أربعين ألف تسبيحة سوى ما كان يقرأ من القرآن، مات سنة ثلاث ومائة، روى له الجماعة (**أنه كان إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة، وعن أبي العالية**) رفيع بن مهران الرياحي ثقة روى له الجماعة، (**أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام**) من مجلسه أي مخافة الشهرة. (**ورأى طلحة**) بن عبد الله التيمي القرشي أحد العشرة رضي الله عنه (**قوماً يمشون معه أكثر من عشرة**) وفي نسخة نحواً من عشرة (**فقال: ذباب طمع وفراش نار**) شبههم بالذباب والفراش لتهالكهما على الطعام والنار. (**وقال سليم بن حنظلة: بينا نحن حول أبيّ بن كعب**) رضي الله عنه (**نمشي خلفه إذ رآه عمر رضي الله عنه**

أنظر يا أمير المؤمنين ما تصنع ؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع، وعن الحسن؛ قال: خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه ناس فالتفت إليهم فقال: علامَ تتبعوني فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بأبي ما اتبعني منكم رجلان. وقال الحسن: إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى. وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن. وروي أن رجلاً صحب ابن محيريز في سفر فلما فارقه قال: أوصني، فقال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشى إليك وتسأل ولا تُسأل فافعل. وخرج أيوب في سفر فشيعه ناس كثيرون فقال: لولا إني أعلم أن الله يعلم من قلبي اني لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل. وقال معمر: عاتبت أيوب على طول قميصه فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في

فعلاه بالدرة، فقال) أي: **(يا أمير المؤمنين أنظر ماذا تصنع. فقال: إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع)**، وقد وقع مثل ذلك لعلي رضي الله عنه لما ورد الكوفة قادماً من صفين وتبعه الحرث بن شرحبيل الشامي، وكان من وجوه قومه ماشياً خلفه وهو رضي الله عنه راكب، فقال له: ارجع فإن مشي مثلك مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن. **(وعن الحسن)** البصري رحمه الله تعالى **(قال: خرج ابن مسعود)** رضي الله عنه **(يوماً من منزله فتبعه ناس، فالتفت اليهم فقال: علام تتبعوني، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلان)** نقله صاحب القوت، وفي رواية قال لهم: ارجعوا فإنه ذل للتابع وفتنة للمتبوع. **(وقال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى: **(إن خفق النعال حول الرجال قلما تثبت معه قلوب الحمقى)** نقله صاحب القوت، **(وخرج الحسن)** رحمه الله تعالى **(ذات يوم فاتبعه قوم فقال: هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن)** نقله صاحب القوت. **(وروى أن رجلاً صحب ابن محيريز)** هو عبد الله بن محيريز بن جنادة بن وهب الجمحي المكي نزل بيت المقدس تابعي ثقة عابد مات سنة تسع وتسعين روى له الجماعة **(في سفر، فلما فارقه قال: أوصني، قال: إن استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشي ولا يمشى إليك)** وفي نسخة حواليك وفي نسخة أخرى معك وإليك، **(وتسأل ولا تُسأل فافعل)**. وقال الزهري: ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرئاسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرئاسة حامي إليها وعادي، **(وخرج أيوب)** بن أبي تميمة السختياني **(في سفر فشيعه ناس كثير)** من أهل البصرة **(فقال: لولا اني أعلم أن الله تعالى يعلم من قلبي أني لهذا كاره لخشيت المقت من الله تعالى)**. وروى عن شعبة قال: ربما ذهبت مع أيوب في الحاجة أريد أن أمشي فلا يدعني فيخرج فيأخذ ههنا لكيلا يفطن له، قال شعبة: وقال أيوب ذكرت ولا أحب أن أذكر. **(وقال معمر)** بن راشد الازدي مولاهم البصري نزيل اليمن مات سنة أربع وخمسين روى له الجماعة: **(عاتبت أيوب)** السختياني **(في طول قميصه. فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طوله وهي اليوم في**

طوله وهي اليوم في تشميره. وقال بعضهم كنت مع أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال: إياكم وهذا الحمار الناهق! يشير به إلى طلب الشهرة. وقال الثوري: كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعاً. وقال رجل لبشر بن الحارث: أوصني فقال أخمل ذكرك وطيب مطعمك وكان حوشب يبكي ويقول: بلغ اسمي مسجد الجامع. وقال بشر: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف لا ذهب دينه وافتضح. وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس، رحمة الله عليه وعليهم أجمعين.

بيان فضيلة الخمول:

قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله

تشميره) قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد ابن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: كتب إلى عبد الرزاق عن معمر قال: كان في قميص أيوب بعض التذييل فقيل له، فقال: الشهرة اليوم في التشمير.

(وقال بعضهم: كنت مع أبي قلابة) عبد الله بن زيد الحربي البصري **(إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال)** لمن حوله: **(إياكم وهذا الحمار النهاق)** أي الكثير النهيق وهو كونه **(يشير به إلى طلب الشهرة)** نقله صاحب القوت. **(وقال)** سفيان **(الثوري)** رحمه الله تعالى، **(كانوا يكرهون الشهرتين الثياب الجيدة والثياب الرديئة إذا الأبصار تمتد إليهما جميعاً)** أخرجه أبو نعيم في الحلية. **(وقال رجل لبشر بن الحرث)** الحافي رحمه الله تعالى: **(أوصني قال: أخمل ذكرك وطيب مطعمك)** نقله صاحب القوت. **(وكان حوشب)** بن عقيل أبو دحية البصري ثقة روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه (يبكي ويقول: بلغ **اسمي مسجد الجامع)** يعني به جامع البصرة نقله صاحب القوت. **(وقال بشر)** الحافي رحمه الله تعالى: **(ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح)** نقله صاحب القوت. **(وقال)** بشر **(أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس)** نقله صاحب القوت.

بيان فضيلة الخمول:

(قال رسول الله ﷺ «رب) هو للتقليل هنا. قال ابن هشام. وليست هي للتقليل دائماً خلافاً للأكثر، ولا للتكثير دائماً خلافاً لابن درستويه وجمع بل للتكثير كثيراً وللتقليل قليلاً **(أشعث)** أي الثائر شعر الرأس قد أخذ فيه الجهد حتى أصابه الشعث **(أغبر)** أي غير الغبار لونه لطول سفره في طاعة الله كحج وجهاد وصلة رحم وكثرة عبادة **(ذي طمرين)** تثنية طمر بالكسر وهو الثوب الخلق **(لا يؤبه به)** أي لا يبالى به ولا يلتفت إليه لحقارته **(لو أقسم على الله)** أي لو حلف عليه ليفعلن شيئاً **(لأبرّه)** أي أبرّ قسمه وأوقع مطلوبه اكراماً له وصوناً

لأبره منهم البراء بن مالك » ، وقال ابن مسعود : قال النبي ﷺ : « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً » ، وقال ﷺ ألا أدلكم على أهل الجنة : كل ضعيف مستضعف لو أقسم على

ليمينه عن الحنث لعظم منزلته عنده أو معنى القسم الدعاء وابراره اجابته (**منهم البراء ابن مالك** ») أخو أنس بن مالك لأبيه ، لأن أم أنس أم سليم ، وأم البراء السحماء ، وغلط من قال أمهما أم سليم ، وكان حسن الصوت يرجز لرسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، شهد مع النبي ﷺ المشاهد إلا بدراً ، وله يوم اليمامة أخبار وقتل يوم حصن تستر في خلافة عمر .

قال العراقي : رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف « رب ذي طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لابرّه منهم البراء بن مالك » وللحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال: صحيح الإسناد قلت : بل ضعيفه اهـ .

قلت : روى الترمذي من طريق ثابت وعلي بن زيد عن أنس أن النبي ﷺ قال : « رب أشعث لا يؤبه له لو أقسم على الله لابرّه منهم البراء بن مالك » فلما كان يوم تستر من بلاد فارس انكشف الناس فقال الناس : يا براء اقسم على ربك . فقال : أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم والحقتني بنبيك فحمل وحمل الناس معه ، فقتل مرزبان الزارة من عظماء الفرس وأخذ سلبه فانهزم الفرس وقتل البراء . ورواه الحاكم في المستدرك من طريق سلامة عن عقيل عن الزهري عن أنس نحوه ، وأما بدون هذه الزيادة فروى أحمد ومسلم من حديث أبي هريرة « رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه » وفي رواية لمسلم « رب أشعث أغبر ذي طمرين من أمتي يطوف على الأبواب ترده اللقمة واللقمتان لو أقسم على الله لأبرّه » وفي روايه له أيضاً « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » وقد روى الخطيب هذا اللفظ من حديث أنس ، وروى الحاكم ، وأبو نعيم من حديث أبي هريرة « رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس ولو أقسم على الله لأبرّه » .

(**وقال ابن مسعود**) رضي الله عنه (**قال النبي ﷺ : « رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه ولم يعطه من الدنيا شيئاً »**) قال العراقي : رواه ابن أبي الدنيا ، ومن طريق أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف اهـ .

قلت : وقد رواه كذلك ابن عدي بهذه الزيادة ، ورواه البزار في مسنده لكن إلى قوله : « لأبره » قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح خلا جارية بن هرم وقد وثقه ابن حبان على ضعفه .

(**وقال ﷺ : « ألا أدلكم على أهل الجنة**) كذا في النسخ ، والرواية : ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ قالوا : بلى قال : (**كل**) بالرفع لا غير أي هم كل (**ضعيف**) عن أذى الناس أو عن

الله لأبره وأهل النار كل متكبر مستكبر جوّاظ »، وقال أبو هريرة: قال ﷺ: « إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن

المعاصي ملتزم الخشوع والخضوع بقلبه وقالبه (**مستضعف**) بفتح العين كما في التنقيح عن ابن الجوزي قال: وغلط من كسرها، فإن المراد أن الناس يستضعفونه ويحتقرونه، وفي علوم الحديث للحاكم أن ابن خزيمة سئل عن الضعيف فقال: الذي يبرىء نفسه من الحول والقوة في اليوم عشرين مرة إلى خمسين (**وأهل النار كل مستكبر**) أي صاحب كبر، والكبر تعظيم المرء نفسه واحتقار غيره والأنفة من مساواته (**جواظ** ») بالتشديد هو الجموع المنوع، وقيل هو الكثير اللحم المختال في مشيته.

قال الشيخ الأكبر في كلامه على الأولين: إنما نالوا هذه المرتبة عند الله لأنهم صانوا قلوبهم عن أن يدخلها غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله فليس لهم جلوس إلا مع الله ولا حديث إلا مع الله، فهم بالله قائمون وفي الله ناظرون، وإليه راحلون ومنقلبون، وعنه ناطقون، ومنه آخذون، وعليه متوكلون، وعنده قاطنون فمالهم معروف سواه ولا مشهود إلا إياه. صانوا نفوسهم عن نفوسهم فلا تعرفهم نفوسهم فهم في غيابات الغيب المحجوبون وهم ضنائن الحق المستخلصون، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق مشي ستر كله حجاب، فهذه حالة هذه الطائفة.

قال العراقي: متفق عليه من حديث حارثة بن وهب اهـ.

قلت: لفظها « ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرّه ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جعظري جواظ مستكبر » وهكذا رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والطبراني من حديث معبد بن خالد، عن حارثة بن وهب الخزاعي، والمستورد بن شداد الفهري معاً. ورواه الطبراني أيضاً، والضياء في المختارة، عن معبد بن خالد، عن ابن عبدالله الجدلي عن زيد بن ثابت وروى الطبراني من حديث معاذ بلفظ: « ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة: كل ضعيف مستضعف وذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبَرّه » وروى أحمد من حديث حذيفة بلفظ: « ألا أخبركم بشر عباد الله: الفظ المستكبر. ألا أخبركم بخير عبادالله: الضعيف المستضعف وذي الطمرين لو أقسم على الله لأبر قسمه ». وروى الطبراني من حديث أبي الدرداء: « ألا أخبرك يا أبا الدرداء بأهل النار كل جعظري جوّاظ مستكبر جماع منوع. ألا أخبرك بأهل الجنة كل مسكين لو أقسم على الله لأبَرّه ». وروى ابن قانع والحاكم من حديث سراقة بن مالك « أهل النار كل جعظري جوّاظ مستكبر وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون ». وروى الشيرازي في الألقاب والديلمي من حديث أبي عامر الأشعري « أهل النار كل شديد قبعثري وأهل الجنة كل ضعيف مزهد ».

(وقال أبو هريرة) رضي الله عنه: **(قال ﷺ: « إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم**

لهم وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتخلخل في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم » ، وقال ﷺ : « إن من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه إياه ولو سأله درهماً لم يعطه إياه ولو سأله فلساً لم يعطه إياه ، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاه إياها ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، وما منعها إياه إلا لهوانها عليه ، رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » ، وروي أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال : ما يبكيك ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح

ينكحوا وإذا قالوا لم ينصت لهم حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم ») بيض له العراقي .

(وقال ﷺ : « إن من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه إياه ولو سأله درهماً لم يعطه إياه ولو سأله فلساً لم يعطه إياه ، ولو سأل الله تعالى الجنة أعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، وما منعه الدنيا لهوان عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبّره ») قال العراقي : رواه الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح دون قوله : ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها وما منعه إياها لهوانه عليه وروي مرسلاً اهـ .

قلت : هو من مرسل سالم بن أبي الجعد رواه هناد في الزهد ، ولفظه : « إن من أمتي من لو أتى باب أحدكم فسأله ديناراً لم يعطه إياه ولو سأله درهماً لم يعطه إياه ولو سأله فلساً لم يعطه إياه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاها إياه ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، وما يمنعها إياه لهوانه عليه ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله تعالى لأبّره » .

ورواه ابن صصري في أماليه بلفظ : « إن من أمتي من لو جاء أحدهم إلى أحدكم فسأله ديناراً أو درهماً ما أعطاه ولو سأل الله الجنة لأعطاها إياه ، ولو أقسم على الله لأبره ولو سأله شيئاً من الدنيا ما أعطاه تكرمة له » .

ورواه الحرث بن أبي أسامة مرفوعاً من حديث ابن عباس بلفظ : « إن من أمتي لمن لو قام على باب أحدكم فسأله ديناراً ما أعطاه أو درهماً ما أعطاه أو فلساً ما أعطاه ، ولو سأل الله الدنيا ما أعطاه ، وما يمنعه إلا لكرامته عليه ، ولو سأله الجنة لأعطاه ولو يقسم على الله لأبرّه » .

وروي أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد ، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال) له عمر **(ما يبكيك)** يا معاذ ؟ **(فقال)** معاذ : **(سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفقدوا وإذا**

الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة »، وقال محمد بن سويد: قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له لازم لمسجد النبي ﷺ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان، فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال: يا رب أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة! فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق، فقال: يا رب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم، فسكن، وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله، ثم بكر عليه فخرج إليه فقال إني أتيتك في حاجة! فقال ما هي؟ قال تخصني بدعوة، قال: سبحان الله! أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة؟ ثم قال ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني. وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى

**حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة ») قال العراقي: رواه الطبراني والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد.

قلت: بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقي متروك اهـ.

قلت: لفظها بعد قوله شرك: « وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وأن الله يحب الأبرار الأصفياء الأتقياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » وعيسى بن عبد الرحمن الزرقي يكنى أبا عبادة يروي عن الزهري قال النسائي وغيره متروك، وروى أبو نعيم في الحلية من حديث ثوبان: « طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء ».

(وقال محمد بن سويد) بن كلثوم الفهري صدوق مات بعد المائة روى له النسائي: **(قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له)** أي خامل لا يذكر ولا يعرف **(لازم لمسجد رسول الله ﷺ، فبينما هم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طمران)** أي ثوبان **(خلقان، فصلى ركعتين فأوجز فيهما ثم بسط يديه)** إلى السماء **(فقال: يا رب أقسمت عليك ألا أمطرت علينا الساعة، فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام)** وفي بعض النسخ: حتى تغيمت السماء بالغيم **(وأمطروا)** وفي نسخة: وأمطرت **(حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق فقال: يا رب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم فسكن)** المطر، **(وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ثم بكر إليه فخرج إليه، فقال: إني اتيتك في حاجة. فقال: ما هي؟ قال: تخصني بدعوة. قال: سبحان الله أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة قال: ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني وسألت الله فأعطاني)** وهذا وأمثاله يجري لذوي الأنس مع الله وليس لغيرهم التشبه بهم. قال الحسن: احترقت أخصاص بالبصرة إلا خصاً بوسطها فقيل لصاحبه: ما بال خصك لم يحترق قال: أقسمت

أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض. وقال أبو أسامة: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إن أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع ثم تصبر على ذلك» قال: ثم نقر رسول الله ﷺ بيده فقال: «عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه»، وقال عبدالله بن عمر رضي

على ربي أن لا يحرقه. ورأى أبو حفص رجلاً مدهوشاً فقال: مالك؟ قال: ضل حماري ولا أملك غيره، فوقف أبو حفص وقال: لا أخطو خطوة ما لم ترد حماره فظهر حماره فوراً وقال الجنيد: أهل الأنس بالله يقولون في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال الشعراوي في المتن: من الأخفياء الشعث من يجاب دعاؤه كلما دعا حتى أن بعضهم أراد جماع زوجته، فقالت: الأولاد متيقظون. فقال: أماتهم الله وكانوا سبعة فصلوا عليهم بكرة النهار، فبلغ البرهان المتبولي فأحضره فقال: أماتك الله فمات حالاً. وقال: لو بقي لأمات خلقاً كثيراً.

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه يوصي أصحابه: **(كونوا ينابيع العلم)** أي بمنزلة الينابيع التي تخرج منها المياه ولا تنقطع فتكون بواطنكم معمورة بالعلم كعمارة الينابيع بالمياه، **(مصابيح الهدى)** تضيؤن الناس بالهدى كما يستضاء بالمصابيح، **(أحلاس البيوت)** أي لازمين بيوتكم لزوم الحلس وهو بالكسر الحصير الذي يفرش تحت الفرش، **(سرج الليل)** أي تحيون ليلكم بالعبادة وتنورونه كما يتنور بالسرج، **(جرد القلوب)** أي مجردين قلوبكم عن غير الله تعالى فلا يخطر فيها ما يشغل عنه تعالى، وقد تقدم الخبر القلوب ثلاثة وذكر فيه قلب أجرد وهو قلب المؤمن وفي بعض النسخ: جدد القلوب وهو المناسب لقوله، **(خلقان الثياب)** أي رثاثها **(تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض)** والمراد بأهل السماء الملأ الأعلى

(وقال أبو أمامة) الباهلي رضي الله عنه **(قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إن اغبط أوليائي رجل مؤمن خفيف الحاذ)** أي قليل المال خفيف الظهر من العيال **(ذو حظ من صلاة)** أي ذو راحة في مناجاة الله منها واستغراق في المشاهدة **(أحسن عبادة ربه)** تعميم بعد تخصيص والمراد إجادتها على الإخلاص، فقوله: **(وأطاعه في السر)** عطف تفسيري على أحسن **(وكان غامضاً في الناس)** أي مغموراً غير مشهور فيهم **(لا يشار إليه)** أي لا يشير الناس إليه **(بالأصابع)** بيان وتقرير لمعنى الغموض **(ثم صبر على ذلك»)** بين أن ملاك ذلك كله الصبر وبه يقوى على الطاعة. قال الله تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ **(قال: ثم نقر رسول الله ﷺ بيده فقال: «عجلت منيته)** أي أسرع هلاكه لقلة تعلقه بالدنيا وكثرة شغفه بالآخرة **(وقل تراثه)** لأنه لم يتعلق بالمال فيخلفه بعده فيكون ميراثاً **(وقلت بواكيه»)** لقلة عياله وهوانه على الناس وعدم احتفالهم به، **فهؤلاء** هم الرجال الذين حلوا من الولاية **أقصى** درجاتها **قد**

الله عنها: أحب عباد الله إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام. وقال الفضيل بن عياض: بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده، ألم أنعم عليك ألم أسترك؟ ألم أخمل ذكرك! وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك واجعلني عند الناس من أوسط خلقك، وقال الثوري: وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء. وقال ابراهيم بن أدهم: ما قرت عيني

صانهم الله وحبسهم في خيام صون الغيرة وليس في وسع الخلق أن يقوموا بما لهذه الطائفة من الحق عليهم لعلو منصبهم. قال العراقي: رواه الترمذي، وابن ماجه بإسنادين ضعيفين انتهى.

قلت: ولفظها: «إن اغبط أوليائي عندي المؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة والصيام، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك، عجلت منيته وقلت بواكيه وقل تراثه». وهكذا رواه الطيالسي، وأحمد والطبراني، وصاحب الحلية والحاكم، والبيهقي، وهو من رواية عبد الله بن زحر عن علي بن يزيد، عن القاسم عن أبي أمامة وهم ضعفاء. وقال الذهبي عقب تصحيح الحاكم له: لا بل هو إلى الضعف مائل. وقال ابن الجوزي حديث لا يصح رواته ما بين مجاهيل وضعفاء، ولا يبعد أن يكون معمولهم وقال ابن القطان: وأخطأ من عزاه لأبي هريرة.

وأخرج مسلم في صحيحه أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهو في غنم له خارجاً من المدينة فلما رآه سعد قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت أرضيت أن تكون إعرابياً في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة فضرب سعد صدره وقال: اسكت سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «إن أغيظ أوليائي عندي» وساقه كسياق المصنف.

(وقال عبدالله بن عمر) رضي الله عنهما: **(أحب عباد الله إلى الله الغرباء قيل: ومن الغرباء قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم عليه السلام)** وروى أحمد من حديث عبدالله بن عمرو: طوى للغرباء أناس صالحون في أناس سوء من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم، وفي رواية له: الغرباء ناس قليلون صالحون. وفي سنده ابن لهيعة.

(وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالى: **(بلغني أن الله عز وجل يقول في بعض ما يمن به على عبده: ألم أنعم عليك ألم أسترك ألم أخمل ذكرك)**؟ أخرجه أبو نعيم في الحلية. **(وكان الخليل بن أحمد)** الفراهيدي إمام النحو **(يقول)** في دعائه: **(اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك)** نقله صاحب القوت. **(وقال)** سفيان **(الثوري)** رحمه الله تعالى: **(وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء)** أخرجه أبو نعيم في الحلية. **(وقال إبراهيم**

يوماً في الدنيا قط إلا مرة بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن، فجرني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد. وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا تعرف وما عليك أن لا يثني عليك وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى؟ فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول. وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحب الجاه هو منشأ كل فساد.

فإن قلت: فأي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء! فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم. نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوي فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك.

بن أدهم) رحمه الله تعالى: **(ما قرت عيني يوماً في الدنيا قط إلا مرة واحدة بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن)** أي داء الذرب، **(فجاء المؤذن وجرني برجلي حتى أخرجني من المسجد)** أخرجه أبو نعيم في الحلية، ولفظ القشيري في الرسالة: وقال إبراهيم بن أدهم ما سررت في إسلامي إلا ثلاث مرات فذكر الأول، ثم قال: والأخرى كنت عليلاً في مسجد فدخل المؤذن وقال: أخرج فلم أطق أخذ برجلي وجرني إلى خارج المسجد، ثم ذكر الثالثة.

(وقال الفضيل بن عياض) رحمه الله تعالى **(إن قدرت على أن لا تعرف فافعل، وما عليك أن لا يثني عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله)**؟ أخرجه أبو نعيم في الحلية. **(فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول، وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب وحب الجاه هو منشأ كل فساد)**.

(فإن قلت: فأي شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء) المشهورين، **(فكيف فاتتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم)** هو **(طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد)** بان يحتال على تحصيلها على أي وجه كانت، **(فليس بمذموم. نعم فيها فتنة على الضعفاء)** منهم **(دون الأقوياء وهو كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقى، فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم، فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوي)** السابح النحرير **(فالأولى به أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا فينجيهم)** وينجي نفسه **(ويثاب على ذلك)**.

بيان ذم حب الجاه:

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخرةُ نجعلُهَا للذِينَ لاَ يُرِيدُونَ علوًّا في الأرضِ ولاَ فساداً﴾ [القصص: ٨٣] جمع بين إرادة الفساد والعلوّ، وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً. وقال عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحيَاةَ الدُّنْيَا وزينتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إلاَّ النَّارُ وَحَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦] وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها. وقال رسول الله ﷺ: « حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل »، وقال ﷺ: « ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأسرع إفساداً من حب الشرف والمال في

بيان ذم حب الجاه:

(قال الله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ جمع بين إرادة الفساد والعلو، وبين أن الدار الآخرة) إنما جعلت **(للخالي عن الإرادتين جميعاً)** وإرادة العلو في الأرض هو حب الجاه الذي هو ملك قلوب الناس واستعبادهم والترفع عليهم، ثم قال ﴿والعاقبة للمتقين﴾ أي حسن العاقبة لهم، ودل ذلك على أن حب الجاه والفساد مجانب للتقوى **(وقال تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون)** أي لا ينقص حظهم فيها **(أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه والمال فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها)** كما سيأتي بيانه في الذي يليه.

(وقال ﷺ: « حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ») قال العراقي: لم أجده هكذا وقد تقدم.

قلت: والذي ورد من حديث ابن مسعود: « الغناء واللهو ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب » رواه الديلمي ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة بلفظ: « حب الغناء ينبت النفاق في القلب » الخ وقد تقدم الكلام عليه في كتاب السماع.

(وقال ﷺ: « ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب الشرف والمال في دين المرء المسلم ») رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح والدارمي، والطبراني في الكبير من حديث كعب بن مالك بلفظ: « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه ». ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عاصم بن عدي قال: اشتريت مائة سهم من سهام خيبر فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: « ما ذئبان عاديان ظلا في غنم أضاعها ربها من

دين الرجل المسلم »، وقال ﷺ لعلي كرّم الله وجهه: « إنما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء »، نسأل الله العفو والعافية بمنّه وكرمه.

بيان معنى الجاه وحقيقته:

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا. ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها. وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليها ليتوصل بها إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن

طلب المسلم المال والشرف لدينه ». ورواه الطبراني في الصغير والضياء من حديث اسامة بن زيد بلفظ: « ما ذئبان ضاريان باتا في حظيرة فيها غنم يفترسان ويأكلان بأسرع فساداً من طلب المال والشرف ». ورواه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس بلفظ: « ما ذئبان ضاريان باتا في غنم بأفسد لها من حب ابن آدم الشرف والمال ». ورواه هناد في الزهد من حديث أبي جعفر مرسلاً بلفظ: ما ذئبان جائعان ضاريان في غنم قد أغفلها رعاؤها وتخلفوا عنها أحدهما في أولاها والآخر في أخراها بأسرع فيها فساداً من طلب المال والشرف في دين المرء المسلم ». ورواه البزار بسند حسن، وابن عساكر من حديث ابن عمر بلفظ: « ما ذئبان ضاريان في حظيرة وثيقة يأكلان ويفترسان بأسرع فيها من حب الشرف وحب المال في دين المسلم » وقد تقدم الكلام على هذا الحديث مختصراً.

(وقال ﷺ: « إنما هلاك الناس بإتباع الهوى وحب الثناء ») قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم في العلم من حديث أنس: « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع » الحديث، وللديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس « حب الثناء من الناس يعمي ويصم » انتهى.

قلت: وتمام حديث أنس: « وإعجاب المرء برأيه » هكذا رواه البزار، ورواه العسكري بلفظ: « وإعجاب المرء بنفسه » وزاد البيهقي « من الخيلاء ».

بيان معنى الجاه وحقيقته:

(اعلم) وفقك الله تعالى (أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا) وعليهما قيامها ومدارها. (ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها. وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير أي يقدر عليها) ويتمكن منها (ليتوصل بها إلى الأغراض والمقاصد) أي إلى تحصيلها لنفسه، (و) كذا (قضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس) من الأمور الدنيوية، فإن التوصل إليها متوقف على القدرة على الدراهم والدنانير، (فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس أي يقدر على أن يتصرف فيها

يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه. وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات، ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده، وليس يشترط أن يكون الوصف كمالاً في نفسه بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً، ويذعن قلبه للموصوف به انقياداً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال للقلب. وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الاحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم، بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم، لأن المالك يملك العبد قهراً والعبد متأب بطبعه، ولو خلي ورأيه أنسل عن الطاعة، وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً وينبغي أن تكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع، مع الفرح بالعبودية والطاعة له، فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير، فإذاً معنى الجاه: قيام المنزلة في قلوب الناس أي اعتقاد القلوب

ليستعمل بواسطتها أربابها في) قضاء **(أغراضه و)** حصول **(مآربه، وكما أنه يكتسب المال بأنواع من الحرف والصناعات. فكذلك تكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات)** فهي جارية مجرى الحرف والصناعات، **(ولا تصير القلوب مسخرة)** أي منقادة **(إلا بالمعارف والاعتقادات، فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاده وبحسب درجة ذلك الكمال عنده)** فكلما قوي الكمال قوى الاعتقاد فقوي الانقياد، **(وليس يشترط أن يكون الوصف)** القائم بذلك الشخص **(كمالاً في نفسه)** أي ذاته، **(بل يكفي أن يكون الوصف كمالاً عنده وفي اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كمالاً ويذعن قلبه للموصوف به قياماً ضرورياً بحسب اعتقاده، فإن انقياد القلب حال للقلب وأحوال القلب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها)**، فما اعتقده القلب أو تخيله كما لا لزمه الانقياد لا محالة هب أن ذلك الكمال نقص في نفسه أو بالنسبة للغير إذا الوصف الواحد قد يتصف بالكمال والنقص بالنسبة إلى الأشخاص، **(وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم)** واستمالتهم، **(بل الرق الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم)** من رق المال **(إلا أن المالك يملك العبد قهراً)** عن نفسه **(والعبد متأب)** أي ممتنع **(بطبعه)** لا يريد استرقاقه، **(ولو خلي)** أي ترك ورأيه **(انسل من الطاعة)** وخرج عنها. **(وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعاً ويبغي)** أي يطلب **(أن تكون الأحرار له عبيداً بالطبع والطوع)** من غير قهر والجاه. **(مع الفرح بالعبودية والطاعة له فما يطلبه)** هو **(فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير، فإذاً معنى**

لنعت من نعوت الكمال فيه، فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه. فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والإطراء، فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده، فيثني عليه، وكالخدمة والإعانة فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد في أغراضه، وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلب، ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوّة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله في القلوب فتكون سبباً لقيام الجاه، والله تعالى أعلم.

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة:

اعلم أن السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً هو

الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس أي اعتقاد القلوب لنعت من النعوت الكمال فيه فيقدر ما يعتقد من كماله تذعن له قلوبهم، وبقدر اذعان القلوب تكون قدرته على القلوب، وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه. فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والاطراء) وهو المبالغة في المدح، **(فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فيثني عليه)** ويبالغ، **(وكالخدمة)** بين يديه **(والإعانة)** من مهماته الضرورية، **(فإنه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبيد في أغراضه)** بل أكثر. **(وكالإيثار)** بأن يؤثره على نفسه وعلى غيره **(وترك المنازعة)** له في الأمور **(والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام)** والمثول بين يديه حتى يشير له بالجلوس **(وتسليم الصدر)** وهو أرفع المواضع **(في المحافل)** العامة والخاصة **(والتقديم في جميع المقاصد، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه في القلوب، ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أو بعبادة)** أو بهما جميعاً وهو أقوى **(أو حسن خلق)** في العشرة **(أو نسب)** كأن يكون اتصال بالبضعة الطاهرة **(أو ولاية)** وهي الصلاح المعنوي **(أو جمال في صورة)** ظاهرة **(أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً)** عندهم، **(فإن هذه الأوصاف)** كلها بمجموعها وإفرادها **(تعظم محله في القلوب فيكون سبباً لقيام الجاه)**.

بيان سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة:

(اعلم) أرشدك الله تعالى **(أن السبب الذي يقتضي كون الذهب والفضة وسائر أنواع**

بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً، بل يقتضي أن يكون أحب من المال، كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانهما إذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس، وإنما هي والحصباء بمثابة واحدة، ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه، فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض، فالإشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال، ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأوّل: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى

المال محبوباً هو بعينه يقتضي كون الجاه محبوباً، بل يقتضي أن يكون أحب من المال كما يقتضي أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا في المقدار، وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض في أعيانهما) أي ذواتهما **(إذ لا تصلح)** أبداً **(لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس، وإنما هي والحصى)** المرمى في الطرق **(بمثابة واحدة)** أي بمنزلة واحدة، **(ولكنها محبوبة لأنها وسيلة إلى جميع المحاب وذريعة إلى قضاء الشهوات، فكذلك الجاه لأن معنى الجاه ملك القلوب، وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه)** ومهماته، **(فكذلك ملك قلوب الأحرار** والقدرة على استسخارها يفيد **قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض. فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال، ولمالك القلوب ترجيح على مالك المال من ثلاثة أوجه)** .

(الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر) وأسهل **(من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب)** وصار معتقداً **(لو قصد اكتساب المال يتيسر له)** بأهون سبب، **(فإن أحوال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة)** أي مصروفة **(لمن اعتقدت فيه الكمال. وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا)** كثر ماله باكتساب أو إرث أو **(وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى**

الجاه لم يتيسر له، فإذا الجاه آلة ووسيلة إلى المال، فمن ملك الجاه فقد ملك المال، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال، فلذلك صار الجاه أحب.

الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظة والحراس والخزائن، ويتطرق إليه أخطار كثيرة، وأما القلوب إذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة، لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والغصاب، وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ، وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها، وذو الجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها. نعم إنما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاولة فعله.

الثالث: أن ملك القلوب يسري وينمي ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة

الجاه لم يتيسر له، فإذا الجاه آلة ووسيلة للمال، فمن ملك الجاه فقد ملك المال، ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال، فلذلك صار الجاه أحب) ولذلك أوصى الحكماء باتخاذ الجاه دون المال.

(الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق) وينتهب **(ويغصب)** ويختلس **(ويطمع فيه الملوك والظلمة)** المتسلطون، **(وتحتاج فيه إلى الحفظة والحراس)** يحفظونه ويحرسونه من السراق **(و)** يحتاج فيه أيضاً إلى **(الخزائن)** والصناديق، **(وتتطرق إليه أخطار كثيرة)** ومصائب جمة **(وأما القلوب إذا ملكت لم تتعرض لهذه الآفات، فهي على التحقيق خزائن عتيدة)** محفوظة **(لا يقدر عليها السراق ولا يتناولها أيدي الغصاب)** والظلمة الجائرين، **(وأثبت الأموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم)** كما هو مشاهد **(ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ، وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها)** لا تحتاج إلى المراقبة، **(وذو الجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها. نعم إنما تغصب القلوب بالتصريف)** أي بالأفساد **(وتقبيح الحال وتغيير الإعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال، وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاولة فعله.**

(الثالث: أن ملك القلوب يسري وينمو ويتزايد من غير حاجة إلى تعب) ومشقة **(ومقاساة)** أهوال، **(فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقد كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الألسنة لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له)**

لا محالة بما فيها، فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضاً له، ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر، لأن ذلك إذا استطار في الأقطار اقتنص القلوب ودعاها إلى الاذعان والتعظيم، فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له فرد معين، وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة، والجاه أبداً في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف. ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء استحقرت الأموال في مقابلته، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال. وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح.

فإن قلت: فالإشكال قائم في المال والجاه جميعاً فلا ينبغي أن يحب الإنسان المال والجاه. نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلي بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه، فحبسه للمال والجاه معلوم، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الأموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً، وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى

وهذا معنى السريان، (**ولهذا المعنى يحب الطبع والصيت**) والشهرة (**وانتشار الذكر، لأن ذلك إذا استطار في الأقطار**) وانتشر في الآفاق (**اقتنص القلوب ودعاها إلى الاذعان والتعظيم، فلا يزال يسري من واحد إلى واحد ويتزايد وليس له فرد معين**) يقف عليه، (**وأما المال فمن ملك منه شيئاً فهو مالكه فقط ولا يقدر على استنمائه**) أي ازدياده (**إلا بتعب**) شديد (**ومقاساة**) خطوب، (**والجاه أبداً في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف، ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء**) والذكر الجميل (**استحقرت الأموال في مقابلته، فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال، وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح**).

(**فإن قلت: فالإشكال قائم في الجاه والمال جميعاً فلا ينبغي أن يحب الانسان المال والجاه: نعم القدر الذي يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم، كالمحتاج إلى المطعم والملبس والمسكن**) فهذا القدر لا يستغنى عنه (**أو كالمبتلي بمرض أو بعقوبة إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة من نفسه إلاّ بمال أو جاه، فحبه للمال والجاه معلوم، إذ كل ما لا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب، وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع المال وكثرة الكنوز**) ودفن الدفائن (**وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جمع الحاجات، حتى لو كان له واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً**) كما ورد ذلك في الخبر وتقدم

أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه، ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع، ويكاد يظن أن ذلك جهل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة؟ فنقول: نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب. وله سببان؟ أحدهما: جليّ تدركه الكافة. والآخر: خفيّ وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن إفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء، وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغوّاصون.

فأما السبب الأوّل! فهو دفع ألم الخوف، لأن الشفيق بسوء الظن مولع، والإنسان وإن كان مكفياً في الحال فإنه طويل الأمل ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة، فهو أبداً لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدر طول الحياة؛ ويقدر هجوم الحاجات؛ ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة

ذكره قريباً. (**وكذلك يحب الانسان اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى أقاصي البلاد التي يعلم قطعاً أنه قط لا يطؤها**) ولا يراها (**ولا يشاهد أصحابها، ليعظموه أو ليبروه بمالهم أو ليعينوه على غرض من أغراضه، ومع اليأس من ذلك، فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع**) مركوز فيه، (**ويكاد يظن أن ذلك جهل فإنه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة؟ فنقول: نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب وله سببان: أحدهما:** جلي) ظاهر (**يدركه الكافة**) من الناس، (**والآخر خفي وهو أعظم السببين، ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء**) النجباء، (**فضلاً عن الأغبياء**) البلداء، (**وذلك لاستمداده من عرق خفي**) دساس (**في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليها إلا الغوّاصون**) في بحار الحقائق.

(**فأما السبب الأول**) الجلي: (**فهو دفع ألم الخوف لأن الشفيق**) على نفسه أي الخائف (**بسوء الظن مولع**) أي أبداً يسيء ظنه، (**والانسان وإن كان مكفياً في الحال**) عنده ما يكفيه (**فإنه طويل الامل ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف من قلبه إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة**) أي آفة، (**فهو أبداً لشفقته على نفسه**) أي خوفها عليها (**وحبه للحياة يقدر طول الحياة، ويقدر هجوم الحاجات**) أي طروقها فجأة، (**ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال، ويستشعر الخوف**

المال، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر، وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا ولذلك قال رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال»، ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأباعد عن وطنه وبلده، فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم؛ ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن إحتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

وأما السبب الثاني وهو الأقوى: أن الروح أمر رباني، به وصفه الله تعالى إذ قال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الروح قُل الروحَ مِنْ أمرِ رَبِي﴾ [الاسراء: ٨٥] ومعنى كونه ربانياً أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في إظهاره إذ لم يظهره رسول الله

من ذلك فيطلب ما يدفع به خوفه وهو كثرة المال، حتى إذا أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر، وهذا خوف لا موقف له عند مقدار مخصوص من المال، ولذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك قال ﷺ «منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال») رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف. ورواه البزار والطبراني في الاوسط من حديث ابن عباس وقد تقدم. وقد روي هذا الكلام أيضاً لعلي رضي الله عنه ذكره صاحب نهج البلاغة. (**ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الأبَاعِدْ** عن وطنه وبلده، **فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه**) أي يقلقه (**عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم، ومهما كان ذلك ممكناً ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً إحالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الأمن من هذا الخوف**).

(**وأما السبب الثاني**) الخفي: (**وهوالأقوى، أن الروح أمر رباني به وصفه الله تعالى إذ قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ ومعنى كونه ربانياً أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في اظهاره إذ لم يظهره رسول الله ﷺ**) كما رواه البخاري من حديث ابن مسعود، وقد تقدم. وحيث أمسك ﷺ عن الاخبار عن الروح أو ماهيته بإذن الله تعالى ووحيه، وهو ﷺ معدن العلم وينبوع الحكمة كيف يسوغ لغيره فيه والإشارة لا جرم لما تقاضت النفس الانسانية المتطلعة إلى الفضول المتشرفة إلى المعقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمرت فيه بالسكوت والمثورة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه تاهت في التيه وتنوّعت آراؤها فيه. ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ولو لزمت

ﷺ ، ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء ، وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء ، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع ، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية فصار محبوباً بالطبع للإنسان ، والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة ، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا في حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية ، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به ، فلم يكن موجوداً معه لأن المعية توجب المساواة في الرتبة ، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال ، بل الكامل من لا نظير له في رتبته . وكما أن اشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء

النفوس حدّها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى ، **(ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع)** فإن من شأن البهائم كذلك **(وإلى صفات سبعية كالقتل والضرب والإيذاء)** فإن من شأن السباع كذلك ، **(وإلى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء)** فإن من شأن الشياطين كذلك ، **(وإلى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر)** والقهر **(وطلب الاستعلاء ، وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة)** من ماء وطين لآزِبٍ وصلصال وفخار **(يطول شرح تفصيلها ، فهو لما)** نفخ **(فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع ، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال ، فصار الكمال من نعوت الإلهية وصار محبوباً بالطبع)** لا ينفك ، **(والكمال في التفرد بالوجود فإن المشاركة في الوجود نقص لا محالة ، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها فلو كان معها شمس أخرى كان ذلك نقصاناً في حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية ، والمنفرد بالوجود هو الله تعالى إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته ، بل هو قائم به)** ، إذ هو واجب الوجود لذاته وما سواه ممكن الوجود والوجود عارض له ، **(فلم يكن موجوداً معه لأن المعية توجب المساواة في الرتبة ، والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال ، بل الكمال ممن لا نظير له)** وفي بعض النسخ والكامل من لا نظير له **(في رتبته . وكما أن اشراق نور الشمس في اقطار الآفاق)** وجوانبها **(ليس نقصاناً في الشمس بل هو من جملة كمالها)** إذ هو راجع إليه ، **(وإنما نقصان الشمس**

عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع إلى اشراق أنوار القدرة فيكون تابعاً ولا يكون متبعاً فإذاً معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال، وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من إنسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿أَنَا رَبّكُم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] ولكنه ليس يجد له مجالاً وهو كما قال، فإن العبودية قهر على النفس. والربوبية محبوبة بالطبع، وذلك للنسبة الربانية التي أومأ إليها بقوله تعالى: ﴿قُلْ الرُوحْ منْ أمر ربي﴾ ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهي محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته، ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته. وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات، فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فإن لم يكن منك فإن تكون مستولياً عليه، فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع، لأنه نوع كمال. وكل موجود يعرف ذاته فإنه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به، إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغييره بحسب

بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء، فكذلك كل ما في العالم يرجع إلى اشراق أنوار القدرة) الباهرة (**فيكون تابعاً ولا يكون متبعاً، فإذاً معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال، وكل انسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المتفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من انسان إلا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله: ﴿انا ربكم الأعلى﴾**(**ولكنه ليس يجد له مجالاً**) وربما يستأنس لهذا القول بما رواه ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث جابر: الجبروت في القلب وما اشتهر على الألسنة من كلامهم الظلم كمين في النفس العجز يخفيه والقدرة تبديه، (**وهو كما قال، فإن العبودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع، وذلك للنسبة الربانية التي أومأ**) أي أشار (**إليها قوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال، فهي محبة للكمال**) أبداً (**ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، فكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته، ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته، وإنما الكلام بعد أن يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء**) والغلبة (**على كل الموجودات، فإن أكمل الكمال**) إلى غاية درجاته (**أن يكون وجود غيرك منك فإن لم يكن منك فإن تكون مستولياً عليه، فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع، لأنه نوع كمال**) بالإضافة إلى الأول. (**وكل موجود يعرف ذاته فإنه يحب ذاته ويحب كمال ذاته، ويلتذ بها، إلا ان الاستيلاء على الشيء يكون بالقدرة على التأثير فيه، وعلى تغيره بحسب**

الإرادة وكونه مسخراً لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته ، وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولي عليه قدرة الخلق ، كالأفلاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين ، وكالجبال والبحار . وما تحت الجبال والبحار . وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس ، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات .

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات ، أحب الإنسان أن يستولي على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على أسرارها ، فإن ذلك نوع استيلاء ؛ إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم والعالم كالمستولي عليه ، فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب . وجميع عجائب السموات ، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كمال . وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ، كمن يعجز عن وضع

الإرادة وكونه مسخراً لك) أي مذللاً منقاداً **(تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له الاستيلاء على الاشياء الموجودة معه : إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغير في نفسه)** أي ذاته **(كذات الله تعالى وصفاته)** فإنها لا تقبل تغيراً أصلاً ، **(وإلى ما يقبل التغير)** في نفسه **(ولكن لا تستولي عليه قدرة الخلق ، كالأفلاك والكواكب)** المركوزة فيها **(وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين ، وكالجبال والبحار)** فإنها قابلة للتغير ولكن لا استيلاء لقدرة الخلق على تغيرها عن هيئاتها الموجودة فيها . **(وإلى ما يقبل التغير بقدرة العبد كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان من جملتها قلوب الناس ، فإنها تقبل التأثير والتغير كأجسادهم وأجساد سائر الحيوان .**

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه كذات الله والملائكة والسموات ، أحب الانسان أن يستولي على السموات بالعلم والإحاطة والاطلاع على اسرارها ، فإن ذلك نوع استيلاء ، إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم والعالم كالمستولي عليه ، فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والأفلاك والكواكب ، وجميع عجائب السموات ، وعجائب البحار والجبال وغيرها لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كمال . وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة إلى معرفة طريق الصنعة فيها ، كمن يعجز عن وضع الشطرنج) وهي اللعبة المعروفة

الشطرنج فإنه قد يشتهي أن يعرف اللعب به وأنه كيف وضع ، وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبذة أو جر الثقيل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم إن علمه.

وأما القسم الثاني: وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها فإنه يحب بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان: أجساد وأرواح.

وأما الأجساد ؛ فهي الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادراً عليها يفعل فيها ما يشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع ، فإن ذلك قدرة والقدرة كمال. والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع ، فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه ، وكذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها لم تعتقد كماله حتى يصير محبوباً لها ويقوم القهر منزلته فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة.

فارسي معرب وأصله صدرنك أي مائة حيلة ، وواضعها صمصمة بن دامر حكيم من حكماء الهند لملك من ملوكهم ، (**فإنه قد يشتهي ان يعرف اللعب به وأنه كيف وضع**) ولماذا وضع ، (**وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة**) علم معروف وأصله أندازه ومعناه تقدير مجاري القنى (**أو الشعبذة**) وهي الحيل (**أو جر الثقيل**) وهو علم معروف من الهندسة (**أو غيره وهو مستشعر في نفسه نقص العجز والقصور عنه لكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته فهو متألم بنقص العجز وملتذ بكمال العلم إن علمه**.

وأما القسم الثاني: وهي الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها ، فإنه يحب بالطبع ان يستولي **عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان: أجساد وأرواح**.

أما الاجساد : فهي الدراهم والدنانير والأمتعة فيجب أن يكون قادراً عليها يفعل فيها ما يشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع، فإن ذلك) نوع تصرف فيها وهو (**قدرة والقدرة كمال ، والكمال من صفات الربوبية والربوبية محبوبة بالطبع، فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها في مطعمه وملبسه وفي شهوات نفسه، وكذلك طالب استرقاق العبيد واستعباد أشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوباً لها وتقوم منزلته بها ، فإن الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة**) والتمكن كيف شاء.

القسم الثاني: نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت إشارته وإرادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية. والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال، فإن كل كمال محبوب لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان، وهو الذي لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله، فإنه محل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعي إليه فإذاً معنى الجاه تسخر القلوب، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها، والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية، فإذا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه من أسباب القدرة، ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات، وما دام يبقى معلوم، أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول. ولذلك قال ﷺ: «منهومان لا يشبعان» فإذا مطلوب القلوب الكمال. والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوباً، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فإن هذه العلة قد تبقى مع

(القسم الثاني: نفوس الآدميين وقلوبهم وهي أنفس ما على وجه الأرض، فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة) جارية **(تحت إشارته وإرداته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية. والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال، فإن كل كمال محبوب)** ومرغوب إليه **(لأن الكمال من الصفات الإلهية والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الرباني من جملة معاني الإنسان، وهو الذي لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله، فإنه محل الإيمان والمعرفة وهو الواصل إلى لقاء الله عز وجل والساعي إليه، فإذاً معنى الجاه تسخر القلوب)** وتذللها وانقيادها، **(ومن تسخرت القلوب له كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية، فإذا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم، والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات، وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول، ولذلك قال ﷺ: «منهومان لا يشبعان»)** منهوم المال ومنهوم العلم وقد تقدم قريباً. **(فإذاً مطلوب القلب الكمال والكمال)** إنما يتم **(بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور، فسرور كل انسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال، فهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوباً، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط**

سقوط الشهوات، بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض، بل ربما يفوّت عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات، لأن في العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذي هو من صفات الربوبية فكان محبوباً بالطبع إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى.

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له:

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة، ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي، وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: من حيث كثرة المعلومات وسعتها، فإنه محيط بجميع المعلومات، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى.

الثاني: من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به، وكون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تاماً، فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ما هي عليه، فلذلك مهما

الشهوات، بل يحب الانسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض، بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم في جميع العجائب والمشكلات لأن في العلم استيلاء على المعلوم) وهو الإحاطة بجزئياته **(وهو نوع من الكمال الذي هو نوع من صفات الربوبية فكان محبوباً بالطبع، إلا أن في حب كمال العلم والقدرة أغاليط)** جمع أغلوطة وهي ما توقع الانسان في غلط **(فلا بدّ من بيانها إن شاء الله تعالى)**.

بيان الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له:

(قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة، لكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي، وبيانه أن كمال العلم لله تعالى، وذلك من ثلاثة أوجه).

(أحدها: من حيث كثرة المعلومات) كلياتها وجزئياتها لا ساحل لبحر معلوماته، بل تنفد البحار لو كانت مِداداً لكلمات ربي، **(فكذلك كلما كانت علوم العبد أكثر)** وأوسع كان **(أقرب إلى الله عز وجل)** أعني قرباً بالمرتبة والدرجة لا بالمكان.

(والثاني: من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به) أي على حقيقته، **(وكون المعلوم مكشوفاً به كشفاً تاماً، فإن المعلومات)** مع سعتها **(مكشوفات لله تعالى بأتم أنواع الكشف**

كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم كان أقرب إلى الله تعالى.

الثالث: من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول، فإن علم الله تعالى باق لا يتصوّر أن يتغير، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى.

والمعلومات قسمان: متغيرات وأزليات.

أما المتغيرات: فمثالها العلم بكون زيد في الدار، فإنه علم له معلوم، ولكنه يتصوّر أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان فينقلب جهلاً، فيكون نقصاناً، لا كمالاً، فكلما اعتقدت اعتقاداً موافقاً وتصوّر أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً، ويعود علمك جهلاً، ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم، كعلمك مثلاً بارتفاع جبل ومساحة أرض، وتعدد البلاد وتباعد ما

على ما هي عليها، فكذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن) بالأدلة والبراهين ثم بالكشف الإلهي **(وأصدق وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم كان أقرب إلى الله تعالى)** بالمرتبة والدرجة.

(والثالث: من حيث بقاء العلم أبد الآباد من حيث لا يتغير ولا يزول، فإن علم الله تعالى باق ولا يتصوّر) فيه **(أن يتغير ولا يزول، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب إلى الله تعالى)** بالمرتبة والدرجة، وقد عرف حظ العبد من وصف العلم في هذه الوجوه الثلاثة، ولكن يفارقه علمه علم الله تعالى في خواص ثلاثة. إحداها: في المعلومات في كثرتها فإن معلومات العبد وإن كثرت واتسعت فهي محصورة في قلبه فأنى تناسب ما لا نهاية له. والثانية: أن كشفت فلا تبلغ الغاية التي لا ممكن وراءها. والثالث: أن علم الله بالاشياء غير مستفاد بالأشياء، بل الأشياء مستفاد منه وعلم العبد بالأشياء تابع الأشياء وحاصل بها.

(والمعلومات) بأسرها **(قسمان: متغيرات وأزليات)**.

(أما المتغيرات: فمثالها العلم بكون زيد في الدار) مثلاً، **(فإنه علم له معلوم، ولكن يتصور)** في الذهن **(أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان)** أولاً، **(فينقلب جهلاً)** إذ خالف المعلوم. **(فيكون نقصاناً لا كمالاً، فكلما اعتقدت اعتقاداً موافقاً له وتصوّر أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصاً، ويعود علمك جهلاً**، ويلتحق بهذا المثال **جميع متغيرات العالم كعلمك مثلاً بارتفاع جبل من** الجبال ومساحة أرض**)** أي ذرعها، **(وتعدد البلاد وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ،**

بينها من الأميال والفراسخ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الإعصار والأمم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال إلى حال، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب.

القسم الثاني: هو المعلومات الأزلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أزلية أبدية، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ولا الجائز محالاً ولا المحال واجباً. فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله وما يجب له، وما يستحيل في صفاته، ويجوز في أفعاله، فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى، ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت، وتكون هذه المعرفة نور للعارفين بعد الموت ﴿يَسْعَى بَيْنَ أيدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يقولونَ ربَّنا أَتْمِمْ لنَا نورَنا﴾ [التحريم: ٨] أي تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي فإنه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور بذلك لنور الخفي على سبيل الاستتام، ومن ليس

وسائر ما يذكر في المسالك والممالك، وكذلك العلم باللغات التي هي اصطلاحات) ومواضعات **(تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات. فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق)** وهو الذي يشبه الفضة لكنه يترجرج يستخرج من المعادن ومن حجاراتها بالنار **(يتغير من حال إلى حال)** ولا يثبت على حالة واحدة، **(فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالاً في القلب)**.

(والقسم الثاني: هي المعلومات الأزلية وهي جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أبديه أزلية، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزاً ولا الجائز محالاً ولا المحال واجباً. وكل هذه الاقسام **داخلة في معرفة الله تعالى وما يجب له، وما يستحيل في صفاته، ويجوز في أفعاله، فالعلم بالله وبصفاته وأفعاله وحكمته)** الكائنة **(في ملكوت السموات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به)** أي بهذا العلم **(هو الكمال الحقيقي الذي يقرب من يتصف به من الله تعالى)** قرب مرتبة ودرجة، **(ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت)** أي بعد مفارقةالروح البدن، **(فتكون هذه المعرفة نوراً للعارفين بعد الموت ﴿يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ أي تكون هذه المعارف رأس مال يوصل إلى كشف ما لم ينكشف في الدنيا، كما ان من معه سراج خفي فإنه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه، فيكمل النور بذلك النور الخفي على سبيل الاستتام)** فذلك السراج الخفي هو المعرفة المشار إليها **(ومن ليس معه أصل السراج**

معه أصل السراج، فلا مطمع له في ذلك فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل ﴿ كظلماتٍ في بَحْرٍ لَجِيّ يَغْشَاهُ موجٌ مِنْ فوقهِ مَوْجٌ مِنْ فوقهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بعضُهَا فَوْقَ بعضٍ ﴾ [النور : ٤٠] فإذاً لا سعادة إلا في معرفة الله تعالى وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما، ومنها ما له منفعة في الإعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زكَّاها ﴾ [الشمس : ٩] وقال عز وجل: ﴿ والَّذِينَ جَاهَدُوا فينَا لنهدِينَّهمْ سُبلنا ﴾

فلا مطمع له في ذلك) أي في الاقتباس وزيادة الانكشاف **(فمن ليس له أصل معرفة الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور فيبقى)** في يوم القيامة، **(كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)** لشدة رسوخه بها كلما خرج من ظلمة وقع في أخرى بل: ﴿ كظلمات في بحر لجيٍّ يغشاهُ موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ والمراد بها قلوب الكفار، فإن النور يراد للهداية فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة، بل أشد من الظلمة لأن الظلمة لا تهدي إلى الباطل كما لا تهدي إلى الحق، وعقول الكفار انتكست، وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الضلال، فمثالهم هذا والبحر اللجي هو الدنيا، والموج الأول موج الشهوات، والثاني موج الصفات السبعية، والسحاب الاعتقادات الخبيثة، فكل ذلك حاجب عن معرفة الأشياء القريبة، فضلاً عن البعيدة فضلاً عن معرفة الله تعالى. **(فإذاً لا سعادة)** ولا كمال **(إلا في معرفة الله تعالى)** ولها سبيلان. أحدهما: السبيل الحقيقي وذلك مسدود إلا في حق الله تعالى، فلا يشرئب أحد بملاحظته إلا اندهش، والثاني: معرفة الأسماء والصفات وفيه تتفاوت مراتب العارفين. **(وأما عدا ذلك من المعارف فمنها ما لا فائدة له أصلاً كمعرفة الشعر وأنساب العرب)** جاهليتها وإسلامها **(وغيرهما)**. أما الشعر: فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح فلا ترتب عليه فائدة دينية، وأما الانساب: فالعلم بها علم لا ينفع وجهالة لا تضر ويتصوّر ترتب الفوائد في كل من العلمين في الدين لكن بوسائط بعيدة. **(ومنها ماله فائدة تؤدي إلى معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والاخبار)** النبوية، **(فإن معرفة لغة العرب تعين على معزفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيد تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد في استعداد النفس)** وتهيئتها **(لقبول)** أنوار **(الهداية إلى معرفة الله)** كما هي **(كما قال تعالى: ﴿ قد أفلح من زكَّاها ﴾)** أي طهرها من شوائب الشرك، **(وقال تعالى: ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾)** أي

[العنكبوت: ٦٩] فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة لله تعالى، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات، إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى، ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، فهي من تكملة معرفة الله تعالى، هذا حكم كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقاً بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال:

وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد، بل للعبد علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية، وإنما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة بإحداث الله ـ كما قررناه في كتاب الصبر والشكر، وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربع المنجيات ـ فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى فأما كمال القدرة فلا. نعم له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوّة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للإدراك،

جاهدوا أنفسهم بإماتتها عن الرذائل، لأجلنا ﴿لنهدينّهم سُبُلنا﴾ أي طريق معرفتنا بالهداية ثمرة المجاهد كما تقدم، (**فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معـرفـة الله، وإنما الكمال معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى، ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، فهي من تكملة معرفة الله تعالى**)، وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كبير شرف، وأيضاً فإن شرف كل علم بشرف معلومه، وأشرف المعلومات هو الله تعالى فلذلك كانت معرفته أشرف المعارف، ويليه هو تكملة لها هذا حكم كمال العلم ذكرناه، وإن لم يكن لائقاً بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

(**وأما القدرة، فليس فيها كمال حقيقي للعبد علم حقيقي**) بالنسبة إلى غيره من أوصاف الكمال، (**وليس له قدرة حقيقية وإنما القدرة الحقيقية لله تعالى**) وهو القادر المطلق الذي يخترع كل موجود اختراعاً ينفرد به ويستغني فيه عن معاونة غيره. وأما العبد فله قدرة على الجملة ولكنها ناقصة إذ لا تتناول إلا بعض الممكنات ولا تصلح للاختراع، (**وما يحدث من الأشياء عقيب قدرته وإرادته وحركته فهي حادثة بإحداث الله تعالى، كما ذكرناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربع المنجيات**) كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى (**فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله عز وجل فأما كمال القدرة فلا**) أي ليس كذلك. (**نعم. له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال وهي وسيلة له إلى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوّة يده للبطش وقوّة رجليه للمشي**و) قوة (**حواسه للإدراك، فإن**

فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن، وذلك إلى قدر معلوم، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله فلا خير فيه البتة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب، ومن ظن ذلك كمالاً فقد جهل، فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل، فإنّهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية.

أما العلم: فما ذكرناه من معرفة الله تعالى.

وأما الحرية: فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة. ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله

هذه القوى آلة له يتوصل بها إلى حقيقة كمال العلم) فيكون كماله بهذه الإضافة، (وقد يحتاج في استبقاء هذه القوى إلى القدرة بالمال وبالجاه للتوصل به إلى المطعم والمشرب والملبس والمسكن وذلك إلى قدر معلوم) وحد محدود، (فإن لم يستعمله في الوصول إلى معرفة الله فلا خير فيه البتة إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب) ويمحو أثرها، (ومن ظن ذلك كمالاً فقد جهل) وأخطأ طريق الصواب. (والخلق كلهم هالكون في غمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال) وقد وطنوا أنفسهم بذلك الظن. (فلما اعتقدوا ذلك أحبوه) ومالوا إليه، (ولما أحبوه طلبوه، ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته) المقربين عنده، (وهو العلم والحرية).

(أما العلم: فما ذكرناه من معرفة الله تعالى) وأنها أشرف المعلومات مطلقاً.

(وأما الحرية: فالخلاص من أسر الشهوة وغموم الدنيا) وأحزانها، (والاستيلاء عليها بالقهر تشبهاً بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، فإذا رفع أثر الغضب والشهوة عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة ومن صفات الكمال لله سبحانه استحالة التغير والتأثر عليه، فمن كان عن التأثر والتغير بالعوارض أبعد كان

تعالى أقرب وبالملائكة أشبه، ومنزلته عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورده في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان، فإن التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها، والهلاك نقص في اللذات وفي صفات الكمال.

فإذاً الكمالات ثلاثة إن عددنا (عدم التغير بالشهوات. وعدم الانقياد لها) كمالاً ككمال العلم وكمال الحرية، وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية. وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم، وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى استسخار

إلى الله أقرب وبالملائكة أشبه ومنزلته عند الله أعظم) . وبيانه: أن الموجودات كاملة وناقصة والكامل أشرف من الناقص، ومهما تفاوتت درجات الكمال واقتصر منتهى الكمال على واحد حتى لم يكن الكمال المطلق إلا له، ولم يكن للموجودات الأخر كمال مطلق، بل كانت لها كمالات متفاوتة بإضافة فأكملها أقرب لا محالة إلى الذي له الكمال المطلق، ثم أن الموجودات إما حية أو ميتة، والحي أشرف وأكمل من الميت، ودرجات الأحياء ثلاث درجات: درجة الملائكة، ودرجة الأنس، ودرجة البهائم، فأما درجة البهائم: فهي أسفل في نفس الحياة التي بها شرفها وفي إدراكها نقص. وأما درجة الملائكة: فهي أعلى الدرجات لأنهم مقدسون عن الشهوة والغضب وداعية إلى أمر أجل من ذلك وهو طلب القرب إلى الله تعالى. وأما الإنسان: فدرجة متوسطة بينهما والأغلب عليه في بداية أمره البهيمية إلى أن يشرف عليه بالآخر نور العقل المتـصرف في ملكوت السموات والأرض ويظهر فيه الرغبة في طلب الكمال فيعصي مقتضى الغضب والشهوة حتى يضعفا عن تحريكه وتسكينه، فيأخذ بذلك شبهاً من الملائكة، وكذلك إن فطم نفسه عن الجمود والخيالات وأنس بالإدراك أخذ شبهاً آخر من الملائكة، فإن خاصية الحياة الإدراك والعقل واليهما يتطرق النقص والتوسط والكمال. ومهما اقتدى بالملائكة في هاتين الخاصيتين كان أبعد من البهيمية وأقرب من الملائكة، والملك قريب من الله تعالى، والقريب من القريب قريب. **(وهذا)** أي كونه أبعد عن التغير والتأثر **(كمال ثابت سوى كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورده في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان، فإن التغير نقصان إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها، والهلاك نقص في الذات ونقص في صفات الكمال)** للذات.

(فإذاً الكمالات ثلاثة إن عددنا (عدم التغير بالشهوات) وعدم التأثر بها **(وعدم الانقياد لها)** كمالاً ككمال العلم، وكمال الحرية، ونعني به عدم العبودية للشهوات والإرادة للأسباب الدنيوية. وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم، وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب طريق القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على أعيان الأموال) بالملك والتصرف **(وعلى**

القلوب والابدان تنقطع بالموت، ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالاً فيه ووسيلة إلى القرب من الله تعالى. فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى: ﴿المالَ وَالبنُونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عِنْدَ ربِّك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾ [الكهف: ٤٦] فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالاً في النفس، والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال: ﴿إنَّمَا مثلُ الحياةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أنزلنَاهُ منَ السَّماءِ فاختلطَ بهِ نباتُ الأَرضِ﴾ [يونس: ٢٤] الآية. وقال تعالى: ﴿واضْرِبْ لَهُم مثلَ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناه مِنَ السماء﴾ إلى قوله: ﴿فأصْبَح هشيماً تذرُوه الرِّياح﴾ [الكهف: ٤٥] وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات. فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني

استسخار القلوب) بحسن الاعتقاد **(والأبدان)** بالقهر أو بالإحسان **(تنقطع بالموت، ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالاً فيه ووسيلة إلى القرب من الله تعالى. فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان)** الذين سلبوا أبصارهم **(فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال وهو الكمال الذي لا يسلم وإن سلم فلا بقاء له)** بل ينعدم قريباً، **(وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً)** ثابتاً **(لا انقطاع له، وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون)** أي لا ينظر إليهم نظر رحمة أو لا ينظر إليهم أصلاً لحقارتهم، **(وهم الذين لم يفقهوا)** وفي نسخة لم يفهموا **(قول الله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً)** وخير أملاً﴾ **(فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالاً في النفس)** تهيئها للقرب من الملأ الأعلى، **(والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثل الله تعالى حيث قال: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ الآية. وقال تعالى ﴿واضرب لهم مثل الحياةالدنيا)** كماء أنزلناه من السماء﴾ **(إلى قوله:)** ﴿فأصبح هشيماً﴾ أي يابساً متحطماً **(تذروه الرياح﴾ فكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات، فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال كمال ظني)** وهمي

لا أصل له، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل، وإليه أشار أبو الطيب بقوله:

ومن ينفق الساعات في جمع مالـه   مخافة فقر فالذي فعـل: الفقـر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقي اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك.

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم:

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال والدنيا مزرعة الآخرة فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزوّد منه للآخرة، وكما أنه لا بدّ من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس، فلا بدّ من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه، ورفيق يعينه، وأستاذ يرشده، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه

(لا أصل له، وإن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل وإليه أشار أبو الطيب) أحمد بن الحسين المتنبي **(بقوله:**

(ومن ينفق الساعات في جمع مالـه   مخافة فقر فالذي فعـل: الفقـر)

(إلا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقي) فإنه مقصود لكن بالذات، والله أعلم.

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم:

(مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمـه حكـم ملـك الأمـوال فإنه غرض من) جلة **(اغراض الحياة الدنيا، وينقطـع بـالموت كـالمال والدنيـا مـزرعـة للآخرة)** أي بمنزلة المزرعة التي يحصد منها للتزوّد للآخرة **(فكل ما خلق الله في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة، وكما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس، فلا بد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله)** لقوام بدنه **(فيجوز أن يحب الطعام)** ضرورة **(و)** كذا **(المال الذي يبتاع)** أي يشتري **(به الطعام، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه)** في حاجاته الضرورية، **(ورفيق يعينه على أموره، وسلطان يحرسه)** بمنعته **(ويدفع عنه ظلم الأشرار)** وكيد الفجار، **(فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة)** ويبعثه عليها **(ليس بمذموم، و)**

إلى الخدمة ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له في قلب استاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم، وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم، فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال، فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته، ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء، فهذا على التحقيق ليس محباً لبيت الماء فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه. وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث أنه يدفع بها فضلة. الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام، ولو كفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته، كما أنه لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به، وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبقي مستصحباً لنكاحها، فهذا هو الحب دون الأوّل، وكذلك الجاه والمال. قد يحب كل واحد منهما على هذين

كذا **(حبه لأن يكون له في قلب رفيقه المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم)** أيضاً. **(و)** يلتحق بذلك **(حبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده)** إلى طريق الحق **(وتعليمه والعناية به ليس بمذموم)** أيضاً، **(و)** كذا **(حبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه)** المتولي أمور السياسة **(ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه)** من خارج **(ليس بمذموم)** أيضاً. **(فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال فلا فرق بينهما إلا أن التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه في أعيانهما محبوبين، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له في داره بيت ماء)** وهو موضع قضاء الحاجة، **(لأنه يضطر إليه)** لا محالة **(لقضاء حاجته)** ولا يستغنى عنه، **(ويود)** أنه **(لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء، وهذا على التحقيق ليس يحب بيت الماء، فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه وتدرك التفرقة)** في ذلك. **(بمثال آخر، وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث أنه يدفع بها فضلة الشهوة)** المتحصلة من أثار الطعام، **(كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام)** وهو الكيموس، **(ولو كفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته)** ولا يحبها أصلاً، **(كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به)** أصلاً **(و)** لكنه **(قد يحب زوجته لذاتها)** لجمالها وحسن أخلاقها **(حب العشاق)** ولا يتصور في ذهنه قضاء وطر الشهوة منها، **(ولو كفي الشهوة)** من أصلها **(لبقي مستصحباً لنكاحها. فهذا الحب دون الأول، فكذلك الجاه والمال قد يحب كل واحد منهما على هذين**

الوجهين. فحبهما لأجل التوسل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم. وحبهما لا عيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة، فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي.

فإن قلت: طلبه المنزلة والجاه في قلب أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان، أو يباح إلى حد مخصوص على وجه مخصوص؟ فأقول: يطلب ذلك على ثلاثة أوجه، وجهان منها مباحان، ووجه محظور.

أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها، مثل العلم والورع والنسب، فيظهر لهم أنه علوي أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك. فهذا حرام لأنه كذب وتلبيس أما بالقول أو بالمعاملة.

الوجهين، فحبهما لأجل التوصل إلى مهات البدن) الضرورية (**غير مذموم وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورات البدن وحاجته مذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية**) من المعاصي، (**وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور**) شرعي، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة) دينية (**فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي**) قريباً ».

(**فإن قلت: طلب الجاه والمنزلة في قلوب**) كل من (**أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره**) هل هو (**مباح على الإطلاق كيفما كان، أو يباح على حد مخصوص؟ فأقول: يطلب ذلك على ثلاثة أوجه، وجهان منها مباحان، ووجه منها محظور**) .

(**أما الوجه المحظور: فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها**) أي غير متصف بها، (**مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوي**) أي من أولاد علي أو حسيني أو حسني أو فاطمي أو عباسي أو غير ذلك من الأنساب المشهورة، (**أو عالم أو ورع ولا يكون**) في نفس الأمر كذلك، فهذا حرام لأنه تلبيس وكذب إما بالقول بأن ينطق بلسانه ويصرح به، (**وإما بالمعاملة**) فيتزيا بهيئة العلماء الجارية عوائدهم بها في كل عصر وبلاد، أو بهيئة الزهاد أو يجعل على رأسه من الخضرة ما يشير للناس أنه علوي، وكذا كل من زعم فيه أنه عالم أو ورع أو علوي وهو يعرف أنه ليس كذلك فسكت على زعمه فيه فهو كالمقرّ له على ذلك، وهوأيضاً حرام بل يجب عليه أن يقول: لست بعالم لست بورع لست بعلوي.

وأما أحد المباحين؛ فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف ﷺ فيما أخبر عنه الرب تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خزائِنِ الأرضِ إني حفيظٌ عليمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً علياً، وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه.

والثاني: أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به، فهذا أيضاً مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح. وهذا ليس فيه تلبيس، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع، فإن قوله: إني ورع، تلبيس، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب.

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده، فإن ذلك رياء وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله، فكيف يكون مخلصاً، فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية، وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو في

(**وأما المباح: فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها**) لغرض صحيح، (**كقول يوسف عليه السلام**) لعزيز مصر: (**﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾**) أي ولني أمرها والأرض أرض مصر (**﴿إني حفيظ﴾**) لها عمن لا يستحقها (**﴿عليم﴾**) بوجوه التصرف فيها، (**فإنه**) عليه السلام (**طلب منزلة في قلبه بكونه حفيظاً علياً فكان محتاجاً إليه**) إذ رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة فآثر ما يعم فوائده فقال ما قال، (**وكان صادقاً فيه**) متصفاً بالحفظ والعلم، وقيل: حفيظ على ما استودعت عليهم كاتب حاسب.

(**والثاني: أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلم ولا تزول منزلته به، فهذا أيضاً مباح لأن حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح**) على نفسه كما لا يجوز على غيره، (**فهذا ليس فيه تلبيس**) على باطل، (**بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع، فإن قوله: إني ورع تلبيس**) بلا شك، (**وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاده الورع، بل يمنع العلم بالشرب**) فقط.

(**ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده**) ويراه بعين الكمال لكونه خاشعاً (**فإن ذلك رياء وهو ملبس إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله**) عز وجل (**وهو مراء بما يفعله، فكيف يكون مخلصاً**) أو خاشعاً؟ (**فطلب الجاه بهذا الطريق حرام، وكذا بكل معصية، وذلك يجري في مجرى اكتساب المال من غير فرق**) بينهما،

غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال.

بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه:

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب:

السبب الأوّل: وهو الأقوى شعور النفس بالكمال فإنا بينا أن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ، فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جلياً ظاهراً أو يكون مشكوكاً فيه، فإن كان جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة به أقل، ولكنه لا يخلو عن لذة كثنائه عليه بأنه طويل القامة أبيض اللون فإن هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليك الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال

(وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره، فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير) وتلبيس **(وخداع)** وحيل، **(فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال)** ويؤثر فيها الخداع أكثر منها في الأموال.

بيان السبب في حب المدح والثناء:

(وارتياح النفس به وميل الطباع إليه وبغضها الذم ونفرتها عنه).

(اعلم) وفقك الله تعالى **(أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب).**

(السبب الأول) منها: **(وهو الأقوى)** وفي نسخة وهو أقواها. **(شعور النفس بالكمال)** أي تشعر بأنها كاملة **(فإنا)** قد **(بينا)** آنفاً **(أن الكمال محبوب، وكل محبوب فإدراكه لذيذ. فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت طرباً وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن الوصف الذي به مدح لا يخلو إما أن يكون جلياً ظاهراً، أو يكون مشكوكاً فيه، فإن كان جلياً ظاهراً محسوساً كانت اللذة فيه أقل ولكنه لا يخلو عن لذة)** ما، **(كثنائه عليه بأنه طويل القامة)** تام القد **(أبيض اللون، فإن هذا نوع كمال، ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته، فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة، وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك فاللذة فيه أعظم وأقوى كالثناء عليه بكمال**

العلم وكمال الورع أو بالحسن المطلق، فإن الإنسان ربما يكون شاكاً في كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقناً لكونه عديم النظير في هذه الأمور إذ تطمئن نفسه إليه، فإذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته، وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فإنه في غاية اللذة، وإن صدر ممن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيراً بذلك الوصف ضعفت اللذة، وبهذه العلة يبغض الذم أيضاً ويكرهه لأنه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم، ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني: أن المدح يدل على قلب المادح مملوك للممدوح وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر، ويضعف

العلم وكمال الورع أو بالحسن المطلق، فإن الإنسان ربما يكون شاكاً في كمال حسنه وكمال علمه وورعه ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك بأن يكون مستيقناً بكونه عديم النظير في هذه الأمور) المذكورة، **(إذ تطمئن نفسه إليه، فإذا ذكره غيره أورثه ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال)** له **(فتعظم لذته)** وارتياحه، **(وإنما تعظم اللذة لهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها)** عارف بأنواعها مميز لجيدها من رديها لا يجازف في القول إلا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء استاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفهم ووفور **(الفضل في غاية اللذة)** والارتياح، **(وإن صدر ممن يجزف)** وفي نسخة يجازف **(في الكلام أو لا يكون بصيراً في ذلك الوصف ضعفت اللذة)** وقل الارتياح، **(وبهذه العلة يبغض الذم أيضاً ويكرهه لأنه يشعر بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم)** للطبع، **(ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في المدح)**.

(السبب الثاني: أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح، وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته) مطيع له في سائر أحواله، **(وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته)** ويطول باعه **(وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والأكابر)** وأرباب الأموال، **(ويضعف مهما كان المادح ممن**

مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء ، فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة ، وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم.

السبب الثالث: أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بثنائه ، وهذا مختص بثناء يقع على الملأ فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس.

السبب الرابع: أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح إما عن طوع وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة. وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به ، ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد.

فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفترق فتنقص اللذة بها أما العلة الأولى وهي استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه

لا يؤبه له) ولا يشار إليه **(ولا يقدر على شيء فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير)** ليس له قدر **(فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة، وبهذه العلة أيضاً يكره الذم ويتألم به القلب، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم لأن الفائت به أعظم) .**

(السبب الثالث: إن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قـوله ويعتد بثنائه) وتعقد عليه الخناصر ، **(وهذا مختص بثناء يقع على الملأ)** أي الجماعة من أشراف القوم ، **(فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بأن يلتفت إلى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس) .**

(السبب الرابع: أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء عليه إما عن طوع) أي من عند نفسه غير مقهور عليه **(وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به ولكن كونه مضطراً إلى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد) .**

(فهذه الأسباب الأربعة قد تجتمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ ، وقد تفترق) فلا يوجد إلا بعضها **(فتنقص اللذة بها ، فأما العلة الأولى وهي استشعار الكمال**

غير صادق في قوله، كما إذا مدح الله نسيب أو سخي أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلاً لذة لفوات الأسباب الثلاثة، فهذا ما يكشف الغطاء عن علة إلتذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم، وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة، فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض. والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى.

بيان علاج حب الجاه:

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته

فتندفع بأن يعلم الممدوح) المثنى عليه (**أنه**) أي المادح (**غير صادق**) في قوله (**في مدحه، كما إذا مدح بأنه نسيب**) أي ذو نسب عال، (**أو سخي**) أي كريم يجود بالأموال، (**أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات**) الشرعيه (**وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللـذة التي سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات فإن كان يعلم أن المادح ليس بمعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه. وبقيت لذة الاستيلاء بالحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء فإن لم يكن ذلك عن خوف**) وقهر (**بل كان بطريق اللعب والمزاح بطلت اللذات كلها فلم تكن فيها أصلاً لذة لفوات الأسباب الثلاثة**) المذكور (**فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم، وإنما ذكرناه**) بالتفصيل المتقدم (**ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة**) والثناء (**وخوف المذمة**) وكراهتها، (**فإن ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته**) ولا يتيسر، (**إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض**) وكشف ما خفي منها. والله الموفق بكرمه.

بيان علاج حب الجاه:

(**اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه مقصور الهم على مراعاة الخلق**) في أحوالهم (**مشغوفاً بالتودد إليه والمراءاة لأجلهم**) أي إظهار الرياء، (**ولا يزال في أقواله وأفعاله**

عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين وقال عليه الصلاة والسلام: إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حيدة هو خال عنها، وذلك هو عين النفاق.

فحب الجاه إذاً من المهلكات، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال، وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات، بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب.

وأعماله متلفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم) ويرتفع مقامه وقدره لديهم، (**وذلك بذر النفاق**) الذي يتولد منه (**وأصل الفساد**) الذي ينشأ عليه، (**ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها وإلى اقتحام المحظورات**) وارتكابها (**للتوصل إلى اقتناص القلوب**) وتسخيرها، (**ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين**) كما في حديث أسامة بن زيد عند الطبراني في الصغير وفي الكبير من حديث ابن عباس، وفي بعض الروايات وصفهما بعاديين كما في حديث عاصم بن عدي عند الطبراني في الأوسط، وفي أخرى وصفهما بجائعين كما في حديث كعب بن مالك عند أحمد والترمذي وقد تقدم قريباً. (**وقال أيضاً: (إنه ينبت النفاق**) في القلب (**كما ينبت الماء البقل** ») أي العشب. كما رواه الديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ: « حب الغنى ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب » وقد تقدم أيضاً (**إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم**) لا محالة، (**وإلى التظاهر بخصال حميدة**) أي يظهرها من نفسه بتكلف (**هو خال عنها، وذلك هو عين النفاق**).

(**فحب الجاه إذاً من المهلكات فيجب علاجه وإزالته من القلب، فإنه طبع جبل القلب عليه كما جبل على حب المال، وعلاجه مركب من علم وعمل.**

أما العلم: فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم) بملكها، (**وقد بينا**) أيضاً (**أن ذلك**) لا يصفو و(**إن صفا وسلم**) من الكدر (**فآخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات**) التي تستمر إلى ما بعد الموت، (**بل لو**) فرض أنه (**سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب**) ودانوا لك

فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له، ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له. فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي ـ كما سبق ـ صغر الجاه في عينه، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده، ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز: (أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات) فانظر كيف مدّ نظره نحو المستقبل وقدره كائناً. وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه: (أما بعد: فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل)، فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا. وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، ولذلك قال تعالى: ﴿بل تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدُّنْيَا *

(**فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له**) غالباً، (**ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له، فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها**) بعد الموت. (**ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق**) ذكره قريباً. (**صغر الجاه في عينه إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة فكأنه يشاهدها**) من وراء ستر رقيق (**ويستحقر العاجلة ويستهون أمرها** (**ويكون الموت كالحاصل عنده**) حالاً، (**ويكون حاله كحال الحسن البصري**) رحمه الله تعالى (**حيث كتب إلى عمر بن عبد العزيز**) أخي عبد الملك وهو يومئذ خليفة. (**أما بعد: فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات**) فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائناً، وكذلك عمر ابن عبد العزيز حيث كتب في جوابه (**أما بعد: فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل**) وهذا الكتاب وجوابه أخرجها أبو نعيم في الحلية وقد تقدم ذكرهما في كتاب ذم الدنيا. (**فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة، فكان عملهم لها بالتقوى إذ علموا أن العاقبة للمتقين فاستحقروا المال والجاه في الدنيا**) وإليه أشار القائل:

إن لله عبـــــــاداً فطنـــــــا	طلقـوا الدنيــا وخــافـوا الفتنـا
نظـــروا فيهـــا فلما علمـــوا	أنها ليســـت لحي وطنـــا
جعلـــوهـــا لجة واتخذوا	صـــالـح الأعمال فيهـــا سفنـــا

(**وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب**) لقصورها، (**ولذلك قال تعالى ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير**

والآخِرةُ خَيْرٌ وأبقى﴾ [الأعلى: ١٦ ، ١٧] وقال عز وجل: ﴿كلا بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة* وتذرُونَ الآخرة﴾ [القيامة: ٢٠ ، ٢١] فمن هذا حدّه، فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار التي تستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا، فإن كل ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشدّ تغيراً من القدر في غليانها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبني على أمواج البحر فإنه لا ثبات له، والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه، فلا يفي في الدنيا مرجوّها بمخوفها فضلاً عما يفوت في الآخرة، فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة. وأما من نفذت بصيرته وقوي إيمانه فلا يلتفت إلى الدنيا، فهذا هو العلاج من حيث العلم.

وأما من حيث العمل: فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من

وأبقى﴾ وقال تعالى ﴿كلا بل تحبون العاجلة* وتذرون الآخرة﴾ إلى غيرها من الآيات. (**فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه في حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار**) أي الأمور العظيمة(**التي تستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا**) أي يصابون بها، (**فإن كل ذي جاه محسود**) بين الناس (**ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشد تغيراً**) وانقلاباً (**من القدر في غليانها**) كما رود ذلك في الخبر وتقدم في كتاب عجائب القلب، (**وهي مترددة بين الإقبال والإعراض**) إما أن تقبل وإما أن تعرض، (**فكل ما ينبني على قلوب الخلق يضاهي**) أي يشابه (**ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له**) فكذلك ما يبنى على قلوب الخلق لاثبات له، (**والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء كل ذلك غموم عاجلة**) وكدورات متواصلة لا ينفك عنها (**و**) هي (**مكدرة للذة الحياة**) وفي بعض النسخ الجاه، (**فلا يفي في الدنيا مرجوّها بمخوفها**) إذ مخوفها أكثر من مرجوّها، (**فضلاً عما يفوت في الآخرة، فهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة. وأما من نفذت بصيرته**) واستنارت (**وقوي إيمانه لم يلتفت إلى الدنيا**) لكمال علمه بأحوالها. (**فهذا هو العلاج من حيث العلم.**

وأما من حيث العمل فإسقاط الجاه من قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها) ويطعن فيها، (**حتى يسقط عن أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق**) وما يـأتي

الخالق. وهذا هو مذهب الملامتية، إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه، وهذا غير جائز لمنْ يقتدي به فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين، وأما الذي لا يقتدي به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس، كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد، فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني. ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به أنه يشرب الخمر فيسقط من أعين الناس. وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير، كما فعل بعضهم، فإنه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه،

عنهم **(ويقنع بالقبول من الخالق، وهذا هو منهج الملامتية)** وهم طائفة من الفقراء، وأساس طريقهم على تحقيق كمال الإخلاص، **(إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم عن أعين الخلق فيسلموا من آفة الجاه)** لأن من شأنهم أنهم لا يظهر ما في باطنهم على ظاهرهم ويضعون الأمور مواضعها لا تخالف إرادتهم وعملهم ارادة الحق وعلمه، ولا ينفون الأسباب التي في محل يقتضي نفيها وعكسه، فإن من دفع السبب من موضع أثبته واضعه فقد سفه وجهل قدره، ومن اعتمد عليه في موضع نفاه لشرك وألحد وهؤلاء هم الذين جاء في حقهم أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري. **(وهذا)** المسلك **(غير جائز لمن يقتدي به، فإنه يوهن الدين)** أي يضعفه **(في قلوب المسلمين، وأما الذي لا يقتدي به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس، كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد)** ليزوره، **(فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يا كل بشره)** أي بحرص **(ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه)** إذ كان بلغه صلاحه وإنه صائم الدهر **(وانصرف)** عنه، **(فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني)** وفي بعض النسخ زيادة: وأنت لي ذام. أخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة وهب بن منبه وفيه: فأقبل على طعامه يأكله، فقال الملك: فأين الرجل؟ قيل له: هو هذا، قال: هذا الذي يأكل؟ قالوا: نعم، قال: ما عند هذا من خير فأدبَر فقال الرجل: الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به، وسيأتي ذلك قريباً للمصنف. **(ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر حتى يظن أنه يشرب الخمر فيسقط)** مقامه **(عن الأعين، وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه)** فإن الفقه لا يرى ذلك جائزاً ويفتي بحرمة فعله لأجل التشبيه بالمحرمات، **(إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتى به في الفقه)** ولا يجوّزه الفقيه **(مهما رأوا فيه صِلاح قلوبهم، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم، فإنه عرف بالزهد**

فدخل حماماً ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا: إنه طرّار وهجروه، وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول، فإن المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته، فإنه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج إلى إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به، وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة. ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فإن فتنة الجاه أعظم، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس، فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأساً أصبح الناس كلهم عنده

وإقبال الناس عليه) فأراد أن يخلع نفسه عن ذلك، (فدخل حماماً و) لما خرج (لبس ثوب غيره، **فخرج ووقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا: إنه طرّار**) وهو الذي يقطع النفقات على غفلة من أهلها (**وهجروه**) فاستراح من الناس، وقد سبق ذكر هذه الحكايات في المقدمة، وذكرنا هناك اعتراض ابن الجوزي وابن القيم في اعتراضهما على المصنف في تقرير مثل هذا وأمثالها وذكرنا الجواب عنه. (**وأقوى الطريق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس**) جملة (**والهجرة إلى موضع الخمول**) يصح له فيه خمول ذكره، (**فإن المعتزل في بيته في البلدة التي هو بها مشهور**) ومعروف ومذكور (**لا يخلو من حب المنزلة التي تترشح له في القلوب بسبب منزلته، فربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور**) قد غره الشيطان بذلك، بل ربما تكون فتنة هذا أعظم من فتنة الذي هو مخالط للناس، (**وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها**) ولذا كان بعض الشيوخ يقول: لا أعرف لانكباب الناس عليَّ وجهاً إلا لكوني اعتزلتهم في بيتي، وإلاَّ فالذي عندي موجود عند غيري. (**ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه**) من الصلاح والورع والزهد (**وذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه**) لا محالة (**وتألمت، وربما توصلت الى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس**) وتزوير (**ولا يبالي به**) وهذا هو الفارق، (**وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة**) وأنه لم يخرج ذلك من قلبه، (**ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه، فإن فتنة الجاه أعظم**) من فتنة المال، (**ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس**) وهذا هو الجاه، (**فإذا أحرز قوته من كسبه بيده أو من جهة أخرى وقطع طمعه من الناس رأساً أصبح الناس**

كالأرذال، فلا يبالي أكان له منزلة في قلوبهم أم لم يكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه في أقصى المشرق لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة. فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع. ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم: المؤمن لا يخل من ذلة أو قلة أو علة. وينظر في أحوال السلف وإيثارهم للذل على العز ورغبتهم في ثواب الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم:

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من

كلهم عنده كالأرذال) أي الاسقاط، **(فلا يبالي كانت له منزلة في قلوبهم أم لم تكن، كما لا يبالي بما في قلوب الذين هم منه)** متباعدون **(في أقصى الشرق)** أو الغرب، **(لأنه لا يراهم ولا يطمع فيهم ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة، فمن قنع)** عزو **(استغنى عن الناس وإذا استغنى)** عنهم **(لم يشغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن)** أي مقدار، **(ولا يقطع ذلك الجاه إلا بالقناعة)** باليسير من الرزق **(وقطع الطمع)** عما في أيديهم، **(ويستعين على جميع ذلك بالاخبار الواردة في ذم الجاه و)** في **(مدح الخمول والذل مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة)** أي من المال **(أو علة)** وهو قول مشهور على ألسنة الناس، ويستأنس له بما رواه ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبان عن أنس مرفوعاً «المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله ونفس تنازعه وشيطان يضله». ومما يستعين عليه من الأخبار ما رواه الديلمي عن أبان عن أنس رفعه «المؤمن بيته قصب وطعامه كسر وثيابه خلق ورأسه شعث وقلبه خاشع ولا يعدل بالسلامة شيئاً» **(وينظر)** مع ذلك **(في أحوال السلف)** في الكتب المتضمنة لها كالحلية لأبي نعيم **(وإيثارهم الذل على العز ورغبتهم في ثواب الآخرة)** وتركهم حظوظ الدنيا العاجلة، ثم ينظر أنها بأجمعها ستفنى ولا يبقى معه إلى ما بعد الموت، فما تأمل الناظر في ذلك إلا وقنع بالدون ورضي باليسير وقطع أثر حب الجاه من قلبه، والله الموفق.

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهية الذم:

(اعلم) وفقك الله تعالى **(أن أكثر الخلق إنما هلكوا بخوف مذمة الناس)** منهم **(وحب مدحهم)** من كل لسان **(فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء**

المهلكات فيجب معالجته وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم.

أما السبب الأول: فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح، وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول كما قال المتنبي:

أشدّ الغم عندي في سرورٍ ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا، وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها. وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى، وخطر الخاتمة باق ففي الخوف من سوء الخاتمة

المدح) منهم (**وخوفاً من الذم**) يلحق بهم، (**وذلك**) في الحقيقة (**من المهلكات فيجب معالجته وطريقه ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم.**

فأما السبب الأول: فهو استشعار الكمال) أي يستشعر كمالاً في نفسه (**بسبب قول المادح**) فيه (**فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها هل أنت متصف بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع**) مثلاً، (**وإما صفة لا تستحق بها كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية، فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشيماً**) أي متحطماً متكسراً (**تذروه الرياح**) أي تطيره، (**وهذا من قلة العقل بل العاقل يقول كما قال**) أبو الحسن أحمد بن الحسين (**المتنبي**) رحمه الله تعالى:

(**أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا**)

(**فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعرض الدنيا**) فإنه متاع زائل، (**وإن فرح فلا ينبغي أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها، والمدح ليس هو سبب وجودها، وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة**) بل هي مجهولة في علم الله تعالى، (**وهذا إنما يقتضي الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى وخطر الخاتمة باق**) لم يزل، (**ففي الخوف من الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا**) يشغله عنه، (**بل الدنيا**)

شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا، بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح، فإن اللذة في استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغي أن تفرح بالمدح، والمدح لا يزيدك فضلاً وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون، ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول: سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه وما أطيب الروائح التي تفوح منه؟ إذا قضى حاجته، وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان، ثم يفرح بذلك فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك. كان ذلك من غاية الجهل. فإذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك، وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

وأما السبب الثاني: وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير قلب آخر، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب ـ وقد سبق وجه معالجته ـ

كما تقدم (**دار أحزان وغموم**) وانكاد تتوالى (**لا دار فرح وسرور، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح**) لك به، (**فإن اللذة**) إنما هي (**في استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله تعالى لا من مدح المادح، والمدح تابع له فلا ينبغي أن يفرح بالمدح،والمدح لا يزيدك فضلاً**) هذا كله إذا كنت متصفاً بما مدحت به، (**وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجهل**) ونهاية الجنون، (**ومثالك من يهزأ به انسان ويقول: سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه**) أي مطاوي بطنه، (**وما أطيب الروائح التي تفوح منه إذا قضى حاجته وهو يعلم ما تشتمل عليه امعاؤه**) في الباطن (**من الاقذار والأنتان، ثم يفرح بها**) ولا يدرك الذي يستهزىء به. (**وكذلك أنت إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفتك**) مما يجانب الصلاح والتقوى. (**كان ذلك من غاية الجهل. فإذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله عليك**) ولا يكن فرحك بالمدح، (**وإن كذب**) في مدحه، (**فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح.**

وأما السبب الثاني: وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير قلب آخر، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب ـ وقد سبق وجه معالجته) قريباً ـ

وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله، فكيف تفرح به؟

وأما السبب الثالث: وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح، فهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ـ كما نقل ذلك عن السلف ـ لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ـ كما ذكرناه في كتاب آفات اللسان ـ قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في بطنه. وقال بعضهم: إذا قيل لك نعم:الرجل أنت، فكأن أحب إليك من أن يقال لك: بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل. وروي في بعض الأخبار ـ فإن صح فهو قاصم للظهور ـ أن رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله ﷺ فقال: «لو كان صاحبك حاضراً فرضي الذي قلت فمات على ذلك دخل النار». وقال ﷺ مرة للمادح: «ويحك قصمت ظهره لو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة» وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب» فلهذا

(وذلك بقطع الطمع) عنه **(وطلب المنزلة عند الله، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحك بها يسقط منزلتك عند الله، فكيف تفرح به.**

وأما الثالث: وهو الحشمة التي اضطرت المادح إلى المدح فهي أيضاً ترجع إلى قدرة عارضة لاثبات لها ولا يستحق الفرح بها، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ـ كما نقل ذلك عن السلف) الصالحين ـ وذلك **(لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ـ كما ذكرناها في كتاب آفات اللسان ـ قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد امكن الشيطان من أن يدخل في بطنه)** هذا إذا فرح بمدح ما ليس فيه، وأما إذا فرح بما هو فيه فإن اغتر بأن ما مدح به هو من فعل نفسه ونسي أنه من فضل الله عليه وجد الشيطان أيضاً سبيلاً لتغريره وتسويله. **(وقال بعضهم: إذا قيل لك: نعم الرجل أنت وكان أحب إليك من أن يقال لك: بئس الرجل أنت فأنت والله بئس الرجل)**، وهذا مثل قولهم: إذا قال الرجل أنا خير من الكلب فالكلب خير منه. **(وروي في بعض الأخبار فإن صح)** وروده **(فهو قاصم لظهورنا: أن رجلاً أثنى على رجل خيراً عند رسول الله ﷺ فقال «لو كان صاحبك حاضراً فرضي بالذي قلت فمات على ذلك دخل النار»)** قال العراقي: لم أجد له أصلاً. **(وقال ﷺ مرة للمادح «ويحك قطعت ظهره ولو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة»)** رواه الطبراني في الكبير من حديث أبي بكرة بلفظ «ويحك قطعت عنق أخيك والله لو سمعها ما أفلح أبداً. إذا اثنى أحدكم على أخيه فليقل إن فلاناً ولا أزكي على الله أحداً» وقد رواه الشيخان بنحوه، وكذا أحمد وأبو داود وابن ماجه، وابن أبي الدنيا في الصمت، وقد تقدم في آفات اللسان.

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به، حتى أن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلاً عن شيء فقال: أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم، فغضب وقال: إني لم آمرك بأن تزكيني. وقيل لبعض الصحابة: لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله، فغضب وقال: إني لأحسبك عراقياً. وقال بعضهم ـ لما مدح ـ اللهم إني عبدك تقرب إليّ بمقتك فأشهدك على مقته. وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض إليهم مدح الخلق، لأن الممدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى في النار مع الأشرار، فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق. ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قلّ التفاته إلى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه. والله الموفق للصواب برحمته.

(فلهذا كان الصحابة) رضوان الله عليهم **(على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور به** حتى روي **أن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلاً عن شيء فقال: يا أمير المؤمنين أنت خير مني وأعلم. فغضب وقال إني لم آمرك أن تزكيني)**. وقد روى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم التيمي رفعه «ذبح الرجل أن تزكيه في وجهه وروي عن عمر بن الخطاب قال: المدح ذبح. وعن خالد بن معدان قال: من مدح إماماً أو أحداً بما ليس فيه على رؤوس الأشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه. **(وقيل لبعض الصحابة: لن يزال الناس بخير ما أبقاك الله، فغضب وقال: إني لأحسبك عراقياً)** أي لان أهل العراق منهم المجازفة في المدح. **(وقال بعضهم لما مدح: اللهم ان عبدك تقرب الي بمقتك فاشهد على مقته)** رواه ابن أبي الدنيا في الصمت عن أحمد بن بجير، حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: أثنى رجل على رجل من المصلين في وجهه فقال: اللهم إن عبدك فساقه. **(و)** هؤلاء **(إنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، فكان اشتغال قلوبهم بأحوالهم عند الله يبغض إليهم مدح الخلق، لأن الممدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد عن الله)** أي عن رحمته، **(الملقى في النار مع الأشرار. فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله وثنائه عليه إذ ليس أمره بيد الخلق)** بل المتفضل هو الله تعالى، **(ومهما علم أن الآجال والأرزاق بيد الله قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم)** فإنهم لا يقلبون حاصلاً ولا يقطعون واصلاً، **(وسقط من قلبه حب المدح والثناء واشتغل بما يهمه من أمر دينه)** والله الموفق بكرمه.

بيان علاج كراهة الذم:

قد سبق ان العلة في كراهة الذم هو ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضاً يفهم منه. والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال.

إما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة، وإما أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنت، وإما أن يكون كاذباً.

فإن كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منته فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها. فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل، وإن كان قصده التعنت فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، أو ذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته. وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها

بيان علاج كراهية الذم:

(**قد سبق**) قريباً (**أن العلة في كراهية الذم هو ضد العلة في حب المدح، فعلاجه أيضاً يفهم منه، والقول الوجيز**) أي المختصر الخالي عن التطويل (**فيه أن من ذمك**) في شيء من أمورك (**لا يخلو من ثلاثة أحوال**.

إما أن يكون صادقاً فيما قال وقد قصد) في قوله (**النصح**) لك (**والشفقة**) عليك، (**وإما أن يكون صادقاً**) فيما قال، (**ولكنه قصد الإيذاء**) لك (**والتعنت**) أي إيقاعك في العنت وهو المشقة، (**أو يكون كاذباً**) فيما قال.

(**فإن كان صادقاً وقصده النصح**) والشفقة، (**فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي ان تتقلد منه منة، فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى**) ما هو (**المهلك لك حتى تتقيه**) وتتحفظ منه، (**فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة**) التي هي عابتك (**عن نفسك ان قدرت عليها، فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه فإنه غاية الجهل**) ونهاية الحمق، (**وإن كان قصده التعنت فإنك قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً**) به، (**أو ذكرك عيبك إن كنت غافلاًعنه، أو قبحه في عينك لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته، وكل ذلك أسباب سعادتك**) ونجاتك (**وقد استفدته منه**) مجاناً، (**فاشتغل بطلب السعادة**) والنجاة، (**فقد اتيحت لك أسبابها**

بسبب ما سمعته من المذمة. فمهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت لا تدري، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال لك قائل: أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك، فينبغي أن تفرح به لأن تنبيهك بقوله غنيمة، وجميع مساوىء الأخلاق مهلكة في الآخرة والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنمه.

وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به؟

الحالة الثالثة: أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه، بل تتفكر في ثلاثة أمور.

أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه.

بسبب ما سمعته من المذمـة، فمهما قصدت الدخول على) حضرة **(ملك)** أو أمير **(وثوبك ملوث)** أي ملطخ **(بالعذرة)** أي النجاسة، **(وأنت لا تدري، فلو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز)** أي يقطع **(رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة)** الكائنة في ثوبك **(فقال لك قائل: أيها الملوث بالعذرة طهّر نفسك)** أي ثوبك، **(فينبغي أن تفرح به، لأن تنبهك بقوله غنيمة)** ومن نبه فما قصر. **(وجميع مساوىء الأخلاق)** مما تقدم ذكرها في كتاب رياضة النفس **(مهلكة في الآخرة، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه)** وحساده، **(فينبغي أن يغتنمه)**.

(فإذا قصد العدوّ التعنت) معك **(فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك، فلم تغضب عليه)** أيها الإنسان **(بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به)**؟ فهاتان الحالتان فيما إذا كان صادقاً.

(والحالة الثالثة أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله) وإنما نسبك إليه كذباً وزوراً، **(فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر بثلاثة أمور)**.

(أحدها أنك إذا خلوت عن ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه، وما ستره الله من عيوبك أكثر) مما ظهر عليك، **(فاشكر الله إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بما أنت بريء منه)**.

والثاني: أن ذلك كفارات لبقية مساوئك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوّث بها وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك. فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله.

وأما **الثالث:** فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الأليم، فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم تب عليه، اللهم ارحمه، كما قال ﷺ: «اللهم اغفر لقومي، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون» لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أُحد. ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شجّ رأسه بالمغفرة فقيل له في ذلك فقال: علمت أني مأجور بسببه وما نالني منه إلا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي. ومما يهوّن عليك كراهة المذمة قطع الطمع فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبك. وأصل الدين القناعة وبها ينقطع

(**والثاني: أن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته**) ـ كما تقدم في آفات اللسان ـ (**وكل من مدحك فقد قطع ظهرك**) كما تقدم في الذي اثنى على آخر فقال ﷺ «ويحك قد قطعت عنقه». (**فما بالك تفرح بقطع الظهر**) والعنق (**وتحزن بهدايا الحسنات التي تقربك إلى الله، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله**).

(**وأما الثالث: فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله عزوجل وأهلك نفسه بافترائه**) وكذبه، (**وتعرض لعقابه الأليم. فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم اهلكه**) اللهم امته، (**بل ينبغي أن تقول: اللهم اصلحه اللهم تب عليه**) اللهم وفقه اللهم اغفر له (**اللهم ارحمه**) وامثال ذلك، (**كما قال رسول الله ﷺ إذ قال: «اللهم اغفر لقومي اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» إذ ضربوه**) وأدموا وجهه كما رواه البيهقي في دلائل النبوّة وقد تقدم. قال العراقي: والحديث في الصحيح أنه ﷺ قاله حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربه قومه.

(**ودعا إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالى (**لمن**) سأله عن العمران فاشار به الى المقبرة فغضب عليه. وقال: أسألك عن العمران وأنت تشير بي إلى المقبرة فضربه (**وشج رأسه**) فدعا له (**بالمغفرة فقيل له في ذلك. فقال: اعلم أني مأجور بسببه فلا أرضى أن يكون هو معاقباً بسببي**). والقصة أخرجها أبو نعيم في الحلية وقد تقدمت. (**ومما يهوّن عليك كراهية المذمة قطع الطمع**) عن الناس، (**فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك في قلبك**) بل

الطمع عن المال والجاه، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين، فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه فإن ذلك بعيد جداً.

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

اعلم أن للناس أربعة أحوال. بالإضافة إلى الذام والمادح:

الحالة الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية: أن يمتعض في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه، ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان إلا انه بالإضافة إلى ما قبله كمال.

الحالة الثالثة: وهي أول درجات الكمال أن يستوي عنده ذامه ومادحه فلا تغمه

ولم يشعر به، **(وأصل الدين القناعة، وبها ينقطع الطمع عن الجاه والمال، وما دام الطمع قائماً كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه مصروفة ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين)** وترك طريق المتقين، **(فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه، فإن ذلك بعيد جداً)** والله الموفق بكرمه.

بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

(اعلم) وفقك الله تعالى **(أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح)**:

(الحالة الاولى: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته، وهذا حال أكثر الخلق) في سائر الأزمان لأن الطباع قد جبلت على ذلك **(وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب)**.

(الحالة الثانية: أن يمتعض في الباطن) أي يلتوي باطنه بوجع **(على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه، ويرتاح للمادح)** في الباطن **(ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور، وهذا من النقصان)** عن رتبة الكمال **(إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال)**.

(الحالة الثالثة: وهي أول درجات الكمال أن يستوي عنده ذامه ومادحه أي يكونان على

المذمة ولا تسره المدحة. وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته. وعلاماته أن لا يجد في نفسه استثقالاً للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موت المادح المطري له أشد نكاية في قلبه من موت الذام، وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام. فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب! وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات، وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام، والشيطان يحسن له ذلك ويقول: الذام قد عصى الله بمذمتك، والمادح قد أطاع الله بمدحك، فكيف تسوي بينهما؟ وإنما استثقالك للذام من الدين المحض. وهذا محض التلبيس، فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر مما

حد سواء فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة. وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه) ويقول: أنا قد استوى عندي الذام والمادح، **(ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلاماته. وعلاماته)** كثيرة منها: **(أن لا يجد في)** نفسه استثقالاً للذام عند تطويله **(الجلوس عنده أكثر مما يجد في المادح و)** منها: **(لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام، و)** منها: **(أن يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من إنقطاع المادح، و)** منها: **(أن لا يكون موت المادح المطري)** أي المبالغ **(له أشد نكاية في قلبه من موت الذام، و)** منها: **(أن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، و)** منها: **(أن لا يكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام)**. فهذه العلامات التي يمتحن بها نفسه وهي الأصول وما عدا ذلك يرجع إليها. **(فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة، وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس)** لهم والثناء عليهم **(مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات)** وهو غرور عظيم. **(وربما يشعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام والشيطان يحسن له ذلك ويقول له: قد عصى الله بمذمتك والمادح قد أطاع الله بمدحتك، فكيف تسوّي بينهما وإنما استثقالك الذام من الدين المحض. فهذا)** الذي يغره الشيطان **(محض التلبيس)** منه عليه، **(فإن العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر مما ارتكبه الذام في مذمته)** له، **(ثم أنه لا**

ارتكب الذام في مذمته، ثم انه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم، ويعلم أن المادح الذي مدحه لا يخلو عن مذمه غيره. ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما لا يجد لمذمة نفسه، والمذمة من حيث أنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره. فإذا العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض، ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه فيزيده ذلك بعداً من الله، ومن لم يطلع على مكائد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوّت عليه الدنيا ويخسره في الآخرة، وفيهم قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أعمالاً * الَّذِين ضَلَّ سعيُهُم في الحياةِ الدُّنيا وهم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

الحالة الرابعة: وهي الصدق في العبادة؛ أن يكره المدح ويمقت المادح، إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهدٍ إليه عيبه ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسناته، فقد قال ﷺ: « رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى ». وقد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح، إذ روي أنه ﷺ قال: « ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلاَّ من... »

يستثقلهم ولا ينفر عنهم، ويعلم أن المادح الذي مدحه لا يخلو من مذمة غيره) عند غيره أو عنده، **(ولا يجد في نفسه نفرة عنه)** ولا استنكاراً **(لمذمة غيره كما لا يجد لمذمة نفسه، والمذمة من حيث أنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره. فإذا العابد المغرور لنفسه ولهواه يمتعض)** ويتوجع، **(ثم أن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتل على الله بهواه فيزيده ذلك بُعْداً من الله، ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فاكثر عباداته تعب ضائع)** لا يفيد شيئاً **(يفوّت عليه الدنيا)** لتركه إياها **(ويخسر في الآخرة)** لاغتراره بتلبيس الشيطان، **(وفيهم قال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أعمالاً * الّذين ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدّنيا وهُمْ يَحْسَبُون أنَّهم يُحْسِنُون صُنْعاً﴾** فهؤلاء قد خسرت أعمالهم وكثر تعبهم وضل سعيهم، فلم يمتعوا نفوسهم بالدنيا لزهدهم عنها ولا أخلصوا في أعمالهم ليتمتعوا بها في الآخرة فهم ممن خسر الدنيا والآخرة معاً.

(الحالة الرابعة: وهي الصدق في العبادة: أن يكره المدح ويمقت المادح، إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر) داقة للعنق **(مضرة له في الدين، ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيوبه ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسناته، وقد قال ﷺ: « رأس التواضع أن يكره أن يذكر بالبر والتقوى »)** قال العراقي: لم أجد له أصلاً. **(وقد روي في بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح)** وروده، **(إذا روي أنه ﷺ قال: ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف إلا مَنْ ... » فقيل: يارسول الله إلا من؟ فقال: « إلا من**

فقيل: يا رسول الله: إلا من؟ فقال: «إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة»، وهذا شديد جداً، وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح، ولا يظهر ذلك بالقول والعمل، فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها. ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية، فإنها لا تفي بها، لأنها لا بدَّ وأن نتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه، ولا نقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب، ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى، فكيف بما بعده من المرتبتين؟ وكل واحد من هذه الرتب أيضاً فيها درجات.

أما الدرجات في المدح؛ فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين.

تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة») قال العراقي: لم أجده هكذا، وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس: «ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله». ولم يخرجه ولده في مسنده. **(وهذا شديد جداً وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل، وأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها، ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فما وفت لَنا وإلاَّ ولا بدّ)** وفي بعض النسخ: فإنا لا نفي بها فإنا ولا بدّ **(أن نتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته، ونتثاقل عن إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه، ولا نقدر أن نسوّي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب، ومن قدر على التسوية بين الذام والمادح في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة)** أي شيخاً يقتدي به **(في هذا الزمان إن وجد فإنه)** عزيز جداً مثل **(الكبريت الأحمر يتحدث به ولا يرى)** فهو رابع الغول والعنقاء والخل الوفي، **(فكيف بما بعده من الرتبتين؟ وكل واحدة من هذه الرتب فيها درجات)** متفاوتة.

(أما الدرجات في المدح؛ فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصل إلى نيلها بكل ممكن) وفي نسخة بكل ما أمكن **(حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات)** أي ارتكابها **(لاستمالة قلوب الناس)** إليه **(واستنطاق ألسنتُهم بالمدح)** له **(وهذا من الهالكين)** في هوّة الضلال.

ومنهم: من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا على شفا جرف هار، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جداً.

ومنهم: من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح، فهو في خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له وتارة تكون عليه.

ومنهم: من إذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص.

ومنهم: من يكره المدح إذا سمعه ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه، وأقصى درجاته أن يكره ويغضب ويظهر الغضب وهو صادق فيه، لا أن يظهر

(**ومنهم: من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا على شفا**) أي طرف (**جرف هار**) أي هائر بمعنى ساقط، (**فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الأعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد، فهو قريب من الهالكين جداً**) فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

(**ومنهم: من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه**) من غير علاج منه، (**فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة**) والرياضة (**ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها، وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهة وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة، فتارة تكون اليد له**) فيغلبه (**وتارة تكون عليه**) فيغلب عليه.

(**ومنهم: من إذا سمع المدح لم يسرّ به ولم يغتم به ولكن لا يؤثر فيه. وهذا على خير، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص**) بسبب عدم اغتمامه.

(**ومنهم: من يكره المدح إذا سمعه، ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه وأقصى درجاته أن يكره**) المدح (**ويغضب**) على المادح (**ويظهر**) من نفسه (**الغضب**) عليه (**وهو صادق فيه، لا لمن يظهر الغضب وقلبه محب له فإن ذلك عين**

الغضب وقلبه محب له فإن ذلك عين النفاق، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس عنه؛ وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام، وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح، ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن في قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة فيبغضها بغض العدو، والإنسان يفرح بمن يذم عدوه، وهذا شخص عدوّه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها، فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمة عنده إذا صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلي بفتنة الناس، وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خيراً لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها، ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوي عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحداها، ولا يقطع شيئاً منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل.

النفاق، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق وهو مفلس منه) مجانب له، **(وكذلك بالضد)** بأن يظهر السرور عند سماع مذمته وقلبه مبغض له **(ومن هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح ولا يكون الفرح وإظهاره إلا ممن في قلبه حنق)** محركة أي غيرة **(وحقد على نفسه لتمردها عليه)** أي عصيانها، **(ولكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيساتها الخبيثة)** وتخديعاتها **(فيبغضها بغض العدوّ)** ويمقتها مقت البغيض **(والإنسان يفرح بمن يذم عدوّه وهذا شخص عدوّه نفسه فيفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام على ذلك)** وفي نسخة عليها، **(ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمة له عنده إذ صار بالمذمة أوضع)** أي أحقر **(في أعين الناس)** ساقطاً لا يؤبه له **(حتى لا يبتلي بفتنة الجاه وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب)** أي لم يتعب **(فيها فعساه يكون خيراً لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها)** أي إزالتها، **(ولو جاهد المريد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوي عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ منه لغيره)** من مهمات السلوك **(وبينه وبين السعادة)** أي الوصول إليها **(عقبات كثيرة)** صعبة المرتقى ودونهن حتوف **(وهذه إحدى تلك العقبات ولا يقطع شيء منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل)** ولكن من لاحظته العناية الإلهية تيسرت له أسباب قطعها في الحال وسهل عليه الوصول إلى السعادة ولكل عمل رجال والله الموفق بمنه.

الشطر الثاني من الكتاب في طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء: وفيه بيان ذم الرياء، وبيان حقيقة الرياء وما يرائي به، وبيان درجات الرياء؛ وبيان الرياء الخفي؛ وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط؛ وبيان دواء الرياء وعلاجه؛ وبيان الرخصة في إظهار الطاعات، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب؛ وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق؛ وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة. وبعدها، وهي عشرة فصول وبالله التوفيق.

بيان ذم الرياء:

اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ ساهُونَ الَّذينَ هُمْ يَراؤُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٦]، وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَمكُرونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ

الشطر الثاني من الكتاب:

في طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس بالعبادات:

(وهو الرياء: وفيه بيان ذم الرياء، وبيان حقيقة الرياء وما يرائي به، وبيان درجات الرياء، وبيان الرياء الخفي، وبيان ما يحبط العمل في الرياء وما لا يحبط، وبيان دواء الرياء وعلاجه، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب، وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح، وبيان ما يجب على المريد أن يلزم قلبه قبل الطاعات وبعدها وهي عشرة فصول على الترتيب المذكور).

بيان ذم الرياء:

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن الرياء حرام والمرائي**) وهو المتصف به (**عند الله ممقوت**) أي مبغوض أشد البغض، (**وقد شهدت بذلك الآيات والأخبار والآثار**).

(**أما الآيات: فقوله تعالى: ﴿فويل للمصلين* الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾**) أي غافلون غير مبالين بها (**الذين هم يراؤن**) أي يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليها والفاء جزائية أو سببية. (**وقوله عز وجل ﴿الذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك**

عَذَابٌ شَدِيدٌ ومُكْرٌ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر : ١٠] قال مجاهد : هم أهل الرياء . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾ [الإنسان : ٩] فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله ، والرياء ضده . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : ١١٠] نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله .

هو يبور﴾ قال مجاهد : هم أهل الرياء . وقال تعالى : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله) على إرادة القول بلسان الحال أو المقال **(لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴾)** أي شكراً **(فمدح المخلصين)** من عباده **(بنفي كل إرادة سوى وجه الله تعالى والرياء هو ضده . وقال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾)** أي يأمل حسن لقائه وثوابه **(فليعمل عملاً صالحاً)** يرتضيه الله **(ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)** بأن يرائيه أو يطلب منه أجراً **(أنزلت فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله)** قال العراقي : رواه الحاكم من حديث طاوس قال رجل : إني أقف الموقف ابتغي وجه الله وأحب ، أن يرى موطني فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية . هكذا في نسخة من المستدرك ، ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة انتهى .

ووجد بخط الحافظ ابن حجر بإزائه هو ابن عباس وبخط الكمال الدميري الساقط من نسخة المصنف أبو هريرة وهو ثابت في غيرها من النسخ انتهى ما وجدته .

قلت : رواه عبد الرزاق ، وابن أبي الدنيا في الإخلاص ، وابن أبي حاتم والحاكم عن طاوس هكذا ، ولم يذكروا فيه ابن عباس ولا أبا هريرة ورواه الحاكم أيضاً وصححه ، والبيهقي عن طاوس عن ابن عباس كما ذكره الحافظ ابن حجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه فأنزل ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن مجاهد قال : قال رجل : يا رسول الله أعتق وأحب أن يرى وأتصدق وأحب أن يرى ، فنزلت ﴿ فمن كان يرجو ﴾ الآية .

وأخرجه ابن منده ، وأبو نعيم في الصحابة ، وابن عساكر من طريق السدي الصغير ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له ، فزاد في ذلك لمقالة الناس فنزل في ذلك ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية ثم قال العراقي : للبزار من حديث معاذ بسند ضعيف : « من صام رياء فقد أشرك » الحديث ، وفيه أنه ﷺ تلا هذه الآية انتهى .

قلت : ورواه من حديث عبد الرحمن بن غنم الأشعري وهو مختلف في صحبته أنه قال لمعاذ أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من صام رياء فقد أشرك ، ومن صلى رياء فقد أشرك ، ومن

وأما الأخبار: فقد قال ﷺ حين سأله رجل فقال: يا رسول الله فيم النجاة؟ فقال: «أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس»، وقال أبو هريرة في حديث الثلاثة ـ المقتول في سبيل الله والمتصدق بماله والقارىء لكتاب الله، كما أوردناه في كتاب الإخلاص ـ وإن الله عز وجل يقول لكل واحد منهم: كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارىء. فأخبر ﷺ أنهم لم يثابوا وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به»، وفي حديث

تصدق رياء فقد أشرك» قال: بلى ولكن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ فشق ذلك على القوم واشتد عليهم فقال: «إلا أخرجها عنكم» قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: «هي مثل الآية التي في الروم ﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾ [الروم: ٣٩] فمن عمل رياء لم يكتب له ولا عليه».

(**وأما الأخبار: فقد قال ﷺ حين سأله رجل: يا رسول الله فيم النجاة؟ فقال: «أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس»**) أغفله العراقي.

وقرأت في كتاب الفقيه أبي الليث السمرقندي قال: أخبرنا بإسناده عن جبلة اليحصبي قال: كنا في غزاة مع عبد الملك بن مروان، فصحبنا رجل فسهر لا ينام في الليل إلا أقل، فمكثنا أياماً لا نعرفه ثم عرفناه بعد ذلك، فإذا هو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان فيما حدثنا أن قائلاً من المسلمين قال: يا رسول الله فيم النجاة غداً؟ قال: «أن لا تخادع الله» قال: كيف تخادع الله؟ قال: «أن تعمل بما أمرك الله وتريد به غير وجه الله» الحديث وسيأتي تمامه فيما بعد.

(**وروي عن أبي هريرة**) رضي الله عنه (**في حديث الثلاثة المقتول في سبيل الله، والمتصدق بماله، والقارىء لكتاب الله أوردناه**) بتمامه (**في كتاب الإخلاص**) وفيه: (**فإن الله عز وجل يقول** لكل واحد منهم: **كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد، كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارىء، فاخبر النبي ﷺ أنهم لم يثابوا**) بما عملوا (**وأن رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم**) رواه مسلم وسيأتي في كتاب الإخلاص.

(**وقال ابن عمر**) رضي الله عنه: (**قال ﷺ: «من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به»**) قال العراقي: متفق عليه من حديث جندب بن عبدالله.

وأما حديث ابن عمر، فرواه الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ: «من سمع الناس بعمله سمع الله به مسامع خلقه وحقره وصغره» وفي الزهد لابن المبارك وسند أحمد وابن منيع أنه من حديث عبدالله بن عمرو انتهى.

آخر طويل: « إن الله تعالى يقول لملائكته إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين »، وقال ﷺ: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا وما الشرك الأصغر يا

قلت: حديث جندب أخرجه كذلك ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن ماجه، وأبو عوانة، وابن حبان، والبغوي بلفظ: « من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به ومن شق شق الله عليه يوم القيامة ». ورواه بدون الجملة الأخيرة أحمد ومسلم من حديث ابن عباس ومسلم وابن ماجه والبيهقي في الأسماء والصفات من حديث جندب، وأحمد والطبراني وأبو الشيخ من حديث أبي بكرة.

وأما حديث ابن عمر فأخرجه كذلك ابن أبي شيبة، وهناد في الزهد، وأبو نعيم في الحلية وروى أحمد، وابن أبي شيبة والترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه، وأبو يعلى من حديث أبي سعيد بلفظ: « من يرائي يرائي الله به ومن يسمع يسمع الله به ».

(وفي حديث آخر طويل: « إن الله عز وجل يقول لملائكته إن هذا لم يردني بعمله فاجعلوه في سجين ») وهي دركة من دركات جهنم. قال مجاهد: هي تحت الأرض السفلى فيها أرواح الكفار وأعمالهم أعمال السوء. قال العراقي: رواه ابن المبارك في الزهد، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص، وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية ضمرة بن حبيب مرسلاً. ورواه ابن الجوزي في الموضوعات انتهى.

قلت: رواه ابن المبارك، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب قال: قال ﷺ: « إن الملائكة يرفعون عمل عبد من عباد الله فيستكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به إلى حيث يشاء الله من سلطانه فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاكتبوه في سجين ويصعدون بعمل عبد فيستقلونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه فيوحي الله إليهم أنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه إن عبدي هذا قد أخلص لي عمله فاكتبوه في عليين ». فهذا هو الذي أشار إليه المصنف بقوله:

وفي حديث آخر طويل، وأخرج ابن مردويه في التفسير من حديث جابر بن عبدالله قال: حدثني رسول الله ﷺ: « إن الملك يرفع العمل للعبد يرى أن في يديه منه سروراً حتى ينتهي إلى المبقات الذي وضعه الله فيضع العمل فيه فيناديه الجبار من قومه أرم بما معك في سجين فيقول الملك: ما رجعت إليك إلا حقاً. فيقول: صدقت ارم بما معك في سجين ».

وأخرج البزار، والبيهقي من حديث أنس رفعه قال: « تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختمة فيقول الله عز وجل: القوا هذا واقبلوا هذا وتقول الملائكة يا رب والله ما رأينا منه إلا خيراً فيقول: إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي ».

(وقال ﷺ: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا: وما الشرك

رسول الله؟ قال: « الرياء ». يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: إذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء. وقال ﷺ: « استعيذوا بالله عز وجل من جب الحزن » قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: « واد في جهنم أعد للقراء المرائين »، وقال ﷺ: « يقول الله عز وجل: من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك » وقال عيسى المسيح

الأصغر يا رسول الله؟ قال: « الرياء » يقول الله عز وجل يوم القيامة: إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) قال العراقي: رواه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراني من اروایة محمود بن لبيد عن رافع بن خديج انتهى.

قلت: سياق المصنف هو سياق أحمد والبيهقي. وأما سياق حديث الطبراني فلفظه: « يقال لمن يفعل ذلك إذا جاء الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن فاطلبوا ذلك عندهم ». ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث أبي هريرة بنحوه.

(وقال ﷺ: « استعيذوا بالله من جب الحزن » قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: « واد في جهنم أعد للقراء المرائين ») قال الولي العراقي: رواه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وضعفه ابن عدي انتهى.

قلت: وكذلك رواه البخاري في التاريخ ولفضهم جميعاً: « تعوذوا بالله من جب الحزن » قالوا: يا رسول الله وما جب الحزن؟ قال: « واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة يدخله القراء المراؤن وأن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء ». ورواه البيهقي في الشعب مختصراً وفيه قيل: ومن يسكنه؟ قال: « المراؤن بأعمالهم » وقد تقدم في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما سياق ابن عدي الذي ضعفه « إن في جهنم وادياً تستعيذ منه سبعين مرة أعده الله للقراء والمرائين بأعمالهم وأن أبغض الخلق إلى الله عالم السلطان ».

(وقال ﷺ: « يقول الله عز وجل من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك ») قال العراقي: رواه مالك في الموطأ واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله: « وأنا منه بريء ». ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضاً وهو عند ابن ماجه بسند صحيح اهـ.

قلت: لفظ مسلم وابن ماجه قال الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه ». ورواه ابن جرير في تهذيبه، والبزار بلفظه: « قال الله عز وجل من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو كله له وأنا أغنى الشركاء عن الشرك ». وعند أحمد ومسلم أ

ﷺ : إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق وقال نبينا ﷺ : « لا يقبل الله عز وجل عملاً فيه مثقال ذرة من رياء » وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي: ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي ﷺ يقول: « إن أدنى الرياء شرك »، وقال ﷺ :

رواية، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي بلفظه: « قال عز وجل: إنه خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك ». وأخرج البيهقي من حديث جابر رفعه: « يقول الله تعالى: كل من عمل عملاً أراد به غيري فأنا منه بريء ». وأخرج الطيالسي، وأحمد، وابن مردويه من حديث شداد بن أوس رفعه: « إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي من أشرك بي شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني ». وأخرج البزار، وابن مردويه، والبيهقي من حديث الضحاك بن قيس رفعه: « يقول الله تعالى: أنا خير شريك فمن أشرك معي أحداً فهو لشريكه » الحديث.

(وقال عيسى عليه السلام: إذا كان يوم صومكم فليدهن أحدكم رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطت يمينه فليخف عن شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه فإن الله يقسم الثناء) أي الصيت الحسن **(كما يقسم الرزق)** أخرجه أحمد في الزهد من طريق هلال بن يسار، وسيأتي مثل ذلك من قول عبدالله بن مسعود.

(وقال نبينا ﷺ : « لا يقبل الله عملاً فيه مثقال ذرة من رياء ») قال العراقي: لم أجده هكذا.

قلت: هو من كلام يوسف بن إسباط أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق عبدالله بن خبيق. قال: سمعت يوسف بن إسباط يقول فذكره إلا أنه قال: « مثقال حبة » بدل « ذرة ».

(وقال عمر لمعاذ بن جبل) رضي الله عنهما **(حين رآه يبكي)** عند القبر: **(ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعني النبي ﷺ يقول: « إن أدنى الرياء شرك »)** قال العراقي: رواه الطبراني هكذا، ورواه الحاكم بلفظ: « إن اليسير من الرياء شرك » وقد تقدم قريباً انتهى.

قلت: وتمامه: « واحب العبيد إلى الله الأتقياء الأحفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا شهدوا لم يعرفوا أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم » هكذا رواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والحاكم من حديث ابن عمر ومعاذ معاً.

والرواية الثانية التي تقدم ذكرها في فضيلة الخمول: « إن اليسير من الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحب الأبرار الأتقياء الأحفياء الذي إذا غابوا لم يفتقدوا

« أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية وهي أيضاً ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه، وقال ﷺ: « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكان يخفيها عن شماله » ولذلك ورد: « إن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفاً » وقال ﷺ: « إن المرائي ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك إذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له » وقال شداد بن أوس: رأيت النبي

وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » وهكذا رواه الطبراني والحاكم من حديث معاذ.

(وقال ﷺ: « **إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية** ») رواه ابن مبارك في الزهد من حديث شداد بن أوس، وقد تقدم الكلام عليه في أول أحاديث هذا الكتاب، (**وهي أيضاً**) أي الشهوة الخفية (**ترجع إلى خفايا الرياء ودقائقه**). وقدروى أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم والبيهقي في الحديث المذكور قلت: يا رسول الله فما الشهوة الخفية؟ فقال: « يصبح أحدكم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته ».

(**وقال ﷺ: « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلاً تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله »**) هو متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث: « سبعة يظلهم الله في ظله » وقد تقدم في كتاب الزكاة وفي كتاب آداب الصحبة. (**ولذلك ورد « يفضل عمل السر على عمل الجهر سبعين ضعفاً**) قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء: « إن الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً قال البيهق: هذا من إفراد بقية عن شيوخه المجهولين. وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف: « يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة » انتهى.

قلت: ورواه كذلك البيهقي في الشعب من طريقه وضعفه ولفظه: « سبعين ضعفاً ». وأما حديث أبي الدرداء فتمامه عند البيهقي والديلمي: « فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلنه فيكتب علانية ويمحي تضعيف أجره كله، ثم لا يزال به حتى يذكره للناس الثانية ويحب أن يذكر للناس ويحمد عليه فيمحى من العلانية ويكتب رياء ».

(**وقال ﷺ: إن المرائي ينادى يوم القيامة: يا فاجر يا غادر يا مرائي ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ أجرك فمن كنت تعمل له »**) قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم وزاد: يا كافر يا خاسر لم يقل يا مرائي وإسناده ضعيف.

قلت: هو في الحديث الطويل الذي تقدم ذكر أوله أورده أبو الليث السمرقندي بإسناده إلى جبلة اليحصبي قال: كنا في غزاة مع عبد الملك بن مروان، فصحبنا رجل الحديث وفيه: « واتقوا الرياء فإنه الشرك بالله وأن المرائي ينادي يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر يا

ﷺ يبكي فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: « **إني تخوّفت على أمتي الشرك أما** إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراءون بأعمالهم ». **وقال** ﷺ: « **لما خلق الله الأرض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيرها أوتاداً للأرض، فقالت** الملائكة: ما خلق ربنا خلقاً هو أشد من الجبال » **فخلق الله الحديد فقطع الجبال، ثم خلق** النار فأذابت الحديد، ثم أمر الله الماء بإطفاء النار، وأمر الريح فكدرت الماء، **فاختلفت** الملائكة فقالت: نسأل الله تعالى، قالوا: يا رب ما أشد ما خلقت من خلقك؟ **قال الله** تعالى: (لم أخلقْ خلقاً هُوَ أشَدّ عليَّ من قلب ابن آدم حين **يتصدق بصدقة بيمينه** فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلق خلقته).

فاجر يا غادر يا خاسر ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع » قال: فقلت له بالله الذي لا إله إلا هو أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال: والذي لا إله إلا هو إني لقد سمعت رسول الله ﷺ إلا أن يكون قد أخطأت شيئاً لم أكن أتعمده ثم قرأ ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾. [النساء: ١٤٢].

(**وقال شداد بن أوس**) بن ثابت بن المنذر الخزرجي ابن أخي حسان بن ثابت، كنيته أبو يعلي صحابي مات بالشام روى له الجماعة: (**رأيت النبي ﷺ يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: « إني تخوفت على أمتي الشرك أما أنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراؤن بأعمالهم »**) رواه أحمد، وابن ماجه، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي بنحوه. وقد تقدم في أول هذا الكتاب.

(**وقال ﷺ: « لما خلق الله الأرض مادت**) أي تحركت واضطربت (**فخلق الجبال فصيرها أوتاد الأرض**) أي سكنها بها فكانت شبه الأوتاد (**فقالت الملائكة: ما خلق ربنا خلقاً أشد من الجبال » فخلق الله الحديد فقطع الجبال، ثم خلق النار فأذابت الحديد، ثم أمر الله الماء فأطفأ النار، وأمر الريح فكدرت الماء، فاختلفت الملائكة فقالت: نسأل الله تعالى، قالوا: يا رب ما أشد ما خلقت من خلقك**) أي أقواه؟ (**فقال تعالى: ﴿لم أخلق خلقاً هو أشد من ابن آدم حين يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله فهو أشد خلق خلقته﴾**). قال العراقي: رواه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال: غريب انتهى.

قلت: ولفظه: « **لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فالقاها عليها فاستقرت فعجبت** الملائكة من خلق الجبال فقالت: **يا رب هل في خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد**. قالت: يا رب هل خلقك شيء أشد من الحديد؟ **قال**: نعم. النار. قالت: يا ربّ **هل في خلقك** شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: **يا رب هل في خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم** الريح. قالت: يا رب هل في خلقك شيء أشد من الريح؟ **قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه ويخفيها**

وروى عبد الله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل: حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال: سمعت النبي ﷺ قال لي: «يا معاذ» قلت لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال: «إنـي محدثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض، ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوّاباً عليها قد جللها عظماً فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين أمسى، له نور كنور الشمس، حتى إذا صعدت به إلى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك للحفظة: أضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري» قال: «ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم» قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نوراً من

عن شماله». وهكذا رواه أيضاً أحمد، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، والبيهقي، وأبو الشيخ في العظمة، والضياء في المختارة.

(**وروى عبدالله بن المبارك**) المروزي تقدمت ترجمته في كتاب العلم (**بإسناده عن رجل**) لم يسم (**أنه قال لمعاذ بن جبل**) رضي الله عنه: (**حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ. قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت، ثم سكت، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ قال لي: «يا معاذ» قلت: لبيك بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: إني محدثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة، يا معاذ إن الله عز وجل خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض، ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بواباً عليها قد جللها عظماً فتصعد الحفظة**) وهم الكرام الكاتبون (**بعمل العبد من حين يصبح إلى أن يمسي له نور كنور الشمس، حتى إذا طلعت به إلى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك**) الموكل بتلك السماء (**للحفظة**) الصاعدين بذلك العمل: (**اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري». قال: «ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بالسماء الثانية: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه فإنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا**) أي متاعها (**أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفتخر على الناس في مجالسهم» قال:**

صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري أنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم » قال : « وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدري له دوي من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به ظهره وبطنه ، أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله » قال : « وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه انا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري » قال : وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر أضرَّ به بل كان يشمت به ، أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن

« وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نوراً من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزن به إلى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه ، أنا ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم » . قال : « وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر) أي يضيء **(كما يزهر الكوكب الدري له دوي من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا به إلى السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا ظهره وبطنه ، أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان إذا عمل عملاً أدخل فيه العجب » . قال : « وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به إلى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه ، أنا ملك الحسد أنه كان يحسد الناس من تعلم ويعمل بعمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة ويحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري » قال : « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزن به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها : قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر ، بل كان يشمت به . أنا ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري » قال : « وتصعد**

لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري » قال: « وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوي كدوي الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واضربوا به جوارحه أقفلوا به على قلبه إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه أراد بعمله غير الله تعالى أنه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء وصيتاً في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي »، قال: « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عز وجل، فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله » قال: فيقول: « الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه انه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي، فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السموات كلها: عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع والأرض ومن فيهن ». قال معاذ: قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال: « اقتد بي وإن كان في عملك نقص، يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم،

الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صيام وصدقة وصلاة ونفقة واجتهاد وورع له دوي كدوي الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك يتجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا به جوارحه واقفلوا به على قلبه، أنا أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه أراد بعمله غير الله إنه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء وصيتاً في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي » . قال: « وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به الحجب كلها إلى الله عز وجل، فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله تعالى. قال: فيقول الله تعالى لهم: أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه أنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي، فتقول الملائكة كلها: عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السموات كلها: عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع ومن فيهن » . قال معاذ) رضي الله عنه: **(قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ. قال: « اقتد بي وإن كان في عملك نقص، يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك**

ولا تزك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك، ولا تناج رجلاً وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار. قال تعالى: ﴿والناشطات نشطاً﴾ [النازعات: ٢] أتدري من هن يا معاذ؟ قلت: ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: كلاب في النار تنشط اللحم والعظم» قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: «يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه» قال: فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث.

(وأما الآثار): فيروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطيء رقبته فقال: يا صاحب الرقبة أرفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب، ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو

عليك ولا تحملها عليهم، ولا تزك نفسك بذمهم، ولا ترفع نفسك عليهم، ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلاً وعندك آخر، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار. قال الله تعالى: ﴿والناشطات نشطاً﴾ أتدري ما هن يا معاذ؟ قلت: ما هن بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: كلاب في النار تنشط اللحم والعظم». قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: «يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه» قال: فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث) قال العراقي: هو كما قال المصنف رواه ابن المبارك بطوله في الزهد له. وفي إسناده كما ذكر رجل. ورواه ابن الجوزي في الموضوعات انتهى.

وبخط الكمال الدميري، قال الشيخ تقي الدين القشيري: الرجل المذكور هو خالد بن معدان انتهى. وخالد بن معدان هو أبو عبدالله الكلاعي الشامي ثقة عابد يرسل كثيراً عن معاذ، وربما كان بينهما اثنان كما ذكره الحافظ ابن حجر في التهذيب. وقال ابن عراق: ذكر هذا الحديث الحافظ المنذري في ترغيبه مخرجاً من الزهد لابن المبارك، وأشار إلى بعض الطرق المذكورة وغيرها، ثم قال: وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه في جميع طرقه وألفاظه، والله أعلم.

(وأما الآثار: فيروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يطأطيء رقبته في الصلاة فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب وإنما الخشوع في القلوب) أورده الاسماعيلي في مناقبه، **(ورأى أبو أمامة الباهلي)** رضي الله عنه **(رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك)** أشار بذلك إلى أنه يخاف

كان هذا في بيتك. وقال علي كرم الله وجهه: للمرائي ثلاث علامات؛ يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم. وقال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس، قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، الحديث. وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر، فقال له أتحب أن تمقت؟ قال: لا، قال: فإذا عملت لله عملاً فأخلصه. وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له وضرب عمر رجلاً بالدرة ثم قال له: اقتص مني! فقال لا بل أدعها لله ولك؟ فقال له عمر: ما صنعت شيئاً

عليه من الرياء، فأما إذا كان في جوف بيته فلا يطلع عليه أحد إلا الله. **(وقال علي رضي الله عنه: للمرائي ثلاث علامات، يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم)** نقله أبو الليث السمرقندي **(وقال رجل لعبادة بن الصامت)** الأوصي رضي الله عنه: **(أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله ومحمدة الناس. قال: لا شيء لك. فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول لا شيء لك. ثم قال في الثالثة: إن الله تبارك وتعالى يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك الحديث)**. وقد روي نحوه مرفوعاً من حديث أبي أمامة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: رأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر سأله فقال ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات يقول رسول الله ﷺ: «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه» ورواه أبو داود، والنسائي، والطبراني بسند جيد. وكذلك يروى عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يجاهد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من الدنيا. قال: «لا أجر له وأعظم الناس هذه». فعاد الرجل، فقال: «لا أجر له». رواه الحاكم وصححه والبيهقي.

(وسأل رجل سعيد بن المسيب) رحمه الله تعالى، **(فقال: إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له: أتحب أن تمقت؟ قال: لا. قال: فإذا عملت عملاً لله فاخلصه. وقال الضحاك)** بن قيس بن خالد بن وهب الفهري: أبو أنيس المشهور صحابي صغير قتل في مرج راهط، سنة أربع وستين، روى له النسائي: **(لا يقول أحدكم هذا الوجه الله ولوجهك، ولا يقول هذا لله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له)**. وقد روي ذلك عنه مرفوعاً بلفظ: «يقول الله أنا خير شريك فمن أشرك معي أحداً فهو لشريكه يا أيها الناس اخلصوا الأعمال لله فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص إليه، ولا تقولوا هذا لله وللرحم فإنه للرحم وليس لله منه شيء». **(وضرب عمر)** رضي الله عنه **(رجلاً بالدرة ثم قال له)** عمر: **(اقتصها مني. قال: لا بل أدعها لله ولك، فقال له عمر: ما صنعت شيئاً إما أن تدعها إليَّ فاعرف ذلك**

اما أن تدعها لـي فأعرف ذلك أو تدعها لله وحده، **فقال**: ودعتها لله وحده، **فقال**: فنعم **إذن**. وقال الحسن: لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة وإن كان أحدهم ليمر فيرى الاذى في الطريق فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة ويقال: إن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء يا مرائي يا غادر يا خاسر يا فاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا، وقال الفضيل بن عياض: كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون. وقال عكرمة: إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله

لك أو تدعها لله وحده. قال: ودعتها لله وحده. قال: فنعم إذاً) أخرجه الذهبي في نعم السمر من طريق داود بن عمرو الضبي، حدثنا ابن أبي قتيبة، حدثنا سلامة بن مسيح التميمي قال: قال الأحنف بـن قيس: قال: وفدنا على عمر بفتح عظيم فقال: أين نزلتم؟ قلت: في مكان كذا وكذا. فقام معنا إلى مناخ ركائبنا فجعل يتخللها ببصره ويقول: ألا اتقيتم الله في ركابكم، أما علمتم أن لها عليكم حقاً. الا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟ فقلنا: يا أمير المؤمنين إنا قدمنا بفتح عظيم فرجع ونحن معه فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فاعدني على فلان فإنه ظلمني فخفق رأسه بالدرة وقال: تدعون عمر وهو معرض لكم حتى إذا شغل في أمر من أمر المسلمين أتيتموه أعدني أعدني فانصرف الرجل يتذمر، فقال عمر: علي به فالقي إليه المخفقة فقال: اقتد. قال: لا ولكن أدعها الله ولك. قال: إما تدعها لله أولي؟ قال: أدعها لله. قال: انصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فافتتح الصلاة فصلى ركعتين وجلس، فقال: يا ابن الخطاب ألست كنت وضيعاً فرفعك الله تعالى، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله ثم حملك على رقاب المسلمين، فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟ فجعل يعاتب نفسه معاتبة ظننت أنه من خير أهل الأرض.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالى: **(لقد صحبت أقواماً إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى على الطريق فلا يمنعه أن لا ينحيه إلا مخافة الشهرة)** أخرجه أبو نعيم في الحلية. **(ويقال: إن المرائي ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مرائي يا غادر يا خاسر يا فاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له ولا أجر لك عندنا)**، وهذا قد روي مرفوعاً من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم بلفظ: «يا فاجر يا غادر يـا كافر يا خاسر» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص بسند ضعيف، وقد تقدم قريباً.

(وقال الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالى: **(كانوا يراءون بما يعملون وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون)** أخرجه أبو نعيم في الحلية. **(وقال عكرمة)** مولى ابن عباس: **(إن الله يعطي العبد على قدر نيته ما لا يعطيه على قدر عمله لأن النية لا رياء فيها)** نقله صاحب

لأن النية لا رياء فيها. وقال الحسن رضي الله عنه: المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح، وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء؟ فلا بدّ لقلوب المؤمنين أن تعرفه. وقال قتادة: إذا راءى العبد يقول الله تعالى، انظروا إلى عبدي يستهزىء بي. وقال مالك بن دينار، القراء ثلاثة: قراء الرحمن، وقراء الدنيا، وقراء الملوك، وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن. وقال[1] الفضيل: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إليّ. وقال محمد بن المبارك الصوري: أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار لأن السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين. وقال أبو سليمان: التوقي عن العمل أشد من العمل. وقال ابن المبارك: إن كان

القوت. **(وقال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى: **(المرائي يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول للناس: هو رجل صالح وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء)** جمع رديء، **(فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه)** أخرجه أبو نعيم في الحلية. **(وقال قتادة)** بن دعامة السدوسي البصري العابد الثقة: **(إذا راءى العبد يقول الله تبارك وتعالى: انظروا إلى عبدي يستهزىء بي)** أخرجه البيهقي في الشعب. **(وقال مالك بن دينار)** البصري رحمه الله تعالى: **(القراء ثلاثة: قراء الدنيا وقراء الملوك وقراء الرحمن وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن)** قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو عمر وعثمان بن محمد العثماني، حدثنا إسماعيل ابن علي، حدثنا هارون بن حميد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: إن من القراء قراء ذا وجهين إذا لقوا الملوك دخلوا معهم فيما هم فيه، وإذا لقوا أهل الآخرة دخلوا معهم فيما هم فيه، وقراء يكونوا من قراء الرحمن وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن.

حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا هارون، حدثنا سيار، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: القراء ثلاثة فقارىء للرحمن وقارىء للدنيا وقارىء للملوك. فيا هؤلاء محمد بن واسع عندي من قراء الرحمن.

حدثنا مخلد بن جعفر، حدثنا عبدالله بن محمد بن ناجية، حدثنا نصر بن علي قال: سمعت سفيان يقول: قال مالك بن دينار: للأمراء قراء وللأغنياء قراء وأن محمد بن واسع من قراء الرحمن.

(وقال محمد بن المبارك) بن يعلى القرشي أبو عبدالله **(الصوري)** القلانسي العابد، نزيل دمشق وشيخ الشام بعد أبي مسهر، ذكره ابن حبان في كتاب الثقات. قال: وكان مولده سنة ١٥٣ ووفاته سنة ٢١٥ روى له الجماعة: **(أظهر السمت بالليل فإنه أشرف من سمتك بالنهار لأن السمت بالنهار للمخلوقين وسمتك بالليل لرب العالمين. وقال أبو سليمان)** الداراني رحمه الله تعالى: **(التوقي على العمل أشد من العمل)**. وهذا قد روي مرفوعاً من حديث أبي الدرداء

---

(١) من قوله: «وقال الفضيل» إلى قوله: «فلينظر إليَّ» هذه العبارة لم ترد في سياق الشرح.

الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان، فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: يجب أن يذكر أنه مجاور بمكة. وقال ابراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أراد أن يشتهر.

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به:

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات، وإظهارها، فحدّ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله فالمرائي هو العابد

بلفظ: «إن الإتقاء على العمل أشد من العمل» رواه البيهقي بسند ضعيف، ونقل نحوه عن أبي بكر الواسطي قال: «حفظ الطاعة أشد من فعلها لأن مثلها مثل الزجاج لا يقبل الجبر». (**وقال ابن المبارك**) عبدالله رحمه الله تعالى: (**إن الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان**) أي قلبه متعلق بخراسان (**قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يجب أن يذكر أنه مجاور بمكة**) وهذا بخلاف قول بعضهم قوم بخراسان وقلوبهم بمكة. (**وقال إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالى: (**ما صدق الله من أراد أن يشتهر**) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

ومن الآثار قال محمد بن الحنفية: كل ما لا يبتغي به وجه الله مضمحل. أخرجه أبو نعيم في الحلية. وقال الربيع بن خيثم: ما لم يرد به وجه الله يضمحل. أخرجه ابن أبي شيبة. وعن أبي العالية قال: قال لي أصحاب محمد ﷺ: يا أبا العالية لا تعمل لغير الله فيكلك الله إلى ما عملت له. وقال ابن مسعود: من صلى صلاة والناس يرونه فليصل إذا خلا مثلها وإلا فإنما هي إستهانة يستهين بها ربه. أخرجه ابن أبي شيبة، ويأتي ذلك للمصنف في فصل الرياء بأوصاف العبادات.

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به:

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن الرياء**) بالكسر ممدوداً (**مشتق من الرؤية**) وهي النظر بحاسة البصر وقد راءى الشخص رؤية (**والسمعة**) بالضم (**مشتقة من السماع**) وقد سمعه وسمع له سمعاً وسماعاً والعمل إن كان إظهاره للناس قصداً لا أن يروه فيظنوا به خيراً أو يسمعوا به خيراً فسمعة، فالمقصود في كل منهما رؤية الخلق وسماعهم غفلة عن الخالق وعماية عنه. هذا ما تقتضيه اللغة وقد أشار إليه بقوله: (**وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير**) فيظنوا به خيراً ويكرموه، (**إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات و**) تارة (**تطلب بالعبادات، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها**) للناس، (**فحد الرياء هو إرادة المنزلة بطاعة الله عز وجل، فالمرائي**) على صيغة اسم الفاعل (**هو العابد**) يرائي الناس بعبادته، (**والمراءى له**) على صيغة

والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو: البدن، والزي، والقول، والعمل، والأتباع والأشياء الخارجة. وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأول: الرياء في الدين بالبدن:

وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر. وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم، فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة. ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وإن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته

اسم المفعول (**هم الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو**) اسم الخصال التي قصد المرائي إظهارها) لهم و(**الرياء هو قصده إظهار ذلك**) ولا يقع غالباً إلا عن غفلة عن الخالق وعمايته عنه، (**والمراءى به كثير ويجمعه خمسة أقسام هي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو: البدن والزي والقول والعمل والإتباع والأشياء الخارجة، وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال**) هي (**ليست من الطاعات أهون من الرياء بالطاعات**) إذ لا يظن به خيراً إلا لأجلها.

(**الأول: الرياء في الدين من جهة البدن: وذلك بإظهار النحول**) وهو السقم وقد نحل البدن ينحل نحولاً ونحل كتعب لغة فيه (**والاصفرار**) أي في لون الجسم (**ليوهم بذلك شدة الاجتهاد**) في العبادة (**وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الاخرة**) فإن من غلب عليه خوفها اصفر لونه ونحل جسمه، (**وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالاصفرار على سهر الليل وكثرة الإجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذا يرائي بتشعيث الشعر**) وانتشاره (**ليدل به على استغراق الهم بالدين**) أي أموره (**وعدم الفراغ لتسريح الشعر**) ودهنه، كما قيل لبشر الحافي: ألا تسرح لحيتك؟ فقال: إني إذاً لفارغ. (**فهذه أسباب متى ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور وارتاحت النفس لمعرفتهم بها، وكذلك تدعو النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة، ويقرب من هذا خفض الصوت**) إذا تكلم (**وإغارة العينين وذبول الشفتين**) أي يبسهما.(**ليستدل بذلك على أنه صائم مواظب على الصوم، وإن وقار الشرع هو الذي**

أو ضعف الجوع هو الذي ضعف من قوّته. وعن هذا قال المسيح عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه. وكذلك روي عن أبي هريرة، وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء، ولذلك قال ابن مسعود، أصبحوا صياماً مدهنين، فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن.

فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسبها.

(الثاني: الرياء بالهيئة والزي:

أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب واطراق الرأس في المشي والهدء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً، كل ذلك يرائي به

خفض من صوته وضعف الجوع هو الذي أضعف قوته) أي أوهنها. **(وعن هذا قال عيسى عليه السلام: إذ صام أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويرجل شعره ويكحل عينيه)** لئلا يرى الناس أنه صائم وقد تقدم قريباً بأتم منه، **(وكذلك روي عن أبي هريرة)** رضي الله عنه من قوله: **(وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء، ولذلك قال ابن مسعود)** رضي اللهعنهلأصحابه: **(أصبحوا صياماً)** جمع صائم **(مدهنين)** أي لئلا يرى عليكم الصوم. وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أحمد بن جعفر حدثنا عبدالله بن أحمد، حدثنا محمد بن جعفر الدركاني، أخبرنا شريك، عن أبي حصين، عن يحيى بن وثاب، عن مسروق، عن عبدالله قال إذا أصبح أحدكم صائماً ـ أو قال: ـ إذا كان أحدكم صائماً فليترجل، وإذا تصدق صدقة بيمينه فليخفها عن شماله، وإذا صلى صلاة أو صلى تطوّعاً فليصل في داخله **(فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن)**.

(وأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن) في البدن **(وصفاء اللون)** وذلك بكثرة المآكل والتأنق بأنواعها فإنه يوجب ذلك، **(واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسبها)** وكل ذلك يراءون به.

(الثاني: الرياء بالزي والهيئة).

(أما الهيئة فتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب) بتمامه أو إحفائه **(وإطراق الرأس)** على الأرض **(في المشي والهدء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه)** مما يلحقه من غبار أو غيره، **(وغلظ الثياب ولبس الصوف)** الخشن **(وتشميرها)** أي الثياب **(إلى قريب من نصف الساق، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً)** أو يرقعه بما ليس من جنسه، **(كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله**

ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوّف في الباطن. ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة واسبال الرداء على العينين ليرى به انه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة. ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم.

والمراءون بالزي على طبقات: فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا، ولو كلف أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا. وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ازدرتهم أعين الملوك والأغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات

الصالحين) في هيئاتهم، **(ومنه لبس المرقعة)** وهي ثوب يقع قطعاً ثم يرقع رقعاً ثم يخيط بالصوف ويسمى أيضاً بالخرقة وهي من لبس الصوفية، **(والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق)** المصبوغة بالنيل أو الصفر المصبوغة بالطين الأحمر. كل ذلك **(تشبهاً بالصوفية مع الإفلاس عن حقائق التصوف في الباطن)** وعدم السلوك على طريقتهم، **(ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى أنه انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامات)** فيكرم لذلك، **(ومنه الدراعة)** وهي المسماة بالطرحة **(والطيلسان)** وهو كساء أسود مربع وكل منها من زي العلماء **(وهو خال من العلم)** وإنما يفعل ذلك **(ليوهم)** الناس **(أنه من أهل العلم، والمراءون بالزي على طبقات فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة)** الذيل والأكمام **(الغليظة)** الخشنة **(ليرائي بغلظها وقصرها ووسخها وتخرقها)** بأنه من الزاهدين في الدنيا، **(ولو كلف)** هذا **(أن يلبس ثوباً نظيفاً وسطاً مما كان يلبسه السلف لكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بداله رأى من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا. وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء، ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة)** وفي نسخة الخلقة **(ازدرتهم)** أي احتقرتهم **(أعين الملوك والأغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الرقيقة)** من

المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها، ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الدبيقي والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح، قد رغبوا في زي أهل الدنيا، وكل طبقة منهم رأى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحاً خيفة من المذمة.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة.

المرعزي (**والأكسية الرفيعة**) الثمن (**والمرقعات المصبوغة**) بأنواع الألوان (**والفوط الرفيعة**) وفي نسخة: الرقيقة (**فيلبسونها، ولعل قيمة ثيابهم**) وفي نسخة قيمة ثوب أحدهم (**قيمة ثياب الأغنياء وهيئته ولونه هيئة ثياب الصلحاء فيلتمسون**) بذلك (**القبول عند الفريقين، وهؤلاء لو كلفوا لبس ثوب خشن**) من الكرباس الغليظ أو من الصوف (**أو**) ثوب (**وسخ**) أو مخرق، (**لكان عندهم كالذبح**) في الحلق (**خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس ثوب الدبيقي**) منسوب إلى دبيق وهي من قرى دمياط قد خربت منذ زمان كان يعمل فيها هذه الثياب المنسوجة بالحرير (**والكتان الرقيق الأبيض أو**) ثوب (**القصب المعلم، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح: قد رغب في زي أهل الدنيا، وكل طبقة منهم رأى منزلته في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو ما فوقه وإن كان مباحاً خوفاً من**) لحوق (**المذمة**) إليه.

(**وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة**) الناعمة (**والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس وأثاث البيت**) من الفرش المفتخرة (**وفره الخيل**) أي السمينة الموسومة و(**بالثياب المصبغة**) بأنواع الألوان (**والطيالسة النفيسة، وذلك ظاهر بين الناس فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة**) البذلة (**ويشتد عليهم لو برزوا للناس في تلك الثياب ما لم يبالغوا في الزينة**) والإصلاح والتسوية.

الثالث: الرياء بالقول:

ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار، لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهاراً لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والرد على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد افحام الخصم ليظهر للناس قوّته في علم الدين. والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا: فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

(الثالث: الرياء بالقول)

(ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير) على رؤوس الناس **(والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار)** النبوية **(والاثار)** والقصص، **(لأجل الإستعمال في المحاورة وإظهاراً لغزارة العلم)** وسعته **(ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالح، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف)** والحزن **(على مقارفة الناس)** أي ارتكابهم **(للمعاصي)** والبدع **(واضعاف الصوت)** وخفضه **(في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الحزن والخوف، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والرد على من يروي الحديث ببيان خلل في لفظه)** من جهة الإعراب أو الخطأ في المعنى **(ليعرف أنه بصير بالأحاديث)** خبير بها **(والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح)** أو موضوع أو باطل **(لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إفحام الخصم)** وتسجيله وتسكينه **(ليظهر للناس قوّته)** ومعرفته **(في علم الدين، والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.)**

(وأما أهل الدنيا؛ فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار) المناسبة للمجالس من دواوين شعر العرب **(و)** حفظ **(الأمثال)** والنوادر والوقائع **(والتفاصح في العبارات)** والتفنن فيها عند المحاورات **(وحفظ)** مسائل **(النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل)** والتميز عليهم **(وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب)** إليهم.

الرابع: الرياء بالعمل:

كمراءاة المصلي بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس. وترك الالتفات وإظهار الهدء والسكون وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام، وبالاخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى إن المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار واطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لإطلاع انسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء، وقد تضاعف به رياؤه، فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله وحياء منه.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا

(**الرابع: الرياء بالعمل: كمراآة المصلي بطول القيام ومد الظهر**) زيادة عن العادة (**وتطويل السجود والركوع وإطراق الرأس . وترك الالتفات**) يميناً وشمالاً (**وإظهار الهدء والسكون**) والطمأنينة (**وتسوية القدمين واليدين**) واصطفافهما، (**وكذلك**) المراءاة (**بالصوم والغزو والحج والصدقة وإطعام الطعام، و**) المراءاة (**بالإخبات في الشيء عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى أن المرائي قد يسرع في الشيء إلى حاجته، فإذا اطّلع عليه واحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفاً من أن ينسبه إلى العجلة**) والخفة (**وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، وإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء**) فتقوم عليه القيامة بسبب ذلك.
(**ومنهم من إذا سمع هذا استحيا أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير ويظن أنه يتخلص به من**) وصمة (**الرياء، و**) لا يدري أنه (**قد تضاعف به رياؤه فإنه صار في خلوته أيضاً مرائياً، فإنه إنما يحسن مشيته في خلوته ليكون كذلك في الملأ**) من الناس، (**لا لخوف من الله وحياء منه**).

(**وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالتبختر**) في المشي (**والاختيال وتحريك اليدين**) قصداً

والأخذ باطراف الذيل وادارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين:

كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ليقال ان فلاناً قد زار فلاناً، أو عابداً من العباد ليقال ان أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو ملكاً من الملوك أو عاملاً من عمال السلطان ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين. وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى انه لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: ومن لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلاناً وفلاناً ودرت البلاد وخدمت الشيوخ. وما يجري مجراه فهذه مجامع ما يرائي به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد. ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة؟ وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوّش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتد لذلك

(وتقريب الخطا والاخذ بأطراف الذيل) من اليمين والشمال **(وإرادة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة)** وعلو المنصب.

(الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء) مشهوراً **(ليقال: إن فلاناً قد زار فلاناً أو)** يستزير **(عابداً من العباد)** معروفاً **(ليقال: إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو)** يستزير **(ملكاً من الملوك)** أو أميراً من الأمراء **(أو عاملاً من عمال السلطان ليقال: إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين)** فيروّج بذلك حاله، **(وكذلك الذي يكثر ذكر الشيوخ)** في مجالستهم **(ليرى أنه)** قد **(لقي شيوخاً كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه)** ويقول كما قال الفرزدق:

أولئـك آبـائـي فجئني بمثلهـم ... إذا جمعتنـا يـا جريـر المجـامـعُ

(فمباهاته ومراءاته تترشح عند مخاصمته فيقول لغيره: ومن لقيت من الشيوخ وأنا لقيت فلاناً وفلاناً ودرت البلاد) وقطعت الوهاد **(وخدمت الشيوخ)** وتلقيت عنهم كذا وكذا. **(وما يجري مجراه)** من الدعاوى، **(فهذا مجامع ما يرائي به المراءون وكلهم يطلبون به الجاه والمنزلة في قلوب العباد. ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه. فكم من راهب انزوى إلى دير سنين كثيرة، وكم من عابد اعتزل)** الناس **(إلى قلة جبل شاهق مدة مديدة وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق، ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوّش قلبه)** من تلك النسبة **(ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته)** من تلك

غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه ـ فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه ـ فإنه نوع قدرة وكمال في الحال وإن كان سريع الزوال لا يغتربه إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال، ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد. ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه. ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة. ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء عشر طبقات المرائين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها، فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ فأقول فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث أنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل

الجريمة، (**بل يشتد بذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم مع أنه قد قطع طمعه في أموالهم**) فلا تخطر له ببال، (**ولكنه يحب مجرد الجاه فإنه لذيذ كما ذكرناه في**) بيان (**أسبابه، فإنه نوع قدرة واستيلاء وكمال في الحال، وإن كان سريع الزوال لا يغتر به إلا الجهال ولكن أكثر الناس جهال**) غلب عليهم الجهل والغرور. (**ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته**) في القلوب (**بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد. ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد**) البعيدة (**لتكثر الرحلة إليه**) للاخذ والتلقي، (**ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك**) والوزراء (**لتقبل شفاعته عندهم وتنجز الحوائج**) للناس (**على يديه فيقوم له به جاه عند العامة، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال**) من أي وجه كان، (**ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام. وهؤلاء شر طبقات المرائين** الذين يراءون بالأسباب **التي ذكرناها. فهذه حقيقة الرياء وما يقع به الرياء**).

(**فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح**) كل ذلك على الإطلاق (**أو فيه تفصيل؟ فأقول: فيه تفصيل، فإن الرياء هو طلب الجاه وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث أنه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات**) شرعاً (**فكذلك الجاه**) يمكن تحصيله بمثل تلك الأسباب، (**وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج إليه**

من المال وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضاً محمود، وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿إني حفيظ عليم﴾ [يوسف: ٥٥] وكما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه، وكما أن كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضاً تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال، ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها، وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم، فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة وهو لبس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم. والدليل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ أراد أن يخرج يوماً إلى الصحابة فكان

الإنسان محمود فكذلك كسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به من الآفات محمود)، ولكن من غير حرص على طلبه ومن غير اغتمام على زواله بلا ضرر فيه، (**وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام**) من عزيز مصر (**حيث قال**) له: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ (﴿**أني حفيظ عليم**﴾) كما تقدم قريباً، (**وكما أن المال فيه**) من وجه (**سم ناقع و**) من وجه (**درياق نافع، فكذلك الجاه. وكما أن كثير المال يلهي**) عن الطاعات (**ويطغي وينسي ذكر الله تعالى والدار والآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد، لأن فتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول: تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حمله كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز**) شرعاً. (**نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال، ولا يقدر محب المال والجاه على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها، فأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام**) منك (**بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وجاه الخلفاء الراشدين**) من بعده (**ومن بعدهم من علماء الدين، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم، فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة**) لغة (**وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم**) في المسكن والمركب. (**والدليل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أراد أن يخرج**

ينظر في حب الماء ويسوّي عمامته وشعره فقالت: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ قال: « نعم إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم » نعم هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه، فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم، فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر، فكان ذلك قصد رسول الله ﷺ ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمهم ولؤمهم واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمراً مباحاً، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الانس بالإخوان ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم.

فإذاً المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها. ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخي فهذا مراءاة وليس بحرام وكذلك أمثاله.

يوماً على أصحابه فكان ينظر في حب الماء) أي الدن الذي فيه الماء **(ويسوّي عمامته وشعره فقالت: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال « نعم إن الله يحب من العبد أن يتزين إذا خرج لإخوانه »)** رواه ابن عدي في الكامل وقد تقدم في كتاب أسرار الطهارة. **(نعم هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق إلى الله تعالى وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه فكان يجب عليه أن يظهر محاسن أحواله لكيلا تزدريه)** أي تحتقره **(أعينهم، لأن أعين عوم الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر، فكان ذلك قصد رسول الله ﷺ)** وهي مصلحة شرعية، **(ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم حذراً من ذمهم ولؤمهم واسترواحاً إلى توقيرهم واحترامهم كان قصداً مباحاً، إذ للإنسان الحذر من ألم المذمة ويطلب راحة الإنس بالاخوان، ومهما استقذروه واستثقلوه لم يأنس بهم).**

(فإذاً المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها، ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق ماله جماعة من الأغنياء) إطعاماً لهم وإغداقاً عليهم **(لا في معرض العبادة والصدقة، ولكن ليعتقد الناس أنه سخي)** كريم بذول **(فهذه مراءاة ليست بحرام وكذلك أمثاله).**

أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان إحداهما: أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات، وهذا ليس يقصد العبادة، ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصي بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات.

والمعنى فيه أمران:

أحدهما: يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته إثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر.

والثاني: يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزىء بالله. ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته أنظروا إليه كيف يستهزىء بي.

ومثاله أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك أو غلام من غلمانه، فإن هذا استهزاء بالملك إذ

(**وأما**) الرياء (**بالعبادات كالصدقة والصلاة والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان: إحداهما أن لا يكون قصد إلا الرياء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأن الاعمال بالنيات**) والقَصود، (**وهذا ليس بقصد العبادة ثم لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصي بذلك ويأثم لما دلت عليه الأخبار والآيات**).

(**والمعنى فيه أمران**).

(**أحدهما: يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضاً، حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس أنه متبرع عليهم**) أي لوجه الله (**ليعتقدوا سخاوته**) وكرمه (**إثم لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر**).

(**الثاني: يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى الناس**) وفي نسخة الخلق (**فهو مستهزىء بالله عز وجل. ولذلك قال قتادة**) بن دعامة البصري رحمه الله: (**إذا راءى العبد**) بعمله (**قال الله تبارك وتعالى للملائكة: انظروا إلى عبدي كيف يستهزىء بي.**) كما تقدم قريباً.

(**ومثاله**) في الظاهر: (**أن يتمثل**) الرجل (**بين يدي ملك من الملوك طول النهار**) أي يقف (**كما جرت**) به (**عادة الخدمة**) في وقوفهم، (**وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري**

لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته؟ وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سماه رسول الله ﷺ الشرك الأصغر.

نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض ـ كما سيأتي بيانه في درجات الرياء إن شاء الله تعالى ـ ولا يخلو شيء منه عن اثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله

الملك أو غلام من غلمانه، فإن هذا استهزاء بالملك إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته بل قصد به عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله مراءاة عبد ضعيف لا يملك ضراً ولا نفعاً وهل ذلك إلا أنه ظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل اغراضه من الله تعالى؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله تعالى إذ آثره) أي اختاره **(على ملك الملوك)** جل جلاله **(فجعله مقصود عبادته؟ وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى)** السيد المالك؟ **(فهذا من كبائر المهلكات ولذلك سماه رسول الله ﷺ «الشرك الأصغر»)** قال العراقي: رواه أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم. ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد، عن رافع بن خديج فجعله من مسند رافع وقد تقدم قريباً، وللحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس: كنا نعد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشرك الأصغر اهـ.

قلت: حديث شداد بن أوس هذا رواه كذلك ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن مردويه في التفسير، والبيهقي في الشعب ولفظهم: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر.

وأما لفظ حديث محمود بن لبيد، ورافع بن خديج «إن أخوف ما ا أخاف عليكم الشرك الأصغر» الحديث وقد تقدم.

وأخرج ابن أبي شيبة من حديث محمود بن لبيد «اياكم وشرك السرائر» قالوا: وما شرك السرائر؟ قال: «أن يقوم أحدكم يريد صلاته جاهداً لينظر الناس إليه فذلك شرك السرائر». ولابن مردويه من حديث أبي هريرة «اتقوا الشرك الأصغر». قالوا وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء» الحديث، ورواه أيضاً كذلك الأصفهاني في الترغيب والترهيب.

(نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض كما سيأتي بيانه) قريباً بعد هذا الفصل **(في درجات الرياء ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يركع ويسجد لغير الله لكان فيه كفاية، لأنه إذا لم يقصد التقريب إلى الله**

فقد قصد غير الله ، ولعمري لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً ، إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرائي عظم في قلبه الناس ، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك ، إلا أنه إن قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله ، فعن هذا كان شركاً خفياً لا شركاً جلياً ، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى ، فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكون لغيرهم هذا في الدنيا ؟ فكيف في يوم ولا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل تقول الأنبياء فيه نفسي نفسي ؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس ؟ فلا ينبغي ان نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر

تعالى فقد قصد غير الله، لعمري ولو عظم غير الله بالسجود لكفر كفراً جلياً إلا أن الرياء هو الكفر الخفي لأن المرائي عظم في قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يركع ويسجد لهم فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه، ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق كان ذلك قريباً من الشرك إلا أنه إن قصد تعظيم نفسه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله، فمن هذا كان شركاً خفياً لا شركاً جلياً، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان) بغروره **(وأوهم عنده أن العباد يملكون من نفعه وضره ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه** الناس فذلك عدل) أي صرف (بوجهه عن الله تعالى إليهم فأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ، ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه) ذلك . **(فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف لغيرهم هذا في الدنيا ؟ فكيف في)** الآخرة **(يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً بل يقول الأنبياء)** عليهم السلام مع جلالة قدرهم **(فيه نفسي نفسي)** كما جاء في حديث الشفاعة الطويل **(فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله تعالى ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس)** ؟ فإذا عرفت ذلك **(فلا ينبغي أن تشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعاً هذا إذا لم**

والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص. وقد ذكرنا حكمه في كتاب الإخلاص. ويدل على ما نقلناه من الآثار قول سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت: أنه لا أجر له فيه أصلاً.

بيان درجات الرياء:

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه وأركانه ثلاثة: المراءى به والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الثواب فإن كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعاً:

الأولى: وهي أغلظها ان لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرد

يقصد الأجر **فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته فهذا الشرك الذي يناقض الإخلاص. وقد ذكرنا حكمه في كتاب الاخلاص)** على ما سيأتي إن شاء الله تعالى. **(ويدل على ما نقلناه من الآثار)** فيا تقدم قريباً **(من قول سعيد بن المسيب)** رحمه الله تعالى. **(و)** من قول **(عبادة بن الصامت)** رضي الله عنه وغيرهما: **(أنه لا أجر له فيه أصلاً)** ومثله في الحديث المرفوع عن أبي أمامة وغيره كما قدمنا ذكره قريباً، والله الموفق.

بيان درجات الرياء:

(اعلم) وفقك الله تعالى **(أن بعض درجات الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوف الدرجات فيه وأركانه ثلاثة: المراءى به والمراءى لأجله ونفس قصد الرياء)**.

(الركن الأول: نفس قصد الرياء) ذكره في السياق آخراً وقدمه في البيان لشدة الاهتمام به فقال: **(وذلك لا يخلو ما أن يكون مجرداً دون إرادة عبادة الله والثواب، وإما أن يكون مع إرادة الثواب، فإن كان كذلك** فلا يخلو .أما أن يكون إرادة **الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعاً:)**

الدرجة **(الأولى: وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً)**، وهذا **(كالذي يصلي بين أظهر الناس)** أي في مشهد منهم **(ولو انفرد)** بنفسه **(لكان لا يصلي، بل ربما**

قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى. وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولو خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء.

الثانية: أن يكون له قصداً لثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله، ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل، فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والاثم.

الثالثة: أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين، بحيث لو كان كل واحد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص.

الرابعة: أن يكون إطلاع الناس مرجحاً ومقوّياً لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذي نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط

يصلي من غير طهارة مع الناس، فهذا جرد قصده الى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى، وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب، ولو خلا بنفسه لما أداها، فهذا الدرجة العليا.) .

(الدرجة الثانية: **أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصداً ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل، ولو لم يكن قصد الثواب لكان قصد الرياء يحمله على ذلك العمل، فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والإثم)** عند الله تعالى.

(الدرجة الثالثة: **أن يكون قصد الثواب وقصد الرياء متساويين، بحيث لو كان كل واحد خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل، فلما اجتمعا انبعثت الرغبة أو كان كل واحد لو انفرد لاستقل بحمله على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح منرجو أن يسلم رأساً برأس لا له ولا عليه، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب، وظواهر الأخبار)** الماضية (**تدل على أنه لا يسلم وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص)** فيما سيأتي،

(الدرجة الرابعة: **أن يكون إطلاع الناس عليه مرجحاً ومقوياً لنشاطه)** وفي نسخة، وهو الذي يبعث بالنشاط (**ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه، فالذي نظنه والعلم** عند الله **أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على**

أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله ﷺ: « يقول الله تعالى: يا أغنى الأغنياء عن الشرك » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءى به، وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها.

القسم الأول وهو الأغلظ: الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل: ﴿إذا جاءَكَ المنافقُونَ قالُوا نشهَدُ انَكَ لرسُولُ اللهِ واللهُ يعلـمُ إنكَ لرسُولُهُ واللهُ يشهد أنَّ المنافقِينَ لكاذبُونْ﴾ [المنافقون: ١] أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم. وقال تعالى: ﴿ومِنَ النّاس مَنْ

مقدار ما قصد من الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب) فيه، **(وأما قوله تعالى)** فيما روي عنه في حديث قدسي: **(أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»)** من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه. رواه مسلم، وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « أغنى الشركاء » وقد تقدم قريباً **(فهو محمول على ما إذا تساوى فيه القصدان)**، قصد الرياء وقصد الثواب. **(أو كان قصد الرياء أرجح)** والله أعلم.

(الركن الثاني: المراءى به، وهو الطاعات، وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات وإلى الرياء بأوصافها).

(القسم الأوّل: وهو الأغلظ: الرياء بالأصول وهو على ثلاث درجات).

(الدرجة الأولى: الرياء بأصل الإيمان وهو أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة) بلسانه **(وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه مراء بظاهر الإسلام)** وقاية لحاله، **(وهو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالُوا نشهدُ أنَّك لرسولُ اللهِ﴾)** الشهادة اخبار عن علم من الشهود وهو الحضور والاطلاع، ولذلك صدق المشهود به وكذبهم بالشهادة بقوله: **(﴿والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون﴾ أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم)** لأنهم لم يعتقدوا ذلك ثم قال: ﴿اتَّخذوُا أيْمَانَهُم جُنَّةً فَصَدوا عَنْ سبيـلِ اللهِ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذلك بأنَّهم آمَنُوا﴾ أي ظاهراً ﴿ثمّ كَفَروُا﴾ أي سراً ﴿فطبَعَ علىَ قُلوُبِهِمْ﴾ أي حتى تمرنوا على الكفر واستحكموا فيه. ﴿فهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣٢٢] أي حقيقة الإيمان ولا

يُعجبُكَ قَوْلُه في الحياةِ الدُّنْيَا ويشهدُ اللهَ عَلَى ما في قلبِهِ وهوَ ألدُّ الخصام★ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسدَ فيهَا﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥] الآية. وقال تعالى: ﴿وإذا لقُوكُمْ قالُوا آمنَّا وإذَا خَلوْا عضوُّا عَلَيْكُم الأناملَ مِنَ الغيظ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿يـراؤُنَ النّاسَ ولاَ يـذكـرُونَ اللهَ إلا قليلاً ★ مـذبـذبِينَ بين ذلـك﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣] والآيات فيهم كثيرة. وكان النفاق يكثر في إبتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض، وذلك مما يقل في زماننا، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً فيجحد الجنةَ والنار والدار الآخرة ميلاً إلى قول الملحدة، أو يعتقد على بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين في النار، وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشد حالاً من الكفار المجاهرين، لأنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضاً عظيم عند الله

يعرفون صحته. (**وقال تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهدُ الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام﴾**) أي أشدهم عناداً ولجاجة وخصومة. (**﴿وإذا تولَّى سَعَى في الأرضِ**) ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ (**الآية**) إلى آخرها. وقال تعالى: ﴿وإذا لقوكُم قالُوا آمنَّا) أي بألسنتهم (**وإذا خَلَوْا**) أي انفردوا بأنفسهم (**عضُوا عليكم الأناملَ من الغَيْظِ**) ﴿قُلْ مُوتوا بغيظكم إنَّ الله عليم بذاتِ الصدور﴾. (**وقال تعالى: ﴿يُراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ والآيات فيهم كثيرة. وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض**) من الأغراض كحماية النفس والمال والعرض، وكالطمع في الدنيا وغير ذلك (**وذلك مما يقل في زماننا**) بل وقبل زمانه (**ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً**) انسلالاً خفياً (**فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة**) من أصلها (**ميلاً إلى قول الملحدة**) وهم في زمن المصنف عرفوا بالباطنية يدعون ان للقرآن ظاهراً وباطناً، وأنه مخالف الظاهر وأنهم يعلمون الباطن، فأحالوا بذلك الشريعة لأنهم تأولوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن، (**أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة**) القائلين بسقوط التكليف عن العبد إذا بلغ مقام اليقين، (**أو يعتقد كفراً أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين في النار وليس وراء هذا الرياء رياء**) إذ هو آخر درجاته، (**وحال هؤلاء أشدّ من حال الكفار المجاهرين**) بالكفر، (**لأنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر**). أعاذنا الله منه بمنه.

(**الدرجة الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، وهذا أيضاً عظيم عند**

ولكنه دون الأوّل بكثير . ومثاله : أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمه، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها، أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة ولكن خوفاً من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك . فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند إطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته في محمدتهم أشد من رغبته في ثواب الله وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الإعتقاد .

الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله: أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمه) أي أن يلحقه ذم من الناس، **(والله تعالى يعلم أنه لو كان في يديه)** ومتمكنّاًمنه **(لما أخرجها)** بخلاً منه، **(أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع)** من الناس **(فيصلي معهم وعادته ترك الصلاة في الخلوة)** إذا كان منفرداً بنفسه، **(وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، وكذلك يحضر الجمعة)** مع الناس **(ولولا خوفه المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة لكن خوفاً من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك)** دفعاً لشين العر والذم عنه فقط، **(فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله يعتقد أنه لا معبود سواه ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغير الله لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند إطلاع الناس)**، وإليه أشار علي رضي الله عنه بقوله: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان مع الناس كما تقدم في الآثار .

وروى صاحب الحلية من طريق عقيل بن معقل قال: سمعت عمي وهب بن منبه يقول: إن لكل شيء علامة يعرف بها ويشهد له أو عليه فذكر الحديث. وفيه: وللمنافق ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان أحد عنده، ويحرص في كل أمره على المحمدة. **(فتكون منزلته عند الخلق)** في قلوبهم **(أحب إليه من منزلته عند الخالق، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، ورغبته في محمدتهم أشد من رغبته في ثواب الله تعالى، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت)** من الله تعالى، **(وإن كان غير منسل من أصل الإيمان من حيث الاعتقاد)** .

الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب، ثم يبعثه الرياء على فعلها، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت، وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الإثنين والخميس. فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمة وطلباً للمحمدة، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض، فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله، فإن الذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق. وهذا أيضاً قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها، وكأنه على الشطر من الأوّل وعقابه نصف عقابه. فهذا هو الرياء بأصول العبادات.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضاً على ثلاث درجات:

الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه ان يخفف الركوع والسجود ولا يطوّل القراءة فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين، وقد قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه

(الدرجة الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض ولكن يرائي فالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصى) الله تعالى بتركها، **(ولكن يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثاره لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ثم يبعثه الرياء على فعله وذلك كحضور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنائز وغسل الميت وكالتهجد بالليل وصيام)** يومي **(عرفة وعاشوراء و)** صوم **(يوم الإثنين والخميس، فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفاً وطلباً للمحمدة)** من الناس، **(ويعلم الله تعالى أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض، فهذا أيضاً عظيم)** عند الله تعالى، **(ولكن هو دون ما قبله فإن الذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق، وهو أيضاً قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون الخالق، فكان ذم الخلق عنده أعظم من عقاب الله تعالى، وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها، وكأنه على الشطر من الأول وعقابه نصف عقابه، فهذا هو الرياء بأصول العبادات)** .

(القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها، وهو أيضاً على ثلاث درجات) .

(الدرجة الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات) يميناً وشمالاً، **(وقد قال ابن مسعود: من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بهاربه)**

عز وجل، أي إنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة، فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة، ومن جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديماً للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة ـ وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفاً من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة. فهذا أيضاً من الرياء المحظور لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوّعات.

فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية؟ فيقال له: هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس وليس الأمر كذلك، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر، وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك لينال منه فضلاً وولاية يتقلدها، فيهديها إليه وهي عوراء

أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف بلفظ: من صلى صلاة والناس يرونه فليصل إذا خلا مثلها وإلا فإنما هي استهانة يستهين بها ربه. وأخرجه أيضاً عن حذيفة مثله. **(أي ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة، فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة)** وأتمها ركوعاً وسجوداً وقراءة، **(ومن جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان تقديماً للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة. وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفاً من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم، بل خوفاً من المذمة. فهذا أيضاً من الرياء المحظور لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوّعات، فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن)** الوقوع في **(الغيبة فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا ألسنتهم بالذم والغيبة، فإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية فيقال له: هذه مكيدة من الشيطان وتلبيس)** وتغرير وخداعات. **(وليس الأمر كذلك، فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك من غيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكانت شفقتك على نفسك أكثر وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة)** أي جارية **(إلى ملك)** من الملوك **(لينال منه)**

قبيحة مقطوعة الأطراف ولا يبالي به إذا كان الملك وحده وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفاً من مذمة غلمانه، وذلك محال بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر.

نعم للمرائي فيه حالتان: إحداهما أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعاً. والثانية: أن يقول: ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود، ولو خففت كانت صلاتي عند الله ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ولا أرجو عليه ثواباً، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى نظر. والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص، فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله فإن ذلك استهزاء كما سبق.

الدرجة الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود، ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على السورة المعتادة،

فضلاً و (**ولاية يتقلدها فيهديها إليه وهي عوراء**) أي معيبة (**قبيحة**) الصورة (**مقطوعة الأطراف، ولا يبالي به إذا كان الملك وحده، وإذا كان عنده بعض عبيده امتنع خوفاً من مذمة غلامه وذلك محال، بل من يُراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر**).

(**نعم للمراءي فيه حالتان: إحداهما:أن يطلب بذلك المنزلة في**) القلوب (**والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعاً. الثانية: أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود، ولو خففت كانت صلاتي عند الله ناقصة وآذاني الناس بغيبتهم وذمهم، فاستفيد بتحسين الركوع الهيئة دفع مذمتهم**) عني (**ولا أرجو عليه ثواباً**) في الآخرة، (**فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة. فهذا فيه أدنى نظر، والصحيح أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص**) في صلاته، (**فإن لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله تعالى، فإن ذلك استهزاء كما سبق**) من قول قتادة.

(**الدرجة الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة للعبادة كالتطويل في الركوع والسجود ومد القيام**) بتطويل القراءة فيه، (**وتحسين الهيئة في رفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى**) مع الإمام، (**وتحسين الاعتدال والزيادة**

وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت، وكاختيار الأجود على الجيد في الزكاة واعتاق الرقبة الغالية في الكفارة. وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه.

الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأوّل وتوجهه إلى يمين الامام وما يجري مجراه. وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائي به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم.

الركن الثالث: المراءي لأجله، فإن للمرائي مقصوداً لا محالة، وإنما يرائي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة، وله أيضاً ثلاث درجات:

الأولى: وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من معصية الله، كالذي يرائي بعباداته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولي القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها، أو يودع الودائع فيأخذها

في القراءة على السورة المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت وكاختيار الأجود على على الجيد في) إخراج **(الزكاة واعتاق الرقبة الغالية)** الثمن **(في الكفارة. وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لا يقدم عليه).**

(الدرجة الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة من نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام وما يجري مجراه. وكل ذلك يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف) ومتى **(يحرم بالصلاة؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يراءي به وبعضه أشد من بعض والكل مذموم)** وصاحبه ممقوت عند الله تعالى والله الموفق.

(الركت الثالث: المراءي لأجله، فإن للمرائي مقصوداً لا محالة فإنه لا يرائي إلا) وفي نسخة: فإنما يرائي **(لإدراك مال أو جاه أو غرض لا محالة، وله أيضاً ثلاث درجات).**

(الدرجة الأولى: وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصده التمكن من معصية الله، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع من أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالأمانة) عندهم **(فيولى)** منصب **(القضاء أو الأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما يقدر عليه منها، أو**

الحياء ولولا الحياء لرده، ولو جاء من لا يستحي منه من الأجانب والأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب. والمرائي يستحي من المباحات أيضاً، حتى أنه يرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدوّ أو ضاحكاً فيرجع إلى الانقباض، ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء. وقد قيل: إنَّ بعض الحياء ضعف وهو صحيح، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة وهو في الصبيان والنساء محمود وفي العقلاء غير محمود. وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحي من شيبته أن تنكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن تستحي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوي يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر

الحياء ولولا الحياء لرده، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب والأراذل لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه، فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا إلا في القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب) أي ملابستها. **(والمرائي يستحي من المباحات أيضاً، حتى أنه يرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدوّ)** أي السكون، **(أو)** يرى **(ضاحكاً فيرجع إلى الانقباض، ويزعم ان ذلك حياء وهو عين الرياء. وقد قيل: إن بعض الحياء ضعف وهو)** قول **(صحيح، والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وإمامة الناس في الصلاة وهو في النساء والصبيان محمود وفي العقلاء)** البالغين **(غير محمود. وقد تشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته أن ينكر عليه لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم)** كما ورد في الخبر «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم».رواه ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وأبو داود، والطبراني، والبيهقي، والخرائطي في مكارم الاخلاق من حديث جابر «إن إكرام جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم». **(وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن تستحي من الله فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوي يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه)**.

وقال النووي في شرح مسلم: وأما كون الحياء خيراً كله ولا يأتي إلا بخير، فقد يشكل على بعض الناس من حيث أن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق من يجله فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقد يحمل على الإصلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما معروف في العادة. قال: وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة، منهم الشيخ ابن الصلاح: إن هذا المانع الذي ذكرناه ليس الحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما التسمية حياء من إطلاقهم. يعني أهل العرف أطلقوا مجازاً لمشابهته للحياء الحقيقي، وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، والله أعلم.

عليه، فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب.

الثامن: أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به، وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدوة ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدي به، وبهذه العلة ينبغي أيضاً أن يخفي العاصي أيضاً معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه.

ففي ستر الذنوب: هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد، ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائياً كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة.

فإن قلت: فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه، وقد قال رجل للنبي ﷺ دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام يحبوك»؟ فنقول: حبك لحب الناس لك قد يكون

(فهذه الأسباب هي التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب) وقد ذكر المصنف منها ستة ولم يذكر الوجه السبع، وتقدم له في أول الكلام أنها ثمانية أوجه، وقد راجعت غالب نسخ المتن فوجدت الوجه السابع ساقطاً فيها، فانظر ذلك الوجه.

(الثامن: أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به، وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة وهو القدرة ويختص ذلك بالائمة أو بمن يقتدي به، وبهذه العلة ينبغي أن يخفي العاصي أيضاً معصيته من أهله وولده لأنهم يتعلمون منه) إذا اطلعوا عليها منه.

(ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية، وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد، ومهما قصد ستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع كان مرائياً. كما إذا قصد ذلك باظهار الطاعة) كلاهما على حد سواء.

(فإن قلت: فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم إياه بسببه، وقد قال رجل للنبي ﷺ: دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس فقال «ازهد في الدنيا) من الزهد بالضم وهو لغة الإعراض عن الشيء احتقاراً وشرعاً. الاقتصار على قدر الضرورة مما يتقي حله. والمراد بالزهد في الدنيا باستصغار جملتها واحتقار جمع شأنها لتحذر الله منها واحتقاره لها. **(يحبك الله وانبذ إليهم هذا الحطام)** أي ارم لهم بما في يدك من أعراض الدنيا **(يحبوك»)**؟ لأن قلوبهم مجبولة مطبوعة على حب الدنيا، ومن نازع انساناً في محبوبه كرهه وقلاه ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه. قال العراقي: رواه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ «وازهد مما في أيدي الناس يحبك الناس».

ويجحدها، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي. وقد يظهر بعضهم زي التصوّف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام. وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلماً إلى معصيته واتخذوها آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم، ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصرٌّ عليها ويريد ان ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال انه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة، كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال

يودع) عنده **(الودائع فيأخذها أو يجحدها، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل)** أي يقتطع **(بعضها أو كلها، أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي. وقد يظهر بعضهم زي التصوّف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور، وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النسوان والصبيان، أو يخرج إلى الحج ومقصده الظفر بمن في الرفقة من غلام أو امرأة. وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى لأنهم جعلوا طاعة الله سلماً لمعصيته واتخذوها آلة وبضاعة ومتجراً لهم في فسقهم)** وخبيث صنعهم، **(ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذي جحد وديعة)** لإنسان **(فاتهمه الناس بها فتصدق بالمال ليقال أنه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام فيدفع عنه التهمة بالخشوع وإظهار التقوى)** حتى لا يظن به ذلك.

(الدرجة الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة) الصورة، **(كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له**

وترغب في نكاحه النساء فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها، أو امرأة شريفة على الجملة وكالذي يرغب في أن يتزوّج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته، فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأوّل، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة: أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد أنه من جملة العامة كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال انه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن. ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلم منه انه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير، وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام. ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً

الأموال وترغب في نكاحه النساء فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها، أو امرأة شريفة) في قومها (**على الجملة وكذلك يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته. فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع**) الحياة (**الدنيا ولكنه دون الأولى، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه**).

الدرجة الثالثة: **أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ولكن عبادته خيفة من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والعباد**) وفي نسخة بدله والزهاد (**ويعتقد أنه من جملة العامة ومن آحاد الناس كالذي يمشي**) في طريق (**مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي بهيئته ويترك العجلة**) والإسراع (**كيلا يقال أنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار**) والخشوع. (**وكذلك يسبق إلى الضحك أو يبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار**) والحوقلة (**وتنفس الصعداء وإظهار الحزن**) وتغير اللون. (**ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله تعالى يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك، وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين التوقير**) والتعظيم. (**وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح ويتهجدون أو يصومون الإثنين والخميس أو يتصدقون فيوافقهم**) في فعلهم (**خيفة أن ينسب الى الكسل ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً منه، وكالذي يعطش في يوم عرفة وعاشوراء أو في الاشهر الحرم فلا يشرب**

من أن يعلم الناس انه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجلهم أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن أنه صائم وقد لا يصرح بأنه صائم ولكن يقول: لي عذر، وهو جمع بين خبيثين، فإنه يرائي أنه صائم ثم يرائي أنه مخلص ليس بمراء، وإنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال انه ساتر لعبادته، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم، أو يقول أفطرت تطييباً لقلب فلان، ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كيلا يظن به أنه يعتذر رياء ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً، مثل أن يقول: أن فلاناً محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح علي اليوم ولم أجد بداً من تطييب قلبه. ومثل أن يقول ان أمي ضعيفة القلب مشفقة علي تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أصوم. فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن. أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه؟ فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً، أو إن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره، وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره

خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم، فإذا ظنوا به الصوم امتنع من الأكل لأجلهم، أو يدعى إلى الطعام فيمتنع) من الأكل **(ليظن أنه صائم وقد لا يصرح بأنه صائم ولكن يقول لي عذر، وهو جمع بين خبيثين، فإنه يرائي أنه صائم ثم يرائي أنه مخلص ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال ساتر لعبادته، ثم أنه إن اضطر إلى شرب)** ماء **(لم يصبر عن أن يذكر لنفسه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض اقتضى فرط العطش)** ولو لم يشرب لتضرر **(ويمتنع)** لأجل ذلك **(من الصوم أو يقول: افطرت تطييباً لقلب فلان)** ويسميه **(ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أنه يعتذر رياء، ولكنه يصبر ثم يذكر عذراً في معرض حكاية)** يسوقها **(مثل أن يقول: إن فلاناً)** ويسميه باسمه **(محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح علي اليوم ولم أجد بداً من تطييب قلبه)** فوافقته. **(ومثل أن يقول: إن أمي ضعيفة القلب مشفقة عليَّ تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تدعني أن أصوم)** رعاية لخاطرها. **(فهذا وما يجري مجراه علامات الرياء ولا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن)** وتمكنه منه. **(أما المخلص فلا يبالي كيف نظر الخلق إليه، فإن لن تكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبساً، وإن كانت له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيره وقد يخطر له)** بباله **(إن في إظهاره**

به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور ـ وسيأتي شرح ذلك وشروطه ـ.

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر، يزل فيه فحول العلماء فضلاً عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم.

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل:

اعلم أن الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد

اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور، وسيأتي شرح ذلك وشروطه) في الفصل الذي بعده.

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات، وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر). قال العراقي: رواه أحمد والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري «اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل» ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه وضعفه هو والدارقطني اهـ.

قلت: حديث أبي موسى أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في المصنف ولفظه: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل» فقالوا: كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال «قولوا اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه» ورواه كذلك أحمد والطبراني.

وأما حديث أبي بكر فلفظه: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهبت عنك صغار الشرك وكباره تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم تقولها» ثلاث مرات كل يوم. هكذا رواه هناد في الزهد، والحكيم في النوادر، وأبو يعلى، وابن المنذور، وابن السني في عمل يوم وليلة» وهو حديث حسن. وروى الحكيم من حديث ابن عباس «الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا» وهو في الحلية بلفظ «من دبيب الذر». **(تزل فيه فحول العلماء)** العارفين **(فضلاً عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب)** المستكنة، والله الموفق.

بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل:

(اعلم) هداك الله تعالى **(أن الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل)** وينشط عليه **(ويحمل عليه أولاً)** لقصد المحمدة **(دون قصد الثواب)** والأجر **(وهو**

الثواب وهو أجلاه، وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً وغذاء للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية، فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض وإلقاء الكلام عرضاً، وإن كان لا يدعو إلى

أجلاه، وأخفى منه قليلاً) هو (**ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا ادخل عليه الضيفان)** وفي نسخة: فإذا نزل عليه ضيف (**نشط له**) وفي نسخة: تنشط له (**وخف عليه وعلم أنه لولا رجاء ثواب الله لكان لا يصلي بمجرد الرياء للضيفان، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب)** أي مستقر في باطنه، (**ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات)** الدالة عليه، (**وأجلى علاماته أن يسر)** أي يفرح (**باطلاع الناس على طاعته فرب عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك، وإذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له وانبسط وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة)** وخفف عنه ثقلها، (**وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح منه السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في)** قلب (**الحجر)** الصلد (**فأظهر منه اطلاع الخلق أثر السرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتاً وغذاء للعرق الخفي)** المدسوس (**من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية، فيتقاضى)** أي يطلب (**تقاضياً)** طلباً (**خفياً أي يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض)** والتلويح (**وإلقاء الكلام عرضاً وإن كان لا يدعو إلى**

التصريح، وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً وتصريحاً ولكن بالشمائل، كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد، وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدأوه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعاداً في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون.

وقد روي عن علي كرّم الله وجهه، أنه قال: إن الله عز وجل يقول للقراء يوم

التصريح، وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق باللسان (**لا تعريضاً ولا تصريحاً ولكن بالشمائل**) الدالة عليه، (**كإظهار النحول**) أي السقم (**والاصفرار وخفض الصوت ويبس الشفتين وجفاف الريق وغلبة النعاس الدال على طول التهجد وآثار الدموع**) في العينين، (**وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع ولا يسر**) أي لا يفرح (**بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدأوه بالسلام**) عليه والمصافحة (**وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه**) ويمدحوه (**وأن ينشطوا**) أي يخفوا (**في قضاء حوائجه**) مهما كانت (**وأن يسامحوه في البيع والشراء**) ما لا يسامح بغيرهم (**وأن يوسعوا له في المكان**) مهما قدم عليهم، (**فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعاداً في نفسه كان نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها**) عن الناس (**مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم يكن قد سبقت منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه**) فيما ذكر، (**ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها فيما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله تعالى وحده ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل**) على الصفا (**فكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون**). ولذلك قال ﷺ لحضرة الصديق رضي الله عنه «ألا أعلمك شيئاً إذا قلته اذهب عنك صغار الشرك وكباره» في خبر تقدم ذكره قريباً.

(**وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: إن الله عز وجل يقول للقراء**) أي العلماء

القيامة، ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدئون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث: «لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم». وقال عبدالله بن المبارك: روي عن وهب بن منبه أنه قال: إن رجلاً من السوّاح قال لأصحابه إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه، وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح: ما هذا؟ قيل: هذا الملك قد أظلك، فقال للغلام ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلاً عنيفاً فقال الملك أين صاحبكم؟ فقالوا هذا، قال: كيف أنت؟ قال: كالناس، وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك ما عند هذا من خير! فانصرف عنه، فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام. فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي

(يوم القيامة: ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ألم تكونوا تبتدئون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفي الحديث الآخر «لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم») أغفله العراقي. وروى البيهقي من حديث أبي هريرة «يقول الله تعالى لعبده يوم القيامة: يا ابن آدم ألم أحملك على الخيل والإبل وأزوّجك النساء وأجعلك ترفع وترأس؟ فيقول: بلى أي رب. فيقول: أين شكر ذلك؟ وروى أيضاً، وكذا أبو الشيخ من حديث عبد الله بن سلام يقول الله للعبد يوم القيامة: ألم تدعني لمرض كذا وكذا فعافيتك؟ ألم تدعني أن أزوجك كريمة قومها فزوجتك؟ ألم ألم.

(وقال عبد الله بن المبارك) رحمه الله تعالى في كتاب الزهد والرقائق: **(روي عن وهب بن منبه)** اليماني رحمه الله تعالى تقدمت ترجمته في كتاب العلم **(أنه قال: إن رجلاً من السياح قال له أصحابه: انا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم. إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه، وإن اشترى أحب أن يرخص عليه لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في مركب من الناس فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس، فقال السائح: ما هذا؟ فقيل: هذا الملك قد أظلك. فقال للغلام: ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفاً. فقال الملك: أين صاحبكم؟ قالوا: هذا. قال: كيف أنت؟ قال: كالناس. وفي حديث آخر: بخير، فقال الملك: ما عند هذا من خير. فانصرف عنه فقال السائح: الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام)**. هكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق ابن المبارك فقال: حدثنا عبدالله بن محمد بن

يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائهم أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا

جعفر، حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا حسين بن الحسن المروزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول: كان رجل من أفضل أهل زمانه وكان يزار فيعظهم فاجتمعوا إليه ذات يوم فقال: إنا قد خرجنا من الدنيا وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان، وقد خفت أن يكون قد دخل علينا في حالنا هذه من الطغيان أكثر مما يدخل على أهل الأموال في أموالهم. أرانا يحب أحدنا أن تقضى له حاجته، وإن اشترى بيعاً أن يقارب لمكان دينه، وإن لقي وقر لمكان دينه، فشاع ذلك الكلام حتى بلغ الملك فعجب به الملك فركب إليه ليسلم عليه وينظر إليه، فلما رآه الرجل قيل له: هذا الملك قد أتاك ليسلم عليك. فقال: وما يصنع؟ قال: الكلام الذي وعظت به، فسأل رداه هل عندك من طعام؟ فقال: شيء من ثمر الشجر مما كنت تفطر به فأمر به فأتى على مسح فوضع بين يديه، فأخذ يأكل منه وكان يصوم النهار لا يفطر فوقف عليه الملك فسلم عليه فأجابه بإجابة خفية فاقبل على طعامه يأكله، فقال الملك: فأين الرجل؟ قيل له: هو هذا. قال: هذا الذي يأكل؟ قالوا: نعم. قال: ما عند هذا من خير فأدبر، فقال الرجل: الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به.

وقد رواه أيضاً من طريقه بلفظ آخر فقال: حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا حسين المروزي، حدثنا ابن المبارك، حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهرب أنه سمع وهب بن منبه يقول: إن الملك سمع باجتهاده فقال: لآتينه يوم كذا وكذا ولأسلمن عليه، فأسرعت البشرى إلى هذا الراهب، فلما كان ذلك اليوم وظن أنه يأتيه خرج إلى مضحى له قدام مصلاه، وأخرج بمنشف فيه بقل وزيت وحمص فوضعه قريباً منه، فلما أشرف إذا هو بالملك مقبل ومعه سواد من الناس قد أحاطوا به فاوضعوا قريباً، فلا يرى سهل ولا جبل إلا قد ملىء من الناس، فجعل الراهب يجمع من تلك البقول والطعام ويعظم اللقمة ويغمس في الزيت فيأكل أكلاً عنيفاً وهو واضع رأسه لا ينظر إلى من أتاه، فقال الملك: أين صاحبكم؟ قالوا: هو هذا. قال الملك: كيف أنت يا فلان؟ فقال الراهب: وهو يأكل ذلك الأكل: كالناس، فردّ الملك عنان دابته وقال: ما في هذا من خير، فلما ذهب قال الراهب: الحمد لله الذي أذهبه عني وهو لي لائم.

(فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على إخفائها) وكتمها مهما أمكن **(أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم)** عن الناس، **(كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم فيجازيهم الله يوم القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق إذا علموا أن الله لا يقبل يوم القيامة إلا الخالص)** فقد روى النسائي، والطبراني من حديث أبي أمامة: إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً

الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وإنه ﴿يَوْم لاَ يَنْفَعُ فيه مالٌ ولا بنونَ ولا يجزي والد عن ولده، ويشتغل الصديقون بأنفسهم فيقول كل واحد. نفسي نفسي! فضلاً عن غيرهم فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص لعلمهم بأن أرباب البوادي لا يروج عندهم الزائف والنبهرج، والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع إليه ولا حميم يتمسك به فلا ينجي إلا الخالص من النقد، فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزوّدونه له من التقوى، فإذا شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا، فلو كان مخلصاً قانعاً بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر

وابتغى به وجهه. وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق من حديث الضحاك بن قيس الفهري: يا أيها الناس اخلصوا أعمالكم لله فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له. (**وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وأنه يوم**) عظيم كما قال الله تعالى: ﴿يوم (**لا ينفع مال ولا بنون* إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾) [الشعراء: ٨٨، ٨٩] خالص من شوائب الرياء. (**ولا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، ويشتغل الصديقون**) والصالحون (**بأنفسهم فيقول كل واحد نفسي نفسي! فضلاً عن غيرهم**) ممن لم يدانوا مقاماتهم (**فكانوا**) في سلوكهم (**كزوار بيت الله**) الحرام (**إذا توجهوا إلى مكة**) شرفها الله تعالى: (**فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المصري الخالص**) عن الغش والخلط (**لعلمهم بأن أرباب البوادي**) وهم العربان (**لا يروج عندهم الزيف والنبهرج**) وهو الرديء المغشوش، (**والحاجة تشتد في البادية ولا وطن**) هناك (**يفزع إليه**) في تغيير الذهب (**ولا حميم يتمسك به**) في المعاونة (**فلا ينجي إلا الخالص من النقد**) ولا يقضي الحاجة إلا هو، (**فهكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة**) والسفر إليه كالسفر إلى مكة (**والزاد الذي يتزودون له التقوى**) وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ (**فإذا شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء فإنه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضرته البهائم أم الصبيان الرضع أو غابوا**)، وسواء، (**اطلعوا على حركته أو لم يطلعوا فلو كان مخلصاً قانعاً بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم، وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا تقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين، فإذا لم يجد**

عليه البهائم والصبيان والمجانين، فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي، ولكن ليس كل شوب محبطاً للأجر مفسداً للعمل بل فيه تفصيل.

فإن قلت: فما نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟ فنقول: أولاً، كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم إلى محمود وإلى مذموم.

فأما المحمود فأربعة أقسام:

الأول: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره إليه والطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به.

ذلك) أي إدراك التفرقة من نفسه **(ففيه شوب رياء خفي، وليس كل شوب محبطاً للأجر مفسداً للعمل بل فيه تفصيل)** سيأتي ذكره في الفصل الذي يليه.

(فإن قلت: فما يرى أحد ينفك عن السرور إذا عرف بطاعته، فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم؟ فنقول: أولاً كل سرور فليس بمذموم كله بل السرور منقسم إلى محمود إلى مذموم).

(فأما المحمود فاربعة أقسام):

(الأول: أن يكون قصده إخفاء الطاعات والإخلاص لله تعالى) منها، **(ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم)** عليه **(وأظهر الجميل من أحواله، فيستدل به على حسن صنع الله ونظره والطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة، فلا لطف أعظم من ستر القبيح عليه وإظهار الجميل)** وقد ورد في بعض الأدعية: يا من أظهر الجميل وستر القبيح ولم يؤاخذ بالجريرة، وقد تقدم في الدعوات **(فيكون فرحه بجميل نظر الله له)** وحسن عنايته به ورعايته له **(لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به)** ولكن ليس لكل أحد لم يختبر نفسه وعلم دسائسها أن يقول أنه مقبول عند الله ففيه خطر عظيم زلت بسببه أقدام خلق كثير.

الثاني: أن يستدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة، إذ قال رسول الله ﷺ: ما ستر الله على عبد ذنباً في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة» فيكون الأوّل فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل، وهذا التفات إلى المستقبل.

الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً وأجر السر بما قصده أوّلاً، ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك

(الثاني: أن يستدل بإظهار الله تعالى الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل في الآخرة إذ قال رسول الله ﷺ: « ما ستر الله على عبد ذنباً) من ذنوبه **(في الدنيا)** بأن لم يفضحه به **(إلا ستره عليه في الآخرة »)** فلا يفضحه به على رؤوس الأشهاد. قال العراقي: رواه مسلم من حديث أبي هريرة اهـ.

قلت: ورواه ابن النجار، عن علقمة المزني، عن أبيه، واسمه عبدالله بن سنان المزني له صحبة، وعلقمة هذا أخو بكر المزني في قول البخاري وخالفه غيره. وروي الطبراني، والخطيب من حديث أبي موسى: « ما ستر الله عز وجل على عبد في الدنيا فيعيره به يوم القيامة ».

(فيكون الأول فرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل، وهذا التفات في المستقبل) وقد يجتمعان معاً في مؤمن فيكون سبباً لمزيد فرحه، ولكن بشرط أنه صدر منه القبيح فرطاً من غير تصميم العزم عليه، ثم ستره الله تعالى عليه ندم وأحسن توبته، فهذا الذي يرجى له الستر في الآخرة، وأما من ستر الله عليه ذلك وهو مصمم على الوقوع فيه أو العود إليه، فليس له في الآخرة نصيب وربما يفضحه الله في جوف بيته فليحذر السالك من ذلك.

(الثالث: أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما ظهر آخراً وأجر السرور بما قصده أولاً، ومن اقتدى به في طاعة فله أجر عمل المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء) ويشهد لذلك ما رواه أحمد من حديث أبي هريرة: « من سن خيراً فاستن به كان له أجره كاملاً ومن أجور من استن به ولا ينقص من أجورهم شيئاً » الحديث.

ورواه السجزي في الأبانة بلفظ: « من سن سنة هدى فاتبع عليها كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً الحديث.

وروى مسلم، والترمذي، وابن ماجه من حديث جرير: « من سن في الإسلام سنة حسنة فلـه أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » الحديث.

جدير بأن يكون سبب السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة.

الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبحبهم للمطيع ويميل قلوبهم إلى الطاعة، إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله. وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم وهو الخامس: فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط:

فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد

(وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة).

(الرابع: أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم ويحبهم للمطيع ويميل قلوبهم إلى الطاعة) ويغتنم ذلك منهم ويسره ذلك، **(إذا)** كم **(من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته)** بقلبه **(أو يحسده)** على ما أوتيه **(أو يذمه)** تبرعاً **(ويهزأ به ويسبه)** في المجالس **(أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله)** ولكن للشيطان في هذا الاسم تغريرات وتلبيسات لذلك قلما يوجد مع الإخلاص، **(وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه)** ومهما رأى نفسه تستثقل حمدهم غيره في مجلسه فاعلم أنه لا إخلاص حينئذ.

(وأما المذموم فهو الخامس: وهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويعاملوه بالإكرام في مصادره) حين يصدر **(ومورده)** حين يرد، **(فهذا مكروه)** مذموم.

بيان ما يحبط العمل في الرياء الخفي والجلي وما لا يحبطه:

(فنقول: إذا عقد) العبد **(العبادة على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يكون ورد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل فراغه)** منه، **(فإن ورد)** عليه **(بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار)** منه **(فهذا لا يحبط العمل، إذا العمل قد تم**

بالظهور من غير إظهار فهذا لا يفسد العمل، إذ العمل قد تمَّ على نعت الإخلاص سالماً عن الرياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به ولم يتمن إظهاره وذكره ولكن إتفق ظهوره بإظهار الله، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه، نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف.

وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه محبط. فقد روي عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها: وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل قال له: صمت الدهر يا رسول الله. قال له: «ما صمت ولا أفطرت»، فقال بعضهم: إنما قال ذلك لأنه أظهره وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر. وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ ومن ابن مسعود استدلالاً على أن قلبه عند

على نعت الإخلاص سالماً عن) شوب **(الرياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره)** هكذا ذهب إليه جماعة من العارفين، **(لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به)** للناس **(ولم يتمن إظهاره وذكره)** بين الناس **(ولكنه إتفق ظهوره بإظهار الله إياه، ولم يكن منه إلا ما دخل من السرور والارتياح على قلبه. نعم لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف)**.

(في الأخبار والآثار) بظواهرها **(ما يدل على أنه محبط)** لذلك العمل. **(فقد روي عن ابن مسعود)** رضي الله عنه **(أنه سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة سورة البقرة قال: ذلك حظك منها: وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل قال له: صمت الدهر .فنال: «ما صمت ولا أفطرت»)**. قال العراقي: روى مسلم من حديث أبي قتادة قال عمر: يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر؟ قال: «لا صام ولا أفطر» وللطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث فيه فقال رجل: إني صائم. قال بعض القوم: إنه لا يفطر إنه يصوم كل يوم قال النبي ﷺ: «لا صام ولا أفطر من صام الدهر» ولم أجده بلفظ الخطاب اهـ.

قلت: بل رواه ابن وهب في مسنده، عن سليمان بن بلال، عن موسى بن عبيدة، عن عمران بن أبي أنس، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن رجلاً قال: يا رسول الله ما أفطرت منذ أربع سنين. فقال: «ما صمت ولا أفطرت» وكذلك رواه ابن المبارك في الزهد وفي إسناده إرسال وضعف.

(فقال بعضهم: إنما قال ذلك لأنه أظهره) وهكذا روى عن موسى بن عبيدة أحد رواة هذا الحديث قال: وذلك لأنه حدث به فيما ترى كذا في مسند ابن وهب. وعند ابن المبارك قال أبو سلمة لأنه تحدث به. **(وقيل: هو إشارة إلى كراهية صوم الدهر، وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ)** في هذا القول، **(ومن ابن مسعود)** رضي الله عنه في

العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً لثواب العمل بل الأقيس أن يقال انه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها ، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة ، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد على الإخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل وإما أن يكون رياء باعثاً على العمل ، فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به حبط أجره . ومثاله أن يكون في تطوع فتجددت له نظارة ، أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئاً نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفاً من مذمة الناس ، فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة ، وقد قال ﷺ : « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أي النظر إلى خاتمته . وروي : « أنه من راءى بعمله

قوله السابق (**استدلالاً على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن الرياء وقصده لما أن ظهر منه التحدث به ، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ على العمل مبطلاً لثواب . العمل ، فالأقيس**) من القولين (**أن يقال أنه يثاب على عمله الذي قد مضى ومعاتب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منه ، بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء قبل الفراغ من الصلاة ، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل . وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلاً وكان قد عقد على الإخلاص ، ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل ، وإما أن يكون رياء باعثاً على العمل ، فإن كان باعثاً على العمل وختم العبادة به حبط أجره**) لأنه قد تخلل عقد ما أثر فيه فهو أحرى أن يوصف بالإنحلال . (**ومثاله : أن يكون في تطوع فتجردت له نظارة**) بالتشديد كلمة يستعملها العجم بمعنى التنزه في الرياض والبساتين كذا في المصباح ، (**أو حضر ملك من الملوك**) بموكبه وحشمه (**وهو يشتهي أن ينظر إليه**) أو إلى موكبه (**أو تذكر شيئاً نسيه من ماله**) في موضع أو عند أحد ، (**وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفاً من مذمة الناس فقد حبط أجره وعليه الإعادة إن كان في فريضة . وقد قال ﷺ : « العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله »**) قال العراقي : رواه ابن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ : « إذا طاب أسفله طاب أعلاه » . وقد تقدم اهـ .

قلت : ولفظه : « إنما الأعمال كالوعاء إذا طاب أسفله طاب أعلاه وإذا فسد أسفله فسد أعلاه » وهكذا رواه أحمد أيضاً . وعند ابن المبارك في الزهد بلفظ : « إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله وإذا خبث أعلاه خبث أسفله » . ورواه أبو نعيم في الحلية وقد تقدم الكلام عليه .

ساعة حبط عمله الذي كان قبله »، وهذا منزل على الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك مفرد، فما يطرأ يفسد الباقي دون الماضي، والصوم والحج من قبيل الصلاة. وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب، كما لو حضر جماعة في أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً، فهذا رياء قد أثر في العمل وانتهض باعثاً على الحركات، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغموراً، فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها، ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء قصد أصل الثواب وأن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه.

ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط في أمر هو أهون من هذا

(أي النظر إلى خاتمته. وروي) أيضاً **(« من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذي كان قبله »)** قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ.

قلت: روى الطبراني، وأبو الشيخ، وابن عساكر من حديث أبي هند الداري: « من راءى بالله بغير الله فقد برىء من الله ».

(وهو منزل على الصلاة في هذه الصورة لا على الصدقة ولا على القراءة فإن كل جزء من ذلك) وفي نسخة: منها **(منفرد)** بذاته **(فما يطرأ)** بعد **(يفسد الباقي دون الماضي والصوم والحج من قبيل الصلاة)** لاتصال العمل فيهما كالصلاة، **(فأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الاستتمام لأجل الثواب كما لو حضر جماعة في أثناء صلاته ففرح بحضورهم)** باطناً **(واعتقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم)** إليه، **(وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضاً فهذا رياء قد أثر في العمل وانتهض باعثاً على الحركات، فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغموراً)** قد غمره قصد الرياء. **(فهذا أيضاً ينبغي أن يفسد العبادة معها مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه لأنا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بها بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها)** وقد طرأ عليها ما يغمرها ففات الشرط. **(ويحتمل أن يقال: لا تفسد العبادة نظراً إلى حالة العقد وإلى بقاء أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه)**. وبعض الفقهاء قد قوى هذا الاحتمال، وبه كان يفتي شيخنا الفقيه الشريف أو الحسن المقدسي رحمه الله تعالى.

(ولقد ذهب) الإمام العارف **(الحرث)** بن أسد **(المحاسبي)** رحمه الله تعالى في كتابه

وقال: إذا لم يرد إلا مجرد السرور بإطلاع الناس ـ يعني سروراً هو كحب المنزلة والجاه ـ قال: قد اختلف الناس في هذا؛ فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأوّل وركن إلى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بخاتمته، ثم قال ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ثم قال: فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى، إنهما حالتان، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية، وقد روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني قال: لك أجران أجر السر وأجر العلانية»، ثم تكلم على الخبر والأثر فقال: أما الحسن فإنه أراد بقوله: لا يضره، أي لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره، وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه:

الرعاية (**إى الإحباط في أمر هو أهون من ذلك فقال: إذا لم يرد إلا مجرد السرور بإطلاع الناس يعني**) به (**سروراً هو كحب المنزلة والجاه قال: قد اختلف الناس في هذا، فصارت فرقة إلى أنه يحبط لأنه قد نقض العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يختم عليه بالإخلاص وإنما يتم العمل بخاتمته**) كما دل عليه الخبر: «إنما الأعمال بالخواتيم» (**ثم قال: ولا أقطع عليه بالإحباط وإن لم يتزيد في العمل ولا آمن عليه، وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عليه بالرياء ثم قال: فإن قيل قد قال الحسن**) البصري رحمه الله تعالى، (**إنهما حالتان**) وفي نسخة صورتان (**فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية، وقد روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إني أسر العمل**) أي أخفيه (**لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرني قال: «لك أجران أجر السر وأجر العلانية»**)

قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب من رواية ذكوان عن أبي مسعود، ورواه الترمذي وابن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة: «الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه. قال: له أجر السر وأجر العلانية». قال الترمذي: غريب وقال: إنه روي عن أبي صالح وهو ذكوان مرسلاً اهـ.

قلت: وقد روي في إفراد مسلم من حديث أبي ذر قال: قيل يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

(**ثم تكلم على الأثر**) المروي عن الحسن (**والخبر**) المذكور (**فقال: أما الحسن**) البصري (**فأراد بقوله: لا تضره أي لا يدع العمل**) أي لا يتركه (**ولا تضره الخطرة وهو يريد الله عز وجل**) فجعل الحالة الطارئة بمنزلة الخطرة، (**ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره. وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه**).

أحدها: أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ.

والثاني: أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سروراً بسبب حب المحمدة والمنزلة، بدليل أنه جعل له أجراً، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجراً وغايته أن يعفي عنه، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائي أجران؟

والثالث: أنه قال: أكثر من يروي الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبي صالح، ومنهم من يرفعه، فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء أولى. هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلاً إلى الإحباط.

(أحدها: أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس في الحديث أنه قبل الفراغ) أي يخبر باطلاعهم على عمله بعد أن فرغ منه فيفرح به وهو ظاهر، فالعمل على هذا باق على عقد الإخلاص لم يتخلله شيء.

(والثاني: أنه يسر به لاقتداء الناس به أو بسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سروراً بسبب حب المنزلة والمحمدة بدليل أنه جعل له به أجرين ولا ذاهب من) علماء **(الأمة إلى أن المسرور بالمحمدة له أجر، وغايته أن يعفي عنه)** ويسامح له، **(فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائي أجران)**.

(والثالث: أنه قال: أكثر من يروي الحديث يرويه غير متصل إلى أبي هريرة بل أكثرهم أوقفه على أبي صالح، ومنهم من يرفعه، فالحكم بالعمومات الواردة في الرياء) في الأخبار المتقدمة **(أولى)** وأبو صالح المذكور هو المعروف بالسمان والزيات، واسمه ذكوان مولى جويرية بنت الأحمس الغطفاني كان يجلب السمن والزيت إلى الكوفة، وهو والد سهيل وصالح وعبدالله ابن أبي صالح سأل سعد بن أبي وقاص مسألة في الزكاة، وشهد الدار زمن عثمان، وروى عن أبي هريرة قال أحمد: ثقة من أجلّ الناس وأوثقهم. وقال ابن معين: ثقة، وزاد أبو زرعة صالح الحديث محتج بحديثه وقال أبو حاتم: ثقة مستقيم الحديث. وقال ابن سعد: ثقة كثير الحديث، مات بالمدينة سنة إحدى ومائة. وروى له الجماعة.

وأما قول المحاسبي: بل أكثرهم أوقفه الخ أي فيكون مرسلاً، وقد أشار إليه الترمذي، والذي رواه مرفوعاً فقيل عن أبي هريرة وهو عند الترمذي وابن حبان، وقيل عن ابن مسعود وهو عند البيهقي في الشعب كما تقدم والاستدلال بالعمومات مع وجود المرسل هو مذهب الشافعي رضي الله عنه وجماعة إذ المراسيل غير مقبولة عندهم في الاحتجاج سوى مراسيل ابن المسيب، فإنها في

والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادراً عن باعث الدين وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام.

وأما الأخبار، التي وردت في الرياء، فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق، وأما ما ورد في الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال، ولا ينبغي أن يفسد الصلاة، ولا يبعد أيضاً أن يقال إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ـ والخالص ما لا يشوبه شيء ـ فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه. وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص كلاماً أوفى مما أوردناه الآن فليرجع إليه، فهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ.

القسم الثالث: الذي يقارن حال العقد بأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء، فإن

حكم الرفع ومذهب غيرهم العمل بها، فإذا وجد خبر مرسل فإنه يقدم على العمومات. (**هذا ما ذكره**) المحاسبي رحمه الله تعالى (**ولم يقطع به بل أظهر ميلاً إلى الإحباط**) حيث قال: والأغلب على قلبي الخ.

(**والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادراً من باعث الدين، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لأنه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام**).

(**وأما الأخبار التي وردت في**) ذم (**الرياء فهي محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق**) دون الخالق. (**وأما ما ورد في الشركة**) في قوله: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من أشرك في عمل فهو له. (**فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه، أما إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال، ولا ينبغي أن يفسد الصلاة**) لضعف قصد الرياء في الكل، (**ولا يبعد أيضاً أن يقال: إن الذي أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله والخالص ما لا يشوبه شيء فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه. وقد ذكرنا في كتاب الإخلاص**) فيما سيأتي (**كلاماً أوفى مما أوردناه الآن**) هنا (**فليرجع إليه فهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة، أما قبل الفراغ أو بعد الفراغ**) والله الموفق.

(**القسم الثالث: الذي يقارن حال العقد بأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء، فإن**

استمر عليه حتى سلم فلا خلاف في أنه يقضي ولا يعتد بصلاته، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه:

قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف.

وقالت فرقة: تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمه الصلاة لأن التحريم عقد، والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقداً.

وقالت فرقة: لا يلزمه إعادة شيء بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم الرياء لكان يفسد عمله.

وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل، فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلا لله ولو سجد لغير الله لكان كافراً، ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته. ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جداً خصوصاً من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الافتتاح، لأن الركوع والسجود إن لم يصح

استمر عليه حتى يسلم فلا خلاف في أنه يعصي الله عز وجل (**ولا يعتد بصلاته، فإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه**).

(**قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصده الرياء فليستأنف**) صلاته.

(**وقالت فرقة**) أخرى: (**يلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله**) كلها (**دون تحريمة الصلاة لأن تحريمه عقد، والرياء خاطر في قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقداً**).

(**وقالت فرقة**) أخرى: (**لا يلزمه إعادة شيء بل يستغفر الله تعالى بقلبه ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة**) فإن صلحت صلح أوّلها (**كما لو بدأها بالإخلاص وختمها بالرياء لكان يفسد عمله**).

(**وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فإذا أزيل العارض عاد**) الثوب (**إلى الأصل، فقالوا: إن الصلاة والركوع لا تكون إلا لله**) عز وجل (**ولو سجد لغير الله**) تعالى (**لكان كافراً، لكن قد اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة**) والاستغفار (**وصار إلى حالة لا يبالي بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته**) فهذا اختلاف القول في المسألة (**ومذهب الفريقين الأخيرين خارج عن قياس الفقه جداً خصوصاً من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود دون الإفتتاح لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالاً زائدة في**

صارت أفعالاً زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة. وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظر إلى الآخر فهو أيضاً ضعيف، لأن الرياء يقدح في النية وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح، فالذي يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال إن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجساً أيضاً كان يصلي لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين، وههنا لا باعث ولا إجابة. فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يصلي إلا أنه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع الباعثان، فهذا إما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ★ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَه﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر، وإن كان في صلاة تقبل الفساد يتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون فرضاً أو نفلاً، فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكم الصدقة فقد عصى من

الصلاة فتبطل الصلاة. وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظراً إلى الآخر فهو أيضاً ضعيف، لأن الرياء يقدح في النية وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح، فالذي يستقيم على قياس) قانون (**الفقه هو أن يقال: إن كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده**) لاتصاله بما قبله فيسري وصف عدم الانعقاد، (**وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان**) على غير وضوء أو كان (**ثوبه نجساً أيضاً كان يصلي لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية فيها إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين، وههنا لا باعث ولا إجابة**) فقد بطلت صلاته (**فإما إذا كان بحيث لولا الناس أيضاً لكان يصلي إلا أنه ظهرت له الرغبة في المحمدة أيضاً فاجتمع**) فيه (**الباعثان**) باعث الثواب وباعث المحمدة، (**فهذا إما أن يكون في صدقة أو قراءة وما ليس منه تحليل وتحريم وما ليس في عقد صلاة وحج، فإن كان في صدقة فقد عصى بإجابة باعث الرياء وأطاع بإجابة باعث الثواب**) قال الله تعالى: (**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره★ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فله**) بمقتضى هذه الآية (**ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر عقده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر، فإن كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية فلا يخلو إما أن تكون**) تلك الصلاة (**نفلاً أو فرضاً، فإن كان نفلاً فحكمه أيضاً حكم الصدقة فقد عصى من وجه**

وجه وأطاع من وجه إذا اجتمع في قلبه الباعثان، ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى إن من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به فإن المصير إلى هذا بعيد جداً، بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوّعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به، وإن اقترن به قصد آخر هو به عاص، فأما إذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه، لأن الإيجاب لم ينتهض باعثاً في حقه بمجرده واستقلاله، وإن كان كلٌّ باعثٍ مستقلاً حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض، ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوّعاً لأجل الرياء فهذا محل النظر، وهو محتمل جداً، فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص، ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه، كما لو صلى في دار مغصوبة فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه، وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة، فأما إذا كان الرياء في

واطاع من وجه إذا اجتمع في قلبه الباعثان، لا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل، حتى أن من يصلي التراويح وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء بإظهار حسن القراءة، ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا) بنفسه **(في البيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به، فإن المصير إلى هذا بعيد جداً بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضاً بتطوعه فيصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به، وإن اقترن به قصد آخر)** يخالفه **(وهو به عاص)** هذا حكم صلاة التطوع، **(فأما إذا كان في فرض فاجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل)** بنفسه إذا انفرد **(وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه، لأن الإيجاب لم ينهض باعثاً في حقه بمجرده واستقلاله وإن كان كل باعثاً مستقلاً)** بانفراده **(حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرض، ولم لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوع)** وفي نسخة صلاة تطوعاً **(لأجل الرياء فهذا محل النظر، وهو محتمل جداً، فيحتمل أن يقال: إن الواجب)** على العبد **(صلاة خالصة)** عن شوب الرياء **(لوجه الله تعالى ولم يؤد الواجب الخالص، ويحتمل أن يقال: إن الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد، فاقتران غيره به لا يمنع من سقوط الفرض عنه، كما لو صلى في دار مغصوبة)** على أهلها ظلماً. **(فإنه وإن كان عاصياً)** من وجه وهو **(بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة فإنه مطيع)** من وجه وهو **(بأصل الصلاة وسقط الفرض عن نفسه وتعارض الاحتمال في تعارض**

المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة مثل من بادر إلى الصلاة في أوّل الوقت لحضور جماعة ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به، لأن باعث أصل الصلاة من حيث أنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت، فهذا أبعد عن القدح في النية، هذا في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه، وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة. فهذا ما نراه لائقاً بقانون الفقه، والمسألة غامضة من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه، والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات بأدنى الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه:

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وأنه من

البواعث في أصل الصلاة، أما إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة) وذلك **(مثل من بادر بالصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا)** بنفسه **(لأخر إلى وسط الوقت، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء، فهذا مما يقطع على صحة صلاته وسقوط الفرض به، لأن باعث أصل الصلاة من حيث أنها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تغيير الوقت، فهذا أبعد عن القدح في النية هذا)** الذي ذكرنا **(في رياء يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه، فأما مجرد السرور باطلاع الناس إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل)** تأثيراً بينا **(فيبعد أن يفسد الصلاة. فهذا ما نراه لائقاً بقانون الفقه)** العملي. **(والمسألة)** من أصلها **(غامضه)** خفية المدرك **(من حيث أن الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه)** غير نتف اشارات تكلموا عليها في مبحث النية، **(والذين خاضوا فيها وتصرفوا)** مثل الحرث المحاسبي وصاحب القوت وغيرهما **(لم يلاحظوا قوانين الفقه، ومقتضى فتاوي الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب)** من الشوائب **(وطلب الإخلاص على إفساد العبادات بأدنى الخواطر)** الطارئة **(وما ذكرناه)** من التفصيل **(هو الأقصد)** أي الأعدل **(فيما نراه والعلم عند الله تعالى فيه)** والله الموفق.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه:

(قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله وأنه من كبار

كبائر المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرة البشعة، وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم، إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز، ممتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم، فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه، وإنما يشعر بكونه مهلكاً بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات. فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً وفي علاجه مقامان.

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: في قلع عروقه واستئصال أصوله: وأصله حب المنزلة والجاه. وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي حب لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس. ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى أن

المهلكات، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته ولو بالمجاهدة) والرياضة وتهذيب النفس **(وتحمل المشاق)** منها، **(فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرة البشعة)** الكريهة الطعم، **(وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم، إذ الصبي يخلق ضعيف العقل و)** فاقد **(التمييز ممتد العين إلى الخلق كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه)** ويثبت، **(وإنما يشعر بكون ذلك مهلكاً بعد كمال عقله)** وقد ذكر في كتاب رياضة النفس، **(وقد انغرس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة)** مديدة **(لقوة الشهوات)** لكونها تولد معه. **(فلا ينفك أحد عن هذه الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً)** كما هو شأن كل مجاهدة **(وفي علاجه مقامان)**.

(أحدهما: قطع عروقه وأصوله التي منها انشعابه) وتولده.

(والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال).

(المقام الأول: في قطع عروقه واستئصال أصوله) أي قلعها من أصلها. **(وأصله)** المتفق عليه **(حب المنزلة والجاه)** في قلوب الناس **(وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهو حب لذة المحمدة، والفرار من ألم المذمة، والطمع لما في أيدي الناس. ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روي أبو موسى)** الأشعري رضي الله عنه **(أن إعرابياً سأل النبي**

اعرابياً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية ـ ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب ـ وقال: والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب ـ والذي يقاتل للذكر ـ وهذا هو الحمد باللسان ـ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقال ابن مسعود: إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم؛ فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك؛ والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا. وقال عمر رضي الله عنه: يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً. وقال ﷺ: «من غزا لا يبغي إلا عقالاً فله ما نوى»، فهذا إشارة إلى الطمع. وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره، وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفاً من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال. ولكن

ﷺ **فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل حمية ـ ومعناه أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب ـ والرجل يقاتل ليرى مكانه**) أي من الشجاعة (**وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر**) والمنزلة (**في القلوب، والرجل يقاتل للذكر وهذا هو الحمد باللسان. فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا في سبيل الله»**) رواه أحمد والشيخان والأربعة. (**وقال ابن مسعود**) رضي الله عنه: (**إذا التقى الصفّان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم، فلان يقاتل للذكر، وفلان يقاتل للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا. وقال عمر**) رضي الله عنه: (**يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقاً**) بكسر الراء أي فضة. (**وقال ﷺ: «من غزا**) وهو (**لا يبغي**) في غزواته (**إلا عقالاً**) بالكسر الحبل الذي يربط به البعير (**فله ما نوى»**) رواه أحمد والدارمي والنسائي والروياني وابن حبان والطبراني والحاكم، وصححه والبيهقي والضياء من طريق يحي بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن عبادة بن الصامت وقد تقدم.

وأخرج الحاكم من حديث يعلى بن منية قال: كان النبي ﷺ يبعثني في سراياه، فبعثني ذات يوم وكان رجل يركب فقلت له: ارحل. قال: ما أنا بخارج معك. قلت: لم؟ قال: حتى تجعل لي ثلاثة دنانير. قلت: الآن حين ودعت النبي ﷺ ما أنا براجع إليه ارحل ولك ثلاثة دنانير فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: أعطها إياه فإنها حظه من غزاته. (**فهذا اشارة إلى الطمع وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه، ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء**) يراهم (**وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كيلا يبخل وهو ليس بطامع في الحمد، وقد سبقه في الحمد غيره، وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفاً من الذم وهو لا يطمع في الحمد، وقد هجم غيره على صف القتال ولكن إذا أيس من**

إذا أيس من الحمد كره الذم، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد. وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل، ويفتي بغير علم ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل، كل ذلك حذراً من الذم. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء، وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة.

ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه؛ فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة. ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر، حيث ينادي على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي، أما

الحمد كره الذم، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة كيلا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد، وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال عن علم ما هو محتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل ويفتي بغير علم، وقد يدعي العلم الحديث وهو به جاهل) لا يدري من فنونه شيئاً **(كل ذلك حذراً من الذم. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء وعلاجه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة)**.

(ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يخفي) على البصير **(أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل يسهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكنه إذا بان له أن فيه سماً)** قاتلاً **(أعرض عنه)** وتركه، **(وكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيها من المضرة. ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم عند الله والمقت الشديد والخزي الظاهر، حيث ينادي على رؤوس العباد)** يوم القيامة: **(يا فاجر يا غادر يا مرائي)** كما رواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص من رواية جبلة اليحصبي عن رجل من الصحابة لم يسم بزيادة: يا خاسر يا كافر بدون قوله يا مرائي وقد تقدم

استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله ، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله ، أما كان أحد أهون عليك من الله ! فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عمله من ثواب الأعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو أخلص ، فإذا فسد بالرياء حوّل إلى كفة السيئات فترجح به ويهوي إلى النار ، فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة ، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء ، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك ، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم ، ومن طلب رضاهم في

قريباً (**أما استحييت إذا شتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله تعالى ، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله أما كان أحد أهون عليك من الله**) : كل ذلك من مخاطبة الرب لعبده. (**فمهما كان تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد و**) من (**التزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وما يحبط عمله من ثواب الأعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو أخلص ، فإذا أفسده الرياء حوّل إلى كفه السيئات فيرجح به ويهوي**) أي يسقط (**إلى النار ، فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة ، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين وقد حط عنهم بسبب الرياء ورد إلى صف النعال**) أي في آخر الصف حيث تخلع النعال (**من مراتب الأولياء هذا مع ما يعرض له في الدنيا من تشتيت الهم**) أي تفريقه (**بسبب ملاحظة قلوب الخلق فإن رضا الناس غاية لا تدرك**) . روى الخطابي في العزلة من حديث أكثم بن صيفي أنه قال: رضا الناس غاية لا تدرك ولا يكره سخط من رضاه الجور . ومن طريق الشافعي أنه قال ليونس بن عبد الأعلى: يا أبا إسحاق رضا الناس غاية لا تدرك ليس إلى السلامة من الناس سبيل ، فانظر ما فيه صلاح نفسك ودع الناس وما هم فيه.

(**وكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق**) آخر (**ورضا بعضهم في سخط بعضهم ، ومن**

سخط الله سخط الله عليه، وأسخطهم أيضاً عليه ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم، ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة، وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطىء وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئاً ما لم يكتبه عليه الله، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً. فإذا

طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه واسخطهم أيضاً عليه) روى الطبراني من حديث ابن عباس: «من اسخط الله في رضا الناس سخط الله عليه واسخط عليه من أرضاه في سخطه، ومن أرضى الله من سخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه من أسخط في رضاه حتى يزينه ويزين قوله وعمله في عينه».

وروى أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة: «من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن اسخط الناس برضا الله كفاه الله».

وروى الخليلي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «من أرضى الله بسخط المخلوقين كفاه الله مؤنة المخلوقين ومن أرضى المخلوقين بسخط الله سلط الله عليه المخلوقين».

(ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله تعالى لأجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة، وأما الطمع فيما في أيدي الناس فبأن تعلم بأن الله تبارك وتعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء وأن الخلق مضطرون فيه) غاية الاضطرار **(ولا رازق إلا الله ومن طمع في الخلق لم يخل عن الذل والخيبة وإن وصل إلى المراد لم يخل من المنة والمهانة)** أي الذل، **(فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد وقد يصيب وقد يخطىء فإذا أصاب)** يوماً **(لا تفي لذته بألم منته ومذلته؟ وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئاً مما لم يكتبه الله عليه، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله في أهل النار إن كان في أهل الجنة ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله فالعباد كلهم عجزة)** أي عاجزون في أنفسهم **(لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فإذا قرر في قلبه آفة هذه**

قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، ويكفيه أن الناس لو علموا في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر من بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين! فقال له رسول الله ﷺ: «كذبت» ذاك الله الذي لا إله إلا هو»، إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه،

الآسباب وضررها فترت رغبته) أي ضعفت **(وأقبل على الله بقلبه)** بكليته، **(فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه)** أي أبغضوه، **(وسيكشف الله عن سره)** وما في باطنه **(حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراء ممقوت عند الله تعالى، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له)** وكفاه المؤنة **(واطلق ألسنتهم بالحمد والثناء عليه، مع أنه لا كمال في حمدهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر بني تميم)** هو الأقرع بن حابس: **(إن مدحي زين وإن ذمي شين. فقال له ﷺ: «كذبت، ذلك الله رب العالمين الذي لا إله إلا هو»)** قال العراقي: رواه أحمد من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل ذلك دون قوله: «كذبت» ورجاله ثقات إلا أني لا أعرف لأبي سلمة بن عبد الرحمن سماعاً من الأقرع. ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ: جاء رجل فقال: إن حمدي اهـ.

قلت: قال الحافظ في الإصابة في ترجمة الأقرع بن حابس رواه ابن جرير، وابن أبي عاصم، والبغوي من طريق وهب، عن موسى بن عقبة، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس أنه نادى النبي ﷺ من وراء الحجرات فلم يجبه فقال: يا محمد إن حمدي لزين وإن ذمي لشين. فقال رسول الله ﷺ: «ذلكم الله» قال ابن منده: روي عن أبي سلمة أن الأقرع نادى فذكره مرسلاً وهو الأصح، وكذلك رواه الروياني من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال: نادى الأقرع فذكره مرسلاً. وأخرجه أحمد على الوجهين، ووقع في رواية ابن جرير التصريح بسماع أبي سلمة من الأقرع فهذا يدل على أنه تأخر اهـ.

وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرج أحمد، وابن جرير، والبغوي، وابن مردويه والطبراني بسند صحيح من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اخرج إلينا فلم يجبه. فقال: يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي لشين. فقال: «ذلك الله» فأنزل الله عز وجل ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ [الحجرات: ٤] قال البغوي: لا أعلم روى الأقرع مسنداً غير هذا.

فأي خير لك في مدح الناس. وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار؟ وأيّ شرّ لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج

وأخرج الترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين. فقال النبي ﷺ: «ذلك الله».

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن مدحي زين وإن شتمي شين. فقال: «ذلك هو الله» فنزلت ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ الآية.

وأخرج ابن إسحاق، وابن مردويه عن ابن عباس قال: قد وفد بني تميم وهم سبعون رجلاً أو ثمانون رجلاً. منهم الزبرقان بن بدر، وعطاء بن معبد، وقيس بن عاصم، وقيس بن الحرث، وعمرو بن أهتم المدينة على رسول الله ﷺ، فانطلق معهم عيينة بن حصن بن بدر الفزاري، وكان يكون في كل سراة حتى أتوا منزل رسول الله ﷺ فنادوه من وراء الحجرات فقالوا: يا محمد إن مدحنا زين وإن شتمنا شين نحن أكرم العرب فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم بل مدحة الله الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» فقالوا: إنما أتيناك لنفاخرك فذكره بطوله وقال في آخره: فقام التميميون فقالوا: والله إن هذا الرجل لمصنوع له لقد قام في خطبته فكان أخطب من خطيبنا، وقال شاعره: فكان أشعر من شاعرنا. قال: ففيهم أنزل الله ﴿إن الذين ينادونك﴾ الآية.

(إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه فأي خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار؟ وأي شر لك في ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة الدنيا مع ما فيه من الكدورات) والغمومات **(والمنغصات)** التي لا تكاد تفارق الأحوال، **(واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذمة الرياء ومقاساة قلوب الخلق، بأنواع التعب، وانعطفت من إخلاصه أنوار)** تشرق **(على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح له من لطيف المكاشفات)** الإلهية **(ما يزيد به أنسه بالله وحشته للخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق عن قلبه وانحل عنه داعية الرياء**

الإخلاص، فهذا وما قدمناه في الشطر الأوّل هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد و ﴿لكن الله لاَ يُغَيّر مَا بِقَوْمٍ حتَّى يُغيِّرُوا ما بأنفُسِهِم﴾ [الرعد: ١١] فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب ﴿والله لاَ يُضَيِّعُ أجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] ﴿وَإنْ تَكُ حسَنَةً يضاعِفُهَا ويُؤْتِ مِنْ لدُنْه أجراً عظيماً﴾ [النساء: ٤٠].

المقام الثاني: في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فإن

وتذلل له منهج الإخلاص) أي سهل له طريقه. (**فهذا وما قدمناه في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء**) المزيلة أصوله ومنابته.

(**وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات**) عن الناس (**وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله وإطلاعه على عبادته لا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص**) عمر بن مسلم (**الحداد**) المتوفي سنة نيف وستين ومائتين كان واحد الأئمة والشارة (**ذم الدنيا وأهلها فقال له أبو حفص: اظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا. فلم يرخص**) أبو حفص له (**في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها**) وهو غير لائق بأحوال المخلصين، (**فلا دواء للرياء**) نافع (**مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهدة**) وأوائلها (**وإذا صبر عليه مدة بالتكلف**) ويمرن نفسه عليه (**سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله**) وتواليها (**وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد ﴿ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**) كما هو في الكتاب العزيز. (**فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب**) فمن لج بالباب ولج ولج (**﴿والله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾**).

(**المقام الثاني:**) (**في دفع العارض من أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضاً، فأن**

من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية، فلا بدّ وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء. وخواطر الرياء ثلاثة ـ قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج ـ **فالأوّل:** العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم. ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم. ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه. فالأوّل: معرفة. والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة. والثالث: فعل يسمى العزم وتصميم العقد. وإنما كمال القوّة في دفع الخاطر الأوّل ورده قبل أن يتلوه الثاني فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد بذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله، فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة، إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم، والشهوة

من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه عن أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزغاته) وتسويلاته **(وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية)** بل يبقى أثرها، **(فلا بد وأن يشمر لدفع ما يعارض من خاطر الرياء. وخواطره ثلاثة قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج)** واحداً بعد واحد **(فالأول: العلم باطلاع الخلق)** حالاً **(أو رجاء إطلاعهم)** فيما بعد **(ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم له وحصول المنزلة عندهم)** في قلوبهم والثاني، **(ثم يتلوه قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه)** وهو الثالث **(فالأول: معرفة، والثاني: حالة تسمى الشهوة والرغبة. والثالث: فعل يسمى العزم وتصميم العقد، وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفة إطلاع الخلق أو رجاء إطلاعهم دفع ذلك بأن قال: مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا أن الله عالم بحالك، وأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد بذكر ما رسخ في قلبه من قبل آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله، فكما أن معرفة إطلاع الناس تفتح)** وفي نسخة تفيد **(شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة، إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم، والشهوة تدعوه**

تدعوه إلى القبول، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما .

فإذاً لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور : المعرفة، والكراهة، والإباء . وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الغير منطوياً عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم، وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلىء قلبه غيظاً يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب. وإليه أشار جابر بقوله : بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين. حتى نودي : يا أصحاب الشجرة فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق

إلى القبول، والكراهة تدعوه إلى الأباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما) .

(فإذاً لا بد من رد الرياء من ثلاثة أمور : المعرفة، والكراهة، والإباء، وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الاخلاص، ثم يرد خاطر الرياء فيغلبه ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الغير منطوياً عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد وإخلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره، فيعزب) أي يغيب **(على القلب)** وفي نسخة عن القلب **(المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد)** وفي نسخة عن الشهوة التي للحمد **(وخوف الذم، وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجري من الأسباب ما يشتد به غضبه فينسي سابق عزمه ويملأ قلبه غيظاً يمنع من تذكر آفة الغضب ويشتغل عنه، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتمنع)** وفي نسخة تدفع **(نور المعرفة مثل مرارة الغضب. وإليه أشار جابر)** بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه **(بقوله: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة)** بالحديبية وهو بئر بقرب مكة على طريق جدة دون مرحلة **(على أن لا نفر)** إذا لاقينا العدو، **(ولم نبايعه على الموت فأنسيناها)** وفي نسخة فانسيتها **(يوم حنين حتى نودي: يا أصحاب الشجرة فرجعوا)** . قال العراقي : رواه مسلم مختصراً دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس اهـ .

حتى ذكروا، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان. ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة. وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال، فيسوّف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدة الشهوة، فكم من عالم يحضره كلام

قلت: ولفظ مسلم من حديث جابر قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت. ورواه كذلك ابن جرير، وابن مردويه. وروى عبد بن حميد، ومسلم، وابن مردويه من حديث معقل بن يسار قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن نفر. وروى عبد بن حميد، وابن جرير، عن قتادة فبايعوه على أن لا يفروا ولم يبايعوه على الموت.

وأما حديث العباس في قصة حنين، فعند مسلم من طريق كثير بن العباس بن عبد المطلب عن أبيه وفيه: فطفق النبي ﷺ يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها، وأبو سفيان بن الحرث آخذ بركابه فقال: «يا عباس نادِ يا أصحاب الشجرة». الحديث. وأخرجه الدولابي من حديث أبي سفيان بن الحرث بسند منقطع.

وقصة حنين قد تقدم الكلام عليها في المعجزات وحاصله: أنه لما انكشفت خيل بني سليم مولية وتبعهم أهل مكة والناس ولم يثبت معه إلا عمه العباس، وأبو سفيان بن الحرث، وأبو بكر، وأسامة في أناس من أهل بيته وأصحابه قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلته أكفها مخافة أن تصل إلى العدو، وأبو سفيان آخذ بركابه، وجعل ﷺ يأمر العباس بمناداة الأنصار وأصحاب الشجرة، فناداهم وكان صيتا، فلما سمعوه وأقبلوا كأنهم الإبل حنت على أولادها يقولون: يا لبيك يا لبيك فتراجعوا حتى أن من لم يطاوعه بعيره نزل عنه ورجع ماشياً فأمرهم رسول الله ﷺ أن يصدقوا الحملة فاقتتلوا مع الكفار فنصرهم الله.

(**وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا**) بمناداة العباس فرجعوا، (**وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة**) أي مرة واحدة من غير انتظار (**هكذا تكون، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان، ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة، وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر رياء وهو الذي يعرضه لسخط الله**) أي غضبه، (**ولكنه يستمر عليه**) بعد علمه به (**لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال**) ويؤثره على لذة المآل، (**فيستلذ بالشهوة ويسوف بالتوبة**) أي يؤخرها (**أو يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدة الشهوة**) لأنها تعمي حاسة الفكر. (**فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك،**

لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك، ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوكد؟ إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذموماً عند الله ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوّة الشهوة وهذا أيضاً لا ينتفع بكراهيته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل، فإذاً لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث وهي: المعرفة، والكراهة، والإباء. فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوّة المعرفة بحسب قوّة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة، وبعض ذلك ينتج بعضاً ويثمره، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة، ومنبع كل ذنب، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم.

ولكنه يستمر عليه) متشاغلاً أو متعامياً (**فتكون الحجة عليه أوكد**) أي أثبت؟ (**إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته**) ووخامة عاقبته (**وكونه مذموماً عند الله ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهية وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة، وهذا أيضاً لا ينتفع به لكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل**) وتمنع منه (**فإذاً لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث وهي: المعرفة والكراهة والأباء. فالأباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم**) فكلما كان نور العلم زائداً قوي الإيمان وبقوته تقوى المعرفة وبقوتها تظهر ثمرتها وهي كراهة الرياء، (**وضعف المعرفة بحسب**) وفي نسخة بسبب ضعف الإيمان الناشيء عن (**الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله**) من الأجر والنعيم (**وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا**) ومنغصاتها (**و**) قلة التأمل في (**نعيم الآخرة، وبعض ذلك ينتج بعضاً ويثمره**) ويفيده، (**وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات**) إلى متاعها (**فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب**) كما روي من مرسل الحسن البصري: حب الدنيا رأس كل خطيئة. رواه البيهقي في الشعب بسند حسن، ورواه أبو نعيم في الحلية من قول عيسى عليه السلام، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان من قول مالك بن دينار. ورواه ابن يونس في تاريخ مصر من قول سعد بن مسعود التجيبي وقد تقدم ذلك. (**لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والاستبصار بنور الكتاب والسنة أنوار العلم**) ومعرفة طريق الهداية والتوفيق.

فإن قلت: فمن صادق من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير مجيب إليه، فهل يكون في زمرة المرائين؟ فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزغ إليها، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به. ويدل على ذلك من الأخبار ما روي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخرّ من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها، فقال عليه السلام: «أو قد وجدتموه»؟ قالوا: نعم

(فإن قلت: فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وجد له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله وغير مجيب إليه، فهل يكون في زمرة المرائين) نظراً إلى ذلك الميل أو لا يعد في زمرتهم نظراً إلى كراهته ونفرته منه؟ **(فاعلم أن الله تعالى لم يكلف العبد إلا ما يطيق)** ويقدر عليه **(وليس في طاقة العبد منع الشيطان من نزغاته)** بالكلية **(ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات)** أصلاً، **(ولا ينزع إليها، وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية فيما كلفه)** وفي نسخة في أداء ما كلف. **(ويدل على ذلك من الأخبار ما روي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء)** أي نسقط **(فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح في مكان سحيق)** أي بعيد الغور **(أحب إلينا أن نتكلم بها. فقال)** ﷺ **(«أو قد وجدتموه»؟ قالوا: نعم)** وجدناه **(قال: «ذلك صريح الإيمان»)** قال العراقي: رواه مسلم من حديث ابن مسعود مختصراً سئل النبي ﷺ عن الوسوسة فقال ذلك محض الإيمان، ورواه النسائي في اليوم والليلة. وابن حبان في صحيحه. ورواه النسائي فيهما من حديث عائشة اهـ.

قلت: لفظ المصنف أخرجه البزار من حديث عمارة بن أبي حسن المازني عن عمه عبدالله بن زيد بن عاصم أن الناس سألوا رسول الله ﷺ عن الوسوسة التي يجدها أحدهم لأن يسقط من عند الثريا أحب إليه من أن يتكلم به قال: «ذاك صريح الإيمان إن الشيطان يأتي العبد فيما دون ذلك فإذا عصم منه وقع فيما هنالك». وإسناده صحيح. وقد رواه أيضاً لكنه مختصراً مسلم، وأبو داود. والنسائي من حديث أبي هريرة، والطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود. أما حديث عائشة فلفظه: «شكوا إلى رسول الله ﷺ ما يجدون من الوسوسة. قال: ذلك محض الإيمان» هكذا رواه احمد. ورواه أبو يعلى من حديث أنس، ورواه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود.

قال: «ذلك صريح الإيمان»، ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة والرياء، فإنه وإن كان عظيماً فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، وكذلك يروى عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أنه قال: «الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة»، وقال أبو حازم: ما كان من نفسك وكراهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه. فإذا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء هي من الشيطان، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل، إلا أنّ للشيطان ههنا مكيدة وهي أنه

(ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة والرياء، فإنه وإن كان عظيماً) في حد نفسه **(فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى، فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، وكذلك يروى عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس)** رضي الله عنهما **(أنه قال: «الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة»)** قال العراقي: رواه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ: «كيده» بإسناد جيد انتهى.

قلت: لفظ المصنف أخرجه أحمد والطيالسي أنه قال لرجل قال: إني لأتحدث بشيء لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به فكبر النبي ﷺ مرتين وقال: «الحمد لله» فذكره. ورواه الطيالسي أيضاً، وأبو داود، والترمذي وضعفه، والطبراني، والبيهقي بلفظ: «الحمد لله الذي لم يقدر منكم إلا على الوسوسة». وعند الطبراني من حديث معاذ قال: قلت يا رسول الله إنه ليعرض في نفسي الشيء لأن أكون حممة أحب إليَّ من أن أتكلم به فقال: «الحمد لله إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأرضي هذه ولكنه قد رضي بالمحقرات من أعمالكم».

(وقال أبو حازم) سلمة بن دينار الأعرج المدني رحمه الله تعالى. **(ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه)** أخرجه أبو نعيم في الحلية بنحوه. **(فإذاً وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالأباء والكراهة والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب المهيجة)** وفي نسخة المنتجة **(للرياء من الشيطان والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس)** فالشيطان يوسوس بتلك الخواطر والنفس ترغب إليها، **(والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل)** فإنه من قوي إيمانه واستنار عقله لا يرغب إلى تلك الخواطر بل

إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله.

والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب:

الأولى: أن يرده على الشيطان فيكذبه، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه، وهو على التحقيق نقصان، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك.

الثانية: أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته.

الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة وإن قلت؛ بل يكون قد قرر في

يكرهها (**إلا أن للشيطان ههنا مكيدة وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن إصلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان**) ومحاولته (**ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص**) في العبادة (**وحضور القلب**) مع الله، (**لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته**) عنه (**انصراف عن سر المناجاة مع الله**) لكون ذلك شغلاً بالسوى، (**فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عند الله تعالى**).

(**والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب**).

(**الرتبة الأولى: أن يرد على الشيطان مكيدته ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته**) بكل ممكن (**ويطول جداله معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه**) وأخلص له، (**وهو على التحقيق نقصان**) وليس بكمال (**لأنه اشتغل عن مناجاة الله تعالى وعن الخير الذي هو بصدده**) وهو الوصول إلى مرتبة القرب، (**وانصرف إلى قتال قطاع الطريق والتعريج على قتال**) وفي نسخة والتفرغ إلى قتال (**قطاع الطريق نقصان في السلوك**) عند أهل السلوك.

(**الرتبة الثانية: أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه**) فقط، (**ولا يشتغل بمجادلته**) ولا يصرف وقته في ذلك.

(**الرتبة الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً لأن ذلك وقفة**) في السلوك (**وإن قلت: بل**

عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة.

الرابعة: أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع.

يروي عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: إن فلاناً يذكرك، فقال: والله لأغيظن من أمره؟ قيل: ومن أمره؟ قال: الشيطان، اللهم اغفر له، أي لأغيظنه بأن أطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته. وقال إبراهيم التيمي: إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم، فلا يطعه وليحدث عند ذلك خيراً، فإذا رآه كذلك تركه. وقال أيضاً: إذ رآك الشيطان متردداً طمع فيك، وإذا رآك مداوماً ملك وقلاك.

يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحباً للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة).

(**الرتبة الرابعة: أن يكون قد علم أن الشيطان سيصيده**) وفي بعض النسخ سيحسده (**عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظاً للشيطان**) وإرغاماً له (**وذلك**) أي عدم الالتفات إليه في نزعاته والاستمرار على الإخلاص (**هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه**) ويدفعه (**ويوجب يأسه**) عنه (**وقنوطه**) فيه (**حتى لا يرجع إليه**) ثانياً.

(**يروى عن**) أبي الفضل (**فضيل**) مصغراً (**بن غزوان**) بفتح الغين المعجمة وسكون الزاي ابن جرير الضبي مولاهم الكوفي ثقة مات سنة أربعين روى له الجماعة (**أنه قيل له: إن فلاناً ذكرك**) أي سبك. (**قال: والله لأغيظ من أمره. قيل**) له: (**ومن أمره؟ قال: الشيطان. ثم قال: اللهم اغفر له أي لأغيظنه بأن أطيع الله فيه**) وفي نسخة بعد قوله: اللهم اغفر له أي لأطيعن الله فيه. (**ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته. وقال إبراهيم**) بن يزيد (**التيمي**) رحمه الله تعالى: (**إن الشيطان ليدعو العبد إلى الأسباب من الإثم فلا يطيعه وليحدث عند ذلك خيراً فإذا رآه كذلك تركه**) أخرجه أبو نعيم في الحلية. (**وقال أيضاً إذا رآك الشيطان متردداً طمع فيك، وإذا رآك مداوماً ملك وقلاك**) أي أبغضك وفي نسخة خلاك.

وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً، فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك، ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره. فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه. ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله، بل استمر على ما كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية. فمر الرابع فلم يتوقف له، وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعـاود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يعاود خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله.

فإن قلت: فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره

(**وضرب الحرث**) بن أسد (**المحاسبي**) رحمه الله تعالى (**لهذه الأربعة مثالاً**) في كتاب الرعاية (**أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة**) أشخاص (**قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشداً، فحسدهم على ذلك ضال مبتدع يضل الناس ببدعته وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عنه، ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى**) عليه ولم يطعه، (**فلما عرف أباءه شغله بالمجادلة معه فاشتغل معه ليرد ضلالته وهو يظن أن ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال**) ومقصوده الأعظم (**ليفوت عليه**) فائدة المجلس (**بقدر تأخره**) في جداله. (**فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه**) أي طلب أن يقف معه. (**فوقف فدفع في نحر الضال** ولم **يشتغل بالقتال واستعجل، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه. ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله، بل استمر على ما** كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية. **فمر به الرابع فلم يتوقف له، وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير، فإنه لا يعود إليه خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله**) فهذا المثال يفهمك إن الاشتغال بمجادلة الشيطان والوقوف له لاستماع زخرفته ولو لحظة، والتأني لسماع ما يلقيه في الستويلات ولو غير ملتفت إليه كما هو حال هؤلاء الثلاثة محض خسران.

(**فإن قلت: فالشيطان لا تؤمن نزغاته**) وفي نسخة مراوغاته، (**فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظاراً لوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له، أو**

للحذر منه انتظاراً لوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟ قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه.

فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم ـ كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمر والزنا ـ فصارت ملاذ الدنيا عندهم ـ وإن كانت مباحة ـ كالخمر والخنزير، فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر.

وذهبت فرقة من أهل الشأم إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع، والعارف يستحيي منه أن يحذر غيره، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر.

وقالت فرقة من أهل العلم: لا بدّ من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان

يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه وعدم الالتفات إليه بالكلية**؟ قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه)**.

(فذهبت فرقة من) عباد **(أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه)** فلم يكن في قلوبهم سعة لغير الله، **(فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم)** أي تأخر **(كما أيس من ضعفاء العباد في الدعوة إلى)** شرب **(الخمر و)** مفارقة **(الزنا فصارت ملاذ الدنيا عندهم ـ وإن كانت مباحة كالخمر والخنزير فارتحلوا من حبها بالكلية ولم يبق للشيطان إليهم سبيل)** يوسوس لهم به **(فلا حاجة بهم إلى الحذر)** منه.

(وذهبت فرقة من) عباد **(أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ونقص توكله، فمن أيقن أنه لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق وليس له)** في عباد الله **(أمر، ولا يكون إلا ما أراده الله تعالى فهو الضار النافع)** وهو الفاعل المختار في خلقه **(والعارف يستحيي منه أن يحذر غيره فاليقين بالواحدانية يغنيه عن الحذر)**.

(وقالت فرقة) وفي نسخة: طائفة **(من أهل العلم لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء استغنوا عن الحذر)** عنه **(إن خلت قلوبهم من حب الدنيا)** وفي

يكاد يكون غروراً ، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا ، بل في صفات الله تعالى وأسمائه ، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك ، ولا ينجو أحد من الخطر فيه ، ولذلك قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَتِهِ فينسخ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يحكم الله آيَاتِهِ﴾ [الحج : ٥٢] .

نسخة إن خلا من قلوبهم حب الدنيا (**بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غروراً إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته، فكيف يتخلص غيرهم؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا**) كما ظنوا ، (**بل في صفات الله تعالى واسمائه وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك. ولا ينجو أحد من الخطر فيه، ولذلك قال تعالى:** ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي**) وقد تقدم الكلام على الرسول والنبي في كتاب قواعد العقائد (**إلا إذا تمنى**) أي زوّر في نفسه ما يهواه (**ألقى الشيطان في أمنيته**) في تشهية ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما في الخبر : « وإنه ليغان على قلبي » (**فينسخ الله ما يلقي الشيطان**) أي فيبطله ويذهب بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يريحه (**ثم يحكم الله آياته**) أي ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة (**والله عليم**) بأحوال الناس (**حكيم**) فيما يفعل بهم. قيل: حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت ، وقيل : تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليهم ما يقربهم إليه فاستمر بذلك حتى كان في ناديهم، فنزلت عليه سورة النجم فأخذ يقرأها فلما بلغ ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ [النجم : ٢٠] وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه إلى أن قال : ﴿تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى﴾ ففرح به المشركون حتى تابعوه في السجود لما سجد في آخرها بحيث لم يبق في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد ، ثم نبهه جبريل فاغتم به فعزاه الله بهذه الآية ، وهو مردود عند المحققين. وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المتزلزل فيه ، وقيل (**تمنى**) قرأ كقوله :

تمنى كتاب الله أول مرة تمني داود الزبور على رسل

وأمنيته قراءته وألقى الشيطان فيها أن تكلم بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ فقد رد أيضاً مما نجد بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ، لأنه أيضاً يحتمله . والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم. كل هذا سياق البيضاوي.

والمسألة مختلف فيها قديماً وقد تكلم عليها القاضي عياض في الشفاء ، ورد ما ذكروه في توجيه الآية ، وأوسع عليه الكلام شارحه الشهاب الخفاجي ،والصحيح ورود القضية فقد رويت من طرق كثيرة لا تحتمل الخطأ كما أشار إليه الحافظ في فتح الباري ، فقد أخرجه عبد بن حميد من طريق السدي ، عن أبي صالح عن ابن عباس ، والبزار ، والطبراني ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة

وقال النبي ﷺ : « إنه ليغان على قلبي » مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير ، فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور ، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحوّاء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما : ﴿ إنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَلزَوْجِكَ فَلاَ يُخرِجنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فتشْقَى ★ إنَّ لَكَ أن لا تجوعُ فيهَا ولا تعرى وأنَّك لا تظْمَأُ فِيهَا

بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه بسند صحيح عن سعيد بن جبير. وابن جرير، وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس. وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ومن طريق أبي بكر الهذلي، وأيوب عن عكرمة عن ابن عباس. وعبد بن حميد، وابن جرير من طريق يونس عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث. وابن أبي حاتم من طريق موسى بن عقبة عن ابن شهاب. والبيهقي في الدلائل عن موسى بن عقبة، ولم يذكر ابن شهاب، والطبراني عن عروة مثله. وسعيد بن منصور، وابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، ومحمد بن قيس، وابن جرير عن الضحاك، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية، وعبد بن حميد عن مجاهد وعن عكرمة، وابن أبي حاتم عن السدي وألفاظ الكل متقاربة، وفي سوق كل منها تطويل، ومع ثبوت القصة من هذه الطرق لا يسع العالم ردها فضلاً عن المحقق.

(**وقال** ﷺ : « **إنه ليغان على قلبي**) وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » رواه أحمد، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، والبغوي، وابن قانع، والباوردي، والطبراني كلهم من حديث الأغر بن يسار المزني وقد تقدم الكلام على هذا الحديث. (**مع أن شيطانه**) ﷺ (**قد أسلم فلا يأمره إلا بخير**) رواه الطبراني من حديث المغيرة بلفظ: « ما من أحد إلا جعل معه قرين من الجن ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله. قال: « ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير ». وروى أحمد، وأبو يعلى، والطبراني، والضياء من حديث ابن عباس: « ليس منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينة من الشيطان ». قالوا وأنت يا رسول الله؟ قال: « نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم » وقد تقدم الكلام عليه أيضاً.

(**فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء**) عليهم السلام (**فهو مغرور، ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه**) أي من كيده (**آدم وحوّاء**) عليهما السلام وهما (**في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما** ﴿ **إنه هذا**) يعني الشيطان (**عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما**) أي لا يكون سبباً لإخراجكما (**من الجنة**) والمراد نهاهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما (**فتشقى** ★) أفرده بإسناد الشقاء إليه بعد اشتراكهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءها من حيث أنه قيم عليها، أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش وذلك وظيفة الرجال، والشقاء بمعنى التعب شائع في

ولاَ تَضْحَى﴾ [طه: ١١٧ ـ ١١٩] ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد، فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع المحن والفتن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها؟ وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى: ﴿هَذَا من عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] ولذلك حذر الله منه جميع الخلق، فقال تعالى: ﴿يا بني آدَمَ لاَ يفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كما أَخْرَجَ أبويْكُم مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال عز وجل: ﴿إنَّهُ يراكم هُوَ وقبيلةُ من حيث لا ترونهم﴾ [الأعراف: ٢٧] والقرآن من أوّله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدعي الأمن منه؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما

كلام العرب يقولون: أشقى من رائض المهر وسيد القوم أشقاهم، ويؤيده قوله: ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى★ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾) فانه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاية هي الشبع والري والكسوة والكن مستغنياً عن اكتسابها والسعي بتحصيل اعراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها لتطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر منها، **(مع أنه لم ينهه إلا عن شجرة واحدة)**. قيل: هي الحنطة، وقيل: الكرم، وقيل: التين، وقيل غير ذلك **(وأطلق له وراء ذلك ما أراد)** وفيه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى★ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١] **(فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو)** مستقر **(في الجنة)** التي هي **(دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان)** ووسوسته، **(فكيف يجوز لغيره أن يأمن)** من وسوسته وهو **(في دار الدنيا وهي منبع الفتن والمحن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها؟ وقال موسى عليه السلام)** فيما حكى الله عنه في كتابه العزيز: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال: **(هذا من عمل الشيطان)** لأنه لم يؤمر بقتل الكفار أو لأنه كان مؤمناً فيهم، فلم يكن له اغتياله ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عدَّه من عمل الشيطان وسماه ظلماً واستغفر منه على عادتهم في استعظام محقرات فرطت منهم ﴿إنه عدو مضل مبين﴾ ظاهر العداوة. **(ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة)** آدم وحواء **(ينزع عنهما لباسهما)** أي حلل الجنة قيل: إنهما لمّا تناولا من الشجرة سقطت عنهما الحلل. **(وقال عز وجل: ﴿إنه يراكم هو وقبيله)** أي جماعته وجنوده **(من حيث لا ترونهم﴾ والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان)** وتنبيه على غوايته وإرشاد في مخالفته. **(فكيف يدعى الأمن منه؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله لا ينافي الاشتغال بحب الله تعالى، فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمرنا بالحذر من**

أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى: ﴿وليأخذُوا حِذرَهُمْ وأسلِحتُهمْ﴾ [النساء: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعْتُم مِنْ قوةٍ ومَنْ رباطِ الْخَيْل﴾ [الأنفال: ٦٠]، فإذا ألزمك بأمر الله الحذر من العدوّ الكافر وأنت تراهِ فبأن يلزمك الحذر من عدوّ يراك ولا تراه أولى. ولذلك قال ابن محيريز عدوّ صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به، وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك. فأشار إلى الشيطان، فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله. وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل، فإن أخذ الترس والسلاح وجميع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوّف الله به والحذر مما أمر الله بالحذر منه؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية، وقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل﴾ [الأنفال: ٦٠] لا يناقض امتثال التوكل، مهما

العدو وكما أمرنا بالحذر من الكفار فقال تعالى: ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ أي ليأخذوا ما فيه الحذر بالكسر وهو التحرز، والأسلحة جمع سلاح وهو كل عدة للحرب **(وقال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ فإذا الزمك بأمر الله الحذر من العدو والكافر وأنت تراه)** وتشاهده بعينك **(فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك)** هو وقبيله **(ولا تراه)** ولا ترى قبيله **(أولى)** وآكد. **(ولذلك قال)** عبدالله **(بن محيريز)** بمهملة وراء آخره زاي مصغراً ابن جنادة بن وهب الجمحي المكي، نزل بيت المقدس، ثقة عابد مات سنة تسع وتسعين، روى له الجماعة. **(عدوّ صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وعدوّ صائد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك. وأشار به)** أي بهذا الكلام **(إلى الشيطان)** فإنه عدوّك وقصده أن يصيدك وهو يراك ويخيل لك ويرمي عليك الفخ وأنت لا تراه فما أقرب أن تقع في قبضته. **(كيف وليس في الغفلة من عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة)** إن تيسر القتل، **(وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم، فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل، فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجند)** وحشد العساكر **(وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله ﷺ، فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوّف الله تعالى به والحذر مما أمر الله بالحذر منه؟ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من ظن أن معنى التوكل النزوع من الأسباب بالكلية)** أي الخروج عنها. **(وقوله تعالى ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة من رباط الخيل﴾ لا ينقض امتثال التوكل مهما اعتقد القلب أن**

اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله تعالى، **فكذلك يحذر الشيطان** ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله، ويرى الأسباب وسائط مسخرة ـ كما ذكرناه في التوكل ـ.

وهذا ما اختاره الحرث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد.

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم: إذا حذرنا الله تعالى العدوّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له، فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا. وقال قوم: إن ذلك يؤدي إلى خلوّ القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا، بل نشتغل بالعبادة ونذكر الله ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين، فإنا إن نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسب، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله، فالجمع أولى. وقال العلماء المحققون: غلط الفريقان، أما الأوّل فقد

الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله) عز وجل لا غيره، **(فكذلك يحذر الشيطان)** ويحترز منه، **(ويعتقد أن المضل والهادي هو الله)** عز وجل لا غيره، **(ويرى الأسباب وسائط مسخرة)** بلطف الحكمة الإلهية **(كما ذكرناه في)** كتاب **(التوكل)** وسيأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى.

(وهذا ما اختاره) الحرث **(المحاسبي)** رحمه الله تعالى **(وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم وما قبله)** مما ذكر **(يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لا يغزر)** أي لا يكثر **(علمهم، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من)** نتيجة **(الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد)** لأن الأحوال لا تثبت.

(ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر) أي الاحتراز **(فقال قوم: إذا حذرنا الله العدوّ فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له، فإنا إذا غفلنا عنه لحظة)** واحدة **(يوشك أن يهلكنا)** بكيده ومكره. **(وقال قوم: إن ذلك)** أي كونه أغلب شيء على القلب **(يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منّا بل نشتغل بالعبادة وذكر الله ولا ننسى الشيطان وعدواته والحاجة)** الداعية **(إلى الحذر منه فيجمع بين الأمرين، فإنا إن نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسب)** فيهلكنا **(وإن تجردنا لذكره)** والترصد له **(كنا قد أهملنا**

تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله فلا يخفي غلطه، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدوّ؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلوّ القلب عن نور ذكر الله تعالى، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نـور ذكر الله تعالى وقوّة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره، وأما الفرقة الثانية؛ فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ـ إبليس وغيره ـ فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له، وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان، بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح؛ فيلزم نفسه

ذكر الله فالجمع أولى. وقال العلماء المحققون) من الصوفية: **(غلط الفرقتان، أما الأولى فقد تجردت لذكر الشيطان ونسيت ذكر الله ولا يخفى غلطها)** على من تأمل كلامها، **(وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر، فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدوّ؛ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله)**، فإن القلب إنما اضاءته بسبب ما يرد عليه من أنوار الذكر، **(فإذا قصد مثل هذا القلب ليس فيه نور ذكر الله وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به)** ويستولي عليه **(ولا يقوى على دفعه، فلم يؤمر)** العبد، وفي نسخة: فلم يأمرنا **(بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره. وأما الفرقة الثانية؛ فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان)** وهما نقيضان، **(وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله)** ويشتغل عنه، **(وقد أمر الله تبارك وتعالى الخلق بذكره ونسيان ما عداه)** أي ما سواه **(إبليس وغيره)** بل سائر ما في الكون الاشتغال به شغل عن الله عز وجل، **(فالحق)** الذي أحق أن يتبع وهو الوجه الثالث **(أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه على عداوته)** على طريق التأكد، **(فإذا اعتقده وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله)** حينئذ **(ويكب عليه بكل الهمة)** أي يقبل عليه مع الملازمة، **(ولا يخطر بباله أمر الشيطان، فإنه إن اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له)** في الحال، **(وعند التنبه يشتغل بدفعه)** على قدر الإمكان **(والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان)** والتنبه له، **(بل الرجل ينام وهو خائف على أن يفوته مهم)** أي أمر مقصود لذاته **(عند طلوع الصبح فيلزم**

الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر، مع أنه بالنوم غافل عنه، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدوّ إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله، ودفعوا بالذكر شر العدوّ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدوّ فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي. فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جارياً إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر، والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سداً وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسدّ من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الاظهار فائدة

نفسه الحذر) أي التحرز، **(وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه من الليل)** أي في أثنائه **(مرات قبل أوانه لما سكن في قلبه من الحذر مع أنه بالنوم غافل عنه، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنعه تنبهه)** لا يحذر منه. **(ومثل هذا القلب الذي يقوى على دفع العدوّ)** إذا هجم عليه، **(وإذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله فقد أمات منه الهوى وأحيا منه نور الفضل والعلم وأماط)** أي أزال **(عنه ظلمة الشهوات، فأهل البصيرة)** التامة **(أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده)** وانتظاره، **(وألزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بالذكر شر العدوّ، واستضاءوا بنور ذكر الله حتى أبصروا خواطر العدوّ)** من أين تهجم فاستعدوا لدفعها بقوّة نـور الذكر، **(فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر)** المنتن **(ليتفجر منها الماء الصافي، فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله تعالى قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه قد تركه جارياً من جانب آخر فيطول تعبه ولا يخف من البئر الماء القذر، والبصير)** العارف **(هو الذي يجعل لمجرى الماء القذرسدّاً)** فسده عليه **(وملأه بالصافي)** الذي لا كدر فيه، **(فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسِكر والسد)** يقال سكرت النهر سكراً إذا سددته والسِكر بالكسر ما يسد به النهر **(من غير كلفة)** أي مشقة **(ومؤنة وزيادة تعب)** والله الموفق.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

(اعلم) هداك الله بتوفيقه **(أن في الإسرار للأعمال)** أي في إخفائها **(فائدة الإخلاص**

الاقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة ، ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال : ﴿ إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هي وإنْ تُخْفُوها تُؤْتُوها الفُقَرَاءَ فَهُوَ خيرٌ لكُم﴾ [البقرة : ٢١] .

والاظهار قسمان :

أحدهما : في نفس العمل .

والآخر : بالتحدث بما عمل .

القسم الأوّل : إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها ، كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه ، فقال النبي ﷺ : « مَنْ سَنَّ سُنّة حسنةً فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه » ، وتجري سائر الأعمال هذا

والنجاة من الرياء وفي الإظهار) لها **(فائدة الاقتداء)** فيها **(وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى : **(إن السر أحرز العملين ، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة ، ولذلك أثنى الله على السر والعلانية فقال : ﴿ إنْ تُبْدُو الصَّدَقاتِ فنعما هي)** أي فنعم شيء تبدوها **(وإنْ تُخفُوها وتُؤتُوها الفُقَراء)** أي تعطوها مع الإخفاء **(فهُوَ خَيْرٌ لكُم﴾)** وتمام الآية ﴿ نكَفّرعنكم من سيآتكم والله بما تعملون خبير﴾ **(والإظهار قسمان) :**

(أحدهما :في نفس العمل) .

(والآخر : بالتحدث بما عمل) .

(القسم الأول : إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ) أي بين أظهر الناس **(لترغيب الناس فيها ، كما روي عن الأنصاري الذي جاء بالصرة)** فيها دراهم وذلك لما رغب النبي ﷺ في أمر الصدقة **(فتتابع الناس بالعطية لما رأوه ، فقال النبي ﷺ « من سنَّ سنّة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه »)** قال العراقي : رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي وفي أوله قصة اهـ .

قلت : لفظ مسلم « من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقّص من أجورهم شيء ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » وهكذا رواه أيضاً الطيالسي ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأبو عوانة ، وابن حبان .

وفي الباب حذيفة بن اليمان ، وأبو هريرة ، وأبو جحيفة ، ووائلة بن الأسقع . فلفظ حديث

المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها، ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب. نعم الغازي إذا همَّ بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضل له لأن الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هو تحريض مجرد، وكذلك الرجل قد يرفع صوته في الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به. فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه

حذيفة «من سنّ في الإسلام خيراً فاستن به كان له أجره ومثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنّ شراً فاستن به كان علنه وزره ومن أوزار من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» هكذا رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط والحاكم والضياء من رواية أبي عبيدة بن حذيفة عن أبيه.

ولفظ حديث أبي هريرة «من سنّ خيراً فاستن به كان له أجره كاملاً ومن أجور من استن به من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره كاملاً ومن أوزار الذي استن به لا ينقص من أوزارهم شيئاً» هكذا رواه أحمد. وفي رواية «من سنّ سنة هدى فاتبع عليها كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة ضلالة فاتبع عليها كان عليه مثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» هكذا رواه السجزي في الإبانة.

ولفظ حديث أبي جحيفة «من سنّ سنة حسنة فعمل بها بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينتقص من أجورهم شيئاً، ومن سن سنة سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزرها ومثل أوزارهم من غير أن ينتقص من أوزارهم شيئاً» هكذا رواه ابن ماجه، والطبراني في الأوسط.

ولفظ حديث واثلة «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها ما عمل بها في حياته وبعد مماته حتى يترك، ومن سن سنة سيئة فعليه إثمها حتى تترك، ومن مات مرابطاً في سبيل الله حرى له أجر المرابط حتى يبعث يوم القيامة». هكذا رواه الطبراني في الكبير، والسجزي في الإبانة.

(**ويجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والحج والغزو وغيره، ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب**) كما وقع للأنصاري المتقدم ذكره. (**نعم الغازي**) في سبيل الله (**إذا همّ بالخروج**) من محله بنيّة الغزو (**فاستعد**) وتهيأ (**وشد الرحل**) والركائب (**قبل القوم تحريضاً على الحركة**) والنهوض (**فذلك أفضل له لأن الغزو في نفسه من أعمال العلانية لا يمكن إسراره**) أي إخفاؤه، (**والمبادرة إليه ليس من الإعلان بل هو تحريض مجرد، وكذلك الرجل قد يرتفع صوته في صلاة الليل**) أي التي يصليها بعد هجعه (**لينبه جيرانه وأهله فيقتدي به**) في فعله، (**فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض**) على الانتفاع به، فمن كان ممن يستن به عالماً بما لله

شوائب الرياء، وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الإيذاء حرام. فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم: «السر أفضل من العلانية وإن كان في العلانية قدوة، وقال قوم: السر أفضل من علانية لا قدوة فيها، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر. ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوّة، ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين. ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «له أجرها وأجر من عمل بها» وقد روي في الحديث: «إن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفاً»، وهذا لا وجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب

عليه قاهراً لشيطانه استوى ما ظهر من عمله وما خفي لصحة قصده جاز له الإظهار والمبادرة، وإليه الإشارة بقوله: (**بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء**) وإلاّ فالافضل الإخفاء مطلقاً. صرح به العز بن عبد السلام في قواعده. (**وأما ما يمكن إسراره**) أي اخفاؤه (**كالصدقة والصلاة فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر أفضل لأن الايذاء حرم**) فيغلب جانبه على جانب الترغيب عند التعارض. (**وإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلف الناس في الأفضل فقال قوم: السر أفضل من العلانية**)ومعه يكون تكفير السيئات (**وإن كان في العلانية قدوة**) لأمثاله، (**وقال قوم: السر أفضل من علانية لا قدوة فيها، أما العلانية للقدرة**) أي لأجل أن يقتدى به ويستشرف له أمثاله (**فأفضل من السر. ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر أنبياءه**) عليهم السلام (**بالإظهار للعمل للاقتداء**) بهم (**وخصهم بمنصب النبوّة**) واجتباهم به، (**ولا يجوز أن نظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين. ويدل عليه قوله** ﷺ) في الحديث السابق «من سنّ سنّة حسنة (**فله أجرها وأجر من عمل بها**) من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً». (**وقد روي في بعض الحديث «أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر بسبعين ضعفاً**) قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصراً على الشطر الأول بنحوه. وقال: هذا من إفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وقد تقدم قبل هذا قريباً، وله من حديث ابن عمر «عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الإقتداء» وقال: تفرد به عن بقية عن عبد الملك بن مهران، وله من حديث عائشة «يفضل أو يضاعف الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على ما تسمعه بسبعين ضعفاً» وقال: تفرد به معاوية بن يحيى الصدقي وهو ضعيف اهـ.

قلت: أما حديث أبي الدرداء، فلفظه عند الديلمي في مسند الفردوس: «ان الرجل ليعمل عملاً سراً فيكتبه الله عنده سراً فلا يزال الشيطان حتى يتكلم به فيمحى من

عن شوائب الرياء وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدى به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء، ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به، فلا خلاف في أن السر أفضل منه. ولكن على من يظهر العمل وظيفتان:

إحداهما: أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظناً، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلته، وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به.

السر فيكتب علانية، فإن عاد فتكلم الثانية محى عن السر والعلانية وكتبه رياء» ولفظه عند البيهقي «إن الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً» هذا أوّله، والباقي كسياق الديلمي. وقد تقدمت الإشارة إليه في بيان فهم الرياء في أوّل الشطر الثاني من هذا الكتاب. وأما حدث عائشة :رواه كذلك ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص وتقدمت الإشارة إليه. وأما حديث ابن عمر، فقد رواه كذلك الديلمي في مسند الفردوس ولفظه «السر أفضل من العلانية ولمن أراد الاقتداء العلانية أفضل من السر» وفيه محمد بن الحسين السلمي. قال الذهبي، قال الخطيب، قال محمد بن القطان: كان يضع للصوفية الحديث، وبقية قال الذهبي صدوق، ولكنه يروي عمن دبّ ودرج فكثرت العجائب والمناكير في حديثه، وعثمان بن زائدة أورده الذهبي في الضعفاء وقال: له حديث منكر، وفي اللسان عثمان بن زائدة عن نافع عن ابن عمر حديثه غير محفوظ قاله العقيلي وساق له هذا الخبر.

(**وهذا لا وجه للخلاف فيه فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء**) وسلم منه (**وتم الإخلاص على وجه واحد في الحالتين فما يقتدي به أفضل لا محالة، وإنما يخاف من ظهور الرياء. ومهما حصل شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به؛ فلا خلاف في أن السر أفضل منه، ولكن على من يظهر العمل وظيفتان**.

إحاهما: أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به) علماً حاصلاً له به في الحال (**أو يظن ذلك ظناً**) ففي الحالتين الاظهار، (**وربما يقتدي به أهل محلته**) فقط، (**وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة**) في بلده ومن الواردين عليه (**فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الإظهار من غير فائدة، وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل القدوة على من هو في محل الاقتداء به**).

والثانية: أن يراقب قلبه فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء، وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به، وهذا حال كل من يظهر أعماله إلا الأقوياء المخلصين وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر، فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك، والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم مدّة مديدة، وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء، والتفطن لذلك غامض، ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان. فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير، فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراءاتهم؟ فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع

(**الثانية: أن يراقب قلبه في أنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي**) المستكن في الضمير (**فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء**) أي يقول: إنما أظهره ليقتدي بي الناس وهذا عذري، (**وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه مقتدى به**) فيحتاج إلى المراقبة في ذلك، فإن وجد في نفسه شيئاً من ذلك لم يجز له الإظهار أصلاً. (**وهذا حال كل من يظهر أعماله**) فإنه لا يخلو من حب الرياء الخفي (**إلا الأقوياء المخلصين**) الذين يتوقون من ذلك (**وقليل ما هم. فلا ينبغي أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر**) بهلاكه، (**فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر إلى جماعة غرقى**) مثله (**فرحمهم**) فأشفق لهم (**فأقبل عليهم حتى تشبثوا به**) فهلكوا وهلك معهم، (**والغرق بالماء في الدنيا ألمه ساعة**) ثم يرتاح (**وليت كان الهلاك بالرياء مثله، لا بل عذابه دائم**) مقيم (**مدة مديدة**) أي طويلة، (**وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء في الإظهار ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء**) فيهلكون، (**والتفطن لذلك غامض**) أي خفي المدرك. (**ومحل ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له اخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من أقرانك**) وأمثالك (**ويكون لك في السر مثل أجر الإعلان. فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به**) دون غيره (**وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الأجر واقتداء الناس به ورغبتهم في الخير، فإنهم قد رغبوا في الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره**) أي إخفائه، (**فما بال قلبه يميل إلى الإظهار** لولا ملاحظته **لأعين**

والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً والسلامة في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

القسم الثاني: أن يتحدّث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشدّ لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوي عظيمة، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أن من قوي قلبه وتم اخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عند مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة في الخير بسببه فهو جائز، بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات، لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خير، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء. قال سعيد بن معاذ: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها، ولا تبعث جنازة فحدّثت نفسي بغير ما هي قائلة

الخلق ومراءاتهم؟ فليحذر العبد خدع النفس) ومكرياتها **(فإن النفس خدوع والشيطان)** طلاّع **(مترصد)** لأن يوقعك **(وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة من الآفات فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً)** فإنها غنيمة الأكياس **(والسلامة في الإخفاء)** محققة **(وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا، فالحذر من الإظهار أولى بنا بجميع الضعفاء أمثالنا).**

(القسم الثاني: أن يحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه والخطر في هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد يجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في إظهار الدعاوي) الكاذبة **(عظيمة، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو)** من هذا الوجه **(أهون والحكم فيه أن من قوي قلبه)** بنور الذكر **(وتم إخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم)** له **(وذمهم)** كذلك، **(وذكر ذلك من يرجو** الاقتداء به والرغبة في الخير، **بسببه فهو جائز بل مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات**، لأنه ترغيب في الخير، **والترغيب في الخير خير، وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف** الأقوياء). قال أبو عمرو **(سعيد بن معاذ)** بن النعمان الأنصاري الأشهلي سيد الأوس شهيد بدر استشهد بسهم أصابه في الخندق روى له البخاري: **(ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت** نفسي بغيرها، **ولا تبعث جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة** وما هو مقول لها، وما سمعت رسول الله ﷺ **يقول قولاً قط إلا**

وما هو مقول لها، وما سمعت النبي ﷺ يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق. وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي أصبحت على عسر أو يسر لأني لا أدري أيهما خير لي؟ وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها. وقال عثمان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ، وقال شداد بن أوس: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها، غير هذه! وكان قد قال لغلامه: ائتنا بالسفرة لنعبث بها حتى ندرك الغذاء. وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا عليّ فإني ما أحدثت ذنباً منذ أسلمت. وقال عمر بن عبد العزيز

علمت أنه حق. وقال عمر) رضي الله عنه: (**ما أبالي أصبحت على يسر أو على عسر لأني لا أدري أيهما خير لي**) أخرجه الإسماعيلي في مناقبه. (**وقال ابن مسعود**) رضي الله عنه: ما أصبحت على حالة فتمنيت أن أكون على غيرها. وقال عثمان) رضي الله عنه: (**ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ**). قال العراقي: رواه أبو يعلى الموصلي في معجمه بإسناد ضعيف من روايته عنه في أثناء حديث: وأن عثمان قال يا رسول الله فذكره بلفظ: منذ بايعتك قال «هو ذاك يا عثمان» اهـ.

قلت رواه وكيع عن الصلت، عن عقبة بن صهبان أنه سمع عثمان يقول: ما تمنيت ولا تغنيت ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسول الله ﷺ، وقد تقدم في كتاب الوجد والسماع. (**وقال شداد بن أوس**) رضي الله عنه: (**ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت أزمها وأخطمها**) يقال: زم ناقته خطمها إذا حبسها بزمام أو خطام، (**غير هذه! وكان قد قال لغلامه: ائتنا بالسفرة لنعبث بها حتى ندرك الغذاء**) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت من طريقين.

إحداهما: قال فيها حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن عمران بن أبي ليلى، حدثنا عيسى بن يونس، عن الاوزاعي حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس في سفر فنزل منزلاً فقال لغلامه: ائتنا بالسفرة **نعبث** بها فأنكرت عليه. فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا كلمتي هذه فلا تحفظوها عليّ.

والثانية: **قال فيها** حدثنا أحمد بن جميل، **أخبرنا عبد** الله بن المبارك، أخبرنا السري بن **يحيى**، عن ثابت البناني قال: **قال** شداد بن أوس لغلامه: **ائتنا** بسفرتنا نعبث ببعض ما فيها. **فقال** له رجل من أصحابه: ما سمعت منك كلمة منذ صاحبتك أرى أن يكون فيها شيء من هذه. قال: صدقت ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله ﷺ إلا أزمها وأخطمها إلا هذه. وأيم الله لا تذهب مني هكذا فجعل يسبح ويكبر ويحمد [illegible] عز وجل.

(**وقال أبو سفيان**) بن الحرث بن عبد المطلب الهاشمي رضي الله عنه ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة أرضعتهما حليمة (**لأهله حين حضره الموت: لا تبكوا علي فإني ما أحدثت ذنباً**

رحمه الله تعالى: ما قضى الله فيّ بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره، وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله.

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يرائي بها. وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به. فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي أن يسدّ باب إظهار الأعمال والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء، بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي. فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله؟ وقد روي أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت، فصنف بعضهم كتاباً في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف! فإظهار المرائي فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم،

منذ أسلمت) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت، وسيأتي في آخر الكتاب. وكان إسلامه يوم فتح مكة، ثم شهد حنيناً وكان ممن ثبت معه، وكان آخذاً بركاب البغلة، ومات سنة خمس عشرة في خلافة عمر، وقيل: سنة عشرين، وقيل: انه لم يرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ حياء منه. **(وقال عمر بن عبد العزيز)** الأموي رحمه الله تعالى: **(ما قضى الله تعالى لي بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لي بغيره وما أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله)** أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(فهذا كله إظهار لأحوال شريفة، وفيها غاية المراءاة إذا صدرت ممن يرائي بها، وفيها غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به. فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء) القادرين على أنفسهم المخلصين في قصودهم **(بالشروط التي ذكرناها، فلا ينبغي أن يسد باب إظهار الأعمال)** على مظهريها **(والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء)** بذوي الصلاح في أعمالهم وكيفية سلوكهم وآدابهم. **(بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير الناس ولكنه شر للمرائي، فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله؟ وقد روي أنه كان يجتاز)** أي يمر **(الإنسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت)** وكان المراد به صلاة الليل، فقوله عند الصبح أي بالقرب من طلوعه. **(فصنف بعضهم كتاباً في)** التصوّف وذكر فيه جملة من **(دقائق الرياء)** وخفاياها فطالعوه وسمعوه **(فتركوا ذلك)** خوفاً من أن يدخل فيه الرياء الخفي **(وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف)**! نقله صاحب القوت **(وإظهار المرائي فيه خير كثيراً لغيره إذا لم يعرف رياؤه. فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر

كما ورد في الأخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم، والله تعالى أعلم.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له:

اعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية، قال: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطلع عليك لم تستحـي منه. وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا أتياني أهلي والبول والغائط، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل أحد. ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لإخفائها

وبأقوام لا خلاق لهم كما ورد) ذلك **(في الأخبار، وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم)**.

قال العراقي: هما حديثان، فالأول عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم في العلم، والثاني رواه النسائي من حديث أنس بسند صحيح وقد تقدم أيضاً اهـ).

(قلت: روى الطبراني من حديث عمرو بن النعمان بن مقرن «إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر» وروى ابن النجار من حديث كعب بن مالك «إن الله ليؤيد الدين بقوم لا خلاق لهم» وروى الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو «إن الله عز وجل ليؤيد الإسلام برجال ما هم من أهله» وقد تقدم الكلام عليه.

(بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم:

(اعلم) ارشدك الله **(أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية، قال: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطلع عليك لم تستحي منه)** أخرجه الإسماعيلي في مناقبه، وبه فسر مالك رحمه الله تعالى قوله ﷺ «إذا لم تستح فاصنع ما شئت». أي إذا كنت في أمورك آمنا من الحياء في فعلها لكونها من القانون الشرعي الذي لا يستحيى منه أهله فاصنع ما شئت، ولا عليك من متكبر يلومك ولا من متصلف يستعيبك فإن ما أباحه الشرع لا حياء في فعله. **(وقال أبو مسلم)** عبد الله بن ثوب **(الخولاني)** الزاهد الشامي التابعي رحمه الله تعالى: **(ما عملت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه الا إتياني أهلي والبول والغائط)** أي: فهذان العملان مما يستحيا منهما إذا اطلع عليها الناس. **(إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل أحد ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه وبجوارحه)** الظاهرة **(وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر من الشهوات والأماني، والله مطلع على جميع ذلك فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد بما يظن أنه**

عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي.

وأما الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه:

الأول: أن يفرح بستر الله عليه، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة، إذ ورد في الخبر: «أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنباً ستره الله عليه في الآخرة». وهذا غم ينشأ من قوّة الإيمان.

الثاني: أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال ﷺ: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله». فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله. وهذا ينشأ من قوّة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ويغتم بسببه.

الثالث: أن يكره ذم الناس له به من حيث أن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشتغل عن الطاعة، وبهذه العلة

محظور وليس كذلك بل المحظور أن يستر ذلك عنهم **(ليرى الناس أنه ورع)** وانه متق **(وأنه خائف من الله مع انه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي)**.

(وأما الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه).

الوجه **(الأول: هو أن يفرح بستر الله عليه، وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره)** في الدنيا **(وخاف أن يهتك ستره في القيامة، إذ ورد في الخبر «ان من ستر عليه في الدنيا يستر عليه في الآخرة»)** تقدم قريباً من رواية مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة». **(وهذا غم ينشأ من قوّة الإيمان)**

الوجه **(الثاني: أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها، كما قال ﷺ «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله»)** رواه الحاكم في المستدرك وقد تقدم، فهو وإن عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه من محبة ما أحبه الله، وهذا ينشأ من قوّة الإيمان بكراهة ظهور المعاصي، وأثر الصدق فيه ان يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً ويغتم بسببه).

الوجه **(الثالث: أن يكره ذم الناس له من حيث أن ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله من طاعة الله، فإن الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشتغل عن الطاعة، ولهذه العلة أيضاً**

أيضاً ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر. وهذا أيضاً من قوّة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان.

الرابع: أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الإنسان به عاص وإنما يعصي إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز حذراً من ذمهم، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به، نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون، وذلك قليل جداً، وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان، ورب تألم بالذم محمود إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء الله، وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان في الدين فكيف لا يغتم به؟ نعم. الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع، كأنه يحب أن يحمد بالورع، ولا يجوز أن

ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن الله تعالى ويستغرق قلبه) بأن يغمره كله **(ويصرفه عن ذكر الله، وهذا أيضاً من قوّة الإيمان إذ صدق الرغبة في فراغ القلب لأجل الطاعة)** حتى لا يكون فيه شاغل سواها **(من الإيمان)**.

الوجه **(الرابع: أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذىء طبعه، فإن الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن، وخوف تألم الذنب ليس بحرام ولا الإنسان به عاص وإنما يعصي به إذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته إلى ما لا يجوز)** ارتكابه **(حذراً من ذمهم، وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به. (نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه)** أي يكون عنده حامده وذامه في الخلق سواء، كما قال ابن مسعود: لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذورته ولا يحل بذورته حتى يكون حامده وذامه عنده سواء. رواه صاحب الحلية. **(لعلمه أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون، و)** و) وجود **(ذلك قليل جداً)** لعزة هذا المقام، **(وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان، ورب متألم بالذم محمود إن كان الذام من أهل البصيرة في الدين فإنهم شهداء الله)** في الأرض. وروى الطبراني من حديث سلمة بن الاكوع: أنتم شهداء الله في الارض والملائكة شهداء الله في السماء، **(وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصانه في الدين فكيف لا يغتم به؟ نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع، كأنه يحب أن يحمد بالورع، ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله، فيكون**

يحب أن يحمد بطاعة الله، فيكون قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد.

وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذراً من ذلك، ويتصوّر أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم. وإنما مراده أن يتركه الناس حمداً وذماً، فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم؟ إذ الحمد يطلب اللذة، وعدم اللذة لا يؤلم، وأما الذم فإنه مؤلم؛ فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان في الدين، بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر.

الخامس: أن يكره الذم من حيث أن الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضاً فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع.

السادس: أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم، فإن

قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره، فإن وجد ذلك في نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد).

(أما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذراً من ذلك، ويتصوّر أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم، وإنما مراده أن يتركه الناس حمداً وذماً، فكم من صابر على لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم؟ إذ الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة لا يؤلم، وأما الذم فإنه مؤلم؛ فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال، وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه لأمر واحد وهو أن يشغله غمه عنه باطلاع الخلق على ذنبه عن اطلاع الله فإن ذلك غاية النقصان في الدين، بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر) لأن شغله باطلاع الخلق لا يزيده إلا غماً بخلاف شغله باطلاع الله فإنه يزيده رهبة ويجره إلى توبة.

(الخامس: أن يكره الذم من حيث أن الذم قد عصى الله به وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضاً فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع) فإنه يتوجع لنفسه أكثر من غيره.

الوجه **(السادس: أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم،**

الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وإن كان ممن يؤمن شره، وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب، فله أن يستر ذلك حذراً منه.

السابع: مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر، وهو خلق كريم يحدث في أوّل الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحيي من القبائح إذا شوهدت منه وهو وصف محمود إذ قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله». وقال ﷺ: «الحياء شعبة من

فإن الذم يؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته، وإن كان ممن يؤمن شره وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب فله أن يستر ذلك حذراً منه).

الوجه (**السابع: مجرد الحياء فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر، وهو خلق كريم يحدث في أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحيي من القبائح إذا شوهدت منه**) والاستحياء استفعال من الحياء والحياء من قوّة الحس ولطفه وقوّة الحياء (**وهو وصف محمود**) واختلف فيه، وأشهر الأقوال أنه تغير وانكسار يعرض للانسان من تخوف ما يعاب به أو يذم عليه. (**قال ﷺ: «الحياء خير كله»**) قال العراقي: رواه مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم.

قلت: وكذلك رواه أحمد، وأبو داود. وإنما كان خيراً كله لأن مبدأه انكسار يلحق الانسان مخافة نسبته إلى القبيح ونهايته ترك القبيح وكلاهما خير، ومن ثمراته مشهد النعمة والإحسان، فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن، وإنما يفعله اللئيم فيمنعه مشهد إحسانه إليه، ونعمته عليه من عصيانه حياء منه أن يكون خيره وإنعامه نازلاً عليه ومخالفته صاعدة إليه، فملك ينزل بهذا وملك يعرج بهذا فاقبح به من مقابلة.

(**وقال ﷺ «الحياء شعبة من الإيمان»**) قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

قلت: وروى أحمد، وابن منيع، والترمذي وقال: حسن غريب، والحاكم، والضياء من حديث أبي أمامة «الحياء والعيّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق» وفي لفظ آخر «الحياء من الإيمان» رواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه من طريق سفيان بن عيينة، والبخاري، وأبو داود، والنسائي من طريق مالك ومسلم وحده من طريق معمر ثلاثتهم عن الزهري عن سالم عن أبيه انه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يعظ أخاه في الحياء فقال «الحياء من الإيمان». وفي رواية وقال «دعه فإن الحياء من الإيمان». وقد انفرد الشيخان بهذه اللفظة. ورواه أبو يعلى من حديث عبد الله بن سلام. ورواه ابن عساكر، وابن النجار من حديث أبي بكرة. ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة. وفي لفظ «الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة» رواه الطبراني، والبيهقي من حديث عمران بن حصين. ورواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح، وابن حبان، والحاكم من حديث أبي هريرة. ورواه البخاري في الأدب، والطبراني، والحاكم، والبيهقي من حديث أبي بكرة. ورواه

الإيمان ». وقال ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير ». وقال ﷺ : « إن الله يحب الحيّ الحليم » فالذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للناس جمع إلى الفسق التهتك والوقاحة وفقد الحياء ، فهو أشد حالاً ممن يستتر ويستحي ، إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباهاً عظيماً قل من يتفطن له ، ويدعي كل مراء أنه مستحي وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس ، وذلك كذب ، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصوّر أن يخلص معه ويتصوّر أن يرائي معه .

وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضاً ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أنه يستحي من رده ، وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا

الشيرازي في الألقاب ، والطبراني في الأوسط من حديث عمـران بن حصين ، وأبي بكر معاً . وفي لفظ « الحياء شعبة من شعب الايمان ولا إيمان لمن لا حياء له » رواه ابن لال في مكارم الأخلاق عن مجمع بن حارثة عن عمه .

(قال ﷺ « الحياء لا يأتي إلا بخير ») لأن من استحيا من الناس أن يروه يأتي بقبيح دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشد فلا يضيع فريضته ولا يرتكب خطيئته . قال العراقي : متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم . قلت : ورواه كذلك أحمد .

(وقال ﷺ : « إن الله يحب الحي الحليم ») أي صاحب الحياء والحلم. قال العراقي : رواه الطبراني من حديث فاطمة ، وللبزار من حديث أبي هريرة « إن الله يحب الغني الحليم المتعفف »وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه اهـ.

قلت : وروى ابن صصري في أماليه من حديث أبي هريرة « إن الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف من عباده ، ويبغض الفاحش البذيء السائل الملحف » وروى أحمد ، ومسلم ، والعسكري في الأمثال من حديث سعد « إن الله عز وجل يحب العبد التقي الغني الخفي » .

(فالذي يفسق ولا يبالي بأن يظهر فسقه للناس جمع إلى الفسق التهتك والوقاحة) أي صلابة الوجه **(وفقد الحياء ، فهو أشد حالاً ممن يستتر ويستحي ، إلا أن الحياء ممزوج بالرياء ومشتبه به اشتباهاً عظيماً قلّ من يتفطن له ويدعي كل مراء انه مستحي ، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب ، بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم)** . ونقل القشيري في الرسالة ، عن الجنيد رحمه الله تعالى قال : الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير فتولد بينهما حالة تسمى الحياء . **(ويهيج عقيبهٌ داعية الرياء وداعية الاخلاص ويتصوّر أن يخلص معه ويتصوّر أن يرائي معه .**

وبيانه : أن الرجل يطلب من صديق له قرضاً ونفسه لا تسخو بإقراضه إلا أن يستحي من رده) بلا اعطاء ، **(وعلم انه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء**

لطلب الثواب، فله عند ذلك أحوال؛ إحداها: أن يشافه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لا حياء له. فإن المستحيي إما أن يتعلل أو يقرض. فإن أعطى فيتصوّر له ثلاثة أحـوال:

إحداها: أن يمزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول: ينبغي أن تعطي حتى يثني عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء، أو ينبغي أن تعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل، فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء.

الثانية: أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء، فيهيج داعي الإخلاص ويقول له: إن الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى، فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه.

الثالثة: أن لا يكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته، لأنه لو طلبه مراسله لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء، وهو ما يجده في قلبه من ألم

ولا لطلب الثواب فله عند ذلك أحوال احداها أن يشافه) أي يواجه **(بالرد الصريح ولا يبالي فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لا حياء له، فإن المستحيي)** لا يخلو **(إما أن يتعلل)** أي يعتذر ويتعلق بذكر علة مانعة له من الإقراض، **(أو يقرض)** في الحال، **(فإن أعطي فيتصوّر له ثلاثة أحوال)**.

(أحداها: أن يمتزج الرياء بالحياء بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول: ينبغي أن تعطي حتى يثنى عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء، أو ينبغي أن تعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل، فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء).

الحالة **(الثانية: أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى في نفسه البخل فيتعذر الإعطاء، فيهيج باعث الإخلاص ويقول: إن الصدقة بواحدة والقرض بثمانية عشر)** كما ورد ذلك في الخبر، **(ففيه أجر عظيم وإدخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى، فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيج الحياء إخلاصه)**.

الحالة **(الثالثة: أن لا تكون له رغبة في الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فإعطاؤه بمحض الحياء، وهو ما يجده في قلبه من ألم**

مباحاً وقد يكون محموداً وقد يكون مذموماً. فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك، فإنه تعالى إذا أحب عبداً حببه في قلوب عباده، والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله. والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات

قلت: سياق المصنف أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق منصور بن المعتمر، عن مجاهد عن أنس بلفظ «ازهد في الدنيا يحبك الله وأما الناس فانبذ إليهم هذا فيحبوك». ورجاله ثقات لكن في سماع مجاهد عن أنس فيه نظر، وقد رواه الأثبات فلم يجاوزوا به مجاهداً، وكذا روي من حديث ربعي بن خراش عن الربيع بن خيثم رفعه مرسلاً.

وأما حديث سهل بن سعد، فرواه ابن ماجه في الزهد في سننه، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، وابن حبان، والحاكم في صحيحه، والبيهقي في الشعب، وآخرون كلهم من حديث خالد ابن عمرو القرشي، عن الثوري، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس. فقال «ازهد» وذكره. وقال الحاكم: إنه صحيح الإسناد، وليس كذلك فخالد مجمع على تركه بل نسب إلى الوضع، لكن قد رواه غيره عن الثوري. وقال المنذري عقيب عزوه لابن ماجه: وقد حسن بعض مشايخنا إسناده وفيه بُعد لأنه من رواية خالد القرشي، وقد ترك واتهم قال: على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوّة ولا يمنع كون راويه ضعيفاً أن يكون النبي ﷺ قاله اهـ. وقد سبقه النووي في تحسينه وتبعه العراقي، والجلال السيوطي، وقد اختلف فيه كلام الحافظ ابن حجر، والذي يميل إلى القلب تحسينه والله أعلم.

(فنقول: حبك لحب الناس لك قد يكون مباحاً وقد يكون محموداً وقد يكون مذموماً. فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك، فإنه عز وجل إذا أحب عبداً حببه في قلوب عباده). روى أبو نعيم في الحلية من حديث أنس «إذا أحب الله عبداً قذف حبه في قلوب الملائكة، وإذا أبغض عبداً قذف بغضه في قلوب الملائكة ثم يقذفه في قلوب الآدميين» وفي المتفق عليه من حديث أبي هريرة «إذا أحب الله عز وجل عبداً نادى جبريل ان الله يحب فلاناً فاحببه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض». وعند الترمذي وقال: حسن صحيح بزيادة ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قوله تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ [مريم: ٩٦].

(والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجلاً سوى ثواب الله) فذلك مذموم، **(والمحمود أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة)** وأخلاق حسنة **(سوى الطاعات المحبوبة المعينة،**

المحمودة المعينة؛ فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال فلا فرق بينهما.

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات:

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به وذلك غلط وموافقة للشيطان، بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره، وهو أن الطاعات تنقسم إلى: ما لا لذة في عينه، كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها مقاساة ومجاهدات، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عند اطلاع الناس عليه. وإلى: ما هو لذيذ؛ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن، بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة.

القسم الأول: الطاعات اللازمة للبدن ـ التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها ـ كالصوم والصلاة والحج، فخطرات الرياء فيها ثلاث:

إحداها: ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث

فحبك ذلك كحبك للمال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال، فإنه كذلك وسيلة إلى الأغراض فلا فرق بينهما) حينئذ، والله الموفق.

بيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات:

(**اعلم**) هداك الله (**أن من الناس من يترك العمل خوفاً أن يكون مرائياً به، وذلك**) أي ترك أصل العمل لهذا الخوف (**غلط وموافقة للشيطان**) فإن قصده من العبد ذلك (**بل الحق فيما يترك من الأعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره**) الآن، (**وهو أن الطاعات**) بأسرها (**تنقسم إلى ما لا لذة في عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو فإنها**) من أصلها (**مقاساة ومجاهدات**) بدنية ومالية، (**وإنما تصير لذيذة**) لعارض وهو (**من حيث أنها توصل إلى حمد الناس، وحمد الناس لذيذ، وذلك عن اطلاع الناس عليه**) فظهر أن اللذة فيها لا لعينها. (**وإلى ما هو لذيذ**) لعينه؛ (**وهو أكثر مما لا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وإمامة الصلاة والتذكير والتدريس وإنفاق المال على الخلق، وغير ذلك مما تعظم الآفة به لتعلقه بالخلق، ولما فيه من اللذة**).

(**القسم الأول: الطاعات اللازمة للبدن التي لا تتعلق بالغير ولا لذة في عينها ـ كالصلاة والصوم والحج، فخطرات الرياء فيها ثلاث.**

احداها: ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث

الدين، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه. فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة، فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها: ألا تستحين من مولاك لا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عباده؟ حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل.

الثانية: أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها، فلا ينبغي أن يترك العمل لأنه وجد باعثاً دينياً، فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحسين الأخلاص بالمعالجات التي ذكرناها من الزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول.

الثالثة: أن يعقد على الإخلاص بالمعالجة ثم يطرأ الرياء ودواعيه، فينبغي أن يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتمم العمل، لأن الشيطان يدعوك أولاً إلى ترك العمل، فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء، فإذا لم تجب ودفعت بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا

الدين، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لا طاعة فيه. فإنه تدرع) أي تلبس (**بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة**) في قلوب الناس. (**فإن قدر الانسان أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها: ألا تستحين من مولاك لا تسخين بالعمل لأجله وتسخين بالعمل لأجل عباده؟ حتى يندفع**) بذلك القول (**باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل حينئذ بالعمل**).

(الثانية: **أن ينبعث لأجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأوّلها، فلا ينبغي أن يترك العمل**) لهذا (**لأنه وجد باعثاً دينياً، فليشرع في العمل**) وليستمر عليه (**وليجاهد نفسه في دفع الرياء وتحصيل**) أصل (**الاخلاص بالمعالجة التي ذكرناها من الزام النفس كراهية الرياء والإباء عن القبول**).

(الثالثة: **أن يعقد على الإخلاص بالمعالجة ثم يطرأ الرياء ودواعيه، فينبغي أن يجاهد في الدفع**) مهما أمكنه (**ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص ويرد نفسه إليه قهراً حتى يتمم العمل، لأن الشيطان يدعوك أولاً إلى ترك العمل**) من أصله. (**فإذا لم تجب**) دعاءه (**واشتغلت**) بالعمل (**فيدعوك إلى الرياء، فإن لم تجب**) دعاءه (**ودفعت**) في عمىث (**بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع وأي فائدة لك في**

تركته فقد حصلت غرضه. ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائياً كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال: خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف أن اشتغلت به لم تخلص خلاصاً صافياً نقياً. فترك العمل من أجله هو ترك الإخلاص مع أصل العمل، فلا معنى له. ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً على الناس أن يقولوا إنه مراء فيعصون الله به. فهذا من مكايد الشيطان لأنه أوّلاً أساء الظن بالمسلمين، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك، ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة، وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مراء هو عين الرياء، فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فما له ولقولهم قالوا انه مراء أو قالوا إنه مخلص؟ وأي فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال إنه مراء، وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال انه غافل مقصر؟ بل ترك العمل أشد من ذلك، فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال، ثم كيف يطمع في أن ينخلص من الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه بل

عمل لا إخلاص فيه؟ حتى يحملك على ترك العمل) بهذه الخداعات، **(فإذا تركته فقد حصلت غرضه)** الذي هو بصدده. وهذا معنى الخبر «إن للشيطان مصائد وفخوخاً» وفي الخبر الآخر «الشيطان طلاع رصاد». **(ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائياً كمن سلم إليه مولاه حنطة فيهازوان)** وهو حَبٌّ يخالط البرّ فيكسبه الرداءة، وفيه لغات ضم الزاي مع الهمز وتركه فيكون وزن غراب، وكسر الزاي مع الواو الواحدة زوانة ويسمى السليم **(وقال: خلصها عن الزوان ونقها منه تنقية بالغة فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصاً صافياً نقياً فيترك العمل من أجله وهو ترك الإخلاص مع أصل العمل، فلا معنى له. ومن هذا القبيل أن يترك العلم خوفاً على الناس أن يقولوا: إنه مراء فيعصون الله)** بسبب قولهم ذلك فيكون هو الحامل لهم على الوقوع في تلك المعصية، **(فهذا من مكائد الشيطان)** وخدعه **(لأنه أوّلاً أساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك)** فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿إنّ بعْضَ الظن إثم﴾ [الحجرات: ١٢] **(ثم إن كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة وترك العمل خوفاً من قولهم أنه مراء هو عين الرياء)** [illegible] **(فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من مذمتهم فما له ولقولهم: أنه مراء أو قالوا: إنه مخلص فأي فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال أنه مراء، وبين أن يحسن العمل خوفاً من ان يقال أنه غافل)** عن أمر الدين **(مقصر)** فيها؟ **(بل ترك العمل أشد من ذلك. فهذه كلها مكائد الشيطان)** وتلبيساته **(على العباد الجهال)** الذين اختلفوا على العبادة وتركوا العلم، **(ثم كيف يطمع أن يتخلص من شرك الشيطان بأن يترك العمل والشيطان لا يخليه، بل يقول له)** [illegible] **(الآن** [illegible]

يقول له: الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال انه مخلص لا يشتهي الشهرة، فيضطرك بذلك إلى أن تهرب، فإن هربت ودخلت سرباً تحت الأرض ألقي في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه؟ بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قبل معرفة آفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والإباء قلبك، وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي، وإن نزغ العدوّ نـازغ الطبع فإن ذلك لا ينقطع، وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات. فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وإنك تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل. فإن قال لك الشيطان: أنت مراء، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى، وإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد، فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب.

الناس: إنك تركت العمل ليقال أنك مخلص لا تشتهي الشهرة فيضطرك) أي يلجؤك بذلك إلى أن تهرب (**من الناس، فإن هربت ودخلت سرباً**) محركة بيتاً (**تحت الأرض**) لا سقف له ويسمى الوكر (**ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس بتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك، فكيف يتخلص**) من شره ومن شركه؟ (**بل لا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة الرياء وهو أنه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا لتلزم الكراهة والإباء قلبك، وتستمر مع ذلك على العمل**) وتستمر عليه (**فلا تبالي وإن نزغ العدوّ نـازغ الطبع، فإن ذلك لا ينقطع**) ولا يدرك منتهاه، (**وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة و**) يفضي إلى (**ترك الخيرات**) فيبقى محروماً خاسراً. (**فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، والزم قلبك الحياء من الله إذ دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك**) رقيب على أحوالك (**ولو أطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك**) أي أبغضوك، (**بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك قائل؛ أو الشيطان: أنت مراء فاعلم كذبه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وابائه وخوفك منه وحيائك من الله، فإن لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفاً ولم يبق باعث ديني بل مجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد، فمن شرع في العمل لله فإنه لا بدّ أن يبقى معه أصل قصد الثواب**).

فإن قلت: فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة، روي إن إبراهيم النخعي دخل عليه إنسان وهو يقرأ فاطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة. وقال إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم. وقال الحسن: إن كان أحدهم ليمر بالأذى ما يمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة. وقد ورد في ذلك آثار كثيرة. قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار الطاعات ممن لا يحصى، وإظهار الحسن البصري هذا الكلام في معرض الوعظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه.

وبالجملة؛ ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل. والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء، فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف، فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء. وأما اطباق إبراهيم النخعي المصحف فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى

(**فإن قلت: فقد نقل عن أقوام**) من السلف (**ترك العمل مخافة الشهرة**)، فمن ذلك (**روي أن إبراهيم**) بن يزيد (**النخعي**) رحمه الله تعالى (**دخل عليه إنسان**) وكان يقرأ في المصحف (**فأطبق المصحف وترك القراءة وقال: لا يرى هذا أنا نقرأ كل ساعة. وقال إبراهيم**) بن يزيد (**التيمي**) رحمه الله تعالى: (**إذا أعجبك الكلام فاسكت، وإذا أعجبك السكوت فتكلم**) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وقد تقدم في آفات اللسان. (**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالى: (**إن كان أحدهم**) أي من الذين أدركهم من السلف (**ليمر بالأذى**) في الطريق من خشبة وعذرة وحجر وشوك وغير ذلك (**ما يمنعه رفعه**) وإزالته (**إلا كراهة الشهرة**) بين الناس. (**وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة**) بين الناس. ورواه أبو نعيم في الحلية من طريق هشام عن الحسن. (**وقد ورد في ذلك آثار كثيرة**) تدل على ترك العمل مخافة الشهرة. (**قلنا: هذا يعارضه ما ورد من إظهار** عات ممن لا يحصى، وإظهار الحسن البصري) رحمه الله تعالى (**هذا الكلام في معرض** ظ أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء، وإماطة الأذى عن الطريق يقل) ويندر (**ثم لم** كه) أي لم يثبت عنه الترك

(**وبالجملة؛ ترك النوافل جائز والكلام في الأفضل. والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء، فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد في الإخلاص ولا يتركه، وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف**) وتمكنه منهم. (**فالاقتداء ينبغي أن يكون بالأقوياء. وأما اطباق إبراهيم النخعي المصحف يمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج**

ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته، فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للإشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك. وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة وإقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء. وأما قول التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الحكايات وغيرها فإن ذلك يورث العجب، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب. فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه، على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني، وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات، ثم كلام الحسن في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة وزجراً عن طلبها.

القسم الثاني: ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم إنفاق المال.

إلى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته) وانجاح ما جاء لأجله،**(فرأى أن لا يراه في القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على التـرك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك، وأما ترك رفع الأذى فذلك مما يخاف على نفسه آفة الشهرة واقبال الناس عليه وشغلهم إياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة عن الطريق، فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكثر منها لا بمجرد خوف الرياء. وأما قول إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة في الخطاب وغيره، فإن ذلك يورث العجب)** في النفس، **(وكذلك العجب في السكوت المباح محذور فهو عدول من مباح إلى مباح حذراً من)**الوقوع في **(العجب. فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه، على أن الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع في القسم الثاني)** الآتي ذكره بعد هذا، **(وإنما كلامنا في العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات، ثم كلام الحسن)** البصري رحمه الله تعالى **(في تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ولا يدركون هذه الدقائق، وإنما ذكره تخويفاً للناس من آفة الشهرة وزجراً عن طلبها.**

(القسم الثاني:ما يتعلق به الخلق وتعظم فيه الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافة) أي

أما الخلافة والإمارة: فهي من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص، وقد قال النبي ﷺ: «ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً فأعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة، وقال ﷺ: «أوّل من يدخل الجنة ثلاثة: الإمام المقسط» أحدهم. وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل» أحدهم. وقال ﷺ: «أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل»،

الولاية العامة، **(ثم القضاء)** وهي الولاية الخاصة، **(ثم التذكير)** والوعظ على العامة، **(ثم التدريس)** للعلوم الشرعية **(والفتوى، ثم إنفاق الأموال)** على الناس.

(أما الخلافة والإمارة؛ فهي من أفضل العبادات إذا كان مع العدل والإخلاص، وقال النبي ﷺ: «ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً) قال العراقي: رواه الطبراني، والبيهقي من حديث ابن عباس وقد تقدم اهـ.

قلت: لفظها: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة وحد يقام في الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين عاماً» وقد رويت الجملة الأخيرة من حديث أبي هريرة بلفظ: «حد يقام في الأرض خير من قطر أربعين صباحاً» هكذا رواه ابن حبان وعند أحمد والنسائي وابن ماجه بلفظ: «حد يقام في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً».

(فاعظم بعبادة يوازي يوم منها عبادة ستين سنة. وقال ﷺ: «أول من يدخل الجنة ثلاثة الإمام المقسط» أحدهما). قال العراقي: رواه مسلم من حديث عياض بن حماد: «أهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط» ولم أر فيه ذكر الأولية اهـ.

(وقال أبو هريرة) رضي الله عنه: **(قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل» أحدهم)**. وتمام الحديث «والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين» هكذا رواه الطيالسي، وأحمد، والترمذي. وقال: حسن. وابن ماجه، والبيهقي، وروى ابن حبان صدره إلى قوله: «المظلوم» وقد تقدم في كتاب الصوم. وروى ابن أبي شيبة بلفظ: «الإمام العادل لا ترد دعوته».

(وقال ﷺ: «أقرب الناس مني منزلاً يوم القيامة أمام عادل» رواه أبو سعيد الخدري) رضي الله عنه. قال العراقي: رواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفي وهو ضعيف عنه، وفيه أيضاً إسحاق بن إبراهيم الديباجي ضعف أيضاً اهـ.

قلت: رواه أحمد والترمذي وقال: حسن غريب، والبيهقي بلفظ: «إن أحب عباد الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً» وفي لفظ: «وأشدهم عذاباً إمام جائر».

رواه أبو سعيد الخدري: فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات، ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها من عظيم الخطر، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا، فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، ويوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته، وإن كان حقاً، ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلاً، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه. ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول: من يأخذها بما فيها، وكيف لا وقد قال النبي ﷺ: «ما من والي عشيرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره». رواه معقل بن يسار،

(فالإمارة والخلافة من أعظم العبادة، ولم يزل المتقون يحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها من عظيم الخطر، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر وهو أعظم ملاذ الدنيا، فإذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعياً في حظ نفسه، وأوشك أن يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته، وإن كان حقاً ويقدم على ما يزيد في مكانته) أي منزلته وقدره **(وإن كان باطلاً، وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شراً من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذي ذكرناه)** وهو حديث ابن عباس **(ولهذا الخطر العظيم كان عمر)** رضي الله عنه **يقول: من يأخذها)** أي الامارة **(بما فيها)** أي من الأخطار، وروى ابن أبي الدنيا في مواعظ ...ء بلفظ فقال عمر: واعمراه من يتولاها بما فيها. وقد تقدم للمصنف في كتاب الأمر بالمعروف.

وروى أبو نعيم في الحلية من طريق الاوزاعي عن سماك عن ابن عباس قال: لما طعن عمر دخلت عليه فقلت: ابشر أمير المؤمنين فإن الله قد مصر بك الأمصار ودفع بك النفاق وأفشى بك ...زقة. فقال: أفي الإمارة تثني علي يا ابن عباس؟ فقلت: وفي غيرها. فقال: والذي نفسي بيده ...دت أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر.

(وكيف لا. وقد قال ﷺ: «ما من والي عشيرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره» رواه معقل بن يسار) بن عبد البر المزني رضي الله عنه، شهد الحديبية، ونزل البصرة. قال العراقي: رواه أحمد من حديث عبادة بن الصامت، ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة، وفيهما يزيد بن زياد متكلم فيه. ورواه أحمد، والبزار، وأبو يعلى، والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة. ورواه البزار، والطبراني من حديث بريرة، والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان، وله من حديث أبي الدرداء: «ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه» الحديث. وقد عزا المصنف هذا الحديث لرواية معقل

وولاه عمر ولاية فقال: يا أمير المؤمنين أشر عليَّ، قال: اجلس واكتم علي. وروى الحسن أن رجلاً ولاه النبي ﷺ فقال للنبي خِرلي. قال: «اجلس». وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة، إذ قال له النبي ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن

ابن يسار، والمعروف من حديث معقل بن يسار «ما من عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصحه إلا لم يرح رائحة الجنة» متفق عليه انتهى.

قلت: سياق المصنف رواه الضياء في المختارة من حديث ثوبان، وأما حديث معقل بن يسار، فلفظه عند الحاكم في الكنى، والطبراني في الكبير «ما من وال ولي من أمر المسلمين شيئاً فلم يحط من روائهم بالنصيحة إلا كبه الله على وجهه في جهنم يوم يجمع الله الأولين والآخرين» ولفظ مسلم «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لم يجد لهم ولم ينصح إلا لم يدخل معهم الجنة».

وأما حديث أبي الدرداء فلفظه: «ما من والي ثلاثة إلا لقي الله مغلولاً يمينه إلى عنقه فكه عدله أو جوره». هكذا رواه ابن عساكر أيضاً وروى أحمد من حديث أبي إمامة «ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل مغلولاً يده إلى عنقه فكه عدله أو أوبقه إثمه أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها خزي يوم القيامة». وروى النسائي من حديث أبي هريرة «ما من أمير ثلاثة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه أطلقه الحق أو أوبقه». ورواه البيهقي بلفظ: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه». وعند الطبراني من حديث ابن عباس «ما من أمير على عشرة إلا سئل عنهم يوم القيامة».

وأما حديث سعد بن عبادة فلفظه عند أحمد «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه لا يفكه من غله ذلك إلا العدل» هكذا رواه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والطبراني، والبيهقي. وروى ابن أبي شيبة، والبيهقي، وابن عساكر من حديث أبي هريرة: «ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور».

(**وولاه**) أي معقل بن يسار (**عمر**) رضي الله عنه (**ولاية**) قبل ولاية البصرة (**فقال: يا أمير المؤمنين أشر علي. فقال: اجلس واكتم عليَّ. وروى الحسن**) البصري رحمه الله تعالى: (**أن رجلاً ولاه النبي ﷺ فقال**) الرجل (**للنبي ﷺ: خرلي. فقال: «اجلس»**) قال العراقي: رواه الطبراني موصولاً من حديث عصمة هو ابن مالك، وفيه الفضل بن المختار أحاديثه سكرة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم، ورواه أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ: «الزم بيتك» وفيه لفرات بن أبي الفرات ضعفه ابن معين وابن عدي. وقال أبو حاتم صدوق اهـ.

وقال الحافظ في الإصابة: عصيمة بن مالك الخطمي له أحاديث أخرجها الدارقطني، والطبراني وغيرهما مدارها على الفضل بن المختار وهو ضعيف جداً.

(**وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة**) العبشمي القرشي رضي الله عنه (**إذ قال له النبي**

أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها » . وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر : لا تأمر على اثنين . ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع : ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد ﷺ ؟ فقال : بلى . وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله ، أي لعنة الله . ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الإمارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات ، وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا ، وأعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم ،

ﷺ : « **يا عبد الرحمن**) بن سمرة (**لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها** ») رواه أحمد ، وابن أبي شيبة والشيخان ، وأبو داود ، والترمذي بزيادة : « وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير » . ورواه ابن عساكر بلفظ : « لا تسأل الإمارة فإنه من سألها وكل إليها من ابتلي إليها ولم يسألها أعين عليها » .

(**وقال أبو بكر**) رضي الله عنه (**لرافع بن عمر**) الطائي : (**لا تأمر على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقال له رافع : ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد ﷺ ؟ فقال : بلى ، وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله أي لعنة الله**) روى ابن المبارك في الزهد عن رافع الطائي قال : صحبت أبا بكر في غزاة ، فلما قفلنا قلت : أوصني . قال : أقم الصلاة المكتوبة فساق الحديث وفيه : ولا تكونن أميراً ، ثم قال إن هذه الإمارة التي ترى اليوم يسير وقد أوشك أن تفشو وتكثر حتى يناها من ليس لها بأهل ، وأنه من يكن أميراً فإنه من أطول الناس حساباً وأغلظه عذاباً الحديث . وروى الدينوري في المجالسة عن رافع الطائي قال : خطب أبو بكر رضي الله عنه فذكر المسلمين فقال : من ظلم منهم أحداً فقد أخفر ذمة الله ، ومن ولي من أمور المسلمين شيئاً فلم يعظهم كتاب الله فعليه بهلة الله .

(**ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد في فضل الإمارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضاً وليس كذلك ، بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات**) لقوتهم وصلابتهم في الدين ، (**وأن الضعفاء**) في المعرفة (**لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا**) لعدم تحملهم لذلك فيكون سبباً لهلاكهم ، (**وأعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع**) أي لا يحركه ولا يحمله (**ولا يأخذه في الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق في أعينهم**) فلم تكن لهم منزلة عندهم ، (**وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق**) أي ضجروا (**وقهروا أنفسهم**) فأماتوها وملوكها وقمعوا الشيطان فأيس منهم فلا يحول حول حماهم ،

فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيه أرواحهم، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات، ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاد الأمر فتكره العزل، فيداهن خيفة من العزل، فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية؟ فقال قائلون: لا يجب لأن هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير، فلو وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع، فالعزل مؤلم وهو كما قيل: العزل طلاق الرجال، فإذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم، ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت إلا أن يعزل قهراً، وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو أمارة

(**فهؤلاء لا يحركهم إلا الحق ولا يسكنهم إلا الحق ولو زهقت فيه أرواحهم، فهم أهل نيل الفضل في الإمارة والخلافة ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات**) والدوران لطلبها، (**ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولاية، لكن خاف عليها أن تتغير**) عن حالتها الأولى (**إذا ذاقت لذة الولاية وأن تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الأمر فيه فتكره العزل**) عنها، (**فتداهن خيفة من العزل، فهذا قد اختلف العلماء في أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية**) أم لا؟ (**فقال قائلون: لا يجب لأن هذا خوف أمر في المستقبل**) أي فيما سيعرض (**وهو في الحال لم يعهد نفسه إلا قوياً في ملازمة الحق وترك لذات النفس، والصحيح أن عليه الاحتراز لأن النفس خداعة مدعية للحق وأعدة بالخير فلو**) أنها (**وعدت بالخير جزماً لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف إذا أظهرت التردد؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع، والعزل مؤلم وهو كما قيل: طلاق الرجال**) وسبب كون العزل مؤلماً نفور النفس عن مفارقة ما ألفته من لذة الاستيلاء وملك القلوب ونفاذ الأمر، (**فإذا شرع**) في الولاية (**لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق ويهوى به في قعر جهنم**) أي يسقط فيه، (**ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت**) برضا نفسه (**إلا أن يعزل قهراً**) على نفسه، (**وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية. ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب**) لها (**فهو إمارة الشر، ولذلك قال ﷺ: « لا نولي أمرنا من**

الشر، ولذلك قال ﷺ: «إنا لا نولي أمرنا من سألنا». فإذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف علمت أن نهي أبي بكر رافعاً عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض.

وأما القضاء؛ فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة فهو في معناهما، فإن كل ذي ولاية أمير ـ أي له أمر نافذ ـ والامارة محبوبة بالطبع، والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق، والعقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحق، وقد قال النبي ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة»، وقال عليه السلام: «من استقضى فقد ذبح

سألناه») قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي موسى، **(فإذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف عرفت أن نهي أبي بكر)** رضي الله عنه **(لرافع)** الطائي **(عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض)**.

(وأما القضاء: فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة) في المرتبة **(فهو في معناهما، فإن كل ذي ولاية أمير أي له أمر نافذ)** في الناس، **(والإمارة محبوبة بالطبع)** لذيذة بحكم نفاذ الأمر، **(والثواب في القضاء عظيم مع إتباع الحق والعقاب فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحق، وقد قال ﷺ: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة وإثنان في النار»)** قال العراقي: رواه أصحاب السنن من حديث بريدة وقد تقدم في العلم انتهى.

قلت: وكذلك رواه سعيد بن منصور، وابن أبي عاصم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي، والضياء من حديث ابن بريدة عن أبيه ولفظهم: «القضاة ثلاثة: إثنان في النار وواحد في الجنة رجل علم الحق فقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار». ورواه الطبراني أيضاً من حديث ابن عمر بلفظ «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة. قاض قضى بالهوى فهو في النار، وقاض قضى بغير علم فهو في النار، وقاض قضى بالحق فهو في الجنة». وفي لفظ للطبراني من حديث بريدة: «قاض قضى بغير حق وهو يعلم فذلك في النار، وقاض قضى وهو يعلم فأهلك حقوق الناس فذلك في النار، وقاض قضى بحق فذلك في الجنة». ورواه البيهقي من حديث علي موقوفاً وحكمه الرفع، وقد أفرد الحافظ ابن حجر في طرق حديث بريدة جزءاً.

(وقال) ﷺ: **(«من استقضى فقد ذبح بغير سكين»)** قال العراقي: رواه أصحاب السنن من حديث أبي هريرة بلفظ: «من جعل قاضياً» وفي رواية: «من ولي القضاء» وإسناده صحيح انتهى.

قلت: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والدارقطني، وابن أبي عاصم والبيهقي من طريق عثمان بن محمد الأخنسي عن سعيد المقبري والأعرج كلاهما عن أبي هريرة بلفظ: «من جعل قاضياً

بغير سكين » فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه، وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم. ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء، وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذراً مرخصاً له في الإهمال أصلاً، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذاً يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه ثواباً؟ وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار.

ذبح بغير سكين » وهو عند ابن ماجه. وكذا النسائي، والدارقطني، وابن أبي عاصم من حديث داود بن خالد المكي أنه سمع المقبري، وأبو داود أيضاً بلفظ: « من ولي القضاء أو جعل قاضياً بين الناس ». والدارقطني بلفظ: « من ولي » وقال الترمذي: إنه حسن غريب. وقال النسائي إن داود ليس بالمشهور والأخنسي ليس بالقوي. قال الحافظ السخاوي في المقاصد: قد روي عن غيرهما، بل رواه أحمد من حديث محمد بن عجلان، وابن أبي عاصم من حديث بعض المدنيين، والقضاعي من حديث زيد بن أسلم ثلاثتهم عن المقبري وهو صحيح بل حسن. قيل: وفي قوله: « بغير سكين » إشارة إلى أن محذوره الخوف من هلاك الدين دون البدن إذا الذبح في ظاهر العرف إنما هو بالسكين أو إلى شدة الألم لكون الذبح بغير السكين إما بالخنق أو التعذيب، والذبح بالسكين أروح، والله أعلم.

(فحكمه حكم الإمارة ينبغي أن يتركه الضعفاء، وكل من للدنيا ولذاتها وزن) أي مقام ومنزلة **(في عينه)** فلا يليق به تقلده **(وليتقلده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم. ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء إلا بمداهنتهم)** وضمانيتهم **(وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجل المتعلقين بهم إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه)** عن منصبه **(أو لم يطيعوه)** وراموا إذايته **(فليس له أن يتقلد)** منصب **(القضاء، وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق)** الشرعية **(ولا يكون خوف العزل)** عن منصبه **(عذراً مرخصاً له في الإهمال أصلاً، بل إذا عزل سقطت العهدة عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله)** عز وجل، **(فإن لم تسمح نفسه بذلك فهو إذاً يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقب عليه)** أي ينتظر **(ثواباً من الله وهو مع الظلمة في الدرك الأسفل من النار)**؟ فقد روي: أن القضاة يحشرون في زمرة الملوك كما نقله صاحب القوت وتقدم في كتاب العلم.

وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الأسانيد العالية، وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر ؛ فآفته أيضاً عظيمة مثل آفة الولايات، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلاً، وكانوا يقولون: حدثنا، باب من أبواب الدنيا، ومن قال: حدثنا، فقد قال أوسعوا لي. ودفن بشر كذا وكذا قمطرة من الحديث وقال: يمنعني من الحديث أن اشتهي أن أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت. والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة، فإذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان باطلاً ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان حقاً، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم، فلا يسمع حديثاً وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث أنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر، وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث أنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولاً، ثم يقول: إذا أنعم الله عليّ بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة

(وأما الوعظ) على العامة **(والفتوى والتدريس ورواية الحديث)** بالارتحال إلى البلدان النائية **(وجمع الأسانيد العالية)** وعلوها بسبب قربها من فرق بأن يقع له ثلاثياً أو رباعياً وهلم جر إلى العشاريات، **(وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضاً عظيمة. مثل آفة الولايات وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلاً)** كما تقدم في كتاب العلم، **(وكانوا يقولون)** قول المحدث: **(حدثنا)** وأخبرنا **(باب من أبواب الدنيا، ومن قال: حدثنا فقد قال)** بلسان حاله **(أوسعوا لي)** تقدم في كتاب العلم. **(ودفن)** أبو نصر **(بشر بن الحرث)** الحافي قدس سره **(كذا وكذا قمطرة من الحديث)** الذي كان يسمعه من الشيوخ وكتبه بيده. تقدم في كتاب العلم. **(وقال: يمنعني من الحديث)** أي من التحدث به **(أن أشتهي أن أحدث، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت)** تقدم في كتاب العلم. **(والواعظ يجد في وعظه)** للناس **(وتأثر قلوب الناس به)** أي بوعظه **(وتلاحق بكائهم وزعقاتهم وإقبالهم عليه لذة)** عظيمة **(لا توازيها لذة، فإذا غلب ذلك على قلبه مال قلبه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وإن كان)** في نفسه **(باطلاً ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وإن كان)** في نفسه **(حقاً، ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام)** ويروج عندهم **(وتعظم منزلته في قلوبهم، فلا يسمع حديثاً ولا حكمة)** ونادرة **(إلا ويكون فرحه بها من حيث أنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر)** الكرسي، **(وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث أنه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولاً، ثم يقول إذا أنعم الله علي بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فاقصها)** للناس

فاقصها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون. فهذا أيضاً مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه والمنزلة والأكل بالدين والتفاخر والتكاثر، فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه إلى أن ترتاض نفسه وتقوى في الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه.

فإن قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق؟ فنقول: قد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الإمارة وتوعد عليها، حتى قال: «إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرة وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها» وقال: «نعمت المرضعة وبئست الفاطمة». ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل

(**يشاركني في نفعها إخواني المسلمون**) ممن يسمع مني (**فهذا أيضاً مما يعظم فيه الخوف والفتنة**) فحكمه حكم (**الولايات، فمن لا باعث له إلا طلب الجاه**) والمنزلة في القلوب (**والاكل بالدين والتفاخر والتكاثر به، فينبغي أن يتركه ويخالف الهوى فيه إلى أن ترتاض نفسه**) وتتزكى (**وتقوى في الدين منعته**) بالضم أي قوته، (**ويأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود إليه**).

(**فإن قلت: مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست**) لعدم رغبة طالبيها (**وعم الجهل كافة الخلق فنقول: قد نهى رسول الله ﷺ عن طلب الإمارة وتوعد عليها**) وهو في حديث عبد الرحمن بن سمرة: «لا تسال الإمارة» وقد ذكر قريباً. (**حتى قال: «إنكم تحرصون على الإمارة وأنها حسرة يوم القيامة وندامة إلا من أخذها بحقها»**) قال العراقي: رواه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله: «إلا من أخذها بحقها» وزاد في آخره «فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة» ودون قوله «حسرة» وهي في صحيح ابن حبان انتهى.

قلت: ولفظ البخاري: «إنكم ستحرصون على الإمارة وأنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة» وكذلك رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والنسائي. وروى الطبراني من حديث عوف بن مالك أنه سأل النبي ﷺ عن الإمارة فقال: «أولها سلامة وثانيها ندامة وثالثها عذاب يوم القيامة». وروى الطيالسي، وابن أبي شيبة، ومسلم، وابن سعد، وابن خزيمة، وأبو عوانة، والحاكم من حديث أبي ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: «يا أبا ذر انك ضعيف وأنها أمانة وأنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها». وروى الطبراني من حديث يزيد بن ثابت: «نعم الشيء الإمارة لمن أخذها بحقها وحلها وبئس الشيء الإمارة لمن أخذها بغير حقها فتكون عليه حسرة يوم القيامة».

فقال: (**«نعمت المرضعة وبئست الفاطمة»**) قال العراقي: رواه البخاري من حديث أبي هريرة وهو بقية الحديث الذي قبله. ورواه ابن حبان بلفظ: «فبئست المرضعة وبئست الفاطمة» انتهى.

الدين والدنيا جميعاً ، وثار القتال بين الخلق ، وزال الأمن ، وخربت البلاد ، وتعطلت المعايش ، فلم نهي عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضي الله عنه أبيّ بن كعب حين رأى قوماً يتبعونه ، وهو في ذلك يقول : أبيّ سيد المسلمين . وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من أن يتبعوه وقال : ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع ، وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه ، واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال : أتمنعني من نصح الناس ؟ فقال : أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا إذ رأى فيه مخايل الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى ، وفي كل واحد منها فتنة ولذة فلا فرق بينهما ، فأما قول القائل : نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم فهو غلط ، إذ نهى رسول الله ﷺ عن القضاء لم

قلت : وجد بخط الحافظ ابن حجر ما نصه : يريد باعتبار ما في نفس الأمر ولفظ : « **نعمت** » في الأولى باعتبار ما في معتد المتلبس بذلك .

(ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعاً وثار القتال بين الخلق وزاد) الأمر وخرجت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهي عنها مع ذلك ؟ **(وضرب عمر أبي بن كعب)** رضي الله عنهما أي رفع درته وأراد أن يضربه بها **(حين رأى قوماً يتبعونه وهو في ذلك يقول : أبي سيد المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن)** بل قرأ عليه من هو أفضل منه رسول الله ﷺ قال له : إن الله أمرني أن أقرأ عليك . قال : الله سماني لك ؟ قال : نعم الله سماك لي قال : فجعل أبي يبكي . رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس . **(فمنع ان يتبعوه وقال ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع)** وقد تقدم في أول هذا الكتاب ، **(وعمر)** رضي الله عنه **(كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه ، واستأذن رجل على عمر)** رضي الله عنه **(أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه)** من ذلك **(فقال : تمنعني من نصح الناس ؟ فقال : أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا)** وهذا أورده على سبيل المبالغة . **(إذ رأى فيه مخايل)** أي مظان **(الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق)** فلذلك منعه . **(فالقضاء والخلافة مما يحتاج إليه الناس في دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى ، وفي كل واحد منها فتنة ولذة ، فلا فرق بينهما ، فأما قول القائل : نهيك عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم)** وانطماسه **(فهو غلط)** نشأ من وهم ، **(إذ نهى رسول الله ﷺ عن القضاء)** قال العراقي : رواه مسلم من حديث أبي ذر « لا تأمرن على إثنين ولا تلين مال يتيم » انتهى .

قلت : وروا أبو داود ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم بلفظ : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تتأمرن على إثنين ولا تولين مال يتيم » . وروى أبو نعيم من حديث أنس « لا تأمرن على إثنين ولا تقد منها » .

يؤد إلى تعطل القضاء ، بل الرئاسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها ، وكذلك حب الرئاسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال عن طلب العلوم التي فيها القبول والرئاسة لأفلتـوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ، ثم أني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم ، وإلاّ فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرئاسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعاً للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له اشتغل وجاهد نفسك ، فإن قال : لست أقدر على نفسي فنقول : اشتغل وجاهد لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره ، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده ، وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم ونقول : لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة

(لم يؤد إلى تعطل القضاء بل الرئاسة وحبها يضطر الخلق إلى طلبها ، وكذلك حب الرئاسة لا يترك العلوم تندرس ، بل لو حبس الناس) في موضع **(وقيدوا بالسلاسل)** في أرجلهم **(والأغلال)** في أعناقهم ومنعوا **(عن طلب العلوم التي فيها القبول والرئاسة لافلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله تعالى أن يؤيد هذا الدين بأقوام ولا خلاق لهم)** كما في الخبر وتقدم ذكره ، **(فلا تشغل قلبك بأمر الناس فإن الله لا يضيعهم وانظر في نفسك)** وما أنت فيه ، **(ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلاً فليس في النهي عنه الا امتناع بعضهم ، وإلا فتعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرئاسة فإن لم يكن في البلد إلا واحد وكان وعظه نافعاً للناس من حيث حسن كلامه)** بأن يكون سلساً منقاداً لا تعقيد فيه ، **(وحسن سمته في الظاهر)** مما يوافق الشرع في لباسه وهيئته وغض بصره وغير ذلك ، **(وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه)** لا غيره ، **(وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له : اشتغل وجاهد نفسك ، وإن قال : لست أقدر على نفسي ، فنقول : اشتغل وجاهد لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لا قائم به غيره ، ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده)** دون غيره ، **(وسلامة دين الجميع أحب إلينا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء للقوم ، ونقول : لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم »)** رواه النسائي وقد تقدم . **(ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا بكلامه**

ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته. فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأمصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف المسلمين، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نوّاب الدجال وخلفاء الشيطان، وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره، وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله.

ولهذا قال المسيح عليه السلام: يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون، وتدرسون ما لا تعملون، فيا سوء ما تحكمون. تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تتّقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم. يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكي

وبظاهر سيرته. وأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأمصار من) إلقاء **(الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجعة)** الموزونة **(المقرونة بالأشعار)** الغريبة **(مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين وتخويف للمسلمين، بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت)** أي بالنكت النوادر الغريبة المهيجة للأوصاف المستكنة في الضمائر مما يكون باعثاً على آفاته غرض شيطاني، **(فيجب إخلاء البلاد منهم)** ومنعهم عن صعود المنابر والكراسي، **(فإنهم نوائب الدجال وخلفاء الشيطان)** بجامع الإفساد والافتتان، **(وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره. وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر)** والاحتراز **(من فتن العلم وغوائله)**.

(ولقد قال عيسى عليه السلام) فيما أورده صاحب القوت في مقام الزهد وهو المقام السادس من مقامات اليقين أنه قال: **(يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون، وتدرسون ما لا تعلمون، فيا سوء ما تحكمون. تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم)** أي تنظفوها وتغسلوها بالماء والاشنان **(وقلوبكم دنسة)** أي وسخ بالمعاصي الباطنة. **(بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل)** بضم الميم **(يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة)** وهو ما يرمي من الدقيق، **(كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم)** تعظون بها الناس، **(ويبقى الغل في صدوركم. يا عبيد الدنيا، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته، ولا تنقطع منها رغبته؟ بحق أقول**

من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم، بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأي ناس أخس منكم لو تعلمون. ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين، وتقيمون في محلة المتحيرين! كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلاً مهلاً! ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة! يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم، ثم يجزيكم بسوء

لكم: **إن قلوبكم تبكي من أعمالكم)** لمخالفتها لها. **(جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم)** وهو كناية عن الغفلة والإعراض وعدم الاعتناء، فإن من جعل شيئاً تحت قدمه فقد استهان به. **(بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأي الناس أخس منكم)** أي أكثر دناءة منكم **(لو تعلمون)** ذلك؟ **(ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين)** أي السارين بالليل، **(وتقمون في محلة المتحيرين)** أي الواقفين وقوف المتحير الذي لا يجد للسلوك سبيلاً؟ ([illegible] **عون أهل الدنيا ليتركوها لكم)** فتمتعون بها ويسلبون دنياهم لأجل صلاح حالكم. **(مهلا مهلاً ويلكم! ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم)** لا نور فيه، **(كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة)** من وصول النور إليه. **(يا عبيد الدنيا لا كعبيد اتقياء ولا كأحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم)** أي تزيلكم **(عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم)** أي ترميكم **(على مناخركم)** أي وجوهكم، **(ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، ثم يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان)** المجازي بأعمالكم **(حفاة عراة فرادى، فيوقفكم على سوآتكم)** أي فضيحتكم، **(ثم يجزيكم بسوء أعمالكم)**. هكذا نقله صاحب القوت بتمامه.

وروى صاحب الحلية في ترجمة ابن السماك من طريق عبد الله بن صالح قال: سمعت عبد الله ابن السماك يقول: قال عيسى عليه السلام: حتى متى تصفون الطريق للمدلجين، وأنتم مقيمون في محلة المتحيرين تنقون البعوض من شرابكم وتسترطون الجمال بأحمالها.

وفي ترجمة وهب من طريق بحار بن عبدالله قال: سمعت وهب بن منبه يقول: قال الله عز وجل فيما يعتب به بني اسرائيل: تفقهون لغير الدين وتتعلمون لغير العمل وتتباهون لعمل الآخرة. تلبسون جلود الضأن وتخفون أنفس الذئاب وتنقون القذى من شرابكم وتبتلعون أمثال الجبال من

أعمالكم. وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الانس وفتنة على الناس. رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا. فهم في العاجل عار وشين وفي الآخرة هم الخاسرون.

فإن قلت: فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب كثيرة، حتى قال رسول الله ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها». وقال ﷺ: «أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه» إلى غير ذلك من

الحرام. تطيلون الصلاة وتبيضون الثياب، تقتنصون بذلك مال اليتم والأرملة، فبعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم.

(وقد روى الحرث) بن أسد **(المحاسبي)** رحمه الله **(هذا الحديث في بعض كتبه)** بهذا السياق، **(ثم قال: هؤلاء علماء السوء شياطين الأنس وفتنه على الناس)**. وقد روى الطيالسي، وأحمد، والنسائي، وأبو يعلى، والحاكم، والبيهقي من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر تعوّذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» قال: يا رسول الله وللإنس شياطين؟ قال «نعم» الحديث. ورواه الطبراني من حديث أبي أمامة.

(رغبوا في عرض الدنيا رفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل عار وشين وفي الآخرة هم الأخسرون). وقد تقدم هذا السياق للمصنف في أول الكتاب.

(فإن قلت: فهذه الآفات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ) والتذكير **(رغائب كثيرة، حتى قال ﷺ «لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها»)**. قال العراقي: متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ «خير لك من حمر النعم» وقد تقدم في العلم.

قلت: وروى الحكيم، والطبراني من حديث أبي رافع قال: بعث رسول الله ﷺ علياً إلى اليمن فعقد له لواء، فلما مضى قال: «يا أبا رافع الحقه ولا تدعه من خلفه وليقف ولا يلتفت حتى أجيئه فأتاه وأوصاه بأشياء وقال: لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه شمس وغربت».

(وقال ﷺ «أيما داع دعا إلى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه») قال العراقي: رواه ابن ماجه من حديث أنس بزيادة في أوّله، ولمسلم من حديث أبي هريرة «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه» الحديث اهـ.

قلت: لفظ حديث أنس عند ابن ماجه «أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئاً، وأيما داع إلى هدى فأتبع فإن له مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئاً».

فضائل العلم. فينبغي أن يقال للعالم: اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق، كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلاة: لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك؟ فاعلم أن فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة، ولا نقول لأحد من عباد الله: أترك العلم إذ ليس في نفس العلم آفة، وإنما الآفة في إظهاره بالتصدي للوعظ والتدريس ورواية الحديث، ولا نقل له أيضاً اتركه ما دام يجد في نفسه باعثاً دينياً ممزوجاً بباعث الرياء، فإذا لم يحركه إلا الرياء فترك الإظهار أنفع له وأسلم. وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها. أما إذا خطر له وساوس الرياء في أثناء الصلاة وهو لها كاره فلا يترك الصلاة، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة، وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم.

وبالجملة؛ فالمراتب ثلاث:

الأولى: الولايات؛ والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفاً من الآفة.

وأما لفظ حديث أبي هريرة عند مسلم «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» وهكذا رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه. ورواه الطبراني بهذا اللفظ من حديث ابن عمر.

(**إلى غير ذلك من فضائل العلم**) مما تقدم مجموعها في كتاب العلم، (**فينبغي أن يقال للعالم: اشتغل بالعلم واترك مراءآة الخلق، كما يقال لمن خالطه الرياء في الصلاة، لا تترك العمل ولكن اتمم العمل وجاهد نفسك، فاعلم أن فضل العلم كثير وخطره عظيم كفضل الخلافة والإمارة، ولا نقول لأحد من عباد الله: اترك العلم**) ولا تشتغل به (**إذ ليس في نفس العلم آفة إنما الآفة في إظهاره بالتصدى للوعظ والتدريس ورواية** الأحاديث) بالأسانيد، (**ولا نقول أيضاً: اتركه ما دام يجد في نفسه باعثاً دينياً ممزوجاً بباعث الرياء، فأما إذا لم يحركه إلا الرياء**) ولم يكن هناك باعث الدين (**فترك الاظهار أنفع له وأسلم**) لدينه، (**وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها، أما إذا خطر له وسواس الرياء في أثناء الصلاة وهو له كاره فلا يترك الصلاة، لأن آفة الرياء في العبادات ضعيفة**) كما تقدمت الإشارة إليه. (**وإنما تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبيرة في العلم**).

(**وبالجملة؛ فالمراتب ثلاث:**

(**الأولى: الولايات والآفات فيها عظيمة، وقد تركها جماعة من السلف**) وهربوا منها (**خوفاً من الآفة**) أن تلحقهم.

الثانية: الصوم والصلاة والحج والغزو، وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة. وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوّة.

الثالثة: وهي متوسطة بين الرتبتين؛ وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس، والآفات فيها أقل مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة، فالصلاة ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي، ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات، ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الأقوياء، ومناصب العلم بينهما، ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه، وأن الحذر منه في حق الضعيف أسلم والله أعلم.

وههنا رتبة رابعة وهي جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين، فإن في الإنفاق وإظهار السخاء استجلاباً للثناء وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس والآفات فيها أيضاً كثيرة.

ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال: القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة في الدنيا، وإن من الزهد

(**الثانية: الصلاة والصوم والحج والغزو، وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك**) لها (**لخوف الآفة، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها**) وطردها (**مع اتمام العمل لله بأدنى قوة**).

(**الثالثة: وهي متوسطة بين الرتبتين، وهو التصدي لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس، والآفات فيها أقل مما في الولايات، وأكثر مما في الصلوات، فالصلاة لا ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي، ولكن يدفع خاطر الرياء، والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاء رأساً دون الاقوياء**) المتحملين لها، (**ومناصب العلم بينهما. ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولايات أشبه وأن الحذر منه من حق الضعيف أسلم والله أعلم**).

(**وههنا رتبة رابعة، وهي جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين، فإن في الإنفاق**) عليهم (**إظهار السخاء**) والجود (**استجلاباً للثناء**) والمحمدة، (**وفي إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس**) عظمة، (**والآفات فيها أيضاً كثيرة**) كما تقدم ذكر بعضها.

(**ولذلك سئل الحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**عن رجل طلب القوت ثم أمسك**) عليه، (وآخر **طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال: القاعد أفضل**) وذلك لما (**يعرفون من قلة السلامة في الدنيا، وأن من الزهد تركها قربة لله عز وجل**) نقله صاحب القوت، (**وقال**

تركها قربة إلى الله تعالى. وقال أبو الدرداء: ما يسرني اني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها، أما أني لا أحرم البيع والشراء ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وقد اختلف العلماء فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل، وقال قوم: الجلوس في دوام ذكر الله أفضل، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله، وقد قال المسيح عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبرّ بها تركك لها أبر، وقال: أقل ما فيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل. وهذا فيمن سلم من الآفات؟ فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل.

وبالجملة: ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه، وليزن ما فيه من الخير بما

أبو الدرداء) رضي الله عنه: **(ما يسرني أني أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها، أما أني لا أحرم البيع والشراء، ولكني أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)**. أخرجه أحمد في الزهد، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية: حدثنا عبد الصمد، ثنا عبد الله بن يحي، حدثنا أبو عبد رب قال: قال أبو الدرداء: ما يسرني أن أقوم على الدرج من باب المسجد فأبيع واشتري فأصيب كل يوم ثلاثمائة دينار أشهد الصلوات كلها في المسجد أقول: إن الله لم يحل البيع وحرم الربا، ولكن أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

(وقد اختلف العلماء فقال قوم: إذا طلب الدنيا من الحلال وسم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل) وهذا قول عباد الشام. **(وقال قوم: الجلوس في دوام ذكر الله أفضل والأخذ والعطاء يشغل عن الله)** وهذا قول عباد البصرة. **(وقد قال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبرّ بها تركك لها أبرّ)** تقدم في كتاب ذم الدنيا. **(وقال)** أيضاً: **(أقل ما فيه أنه يشغله إصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أفضل وأكبر)**، وروي عنه انه قال: إن في المال داء كبيراً. قيل: يا روح الله وإن كان يكتسبه من الحلال؟ قال: بشغله كسبه عن الله عز وجل. **(وهذا فيمن سلم من الآفات، فأما من يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لا خلاف في أنه أفضل)** وقد وردت بذلك أخبار.

(وبالجملة: ما يتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات، والأحب أن يعمل ويدفع الآفات، فإن عجز عن الدفع فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه وليزن ما فيه من

فيه من الشر، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع.

وبالجملة؛ ما يجده أخف على قلبه فهو في الأكثر أضر عليه، لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل إليه، وإن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي وإثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل. ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات أفضل من إمساكه، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب: أن الأفضل الكسب والإنفاق، أو التجرد للذكر وذلك لما في الكسب من الآفات. فأما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال.

فإن قلت: فبأي علامة يعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مريد رياء الناس؟ فاعلم أن لذلك علامات.

إحداها: أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظاً أو أغزر منه علماً والناس له أشد قبولاً

الخير بما فيه من الشر، وليفعل ما يدل عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع) فما دل عليه نور العلم واطمأن إليه القلب يقدم عليه، وما مال إليه الطبع وحاك في الصدر يتركه.

(وبالجملة؛ ما يجده أخف على قلبه، فهو في الأكثر أضر عليه، لأن النفس لا تشير إلا بالشر وقلما تستلذ الخير) أو تستحسنه **(وتميل إليه، وإن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكن الحكم على تفاصيلها بنفي واثبات فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه)** بما يصلحه، **(ويدع ما يريبه إلى ما لا يريبه)** كما ورد الأثر بذلك في الخبر، **(ثم قد يقع بما ذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولا ينفق خيفة من الآفة وهو عين البخل)** المذموم، **(ولا خلاف في أن تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات)** الواجبة أو المسنونة **(أفضل من إمساكه، وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب إن الأفضل ترك الكسب والإنفاق أو التجرد للذكر، وذلك لما في الكسب من الآفات)** أكبرها الشغل عن الله. **(وأما المال الحاصل من الحلال)** من غير مزاولة الاكتساب **(فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال)**.

(فإن قلت: وبأي علامة يعرف العالم الواعظ أنه صادق مخلص في وعظه غير مريد رياء الناس؟ فاعلم أن لذلك علامات).

(احداها أنه لو ظهر) في بلده **(من هو أحسن منه وعظاً وأغزر منه علماً والناس أشد**

فرح به ولم يحسده. نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه.

والأخرى: أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل بقي كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعين واحدة.

والأخرى: أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق، ولذلك علامات، كثيرة يطول إحصاؤها.

وقد روي عن سعيد بن أبي مروان قال: كنت جالساً إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر، فدخل المسجد على برذونه، فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن، فلما رآه الحسن متوجهاً إليه تجافى له عن ناحية مجلسه، قال سعيد: وتجافيت له أيضاً عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له ـ يتكلم به في كل يوم ـ فما قطع الحسن كلامه قال سعيد: فقلت في نفسي:

له قبولاً) وأكثر محبة **(فرح به)** باطناً وظاهراً **(ولم يحسده)** على ما أوتي من فضله وعلمه. **(نعم لا بأس بالغبطة)** فيه **(وهو أن يتمنى لنفسه مثل عمله)** من غير أن يزول منه ذلك.

(والأخرى: أن الأكابر) من أرباب الدنيا **(إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل يبقى على ما كان عليه)** في سوقه، **(فينظر إلى الخلق بعين واحدة)** فمن نظر إليهم كذلك فهو بعينين، ومن نظر إليهم بعينين فهو بعين واحدة.

(والأخرى: ان لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق، ولذلك علامات كثيرة) غير ما ذكرناها ههنا **(يطول احصاؤها)**.

(وقد روي عن سعيد بن أبي مروان) الأسلمي أخو عطاء بن أبي مروان، وأبو مروان كان كثير الصحبة لعمر وقيل له صحبة **(قال: كنت جالساً إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج)** بن يوسف الثقفي عامل لبني أمية **(من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس)** أي الجند والأعوان. **(وهو على برذون أصفر)** والبرذون الحصان الرومي، **(فدخل المسجد)** أي ساحته **(وهو على برذونه)** أي راكبا. **(فجعل يلتفت في المسجد يميناً وشمالاً فلم ير حلقه أحفل)** اي أعظم وأكبر **(من حلقة الحسن، فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن. فلما رآه الحسن متوجهاً إليه تجافى له عن ناحية مجلسه، قال سعيد)** الراوي: **(وتجافيت له أيضاً عن ناحية مجلسي حت صار بيني وبين الحسن فرجه ومجلس للحجاج، فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم،**

لأبلونّ الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه، أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه؟ فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه، فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبرّ فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها خلقاً وعادة فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ: «إن مجالس الذكر رياض الجنة» ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها، قال: ثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته، فلما فرغ طفق فقام، فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن ـ حيث قام الحجاج ـ فقال: عباد الله المسلمين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير، وأني أغزو فأكلف فرساً وبغلاً. وأكلف فسطاطاً، وإن لي ثلاثمائة درهم من العطاء، وأن لي سبع بنات من العيال؟ فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه، والحسن مكب،

فلما قطع الحسن كلامه) لجلوس الحجاج، **(فقال سعيد)** الراوي: **(فقلت في نفسي لأبلونّ الحسن اليوم ولأنظرنّ هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه)** بذلك، **(أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه؟ فتكلم الحسن كلاماً واحداً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى الحسن إلى آخر كلامه.. فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال: صدق الشيخ وبرّ)** أي فيما قال. **(فعليكم بهذه المجالس وأشباهها واتخذوها خلقاً وعادة فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ: «ان مجالس الذكر رياض الجنة»)** قد ورد معنى ذلك في اخبار منها: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال «حلق الذكر» رواه الترمذي وقال: حسن غريب، وأبو يعلى، وابن شاهين في الترغيب في الذكر، والبيهقي في الشعب من حديث أنس. وفي لفظ قال «مجالس العلم». رواه الطبراني من حديث ابن عباس وفي لفظ قال «المساجد والرتع فيها قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: غريب وقد تقدم في كتاب الأذكار والدعوات. **(ولولا ما حملناه من أمر الناس فاغلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها. قال: ثم افترّ الحجاج)** أي فتح فمه **(فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر)** في مجلسه **(من بلاغته، فلما فرغ)** من كلامه **(طفق فقام)** من المجلس، **(فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حيث قام الحجاج فقال: عباد الله المسلمين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير وإني اغـزو)** أي أؤمر بالغزو **(فأكلف فرساً وبغلاً وأكلف فسطاطاً وأن لي ثلاثمائة درهم من العطاء)** أي في ديوان الجند **(وعليّ سبع بنات من العيال، فشكا من حاله حتى رقّ له الحسن وأصحابه)** على ذلك **(والحسن مكبّ)** أي خافض رأسه

فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: **ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله** خولاً ومال الله دولاً وقتلوا الناس على الدينار والدرهم، فإذا غزا عدوّ الله غزا في الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة، وإذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً راجلاً، فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده، فقام رجل من أهل الشام كان جالساً إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه، فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا: أجب الأمير، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به، فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم، وقلما رأيته فاغراً فاه يضحك إنما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال: إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم، إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار؟ إني أتيت هذا الرجل فقال: أقصر

ليسمع ما يقول. (**فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال: ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولاً**) أي مستخدمين (**ومال الله دولاً يتناوبونه وقتلوا الناس على الدينار والدرهم، فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة**) أي العالية المشرعة (**وعلى البغال السباقة، فإذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً**) أي جائعاً (**راجلاً**) أي على رجليه، (**فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده، فقام رجل من أهل الشام كان جالساً إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج**) أي نقل مجلسه ذلك (**وحكى له كلامه، فما لبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا: أجب الأمير، فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به**) في حقهم، (**فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم وقلما رأيته فاغراً فاه**) أي فاتحاً (**يضحك إنما كان يتبسم، فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة**) أي أمرها (**وقال: إنما تجالسون بالأمانة**). رواه بهذا اللفظ العسكري من طريق هشام بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، عن ابن عباس رفعه. وروى عبد الرزاق في جامعه، وابن المبارك في الزهد، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم مرفوعاً ومرسلاً « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله تعالى فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره ». ورواه ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود، وروى العسكري، والديلمي، والقضاعي من حديث علي « المجالس بالامانة ». وروى الديلمي من حديث أسامة بن زيد « المجالس أمانة فلا يحل لمؤمن أن يرفع على مؤمن قبيحاً ».

(**كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدراهم. إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى ناحيته ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار**). وروى العسكري عن ابن عباس في تأويل قوله: « إنما تجالسون بالامانة » قال: أراد ﷺ أن الرجل يجلس إلى القوم فيخوضون في الحديث، ولعل فيه ما إن نمى كان فيه ما يكرهون فيأمنونه على أسرارهم. وروى

عليك من لسانك وقولك إذا غزا عدوّ الله كذا وكذا، وإذا أغزا أخاه أغزاه كذا! لا أبا لك! تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك فاقصر عليك من لسانك، قال: فدفعه الله عني.

وركب الحسن حماراً يريد المنزل فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوماً يتبعونه فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء وإلا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد؟ فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن. ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون. اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين.

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح:

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل

من طريق مسلم بن جنادة: حدثنا أبو أسامة عن عمرو بن عبيد عن الحسن عن أنس مرفوعاً «الا ومن الأمانة أو الأمن الخيانة أن يحدث الرجل أخاه بالحديث فيقول اكتمه فيفشيه». (**إني أتيت هذا الرجل يعني الحجاج فقال: اقصر عليك من لسانك، وقولك إذا غزا عدوّ الله غزا كذا فإذا أغزى أخاه أغزاه كذا. لا أبالك تحرض علينا الناس، أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك، فاقصر عليك من لسانك. قال: فدفعه الله عني.**

وركب الحسن حماراً يريد المنزل فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوماً يتبعونه، فوقف فقال: هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء وإلا فارجعوا) أي فإن ذلك فتنة على المتبوع ومذلة للتابع، (**فما يبقى هذا من قلب العبد؟ فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن. ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون**) مع بضعهم (**لا يتوانسون ولا يتعاونون**) في الحق. (**فاعلم أنهم**) علماء سوء (**قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون**) في صفقتهم الخائبون في حركتهم، والله الموفق.

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح:

(**اعلم**) وفقك الله (**أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد**) أي لصلاة الليل (**أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة**) معهم في عملهم، (**حتى يزيد على ما كان يعتاده**

أصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل، لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير، أو تمكنه من التمتع بزوجته، أو المحادثة مع أهله وأقاربه، أو الاشتغال بأولاده، أو مطالعة حساب له مع معامليه، فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء، أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم، وفي منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام، والنفس لا تسمح

أو) أنه (**يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل**) ذلك (**الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولـولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربما يظن أنه رياء، وأن الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل، لأن كل مؤمن**) فهو (**راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الأشغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال**) تلك (**الغفلة أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير**) أي وطيء، (**أو تمكنه من التمتع بزوجته،** (**أو المحادثة مع أهله وأقاربه، أو الاشتغال بأولاده، أو مطالعة حساب له مع معامليه**) أو غير ذلك من الأسباب، (**فإذا وقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتر**) أي تضعف (**رغبته في الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير لمشاهدته إياهم وقد اقبلوا على الله**) بقلوبهم (**وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله فتتحرك دواعيه للدين لا للرياء، وربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع**) أو مزايلة الطبع مألوفه (**أو بسبب آخر**) ككثرة الناموس والبرغوث أو البق (**فيغتنم زوال النوم**) عنه، (**وفي منزله ربما يغلب عليه النوم وربما ينضاف إليه أنه في منزله على الدوام، والنفس لا تسمح**

بالتهجد دائماً وتسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق، وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه أطايب الأطعمة ويشق عليه الصبر عنها، فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سلم منها قوي الباعث. فهذا وأمثاله من الأسباب يتصوّر وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول: لا تعمل فإنك تكون مرائياً إذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة، وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لا سيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته، وعند ذلك قد يقول الشيطان: صلِّ فإنك مخلص ولست تصلي لأجلهم بل لله، وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم، وهذا أمر مشتبه إلا على ذوي البصائر، فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة، لأنه يعصي الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق.

بالتهجد دائماً، وإنما تسمح بالتهجد وقتاً قليلاً فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق، وقد يعسر الصوم عليه في منزله ومعه أطاييب الأطعمة، ويشق عليه الصبر عنها) مع تمكنه منها، **(فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم، فإن للشهوات الحاضرة عوائق)**[1] أي موانع **(ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سلم منها قوي الباعث. فهذا وأمثاله من الأسباب يتصوّر وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل)** ويمنعه **(ويقول: لا تعمل فإنك)** إن عملت **(تكون مرائياً إذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزيد على صلاتك المعتادة، وقد تكون رغبته في الزيادة لأجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لاسيا إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإن نفسه لا تسمح بأن يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته)** عندهم، **(وعند ذلك قد يقول له الشيطان: صل فإنك مخلص)** لله **(ولست تصلي لأجلهم بل لله)** عز وجل، **(وإنما كنت لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق)** التي كانت عرضتك، **(وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم، وهذا أمر مشتبه)** الطرفين **(إلا على ذوي البصائر)** النافذة، **(فإذا عرف أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة، لأنه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله، وإن كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق)**.

وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن سخت نفسه فليصل فإن باعثه الحق، وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك، فإن باعثه الرياء. وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى، وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد، فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد، بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكراهة ويشتغل بالعبادة. وكذلك قد يبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله تعالى لا من الرياء، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب، وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفاً، وذلك محمود. وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير

(وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخـو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن سخت نفسه فليصل فإن باعثه الحق، وإن كان يثقل على نفسه ذلك لو غاب عن أعينهم فليترك، فإن باعثه الرياء، وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة) مع الجماعة **(ما لا يحضره كل يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم)** له، **(ويمكن أن يكون تحرك نشاطه بسبب نشاطهم وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى، وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد، فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد، بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ويشتغل بالعبادة، وكذلك قد تبكي جماعة فينظر إليهم فيحضره البكاء خوفاً من الله لا من الرياء، ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى، ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب)** وتليينه، **(وقد لا يحضره البكاء فيتباكى)** أي يتكلف البكاء، **(تارة رياء وتارة مع الصدق إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين)** رآهم **(يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفاً، وذلك محمود. وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم**

الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال أنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي.

قال لقمان عليه السلام لابنه: لا تُـرِ الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر. وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجاري الأحوال تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود، وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك، فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء، وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله به، وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ولكن يمده ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة رياء، وهو محظور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء، فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء. وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحي أن يقال له أنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة، فيزعق ويتواجد تكلفاً ليرى أنه سقط لكونه

يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال أنه قاسي القلب فينبغي أن يترك التباكي. قال لقمان لابنه) : يا بني **(لا تُـرِ الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر)** أي فإن ذلك رياء ونفاق **(وكذلك الصيحة)** أي الزعقة **(والتنفس)** صعداء **(والأنين عند)** سماع **(القرآن والذكر أو بعض مجاري الأحوال تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف)** على ما فات من الخير، **(وتارة تكون بمشاهدة حزن غيره وقساوة قلبه، فيتنفس ويتكلف التنفس والأنين ويتحازن وذلك محمود ،وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف ذلك، فإن تجردت هذه الداعية فهي الرياء وإن اقترنت بداعية الحزن فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه، وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله به، وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ولكن يمده ويزيد في رفع الصوت، فرفع تلك الزيادة رياء وهو محظور لأنها في حكم الابتداء لمجرد الرياء فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه، ولكن يسبق خاطر الرياء فيقبله فيدعو إلى زيادة تحزين الصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة)** الجارية **(على الوجه حتى تبصر)** أي يراها الناس **(بعد أن استرسلت لخشية الله، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء. وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه)** وترتخي **(من الخوف فيسقط)** على الأرض **(فيستحي أن يقال أنه سقط من غيـر زوال عقل وحالة شديدة**

مغشياً عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة، وإنما هي كبرق خاطف، فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله، وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه، فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكىء على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي. فهذه كلها مكائد الشيطان ونزغات النفس، فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه، وأن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتاً، كما روي عن ذي النون رحمه الله أنه قام وزعق، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال: يا شيخ! الذي يراك حين تقوم؟ فجلس الشيخ وكل ذلك من أعمال المنافقين.

فيزعق ويصيح ويتواجد تكلفاً ليرى أنه سقط لكونه مغشياً عليه، وقد كان ابتداء السقطة **عن صدق، وقد يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعاً فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة، وإنما هي كبرق خاطف فيستديم الزعقة والرقص والتواجد ليرى دوام حاله)** وثبوتها، **(وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعاً فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه، فيستديم إظهار الضعف والأنين فيتكىء على غيره يرى أنه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي)** يميناً وشمالاً **(ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشي. فهذه كلها مكايد الشيطان)** وخدعه **(ونزغات النفس، فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن واطلعوا على)** ما في ضميره **(لمقتوه)** أي أبغضوه، **(وأن الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتاً، كما روي عن ذي النون)** رحمه الله تعالى **(أنه)** لما دخل بغداد واجتمعت عليه الصوفية، ومنهم قوّال يقول شيئاً فاستأذنوه بأن يقول بين يديه شيئاً فأذن له فابتدأ يقول:

صغير هــواك عــذبني ... فكيــف بــه إذا احتنكــا
وأنــت جمعــت مــن قلبي ... هــوى قــد كــان مشتركــا
امــا تــرثــي لمكتئــب ... إذا ضحــك الخليّ بكــى

(قام) ذو النون **(وزعق)** وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يشعر به، **(فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف)** يتواجد **(فقال)** له ذو النون: **(يا شيخ الذي يراك حين تقوم؟ فجلس الشيخ)** حكاه القشيري في الرسالة عن أحمد بن مقاتل المكي ثم قال: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في هذه الحكاية: كان ذو النون المصري صاحب إشراف على ذلك الرجل حيث نبهه أن ذلك ليس مقامه، وكان ذلك الرجل صاحب انصاف حيث قبل ذلك منه فرجع

وقد جاء في الخبر: «نعوذ بالله من خشوع المنافقين» وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع. ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه، وقد يكون للمراءاة. فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة، وهي مع تقاربها متشابهة، فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو؟ فإن كان لله فامضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جداً، فإذا خطر لك فتفكر في إطلاع الله عليك ومقته لك، وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال: يا أيوب أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته. وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أني أخشاك وأنت لي

وقعد، وقد تقدم ذلك في كتاب السماع والوجد. (**وكل ذلك من أعمال المنافقين**).

(**وقد جاء في الخبر «نعوذ بالله من خشوع النفاق»**) قال العراقي: روا البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر الصديق، وفيه الحرث بن عبيد الأنماري ضعفه أحمد وابن معين. (**وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع**) وقد جاء مفسراً هكذا في الخبر فيما رواه الحكيم والبيهقي من حديث أبي بكر المتقدم بلفظ: «تعوّذوا بالله من خشوع النفاق». قالوا: يا رسول الله وما خشوع النفاق؟ قال «خشوع البدن ونفاق القلب» وقد رواه كذلك الحاكم في تاريخه من حديث ابن عمر).

(**ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة** بالله من عذابه **وغضبه فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب** وتندم عليه، وقد يكون للمراءاة. **فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة وهي مع تقاربها متشابهة**) يعسر التمييز بينها إلا على ذوي البصائر. (**فراقب قلبك في كل ما يخطر لك**، وانظر ما هو ومن أين هو؟ **فإن كان لله فامضة واحذر مع ذلك أن يكون خفي عليك** شيء من الرياء الذي هو) في دقته وخفائه (**كدبيب النمل، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة**) عند الله (**أم لا؛ لخوفك على الإخلاص فيها، واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون**) أي الميل (**إلى حمدهم بعد الشروع في الإخلاص، فإن ذلك مما يكره**) في الأعمال (**جداً فإذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ومقته لك وتذكر ما قاله أحد الثلاثة نفر الذين حاجوا أيوب عليه السلام إذ قال: يا أيوب أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع بها في نفسه ويجزى بسريرته؟ وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى**

ماقت. وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما: اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي، محافظاً على رياء الناس من نفسي، ومضيعاً لما أنت مطلع عليه مني، أبدي للناس أحسن أمري وأفضي إليك بأسوأ عملي تقرباً إلى الناس بحسناتي وفراراً منهم إليك بسيئاتي، فيحل بي مقتك ويجب عليّ غضبك، أعذني من ذلك يا رب العالمين. وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام: يا أيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسوّد وجوههم؟ فهذه جمل آفات الرياء. فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففي الخبر: «إن للرياء سبعين باباً» وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض، حتى أن بعضه

الناس أني أخشاك وأنت لي ماقت) أي باغض، **(وكان من دعاء علي بن الحسين)** بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: **(اللهم إني أعوذ بك أن تحسن فيَّ لامعة العيون)** أي ما ظهر منها **(علانيتي وتقبح لك فيما أخلو سريرتي محافظاً على رياء الناس في نفسي ومضيعاً ما أنت مطلع عليه مني، أبدي للناس أحسن أمري وأفضي إليك باسوأ عملي تقرباً إلى الناس بحسناتي وفراراً منهم إليك بسيئاتي، فيحل بي مقتك ويجب علي غضبك. أعوذ بالله من ذلك يا رب العالمين)**. وهذا الدعاء رواه صاحب نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ولفظه: اللهم إني أعوذ بك من أن يحسن في لامعة العيون علانيتي، ويقبح فيما أبطن لك سريرتي، محافظاً على رياء الناس، مطلع من نفسي بجميع ما أنت مطلع عليه مني، فأبدي للناس حسن ظاهري وأفضي إليك بسوء عملي تقرباً إلى عبادك وتباعداً من مرضاتك، وهو من رواية علي بن الحسين بن علي عن أبيه عن جده.

(وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام: يا أيوب ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن تسودّ وجوههم؟ فهذه جملة آفات الرياء، فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففي الخبر «إن للرياء سبعين باباً») قال العراقي: هكذا ذكر المصنف الحديث هنا، وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه أنه الرياء بالمثناة التحتية، وإنما هو الربا بالموحدة والرسم كتابته بالواو، والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ «الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكح الرجل أمه» وفي إسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه. وروى ابن ماجه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال «الربا ثلاثة وسبعون باباً» واسناده صحيح. هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات، وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ «الربا بضع وسبعون باباً والشرك مثل ذلك» وهذه الزيادة قد يستدل بها على أنه الرياء بالمثناة لاقترانه مع الشرك والله أعلم. اهـ.

قلت: روي ذلك من حديث أبي هريرة، وابن مسعود، والبراء، وعائشة ورجل من الأنصار. فحديث أبي هريرة رواه ابن جرير بلفظ «الربا سبعون حوباً أهونها مثل وقوع الرجل على أمه».

مثل دبيب النمل، وبعضه أخفى من دبيب النمل، وكيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبة؟ وليته أدرك بعد بذل المجهود، فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها؟ نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه وإحسانه.

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه:

اعلم أن أولى ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا

ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الغيبة بلفظ «وأيسرها كنكاح الرجل أمه وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم». ورواه البيهقي بلفظ «الربا سبعون باباً أدناها كالذي يقع على أمه» وفي لفظ له «أن الربا سبعون حوباً أدناها مثل ما يقع الرجل على أمه وأربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه».

وأما حديث ابن مسعود فلفظه «الربا ثلاث وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم». رواه الحاكم والبيهقي.

وأما حديث البراء فلفظه «الربا اثنان وسبعون باباً أدناها مثل إتيان الرجل أمه» رواه ابن جرير.

وأما حديث عائشة فلفظه «إن الربا بضع وسبعون باباً أصغرها كالواقع على أخته». رواه أبو نعيم في الحلية.

وأما حديث رجل من الأنصار فلفظه «الربا أحد وسبعون ـ أو قال ثلاثة وسبعون حوباً أهونها مثل اتيان الرجل أمه» رواه عبد الرزاق في جامعه.

وأما حديث ابن مسعود الذي رواه البزار، فقد رواه ابن جرير كذلك وضبطوه بالموحدة، وقد تقدم ذكر هذا الحديث في كتاب اللسان.

(**وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض حتى أن بعضه مثل دبيب النمل وبعضه أخفى من دبيب النمل، وكيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل**) لشدة خفائه ودقته (**إلا بشدة التفقد والمراقبة**) وكثرة المجاهدة لعيوب النفس؟ (**وليته أدرك بعد بذل المجهود، فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس**) ورياضة لها وتهذيبها (**وتفتيش عن خدعها**) وتلبيساتها، والله الموفق.

بيان ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه:

(**اعلم**) هداك الله (**أن أوّل ما يلزم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله تعالى في**

يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء وتقول: مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك! فما في الخلق من يقدر على مثله، فكيف ترضى بإخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده، ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه وسقوط عند الله وإحباط للعمل العظيم فيقول: وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزق ولا أجل؟ فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، فأما المخلطون فليس ذلك من

جميع طاعاته وما يتقرب به إليه، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا الله، فأما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله) الباطنة والظاهرة، **(فإن كان)** المريد **(في هذه المرتبة فليلزم قلبه كراهته ذلك)** أي يحبسه به ويجعل الكراهة كالزمام وفي نسخة فيلزم **(من جهة العقل والإيمان لما فيه من خطر التعرض للمقت)** والسقوط من عين الله تعالى، **(وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء)** والإظهار **(وتقول: مثل هذا العمل العظيم)** الشاق **(والخوف العظيم والبلاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك)** تعظيماً لمقامك! **(فما في الخلق من يقدر على مثله، فكيف ترضى بإخفائه)** وكتمه **(فيجهل الناس محلك)** ومنزلتك **(وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك؛ ففي مثل هذا الأمر)** إذا عرض له **(ينبغي أن يثبت قدمه، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد)** وما أعد الله فيها للعاملين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، **(و)** يتذكر أيضاً **(عظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثواباً من عباده، ويعلم أن إظهاره لغيره تحبب إليه وسقوط عند الله)** من عين رحمته. **(وإحباط العمل العظيم فيقول: وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق)** وثنائهم **(وهم عاجزون)** في أنفسهم **(لا يقدرون لي على رزق ولا أجل؟ فيلزم ذلك قلبه)** ويرده عليه. **(ولا ينبغي أن ييأس عنه فيقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء)** من الناس، **(فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم فيترك المجاهدة في الإخلاص)** رأساً **(لأن المخلط إلى**

شأنهم، فيترك المجاهدة في الإخلاص لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقي، لأن المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة، والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل، فإن لم تسلم صار مأخوذاً بالفرائض وهلك به، فالمخلط إلى الإخلاص أحوج.

وقد روى تميم الداري عن النبي ﷺ أنه قال: «يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل: انظروا هل له من تطوّع؟ فإن كان له تطوع أكمل به فرضه وإن لم يكن له تطوّع أخذ بطرفيه فألقي في النار»، فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب

ذلك أحوج من المتقي لأن المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة) محفوظة عن الفساد، (**والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة إلى الجبران بالنوافل، فإن لم يسلم صار مأخوذاً بالفرائض وهلك به، فالمخلط الى الإخلاص**) في أعماله (**أحوج**) من المتقي، (**وقد روى**) أبو رقية (**تميم**) بن أوس بن حارثة بن سور بن جذيمة بن رزاح بن عدي بن الدار (**الداري**) رضي الله عنه قدم المدينة سنة تسع وأسلم، وذكر للنبي ﷺ قصة الجساسة والدجال، فحدث النبي ﷺ بذلك على المنبر وعد تلك من مناقبه، وانتقل إلى الشام بعد قتل عثمان وسكن فلسطين، وكان النبي ﷺ أقطعه بها قرية عينون. قال ابن حبان: مات بالشام وقبره ببيت جبرين من بلاد فلسطين، (**عن النبي ﷺ أنه قال «يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل انظروا هل له من تطوّع، فإن كان له تطوّع أكمل به فرضه، وإن لم يكن له تطوّع أخذ بطرفيه فالقي في النار»**) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه والدارمي، وابن قانع، والحاكم، والبيهقي، والضياء ولفظهم «أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أتمها كتبت له تامة، فإن لم يكن أتمها قال الله عز وجل لملائكته: أنظروا هل تجدون لعبدي من تطوّع فتكملون بها فريضته؟ ثم الزكاة كذلك ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك». ورواه أيضاً أحمد، وابن أبي شيبة عن رجل من الصحابة. وفي رواية «أوّل ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة يقول ربنا عز وجل لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كانت انتقص منها شيء قال: انظروا هل لعبدي من تطوّع فإن كان تطوّع قال أتموا لعبدي فريضته من تطوّعه ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم» هكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، والحاكم، والبيهقي من حديث أبي هريرة.

وروى الحاكم في الكنى من حديث ابن عمر «أوّل ما افترض الله تعالى على أمتي الصلوات الخمس، وأول ما يرفع من أعمالهم الصلوات الخمس، وأول ما يسألون عن الصلوات الخمس، فمن كان ضيع شيئاً منها يقول الله تبارك وتعالى: انظروا هل تجدون لعبدي نافلة من صلاة تتمون بها ما نقص من الفريضة وانظروا في صيام عبدي شهر رمضان فإن كان ضيع شيئاً منه فانظروا هل تجدون لعبدي من صيام تتمون به ما نقص من الصيام؟ وانظروا في زكاة عبدي فإن كان ضيع

كثيرة فاجتهاده في جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل، وأما المتقي فجهده في زيادة الدرجات فإن حبط تطوّعه بقي من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة.

فإذاً ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به، وإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فيكون شاكاً في قبوله ورده مجوزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها وردّ عمله بسببها، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده إلا في ابتداء العقد، بل ينبغي أن

شيئاً منها فانظروا هل تجدون لعبدي نافلة من صدقة تتمون بها ما نقص من الزكاة؟ فيؤخذ ذلك على فرائض الله وذلك برحمة الله وعله فإن وجد فضل وضع في ميزانه وقيل: أدخل الجنة مسروراً وإن لم يوجد له شيء من ذلك أمرت به الزبانية فأخذ بيديه ورجليه ثم قذف في النار».

وروى ابن عساكر من حديث أبي هريرة «إن أوّل ما يحاسب به العبد صلاته فإن سلمت سلم سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله، ثم يقول: انظروا هل لعبدي من نافلة فإن كانت له نافلة أتم بها الفريضة ثم الفرائض كذلك بعائدة الله تعالى ورحمته»، وإسناده حسن.

ورواه الترمذي وقال: حسن غريب، والنسائي وابن ماجه بلفظ «أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وحسر، وإن انتقص من فريضته قال الرب: انظروا هل لعبدي من تطوّع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على ذلك». وقد تقدم شيء من ذلك في كتاب الصلاة.

(**فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة باجتهاد في جبر الفرائض**) بالنوافل (**وتكفير السيئات أحوج، ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل**) حتى يقع بها الجبر، (**أما المتقي فجهده في زيادة الدرجات**) ورفعها (**وإن حبط تطوّعه بقي من حسناته ما يترجح به على السيئات فيدخل الجنة**) بفضل الله ورحمته.

(**فإذاً ينبغي أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله، ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يتحدث به ولا يظهره للناس، فإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عمله خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي ما لا يقف عليه، فيكون شاكاً في قبوله ورده مجوّزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها**) أي أبغضه (**وردّ عمله بسببها، ويكون هذا الشك والخوف في دوام عمله وبعده لا في ابتداء العقد بل ينبغي أن يكون متيقناً في الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله، فإذا**

يكون متيقناً في الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله إلا الله حتى يصح عمله، فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به، ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص وشكّ في أنه هل أفسده برياء؟ فيكون رجاء القبول أغلب، وبذلك تعظم لذته في المناجاة والطاعات.

فالإخلاص: يقين، والرياء: شك، وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه، والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه، فإن ذلك يحبط الأجر. فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه، أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره. نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا

شرع فيه ومضت لحظة تمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به) وبه يكون تمام عمله بالإخلاص فيعطى لآخره حكم أوّله، **(ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بإخلاص)** في ابتداء العقد، **(وشك أنه هل أفسده برياء فيكون رجاء القبول أغلب، وبذلك تعظم لذته في المناجاة والطاعات)**.

(فالإخلاص: يقين. والرياء: شك) واليقين لا يزال بالشك، **(وخوفه لأجل الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه، و)** أما **(الذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس)** التي يضطرون إليها **(و)** في **(إفادة العلم)** فإنه **(ينبغي أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط، ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر، ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه، فإن ذلك يحبط الأجر فمهما توقع)** أي ترجى **(من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة أو مرافقة إلى المشي في الطريق يستكثر باتساعه)** له أو مشيه خلفه راكباً أو ماشياً **(أو تردداً منه في حاجة)** من حاجاته المتعلقة به، **(فقد أخذ أجره ولا ثواب له غيره. نعم إن لم يتوقع هو)** ذلك **(ولم يقصد إلا الثواب على عمله ليكون له مثل أجره، ولكن)** لو **(خدمه التلميذ بنفسه)** من غير طلب منه **(فقبل خدمته، فنرجو أن لا يحبط لذلك أجره)** إذ كان لا ينتظره

كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعده لو قطعه. ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا، حتى أن بعضهم وقع في بئر فجاء قوم فأدلوا حبلاً ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً، خيفة أن يحبط أجره.

وقال شقيق البلخي: أهديت لسفيان الثوري ثوباً فردّه علي، فقلت له: يا أبا عبدالله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده عليّ. قال: علمت ذاك ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره.

وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقاً لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيراً فقال له: يا أبا عبدالله في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك ـ كان وكان وأثنى عليه ـ فقال: يا أبا عبدالله قد عرفت كيف صار هذا المال إليّ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك. قال: فقبل سفيان ذلك.

قال: فلما خرج قال لولده يا مبارك ألحقه فردّه عليّ، فرجع فقال: أحب أن تأخذ

(ولا يريده منه) ولا يطلبه **(ولا يستبعده منه لو قطعه، ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا حتى ان بعضهم وقع في بئر)** فاستغاث **(فجاء قوم فأدلوا)** له **(حبلاً ليرقوه)** وفي نسخة: ليرفعوه **(فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً خيفة من أن يحبط أجره. وقال شقيق البلخي)** رحمه الله تعالى: **(اهديت لسفيان)** بن سعيد **(الثوري)** رحمه الله تعالى **(ثوباً فردّه علي)** ولم يقبله **(فقلت: يا أبا عبد الله لست أنا ممن أسمع الحديث حتى تردّه عليَّ)** فتخاف إني اهديته لك لأجل ذلك. **(قال)** الثوري: قد **(علمت ذلك، ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره)**. أخرجه أبو نعيم في الحلية عن عبد المنعم بن عمر، حدثنا أحمد بن محمد بن زياد، حدثنا أبو داود، حدثنا إسحاق بن الجراح الأزدي، حدثنا عبد الرحمن بن محمد قال: حدثني شقيق البخلي قال: أهديت لسفيان فذكره.

وقال أبو نعيم أيضاً: حدثنا عبد المنعم بن عمير، حدثنا أحمد بن محمد بن اسماعيل الصائغ، حدثنا الحلواني، حدثنا يحي بن أيوب، حدثنا مبارك بن سعيد قال: **(جاء رجل إلى سفيان ببدرة أو ببدرتين وكان أبوه صديقاً لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيراً)** قال **(فقال له: يا أبا عبدالله في نفسك من أبي شيء؟ فقال: يرحم الله أباك كان وكان فأثنى عليه)** قال **(فقال: يا أبا عبدالله قد عرفت كيف صار إلى هذا المال فأحب أن تأخذ هذه)** البدرة من المال **(تستعين بها على عيالك. قال: فقبل سفيان ذلك، فلما خرج قال لوالده)** ولفظ الحلية بعد قوله ذلك وقام الرجل فلما كاد أن يخرج قال: **(يا مبارك الحقه فردّه عليّ)** وهذا السياق هو الصواب، فإن مباركاً أخاه لا ولده وهو مبارك بن سعيد بن مسروق الثوري الأعمى، أبو عبد الرحمن الكوفي،

مالك، فلم يزل به حتى ردّه عليه. وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك. قال ولده: فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت: ويلك أي شيء قلبك هذا حجارة؟ عد أنه ليس لك عيال؟ أما ترحمني؟ أما ترحم اخوتك؟ أما ترحم عيالنا؟ فأكثرت عليه فقال: الله يا مبارك تأكلها أنت هنيئاً مريئاً وأسأل عنها أنا.

فإذاً يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمداً لله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق، وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه، وهو خطأ لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال، والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد؟ فكيف يخسر في الحال عملاً نقداً على توهم علم؟ وذلك غير جائز، بل ينبغي أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله لا ليكون له في قلبه منزلة، إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة، فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره، وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي

نزيل بغداد، صدوق مات سنة ثمانين روى له أبو داود والترمذي والنسائي في عمل اليوم والليلة، **(فرجع)** الرجل **(فقال)** له سفيان: يا ابن أخي **(أحب أن تأخذ مالك)** قال له: يا أبا عبد الله في نفسك منه شيء؟ قال: لا ولكن أحب أن تأخذه، **(فلم يزل به حتى ردّه عليه)** وذهب به و **(كأنه كانت أخوّته مع أبيه في الله فكره أن يأخذ ذلك)** ومن قوله وكأنه إلى هنا من زيادة المصنف ليست في سياق الحلية، وقد ساقها للاعتذار عن سفيان وهو حسن **(قال ولده فلما خرج)** الرجل بماله **(لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت: ويلك)** وليس في الحلية ولده، وإنما هو قال فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت: ويحك **(أي شيء قلبك هذا حجارة؟ عد أنه ليس لك عيال، أما ترحمني؟ أما ترحم أخوتك؟ أما ترحم عيالك)** وفي الحلية عيالنا وعيالك قال: **(فاكثرت عليه فقال: الله يا مبارك تأكلها أنت هنيئاً مريئاً واسأل عنها أنا)** ولفظ الحلية أنا عنها؛

(فإذاً يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط) ولا يخطر به شيء سواه، **(ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله تعالى وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق، وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه وهو خطأ لأن إرادة غير الله بطاعته خسران في الحال، والعلم بما يفيد وربما لا يفيد وكيف يخسر في الحال عملاً نقداً)** حاضراً **(على توهم علم)** سيستفيده مع التردد في كونه مفيداً أو غير مفيد، **(وذلك غير جائز. وينبغي أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله لا ليكون له في قلبه منزلة إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة، فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره)** كما قال تعالى: ﴿ومَا أُمِرُوا إلاَّ لِيعبدُوا الله

أن يخدمها لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث أن رضا الله عنه في رضا الوالدين، ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضاً. وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله، فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به، وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه.

قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله: تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت فما طعامك؟ قال: يا حنيفي وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم، قال في كل ليلة حمصة، قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي

مُخْلِصينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥] لله غير مشركين به (**وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما إلا من حيث أن رضا الله في رضا الوالدين**). وقد روى الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو «رضا الرب من رضا الوالد وسخط الرب من سخط الوالد». (**ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال، وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلب الوالدين أيضاً**)، فإن من طلب رضا الناس بسخط الله أسخطهم كما ورد ذلك في الخبر وتقدم. (**وأما الزاهد المعتزل عن الناس، فينبغي أن يلزم قلبه ذكر الله**) تعالى (**والقناعة بعلمه**) فقط (**ولا يخطر بقلبه معرفة الناس بزهده واستعظامهم محله**) وتبجيلهم له، (**فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادة في خلواته به**) وفي نسخة العبادات في خلوته به. (**وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه**).

(**قال إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالى: (**تعلمت المعرفة من راهب**) في دير (**يقال له سمعان دخلت في صومعته**) التي هو يتعبد فيها (**فقلت: يا سمعان منذ كم أنت في صومعتك**) هذه؟ (**قال: منذ سبعين سنة. قلت: فما طعامك**) في هذه المدة؟ (**قال: يا حنيفي وما دعاك إلى هذا**) السؤال؟ (**قلت: أحببت أن أعلم. قال: في كل ليلة حمصة. قلت: فما الذي يهيج في قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم قال إنهم يأتون في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها**

ويطوفون حولها ويعظموني فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة! فأحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال: حسبك أو أزيدك؟ قلت: بلى، قال: أنزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي: أدخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير إجتمع علي النصارى فقالوا: يا حنيفي ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته؟ قالوا: فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا: ساوم! قلت: عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً فرجعت إلى الشيخ فقال: يا حنيفي ما الذي صنعت؟ قلت: بعته منهم، قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً، قال: أخطأت! لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك، هذا عز من لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده؟ يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة.

والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة وقد لا يشعر العبد به، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعاً إلا كراهة

ويعظموني فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة، فأنا احتمل جهد سنة لعز ساعة! فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال: حسبك) أي يكفيك ما عملت **(أو أزيدك؟ فقلت: بلى)** زدني. **(قال: انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى)** أي انزل **(إلى ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي: ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت لك، فلما دخلت الدير اجتمعت على النصارى فقالوا: يا حنيفي ما الذي أدلى لك الشيخ)** يعنون الراهب؟ **(قلت:)** شيئاً **(من قوته. قالوا: وما تصنع به فنحن أحق به. ثم قالوا: ساوم! قلت: عشرون ديناراً فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الشيخ فقال: يا حنيفي ما الذي صنعت؟ قلت: بعته منهم قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً. قال: اخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك، هذا عز من لا تعبده، فانظر كيف يكون عز من تعبده؟ يا حنيفي أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة)** أخرجه أبو نعيم في الحلية، عن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يزيد، حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن عمران النيسابوري، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: سمعت بقية بن الوليد يقول: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان فذكره له.

(والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثاً في الخلوة وقد لا يشعر العبد به، فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، فلو تغيروا عن اعتقادهم لم يجزع) من ذلك **(ولم يضق به ذرعاً إلا**

ضعيفة، إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه، فإنه لو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً ولم يداخله سرور بسبب إطلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه، ولكن إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه، إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والانقباض كي لا ينبسطوا إليه، فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور، إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمح نفسه بذلك؟ فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم، ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق. ومن علامة الصدق فيه، أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه لاكرامه إلا إذا كان في الغني زيادة علم أو زيادة ورع، فيكون مكرماً له بذلك

كراهة ضعيفة، إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه وأنه لو كان في عبادة فاطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً ولم يداخله سرور بسبب إطلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه، ولكن) مع ذلك **(إذا قدر على رده بكراهة العقل والإيمان وبادر إلى ذلك ولم يقبل السرور)** وذلك **(بالركون إليه)** أي ميل الطبع، **(فيرجى له أن لا يخيب سعيه إلا أن يزيد عند مشاهدتهم في الخشوع والانقباض)** في نفسه **(كيلا ينبسطوا إليه، فذلك لا بأس به، ولكن فيه غرور إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فليطالبها في دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو سريعاً أو يأكل كثيراً أويضحك فتسمح نفسه بذلك، فإذا لم تسمح به وسمح بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم)** في قلوبهم، **(ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر في قلبه أنه ليس في الوجود أي سوى الله)** تعالى وهو التوحيد الصرف، **(فيعمل عمل من لو كان وجه الأرض وحده لكان يعمله، ولايلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لا يشق عليه إزالتها)** بأهون سبب، **(فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق)** ووجود مثل ذلك عزيز.

(ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما غني) وذو مال **(والآخر فقير)** لا شيء له **(فلا يجد عند إقبال الغني زيادة هزة في نفسه لإكرامه إلا إذا كان في**

الوصف لا بالغنى، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طماع، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد في الرغبة إلى الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة، والنظر إلى الأغنياء بخلافه، فكيف استروح بالنظر إلى الغنى أكثر مما يستروح إلى الفقير؟ وقد حكي أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم فيه في مجلس سفيان الثوري، كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه. نعم لك زيادة إكرام للغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير البتة، فإن الفقير أكرم على الله من الغني، فإيثارك له لا يكون إلا طمعاً في غناه ورياء له ثم إذا سوّيت بينهما في المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير، وإنما ذلك رياء خفي أو طمع خفي، كما قال ابن السماك لجارية له: ما لي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة؟ فقالت: الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت! فإن اللسان

الغنى زيادة علم أو زيادة ورع، فيكون مكرماً له بذلك الوصف لا بالغنى، فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الغنى) وفي نسخة الأغنياء **(أكثر فهو)** إما **(مراء أو طماع، وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد رغبة في الآخرة ويحبب إلى القلب المسكنة)** والتواضع، **(والنظر إلى الأغنياء بخلافه)** أي يزيد الرغبة في الدنيا ويحبب إلى القلب التجبر والبطر. **(فكيف يستروح إلى الغني أكثر مما يستروح إلى الفقير، وقد حكى أنه لم ير الأغنياء في مجلس أذل منهم في مجلس سفيان الثوري وكان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء في مجلسه)** قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن بركة، حدثنا يوسف بن سعد بن مسلم، سمعت قبيصة يقول: ما رأيت الأغنياء أذل منهم في مجلس سفيان الثوري.

وحدثنا محمد بن علي، حدثنا عبد الرحمن بن الحسن الموّاز بمصر، حدثنا إبراهيم بن أبي داود، حدثنا سعيد بن أسلم، عن أبيه، عن حماد بن دليل قال: ما كنا نأتي سفيان إلا في خلقان ثيابنا.

(نعم لك زيادة إكرام الغني إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة، ولكن بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في إكرام وتوقير البتة، فإن الفقير أكرم على الله من الغنى) فالنظر إلى تفضيل الغني على الفقير كما سيأتي بيانه، **(فإيثارك له لا يكون إلا طمعاً في غناه ورياء له، ثم إذا سوّيت بينهما في المجالسة)** ولم تميز **(فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغني أكثر مما تظهره للفقير، وإنما ذلك لرياء خفي أو طمع خفي كما قال)** محمد بن صبيح **(ابن السماك)** البغدادي الواعظ **(لجارية له: مالي إذا أتيت بغداد فتحت لي الحكمة؟ فقالت: الطمع يشحذ لسانك)** أي

ينطلق عند الغني بما لا ينطلق به عند الفقير، وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضره عند الفقير. ومكائد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة، وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات، ولكن في بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات، وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه، فلما عرف ذلك جالس الأطباء وحارف الصيادلة وعوّد نفسه شرب الأدوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها، فبدنه كل يوم يزداد نحولاً لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصاناً لشدة احتمائه، فمهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر في توالي الأوجاع والآلام عليه وأدى ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة الأعداء به، ومهما إشتدّ عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنيء وبدن صحيح وقلب رخي وأمرٍ نافذ،

يجعله حديداً منطلقاً في الفصاحة (**وقد صدقت**) الجارية! (**فإن اللسان ينطلق عند الغني بما لا ينطلق**) وفي نسخة أكثر مما ينطلق (**عند الفقير**) وما ذلك إلا لطمع أو رياء ومن قولهم: اللها تفتح اللها. (**وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير**) لأنه لا يكترث بالفقير في مجلسه، فكيف يؤاتيه الخشوع (**ومكائد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر، ولا ينجيك منها إلا بأن تخرج ما سوى الله من قلبك**) فلا يكون له تعلق بسواه أبداً، (**وتتجرد للشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب**) ارتكاب (**شهوات منغصة**) أي مكدرة (**في أيام متقاربة منقضية**) سريعة الذهاب. وفي الخبر: «حفت الجنة بالمكار وحفّت النار بالشهوات». (**وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن في بدنه سقم**) أي مرض، (**وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة لو اتسع في الشهوات**) أي في تناولها، (**وعلم أنه لو احتمى**) عنها (**وجاهد**) فيه (**شهوته عاش ودام ملكه، فلما عرف ذلك**) من نفسه (**جالس الأطباء وحارف**) أي نادم (**الصيادلة**) وهم الذين يبيعون العقاقير (**وعوّد نفسه شرب الأدوية المرة**) الكريهة الطعم، (**فصبر على بشاعتها**) وكراهتها (**وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها، فبدنه كل يوم يزداد نحولاً**) أي تغيراً أو نقصاً (**لقلة أكله ولكن سقمه كل يوم يزداد نقصانا لشدة إحتمائه، فمهما نازعته إلى شهوة تفكر في توالي الآلام والأوجاع عليه وأدى ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة الأعداء**) أي فرحهم فيه (**ومهما اشتد عليه شرب دواء**) كريه الطعم (**تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هنّي**

فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات. فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فـاجتزى منها بالقليل، واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف، وترك المؤانسة بالخلق خوفاً من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك، ورجاء أن ينجو من عذابه، فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره وبما أعدّ له من النعيم المقيم في رضوان الله أبد الآباد. ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عوناً وبهم رؤوفاً وعليهم عطوفاً ولو شاء لأغناهم عن التعب والنصب، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلاً، ثم إذا تحمل التعب في بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء وسهل عليه الصبر، وحبب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقوّيه على إماتة الشهوات ويتولى سياسته وتقويته وأمده بمعونته، فإن الكريم لا يضيع سعي الراجي ولا يخيب أمل المحب وهو الذي يقول: «من تقرب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً»، ويقول تعالى: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى

وبدن صحيح وقلب رضي) أي منشرح **(وأمر نافذ، فيخف عليه مهاجرة اللذات)** والشهوات **(ومصابرة المكروهات، وكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى من كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهراتها فاجتزى)** أي اكتفى **(منها بالقليل)** قدر البلاغ **(واختار النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفاً من أن يحل عليه غضب الله فيهلك)** هلاك الأبد، **(ورجاء أن ينجو من عذابه فخف ذلك كله عند شدة يقينه وإيمانه بعاقبة أمره)** بما سيصير إليه، **(وبما أعد له من النعيم في رضوان الله)** غير منقطع **(أبد الآباد)** ودهر الدهور. **(ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عوناً)** ومعيناً **(وبهم رؤوفاً وعليهم عطوفاً، ولو شاء لأغناهم عن التعب والنصب)** وساق لهم لذات الدنيا بأسرها **(ولكن)** حماهم عنها و**(أراد أن يبلوهم)** ويخبرهم **(ويعرف صدق إرادتهم حكمة منه وعدلاً)** وإليه يشير قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ [الكهف: ٧] **(ثم إذا تحمل)** المريد **(التعب في بدايته)** من جهة مجاهدة النفس وقطعها من مألوفاتها **(أقبل الله عليه بالمعونة)** الباطنية **(والتيسير)** لأسباب الخير **(وحط عنه الأعباء)** أي الأثقال، **(وسهل عليه الصبر)** وحبب إليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات بل لا توازيها لذة، **(ويقويه على إماتة الشهوات وتولي سياسته وتقويته وأمده بمعونته)** وقربه إليه، **(فإن الكريم)** من شأنه أنه **(لا يضيع سعي الراجي ولا يخيب أمل المحب، وهو الذي يقول)** فيما أخبرنا عنه نبينا ﷺ: **(«من تقرب إليّ)** أي طلب قربه مني بالطاعة **(شبراً)** أي مقداراً قليلاً **(تقربت منه**

لقائهم أشد شوقاً »، فليظهر العبد في البداية جده وصدقه وإخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته.

ذراعاً) أي وصلت رحمتي إليه قدراً أزيد منه وكلما زاد العبد قربة زاده الله رحمة (**« ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه ميلاً »**) وتمام الحديث « وإذا أتى إليّ مشياً أتيته هرولة » رواه البخاري من حديث قتادة عن أنس. ورواه أيضاً من رواية التيمي عن أنس، عن أبي هريرة مرفوعاً ورواه أبو عوانة، والطبراني، والضياء من حديث سلمان بلفظ قال الله تعالى: « إذا تقرب العبد إليّ شبراً » الخ قال النووي: معناه من تقرب إليّ بطاعتي تقربت إليه برحمتي وإن زاد زدت فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة » أي صببت عليه الرحمة وسبقته بها ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود.

وقال عياض: العبد لا يزال يتقرب إلى الله بأنواع الطاعات وأصناف الرياضات ويترقى في مقام إلى آخر منه، حتى يستغرق بملاحظة جناب قدسه بحيث ما لاحـظ شيئاً إلا لا حظ ربه، فما التفت إلى حاس ومحسوس وصانع ومصنوع وفاعل ومفعول إلا رأى الله وهو آخر درجات السالكين وأول درجات الواصلين اهـ.

وروى الطيالسي في مسنده من حديث أبي ذر قال ربكم عز وجل: « الحسنة بعشرة والسيئة بواحدة أو اغفرها » ثم ساق الحديث وفيه: « من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً » وهذا أشبه بسياق المصنف. ورواه أحمد ومسلم وابن ماجه وأبو عوانة بنحوه.

وروى أحمد، وعبد بن حميد من حديث أنس قال الله تعالى: « يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة ». رواه ابن شاهين في الترغيب في الذكر من حديث ابن عباس بلفظ: « يقول الله ابن آدم » وفيه معمر بن زائدة. قال العقيلي: لا يتابع على حديثه. ورواه أحمد، والشيخان، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي هريرة بلفظ: « يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني » الخ.

(**ويقول**) عز وجل (**« قد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً » فليظهر العبد في البداية جده**) أي اجتهاده (**وصدقه**) في العمل (**وإخلاصه**) بأن لا يشرك فيه غير من يعمل له، (**فلا يعوزه من الله على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته**) فمن جد وجد ومن صدق في العمل نال الأمل، ومن أخلص أجرى الله ينابيع الحكم إلى قلبه وجعله من المقربين في حظيرة قدسه على بساط أنسه. اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين، وبه تم

كتاب ذم الجاه وحب المال، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خلاصة الموجودات وعلى آله وصحبه وسلم.

قال مؤلفه الإمام الكامل والرحلة الشامل أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني غفر الله ذنوبه وستر بعميم فضله عيوبه: فرغ من تسويد ذلك مسوده، وذلك في الرابعة من ليلة الخميس تاسع شهر ربيع الآخر سنة ١٢٠٠ حامداً ومصلياً ومسلماً ومستغفراً الله انفعنا به وبأمثاله آمين، والحمد لله رب العالمين.

كتاب ذم الكبر والعجب وهو الكتاب التاسع
من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً الله ناصر كل صابر

الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين، الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين، الباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين، أحمده استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزته واستعفافاً عن معصيته، واستعينه فاقة إلى كفايته، إنه لا يضل من هداه، ولا يجل من عاداه، ولا يفتقر من كفاه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة ممنحاً إخلاصه مقتصداً مصاصها، نتمسك بها أبداً ما أبقانا، وندخرها لأهاويل ما يلقانا، فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحة الإحسان، ومرضاة الرحمن ومدحرة الشيطان، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله، أرسله بالضياء وقدمه في الاصطفاء فرتق به المفاتق وساور به الغالب وذلل به الصعوبة، وسهل به الحرونة، حتى سرح الضلال، عن يمين وشمال، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه عباب علمه وموائد حكمه وكهوف ثبته ورجال دينه. بهم أنام الخنا ظهره واذهب ارتعاد فرائصه وسلم تسليماً كثيراً وبعد فهذا شرح:

كتاب ذم العجب والكبر

وهو التاسع من الربع الثالث من كتاب الإحياء للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي أمطر الله على ضريحه سحب الرحمة تزدحم وتوالى، قصدت فيه إبراز ما خفي من مخدرات ابكاره وتبيين ما استدق من زواهر أسراره وإيضاح ما أبهم من رواة أخباره، وإذاعة ما أودع في سياقه من محصلات أذكاره على نسق يرتضيه العالمون، ووجه ينتحيه المخلصون، ونهج يهتدي به السالكون، ومحجة يقتفيها المتقون، معتصماً بالله في تكميل ما أنا بصدده، ومتوكلاً عليه مستعيناً بفيض مدده إنه نعم العون لمن أخلص إليه وقصر نظره على الخير من يديه.

قال رحمه الله تعالى: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) مفتاح كل كتاب كما رواه الخطيب في الجامع من رواية أبي جعفر محمد بن علي معضلاً.

الحمد لله الخالق البارىء المصوّر العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده

(الحمد لله الخالق البارىء المصوّر) اعلم أنه قد يظن أن هذه الأسماء الثلاثة مترادفة، وأن الكل يرجع إلى الخلق والاختراع، ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى تقديره أولاً، وإلى إيجاد على وفق التقدير ثانياً، وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثاً، والله تعالى خالق من حيث أنه مقدر بارىء من حيث أنه مخترع موجد، ومصوّر من حيث أنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب، وهذا كالبناء مثلاً فإنه يحتاج إلى مقدر يقدر ما لا بد منه من الخشب واللبن ومساحة الأرض وعدد الأبنية وطولها وعرضها، وهذا يتولاه المهندس فيرسمه ويصوّره ثم يحتاج إلى بناء يتولى الأعمال التي تحدث عندها أصول الأبنية، ثم يحتاج إلى مزين ينقش ظاهره ويزين صورته فيتولاه غير البناء، وهذه هي العادة في التقدير والبناء والتصوير، وليس كذلك في أفعال الله تعالى، بل هو المقدر والموجد والمزين فهو الخالق البارىء المصور وهو باعتبار تقدير الأمور وباعتبار الإيجاد على وفق التقدير خالق، وباعتبار مجرد الإيجاد والاختراع من العدم إلى الوجود والإيجاد المجرد شيء والإيجاد على وفق التقدير شيء آخر. وهذا يحتاج إليه من يبعد رد الخالق إلى مجرد التقدير، مع أن له في اللغة وجهاً إذ العرب تسمى الحذاء خالقاً لتقديره بعض طاقات النعل على بعض كما قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

وأما اسم المصوّر، فهو له من حيث رتب صور الأشياء أحسن ترتيب وصوّرها أحسن تصوير، وهذا من أوصاف الفعل فلا يعلم حقيقته إلا من يعلم صورة العالم على الجملة، ثم على التفصيل وكل من كان أوفر علماً بالتفصيل كان أكثر إحاطة بمعنى اسم المصور.

(العزيز): هو الخطير الذي يقل وجود مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، فما لم تجتمع هذه المعاني الثلاثة لم يطلق اسم العزيز عليه، ثم في كل واحد من المعاني الثلاثة كمال ونقصان فالكمال في قلة الوجود أن يرجع إلى واحد، إذ لا أقل من واحد يكون بحيث يستحيل وجود مثله وليس هو إلا الله تعالى، والكمال في شدة الحاجة أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء حتى في وجوده وبقائه وصفاته وليس ذلك على الكمال إلا لله تعالى، والكمال في صعوبة الوصول على معنى الإحاطة بكنهه وليس ذلك على الكمال إلا لله تعالى، فهو العزيز المطلق الحق الذي لا يوازيه فيه غيره.

(الجبار): هو الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل واحد، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، والذي لا يخرج أحد من قبضته وتقصر الأيدي دون جبر حضرته، والجبار المطلق هو الله تعالى فإنه يجبر كل أحد ولا يجبره أحد ولا تسوية في حقه من الطرفين.

(المتكبر): هو الذي يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد، فإن كانت الرؤية صادقة كان التكبر حقاً وكان

واضع، الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع، وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع، فهو القهار الذي لا يدفعه عن مراده دافع، الغني الذي ليس له شريك ولا منازع، القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه، وارتفع عن حدّ قدرتهم

صاحبها متكبراً حقاً، ولا يتصور ذلك على الإطلاق إلا لله تعالى، وإن كان التكبر والاستعظام باطلاً ولم يكن ما يراه من التفرد بالعظمة كما يراه كان التكبر باطلاً ومذموماً، وكل من رأى العظمة والكبرياء لنفسه على الخصوص دون غيره كانت رؤيته كاذبة ونظره باطلاً إلا الله سبحانه وتعالى.

(**العلي الدي لا يضعه عن مجده واضع**)، لأن العلو عبارة عن الفوقية والموجودات بأسرها ما لا يمكن قسمتها إلى درجات متفاوتة في العقل إلا ويكون الحق تعالى في الدرجة العليا من درجات أقسامها، حتى لا يتصور ان يكون فوقه درجة، وذلك هو العلي المطلق وكل ما سواه فيكون علياً بالإضافة إلى ما دونه ويكون دنيا أو سافلاً بالإضافة إلى ما فوقه.

(**الجبار الذي كل جبار له ذليل خاضع وكل متكبر في جانب عزه مستكين متواضع**) تقدم معنى الجبار والمتكبر قريباً والاستكانة الذل والمسكنة واختلف في سينها فقيل: هي أصلية وقيل زائدة. (**فهو القهار**) لا موجود إلا وهو مسخر تحت قهره وقدرته، فهو (**لا يدافعه عن مراده دافع الغنى الذي**) لا تعلق له بغيره لا في ذاته ولا في صفاته، بل هو منزه عن العلاقة مع الأغيار، (**ليس له في ملكه شريك ولا منازع**) وكان من شاركه في نكد أو نازعه في أمر فهو محتاج فقير إلى الكسب ولا يتصوّر أن يكون غنياً مطلقاً إلا الله تعالى. (**القادر الذي بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه**) لأنه اخترع كل موجود اختراعاً انفرد به واستغنى فيه عن معاونة غيره، فابصار الخلائق دون عظمته وجلاله خاسرة، (**وقهر العرش المجيد استواؤه**) واستواؤه واستعلاؤه (**واستيلاؤه**) يشير إلى أن الاستواء في اللغة يتردّد بين ثلاثة معان: معنيان جائزان على الله تعالى وهما الاستعلاء والاستيلاء، وواحد باطل. واعلم إن الموجودات بأسرها تنقسم إلى ما هو سبب، إلى ما هو مسبب. والسبب فوق المسبب فوقية بالرتبة والفوقية المطلقة ليست إلا لمسبب الأسباب، ولذلك تنقسم الموجودات إلى حي وميت، والحي ينقسم إلى ما ليس له الإدراك الحسي وهو البهيمة، وإلى ماله مع الحس الإدراك العقلي، والذي له الإدراك العقلي ينقسم إلى ما يعارضه في إدراكه الشهوة والغضب وهو الإنسان، وإلى ما سلم إدراكه عن معارضة الكدورات، والذي يسلم عنها ينقسم إلى ما يمكن أن يبتلي بها وإن رزق السلامة كالملائكة، وإلى ما يستحيل ذلك في حقه وهو الله سبحانه وتعالى، وليس يخفى عليك في هذا القسم التدريج إذ الملك فوق الإنسان والإنسان فوق البهيمة، وأن الله تعالى فوق الكل فهو العلي المطلق المنزه عن جميع أنواع النقص، فقد وقع الميت في الدرجة السفلى من درجات الكمال ولم يقع في العلو إلا الله تعالى. وهكذا

إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه، وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه، فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فاعجزه دواؤه، جل جلاله

ينبغي أن يفهم فوقيته وعلوه فإن هذه الأسامي وضعت أولا بالإضافة إلى إدراك البصر وهو درجة العوام ثم لما تنبه الخواص لإدراك البصائر وجدوا بينها وبين الأبصار موازنات استعاروا منها الألفاظ المطلقة وفهمها الخواص وأنكرها العوام، فلم يفهموا عظمته إلا بالمسافة ولا علوا إلا بالمكان، فإن فهمت هذا فهمت معنى استوائه على العرش لأن العرش أعظم الأجسام الموجودات وهو فوق جميعها، والموجود المنزه عن التحدد والتعدد بحدود الأجسام ومقاديرها فوق الأجسام كلها في المرتبة، ولكن خص العرش بالذكر لأنه فوق جميع الأجسام فما كان فوقها كان فوق جميعها وهو كقول القائل: الخليفة فوق السلطان تنبيهاً به على أنه إذا كان فوقه كان فوق جميع الناس الذين هم دون السلطان، وقد تقدم الكلام في الاستواء في شرح كتاب قواعد العقائد مفصلاً.

(**وحصر ألسن الأنبياء**) عليهم السلام وهم خواص عباده المقربين (**وصفه وثناؤه وارتفع عن حد قدرتهم احصاؤه واستقصاؤه، فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه**) فإن نهاية معرفة العارفين عجزهم عن المعرفة ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه، وأنهم لا يمكنهم البتة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى، فاذا انكشف لهم ذلك انكشافاً برهانياً بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته، وهو الذي أشار إليه الصديق الأكبر رضي الله عنه حيث قال: العجز عن درك الإدراك إدراك، بل هو الذي عناه رسول الله ﷺ حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» ولم يرد به أن عرف منه ما لا يطاوعه لسانه في العبارة، بل معناه أني لا أحيط بمحامدك وصفات الهيتك، وإنما أنت المحيط بها وحدك، فإذاً لا يحيط مخلوق من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة. وأما إتساع المعرفة فإنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته.

(**وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه**) المراد بالأكاسرة ملوك الفرس جمع كسرى وهو لقب كل من ملك بلاد الفرس. (**وقصر أيدي القياصرة عظمته وكبرياؤه**) المراد بالقياصرة ملوك الروم جمع قيصر، وهو كل من ملك بلاد الروم، وفي كل من الجملتين جناس اشتقاق. (**فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه**) العظمة كون الشيء في نفسه كاملاً شريفاً مستغنياً، والكبرياء كناية عن كمال الذات. وأعني بكمال الذات كمال الوجود، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين. أحدهما: دوامه أزلاً وأبداً. والثاني: إن وجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود. ومعنى كونهما إزاره ورداءه أنهما من خاص صفاته كما يليق به. (**ومن نازعه فيهما**) أي جاذبه إياهما بأن تعظم على عباده وتكبر. (**قصمه**) أي كسره (**بداء الموت فاعجزه دواؤه**)

وتقدست أسماؤه، والصلاة على محمد الذي أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه، وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليماً كثيراً.

وأما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري

إذ لا دواء له (**جل جلاله**) أي عظم تناهيه في عظم القدر، (**وتقدست أسماؤه**) أي تنزهت عن أن يلحقها نقص (**والصلاة على**) سيدنا (**محمد الذي أنزل معه النور المنتشر ضياؤه**) اعلم أن العقول وإن كانت مبصرة فليست المبصرات كلها عندها على مرتبة واحدة، بل بعضها يكون عندها كأنه حاضرة كالعلوم الضرورية، وبعضها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه، بل يحتاج إلى أن ينبه عليه بالتنبيه كالنظريات، فإنما ينبهه كلام الحكمة. فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة، وأعظم الحكم كلام الله تعالى. ومن جملة كلامه القرآن خاصة فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الأبصار، فبالحري أن يسمى القرآن نوراً كما يسمى نور الشمس نوراً، فمثال القرآن نور الشمس، ومثال العقل نور العين، وبهذا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ [التغابن: ٨] وقوله تعالى: ﴿قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ [النساء: ١٧٤] وبين النور والضياء عموم وخصوص. (**حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وارجاؤه**) أي أطرافه من سائر الجهات، (**وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباؤه وأولياؤه وخيرته وأصفياؤه**) أي أحبهم الله بحبه ووالاهم وقربهم وأدناهم واختارهم واصطفاهم، (**وسلم**) تسليماً (**كثيراً**).

(**أما بعد: فقد قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى الكبرياء ردائي**) والعظمة (**ازاري»**) اختلفوا في معنى ذلك، فقال الكلاباذي: الرداء عبارة عن الجمال والبهاء، والأزار عبارة عن الجمال والستر والحجاب، فكأنه قال: لا يليق الكبرياء إلا بي. لأن من دوني صفات الحدوث لازمة له وسمة العجز ظاهرة عليه، والإزار عبارة عن الإقناع عن الإدراك والإحاطة به علماً والكيفية لذاته وصفاته، فكأنه قال: حجبت خلقي عن إدراك ذاتي وكيفية صفاتي بالجلال والعظمة.

وقال عياض: الكبرياء الكبر وهو الترفع على الغير بأن يرى لنفسه عليه شرفاً. والعظمة: كون الشيء في نفسه كاملاً شريفاً مستغنياً، فالأول أرفع من الثاني اذ هو غاية العظمة، فلذا مثله بالرداء. وقيل: الكبرياء الترفع عن الانقياد وذلك لا يستحقه إلا الحق، فكبرياء ألوهيته التي هي عبارة عن استغنائه واستعلائه، ومثلهما بالرداء إبرازا للمعقول في صورة المحسوس، فكما لا يشارك الرجل في ردائه وإزاره لا يشارك الباري في هذين فإنه الكامل المنعم المنفرد بالبقاء وما سواه ناقص محتاج.

فمن نازعني فيهما قصمته » وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان. وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح

(« **فمن نازعني**) بان تشوّق إلى الاتصاف بهما أو بأحدهما (**قصمته »**) أي أذللته وأهنته أو قربت هلاكه.

قال الزمخشري: هذا وارد عن غضب شديد ومناد على سخط عظيم لأن القصم أقطع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاءم الأجزاء بخلاف الكسر اهـ.

وقال صاحب الحكم: كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً، منعك أن تدعى ما ليس لك مما للمخلوقين، أفيبيح لك أن تدعى وصفه وهو رب العالمين؟ وقد أفاد هذا الوعيد أن التكبر والتعاظم من الكبائر. قال العراقي: رواه الحاكم في المستدرك دون ذكر العظمة. وقال: صحيح على شرط مسلم وتقدم في العلم وسيأتي بعد حديثين بلفظ آخر اهـ.

قلت: ورواه الحاكم من حديث أبي هريرة ولفظه « الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته ».

(**وقال** ﷺ **« ثلاث مهلكات**) وثلاث منجيات وثلاث كفارات وثلاث درجات. أما المهلكات (**شح مطاع**) أي بخل يطيعه الانسان فلا يؤدي ما عليه من حق الحق وحق الخلق فلا يكون مجرد الشح مهلكاً إلا إذا كان مطاعاً، وإلا فهو من لوازم النفس. قال الراغب: خص المطاع لينبه أن الشح في النفس ليس مما يستحق به ذماً إذ ليس هو من فعله وإنما يذم بالانقياد له. (**وهوى متبع**) بأني يتبع كل أحد ما يأمره به هواه، (**وإعجاب المرء بنفسه »**) أي تحسين كل أحد نفسه على غيره وإن كان قبيحاً. قال القرطبي: إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيانه نعمة الله، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر. وأما ما في الحديث فقد تقدم في كتاب ذم البخل، وقد رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر، وفيه ابن لهيعة. ورواه البزار والطبراني وأبو الشيخ في التوبيخ. وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بلفظ « ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الفقر والغنى، وثلاث مهلكات هوى متبع وشح مطاع واعجاب المرء بنفسه ».

(**فالكبر والعجب داءان مهلكان والمتكبر والمعجب**) بنفسه (**سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان، وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات وجب إيضاح الكبر والعجب، فإنهما من قبائح المرديات**) الردي: هو الهلاك

المرديات. ونحن نستقصي بيانها من الكتاب في شطرين: شطر في الكبر، وشطر في العجب.

الشطر الأوّل: من الكتاب: في الكبر، وفيه: بيان ذم الكبر، وبيان ذم الاختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة التكبر وآفته، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر، وبيان ما به التكبر، وبيان البواعث على التكبر، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر التكبر، وبيان علاج الكبر، وبيان امتحان النفس في خلق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه.

بيان ذم الكبر:

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سأصرفُ عن آياتي الّذين يتكبَّرُونَ في الأرض بغير الحق﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يَطْبع اللهُ على كلّ قلب متكبّر جبّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وقال تعالى: ﴿واسْتَفْتَحُوا وخابَ كلّ جبّارٍ عنيد﴾ [ابراهيم: ١٥] وقال تعالى: ﴿إنه لا يحبُّ الْمُسْتَكْبِرينَ﴾ [النحل: ٢٣] وقال تعالى: ﴿لقد استكبَرُوا في أنفسِهمْ وعتَوْا عتواً

وأرداه أوقعه فيه، (**ونحن نستقصي بيانها من الكتاب في شطرين شطر في الكبر، وشطر في العجب**).

(**الشطر الأول: من الكتاب: في الكبر، وفيه بيان ذم الكبر، وبيان ذم الاختيال، وبيانه فضيلة التواضع، وبيان حقيقة الكبر وآفته، وبيان من يتكبر عليه ودرجات الكبر وبيان ما بـه التكبر، وبيان الباعث على التكبر، وبيان اختلاف المتواضعين وما فيه يظهر التكبر، وبيان علاج الكبر، وبيان امتحان النفس في خلق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع، وبيان المذموم منه**).

بيان ذم الكبر:

اعلم أنه (قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سأصرفّ عن آياتي﴾) المنصوبة في الآفاق والأنفس (**﴿الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾**) سيأتي تفسيره للمصنف في آخر بيان حقيقة الكبر وآفته. (**وقال تعالى: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾**) قرىء بالتنوين على حذف مضاف أي كل ذي قلب. (**وقال تعالى: ﴿واستفتحُوا وخاب كل جبار عنيد﴾**) أي معاند للحق جاحد له مستكبر عن قبوله. (**وقال تعالى: ﴿إن الله لا يحب المستكبرين﴾ وقال تعالى: ﴿لقد استكبروا في أنفسهم**

كبيراً﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إنَّ الّذين يستكبِرُونَ عنْ عبادتي سَيَدْخُلُونَ جهنَّم داخرينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وذم الكبر في القرآن كثير. وقد قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول

وعتوا عتوّاً كبيراً﴾ [الفرقان: ٢١] وقال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ فلا يرفعون لها رأساً (﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾) [غافر: ٦٠] أي صاغرين ذليلين. **(وذم الكبر في القرآن كثير، وقال ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ») قال** العراقي: رواه مسلم من حديث ابن مسعود اهـ.

قلت: سياق المصنف لأحمد في مسنده لكنه بتقديم وتأخير وزيادة قال: حدثنا عارم قال: حدثنا عبد العزيز بن مسلم القسملي، حدثنا سليمان الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن يحيى ابن جعدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر » قال رجل: يا رسول الله يعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهيناً وشراك نعلي جديداً وذكر أشياء حتى علاّقة سوطه. قال « ذاك جمال والله تعالى جميل يحب الجمال ولكن الكبر من بطر الحق وازدرى الناس ». ورواه الحاكم من رواية عفان، عن عبد العزيز بن مسلم بالإسناد المذكور. ولفظ الحديث « لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من كبر » الحديث وفيه: « والله يحب الجمال » ثم قال: صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقد احتجا جميعاً برواته. واعترض عليه العراقي في إصلاح المستدرك فقال: لم يحتج واحد من الشيخين بيحيى بن جعدة ومع ذلك فهو مرسل، فإن يحيى لم يلق ابن مسعود كما قال ابن معين وأبو حاتم، ومع ذلك فالحديث أخرجه مسلم من رواية إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود مع اختلاف يسير فلا حاجة إلى إيراده اهـ كلام العراقي.

قلت: لفظ مسلم قيل: ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال « إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس » وقد رواه هناد في الزهد عن يحيى بن جعدة المخزومي مرسلاً ولفظه: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر العزة إزار الله والكبرياء رداؤه ». وروى الطبراني في الكبير من حديث السائب بن يزيد « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال كبر ». وروى البزار من حديث ابن عباس « لا يجد الجنة مثقال حبة خردل من كبر ولا يدخل النار مثقال حبة خردل من إيمان » وروى مسلم، والترمذي، وابن ماجه من حديث ابن مسعود: « لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء ». وروى أبو يعلى، والطبراني، والبيهقي، والضياء من حديث عبد الله ابن سلام: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ». ورواه الطبراني أيضاً من

الله ﷺ: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي». وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: التقى عبدالله بن عمرو وعبدالله بن عمر على الصفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا - يعني عبدالله بن عمرو - زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه». وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين

حديث ابن عباس. ورواه أحمد وهناد والطبراني أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو. وروى ابن سعد، وأحمد، والبغوي، والطبراني، والبيهقي، وابن عساكر من حديث أبي ريحانة «لا يدخل الجنة من الكبر شيء» فقال قائل: يا رسول الله إني أحب أن اتجمل بسير سوطي وشسع نعلي. فقال: «إن ذلك ليس بالكبر إن الله جيل يحب الجمال إنما الكبر من سفه الحق وغمص الناس بعينه».

(وقال أبو هريرة) رضي الله عنه: **(قال رسول الله ﷺ: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي»)** قال العراقي: رواه مسلم، وأبو داود، وابن ماجه واللفظ له. وقال أبو داود: قذفته في النار. وقال مسلم: عذبته. وقال: رداؤه وإزاره بالغيبة، وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضاً اهـ.

قلت: وبلفظ أبي داود رواه أيضاً أحمد وهناد والدارقطني في الافراد. ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ: «ألقيته في النار» ورواه القضاعي في مسنده من طريق عطاء بن السائب عن أبيه عن أبي هريرة مثله. ورواه سمويه في فوائده من حديث أبي هريرة وأبي سعيد معاً بلفظ مسلم إلا أنه قال: ردائي وإزاري. رواه الحاكم في مستدركه من وجوه أُخر بلفظ «قصمته» وبدون ذكر العظمة، وقد تقدم قبل هذا بحديثين. وعند االحاكم الترمذي من حديث أنس «يقول الله عز وجل لي العظمة والكبرياء والفخر والقدر سري فمن نازعني واحدة منهن كببته في النار».

(وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن) بن عوف القرشي الزهري المدني قيل: اسمه عبد الله، وقيل إسماعيل، وقيل اسمه وكنيته واحد. قال ابن سعد: كان ثقة فقيهاً كثير الحديث. وقال أبو زرعة: ثقة إمام توفي سنة أربع وتسعين بالمدينة وهو ابن اثنين وسبعين سنة. روى له الجماعة **(قال: التقى عبد الله بن عمر)** بن الخطاب **(وعبد الله بن عمرو)** بن العاصي رضي الله عنهما **(على المروة فتوافقا فمضى ابن عمرو)** بن العاص **(وقام ابن عمر يبكي فقالوا: وما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: هذا - يعني عبد الله بن عمرو)** بن العاص- **(زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله في النار على وجهه»)** قال العراقي: رواه أحمد والبيهقي في الشعب من طريقه باسناد صحيح اهـ.

قلت: وكذلك رواه الدارقطني في الإفراد، وابن النجار في التاريخ.

(وقال ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم

فيصيبه ما أصابهم من العذاب » ، وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوماً ـ للطير والانس والجن والبهائم ـ اخرجوا ، فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مسّت أقدامه البحر ، فسمع صوتاً لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته . وقال ﷺ : « يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول : وكلت بثلاثة . بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصوّرين » . وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيء الملكة » . وقال ﷺ : « تحاجت

من العذاب ») قال العراقي : رواه الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب اهـ .

قلت : لفظ الترمذي : « لا يزال الرجل يتكبر ويذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم » وقال : حسن غريب . ورواه كذلك الدراقطني في الإفراد ، والطبراني في الكبير .

(وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوماً للطير والجن والانس والبهائم : اخرجوا فخرجوا في مائتي ألف من الانس ومائتي ألف من الجن ، فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات) الزجل محركة الصوت ، **(ثم خفض حتى مست قدماه البحر فسمع صوتاً)** أي من هاتف : **(لو كان في قلب صاحبكم)** يعني سليمان عليه السلام **(مثقال ذرة من كبر لخسفت بـه أبعد مما رفعته . وقال ﷺ : « يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعيناه تبصران ولسان ينطق يقول : وكلت بثلاثة . بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، بالمصوّرين »)** قال العراقي : رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال : حسن غريب اهـ .

قلت : لفظ الترمذي « يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان » والباقي سواء . وقال : حسن غريب . ورواه كذلك أحمد ، وابن مردويه ، والبيهقي .

(وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة ») قال العراقي : تقدم في آداب الكسب والمعاش والمعروف خائن مكان كل جبار اهـ .

قلت : وروى الطيالسي من حديث أبي بكر : « لا يدخل الجنة خب ولا خائن » . ورواه أحمد بلفظ « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيّء الملكة » . وعند الخطيب في ذم البخلاء ، وابن عساكر « لا يدخل الجنة خب ولا بخيل ولا لئيم ولا منان ولا خائن ولا سيء الملكة » . وعند الخرائطي في مساوىء الأخلاق من حديث أنس : « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا منان ولا سيء الملكة » . وروى الطيالسي والترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجه ، والدارقطني في الافراد من حديث أبي بكر « لا يدخل الجنة سيء الملكة » ولم أجد لفظ جبار في شيء من الروايات .

الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما

(**وقال ﷺ: « تحاجت الجنة والنار فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلاّ ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم. فقال الله تعالى للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولك واحدة منكما ملؤها »**) فيه فوائد.

الأولى: رواه أحمد والبخاري من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة. ورواه مسلم أيضاً من طريق أبي الزناد، عن الأعرج. ومن طريق أيوب السختياني، عن محمد بن سيرين كلاهما عن أبي هريرة.

الثانية: قوله « تحاجت » أي تخاصمت. قال الجوهري: التحاج التخاصم. وقال ابن سيدة: حاجه نازعه الحجة وحجه غلبه على حجته. وقال ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا يتحاجُّون في النَّار﴾ [غافر: ٤٧] المحاجة التحادر بالحجة الخصومة.

الثالثة: الظاهر أن المراد بتحاجها تخاصمها في الأفضل منها وإقامة كل منها الحجة على أفضليته، فاحتجت النار بقهرها للمتكبرين والمتجبرين، واحتجت الجنة بكونها مأوى الضعفاء في الدنيا عوّضهم الله تعالى من ضعفهم الجنة، فقطع سبحانه التخاصم بينها وبين الجنة بأن الجنة رحمته أي نعمته على الخلق إن جعلت الرحمة صفة فعل أو أثر ارادته الخير بمن يشاء إن جعلت صفة ذات، وأن النار عذابه الناشيء عن غضبه وانتقامه جل وعلا.

الرابعة: قال النووي: هذا الحديث على ظاهره، وأن الله تعالى جعل في النار والجنة تمييزاً يدركان به فتحاجا، ولا يلزم من هذا أن يكون التمييز فيهما دائماً. وقال أبو العباس القرطبي: ظاهر هذه المحاجة أنها لسان فقال: فيكون خزنة كل واحد منها هم القائلون ذلك، ويجوز أن يخلق الله ذلك القول فيما شاء من أجزاء الجنة ولا يشترط عقلاً في الأصوات المقطعة أن يكون محلها حياً خلافاً لمن اشترط ذلك من المتكلمين. ولو سلمنا ذلك لكان من الممكن أن يخلق الله تعالى في بعض أجزاء الجنة والنار والجمادية حياة، بحيث يصدر ذلك القول عنه. لاسيما وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وإنَّ الدّار الآخرة لهي الحيوان لو كانُوا يعلمُون﴾ [العنكبوت: ٦٤] أن كل ما في الجنة حي، ويحتمل أن يكون ذلك لسان حال فيكون ذلك عبارة عن حالتيها، والأوّل أولى والله أعلم.

الخامسة: قوله: « إلا الضعفاء من الناس » لفظ الشيخين: إلا ضعفاء الناس جمع ضعيف. قال أبو العباس القرطبي: يعني الضعفاء في أمر الدنيا، ويحتمل أن يريد به هنا الفقراء، وحمله على الفقراء أولى من حمله على الأول لأنه يكون معنى الضعفاء معنى العجزة المذكورة من بعد. وقال

عياض: المراد بالضعيف هنا وفي الحديث الآخر أهل الجنة كل ضعيف متضعف أنه ضد المتجبر المتكبر ، وقال أبو بكر بن خزيمة: الضعيف هنا الذي برأ نفسه من الحول والقوّة في اليوم والليلة عشرين مرة إلى خمسين ولم يرد التحديد وإنما أراد اتصافه من التبرؤ من الحول والقوة واللجوء إلى الله حتى يذكر . قال أبو عبد الله القرطبي: ومثل هذا لا يقال من قبل الرأي فهو مرفوع اهـ . قال الولي العراقي: وهو عجيب لأن ذلك إنما قيل في الصحابي لا في مطلق الناس.

السادسة: قوله: « وسقاطهم » هو جمع ساقط ككاتب وكتاب وهو النازل القدر، وهو الذي عبر عنه بأنه لا يؤبه له، ولعله من سقط المتاع وهو رديه. ورواية مسلم: « وسقطهم » بفتح السين القاف وهو جمع ساقط أيضاً، والمعنى واحد ويلزم على ذلك أن يكون بالتاء ككاتب وكتبة وحاسب وحسبة، وإنما يسقطون التاء لأنهم سلكوا بالجمع مسلك اسم الجنس.

السابعة: وقع في رواية مسلم بعد قوله وسقطهم وغويهم ورويت هذه اللفظة على ثلاثة أوجه حكاها القاضي عياض قال النووي: وهي موجودة في النسخ. إحداها بفتح الغين المعجمة وكسر الواو وتشديد الياء ولا يظهر له هنا معنى، ولهذا كان الحافظ العراقي يقول: لعله وغوغاؤهم. وكتب بخطه كذلك على حاشية نسخته ولعله تصحف بقوله وغويهم الثاني: غرثهم بغين معجمة مفتوحة وراء مفتوحة وثاء مثلثة. قال عياض: هذه رواية الأكثر من شيوخنا، ومعناه أهل الحاجة والفاقة والجوع والغرث الجـوع. والثالث: غرتهم بغين معجمة مكسورة وراء مشددة وتاء مثناة من فوق، وهذا هو الأشهر في نسخ بلاد المشرق. أي البله الغافلون الذين ليس لهم فتك وحذف في أمور الدنيا، وهو نحو الحديث الآخر « أكثر أهل الجنة البله ». وقال عياض: معناه سواد الناس وعامتهم من أهل الإيمان، فتدخل عليهم الفتنة أو تدخلهم في البدعة أو غيرها فهم ثابتو الإيمان صحيحـو العقائد وهم أكثر المؤمنين وهم أكثر أهل الجنـة، وأمـا العـارفـون والعلماء العـاملـون والصالحون المتعبدون فهم قليلون وهم أصحاب الدرجات العلى.

الثامنة: وقع في رواية الشيخين بعد قوله: ضعفاء الناس وسفلهم هو بكسر السين المهملة وفتح الفاء وهو جمع سفلة بكسر فسكون وهو الرجل الوضيع، ويوافقه ما في الصحاح والعامة تقول: رجل سفلة من قوم سفل، وكذا قال في النهاية، ثم قال: وليس بعربي وذلك بعد أن صدر كلامها بأن السفلة بفتح فكسر السقاط من الناس، وأنه يقال هو من السفلة لا يقال سفلة لأنه جمع. ثم قال في النهاية: وبعض العرب تخفف فتقول من سفلة الناس فتنقل كسرة الفاء إلى السين. وحكاه في الصحاح عن ابن السكيت وقال في المحكم: سفلة الناس أي بفتح فكسر وسفلتهم وسفلتهم أي بكسر فسكون أسافلهم وغواتهم.

التاسعة: قوله وعجزتهم بعين مهملة مفتوحة وجيم وزاي وتاء جمع عاجز ومعناه العاجزون عن طلب الدنيا والتمكن فيها والثروة والشوكة. كذا ضبطه عياض والنووي. قال أبو العباس القرطبي: ويلزم على ذلك أن يكون بالتاء وسقوطها في مثل الجمع نادر، وإنما يسقطونها إذا سلكوا بالجمع

ملؤها »، وقال ﷺ: « بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد غفل وسها ونسي المقابر والبلى،

مسلك اسم الجنس كما قدمنا في سقطهم، وصواب هذا اللفظ أن يكون عجزهم بضم فتشديد كشاهد وشهد.

العاشرة: فيه ذم التكبر والتجبر، وأن فاعل ذلك من أهل النار، فإن وصل الكبر بالانسان إلى الكفر لتكبره عن الإيمان بالله ورسوله فهو مخلد فيها وإن لم يصل إلى ذلك فلا بدّ له من الخلوص منها، ولا يقطع له أيضاً بدخولها بل هو تحت المشيئة فقد يعفى عنه ولا يدخلها.

الحادية عشرة: هذا الحديث له بقية عند أحمد والشيخين وهي « فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله وفي لفظ « قدمه » تقول قط قط قط فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً، واما الجنة فإن الله عز وجل ينشىء لها خلقاً » ولم يذكر المصنف رحمه الله هذه الزيادة لحصول المقصود بصدر الحديث، وهو الدلالة على ذم الكبر واستحقاق فاعله النار، ولأنها من أحاديث الصفات المشكلة المحتاجة إلى التأويل، وقد زعم ابن فورك أن هذه اللفظة وهي قوله « حتى يضع الله رجله » غير ثابتة عند أهل النقل، ولكن قد عرفت أنه رواه أحمد والشيخان وغيرهم فهي صحيحة وتأويلها من أوجه. أحدها: أن المراد رجل بعض المخلوقين فيعود الضمير في رجله إلى ذلك المخلوق المعلوم. الثاني: انه يحتمل أن من المخلوقات ما يسمى بهذه التسمية. الثالث: أنه يجوز أن يراد بالرجل الجماعة من الناس كما تقول: رجل من جراد أي قطعة منه. الرابع: أن المراد بوضع الرجل نوع حرز لها كما تقول: جعلته تحت رجلي. الخامس: أن الرجل قد تستعمل في طلب المشي على سبيل الجد والإلحاح كما تقول: قام في هذا الأمر على رجل. والمشهور في أكثر روايات الحديث « حتى يضع فيها قدمه » وفيه التأويلات المتقدمة، وأشهر منها تأويل آخر أن المراد من قدمه الله لها من أهل العذاب، وهذا كله بناء على طريقة التأويل وهي طريقة جمهور المتكلمين والذي عليه السلف، وذهبت إليه طائفة من المتكلمين أنه لا يتكلم في تأويلها بل نؤمن بأنها حق على ما أراد الله ولها معنى يليق بها وظاهر غير مراد. وذكر الخطابي أن ترك التأويل إنما هو في الصفات الواردة في القرآن أو في السنّة المتواترة، فأما الواردة في أخبار الآحاد من غير أن يكون لها أصل في القرآن فإنها تؤوّل، والله أعلم.

(وقال ﷺ « بئس) وهي كلمة جامعة للمذام مقابلة لنعم الجامعة لوجوه المدائح كلها **(العبد عبد تجبر)** من الجبر وهو القهر بأن انتشأ في الشهوات وجبر الخلق على هواه فيها فصار ذلك عادة له، **(واعتدى)** أي تجاوز الحدود في جبروته، **(ونسي الجبار الأعلى)** الذي له الجبروت الاعظم. **(بئس العبد عبد تجبر واختال)** من الخيلاء وهو الكبر والعجب **(ونسي)** الله **(الكبير المتعال)** أي نسي أن الكبرياء والتعالي ليس إلا للواحد القهار، **(بئس العبد عبد**

بئس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدأ والمنتهى » . وعن ثابت أنه قال: بلغنا أنه قيل: يا رسول الله ما أعظم كبر فلان! فقال: « أليس بعده الموت » ؟ وقال عبدالله بن عمرو: إن رسول الله ﷺ قال: « إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله. فإن السموات والأرضين وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منها، ولو أن السموات والأرضين وما فيهن كانتا حلقة

سها) بالأماني مستغرقاً في شؤون هذا الحطام الفاني **(ولها)** بالإكباب على الشهوات والاشتغال بما لا يعنيه مما خلق لأجله من العبادات **(ونسي المقابر والبلى)** أي بأن القبر يضمه يوماً ويحتوي على أركانه ويبلي لحمه ودمه، **(بئس العبد عبد عتا وطغى)** العتوّ التجبر والتكبر والطغيان مجاوزة الحد أي بالغ في ركوب المعاصي وتمرد حتى صار لا ينفع فيه وعظ ولا يؤثر فيه زجر فصار إيمانه محجوباً **(ونسي المبدأ والمنتهى)** أي نسي من أين بـدأ وإلى أين يعاد وصيرورته تراباً. أي من كان من ذلك ابتداؤه ويكون انتهاؤه هذا جدير بأن يطيع الله في أوسط الحالين.

قال العراقي: رواه الترمذي من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال: غريب وليس إسناده بالقوي. ورواه الحاكم في المستدرك وصححه، ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم بن حماد وضعفه اهـ.

قلـت: لفظ الترمذي « بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتا وطغى ونسي المتبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد تختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله، بئس العبد عبد رغب بذلّه » هكذا رواه الترمذي وضعفه، والبغوي، والطبراني، ورواه الحاكم في الرقاق من مستدركه وصححه، ورواه الذهبي وقال: سنده مظلم، وكذلك رواه البيهقي كلهم من حديث أسماء. قال البيهقي: إسناده ضعيف. ورواه الطبراني: وابن عدي والبيهقي من حديث نعيم بن عمار الغطفاني، وفيه طلحة بن زيد الرقي وهو ضعيف.

(وعن) أبي محمد **(ثابت)** بن أسلم البناني البصري ثقة عابد مات سنة بعض وعشرين وله ست وثمانون سنة روى له الجماعة **(قال: بلغنا أنه قيل: يا رسول الله ما أعظم كبر فلان: فقال « أليس بعده الموت »)** قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب هكذا مرسلاً بلفظ ما أعظم تجبر فلان. **(وقال عبد الله بن عمرو)** بن العاص رضي الله عنهما **(أن رسول الله ﷺ قال: « إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمـركما باثنين وأنهاكـما عن اثنين. أنهـاكما عن الشرك)** بالله **(والكبر)** على الناس، **(وآمـركما بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرض وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منها، ولو أن السموات والارض وما فيهن كانتا حلقة**

فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل

فوضعت لا إله إلا الله عليها لقصمتهـا . وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء ») قال العراقي : رواه أحمد ، والبخاري في كتاب الأدب ، والحاكم بزيادة في أوّله وقال : صحيح الإسناد اهـ .

قلـت : وكذلك رواه الطبراني في الكبير ولفظهم جميعاً « إن نبي الله نوحاً لما حضرته الوفاة قال لابنه : يا بني إني موصيك فقاصر عليك الوصية ، آمرك باثنين وأنهاك عن اثنين ، آمرك بلا إله إلا الله فلو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعن في كفة ولا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن ، لو أن السموات السبع والأرضين السبع كانت حلقة مبهمة قصمتهن لاله إلا الله . وأوصيك بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلق وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الكفر والكبر » . قيل : يا رسول الله ما الكبر أهو أن يكون للرجل حلة حسنة يلبسها وفرس جيل يعجبه جماله ؟ قال : « لا الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس » .

وروى ابن أبي شيبة من حديث جابر : « ألا أعملكم ما علم نوح ابنه ؟ آمرك بقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، فإن السموات لو كانت في كفة لرجحت بها ولو كانت حلقة قصمتها . وآمرك بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق وبها ترزق الخلق » .

وروى الحكيم الترمذي ، والديلمي من حديث معاذ بن أنس : « لا أخبركم عن وصية نوح حين حضره الموت ؟ قال : إني واهب لك أربع كلمات : هي قيام السموات والأرض وهن أوّل الكلمات دخولاً وآخر الكلمات خروجاً من عنده ولو وزن بهن أعمال بني آدم لو زنتهن فاعمل بهن واستمسك حتى تلقاني تقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والذي نفس محمد بيده لو أن السموات والأرض وما فيهن وما تحتهن وزن بهذه الكلمات لوزنتهن » .

وروى عبد بن حميد ، وابن عساكر من حديث جابر ، وأبو يعلى ، والبيهقي ، وابن عساكر أيضاً من حديث عبد الله بن عمر « وألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ان نوحاً قال ، لابنه : يا بني آمرك بأمرين وأنهاك عن أمرين . آمرك أن تقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، فإن السموات والأرض لو جعلتا في كفة وزنتها ، ولو جعلتا حلقة قصمتها . وآمرك يا بني أن تقول سبحان الله وبحمده فإنها صلاة الخلائق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق . وأنهاك يا بني عن الشرك فإن من أشرك بالله حرم الله عليه الجنة . وأنهاك يا بني عن الكبر . فإن أحداً لا يدخل الجنة وفي قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » . فقال معاذ : يا رسول الله الكبر أن يكون لأحدنا دابّة يركبها والنعلين يلبسهما والثياب يلبسها والطعام يجمع عليه أصحابه ؟ قال « لا ولكن الكبر أن تسفه الحق وتغمص المؤمن وسأنبئك بخلال من كن فيه فليس بمتكبر : اعتقال الشاة ، وركوب الحمار ، ولبوس الصوف ، ومجالسة فقراء المؤمنين ، وأن يأكل أحدهم مع عياله » .

شيء وبها يرزق كل شيء ». وقال المسيح عليه السلام: طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جباراً. وقال ﷺ: « أهل النار كل جعظري جوّاظ مستكبر جماع مناع، وأهل الجنة الضعفاء المقلون »، وقال ﷺ: « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » قالوا: يا رسول

(وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا) اي متكبراً. (وقال النبي ﷺ: « أهل النار كل جعظري) وهو الفظ الغليظ المنتفخ بما ليس عنده (جوّاظ) وهو الكثير اللحم المختال في مشيته (مستكبر) على إخوانه (جمّاع) للمال (منّاع) للحق. (وأهل الجنة الضعفاء المقلون ») وفي لفظ « المغلوبون ». قال العراقي: رواه أحمد، والبيهقي في الشعب من حديث سراقة بن مالك دون قوله « جماع مناع » وهذه الزيادة عندهما من حديث عبد الله بن عمرو. وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخزاعي: « الا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرّه. ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جوّاظ مستكبر » اهـ.

قلت: لفظ حديث سراقة عند ابن قانع والحاكم: « أهل النار كل جعظري جوّاظ مستكبر، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون ». وروى أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو، وسراقة بن مالك « أهل الجنة المغلوبون وأهل النار كل جعظري جوّاظ مستكبر ». وروى الطيالسي من حديث حارثة بن وهب « أهل النار كل جوّاظٍ عتل مستكبر ». وروى الشيرازي في الألقاب، والديلمي من حديث أبي عامر الأشعري « أهل النار كل شديد قبعثري » قيل: يا رسول الله وما هو ؟ قال « الشديد على الأهل، الشديد على الصاحب، الشديد على العشيرة، وأهل الجنة كل ضعيف مزهد ». وروى أحمد، والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو « وأهل النار كل جعظري جوّاظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون ». وروى الطبراني في الكبير من حديث ابن عمرو: « ألا أنبئك بأهل الجنة الضعفاء المغلوبون ». وروي أيضاً من حديث أبي الدرداء « ألا أخبرك يا أبا الدرداء بأهل النار كل جعظري جوّاظ مستكبر جماع. ألا أخبرك بأهل الجنة كل مسكين لو أقسم على الله تعالى لأبرّه ».

وأما حديث حارثة بن وهب في الصحيحين فلفظه: « ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جوّاظ جعظري مستكبر » وهكذا رواه الطيالسي، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والطبراني كلهم من طريق معبد بن خالد، عن حارثة بن وهب الخزاعي. ورواه الطبراني أيضاً عن معبد بن خالد بن حارثة بن وهب. والمستورد بن شداد الفهري معاً ورواه الطبراني أيضاً، والضياء عن معبد بن خالد، عن أبي عبدالله الجدلي، عن زيد بن ثابت.

(وقال ﷺ: « إن أحبكم إلينا وأقربكم منا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » . قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون

الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون». وقال ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذر تطؤهم الناس، ذراً في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار، ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الأنيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار». وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى». وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له: يا بلال إن

والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون») قال العراقي: رواه أحمد من حديث أبي ثعلبة الخشني بلفظ: «إلى ديني» وفيه نقطاع مكحول لم يسمع من أبي ثعلبة وقد تقدم في رياضة النفس أول الحديث اهـ.

قلت: لفظ أحمد «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون». وكذلك رواه ابن حبان، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي والخرائطي. وروي الخرائطي أيضاً، والخطيب، وابن عساكر، والضياء من حديث جابر «إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون». وروى الطبراني من حديث ابن مسعود: «إن أحبكم إليّ يوم القيامة أحاسنكم وإن من أبغضكم إليّ يوم القيامة المتشدقون المتفيهقون». وروى البيهقي من حديث أبي هريرة: «ألا أخبركم بشرار هذه الأمة الثرثارون والمتشدقون المتفيهقون، أفلا أنبئكم بخيارهم أحاسنهم اخلاقاً» ورواه أحمد بلفظ ألا انبئكم بشراركم الثرثارون المتشدقون إلا انبئكم بخياركم أحاسنكم أخلاقاً».

(وقال ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة ذراً في مثل صور الرجال يعلوهم كل شيء من الصغار) أي الذل، **(ثم يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس)** بضم الموحدة وفتح اللام وآخره سين مهملة **(تعلوهم نار الأنيار)** هو جمع نار **(يسقون من طينة الخبال)** وهي **(عصارة أهل النار»)** أي مما يسيل من أجسادهم بعد ذوبانها من القيح والصديد. قال العراقي: رواه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال: حسن غريب اهـ.

قلت: وكذلك رواه أحمد ولفظه: «أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان» والباقي سواء.

(وقال أبو هريرة) رضي الله عنه: **(قال ﷺ: «يحشر الجبارون المتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله»)** قال العراقي: رواه البزار هكذا مختصراً دون قوله الجبارون، وإسناده حسن.

(وعن محمد بن واسع) بن جابر بن الأخنس البصري ثقة عابد كثير المناقب مات سنة ثلاث

أباك حدثني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في جهنم وادياً يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار، فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه». وقال ﷺ: «إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم». وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من

وعشرين ومائة، روى له مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي **(قال: دخلت على بلال بن أبي بردة)** بن أبي موسى الأشعري قاضي البصرة مات سنة نيف وعشرين، روى له البخاري معلقاً والترمذي **(فقلت: يا بلال إن أباك)** أبا بردة بن أبي موسى الأشعري قيل اسمه عامر وقيل الحرث ثقة مات سنة أربعمائة روى له الجماعة **(حدثني عن أبيه)** أبي موسى عبدالله بن قيس بن سليم ابن حضار الأشعري رضي الله عنه صحابي مشهور أمره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكمين بصفين سنة خمسين وقيل بعدها، **(عن النبي ﷺ قال: «إن في جهنم وادياً يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار فإياك يا بلال أن تسكنه»)** قال العراقي: رواه أبو يعلى، والطبراني، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. قلت: فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له في الضعفاء هذا الحديث اهـ.

قلت: قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا عبدالله بن محمد بن مخلد، حدثنا الحرث بن أبي أسامة، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أزهر بن سنان القرشي، حدثنا محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت: يا بلال إن أباك حدثني، عن جدك، عن رسول الله ﷺ قال: «إن في جهنم وادياً ولذلك الوادي بئر يقال لها هبهب حق على الله أن يسكنها كل جبار فإياك أن تكون منهم».

قلت: ورواه كذلك العقيلي، وابن عدي، وابن عساكر. وقال أبو نعيم بعد أن أورد الحديث: هذا حديث تفرد به أزهر عن محمد، وحدث به أحمد بن حنبل، وأبو خيثمة عن يزيد بن هارون بمثله.

(وقال ﷺ: «إن في النار قصراً يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم») قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب من حديث أنس وقال: توابيت مكان قصر. وقال: فيقفل مكان يطبق، وفيه أبان بن عياش وهو ضعيف.

(وقال ﷺ) في دعائه: **(«اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء»)** قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ وروى أبو داود، وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم مرفوعاً في أثناء حديث: «أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه» قال: نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة. ولأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري نحوه تكلم فيه أبو داود، وقال الترمذي هذا أشد حديث في الباب.

نفخة الكبرياء ». وقال: « من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر والدين والغلول ».

الآثار: قال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين فإن صغير المسلمين عند الله كبير. وقال وهب: لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يوماً ومصعب مادّ رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك في وجهه فقال: عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين. وقال

(وقال ﷺ: « من فارق روحه جسده وهو بريء من ثلاثة دخل الجنة الكبر والدين والغلول ») قال العراقي: رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث ثوبان بإسناد صحيح وذكر المصنف لهذا الحديث فيها موافق للمشهور في الرواية أنه الكبر بالموحدة والراء، ولكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال: إنما هو الكنز بالنون والزاي، وكذلك أيضاً ذكر ابن مردويه في تفسير ﴿إن الذين يكنزون الذهب والفضة﴾ [التوبة: ٣٤] اهـ.

قلت: ورواه أيضاً أحمد، والدارمي، وأبو يعلى والروياني، وابن حبان، والحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء ووقع في روايتهم الغل بدل الغلول.

(الآثار: قال أبو بكر الصديق) رضي الله عنه: **(لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين)** وفي نسخة: لا تحقرن أحداً من المسلمين، **(فإن صغير المسلمين عند الله كبير)**. رواه أبو عبد الرحمن السلمي، والديلمي في مسند الفردوس من حديثه مرفوعاً بلفظ: « لا تحقرن من المسلمين أحداً » والباقي سواء. **(وقال وهب)** بن منبه رحمه الله تعالى: **(لما خلق الله جنة عدن نظر إليها فقال: أنت حرام على كل متكبر)** روى الطبراني من حديث ابن عباس. « لما خلق الله عز وجل جنة عدن خلق بها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها تكلمي. فقالت: قد أفلح المؤمنون ». زاد ابن عساكر ثم قالت: « أنا حرام على كل بخيل ومرائي ثم أطبقها فلم ير ما فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل » وقد تقدم ذلك في ذم الرياء. **(وكان الأحنف بن قيس)** بن معاوية التميمي أبو شجر البصري، أدرك زمان النبي ﷺ ولم يره قال العجلي: بصري تابعي ثقة وكان سيد قومه **(يجلس مع مصعب بن الزبير)** بالبصرة، وكان أخو عبدالله بن الزبير قد ولاه عليها **(على سريره فجاء)** الأحنف **(يوماً ومصعب مادّ رجليه فلم يقبضهما)** لدخوله، **(وقعد الأحنف)** على السرير على عادته **(فزاحمه بعض الزحمة، فرأى أثر ذلك في وجهه فقال)** الأحنف **(عجباً لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين)** مرة من مجرى بول أبيه، وثانية من مجرى بول أمه. ومات الأحنف في ولاية مصعب روى عن عتبة ابن صعصعة قال: رأيت مصعب بن الزبير في جنازة الأحنف متقلداً سيفاً ليس عليه رداء وهو يقول: ذهب اليوم الحزم والرأي. **(وقال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى. **(العجب من**

الحسن: العجب من ابن آدم، يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات، وقد قيل في: ﴿وفي أنفُسِكُم أفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] هو سبيل الغائط والبول. وقال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قلّ أو كثر. وسئل سلمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال: الكبر. وقال النعمان بن بشير ـ على المنبر ـ إن للشيطان مصالي وفخوخاً، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله. نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنّه وكرمه.

ابن آدم يغسل الخراء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات، وقد قيل) في تأويل قوله تعالى: (**﴿وفي أنفسكم تبصرون﴾ وهو سبيل البول والغائط)** ولفظ القوت وقال بعض أهل التفسير في تأويل قوله تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ وقال: مواضع البول والغائط أي فتعتبروا به مثال الدنيا وقبح عاقبتها وتغيرها إلى الآخرة **(وقال)** أبو جعفر **(محمد بن الحسين بن علي)** بن أبي طالب رضي الله عنهم كذا في النسخ، وصوابه محمد بن علي بن الحسين بن علي: **(ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر)** أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أبيه، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسين، حدثنا أبو الربيع الرشديني، حدثنا عبدالله بن وهب، أخبرني إبراهيم بن النشيط، عن عمر مولى غفرة، عن محمد بن علي بن الحسين قال: ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر فذكره. **(وسئل سلمان)** الفارسي رضي الله عنه **(عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة. قال، الكبر. وقال النعمان بن بشير)** بن سعد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي له ولأبيه صحبة ثم سكن الشام ثم ولى إمرة الكوفة ثم قتل بحمص سنة خمس وستين وله أربع وستون سنة: **(إن للشيطان مصالي)** وهي تشبه الشرك جمع مصلاة، والمراد ما يستفز به الناس من زينة الدنيا وشهواتها **(وفخوخاً)** جمع فخ آلة يصاد بها، **(وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله)** أي الطغيان عند النعمة، **(والفخر بإعطاء الله)** أي إدعاء العظم والشرف، **(والكبر على عباد الله)** أي التعاظم والترفع عليهم، **(وإتباع الهوى في غير ذات الله)** فهذه الخصال أخلاقه وهي فخوخة ومصائده التي نصبها لبني آدم، فإذا أراد الله بعبد شراً خلى بينه وبين الشيطان فيقع في شبكته، فكان من الهالكين. ومن أراد به خيراً يقظه ليجتنب تلك الخصال ويتباعد عنها ليصير من أهل الكمال هكذا أورده المصنف موقوفاً على النعمان، وقد روي ذلك مرفوعاً من طريقه بلفظ: «البطر بنعم الله والفخر بعطاء الله» والباقي سواء. هكذا رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب، وابن عساكر في التاريخ، وفي الإسناد إسماعيل بن عياش مختلف فيه، والله أعلم.

بيان ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجرّ الثياب:

قال رسول الله ﷺ: « لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً ». وقال ﷺ: « بينما رجل يتبختر في بردته إذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم

بيان ذم الإختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب:

(قال ﷺ: « لا ينظر إلى رجل يجر إزاره بطراً ») هكذا في سائر النسخ، وفي نسخة العراقي: « لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطراً » وقال: متفق عليه من حديث أبي هريرة. وقال في التقريب: وعن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطراً » قال ولده الولي العراقي في شرحه على كتاب والده: أخرجه البخاري من هذا الوجه من طريق مالك، وأخرجه مسلم والنسائي من طريق شعبة، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، وابن ماجه من رواية محمد بن عمر. وعن أبي سلمة عن أبي هريرة بلفظ: « من الخيلاء » اهـ.

وقال السيوطي في المعجم الكبير حديث: « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه بطراً » رواه البخاري، وأحمد، والبيهقي من حديث أبي هريرة، ومعنى كون الله لا ينظر إليه نظر رحمة ونظره سبحانه لعباده رحمته لهم ولطفه لهم، فعبر عن المعنى الكائن عن النظر بالنظر لأن من نظر إلى متواضع رحمه، ومن نظر إلى متكبر مقته فالنظر إليه اقتضى الرحمة أو المقت، وأما التقييد بيوم القيامة فلأنه محل الرحمة العظيمة المستمرة التي لا تنقطع عن المرحوم.

(وقال ﷺ: « بينما رجل يتبختر في برديه) مثنى برد بضم فسكون نوع من الثياب معروف. قال في المحكم: ثوب فيه خطوط وخصّ بعضهم به الموشّى والجمع إبراد وأبرد وبرود وفي رواية في ردين، **(وقد أعجبته نفسه)** وفي رواية قد أعجبته جمته وبرداه كما سيأتي **(خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها)** أي يتحرك وينزل مضطرباً قاله الخليل **(إلى يوم القيامة »)** وفي رواية حتى يوم القيامة فيه فوائد.

الأولى: أخرجه مسلم من طريق همام عن أبي هريرة، ومن طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. وأخرجه من طريق أبي رافع عن أبي هريرة بلفظ: « إن رجلاً فيمن كان قبلكم يتبختر في حلة » الحديث واتفق عليه الشيخان من طريق شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة بلفظ: « بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه رجل جمته إذ خسف به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة » لفظ البخاري ولم يسق مسلم لفظه. وأخرجه أيضاً من طريق الربيع بن مسلم، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة بلفظ: « بينما رجل يمشي قد أعجبته نفسه جمته وبرداه » وأخرجه البخاري من طريق سالم بن عبدالله بن عمر عن أبي هريرة.

الثانية: قد يحتمل أن هذا الرجل من هذه الأمة فاخبر النبي ﷺ بأنه سيقع هذا. وقيل: بل

القيامة » ، وقال ﷺ : « من جرَّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » . وقال زيد بن

هو اخبار عمن قبل هذه الأمة. قال عياض، وهذا أظهر. وقال النووي: وهذا هو الصحيح وهو معنى إدخال البخاري له في ذكر بني إسرائيل. قال الولي العراقي: قد صرح به في رواية مسلم المتقدمة حيث قال فيها « إن رجلا ممن كان » وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده عن كريب قال: كنت أقود ابن عباس في زقاق أبي لهيب فقال: يا كريب بلغنا مكان كذا وكذا. قلت: أنت عنده الآن. فقال: حدثني العباس بن عبد المطلب قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ في هذا الموضع إذ أقبل رجل يتبختر بين بردين وينظر بين عطفيه قد أعجبته نفسه إذ خسف الله به الأرض في هذا الموطن فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ولم يسق مسلم لفظه. وأخرجه أيضاً من طريق الربيع عن محمد بن زياد.

قلت: وروى الطبراني في الكبير من حديث أبي جري الهجيمي بلفظ: « إن رجلاً ممن كان قبلكم لبس بردة فتبختر فيها فنظر الله إليه من فوق عرشه فمقته فأمر الأرض فاخذته فهو يتجلجل فأحذرك مقت الله عز وجل ». وروى ابن عساكر: « إن رجلاً في الجاهلية جعل يتبختر وعليه حلة قد لبسها فأمر الله عز وجل الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ». هكذا أورده السيوطي في المعجم الكبير ولم يذكر صحابيه وبيض له فليحرر ولعله أبو هريرة.

الثالثة: قال أبو العباس القرطبي: البردان الرداء والإزار وهذا على طريقة تثنية العمرين والقمرين انتهى قال الولي العراقي: وفي تعيينه أن البردين إزار ورداء نظر. لقوله: إنه كالعمرين والقمرين مردود لأن ذلك فيه تغليب، وهذا لا تغليب فيه بل كان من مفرديه بُرد، ولو قيل للرداء والإزار إزاران أو رداءان لكان من باب التغليب.

الرابعة: قال أبو العباس القرطبي: إعجاب الرجل بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان منة الله فإن رفعها على الغير واحتقره فهو الكبر المذموم.

الخامسة: في الرواية التي فيها حتى يوم القيامة يوم القيامة مجرور بحتى، وهي دالة على انتهاء الغاية بشرط كون المجرور بها آخر جزء أي في آخر جزء ذكره الزمخشري. وطائفة من المغاربة وابن مالك في شرح الكافية ولم يشترط ذلك في التسهيل.

السادسة: قال أبو العباس القرطبي: يفيد هذا الحديث ترك الأمن من تعجيل المؤاخذة على الذنوب، وأن عجب المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرام وكبيرة، والله أعلم.

(وقال ﷺ : « من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة ») أغفله العراقي، وقد رواه أحمد والشيخان والأربعة من حديث ابن عمر، ورواه ابن ماجه أيضاً من حديث أبي سعيد، ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة، ورواه الطيالسي ومسلم أيضاً بلفظ: « من جرَّ إزاره لا يريد بذلك إلا الخيلاء فإن الله لا ينظر إليه » ويروى: « من جر ثيابه من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، وبينا رجل يمشي بين بردين مختالاً خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم

أسلم: دخلت على ابن عمر فمرَّ به عبدالله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول: أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينظر الله إلى من جرَّ إزاره

القيامة» هكذا رواه أحمد، وأبو يعلى، والضياء من حديث أبي سعيد. ويروى «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه في حلال ولا في حرام» هكذا رواه الطبراني من حديث ابن مسعود.

(**وقال زيد بن أسلم**) أبو عبدالله العدوي مولى عمر بن الخطاب مدني ثقة عالم مات سنة ست وثلاثين روى له الجماعة: (**دخلت على ابن عمر**) يعني به عبدالله (**فمر به عبدالله بن واقد**) بن عبدالله بن عمر بن الخطاب فهو حفيده ابن ابنه مدني مقبول، مات سنة تسع عشرة، روى له مسلم وأبو داود وابن ماجه، (**وعليه ثوب جديد فسمعته يقول: أي بني ارفع إزارك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء»**) قال العراقي: رواه مسلم مقتصراً على المرفوع دون ذكر: مرور عبدالله بن واقد على ابن عمر. وفي رواية لمسلم: إن المار رجل من بني ليث غير مسمى انتهى.

قلت: رواه الشيخان والترمذي من طريق مالك عن نافع وعبدالله بن دينار وزيد بن أسلم كلهم يخبرون عن عبدالله بن عمر بهذا اللفظ. ورواه مسلم والنسائي وعلقه البخاري من طريق الليث بن سعد. ورواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أيوب السختياني، وزاد الترمذي والنسائي في روايتها فقالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بـذيولهن؟ فقال: «يرخين شبراً» فقالت: إذاً تنكشف اقدامهن قال فيرخينـه ذراعاً لا يزدن عليه». وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه مسلم والنسائي وابن ماجه من رواية أسامة بن زيد الليثي، وعمرو بن محمد العمري خمستهم عن نافـع وزادوا فيه «يوم القيامة» وفي رواية البخاري وأبي داود والنسائي فقال أبو بكر: إن أحد شقي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال رسول الله ﷺ: «إنك لست تصنع ذلك خيلاء». واتفق عليه الشيخان والنسائي من رواية محارب بن دثار، ومسلم والنسائي من رواية جبلة بن سحيم ومسلم ابن يساف، ومسلم أيضاً من رواية زيد بن محمد العمري، وعلقه البخاري من رواية زيد بن عبدالله، وجبلة بن سحيم أيضاً. وابن ماجه من رواية عطية العوفي كلهم عن ابن عمر. وفي الحديث فوائد:

الأولى: الخيلاء بضم الخاء وحكى كسرها في المحكم وغيره والياء مفتوحة ممدوداً. قال النووي: قال العلماء: الخيلاء والمخيلة والبطر والزهو والتبختر كلها بمعنى واحد وهو حرام، ويقال: خال الرجل خالاً واختال اختيالاً إذا تكبر وهو رجل خال أي متكبر وصاحب خال أي صاحب كبر انتهى.

وقال العراقي في شرح الترمذي: وكأنه مأخوذ من التخيل إلى الظن وهو أن يخيل له أنه بصفة عظيمة بلباسه لذلك اللباس أو لغير ذلك.

الثانية: يدخل في قوله برديه الإزار والرداء والقميص والسراويل والجبة والقباء وغير ذلك مما يسمى ثوباً. في صحيح البخاري عن شعبة قلت لمحارب: إذكر إزاراً قال: ما خص إزاراً ولا

قميصاً . وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « الأسبال في الإزار والقيمص والعمامة من جر شيئاً خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » . وأما الرواية التي فيها ذكر الإزار وهي في الصحيح فخرجت على الغالب من لباس العرب وهو الأزر ، وحكى النووي في شرح مسلم عن محمد بن جرير الطبراني وغيره أن ذكر الإزار وحده لأنه كان عامة لباسهم وحكم القميص وغيره حكمه ، ثم اعترض ذلك بأنه جاء مبيناً منصوصاً فذكر رواية مسلم عن أبيه المتقدمة .

فإن قلت : ما المراد بإسبال العمامة هل هو جرها على الأرض كالثوب ، أو المراد المبالغة في تطويل عذبتها بحيث يخرج عن المعتاد ؟ قال العراقي في شرح الترمذي هو محل نظر ، والظاهر أنه إذا لم يكن جرها على الأرض معهوداً مستعملاً فالمراد الثاني وأنه في كل شيء بحسبه .

الثالثة: هل يختص ذلك بجر الذيول أو يتعدى إلى غيرها كالأكمام إذا خرجت عن المعتاد . وقال العراقي في شرح الترمذي : لا شك في تناول التحريم لما مسّ الأرض منها للخيلاء ، ولو قيل بتحريم ما زاد على المعتاد لم يكن بعيداً ، فقد كان كم رسول الله ﷺ إلى الرسغ ، وكذلك فعل علي في قميص اشتراه لنفسه ، ولكن قد حدث للناس اصطلاح بتطويلها ، فإن كان ذلك على سبيل الخيلاء فهو داخل في النهي ، وإن كان على طريق العوائد المتجددة من غير خيلاء فالظاهر عدم التحريم . وحكى عياض عن العلماء أنه يكره كل ما زاد على الحاجة والمعتاد في اللباس من الطول والسعة .

الرابعة: هذا الوعيد يقتضي أن ذلك كبيرة وقد تقدم عن القرطبي أنه قال: العجب كبيرة والكبير عجب وزيادة . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: بينما رجل يصلي مسبلاً إزاره فقال له رسول ﷺ : « اذهب فتوضأ » فذهب فتوضأ ثم جاء فقال: « اذهب فتوضأ » فقال له رجل: يا رسول الله مالك أمرته أن يتوضأ ثم سكت عنه ؟ قال: « أنه كان يصلي وهو مسبل إزاره إن الله لا يقبل صلاة رجل مسبل » .

وفي الأوسط للطبراني من حديث جابر خرج علينا رسول الله ﷺ فذكر حديثاً فيه « فإن ريح الجنة لتوجد من مسيرة ألف عام وأنه لا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء إنما الكبرياء لله رب العالمين » .

الخامسة: التقييد بالخيلاء يخرج ما إذا جرّ بغير هذا القصد ، ويقتضي أنه لا تحريم فيه . قال النووي في شرح مسلم: ظواهر الحديث في تقييدها بالجر خيلاء يدل على أن التحريم مخصوص بالخيلاء ، وهكذا نص الشافعي عليه . وأما القدر المستحب فنصف الساقين والجائز كراهة ما تحته إلى الكعبية وما تحتها فهو ممنوع ، فإن كان للخيلاء فهو ممنوع منع تحريم ، وإلا فمنع تنزيه . وأما الأحاديث المطلقة بأن ما تحت الكعبين في النار فالمراد بها ما كان للخيلاء لأنه مطلق فوجب حمله على المقيد .

خيلاء ». وروي: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً على كفه ووضع اصبعه عليه وقال: « يقول الله تعالى: ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق! وأني أوان الصدقة ». وقال ﷺ: « إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمتهم فارس

السادسة: يستثنى من جره ما إذا كان ذلك حالة القتال فيجوز كما ورد ذلك في الخبر أن فيه إعزاز الإسلام وظهوره واحتقاره عدوه وغيظه بخلاف ما فيه احتقار المسلمين وغيظهم والاستعلاء عليهم، والظاهر أيضاً جوازه بلا كراهة دفعاً لضرر يحصل له كأن يكون تحت كعبه جراح أو حكة ونحو ذلك إن لم يغطها تؤذه الهوام كالذباب ونحوه بالجلوس عليها، ولا يجد ما يسترها به إلا إزاره أو رداءه أو قميصه، فقد أذن ﷺ للزبير وابن عوف في لبس قميص الحرير من حكة كانت بهما ولكعب في حلق رأسه وهو محرم لما آذاه القمل مع تحريم لبس الحرير لغير عارض وتحريم حلق الرأس للمحرم، وهذا كما يجوز كشف العورة للتداوي وغير ذلك من الأسباب المبيحة للرخص ذكره العراقي في شرح الترمذي.

السابعة: إن قلت في الصحيح من حديث ابن مسعود: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال: « إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس » فالجار لثوبه فوق الكعبين مظهراً للتجمل بذلك معجباً بحسن ملبسه ونضارة رونقه لم يتكبر عن قبول الحق ولم يحتقر أحداً، فكيف جعل كبره مذموماً؟ قلت: الذم إنما ورد فيمن فعل ذلك كبراً بأن فعله غير قابل للنصيحة النبوية ولا مكترثاً بالتأديب الإلهي أو محتقراً لمن ليس على صفته التي رآها حسنة بهجة، فإن لم يوجد واحد من الأمرين، وإنما أعجبه رونقه غافلاً عن نعمة الله تعالى فهو العجب على ما تقدم بيانه، فإن استحضر مع استحسانه لهيئته وإعجابه لملبوسه نعمة الله عليه بذلك وخضع لها فليس هذا كبراً ولا إعجاباً ولم يرد في الحديث ذمه، والله أعلم.

(وروى أن رسول الله ﷺ بزق يوماً على كفه ووضع أصبعه عليه وقال: « يقول الله تعالى ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه) يعني النطفة **(حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين)** أي معجباً بنفسك **(وللأرض منك وئيد)** أي وطء ثقيل ومنه قول الزباء:

ما للجمال مشيها وئيدا ... أجندلاً تحملن أم حديدا

(جمعت) الأموال **(ومنعت)** الحقوق **(حتى إذا بلغت)** الروح **(التراقي)** جمع ترقوة وهي عظام العنق **(قلت أتصدق! وأني أوان الصدقة »)** قال العراقي: رواه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث بسر بن جحاش انتهى.

قلت: ورواه أيضاً أحمد، وابن سعد، وابن أبي عاصم، والباوردي، وابن قانع، وسمويه،

والروم سلط الله بعضهم على بعض». قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال. وقال ﷺ: «من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان».

الآثار: عن أبي بكر الهذلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مرّ علينا ابن الأهتم يريد

والطبراني والبيهقي، وأبو نعيم، والضياء ولفظهم جميعاً: «يقول الله يا ابن آدم أني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذا» والباقي سواء وبسر بضم فسين مهملة وأهل الشام يقولون بشر وهو صحابي عبدري قرشي، وإسناد أحمد وابن ماجه صحيح.

(**وقال** ﷺ: «**إذا مشت أمتي المطيطاء**) بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة تحتيه مصغراً يمد ويقصر أي تبختروا في مشيتهم عجباً واستكباراً (**وخدمتهم فارس والروم**) أي فتحت بلادهم فأسرت منها الذكور والإناث (**سلط الله بعضهم على بعض**») قال العراقي: رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمرانتهى.

قلت: سياق المصنف رواه الطبراني من حديث أبي هريرة وإسناده حسن، وأما لفظ الترمذي: إذا مشت أمتي المطيطاء وخدمها أبناء الملوت أبناء فارس والروم سلط الله شرارها على خيارها» وقال: غريب وفيه زيد بن الحباب وموسى بن عبيد قد ضعفا، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، فإنهم لما فتحوا بلاد فارس والروم وأخذوا ما لهم واستخدموا أولادهم سلّط عليهم قتلة عثمان فقتلوا عثمان، ثم سلط بني أمية على بني هاشم ففعلوا ما فعلوا. قال الميداني والعسكري: لم تعرف الجاهلية اللواط قبل الإسلام، وإنما حدث في صدره حين كثر الغزو وطالت غيبتهم عن نسائهم وسبوا أبناء فارس والروم واستخدموهم وطالت خلوتهم بهم، فرأوهم يجزؤن عن النساء في الجملة ففعلوه.

(**قال ابن الأعرابي**) أحد أئمة اللغة: (**هي**) أي المطيطاء (**مشية فيها اختيال**) هكذا رواه عنه غير واحد من الأئمة. وقال الزمخشري: ممدودة مقصور بمعنى التمطي وهو التبختر ومد اليدين، وأصل التمطي التمطط تفعل من المط وهو المد وهي من المصغرات التي لم يستعمل لها مكبر ككميت انتهى. وقال عياض هي مشية فيها تبختر ومديد من مطه إذا مده وكذا التمطي وهو من المصغرات ولم يستعمل لها مكبر وكالمريطا.

(**وقال** ﷺ: «**من تعظم في نفسه**) أي تكبر وتجبر (**واختال في مشيته**) أي تبختر وأعجب بنفسه (**لقي الله وهو عليه غضبان**) فإن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه». قال العراقي: رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر انتهى.

قلت: وكذلك رواه البخاري في الأدب المفرد. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وقال المنذري: رواته محتج بهم في الصحيح.

(**الآثار: عن أبي بكر**) سلمى بن عبد الله بن سلمى (**الهذلي**) البصري، وهو ابن بنت ابن

المقصورة وعليه جباب خزقد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف شامخ بأنفه ثاني عطفه مصعّر خده ينظر في عطفيه، أي حميق أنت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدي حق الله منها، والله أن يمشي أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان به لفتة، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال: لا تعتذر إلى وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ وَلَنْ تبلغَ الجبالَ طولاً﴾ [الإسراء: ٣٧] ومرَّ بالحسن شاب عليه بزة

عبد الرحمن الحميري، روى عن قتادة بن دعامة، وعنه اسماعيل بن عياش. قال الحافظ في التهذيب: اخباري متروك الحديث مات سنة سبع وستين روى له ابن ماجه **(قال: بينا نحن مع الحسن)** يعني البصري **(إذ مرّ علينا ابن الاهتم)** إذا أطلق يصرف إلى عمرو بن الأهتم بن سمي ابن خالد بن منقر بن عبيد بن مقاعس التميمي المنقري كان خطيباً جيلاً بليغاً شاعراً شريفاً في قومه له صحبة، وهو الذي يخاطب الزبرقان بن بدر بقوله:

طلبت مفترش الهلباء تشتمني عند النبي فلم تصدق ولم تصب

ولكن يبعد خطاب الحسن البصري الآتي ذكره وهو أصغر سناً وقدراً مع مثله وهو صحابي أكبر منه سناً وقدراً، فالظاهر أن المراد به أحد بني إخوته. إما شيبة بن سعد بن الأهتم، وإما المدمل بن خاقان بن الأهتم، وإما خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم، وكلهم من البلغاء المشهورين فليحرر ذلك. **(يريد المقصورة)** وهو الموضع الذي جعل شبه القصر على يمين المحراب أحدثها بنو أمية، **(وعليه جباب خزقد نضض بعضها فوق بعض على ساقه)** أي رتبها واحدا فوق واحد، **(فانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر)** أي يميل يميناً وشمالاً، **(إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف شامخ بأنفه)** وهو كناية عن المتكبر يقال: شمخ بأنفه إذا تكبر **(مصعّر خده)** يقال: صعر خده بالتشديد وصاعره ماله عن الناس إعراضاً وتكبراً **(ينظر في عطفيه)** أي جانبيه والجمع اعطاف، **(أي حميق)** أي يا أحمق وهو مصغر أحمق بتشديد التحتية المكسورة **(أنت تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدي حق الله منها، والله أن يمشي أحدكم طبيعته يتخلج تخلج المجنون)** أي يضطرب اضطرابه **(في كل عضو من أعضائه لله نعمة، وللشيطان فيه لعقة، فسمع ابن الأهتم)** هذا الكلام **(فرجع يعتذر إليه فقال)** الحسن: **(لا تعتذر اليَّ وتب الى ربك. أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ولا تَمْشِ في الأرْضِ مرحاً إنك لنْ تخرُقَ الأرض ولَنْ تبلغَ الجبالَ طُولاً﴾)** أخرجه أبو نعيم في الحلية.

له حسنة فدعاه فقال له: ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله، كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك! داوِ قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

وروي أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف، فنظر إليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه باصبعه ثم قال: ليست هذه مشية من في بطنه خرء فقال عمر كالمعتذر! يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها. ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم. وأما أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله! ورأى ابن عمر رجلاً يجرّ إزاره فقال: إن للشيطان اخواناً ـ كررها مرتين أو ثلاثاً ـ ويروى أن مطرف بن عبدالله بن الشخير رأى المهلب

(**ومر بالحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**شاب عليه بزة حسنة**) البزة بالكسر الهيئة (**فدعاه فقال: ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله** كأنّ **القبر قد وارى بدنك وكأنك وقد لاقيت عملك. ويحك! داوِ قلبك فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم**) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(**وروي أن عمر بن عبد العزيز**) بن عبد الملك بن مروان الأموي رحمه الله تعالى (**حج قبل أن يستخلف**) وذلك في زمن عمه ابن سليمان بن عبد الملك، (**فنظر إليه طاوس**) اليماني رحمه الله تعالى (**وهو يختال في مشيته فغمز جنبه بإصبعه ثم قال: ليست هذه مشية من في بطن خرء**) وفي بعض النسخ من في قلبه خير، (**فقال عمر كالمعتذر**) له: (**يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها**) أخرجه أبو نعيم في الحلية. (**ورأى محمد بن واسع**) البصري رحمه الله تعالى (**ولده يختال فدعاه فقال: أتدري من أنت؟ أما أمك فاشتريتها بمائتي درهم، وأما أبوك فلا أكثر الله في الإسلام**) وفي نسخة في المسلمين (**مثله**) قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أحمد بن محمد بن شيبان، حدثنا أبو العباس السراج، حدثنا أبو العباس بن أبي طالب، حدثنا عبد الله بن عيسى الطفاوي، حدثنا محمد بن عبد الله الزراد أبو يحيى قال: نظر محمد بن واسع إلى ابن له يخطر بيده فقال له: ويحك تدري ابن من أنت؟ أمك اشتريتها بمائتي درهم وأبوك فلا كثر الله في المسلمين ضربه أو نحوه، وأخرج أيضاً من طريق الأصمعي قال: آذى ابن لمحمد بن واسع رجلاً فقال له محمد: أتؤذيه وأنا أبوك، وإنما اشتريت أمك بمائة درهم.

(**ورأى ابن عمر**) رضي الله عنه (**رجلاً يجرّ إزاره**) أي إختيالاً (**فقال: إن للشيطان إخواناً ـ كررها مرتين أو ثلاثاً ـ**) وإنما قيدناه بكونه إختيالاً لأن من جره من غير هذا القصد فإنه لا يحرم عليه كما تقدمت الإشارة إليه. وبوّب البخاري في صحيحه باب من جرّ إزاره

وهو يتبختر في جبة خزّ، فقال: يا عبد الله هـذه مشية يبغضها الله ورسوله، **فقال له** المهلب، أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك أو لك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته تلك. **وقال مجاهد في قوله تعالى:** ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ [القيامة: ٣٣] أي يتبختر وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال، فلنذكر فضيلة التواضع، والله تعالى أعلم.

من غير خيلاء وأوردفيه حديث أبي بكر لما قال: يا رسول الله إن أحد شقي ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال له النبي ﷺ: «إنك لست تصنع ذلك خيلاء». وحديث أبي بكرة خسفت الشمس ونحن عند النبي ﷺ فقام يجر ثوبه مستعجلاً حتى أتى المسجد الحديث. **(ويروى أن مطرف بن عبد الله)** بن الشخير الحرشي البصري التابعي العابد الثقة **(رأى المهلب)** بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي **(وهو يتبختر في جبة خز فقال: يا عبد الله)** سماه بأعم أسمائه اذ كل الناس عبيد الله عز وجل **(هذه مشية يبغضها الله عز وجل ورسوله، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك أوّلك نطفة مذرة)** أي متغيرة **(وآخرك جيفة قذرة)** أي نتنة **(وأنت بين ذلك تحمل العذرة)** بفتح العين المهملة وكسر الذال المعجمة الخرء ولا يعرف تخفيفها. **(فمضى المهلب وترك مشيته)**. هكذا في نسخ الكتاب من رواية مطرف بن عبد الله.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة مالك بن دينار فقال: حدثنا الحسن بن علي بن الخطاب الوراق، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا إبراهيم بن العباس الكاتب، حدثنا الأصمعي قال: مرَّ المهلب بن أبي صفرة على مالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته فقال له مالك: ما علمت إلا هذه المشية تكره إلا بين الصفين فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال مالك: أعرفك أحسن المعرفة. قال: وما يعرفك مني؟ قال: أما أوّلك فنطفة مذرة، وأما آخرك فجيفة قذرة، وأنت بينهما تحمل العذرة. قال: فقال المهلب الآن عرفتني حق المعرفة. وأخرج من طريق سلام بن مسكين عن مالك بن دينار أنه لقي بلال بن أبي بردة والناس يطوفون حوله فقال: أما تعرفني؟ قال: بلى أعرفك أوّلك نطفة وأوسطك جيفة وأسفلك دودة. قال: فهموا به أن يضربوه فقال لهم: أنا مالك بن دينار فركب ومضى.

(وقال مجاهد) رحمه الله تعالى **(في قوله تعالى: ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ أي يتبختر)** أصله يتمطط وهو تفعل من المط وهو المد وأصله أن يمد يديه في حالة المشي. **(وإذ ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر)** الآن **(فضيلة التواضع)** وما فيه من الاخبار والآثار، والله الموفق.

بيان فضيلة التواضع:

قال رسول الله ﷺ: « ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »، وقال ﷺ: « ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فإن هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا: اللهم ضعه وإن وضع نفسه قالا: اللهم ارفعه »، وقال ﷺ:

بيان فضيلة التواضع:

وهو تفاعل من الوضع بمعنى الخشوع والذل، والفرق بين التواضع والضعة أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته، والضعة وضع الإنسان نفسه بمحل يزرى به، والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح، ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح قاله الراغب. وقال ابن القيم: الفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله وصفاته ومحبته وإجلاله وبين معرفته بنفسه ونقائصها وعيوب عمله وآفاتها فيتولد من ذلك خلق هو التواضع، وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق والمهانة الدناءة والخسة وابتذال النفس في نيل حظوظها كتواضع الفاعل للمفعول به.

قال رسول الله ﷺ: « ما زاد الله عبداً بعفو إلاَّ عزاً وما تواضع أحد إلا رفعه الله ») قال العراقي: رواه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم. **(وقال ﷺ: « ما من أحد)** « ما » نافية و « من » زائدة وهي هنا تفيد عموم النفي وتحسين دخول ما على النكرة. **(إلا ومعه ملكان)** موكلان به **(وعليه حكمة)** محركة وهي نحو لجام الدابة سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى يمنعها الجماح ونحوه، ومنه اشتقاق الحكمة بالكسر لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل **(يمسكانه بها فإن هو رفع نفسه)** على غيره واستعلى **(جبذاها ثم قالا: اللهم ضعه)** وهو كناية عن إذلاله **(وإن وضع نفسه)** للحق والخلق **(قالا: اللهم ارفعه »)** وهو كناية عن إعزازه ورفع قدره. قال العراقي رواه العقيلي في الضعفاء، والبيهقي أيضاً من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف اهـ.

قلت حديث ابن عباس رواه الطبراني في الكبير، وحديث أبي هريرة رواه البزار. قال المنذري والهيتمي: إسنادهما حسن، وتبعهما السيوطي فرمز لحسنه، ولفظهما « ما من آدمي إلا وفي رأسه حكمة بيد ملك فإذا تواضع قيل للملك ارفع حكمته وإذا تكبر قيل للملك ضع حكمته ». لكن قال ابن الجوزي: حديث لا يصح. وروى الخرائطي في مساوىء الأخلاق، والحسن ابن سفيان في مسنده، وابن لال في مكارم الأخلاق والديلمي من حديث ابن عباس « ما من آدمي إلا وفي رأسه سلسلتان سلسة في السماء السابعة وسلسلة في الأرض السابعة، فإذا تواضع رفعه الله بالسلسلة إلى السماء السابعة، وإذا تجبر وضعه الله بالسلسلة إلى الارض السابعة ». وقد روي ذلك من حديث أنس عند ابن صصري في أماليه بلفظ « ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك فإذا تواضع رفعه الله وإن ارتفع قمعه الله والكبرياء رداء الله فمن نازع الله

« طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنفق مالاً جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة »، وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده؛ قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل. فقال: « ما هذا؟ » قلنا: يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً من عسل فوضعه وقال: « أما إني لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله، ومن اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله ».

قمعه ». وعند أبي نعيم في الحلية والديلمي بلفظ: « ما من آدمي إلا وفي رأسه حكمة بيد ملك فإن تواضع رفعه بها وقال ارتفع رفعك الله وإن رفع نفسه جذبه إلى الأرض وقال اخفض خفضك الله ».

(وقال ﷺ: « **طوبى لمن تواضع في غير مسكنة**) بأن لا يضع نفسه بمكان يزرى به ويؤدي إلى تضييع حق الحق أو الخلق، فالقصد بالتواضع خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين. (**وأنفق مالاً جمعه في غير معصية**) أي صرفه في وجوه الطاعات، (**ورحم أهل الذل والمسكنة**) أي رق لهم وواساهم بمقدوره (**وخالط أهل العفة والحكمة** ») رواه البخاري في التاريخ، والبغوي في معجم الصحابة، والباوردي، وابن قانع، والطبراني، وتمام، والبيهقي، وابن عساكر من رواية نصيح العبسي عن ركب المصري وله صحبة مرفوعاً بلفظ « طوبى لمن تواضع في غير منقصة وذل نفسه في غير مسكنة وأنفق من مال جمعه في غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة ورحم أهل الذل والمسكنة. طوبى لمن ذل نفسه وطاب كسبه وحسنت سريرته وعزل عن الناس شره. طوبى لمن عمل بعلمه وانفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ». وروى بعض ذلك البزار من حديث أنس، وقد تقدم بعضه في كتاب العلم وبعضه في آفات اللسان، وذكرنا هنالك الكلام على روايه ومرتبة الحديث.

(**وعن أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء**) وهو على ميلين من المدينة من جهة الجنوب، (**وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل، فلما رفعه فذاقه وجد حلاوة العسل فقال: « ما هذا؟ قلنا: يا رسول الله جعلنا فيه شيئاً من عسل فوضعه**) من يده على الأرض (**وقال: « اما اني لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله، ومن اقتصد**) أي توسط في معيشته (**أغناه الله، ومن بذر**) أي فرق ماله في غير موضعه (**أفقره الله، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله** ») قال العراقي: رواه البزار من رواية طلحة بن عبيد الله عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله « ومن أكثر ذكر الله أحبه الله » ولم يقل بقباء. وقال الذهبي في الميزان: إنه خبر منكر وقد تقدم، ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت: أتي رسول الله ﷺ بقدح فيه لبن وعسل الحديث. وفيه: « أما

وروي: أن النبي ﷺ كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فأذن له، فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه ثم قال له: أطعم فكأن رجلاً من قريش اشمأز منه وتكرهه فما مات ذلك الرجل حتى كانت به

أني لا أزعم أنه حرام» الحديث وفيه «ومن أكثر ذكر الموت أحبه الله» وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله «ومن بذر أفقره الله» وذكر فيه قوله «ومن أكثر ذكر الله أحبه الله» وتقدم في ذم الدنيا اهـ.

قلت: هو في نوادر الأصول للحكيم الترمذي من طريق محمد بن علي أن رسول الله ﷺ أتاه أوس بن خولي بقدح فيه لبن وعسل فوضعه وقال: «أما اني لا أحرمه ولكن أتركه تواضعاً لله فإن من تواضع لله رفعه الله، ومن اقتصد أغناه، ومن بذر أفقره الله». وروى ابن منده في معجم الصحابة، وأبو عبيد من حديث أوس بن خولي: «من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله» وقال البغوي: لا أعلم لأوس بن خولي حديثاً مسنداً. قال الحافظ: بل له حديث مسندٌ أورده ابن منده من طريق عبد بن أبي هالة، عن أوس بن خولي أن النبي ﷺ قال له: «من تواضع لله رفعه الله» وفي إسناده خارجة بن مصعب وهو ضعيف، وفيه من لا يعرف أيضاً. وروى أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة «من تواضع لله رفعه الله» وزاد ابن النجار «ومن اقتصد أغناه الله ومن ذكر الله أحبه الله» وروى ابن شاهين في الترغيب في الذكر من حديثه بسند رجاله ثقات «من أكثر ذكر الله أحبه الله»).

(**وروي أن النبي ﷺ كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة**) وهو مرض يدوم زماناً طويلاً (**يتكره منها**) وفي نسخة منكرة (**فأذن له، فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه ثم قال: «أطعم**) أي كُلْ (**وكان رجلاً من قريش اشمأز منه وتكرهه فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها»**) قال العراقي: لم أجد له أصلاً والموجود أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر. وقال الترمذي: غريب اهـ.

وما روي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رفعه قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر واتقوا المجذوم كما يتقي الأسد» فالمعنى الفرار منه خوفاً من العدوى لا كما يتوهمه العامة، ثم أن هذا في حق ضعيف اليقين، وإلاَّ فقد ورد: لا يعدى شيء شيئاً ولا عدوى، ونحو ذلك كما قرر في محاله. ويؤيد الجملة الأخيرة من الحديث ما رواه البيهقي عن يحيى بن جابر قال: ما عاب رجل قط رجلاً بعيب إلا ابتلاه الله بذلك العيب. وعن إبراهيم النخعي قال: إني لأرى الشيء فأكرهه فلا يمنعني أن أتكلم فيه إلا مخافة أن ابتلي بمثله. ويروى عن ابن مسعود قال: لو سخرت من كلب خشيت أن أحوّل كلباً. وقال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلاً يرضع عنزاً فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل ما صنع، إلى غير ذلك مما تقدم بعضه.

زمانة مثلها » ، وقال ﷺ : « خيرني ربي بين أمرين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً فلم أدرِ أيهما اختار وكان صفيي من الملائكة جبريل فرفعت رأسي إليه فقال: تواضع لربك فقلت عبداً رسولاً » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكرى وكف نفسه عن الشهوات من أجلي، وقال ﷺ : « الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى » ،

(وقال ﷺ : « خيرني ربي بين أمرين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً نبياً فلم أدر أيهما أختار ، وكان صفيي من الملائكة جبريل) عليه السلام والصفي كغني هو من يصطفيه الإنسان لنفسه بالصحبة والمحبة ويختاره ، **(فرفعت رأسي)** كالمستشير إليه **(فقال: تواضع لربك فقلت: عبداً رسولاً)** قال العراقي: رواه أبو يعلى من حديث عائشة ، والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف اهـ.

قلت: ورواه هناد في الزهد من مرسل الشعبي بلفظ « خيرني ربي بين أن أكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً ولم أدر ما أقول، وكان صفيي من الملائكة جبريل فنظرت إليه فقال بيده: أن تواضع فقلت: نبياً عبداً » .

(وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام) يا موسى **(إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي)** رواه الديلمي من حديث حارثة بن وهب رفعه « قال الله عز وجل: ليس كل مصل يصلي إنما أتقبل الصلاة ممو تواضع لعظمتي وكف شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب » كل ذلك لي الحديث. وروى الدار قطني في الأفراد من حديث علي: يقول الله تعالى إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ولم يتكبر على خلقي وقطع نهاره بذكري ولم يبت مصراً على خطيئته يطعم الجائع ويؤوي الغريب ويرحم الصغير ويوقر الكبير، فذلك الذي يسألني فاعطيه الحديث وقد تقدم.

(وقال ﷺ « الكرم التقوى والشرف التواضع) أي أن الناس متساوون وأن أحسابهم إنما هي بأفعالهم لا بأنسابهم **(واليقين الغنى »)** فإن العبد إذا تيقن أن له رزقاً قدر له لا يتخطاه عرف أن طلبه لما لم يقدر له عناء لا يفيد سوى الحرص والطمع المذمومين فقنع برزقه وشكر عليه. قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين مرسلاً ، وأسند الحاكم أوّله من رواية الحسن عن سمرة وقال: صحيح الإسناد اهـ.

قلت: رواه ابن أبي الدنيا في الكتاب المذكور من مرسل يحي بن أبي كثير ، ورواه العسكري في الأمثال من قول عمر بلفظ « الكرم التقوى والحسب المال لست بخير من فارسي ولا نبطي إلا بتقوى الله » ويروى « الحسب المال والكرم التقوى » هكذا رواه أحمد وعبد بن حميد في تفسيره والترمذي وقال: حسن صحيح غريب ، وابن ماجه ، والطبراني ، والحاكم والبيهقي والضياء من

وقال المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة. وقال بعضهم: بلغني أن النبي ﷺ قال: «إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله»، وقال ﷺ: «أربع لا يعطيهن الله إلا من أحب: الصمت وهو أوّل العبادة، والتوكل على الله. والتواضع،

حديث سمرة، وهذا هو الذي أشار إليه العراقي. ورواه القضاعي من حديث بريدة، ورواه العسكري في الأمثال، والطبراني، وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة، ورواه الطبراني وابن جرير وصححه الخطيب من حديث علي، ورواه الطبراني من حديث جابر.

(**وقال عيسى عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة، طوبى للمخلصين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله يوم القيامة**). أخرجه أحمد في الزهد من طريق خيثمة. وقال بعضهم: بلغني أن النبي ﷺ قال: «إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسن صورته» أي في ظاهر ما يرى (**وجعله في موضع غير شائن له**) من الشين وهو العيب أي لا يكون في نسبه دخلة (**ورزقه مع ذلك تواضعاً فذلك من صفوة الله**») أي ممن اصطفاه الله واختاره. قال العراقي: رواه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه، وفيه المسعودي يختلف فيه اهـ.

قلت: وروى ابن النجار من حديث أنس «من حسن الله خلقه وحسن خلقه ورزقه الإسلام أدخله الجنة».

(**وقال** ﷺ: «**أربع**) خصال (**لا يعطيهن الله إلا من يحب**) وفي نسخة من أحب (**الصمت**) أي السكوت عما لا ينبغي أو ما لا يعنى المتكلم، (**وهو أول العبادة**) أي مبناها وأساسها لأن اللسان هو الذي يكب الناس على مناخرهم. (**والتوكل على الله والتواضع**) أي لين الجانب للخلق على طبقاتهم ورؤية الإنسان نفسه حقيراً صغيراً، (**والزهد في الدنيا**») أي القلة فيها. قال العراقي: رواه الطبراني والحاكم من حديث أنس: «أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة، والتواضع وذكر الله، وقلة الشيء» قال الحاكم صحيح الإسناد. قلت: فيه العوّام بن جويرية. قال ابن حبان: يروي الموضوعات ثم روى له هذا الحديث اهـ.

قلت: وكذلك رواه البيهقي، ورواه ابن عساكر موقوفاً، ومعنى كونهن لا يصبن إلا بعجب أي لا توجد وتجتمع في إنسان في آن واحد إلا على وجه عجيب يتعجب منه لعظم موقعه لكونها قلّ أن تجتمع، فإن الغالب على الزاهد في الدنيا قلة ما ينفق منه على نفسه ودونه، فيظهر الشكوى والتضجر ويمنع صرف الهمة إلى الذكر فاجتماعها شيء عجيب لا يحصل إلا بتوفيق إلهي وإمداد

والزهد في الدنيا »، وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة »، وقال ﷺ: « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله »، ويروى إن رسول الله ﷺ كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه »، وقال ﷺ: « إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده يكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه »،

سماوي، وقد شنع الذهبي والمنذري على الحاكم في الحكم بتصحيحه، فذكر الذهبي في الميزان في ترجمة العوّام بن جويرية بعد أن تعجب من إخراجه له. وقال ابن عدي: الأصل في هذا أنه موقوف على أنس وقد رفعه بعض الضعفاء عن أبي معاوية حميد بن الربيع، وقد قال يحيى حميد كذاب.

(**وقال ابن عباس**) رضي الله عنه: (**قال ﷺ: « إذا تواضع العبد رفعه الله إلى السماء السابعة »**) قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب نحوه، وفيه زمعة بن صالح ضعفه الجمهور اهـ.

قلت: سياق المصنف رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه الكريمي. قال ابن حبان: كان يضع على الثقات. وروى الخرائطي في مساوىء الأخلاق في أثناء حديث: « فإذا تواضع رفعه الله بالسلسلة إلى السماء السابعة » وقد تقدم قريباً.

(**وقال ﷺ: « التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله »**) قال العراقي: رواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس، وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جداً، ولمسلم في أثناء حديث لأبي هريرة: « ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » اهـ.

قلت : سياق المصنف رواه أبو نعيم في الحلية، ومن طريقه الديلمي من حديث أنس إلا أنه قال: « فتواضعوا يرفعكم الله ». ورواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من حديث محمد بن عمير العبدي بزيادة جملتين وهما: « والعفو لا يزيد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله » ومحمد بن عمير العبدي لم أجده في الصحابة.

(**وروي أن رسول الله ﷺ كان يطعم فجاء رجل أسود**) اللون (**به جدري قد**) برىء منه (**وتقشر**) وتقيح (**فجعل لا يجلس إلى أحد إلا قام من جنبه**) تقذراً له وتكرهاً (**فأجلسه رسول الله ﷺ إلى جنبه**) وأكل معه. قال العراقي: لم أجده هكذا، والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبو داود وقال: غريب، وابن ماجه من حديث جابر وقد تقدم.

(**وقال ﷺ: « إنه ليعجبني أن يحمل الرجل شيئاً في يده يكون مهناة**) وفي بعض النسخ مهنة (**لأهله يدفع به الكبر عن نفسه »**) قال العراقي: غريب. قلت: ورد من حديث أبي سعيد كان ﷺ لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعة من لسوق. أورده القشيري في الرسالة. وقال ﷺ: « مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة » قالوا وما حلاوة العبادة؟ قال: « التواضع ». قال العراقي: غريب أيضاً.

وقال النبي ﷺ لأصحابه يوماً: ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة» قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: «التواضع»، وقال ﷺ: «إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار».

الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض وقال اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى انه لأحقر عندهم من الخنزير وقال جرير بن عبدالله: انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد

(وقال ﷺ: «إذا رأيتم المتواضعين فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار») قال العراقي: غريب أيضاً، والمعنى أن المتكبر إذا تواضعت له تمادى في تيهه وإذا تكبرت عليه يمكن أن يتنبه، ومن ثم قال الشافعي: ما تكبر علي متكبر مرتين وقال الزهري: التجبر على أبناء الدنيا أوثق عرى الإسلام، وفي بعض الآثار التكبر على المتكبر صدقة، ويؤيده ما تقدم من حديث ركب المصري طوبى لمن تواضع في غير منقصة وذل في غير مسكنة، ومنه يؤخذ أن الرجل إذا تغير صديقه وتكبر عليه لنحو منصب أن يفارقه ولذلك قيل:

سأصبر عن رفيقي إذا جفاني على كل الأذى إلا الهوان

وقال الشيخ الأكبر قدس سره: الخضوع واجب في كل حال إلى الله باطناً وظاهراً، فإذا اتفق أن يقام في موطن الأولى فيه ظهور عزة الإيمان وجبورته وعظمته لعز المؤمن وعظمته وجبروته ويظهر في المؤمن من الأنفة والجبروت ما يناقض الخضوع والذلة، فالأولى إظهار ما يقتضيه ذلك الموطن، فإن للمواطن أحكاماً فافعل بمقتضاها تكن حكيماً، والله أعلم.

(الآثار: قال عمر رضي الله عنه: إذا تواضع العبد لله رفع الله حكمته وقال: انتعش) أي ارتفع **(رفعك الله، وإذا تكبّر وعدا)** أي تجاوز **(طوره رهصه الله في الأرض)** أي دفعه إليها **(وقال: اخسأ خسأك الله)** والقائل بهذا هو الملك الموكل بالحكمة، **(فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير، حتى أنه لأحقر عندهم من الخنزير)** أوّله. روي مرفوعاً من حديث أنس عند أبي نعيم والديلمي بلفظ «ما من آدمي إلا وفي رأسه حكمة بيد ملك فإن تواضع رفعه بها وقال ارتفع رفعك الله، وإن رفع نفسه جذبه إلى الأرض وقال اخفض خفضك الله» وعند ابن صصري في أماليه بلفظ «فإن تواضع رفعه الله وإن ارتفع قمعه الله». وكل ذلك قد تقدم، وآخره رواه أبو نعيم من حديثه مرفوعاً بلفظ «من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه صغير وفي أنفس الناس عظيم ومن تكبَّر وضعه الله فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير حتى لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير».

(وقال جرير عبد الله) البجلي رضي الله عنه: **(انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم**

جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ثم ان الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة: يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا. وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة، التواضع، وقال يوسف بن أسباط: يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد. وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته. وقال

قد استظل بنطع له) وهو المتخذ من الأدم معروف وفيه أربع لغات فتح النون وكسرها ومع كل واحد فتح الطاء وسكونها والجمع أنطاع ونطوع، **(وقد جاوزت الشمس النطع فسوّيته عليه، ثم إن الرجل استيقظ فإذا هو سلمان الفارسي)** رضي‌الله‌عنه، **(فذكرت له ما صنعت فقال لي: يا جرير تواضع لله في الدنيا فإنه من تواضع لله** في الدنيا رفعه **الله يوم القيامة. يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة، قلت: لا. قال: ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا)**. قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن سليم، حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن جرير قال: قال سلمان: يا جرير تواضع لله فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة. يا جرير هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري. قال: ظلم الناس بينهم في الدنيا. قال: ثم أخذ عويداً لا أكاد أن أراه بين أصبعيه قال: يا جرير لو طلبت في الجنة مثل هذا العود لم تجده. قال: قلت يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب أعلاها الثمر. رواه جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه نحوه.

(وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة التواضع) أي الخشوع لله ولين الجانب للخلق، وإنما كان أفضل العبادة **(لأنه ثمرتها)**. رواه ابن أبي شيبة في المصنف، عن وكيع، عن مسعر، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه عن الأسود، عن عائشة. **(وقال يوسف بن اسباط)** الشيباني رحمه الله تعالى: **(يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد)**. أخرجه أبو نعيم في الحلية، عن أحمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن يحيى بن منده، حدثنا الحسين بن منصور، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا سهل أبو الحسن، سمعت يوسف بن أسباط يقول فذكره **(وقال الفضيل)** بن عياض رحمه الله: **(وقد سئل عن التواضع هو أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من أجهل الناس قبلته)**. ولفظ القشيري في الرسالة: وسئل الفضيل عن التواضع، فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله. وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن يزيد، حدثنا إبراهيم قال: سألت الفضيل ما التواضع؟ قال: ان تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته منه، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه، وسألته ما الصبر على المصيبة؟ قال: أن لا تبث. وأخرج من طريق محمد بن زنبور

ابن المبارك: رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضل. وقال قتادة: من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثناءً أو علماً ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة. وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك. وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها الله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقاً من النار يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه وقيل لعبد الملك بن مروان: أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوّة. ودخل ابن السماك على هارون الرشيد فقال: يا أمير

قال: سئل الفضيل عن التواضع. قال: أن تخضع للحق. **(وقال ابن المبارك)** رحمه الله تعالى: **(رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى يعلم أنه ليس له بدنياه عليك فضل)**. رواه هكذا في كتاب الزهد له. **(وقال)** أبو الخطاب **(قتادة)** بن دعامة البصري رحمه الله تعالى: **(من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثناء)** حسناً بين الناس **(أو علماً)** ينتفع به **(ثم لم يتواضع فيه)** أي فيما أعطيه **(كان عليه وبالاً يوم القيامة)**، فإن هذه نعم من الله عليه والتواضع هو شكرها، فمن لم يتواضع فكأنه بطر بنعم الله تعالى والبطر وبال يوم القيامة. **(وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام)** يا عيسى: **(إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة)** أي الخضوع والتواضع **(أتممها عليك. وقال كعب)** الأحبار رحمه الله تعالى: **(ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقاً من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه)**، ومعناه في المرفوع من حديث ابن عباس عند ابن النجار: «ما أنعم الله عز وجل على عبد من نعمة وأسبغها عليه ثم جعل إليه شيئاً من حوائج الناس فتبرم بها إلا وقد عرض تلك النعمة للزوال». ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمر بلفظ «فقد عرض تلك النعمة لزوالها». **(وقيل لعبد الملك بن مروان)** بن الحكم الأموي القرشي: **(أي الرجال أفضل؟ قال: من تواضع عن قدرة)** أي خضع لجلال الحق وراعى ذلك في الخلق باختيار نفسه من غير الجاء إليه، **(وزهد)** في الدنيا **(عن قدرة)** أي وهو قادر على حوزها ولكنه زهد عنها، **(وترك النصرة)** لنفسه **(عن قدرة)** أي كان قادراً على أن يشفي غيظه بأن ينتصر على أخيه ولكنه ترك ذلك لله تعالى. **(ودخل)** محمد بن صبيح **(بن السماك)** البغدادي الواعظ **(على هارون الرشيد فقال: يا أمير**

المؤمنين ان تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك، فقال: ما أحسن ما قلت، فقال: يا أمير المؤمنين إن امرءاً آتاه الله جمالاً في خلقته وموضعاً في حسبه وبسط له في ذات يده فعف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله، فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده. وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين. وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون فكذلك فأكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة.

وروي أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: أتدرون

المؤمنين إن تواضعك في شرفك) أي انقيادك للعلماء مع هذا الشرف وعلو المقام الذي أنت فيه **(أشرف لك من شرفك، قال)** هارون: **(ما أحسن ما قلت! فقال: يا أمير المؤمنين إن امرءاً آتاه الله جمالاً في خلقه)** بأن كان معتدل التركيب مستوي الخلقة **(وموضعاً في حسبه)** بأن يكون ذا دين وتقوى **(وبسط له في ذات يده)** يعني المال **(فعفّ في جماله)** أي سلك فيه سبيل العفاف بأن لم يدنسه بمحارم الله **(وواسى في ماله)** المحتاجين **(وتواضع في حسبه)** بأن لم يتكبر على إخوانه **(كتب في ديوان الله من خالص عباد الله)**، وفي نسخة: من خالص أولياء الله، **(فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده)**. وروى صاحب الحلية قصة أخرى لابن السماك مع هارون الرشيد تشبهها قال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن موسى، حدثنا محمد ابن بكار قال: بعث هارون الرشيد إلى ابن السماك فدخل وعنده يحيى بن خالد البرمكي فقال يحيى: إن أمير المؤمنين أرسل إليك لما بلغه من صلاح عنك في نفسك وكثرة ذكر منك لربك عز وجل ودعائك للعامة، فقال ابن السماك: أما ما بلغ أمير المؤمنين من صلاح عنا في أنفسنا فذلك بستر الله علينا، فلو اطلع الناس على ذنب من ذنوبنا لما أقدم قلب لنا على مودة، ولاجرى لسان لنا بمدحة وإني لأخاف أن أكون بالستر معروفاً وبمدح الناس مفتوناً وإني لأخاف أن أهلك بها وبقلة الشكر عليها فدعا بدواة وقرطاس فكتبه الرشيد.

(وكان سليمان بن داود) عليهما السلام **(إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: مسكين مع مساكين)**. وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الخليل قال: كان داود عليه السلام يدخل المسجد فينظر أغمض حلقة من بني اسرائيل فيجلس إليهم ثم يقول: مسكين بين ظهراني مساكين. **(وقال بعضهم: كما تكره أن يراك الأغنياء في الثياب الدون)** أي الحقيرة **(فكذلك فاكره أن يراك الفقراء في الثياب المرتفعة)** أي الغالية الثمن.

(وروي أنه خرج يونس) بن عبيد **(وأيوب)** السختياني **(والحسن)** البصري يوماً

ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً ألا رأيت له عليك فضلاً وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه، وقال أبو سليمان إن الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام. وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات: لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم أني أخشى انهم حرموا بسببي. ويقال: أرفع ما يكون المؤمن

(يتذاكرون التواضع) واختلف قولهم فيه **(فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك فلا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً)** أي لا ترى لنفسك معه حالاً أو مقاماً أو قيمة. **(وقال مجاهد)** رحمه الله تعالى: **(لما أغرق قوم نوح)** عليه السلام **(شمخت الجبال وتطاولت)** أي ارتفعت، **(وتواضع الجودي)** أي تطامن إلى الأرض وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل **(فرفعه الله فوق الجبال)** لتواضعه **(وجعل قرار السفينة عليه)** وذلك فيما قال الله تعالى في كتابه ﴿واستوت على الجودي﴾ [هود: ٤٤] أي وقفت والجودي لما لم ير نفسه أهلاً لحلول النبي والمؤمنين عليه أعطاه الله تلك المنزلة نقله القشيري في الرسالة.

قلت: أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد قال: الجودي جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق فتطاولت وتواضع هو لله فلم يغرق ورست عليه السفينة. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن عطاء قال: بلغني أن الجبال تشامخت في السماء إلا الجودي فعرف أن أمر الله سيدركه فسكن اهـ. وفيه دلالة على جواز خلق الحركات في الجمادات.

ونقل القشيري أيضاً عن الفضيل بن عياض قال: أوحى الله إلى الجبال أني مكلم على واحد منكم نبياً فتطاولت الجبال وتواضع طور سيناء فكلم الله سبحانه عليه موسى لتواضعه اهـ.

وأنشد الشيخ سعد الدين الشيرازي:

أقلّ جبال الأرض طور وأنه ... لأعظم عند الله قدراً ومنزلا

(وقال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالى: **(إن الله عز وجل اطلع إلى قلوب الآدميين)** أي نظر إليها **(فلم يجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام فخصّه منهم بالكلام)** فما ميّزه تعالى على أمته وخصه بكلامه إلا لما خص به من كمال تواضعه. رواه القشيري عن وهب بن منبه بلفظ وقال وهب، مكتوب في بعض ما أنزل الله من الكتب أني أخرجت الذر من صلب آدم فلم أجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى فلذلك اصطفيته وكلمته. **(قال يونس بن عبيد)** البصري رحمه الله تعالى: **(وقد انصرف)** راجعاً **(من عرفات لم أشك في الرحمة)** أي في ان الله تعالى رحمهم وغفر ذنوبهم **(لولا أني كنت معهم أني لأخشى انهم حرموا بسببي)** أي بسبب ذنوبي وهذا من مقام الخائفين. وروى أبو نعيم في الحلية، والقشيري في الرسالة من طريق شعيب

عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه. وقال زياد النميري: الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر. وقال مالك بن دينار: لو أن منادياً ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلاً والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجل بفضل قوّة أو سعي قال: فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك مالكاً وقال الفضيل: من أحب الرئاسة لم يفلح أبداً. وقال موسى بن القاسم: كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت: يا أبا عبدالله أنت أمامنا فادع الله عز وجل لنا، فبكى ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له: ما أنت؟ وكان هذا دأبه وعادته، فقال: أنا النقطة التي تحت الباء فقال له

بن حرب قال: بينا أنا في الطواف إذ لكزني إنسان بمرفقه فالتفت، فإذا هو الفضيل فقال: يا أبا صالح إن كنت تظن أنه شهد الموسم من هو شر مني ومنك فبئس ما ظننت.

(**ويقال: ارفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه**) وهو مصداق الخبر المتقدم « إذا تواضع العبد رفعه الله وإذا تكبر وضعه ». (**وقال زياد**) بن عبد الله (**النميري**) البصري روى له الترمذي: (**الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر**) أي فكما أنه لا ينتفع بها إذا كانت غير مثمرة، فكذلك الزاهد لا ينتفع به إذا لم يكن متواضعاً. (**وقال مالك بن دينار**) البصري رحمه الله تعالى: (**لو أن منادياً ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلاً والله ما كان يسبقني أحد إلى الباب إلا رجل بفضل قوّة أو سعي**) قال الراوي: (**فلما بلغ ابن المبارك قوله قال: بهذا صار مالك ملكاً**) أي بهذه المعرفة الدالة على احتقار نفسه وتواضعه نال علو المقام عند الله تعالى. (**وقال الفضيل**) ابن عياض رحمه الله تعالى: (**من أحب الرئاسة لم يفلح أبداً**) أي في طريق القوم فإن حب الرئاسة ينبيء عن تكبر النفس المجانب للتواضع؟ وهذا القول أخرجه أبو نعيم في الحلية. (**وقال موسى بن القاسم**) الثعلبي الكوفي: (**كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت إلى محمد بن مقاتل**) الهلالي الكوفي (**فقلت: يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا**) يرفع عنا هذه الزلزلة والريح، (**فبكى ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم، قال**) موسى: (**فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: إن الله دفع**) وفي نسخة: رفع (**عنكم بدعاء محمد بن مقاتل، وجاء رجل إلى**) أبي بكر (**الشبلي**) رحمه الله تعالى (**فقال له: ما أنت وكان هذا دأبه**) وفي نسخة شأنه (**وعادته**) أي في سؤاله بهذا أي بما أنت الذي يعم العقلاء وغيرهم أي ما حالك. وفي بعض نسخ الرسالة: من أنت (**فقال: انا النقطة التي تحت الباء**) أي باء البسملة، فكما أنها دليل على معرفتها وتمييزها عن غيرها كذلك أنا وهو يشير إلى مقام الواحدية، وأنها مقام التمييز من الأحدية، ولولا النقطة لما تميزت الباء من الألف (**فقال له الشبلي: أباد الله شاهدك**) أي أهلكه

الشبلي: أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعاً. وقال الشبلي في بعض كلامه: ذلي عطل ذل اليهود. ويقال: من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب وعن أبي الفتح بن شخرف قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له يا أبا الحسن عظني، فقال لي: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في

(**أو تجعل لنفسك موضعاً**). وفي نسخة مكاناً. ولفظ القشيري في الرسالة: وجاء إلى الشبلي رجل فقال له الشبلي: ما أنت؟ فقال: يا سيدي النقطة التي تحت الباء. فقال: أنت شاهدي ما لم تجعل لنفسك مقاماً. وقال شارحها: أنت شاهدي أي حاضري يعني حالك مستقيم ما لم تجعل لنفسك مقاماً، ودخول هذا في التواضع من حيث أن المسؤول جعل نفسه كالنقطة التي تحت الباء دون التي فوق الحروف ونزل نفسه ولم ير لها قدراً اهـ.

وهذا إذا تأملت وجدت كلام من لم يدقق في مصطلحات القوم فإن قوله يعني حالك مستقيم يخالف جواب الشبلي، فإنه ينكر عليه فكيف يصف حاله بالاستقامة على أن سياق المصنف أقعد في فهم المراد، فإن المسؤول لما أثبت لنفسه شاهداً ودليلاً. رد عليه الشبلي ونبهه أن هذا يخالف التواضع عند أهل الحق فإنهم لا يثبتون لأنفسهم وجوداً ولا شاهداً، ولذلك قال: أتجعل لنفسك موضعاً أو مكاناً. وسياق الرسالة فيه غموض ودقة يحتاج إلى تأويل. ويروى أن أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه سئل يوماً من أنت؟ فقال: أنا النقطة التي تحت الباء وهذا له وجه والجلالة قدره وعلو مقامه لا يتوهم فيه أنه أثبت لنفسه شاهداً وليس لغيره، ولو بلغ الدرجة العليا أن يقلده في مقاله، ولعل هذا سبب إنكار الشبلي عليه إذ لكل ميدان رجال، والحاصل أن هذا القول مباين لمقام التواضع فتأمل ذلك.

(**وقال الشبلي**) رحمه الله تعالى في بعض كلامه: (**ذلي**) في نفسي بمعرفتي بقدرها وبقلة ما يحصل لي من الخير منها وبعجزها عن قيامها بما عليها لربها وبسرعة نقضها لعهدها (**عطل ذل اليهود**) المذكور في قوله تعالى: ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا** ﴾ [آل عمران: ١١٢] فهم أذل الخلق، والمعنى ذلي في نفسي أعظم من ذل اليهود في أنفسهم، لأن ذلهم قهري وذلي من علم بما عليه نفسي من النقص، وهذا لا يلزمه جحده لفضل ربه عليه، لأن ما ذكر من الذل بالنظر بنفسه وما هو عليه من الفضل جار عليه من ربه فهو ذليل عزيز، وهذا القول نقله القشيري في الرسالة. (**ويقال: من رأى لنفسه قيمة**) يفضل بها غيره ليتكبر عليه (**فليس له من**) وفي نسخة في (**التواضع نصيب**) وهذا القول نقله القشيري في الرسالة عن الفضيل بن عياض وفي كلام أبي سليمان الداراني: من رأى لنفسه قيمة لم يرزق حلاوة العبادة والخدمة. (**وعن أبي الفتح ابن شخرف**) رحمه الله تعالى تقدم ذكره في كتاب العلم (**قال: رأيت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له: يا أبا الحسن عظني. فقال: ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس**

ثواب الله! وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله عز وجل. وقال أبو سليمان: لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه. وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبرٍ، فقيل له فمتى يكون متواضعاً، قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه، وقال أبو سليمان: لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه. وقال عروة ابن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. وقال يحيى بن خالد البرمكي: الشريف إذا تنسك تواضع، والسفيه إذا تنسك تعاظم، وقال

الفقراء رغبة منهم في ثواب الله تعالى، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة منهم بالله تعالى)، وهذا من كلام علي مشهور ذكره صاحب نهج البلاغة دون ذكر الرؤيا. **(وقال أبو سليمان)** الداراني رحمه الله تعالى: **(لا يتواضع العبد)** أي لا يتحقق بهذا المقام **(حتى يعرف نفسه)** أي يعرف ما فيها من العيوب والنقص، فإذا عرفها بما فيها تواضع لله حق التواضع. **(وقال أبو يزيد)** طيفور بن عيسى البسطامي قدس سره: **(ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر)** أي لكونه رأى لنفسه قدراً **(فقيل: متى يكون متواضعاً)** كاملاً؟ **(قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً)** يفضل بها غيره أورده القشيري في الرسالة بلفظ، وقيل لأبي يزيد: متى يكون الرجل متواضعاً فقال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً ولا يرى أنه في الخلق من هو شر منه انتهى.

وقد اختلفت اشارات الشيـوخ في الفرق بين الحال والمقام والضابط الفارق بينهما أن الحال سمي حالاً لتحوّله والمقام مقاماً لثبوته واستقراره، وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً. وقال بعضهم: المقامات مكاسب والأحوال مواهب. وقال بعضهم: الأحوال مواجيد والمقامات طرق المواجيد. وقال بعضهم: الأحوال مواريث الأعمال. وقيل: الحال ما منّ الله والمقام ما منّ العبد، وقد أطال الكلام فيه صاحب العوارف في آخر كتابه فراجعه.

(وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه) فكل من قويت معرفته بنفسه قويت معرفته بربه وبه يكمل له مقام التواضع. **(وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف)** أي أحد الآلات التي يصطاد بها الشرف **(وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع)** إذ الحسد لا يكون إلا على النعم المعروفة للحاسد، والتواضع أكثر الناس لا يعدونه نعمة بل مذمة وقلة همة، ولفظ الرسالة وقيل: التواضع نعمة لا يحسد عليها والكبر محنة والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر لم يجده. **(وقال يحيى بن خالد)** بن برمك **(البرمكي)** نسبة إلى جده: **(الشريف)** أي الرفيع القدر والمقام **(إذا تنسك)** أي تعبد **(تواضع)** فإن تنسكه يجره إليه، **(والسفيه إذا تنسك تعاظم)** على إخوانه وتكبّر عليهم ولم يزده تنسكه إلا

يحيى بن معاذ: التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع. ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن، والتكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقراء أقبح. ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل، ولاربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل.

وقال أبو علي الجوزجاني: النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة، وإذا أراد الله تعالى به خيراً لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصر الله تعالى، وإذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل.

وعن الجنيد رحمه الله إنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روي عن النبي

سفهاً. (**وقال يحيى بن معاذ**) الرازي رحمه الله: (**التكبر على ذي التكبر عليك بماله**) أي إعراضك عنه (**تواضع**) لأنك صغرت ما صغره الله حيث لم تلتفت إلى تكبر المتكبرين؛ نقله القشيري في الرسالة بلفظ: على من تكبر عليك، ويروى نحوه لابن المبارك قال: التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع. (**ويقال: التواضع في الخلق كلهم حسن، وفي الأغنياء أحسن والكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقراء أقبح**) وذلك لوجود أسباب التكبر في الأغنياء من المال والجاه وغيرهما، وفقدها في الفقراء. فكأن تواضع الأغنياء أحسن من تواضع الفقراء وتكبر الفقراء أقبح من تكبر الاغنياء، وهذا القول نقله القشيري في الرسالة، وعزاه إلى يحيى بن معاذ بلفظ: التواضع حسن في كل أحد لكنه في الاغنياء أحسن، والتكبر سمج في كل أحد لكنه في الفقراء أسمج. (**ويقال: لا عز إلا لمن تذلل لله عز وجل ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل.**

وقال أبو علي الجوزجاني) بفتح الجيم وسكون الواو والزاي نسبة إلى كورة من خراسان من كوربلخ: (**النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد**) أي مجبولة على هذه الأوصاف الثلاثة من أصل خلقتها، (**فمن أراد الله تعالى هلاكه منع من التواضع والنصيحة والقناعة**) فإذا ترك التواضع ولم يقبل النصح ولم يقنع بما في يده كان إلى الهلاك أقرب، (**وإذا أراد الله به خيراً لطف به في ذلك، فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصر الله تعالى**) فأطفأها، (**وإذا هاجت في نفسه نار الحسد أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل**) لقبولها (**فأطفأتها، وإذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله**) فأطفأتها.

(**وعن**) أبي القاسم (**الجنيد**) قدس سره (**أنه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه: لولا أنه**

ﷺ أنه قال: « يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم »، ما تكلمت عليكم. وقال الجنيد أيضاً: التواضع عند أهل التوحيد تكبر، ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها.

وعن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين

روي عن النبي ﷺ انه قال: « يكون في آخر الزمان زعيم القوم) أي رئيسهم **(أرذلهم » ما تكلمت عليكم)** قال العراقي: رواه الترمذي من حديث أبي هريرة « إذا اتخذ الفيء دولاً » الحديث وفيه: « وكان زعيم القوم أرذلهم ». الحديث وقال: غريب، وله من حديث علي بن أبي طالب « إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء » فذكر منها « وكان زعيم القوم أرذلهم » ولأبي نعيم في الحلية من حديث حذيفة « من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة » فذكر منها وفيه فرج بن فضالة ضعيف اهـ.

قلت: لفظ حديث علي « إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء إذا كان المغنم دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبرّ صديقه وجفا أباه وارتفعت الأصوات في المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور ولبس الحرير واتخذت القيان والمعازف ولعن آخر هذه الامة أوّلها، فليرقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً أو مسخاً » هكذا رواه الترمذي، والبيهقي في البعث وضعفاه، ولفظ حديث أبي هريرة « إذا اتخذ الفيء دولاً والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً وتعلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعـق أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه وظهرت الأصوات في المساجد وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ولعن آخر هذه الأمة أوّلها فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات تتابع كنظام اللآلىء قطع سلكه فتتابع ».

(وقال) أبو القاسم **(الجنيد)** قدس سره: **(التواضع عند أهل التوحيد تكبر)** وروي عنه أيضاً أنه قال: التواضع خفض الجناح ولين الجانب. رواه ابراهيم بن فاتك عنه، وقوله الأوّل يخالف الثاني في الظاهر، فإن التواضع في الحقيقة هو ضد التكبر، فكيف يكون الشيء عين نقيضه، وقد وجهه المصنف بقوله: **(ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه أوّلاً فيجعلها شاهداً ثم يصفها والموحد لا يثبت نفسه)** أصلاً، **(ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها)** وهذا هو عين مراد الشبلي في جوابه لمن قال له: أنا النقطة التي تحت الباء حين قال له: أباد الله شاهدك أو تضع لنفسك موضعاً، وكلاهما من وادٍ واحد. هذا يفسر ذلك فتأمل.

(وعن) أبي زيد **(عمر بن شبة)** بفتح المعجمة وتشديد الموحدة ابن عبيدة بن زيد النميري بالتصغير البصري نزيل بغداد صدوق له تصانيف مات سنة اثنين وستين وقد جاوز التسعين، روى له ابن ماجه **(قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً)** من عمال الخليفة **(راكباً**

يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس، قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال: فجعلت أنظر إليه وأتأمله فقال لي: ما لك تنظر إليّ؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس. وقال المغيرة: كنا نهاب ابراهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول: إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء. وكان عطاء السلمي

بغلة وبين يديه غلمان، وإذا هم يعنفون الناس ويطردونهم من بين يديه لأجله **قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر**) الذي على نهر دجلة الفارق بين الشرقية والغربية، وإليه الإشارة بقول الشاعر:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... سلبن النهى من حيث تدري ولا تدري

(**فإذا أنا برجل حاف**) الرجل (**حاسر**) الرأس (**طويل الشعر**) أشعث يسأل الناس: (**فجعلت انظر إليه**) متعجباً من حاله (**فقال لي: مالك تنظر إليّ؟ فملت له: شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة. فقال: أنا ذلك الرجل. فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت**) أي تكبرت (**في موضع تتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يرفع الناس**) يعني في بغداد حيث نقم عليه الخليفة لما وصل إليه وسلبه جميع ما هو فيه وصار فقيراً يسأل الناس أورده القشيري في الرسالة مختصراً بلفظ وقال بعضهم: رأيت في الطواف انساناً بين يديه شاكريه يمنعون الناس لأجله عند الطواف، ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل الناس شيئاً فعجبت منه فقال: أنا تكبرت في موضع تتواضع الناس هناك فابتلاني الله سبحانه بالتذلل في موضع يترفع فيه الناس اهـ.

ويحكى أن الملك الأشرف قايتباي سنة حجه دخل باب السلام راكباً على هنية والأمراء بين يديه ولم يتجاسر أحد أن يقول له انزل عن الفرس مهابة له، فبينما هو كذلك إذ زلقت رجل الفرس فوقع السلطان على الأرض وسقطت عمامته، فلم يتناول العمامة ولم يضعها على رأسه ودخل الحرم وهو مكشوف الرأس متذللاً متواضعاً لأنه تنبه على إساءة أدبه في دخوله راكباً، فتواضع وطاف هكذا حاسر الرأس، وعدّ ذلك في مناقبه رحمه الله تعالى.

(**وقال المغيرة**) بن مسلم الضبي مولاهم أبو هاشم الكوفي ثقة متقن مات سنة ست وثلاثين روى له الجماعة: (**كنا نهاب ابراهيم**) بن يزيد (**النخعي هيبة الأمير**) لجلالة قدره، (**وكان ابراهيم**) مع ذلك (**يقول: إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء**) وهذا من باب التواضع وهضم النفس، قال العجلي: كان النخعي رجلاً صالحاً فقيهاً متوقياً قليل التكلف، وكان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي في زمانها. (**وكان عطاء السليمي**) بفتح السين وكسر اللام ويقال

إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذ بطنه كأنه امرأة ماخض، وقال هذا من أجلي يصيبكم، لو مات عطاء لاستراح الناس. وكان بشر الحافي يقول: سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم. ودعا رجل لعبدالله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه، فقال: إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوماً فقال سلمان: لكنني خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان

له أيضاً العبدي وهو من رجال الحلية رحمه الله تعالى. **(إذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض)** أي الذي أخذها طلق الولادة **(وقال: هذا من أجلي يصيبكم لو مات عطاء لاستراح الناس)**.

قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أحمد بن إبراهيم، حدثنا ابـراهيم بن عبد الرحمن عن سيار قال: سمعت جعفراً يقول: هاجت ريح بالبصرة وظلمة قال: فتشاغل الناس إلى المساجد فأتيت عطاء فإذا هو قائم في الحجرة ويده على رأسه وهو يقول: إلهي لم أكن أرى أن تبقيني حتى تريني أعلام القيامة. قال: فما زال قائماً في مقامه ذاك حتى اصبـح.

حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أحمد بن إبراهيم، حدثنا ابن عبيدة، حدثنا يحي بن راشد، حدثنا مـرجـاء بن وداع الراسبي قال: كان عطاء إذا هبت ريح وبرق ورعد قال: هذا من أجلي يصيبكم لو مات عطاء لاستراح الناس. قال: وكنا ندخل على عطاء فإذا قلنا له زاد الطعام قال: هذا من أجلي يصيبكم غلاء الطعام لو متّ لاستراح الناس. وساق المصنف هذا القول هنا بناء على أن هذا من باب التواضع وفيه نظر، فإن عطاء كان ممن غلب عليه الخوف، فما قاله ليس من باب التواضع إنما هو من باب الخوف الغالب على القلب، ويمكن أن يقال: إن التواضع هنا هو ثمرة الخوف.

(وكان بشر) بن الحرث **(الحافي)** رحمه الله تعالى **(يقول)** لبعض أصحابه تأديباً لهم لما رآهـم يسلمون على أبناء الدنيا لدنياهم ويعتلون بأنهم إنما يقصدون الزيادة: **(سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام)** يعني ترككم السلام عليهم أسلم لكم من السلام عليهم على الوجه المذكور، لأنه حينئذ ليس بطاعة بل فيه خطر. أورده القشيري في الرسالة. **(ودعا رجل لعبد الله بن المبارك)** رحمه الله تعالى **(فقال: أعطاك الله ما ترجوه، فقال)** ابن المبارك: **(إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة)**؟ وهذا من باب التواضع، والرجاء والخوف لا يكملان إلا بعد المعرفة، فمن لم يعرف الله لم يرجه ولم يخفه، **(وتفاخرت قريش)** أي جماعة منهم **(عند سلمان)** الفارسي رضي الله عنه **(يوماً)** من الإسلام أي بأحسابهم وانسابهم، **(فقال سلمان)** رضي الله عنه: **(لكن خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم)** أبعث **(وآتي الميزان)**

فإن ثقل فأنا كريم وإن خف فأنا لئيم وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع. نسأل الله الكريم حسن التوفيق.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر. فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للأعمال ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به،

حيث توزن الأعمال، **(فإن ثقل بالأعمال الصالحة فأنا كريم، وان خفّ فأنا لئيم)** فأرشدهم سليمان إلى أن الكرم هو التقوى، كما قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] وليس الكرم بالانساب والأحساب، **(وقال أبو بكر رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين والشرف في التواضع)** وقد رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من حديث يحيى بن أبي بشر مرسلاً بلفظ: الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى وقد تقدم قريباً. وقال القشيري في الرسالة: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت ابراهيم ابن شيبان يقول: الشرف في التواضع، والعز في التقوى، والحرية في القناعة.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

(اعلم) هداك الله تعالى **(أن الكبر)** بكسر فسكون اسم من التكبر. قال ابن القوطية: هو اسم من كبر الأمر إذا عظم، والكبر العظمة والكبرياء مثله. ويقال: كبر الصغير وغيره يكبر من باب تعب كبراً وزان عنب ومكبراً كمسجد فهو كبير، وكبر الشيء من باب قرب عظم فهو كبير أيضاً، والإستكبار مثل التكبر فالكبر اسم لحالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وإن يرى نفسه أعظم من غيره، وهو **(ينقسم إلى ظاهر وباطن، فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح. واسم الكبر بالخلق الباطن أحق)** لأنه منشؤه الإعجاب والرؤية، **(وأما الأعمال فإنها ثمرة لذلك الخلق)** ونتائج له **(وخلق الكبر موجب للأعمال وذلك إذا ظهر)** أثره **(على الجوارح يقال تكبر)** واستكبر، **(وإذا لم يظهر يقال)** فلان **(في نفسه كبر. فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه)** في العظم والقدر والمنزلة **(فإن الكبر يستدعي)** شيئين **(متكبراً عليه ومتكبراً به)** فلا بد منهما في تصوير حقيقة الكبر، **(وبه ينفصل الكبر في العجب ـ كما**

وبه ينفصل الكبر عن العجب ـ كما سيأتي ـ فإن العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصوّر أن يكون معجباً ، ولا يتصوّر أن يكون متكبراً ، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً ، ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبراً ، فإنه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر ، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر ، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك ، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر ، ولذلك قال النبي ﷺ : « أعوذ بك من نفخة الكبرياء » ، وكذلك قال عمر : أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح . فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين ـ وهو الاستعظام ـ كبر وانتفخ وتعزز .

سيأتي فإن العجب) بضم فسكون **(لا يستدعي غير المعجب)** به ، **(بل لو لم يخلق إلا وحده تصوّر أن يكون معجباً ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون معه غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً . ولا يكفي أن يستعظم نفسه)** أي يعده عظيم القدر والمنزلة **(ليكون)** بذلك الإستعظام **(متكبراً فإنه قد يستعظم نفسه ولكن يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه)** مساوياً له **(فلا يتكبر عليه ولا يكفي أن يستحقر غيره ، فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر ، بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم)** بعد ذلك **(يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعند هذه الإعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر)** في الباطن ، **(لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر ، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح)** واسترواح **(وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك ، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هي خلق الكبر . ولذلك قال النبي ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء »)** أي من الركون إلى تلك العقيدة التي تنفخ الكبر في باطني ، وقد نقدم الكلام على هذا الحديث ، وأن العراقي قال: لم أجده هكذا . **(ولذلك قال عمر)** رضي الله عنه : **(أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا)** قاله **(للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح)** فإنه خشي عليه من هذه النفخة وقد تقدم أيضاً ، **(فكان الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين**

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات، وتسمى أيضاً عزة وتعظماً، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغيه﴾[غافر :٥٦] قال: عظمة لم يبلغوها، ففسر الكبر بتلك العظمة. ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبراً، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه إن اشتد كبره، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه وإن وعظ استنكف من القبول، وإن وعظ عنف في النصح، وإن رد عليه شيء من قوله غضب وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً.

وهو الإستعظام كبر) أي عظم **(وانتفخ وتعزز، فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الإعتقادات ويسمى أيضاً عزة وتعظماً)** ويستعمل كل ذلك في معنى واحد لكونها متقاربة، **(ولذلك قال ابن عباس)** رضي الله عنه **(في قوله تعالى):** ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم **(إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ قال: عظمة لم يبلغوها)** . وأخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد، **(ففسر الكبر بتلك العظمة)** والمراد بالعظمة هنا التكبر عن الحق والتعظم من الشكر أو التعلم. **(ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر أو الباطن هي ثمراته ويسمى ذلك تكبراً)** واستكباراً، **(فإنه مهما عظم عند قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه)** كهيئة الخدم **(إن اشتد كبر، فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا خدمة عتبته، فإن كان دون ذلك فيأنف عن مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق)** عند مما شانه **(وارتفع عليه في المحافل)** العامة والخاصة **(وانتظر)** منه **(أن يبدأه بالسلام)** والمصافحة **(واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه، وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه)** في مناظرته **(وإن وعظ استنكف عن القبول)** لوعظه، **(وإن وعظ)** غيره **(عنف في النصح)** وشدد الكلام فيه، **(وإن رد عليه شيئاً من قوله)** في محاوراته **(غضب)** من ذلك **(وإن علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير)** في بلادتهم **(استجهالاً لهم واستحقاراً)** لشأنهم.

والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة، فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنة مَن في قلبه مثقال ذرة من كبر»، وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الإزدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز. ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه،

(والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى، فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة، فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وفيه تلك الخواص من الخلق، وقلما تنفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الناس، وكيف لا تعظم آفته، وقد قال ﷺ: « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر) ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان». رواه القشيري في الرسالة عن أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد بن يحيى المزكى، أخبرنا أبو الفضل الجوهري، أخبرنا علي بن الحسن، أخبرنا يحيى بن حماد، حدثنا شعبة، عن أبان بن تغلب، عن فضيل الفقيمي، عن إبراهيم النخعي، عن علقمة بن قيس، عن عبدالله بن مسعود، عن النبي ﷺ فذكره، وقد تقدم أنه من أفراد مسلم. **(وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة)** أي بمنزلة الأبواب التي هي مفاتح للجنة، **(والكبر والعزة يغلق تلك الأبواب كلها لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز)** وقد روى الشيخان من حديث أنس: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه ». **(ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز)**، إذ لا يتم التقوى إلا بالتواضع، **(ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر على أن يدوم على الصدق)** في القول والعمل **(وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز)** لأن كبره يجره إليه، **(ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز)** لأن كبره يجره إلى العنف في النصح، **(ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من الإزدراء بالناس)** والإحتقار لهم **(وفيه العز ولا معنى**

وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه. والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة. وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى: ﴿والْمَلاَئِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُون﴾ [الأنعام: ٩٣]، ثم قال: ﴿أدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦] ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشدهم عتياً على الله تعالى فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعنَّ مِنْ كُلِّ شيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَن عِتِياً﴾ [مريم: ٦٩] وقال تعالى: ﴿فَالّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ النحل: ٢٢] وقال عز وجل: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَروا لَوْلاَ أَنْتُمْ لكنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] وقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

للتطويل) في مثل هذا **(فما من خلق ذميم إلا وصاحب الكبر والعز مضطر إليه ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوت عزه فمن هذا)** المعنى **(لم يدخل الجنة في قلبه مثقال حبة منه)** كما أخبر به ﷺ **(والأخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع إلى البعض)** وجار إليه **(لا محالة)** فكل منها أنواع. **(وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم)** الذي هو المعرفة بالله تعالى، **(وقبول الحق والإنقياد له)** وإليه الإشارة بما ورد في الخبر: «لا يتعلم العلم مستحي ولا متكبر». **(وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر وذم المتكبرين)** من ذلك **(قال الله عز وجل: ﴿والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ ثم قال (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾)** ونبه بذلك على أن الاستكبار والتكبر شيء واحد، والإستكبار على وجهين: أحدهما: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يكون كبيراً وذلك متى كان على ما يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب فمحمود، والثاني: أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له، فهذا هو المذموم، وعليه رد القرآن كذا القول، وكقوله: ﴿أبى واستكبر﴾ [البقرة: ٣٤] وكقوله ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ [الأعراف: ١٣٣] ونبه بقوله: ﴿مجرمين﴾ أن حاملهم على ذلك ما تقدم من جرمهم وإن ذلك دأبهم لا أنه شيء حادث منهم. **(ثم أخبر أن أشد أهل النار عذاباً أشدهم عتيا على الله تعالى فقال: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة)** أي جماعة وفرقة ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ قيل: العتي هنا مصدر، وقيل: جمع عات وأصل العتو النبو عن الطاعة، وقد عتا عتواً وعتياً استكبر وجاوز الحد فهو عات وعتي والجمع عتى بالضم. **(وقال)** تعالى: **(فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾ وقال)** تعالى **(يقول: الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾)** وكذا قوله تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جهنَّم دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقال : ﴿سأَصْرِفُ عَنْ آياتي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قيل في التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت. وقال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام : إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا ، كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر ، ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجه ، ومن طأطأ أظله وأكنه ، فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال : « من سفه الحق وغمص الناس » .

لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ★ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بن العباد﴾ [غافر : ٤٧ ، ٤٨] **(وقال تعالى : ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي)** عن دعائي أو صلاتي **(سيدخلون جهنم داخرين﴾)** أي صاغرين إذلالاً . **(وقال)** تعالى : **(﴿سأصرف عن آياتي﴾)** قال ابن جريج : عن خلق السموات والأرض وما فيها من الآيات ﴿الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قيل في التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وذلك بالطبع عليها . رواه ابن المنذر ، وأبو الشيخ عن سفيان بن عيينة بلفظ : سأنزع منهم فهم القرآن . **(وفي بعض التفاسير : سأحجب قلوبهم عن الملكوت)** فلا يشاهدون أسرارها ، وقيل : سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا . وقوله : ﴿بغير الحق﴾صلة يتكبرون أو حال من فاعله .

(وقال ابن جريج) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي مولاهم المكي فقيه فاضل مات سنة خمسين أو بعدها روى له الجماعة : **(سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها)** رواه ابن المنذر وأبو الشيخ عنه ، **(ولذلك قال عيسى عليه السلام : إن الزرع ينبت في السهل)** وهو الموضع اللين من الأرض ، **(ولا ينبت على الصفا)** أي الحجر الأملس ، **(كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع)** للينه وسهولته **(ولا تعمل في قلب المتكبر)** لصلابته ، **(ألا ترون أن من شمخ برأسه)** أي تطاول **(إلى السقف شجه)** السقف ، **(ومن تطأطأ)** برأسه **(أظله وأكنه ، فهذا مثل ضربه)** عيسى عليه السلام **(للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال :)** « الكبر **(من سفه الحق)** أي جحده **(وغمص الناس »)** بالمهملة أي احتقرهم . قال العراقي : رواه مسلم من حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال : « بطر الحق وغمط الناس » ورواه الترمذي فقال : « من بطر الحق وغمص الناس » . ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف ، ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا اهـ .

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه:

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فإذاً التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله، وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمروذ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء،

قلت: حديث ابن مسعود وقد تقدم قريباً من طريق القشيري وفيه فقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. فقال: « إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس». وعند مسلم «وغمط» بدل «وغمص» والمعنى واحد.

وأما حديث أبي ريحانة فلفظه فقال قائل: يا رسول الله إني أحب أن أتجمل بسير سوطي وشسع نعلي. فقال: « إن ذلك ليس بالكبر إنما الكبر من سفه الحق وغمص الناس بعينه». هكذا رواه ابن سعد وأحمد والبغوي والطبراني والبيهقي وابن عساكر، وعند أحمد من حديث ابن مسعود قال رجل: يا رسول الله يعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهيناً وشراك نعلي جديداً وذكر أشياء حتى علاقة سوطه. قال: « ذاك جمال والله تعالى جميل يحب الجمال ولكن الكبر من بطر الحق وازدرى الناس». وفي حديث عبدالله بن عمرو في أثناء حديث وصية نوح عليه السلام لابنه قيل: يا رسول الله ما الكبر أهو أن يكون للرجل حلة حسنة يلبسها وفرس جميل يعجبه جماله؟ قال: « لا الكبر أن تسفه الحق وتغمص الناس». وكذا رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، والطبراني والحاكم وقد تقدم، ورواه أبو يعلى والبيهقي وابن عساكر بلفظ فقال معاذ بن جبل: يا رسول الله الكبر أن تكون لأحدنا دابة يركبها والنعلان يلبسها والثياب يلبسها والطعام يجمع عليه أصحابه؟ قال: « لا ولكن الكبر أن تسفه الحق وتغمص المؤمن». وروى ذلك عبد بن حميد من حديث جابر وقد تقدم أيضاً.

بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه:

(اعلم) أرشدك الله **(أن المتكبر عليه هو الله أو رسله أو سائر خلقه، وقد خلق الإنسان ظلوماً)** كثير الظلم على نفسه **(جهولاً)** كثيراً لجهل بمعرفة ربه، **(فتارة يتكبر على الخلق، وتارة يتكبر على الخالق، فإذاً التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام)**:

(القسم الأول: التكبر على الله) بالإمتناع عن قبول الحق والإنقياد له، **(وذلك هو أفحش أنواع الكبر)** وأغلظها، **(ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان)** البالغ **(مثل ما كان من نمروذ)** بضم النون وسكون الميم والذال المعجمة، وهو ابن كنعان بن الحارث بن النمروذ من ولد كنعان بـن حام بن نوح عليه السلام، وهو الذي حاج إبراهيم في ربه، **(فإنه كان يحدث نفسه**

وكما يحكى عن جماعة من الجهلة. بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: أنا ربكم الأعلى إذ استنكف أن يكون عبداً لله، ولذلك قال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيح أن يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ المَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] الآية. وقال تعالى: ﴿وإذا قِيلَ لَهُمْ اسْجدُوا للرَّحْمَن قالُوا وَمَا الرَّحْمَن أَنَسْجُدُ لِمَا تأْمُرنَا وَزَادَهُمْ نُفوراً﴾ [الفرقان: ٦٠].

القسم الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن الإنقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الإنقياد وهو ظان أنه محق فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للإنقياد للحق والتواضع للرسل، كما حكى الله عن قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْن مِثْلنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقولهم: ﴿إنْ أَنْتُمْ إلاَ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿ولئن أَطَعْتُمْ

بأن يقاتل رب السماء). ويحكى أنه كان يرمي بالسهام إلى السماء فترجع إليه مضمخة بالدم فيزعم بأنه يقتل من في السماء، **(وكما يحكى عن جماعة من الجهلة من أضرابه، بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون)** وهو الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي شمر من ولد لاود بن سام بن نوح عليه السلام، وهو فرعون موسى عليه السلام وفرعون لقب له **(وغيره)** من أشباهه، **(فإنه)** أي فرعون موسى **(قال)** فيما حكى عنه الله في كتابه فحشر فنادى فقال: **(أنا ربكم الأعلى إذا استنكف أن يكون عبداً لله)** تعالى، **(وكذلك قال الله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾)** أي أذلاء صاغرين **(وقال تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكةالمقربون ومن يستنكف عن عبادته﴾ الآية)** أي إلى آخرها وهو قوله: ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ ثم قال ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً﴾ **(وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾)** فكل ذلك من التكبر على الله تعالى وهو أفحش الأنواع.

(القسم الثاني: التكبر على الرسل) الكرام **(من حيث تعزز النفس وترفعها عن الإنقياد)** والإمتثال لما يأمرون **(لبشر مثل سائر الناس، ولذلك يصرف تارة عن الفكر والإستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الإنقياد وهو ظان أنه محق فيه)**، وهذا لا معرفة معه أن يظن إلا ظناً، **(وتارة يمتنع)** عن الإنقياد **(مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للإنقياد للحق والتواضع للرسل،** كما حكى **الله عز وجل عن قولهم: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ وقوله)** عنهم: **(﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً**

بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾ [المؤمنون: ٣٤] ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً﴾ [الفرقان: ٢١] ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ [الأنعام: ٨] وقال فرعون فيما أخبر الله عنه: ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ [الزخرف: ٥٣] وقال الله تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ [القصص: ٢٩] فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعاً، فقال وهب: قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان، فشاور هامان فقال هامان: بينما أنت رب تعبد إذ صرت عبداً تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام. وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال الله تعالى: ﴿ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا﴾ [الأنعام: ٥٣] أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدمهم. وقالت قريش لرسول الله ﷺ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء؟ أشاروا إلى فقراء المسلمين

لخاسرون﴾ ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّا كبيراً﴾ ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ وقال فرعون فيما أخبر الله عنه ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ وقال تعالى: ﴿فاستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ فتكبر على الله وعلى رسوله جميعاً) وكبره على الله بادعائه الالوهية والربوبية وكبره على الرسول بعدم الإنقياد لما جاء به. (**وقال وهب**) بن منبه رحمه الله تعالى: يروي أنه (**قال له موسى عليه السلام: آمن**) بالله (**ولك ملكك، قال: حتى أشاور هامان**) وكان وزيره الذي يصدر عن رأيه فشاور هامان (**فقال هامان: بينما أنت رب تعبد إذ صرت عبداً تعبد**) غيرك (**فاستنكف**) فرعون (**عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام**) فهذا تكبره على الله. (**وقالت قريش فيما أخبر الله عنهم ﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**) والمراد بالقريتين مكة والطائف (**قال قتادة**) بن دعامة البصري: (**هما الوليد**) بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم من أهل مكة، (**وأبو مسعود الثقفي**) من أهل الطائف، (**طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبي ﷺ حيث قالوا غلام يتيم**) مات أبواه (**كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ وقال الله تعالى: ﴿ليقولوا اهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ أي استحقار لهم واستبعاد لتقدمهم، وقالت قريش لرسول الله ﷺ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء إشارة إلى فقراء المسلمين فازدروهم**

فازدروهم بأعينهم لفقرهم، وتكبروا عن مجالستهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ولاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُم تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنيا﴾ [الكهف: ٢٨]، ثم أخبر الله تعالى عن

بأعينهم وتكبروا عن مجالستهم، فانزل الله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ إلى قوله): ﴿ما عليك من حسابهم﴾ وقال تعالى: واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه **(ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾)** قال العراقي: رواه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص إلا أنه قال: فقال المشركون وقال ابن ماجه قالت قريش اهـ.

قلت: لفظ حديث سعد عند مسلم قال: كنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك فأنهم وأنهم قال: فكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما قال: فوقع في نفس النبي ﷺ من ذلك ما شاء الله فحدث به نفسه، فانزل الله عز وجل ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ وقد رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أحمد بن محمد بن أحمد، حدثنا عبدالله بن شهرويه، حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا عبيدالله بن موسى، حدثنا إسرائيل عن المقدام بن شريح الحارثي، عن أبيه، عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع رسول الله ﷺ فذكره. ولفظه عند ابن ماجه قال: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ. منهم ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى النبي ﷺ ندنو إليه فقالت قريش: تدني هؤلاء دوننا، فكان النبي ﷺ هم بشيء فنزلت ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ الآية. وقد رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان الثوري، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن سعد بن وقاص قال: نزلت فذكره.

وفي الباب خباب بن الأرت، وسلمان الفارسي، وابن مسعود.

وأما حديث خباب فقال أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف: حدثنا أحمد بن الفضيل، حدثنا اسباط بن نصر، عن السدي، عن أبي سعد الأزدي، عن أبي الكنود، عن خباب ابن الأرت ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، فوجد النبي ﷺ قاعداً مع بلال وعمار وصهيب وخباب في أناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حقروهم فخلوا به فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فاقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعدهم إن شئت قال: «نعم» قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً فدعا بالصحيفة ليكتب لهم ودعا علياً ليكتب، فلما أراد ذلك ونحن قعود

تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا: ﴿ما لَنا لاَ نَرَى رجالاً كُنّا

في ناحية إذ نزل جبريل عليه السلام فقال: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ إلى قوله: ﴿فتكون من الظالمين﴾ ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ ثم ذكر فقال: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام: ٥٣، ٥٤] فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة ودعانا فأتيناه وهو يقول: سلام عليكم » فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: ٢٨] يقول لا تعد عيناك عنهم تجالس الأشراف ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ أما الذي أغفلنا قلبه فهو عيينة بن حصن والأقرع، وأما ﴿فرطاً﴾ فهلاكاً فإذا بلغنا الساعة التي كان يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وإلا صبر أبداً حتى نقوم. ورواه أبو نعيم في الحلية من طريقه وقال: رواه عمرو بن محمد العنقزي عن إسباط مثله.

وأما حديث سلمان الفارسي فقال الحسن بن سفيان في مسنده: حدثنا أبو وهب الحراني، حدثنا سليمان بن عطاء، عن سلمة بن عبدالله، عن عمه، عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ عيينة والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا: يا رسول الله إنك لو جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين، وكان عليهم جباب الصوف ولم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى: ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً * واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ حتى بلغ ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ [الكهف: ٢٧ - ٢٩] يتهددهم بالنار فقام نبي الله يلتمسهم حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله فقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا والممات.

وأما حديث ابن مسعود فقال إسحاق بن راهويه في مسنده: أخبرنا جرير عن أشعث بن سوار، عن كردوس، عن عبدالله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار ونحوهم ناس من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا رسول الله أرضيت هؤلاء من قومك أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أطردهم فلعلك أن تطردهم اتبعناك؟ قال فأنزل الله تعالى: ﴿وانذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ إلى قوله: ﴿فتكون من الظالمين﴾ [الأنعام: ٥١، ٥٢].

(ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا) فيها (الذين استرذلوهم)

نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢] قيل: يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة، فجهل كونه ﷺ محقاً، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الإعتراف قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال: ﴿وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وعُلُـوّاً﴾ [النمل: ١٤]، وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله.

القسم الثالث: التكبر على العباد؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأوّل والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد

واستضعفوهم، (**فقالوا: ﴿ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾ قيل: عنوا عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم**) أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال ذلك قول أبي جهل في النار يقول: مالي لا أرى رجالاً بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً وفلاناً اتخذناهم سخرياً ليسوا كذلك، أم زاغت عنهم الأبصار؟ قال: أم هم في النار ولا نراهم. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: هم عبدالله بن مسعود ومن معه. وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن سهل بن عطية قال: يقول أبو جهل في النار أين خباب أين صهيب أين بلال أين عمار؟.

(**ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فيجهل كونه ﷺ محقاً، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الإعتراف قال الله تعالى مخبراً عنهم ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**) وهؤلاء طائفة اليهود فإنهم عرفوا أنه ﷺ محق ومنعهم كبرهم عن الإعتراف. (**وقال**) تعالى: (**﴿وجحدوا بها﴾**) أي الآيات الدالة على صدقه (**﴿واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾**) أي تكبراً وعناداً وترفعاً. (**وهذا الكبر قريب من التكبر على الله وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله**) عليه السلام.

(**القسم الثالث: التكبر على العباد، وذلك بأن يستعظم نفسه**) أي يعده عظيم المنزلة (**ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الإنقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم ويزدريهم ويستصغرهم**) أي يستذلهم (**ويأنف من مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأول**) الذي هو التكبر على رسله (**فهو أيضاً عظيم من وجهين**).

(**أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء**) وكل ذلك ألفاظ متقاربة (**لا يليق إلا**

المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر ؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله: أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه ويجلس على سريره، فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزي والنكال! وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه! وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى: « العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته » . أي إنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي، وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه، إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له في بعض أمره، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والإستبداد بملكه، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه. نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ

بالملك القادر) جل جلاله، **(فأما العبد المملوك الضعيف)** في نفسه **(العاجز)** عن دفع الضر عنها **(الذي لا يقدر على شيء)** من خير أو شر، **(فمن أين يليق به الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله)** وعظمته، **(ومثاله: أن يأخذ الغلام قلنسوه الملك)** أي تاجه الذي يضعه على رأسه وبه يتميز عن غيره **(فيضعها على رأسه ويجلس على سريره)** الذي من عادته أن يجلس عليه، **(فما أعظم استحقاقه للمقت)** من الملك **(وما أعظم تهدفه للخزي)** والنكال؟ **(وما أشد استجراءه)** أي جرأته (على مولاه **وما أقبح ما تعاطاه، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى)** في الحديث القدسي: **(« العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته »)** روي ذلك من حديث أبي هريرة، وقد تقدم الكلام عليه في أول هذا الكتاب قريباً. **(أي: أنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي)** وإنما مثلهما بالإزار والرداء إبرازاً للمعقول في صورة المحسوس، فكما لا يشارك الرجل في ردائه وإزاره لا يشارك الباري في هذين فإنه الكامل المنعم المنفرد بالبقاء وما سواه ناقص محتاج. وفي الحديث إشارة إلى أن العظمة أرفع من الكبرياء وأقرب إليه منها، كما أن الإزار أقرب في اللباس من الرداء، **(وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه إذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثر بما هو حق الملك أن يستأثر به منهم، فهو منازع له في بعض أمره، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والإستبداد بملكه)** أي الإستقلال به، **(فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة)** التامة **(والكبرياء)** والعلو **(عليهم، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه)** فيكون سبباً لقصم ظهره. **(نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين**

وفرعون، ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل الملك.

الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله وتشمر لجحده، ولذلك ترى الناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله، وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال: ﴿وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذا القُرْآن والغَوْا فيهِ لَعلَّكُم تغلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى: ﴿وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْه العِزَّة بالإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأها فقال: ﴿إنا للهِ وإنَّا إلَيْهِ راجعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] قام رجل يأمر بالمعروف فقتل، فقام آخر فقال: تقتلون الذين يأمرون

منازعة نمروذ وفرعون ما هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعتهم في أصل الملك) .

(الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره) ونواهيه، **(لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف من قبوله وتشمر لجحده)** أي إنكاره، **(ولذلك ترى الناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين، ثم أنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين. ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس)** والمغالطات في المحاورات، **(وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى)** في كتابه العزيز **(فقال: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به فقد شاركهم في هذا الخلق، وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ كما قال تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾)** .

(روي عن عمر) بن الخطاب رضي الله عنه **(أنه قرأها)** أي هذه الآية **(فاسترجع فقال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾)** إشارة الى أن ما سيذكره مصيبة عظيمة وهي: **(قام رجل فأمر بالمعروف فقتل، فقام)** رجل **(آخر وقال: أتقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس؟**

بالقسط من الناس؟ فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره كبراً. وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله قال: عليك نفسك! وقال ﷺ لرجل: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع، فقال النبي ﷺ: «لا استطعت» فما منعه إلا كبره، قال: فما رفعها بعد ذلك أي اعتلت يده. فإذاً تكبره على الخلق عظيم لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله، وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به، فإنه قال: أنا خير منه، وهذا الكبر بالنسب لأنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به، وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر

فقتل المتكبر الذي خالفه والذي أمره بالمعروف كبراً) وعزة. فهذا معنى قوله: ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ رواه ابن جرير عن أبي الخليل قال: سمع عمر إنساناً يقرأ هذه الآية فاسترجع قال: ﴿انا لله وانا إليه راجعون﴾ قام رجل يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فقتل. ورواه أيضاً عن أبي زيد أن ابن عباس قرأ هذه الآية عند عمر فقال: اقتتل الرجلان فقال له عمر ماذا: قال يا أمير المؤمنين أرى ههنا من إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم قال: هذا إنما اشرى نفسي فقاتله، فاقتتل الرجلان فقال عمر: لله درك يا ابن عباس.

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه: **(كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله قال: عليك نفسك)**. رواه ابن المنذر في تفسيره بلفظ: إن من أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول عليك بنفسك.

(وقال ﷺ لرجل «كل بيمينك» قال: لا أستطيع، فقال) ﷺ: **(«لا استطعت فما منعك إلا كبر». قال: فما رفعها بعد ذلك أي اعتلت يده)** قال العراقي: رواه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع. **(فإذاً تكبره على الخلق)** عظيم **(لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله وإنما ضرب إبليس مثلاً لهذا، وما حكى من أحواله إلا ليعتبر به فإنه قال: أنا خير منه)** أي من آدم عليه السلام، **(وهذا الكبر بالنسب لأنه قال)** بعد ذلك: **(خلقتني من نار وخلقته من طين)** والنار أشرف من التراب، **(فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله تعالى به، فكان مبدؤه التكبر على آدم)** عليه السلام **(والحسد له)** على ما أنعم عليه **(فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله، وكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد، فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين إذ سأله**

بهاتين الآفتين إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يا رسول الله إني امرؤ قد حبب إليّ من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: «لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس» وفي حديث آخر: «من سفه الحق» وقوله: «وغمص الناس» أي ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى: «وسفه الحق» هو ورده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أورد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله.

ثابت بن قيس بن شماس) بن زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك بن بتلة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي خطيب الأنصار يكنى أبا محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن قتل يوم اليمامة. **(فقال: يا رسول الله إني امرؤ قد حبب إليّ من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: «لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس»)** قال العراقي: رواه مسلم والترمذي، ولكن ليس فيهما أن القائل هو ثابت بن قيس، وإنما رواه الطبراني من حديثه وقد تقدم انتهى.

قلت: وكذلك رواه البارودي، وابن قانع من حديث ثابت بن قيس بلفظ: «إنه ليس من الكبر إن تحسن راحلتك ورحلك ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس». وعند سمويه في فوائده من حديث ثابت بن قيس قال: يا رسول الله إني لأحب الجمال حتى أني لأحبه في شراك نعلي وجلاز سوطي وأن قومي يزعمون أنه في الكبر. فقال: «ليس الكبر أن يحب أحدكم الجمال ولكن الكبر أن يسفه الحق ويغمص الناس». ورواه الطبراين كذلك. ورواه ابن عساكر من حديث خريم بن فاتك. ورواه الطبراني أيضاً من رواية فاطمة بنت الحسين عن أبيها مرفوعاً. ورواه الطبراني وسمويه أيضاً والضياء من حديث سواد بن عمرو الأنصاري. **(وفي حديث آخر «من سفه الحق)** وغمص الناس» رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر. **(وقوله «غمص الناس»)** بالصاد المهملة **(أي ازدراهم واستحقرهم)** وغمط بالطاء المهملة كما في رواية مسلم من حديث ابن مسعود بمعناه **(وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى «وسفه الحق» هو جهله ورده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق؟ ومن أنف أن يخضع لله ويتواضع له بطاعته واتباع** رسله فقد تكبّر فيما بينه وبين الله تعالى والرسل**)**.

بيان ما به التكبر:

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال ومجامع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوّة والمال وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب:

الأوّل: العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء؟ ولذلك قال ﷺ: «آفة العلم الخيلاء»، فلا يلبث العالم أن يتعزز بعز العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظرة إلى البهائم ويستجهلهم ويتوقع أن يبدؤه بالسلام، فإن بدأ واحداً منهم بالسلام أورد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون

بيان ما به التكبر:

(**اعلم**) أرشدك الله تعالى (**أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال ومجامع ذلك يرجع إلى كمال ديني ودنياوي [فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار] فهذه سبعة أسباب**) إثنان منها يتعلقان بالدين، والخمسة بالدنيا.

(**الأولى: العلم وما أسرع الكبر إلى العلماء! ولذلك قال ﷺ: «آفة العلم الخيلاء»**) قال العراقي: هكذا ذكر المصنف، والمعروف آفة العلم النسيان، وآفة الجمال الخيلاء». كذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف، وروى عنه الديلمي في مسند الفردوس «آفة الجمال الخيلاء». وفيه الحسن بن عبد الحميد الكوفي لا يدري من هو حديث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان انتهى.

قلت: لفظ القضاعي في مسند الشهاب: «آفة الظرف الصلف، وآفة الشجاعة البغي، وآفة السماحة المن، وآفة الجمال الخيلاء، وآفة العبادة الفترة، وآفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة الحلم السفه، وآفة الحسب الفخر، وآفة الجود السرف، وآفة الدين الهوى». وهكذا رواه أيضاً ابن لال في مكارم الأخلاق، والديلمي والبيهقي في الشعب وضعفه رووه من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده. ورواه القضاعي والديلمي وابن عدي في كامله من طريق شعبة عن أبي إسحاق السبيعي عن الحرث الأعور عن علي مرفوعاً في حديث بلفظ: «آفة الحديث الكذب وآفة العلم النسيان» وسنده ضعيف إلا أنه صحيح المعنى.

(**فلا يلبث العالم أن يتعزز بعز العلم ويستشعر في نفسه كمال العلم وجماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس وينظر إليهم نظره إلى البهائم ويستجهلهم**) ويستبلدهم (**ويتوقع**) منهم (**أن يبدأوه بالسلام**) إذا لقوه، (**فإن بدأ واحداً منهم بالسلام أو ردّ عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه**

من مثله، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو اجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا، أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ـ كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم ـ وهذا العلم يزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً، ويقتضي أن يرى كل الناس خيراً منه لعظم حجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم. ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علماً ازداد وجعاً وهو كما قال:

فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً فاعلم أن لذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي ما

أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، فإنه ينبغي أن يرقوا له) أي يكونوا كالرقيق له **(ويخدمونه شكرا له على صنيعه)** ذلك، **(بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ولا يزدرونه فيزدريهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه)** أي يجعله سخرة في قضائها، **(فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده** وأجراؤه **وكان تعليمه)** إياهم **(العلم صنيعة منه** لديهم ومعروف إليهم **واستحقاق حق عليهم، هذا فيما يتعلق بالدنيا. أما في الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الانسان به نفسه وربه)** بالذل والعز والعجز والقدرة والنقص والكمال، **(وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ـ كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم ـ وهذه العلوم تزيد خوفاً وتواضعاً وتخشعاً)** وانكساراً في القلب، **(وتقتضي ان يرى)** صاحبها **(أن كل الناس خير منه لعظم حجة الله عليه بالعلم وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم، ولهذا قال أبو الدرداء)** رضي الله عنه: **(من ازداد علماً زاد وجعاً وهو كما قال)**.

(فان قلت: فما بال بعض الناس يزداد كبراً وأمناً؟ فاعلم أن لذلك سببين:

أحدها: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً) في الظاهر **(وليس بعلم حقيقي، وإنما العلم**

يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [الفاطر: ٢٨] فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبراً ونفاقاً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالباً.

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم ـ أي علم كان ـ صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره. وقد ضرب وهب لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم يحفظه الرجال فتحوّله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل

الحقيقي ما يعرف العبد به نفسه وربه، وخطر أمره في لقاء ربه والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾) وقد تقدم الكلام عليه في كتاب العلم. (**فأما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرد الإنسان**) وقام بازائها (**حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا ونفاقاً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذا يورث التواضع غالباً**).

(**السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أوّلاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه**) من تلك الأوصاف الذميمة (**بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم ـ أي عمل كان ـ صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره، ولقد ضرب وهب**) بن منبه رحمه الله تعالى (**لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوّله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة، وكذلك العلم يحفظه الرجال فتحوّله على قدر همتها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً**) هذا آخر كلام وهب. (**وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا احفظ العلم وجد ما يتكبّر به فإزداد كبراً، وإذا كان الرجل مع جهله**

خائفاً مع جهله فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً فالعلم من أعظم ما يتكبر به ؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٥] ، وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ووصف أولياءه فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وكذلك قال ﷺ فيما رواه العباس رضي الله عنه: « يكون قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا » ثم التفت إلى أصحابه وقال: « أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار » . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم. ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال له: إنه الذبح، واستأذنه رجل كان إمام قوم إنه إذا سلم من صلاته ذكرهم فقال: إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا. وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال: لتلتمسن إماماً غيري أو لتصلن وحدانا ، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في

خائفاً فإذا ازداد علما علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً واشفاقاً وذلاً وتواضعاً) ، وإذا كان الرجل محباً في الدنيا مائلاً إلى تحصيل اعراضها وازداد علماً لم يزدد إلا رغبة فيها إذ وجد ما يعينه على تحصيلها. وروى الديلمي من حديث علي: « من ازداد علماً لم يزدد في الدنيا زهداً لم يزدد من الله إلا بعداً » فالعلم من أعظم ما يتكبر به. **(ولأجل ذلك قال الله تعالى لنبيه)** ﷺ : (**﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ وقال)** تعالى: (**﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾ ووصف أولياءه فقال ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه العباس)** بن عبد المطلب رضي الله عنه: (**« يكون قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا واعلم منا » ثم التفت إلى أصحابه وقال: « أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار »)** . قال العراقي: رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق.

(**وكذلك قال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم)** . وروى الخطيب في الجامع من حديث أبي هريرة: ولا تكونوا من جبابرة العلماء وقد تقدم. **(ولذلك استأذن تميم)** بن أوس **(الداري عمر)** رضي الله عنه **(في القصص فأبى أن يأذن له وقال: إنه الذبح)** خاف عليه من الشهرة. **(واستأذن رجل)** آخر **(وكان إمام قومه انه إذا سلم من صلاته ذكرهم)** ووعظهم فلم يأذن له **(قال: إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا)** وقد تقدم ذلك. **(وصلى حذيفة)** بن اليمان رضي الله عنه **(بقوم فلما سلم قال: لتلتمسن إماماً غيري أو لتصلن وحداناً)** أي منفردين. **(إني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني .**

القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟ فما أعز على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال له عالم ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله؛ ولو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وسجيته، وهيهات! فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا في القرن الأول ومن يليهم، بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضاً إما معدوم وإما عزيز. ولولا بشارة رسول الله ﷺ بقوله: «سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه نجا»، لكان جديراً بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكنا بعشر عشره. فنسأل الله تعالى أن

فإذا كان مثل حذيفة) رضي الله عنه وهو صاحب سر رسول الله ﷺ لا يسلم (**فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة؟ فما أعز على بسيط الارض عالماً يستحق أن يقال أنه عالم ثم أنه لا يحركه عز العلم**) وترفعه (**وخيلاؤه، فإن وجد ذلك فهو صديق زمانه**) وحيد عصره. (**فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة فضلاً عن الأستفادة من أنفاسه وأحواله؛ ولو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين**) أي آخر بلاد المشرق (**لسعينا**) وبذلنا المجهود في الوصول (**إليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري إلينا سيرته وسجيته، وهيهات! فأنَّى يسمح آخر الزمان بمثلهم؟ فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا في القرن الأول ومن يليهم**) من أوائل القرن الثاني، (**بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضاً إما معدوم**) بالكلية (**وإما عزيز**) أي نادر الوجود. (**ولولا بشارة رسول الله بقوله: «سيأتي على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا»**) قال العراقي: رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث نعيم بن حماد. ورواه أحمد من رواية رجل عن أبي ذر انتهى.

قلت: ورواه ابن عدي، وابن عساكر، وابن النجار من حديث أبي هريرة بلفظ «أنتم اليوم في زمان من ترك عشر ما أمر به هلك. وسيأتي على الناس زمان من عمل منهم عشر ما أمر به نجا».

(**لكان جديراً بنا أن نقتحم والعياذ بالله ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا، ومن لنا أيضاً بالتمسك بعشر ما كانوا عليه، وليتنا تمسكنا بعشر عشرة**) وهذا في زمان المصنف، وأما الآن بعد المائتين فلا يحتاج التنبيه عليه حيث درست رسوم الرسوم وظهر المعلوم والمحتوم. فلا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. (**فنسأل الله تعالى**) المانّ بفضله (**أن**

يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في الدنيا: فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء ـ وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً ـ مهما رأى ذلك ـ قال ﷺ: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»، وإنما

يعاملنا بما هو أهله وأن يستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله) آمين يا رب العالمين.

(الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو من رذيلة الكبر والعز واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

أما في الدنيا؛ فإنهم يرون غيرهم بزيارتهم) والمجيء إليهم **(أولى منهم بزيارة غيرهم)**، فإذا رأوهم يزورون غيرهم يغضبون ويعاتبون، **(ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم)** أي تعظيمهم **(والتوسيع لهم في المجالس)** كأنهم عبيد أجراء، ويتوقعون أيضاً **(ذكرهم بالورع والتقوى)** ومحاسن الأخلاق **(وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ)** الدنيوية **(إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق)** يمتنون بها هذا في الدنيا.

(وأما في الدين: فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً مهما رأى ذلك) واعتقده، **(قال ﷺ «إذا سمعتم)** وفي رواية إذا سمعت **(الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»)** روي بضم الكاف وهي الرواية المشهورة أي أشدهم هلاكاً أو أحقهم بالهلاك وأقربهم إليه لذمه للناس وذكره عيوبهم والحط منهم، ويروى فهو أهلكهم بفتح الكاف على أنه صيغة ماض أي فهو جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا حقيقة أي فهو أهلكهم لكونه أقنط عباد الله عن رحمته أو معناه فإنهم ليسوا هالكين إلا من قبله، ومن جهته بنسبة الهلاك اليهم وظاهره أن ذلك لا يؤثر فيهم ولا يقتضي هلاكهم.

قال العراقي: رواه مسلم من حديث أبي هريرة انتهى. قلت: وكذلك رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد وأبو داود

قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شراً احتقاره لغيره. قال ﷺ: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم»، وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذا أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل! وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال! كما روي أن رجلاً في بني إسرائيل كان يقال له: خليع بني إسرائيل ـ لكثرة فساده ـ ومر برجل آخر يقال له عابد بني إسرائيل، وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل هذا عابد بني إسرائيل فلو جلست إليه لعل الله يرحمني! فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل فكيف يجلس إلي؟ فأنف منه وقال له: قم عني! فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان: مرهما فليستأنفا العمل فقد

(وإنما قال) ﷺ (ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدرٍ بخلق الله) مستحقر لهم مستصغر لشأنهم (مغتر بالله) معجب بنفسه تائه بعمله وعبادته (آمن من مكره غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف) من سطوة الله؟ (ويكفيه شراً احتقاره لغيره. قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم» قال العراقي: رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ «بحسب امرىء من الشر» انتهى. قلت: وكذلك رواه ابن ماجه.

(وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله فهم يتقربون إلى الله بالدنو منه، وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم كأنه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم إذا أحبوه لصلاحه) وورعه (أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل وما أجدره إذا ازدراهم) أي احتقرهم (بعينه أن ينقله الله إلى حدّ الاهمال) فلا يبالي به في أي أودية هلك، (كما روي أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقال له خليع بني اسرائيل لكثرة فساده) كأنه خلع عذاره (مرّ برجل آخر يقال له عابد بني اسرائيل لكثرة عبادته) لله تعالى وكل منهما اشتهر بوصف هو قائم به. (وكان على رأس العابد غمامة تظله) أكرمه الله بها (لما مر الخليع به، فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني اسرائيل) وفاجرهم، (وهذا عابد بني اسرائيل) وصالحهم (فلو جلست إليه لعل الله يرحمني) ببركة جلوسي إليه، (فجلس إليه فقال العابد: أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني اسرائيل، فكيف يجلس إلي؟ فأنف منه) ولم يحب تقربه إليه (وقال له: قم عني، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان: مرهما) أي العابد والخليع (فليستأنفا

غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرى: فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع.

وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم، فالجاهل العاصي إذا تواضع هيبة لله وذل خوفاً منه فقد أطاع الله بقلبه، فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب. وكذلك روي أن رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطىء على رقبته وهو ساجد فقال: ارفع فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله إليه أيها المتألي عليَّ بل أنت لا يغفر الله لك، وكذلك قال الحسن: وحتى أن صاحب الصوف أشد كبراً من

العمل فقد غفرت للخليع) ذنوبه **(وأحبطت عمل العابد. وفي رواية أخرى: فتحوّلت الغمامة إلى رأس الخليع)**. وقال أبو نعيم في ترجمة بكر بن عبد الله المزني قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا بلغ المبلغ فمشى في الناس تظله غمامة قال: فمرّ رجل قد أظلته غمامة على رجل فأعظمه لما رآه لما أتاه الله عز وجل قال: فاحتقره صاحب الغمامة أو قال كلمة نحوها قال: فأمرت أن تحوّل من رأسه إلى رأس الذي عظم أمر الله عز وجل.

(وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم فالجاهل والعاصي إذا تواضع) كل منهما **(وذلّ هيبة لله وخوفاً منه، فقد أطلع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبر)** على إخوانه **(والعابد المعجب)** بعبادته. **(وكذلك روي أن رجلاً في بني اسرائيل أتى عابداً)** من العباد **(فوطىء على رقبته وهو ساجد فقال)** العابد: **(ارفع)** رجلك عن رقبتي **(فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله إليه أيها المتألي)** أي الحالف **(عليَّ بل أنت لا يغفر الله لك)**. قال العراقي: رواه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة في قصة العابد الذي قال للعاصي: والله لا يغفر الله لك أبداً وهو بغير هذه السياق واسناده حسن انتهى.

قلت: سياق المصنف أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بلفظ: كان رجل يصلي فلما سجد أتاه رجل فوطىء على رقبته فقال الذي تحته: والله لا يغفر الله لك أبداً، فقال الله عز وجل: تألى على عبادي أن لا أغفر لعبدي فإني قد غفرت له.

وأما الذي أشار إليه العراقي من رواية أبي هريرة فلفظه: كان رجلان في بني اسرائيل متواخيان وكان أحدهما مذنباً والآخر مجتهداً في العبادة، وكان لا يزال المجتهد الآخر مع المذنب فيقول: اقصر فوجده يوماً على ذنب، فقال له: اقصر. فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيباً. فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة فقبض روحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً، وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار. وهكذا رواه أحمد. **(وكذلك قال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى في سياق كلامه، **(حتى أن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب المطرف**

صاحب المطرز الخز، أي أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له، وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضاً قلما ينفك عنها كثير من العباد، وهو أنه لو استخف به مستخف أو آذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله، ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده، وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول: سترون ما يجري عليه؟ وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله والانتقام له منه، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه. ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين.

الخز) المطرف: ثوب مربع له أعلام وأطرفته إطرافاً إذا جعلت في طرفيه علمين فهو مطرف، وربما جعل إسماً برأسه غير جار على فعله وكسرت الميم تشبيهاً بالآلة والجمع: مطارف. **(أي صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه)** فهذا معنى قول الحسن. **(وهذه الآفة قلما ينفك منها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف وآذاه مؤذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك في أنه صار ممقوتاً عند الله، ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار، وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين العجب والكبر والاغترار بالله)** عز وجل، **(وقد ينتهي الحمق)** أي فساد جوهر العقل **(والغباوة)** أي البلادة **(ببعضهم إلى أن يتحرى)** أي يتصدى للمعارضة **(ويقول: سترون ما يجري عليه)** من النكال، **(وإذا أصيب بنكبة)** أي معصيبة عرضت له **(زعم أن ذلك من كراماته، وأن الله ما أراد به إلا شفاء غليله)** وهو وحرة صدره والانتقام منه **(مع أنه يرى طبقات من الكفار)** على أنواعهم **(يسبون الله ورسوله)** عدواً بغير علم **(وعرف جماعة آذوا الأنبياء عليهم السلام بأشد أنواع الأذى، (فمنهم من ضربهم)** ومنهم من وَجَار قابهم بسلا جزور وهو ساجد، ومنهم من شجهم، **(ومنهم من قتلهم ثم ان الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة)** لأن الإسلام يجب ما قبله كما في الخبر، **(ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه)** ورسله، **(وأنه قد انتقم له بما لم ينتقم لأنبيائه، ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين)** وهي من أكبر الآفات.

وأما الأكياس من العباد : فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمي حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة : ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ولو مات عطاء لتخلصوا ، وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم ، فانظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهراً وباطناً ، وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه ، وذلك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به ، ثم إنه يمتن على الله بعمله ، ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله ، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ولذلك روي أن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل ذات يوم فقالوا : يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك ، فقال : « إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان » ، فسلم ووقف على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : « أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك » قال : اللهم نعم ، فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوّة ما استكن في قلبه

(**وأما الأكياس**) أي العقلاء (**من العباد : فيقولون**) مثل (**ما كان يقوله عطاء السليمي**) البصري العابد (**حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة**) أو نحو ذلك من الآيات المخوفة . (**ما يصيب الناس ما أصابهم إلا بسببي ولو مات عطاء**) يعني نفسه (**لتخلصوا**) واستراحوا . أخرجه أبو نعيم في الحلية وتقدم . (**و**) مثل (**ما قال الآخر**) وهو يونس بن عبيد البصري (**بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة لجميعهم**) لمن حضر (**لولا كوني فيهم وقد تقدم**) أيضاً ، (**فأنظر إلى الفرق بين الرجلين هذا يتقي الله ظاهراً وباطناً وهو**) مع ذلك (**وجل على نفسه**) خائف من ربه (**مزدرٍ لعمله وسعيه وذاك**) الآخر (**ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ما هو ضحكة للشيطان به ، ثم أنه تمنى علي الله بعمله**) من يكون أخس منه ، (**ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله ، فإن الجهل أفحش المعاصي**) وأغلظها (**وأعظم شيء يبعد العبد عن الله وحكمه لنفسه أنه خير من غيره وجهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ولذلك روي أن رجلاً ذكر بخير للنبي ﷺ فأقبل**) ذلك الرجل (**ذات يوم فقالوا**) وفي نسخة فقيل : (**يا رسول الله هذا**) الرجل (**الذي ذكرناه لك . فقال**) ﷺ (**« إني أرى في وجهه سفعة**) بالفتح والضم أي أثر سواد أشرب بحمرة (**من الشيطان » فسلم**) الرجل (**ووقف على النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : « أسألك بالله حدثتك نفسك أن ليس في القوم أفضل منك » قال : اللهم نعم**) . قال العراقي : رواه أحمد والبزار والدارقطني من حديث

سفعة في وجهه. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله.

لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وأظهار الإنكار على من يقصر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب جبينه كأنه متنزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا ثم الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلوب، قال رسول الله ﷺ: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره. فقد كان رسول الله ﷺ أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقاً وأكثرهم بشراً وتبسماً وانبساطاً.

أنس بسند حسن، (**فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوّة ما استنكر في قلبه سفعة في وجهه. وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله**) بفضله.

(**لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات**).

(**الاولى: أن يكون الكبر مستقراً في قلبه يرى نفسه خيراً من غيره إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية**) ولم يدعها تتفرع.

(**الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار من يقصر في حقه**) أو يتأخر في قضاء حوائجه، (**وأدنى ذلك في العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم، وفي العابد أن يعبس وجهه ويقطب عينيه**) يقال قطب بين عينيه من حد ضرب إذا جمع بينهما (**كأنه تنزه عن الناس مستقذراً لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطأطأ ولا في الذيل حتى يضم؟ إنما الورع في القلوب**)، قال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. (**قال ﷺ: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره. رواه مسلم من حديث أبي هريرة**) وقد تقدم. وعند أبي يعلى «التقوى ههنا» قاله ثلاثا وأشار إلى قلبه، (**فقد كان رسول الله ﷺ أكرم الخلق**) على

ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ : يعجبني من القراء كل طليق مضحاك ، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه ، فلا أكثر الله في المسلمين مثله . ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه ﷺ : ﴿واخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنْ اتَّبعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٥] وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالاً ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل .

أما العابد ، فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد . من هو وما عمله ومن أين زهده؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص ، ثم يثني على نفسه ويقول : إني لم أفطر منذ كذا

الله وأتقاهم ، (**وكان**) مع ذلك (**أوسعهم خلقاً وأكثرهم بشراً وتبسماً وانبساطاً**) كل ذلك تقدم في كتاب أخلاق النبوة .(**ولذلك قال الحرث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ**) هكذا في سائر نسخ الكتاب وهو خطأ . والصواب عبدالله بن الحرث بن جزء وهو الذي له صحبة وتمام نسبه بعد جزء بفتح الجيم وسكون الزاي هو ابن عبدالله بن معدي كرب بن عمرو بن عصم بن عمرو بن عريج بن عمرو بن زبيد الزبيدي حليف أبي وداعة السهمي ، وابن أخي محمية بن حزء الزبيدي قال البخاري : له صحبة سكن مصر ، روي عن النبي ﷺ أحاديث حفظها عنه المصريون ، ومن آخرهم يزيد بن أبي حبيب قال ابن يونس : مات سنة ست وثمانين بعد أن عمى وكانت وفاته بسفط القدور قاله الطحاوي وهو آخر من مات من الصحابة بمصر وسفط القدور قرية بمصر من المتوفية تعرف الآن بسفط عبدالله ، وقد زرت مقامه بها مراراً ، والعامة تزعم أنه عبدالله بن سلام وهو خطأ . (**يعجبني من القراء**) أي العلماء (**كل طليق**) الوجه (**مضحاك**) أي كثير الضحك ، (**فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله في المسلمين مثله ، ولو كان الله يرضى ذلك لما قال لنبيه ﷺ : ﴿واخفض حناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾**) وقد أورد ابن يونس في تاريخ الصحابة الذين دخلوا مصر في ترجمة عبدالله بن الحرث أنه قال : ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ . رواه من طريق ابن لهيعة : حدثنا عبيد الله بن المغيرة قال : سمعت عبد الله بن الحرث يقول فساقه .

(**وهؤلاء الذين يظهر التكبر على شمائلهم وأحوالهم أخف حالاً من هو في الرتبة الثالثة ، وهو الذي يظهر التكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير في العلم والعمل**) .

(**أما العابد ، فإنه يقول في معرض التفاخر لغيره من العباد** من هو وما **عمله ومن أين** زهده؟ فيطول اللسان **فيهم بالتنقيص**) والتقصير ، (**ثم يثنى على نفسه ويقول : إني لم أفطر منذ كذا وكذا**) مدة (**ولا أنام الليل**) إلا القليل (**واختم القرآن في كل يوم وفلان ينام**

وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن في كل يوم وفلان ينام سحراً ولا يكثر القراءة، وما يجري مجراه، وقد يزكي نفسه ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض، أو ما يجري مجراه يدعي الكرامة لنفسه. وأما مباهاته: فهو أنه لو وقع مع قوم يصلّون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قوّته وعجزهم، وكذلك يشتد في العبادة خوفاً من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله.

وأما العالم: فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته: فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه ويسوءه إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه.

سحراً ولا يكثر القراءة وما يجري مجراه، وقد يزكي نفسه ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض، أو ما يجري مجراه يدعي الكرامة لنفسه. وأما مباهاته: فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلي حين يكون في منزله، (**وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم ويظهر لهم قوته**) على الجوع (**وعجزهم**) عنه، (**وكذلك يشتد في العبادة**) كل ذلك (**خوفاً من أن يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه في دين الله.**).

(**وأما العالم: فإنه يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم**) أي صاحب فنون (**ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت**) من الشيوخ؟ (**وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته: فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب**) مناظره (**ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل، كالمناظرة والجدل**) والمنطق وآداب البحث والنحو (**وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم**) عليهم ويشار إليه بالأصابع (**ويحفظ الأحاديث وألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرده عليه ويسوءه**) أي يغمه (**إذا أصاب**) في سياقته (**وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه**).

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر». كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره ورسول الله ﷺ يقول: إنه من أهل النار وإنما العظيم من خلا عن هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له: إن لك عندنا قدراً ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لها قدراً فلا قدر لك عندنا. ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدراً. فهذا هو التكبر بالعلم والعمل.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له موال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم، وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره: يا نبطي ويا هندي ويا أرمني من أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان بن فلان، وأين لمثلك أن

(فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟ فليت شعري من عرف هذه الأخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر») رواه القشيري في الرسالة عن علي بن أحمد الأهوازي، حدثنا أحمد بن عبيد البصري، حدثنا إبراهيم بن عبدالله، حدثنا أبو الحسن علي بن زيد الفرائضي، حدثنا محمد بن كثير وهو المصيصي، عن هارون بن حيان، عن خصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فذكره وقد تقدم. **(كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره و)** هو بقول **(رسول الله ﷺ من أهل النار وإنما العظيم)** القدر عند الله **(من خلا عن هذا، ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظيم وتكبر، والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى. قال له: إن لك عندنا قدراً)** أي مقاماً **(ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لها قدراً)** ومنزلة **(فلا قدر لك عندنا. ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب)** وزور، **(ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدراً. فهذا هو الكبر بالعلم والعمل)**.

(الثالث: التكبر بالنسب والحسب، فالذي له نسب شريف) بأن يكون منتسباً إلى بيت شريف مشهور **(يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له موال وعبيد)** أي بمنزلتهم **(ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم)** وهو يترفع عنهم، **(وثمرته على اللسان التفاخر به)** بين الناس **(فيقول لغيره: يا نبطي ويا هندي ويا أرمني)** وأشباه ذلك **(من أنت ومن أبوك؟ وأنا فلان بن فلان، وأني لمثلك أن**

يكلمني أو ينظر إليّ؟ ومع مثلي تتكلم؟ وما يجري مجراه. وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحاً وعاقلاً، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روي عن أبي ذر أنه قال: قاولت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء! فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل». فقال أبو ذر رحمه الله: فاضطجعت وقلت للرجل: قم فطأ على خدي. فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل؟ ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخراً عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك؟ فقال النبي ﷺ: «افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام

يكلمني أو ينظر إليّ؟ ومع مثلي تتكلم؟ وما يجري مجراه) مما يقع في محاورة الكلام. **(وذلك عرق دفين)** دساس **(في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صادقاً)** وفي نسخة صالحاً **(وعاقلاً إلا أنه قد لا يترشح ذاك منه عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضبه أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روي عن أبي ذر)** جندب بن جنادة الغفاري رضي الله عنه **(أنه قال: قاولت)** أي خاصمت **(رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء! فقال النبي ﷺ: «طف الصاع طف الصاع)** الصاع مكيال معروف وطفا منه ما قرب من ملئه، وقيل هو ما علا فوق رأسه شبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال كذا في مجمع البحار **(ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل»)** أي كلكم في الأنساب إلى أب واحد بمنزلة واحدة في النقص عن غاية التمام. **(قال أبو ذر. فاضطجعت وقلت للرجل)** المذكور: **(قم فطأ على خدي)** قال العراقي: رواه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف، ولأحمد من حديثه أن النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى» الحديث. وفي الصحيحين أنه ساب رجلاً فعيره بأمه، وفيه فقال له النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية» وقد تقدم اهـ. أي في أوائل كتاب الغضب والحقد والحسد.

(فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلاً) على أخيه **(لكونه ابن بيضاء وأنه خطأ وجهل؟ وانظر كيف)** رجع أبو ذر و**(تاب وقلع عن نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العزلا يقمعه إلا الذل)** وكل ذلك بين يديه ﷺ ولم يمنعه من ذلك وصوّب فعله. **(ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك؟ فقال النبي ﷺ: «افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة فأوحى الله تعالى إلى**

قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم». وقال رسول الله ﷺ: «ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدوف بآنافها القذر».

الرابع: التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقيص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة، فقال النبي

موسى عليه السلام قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم») وفي نسخة وأنت العاشر. قال العراقي: رواه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند من حديث أبيّ بن كعب بإسناد صحيح، ورواه أحمد موقوفاً على معاذ بقصة موسى عليه السلام فقط اهـ.

قلت: وروى أحمد والبخاري في التاريخ وأبو يعلى والبغوي وابن قانع والطبراني والبيهقي وابن عساكر من حديث أبي ريحانة: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وكرماً كان عاشرهم في النار».

(**وقال ﷺ: «ليدعن**) أي ليتركن (**أقوام الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان**) بكسر الجيم وسكون العين المهملة جمع جعل بضم ففتح كصرد وصردان اسم للدويبة التي (**تدوف بآنافها القذر»**) قيل: هي أم حبين تدحرج القذر برجليها. قال العراقي: رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث أبي هريرة اهـ.

قلت: وأخرج البزار من حديث حذيفة رفعه: «كلكم بنو آدم وآدم خلق من التراب ولينتهين أقوام يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» والسياق المذكور للمصنف من حديث أبي هريرة ليس هو أوّل حديث بل أوّله: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم غبية الجاهلية» الحديث. وسيأتي في آخر الفصول من هذا الكتاب وفيه: «ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي ترفع بأنفها النتن».

(**الرابع: التفاخر بالجمال، وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقيص والثلب**) أي المسبة والتعييب (**والغيبة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخلت امرأة**) قيل: إنها من الأنصار (**على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة فقال ﷺ: «قد اغتبتيها»**) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، والخرائطي في مساوىء الأخلاق، وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق حسان بن مخارق عن عائشة قالت: دخلت امرأة قصيرة، والنبي ﷺ جالس فقلت بابهامي هكذا وأشرت إلى النبي ﷺ أنها قصيرة فقال النبي ﷺ اغتبتيها». ورواه عبد بن حميد، عن عكرمة، عن عائشة نحوه. ورواه ابن أبي الدنيا من طريق سفيان بن علي بن الأقمر بن حذيفة عن عائشة أنها ذكرت امرأة

ﷺ : « قد اغتبتيها » وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت.

الخامس: الكبر بالمال وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم ، وبين التجار في بضائعهم ، وبين الدهاقين في أراضيهم ، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقرون الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك ؟ وأنا أنفق في اليوم ما لا تأكله في سنة ؟ وكل ذلك لاستعظامه للغني واستحقاره للفقر ، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ [الكهف : ٣٤] حتى أجابه فقال : ﴿إن ترني أنا أقل منك مالاً وولداً ★ فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾ [الكهف : ٣٩ ـ ٤١] وكان ذلك منه تكبراً بالمال والولد ، ثم بين الله عاقبة

فقالت : إنها قصيرة فقال النبي ﷺ : « اغتبتيها » وقد تقدم ذلك في آفات اللسان . **(وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر لأنها أعجبت بقامتها فاستقصرت المرأة)** أي عدتها قصيرة **(في جنب نفسها فقالت ما قالت)** وفي رواية قال لها : « الفظي فلفظت بضعة لحم » وقد تقدم في آفات اللسان.

(الخامس: الكبر بالمال وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم، وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين) جمع دهقان وهو رئيس القرية **(في أراضيهم، وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له: أنت مكد)** أي صاحب كديه أي فقير **(ومسكين، وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك، وأنا أنفق في اليوم)** الواحد **(ما لا تأكله في سنة)** وما يجري مجراه، **(وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر، وكل ذلك جهل منه بآفة الغنى وفضيلة الفقر، وإليه الإشارة بقوله تعالى)** : ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾ الآية **(فقال له صاحبه وهو يحاوره)** أي يراجعه في الكلام **(أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً)** حشماً وأموالاً وقيل أولاداً ذكوراً **(حتى أجابه فقال:)** ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله **(إن ترني أنا أقل منك مالاً وولداً)** وفي قوله : ﴿وولداً﴾ دليل لمن فسر النفر بالأولاد **(فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك)** في الدنيا وفي الآخرة **(إلى قوله: ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾)** أي للماء الغائر . **(وكان ذلك تكبراً**

أمره بقوله: ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ [الكهف: ٤٢] ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾ [القصص: ٧٩].

السادس: الكبر بالقوّة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة؛ فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين، لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلاَّ نكالاً، وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه. فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيتكبر من يدلي بشيء منه

منه بالمال والولد، ثم بين عاقبة أمره بقوله: ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾) كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله بستانه، ويحتمل أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما سبق منه. (**ومن ذلك تكبر قارون**) بن ياسف بن لاوي من ولد يعقوب عليه السلام وهو صاحب الكنوز المذكورة قصته في القرآن (**إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره: ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ حتى قال قوم: ﴿يا ليت لنا مثلما أوتي قارون﴾**) أي من الأموال والحشم (**إنه لذو حظ عظيم**) وكل ذلك تكبر بالأموال والأعوان والحشم.

(**السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش**) فيفتخر بها ويتباهى (**والتكبر على أهل الضعف**) الذين لا قوة لهم ولا بطش.

(**السابع: التكبر بالأتباع والأنصار**) والأعوان (**والتلامذة والغلمان**) بالشراء أو الإستئجار، (**وبالعشيرة والأقارب والبنين، ويجري ذلك**) غالباً (**بين الملوك في المكاثرة بالجنود**) والعساكر، (**وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين**) منهم.

(**وبالجملة: فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاً وإن لم يكن في نفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به حتى أن المخنث**) بكسر النون المشدة وهو من يتشبه بالنساء في حركاتهن (**يتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين، لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً**) ووبالاً عليه، (**وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب**) للخمور (**وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه ذلك كمالاً وإن كان مخطئاً فيه**) ولولا ظنه كذلك لما تباهى به. (**فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض، فيتكبر من**

على من لا يدلي به أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده، وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى، كالعلم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه. نسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له:

اعلم أن الكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة وينبغي أن تسمى تكبراً ويخص إسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر ـ كما سيأتي معناه ـ فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه وتكبر.

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر، وسبب في المتكبر عليه، وسبب فيما يتعلق بغيرهما.

أما السبب الذي في المتكبر فهو العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب والحقد والحسد والرياء.

يدلي) أي يتقرب **(بالشيء على من لا يدلي بذلك الشيء أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده، وربما كان مثله أو فوقه عند الله كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه)** في نفسه **(أنه)** هو **(الأعلم وبحسن اعتقاده في نفسه)** والله أعلم.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له:

(أعلم) هداك الله تعالى **(أن الكبر خلق باطن)** كما تقدم قريباً **(وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة وينبغي أن يسمى تكبراً ويخص إسم التكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدر لها)** ومنزلة **(فوق قدر الغير)** ومنزلته، **(وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر ـ كما سيأتي معناه فإنه إذا أعجب بنفسه وبعلمه أو عمله أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه وتكبر)**.

(وأما التكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة: سبب في المتكبر) الذي قام به وصف الكبر، **(وسبب للمتكبر عليه،وسبب يتعلق بغيرهما)**.

(أما السبب الذي في المتكبر فهو العجب، والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الإعتبار أربعة. العجب والحقد والحسد والرياء).

أما العجب: فقد ذكرنا انه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأما الحقد: فإنه قد يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع، فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له؟ ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى الإنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقدم عليه، وإن علم انه لا يستحق ذلك وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه فلا يعتذر إليه وإن جني عليه، ولا يسأله عما هو جاهل به.

وأما الحسد: فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسداً وبغياً عليه، فهو يعرض عنه ويتكبر

(**أما العجب: فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبر بالظاهر**) وينتجه (**في الأعمال والأقوال والأحوال**) والمراد بالأحوال ما ينتج من الأعمال.

(**وأما الحقد: فإنه قد يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله**) مساوٍ له (**أو فوقه**) في المنزلة، (**ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له، ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته**) وهذا هو السفه المشار إليه في حديث ثابت بن قيس بن شماس (**و**) يحمله (**على الأنفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد في التقديم عليه، وإن علم أنه لا يستحق ذلك و**) يحمله أيضاً (**على أن لا يستحله وإن ظلمه وتعدى عليه فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه، ولا يسأله عما هو جاهل به**).

(**وأما الحسد: فإنه أيضاً يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحسد ويدعو الحسد أيضاً إلى جحد الحق**) أي إنكاره (**حتى يمنع من قبول النصح**) رأساً (**و**) من (**تعلم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم**) أن يجوزه لنفسه، (**وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه**) أو جيرانه (**حسداً وبغياً عليه، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع**) له

عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأما الرياء: فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتى أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه. وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنه كاذب ثم يتكبّر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطرق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً بأنه لا يستحق ذلك، ولا كبر في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين، وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار، وهو إن سمي متكبراً فلأجل التشبه بأفعال الكبر، نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم.

والإكرام (**بفضل علمه، ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق التكبر وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه**).

(أما الرياء: **فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين حق أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة**) سابقة (**ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الإستفادة خيفة من أن يقول الناس أنه أفضل منه**) فيسقط مقامه عندهم، (**فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه**) لمعرفته فضله (**وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحقد أو الحسد، فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به مهما لم يكن معهم**) وفي نسخة معهما (**ثالث، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذباً وهو يعلم أنه كاذب**) في إنتمائه، (**ثم يتكبر على من ليس ينسب إلى ذلك النسب ويترفع عليه في المجالس ويتقدم عليه في الطرق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطناً أنه لا يستحق ذلك، ولا كبر في باطنه لمعرفته**) في نفسه (**بأنه كاذب في دعوى النسب، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين، وكأن اسم المتكبر إنما يطلق في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الإحتقار، وهو وإن سمي متكبراً فلأجل التشبيه بأفعال الكبر**) والله الموفق.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه ونظره شزراً وإطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

فمنها: التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه، وقد قال علي كرّم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام. وقال أنس: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك.

بيان اخلاق المتواضعين وبيان ما يظهر فيه أثر التواضع والكبر:

(**اعلم**) أرشدك الله تعالى (**إن الكبر يظهر في شمائل الرجل**) أي أخلاقه (**كصعر في وجهه**) أي أزورار (**ونظره شزراً**) بأن يكون بمؤخر عينيه كالمعرض المتغضب (**وإطراقه رأسه**) إلى الأرض (**وجلوسه متربعاً أو متكئاً، و**) يظهر أيضاً (**في أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، و**) يظهر أيضاً (**في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وفي حركاته وسكناته وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله**) فهو المقيت الممقت، (**ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض**) وهو دون الأول.

(**فمنها**): أي من أخلاق المتكبرين (**التكبر بأن يحب قيام الناس له**) إذا ورد عليهم (**أو**) يحب بأن يقوم الناس (**بين يديه**) كهيئة الغلمان، (**وقد قال علي كرم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار**) أي ممن يستحق دخولها (**فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام**) ومعناه في المرفوع من حديث عمرو بن مرة الجهني «من أحب أن يتمثل له الرجال بين يديه قياماً فليتبوأ مقعده من النار». رواه الطبراني في الكبير من حديث معاوية نحوه، ورواه أحمد وهناد وأبو داود والترمذي وحسنه، وعند ابن جرير بلفظ: «وجبت له النار». (**وقال أنس**) رضي الله عنه: (**لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك**) تقدم ذلك في كتاب آداب الصحبة، وفي كتاب أخلاق النبوة.

ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء: لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشى خلفه، وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده، إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة. ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد، وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم. إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وسواس الشيطان بالكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين.

ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع. روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم: أن تعال

(ومنها: أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه. قال أبو الدرداء) رضي الله عنه: **(لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه)** أخرجه أبو نعيم في الحلية، عن إبراهيم بن عبدالله. حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن عبيد الله بن زجر. عن الهيثم بن خالد، عن سليمان بن عنز قال: لقينا كريب بن أبي برهة راكباً ووراءه غلام له فقال: سمعت أبا الدرداء يقول فذكره. **(وكان عبد الرحمن بن عوف)** رضي الله عنه **(لا يعرف من)** بين **(عبيده)** وغلمانه **(إذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة)** فكان إذا مشي بينهم أو قعد معهم لم يعرف، **(ومشي قوم خلف الحسن البصري)** رحمه الله تعالى وهو راكب على حمار **(فمنعهم)** عن المشي خلفه **(وقال: ما يبقى هذا من قلب العبد)** أي لأنه مذلة للتابع وفتنة للمتبوع وقد تقدم. **(وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم)** عليه **(ويمشي)** هو خلفهم أو **(في غمارهم)** أي جماعتهم. **(إما التعليم غيره أو لينفي عن نفسه وسواس الشيطان بالكبر والعجب)** قال العراقي: رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جداً أنه خرج يمشي إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال: « إني سمعت خفق نعالك فأشفقت أن يقع في نفسي شيء من الكبر » وهو منكر فيه جماعة ضعفاء اهـ.

قلت: وبخط الحافظ ابن حجر رواه أحمد بسياق مطول، وابن ماجه مختصراً.

(كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة وأبدله بالخليع لأحد هذين المعنيين) قال العراقي: المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق، أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية وكلاهما قد تقدم في الصلاة.

(ومنها: أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع .روي أن سفيان) بن سعيد **(الثوري)** رحمه الله **(قدم الرملة)** مدينة فلسطين

فحدثنا، فجاء سفيان فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب: جلست إلى عبد العزيز بن أبي روّاد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف رجلاً منكم شراً مني؟ وقال أنس: كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت.

ومنها: أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو من الكبر. دخل رجل ـ وعليه جدري قد تقشر ـ على رسول الله ﷺ وعنده ناس من أصحابه يأكلون، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه، وكان عبدالله بن عمر

(**فبعث إليه إبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالى يقول له: (**أن تعال فحدثنا، فجاءهم سفيان**) فحدثه (**فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه**)؟ أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أحمد بن إسحاق وقال: حدثنا أبو بكر بن أبي عاصم، حدثنا الحسن بن علي، حدثنا يحيى بن أيوب قال: قال أبو عيسى الحواري: لما قدم سفيان الثوري الرملة أو بيت المقدس أرسل إليه إبراهيم بن أدهم فقال: حدثنا. فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذه؟ قال: إنما أردت أن أنظر كيف تواضعه؟ قال: فجاء فحدثهم.

(**ومنها: أن يستنكف عن جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. قال ابن وهب**) وهو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم أبو محمد المصري الحافظ الفقيه ثقة عابد مات سنة سبع وتسعين، وبه اثنتان وسبعون سنة، روى له الجماعة: (**جلست إلى عبد العزيز بن أبي روّاد**) بفتح الراء وتشديد الواو يكنى أبا عبد الرحمن صدوق عابد مات سنة تسع وخمسين، روى له البخاري في التاريخ والأربعة (**فمس فخذي فخذه** فنحيت **نفسي عنه**) أي بعدت عنه في الجلوس، (**فأخذ بثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة**) أي في الجلوس بين أيديهم؟ (**وإني لا أعرف منكم رجلاً شراً مني. وقال أنس**) رضي الله عنه، (**كانت الوليدة من ولائد المدينة**) أي الجارية الصغيرة من جواريها (**تأخذ بيد رسول الله ﷺ فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت**) تقدم في كتاب آداب المعيشة، وفي كتاب أخلاق النبوّة.

(**ومنها أن يتوقى مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو من الكبر**). روى أنه (**دخل رجل وعليه جدري قد تقشر على رسول الله ﷺ وعنده أصحابه يأكلون فما جلس**) الرجل المذكور (**إلى أحد إلا قام من جنبه**) تقذراً له، (**فأجلسه النبي ﷺ إلى**

رضي الله عنها لا يحبس عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلي إلا أقعدهم على مائدته.

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه. روي أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أوّل نومة نامها، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتاً فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعاً.

ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، كان

جنبه) وأطعمه، وقد تقدم الكلام عليه قريباً. **(وكان عبد الله بن عمر)** رضي الله عنه **(لا يحبس عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلي)** بعلة **(إلا أقعدهم على مائدته)** وأكل معهم ثقة بالله وتواضعاً لله عز وجل.

(ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته، والتواضع خلافه. روي أن عمر بن عبد العزيز) رحمه الله تعالى **(أتاه ليلة ضيف وكان يكتب)** شيئاً **(فكاد السراج يطفأ فقال الضيف: أقوم الى المصباح فأصلحه)**؟ إستأذنه في ذلك لأنه لا ينبغي للضيف أن يتصرف في دار من أضافه إلاّ بإذنه **(فقال)** له: لا إذ **(ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه)** لأن المأمور به إكرامه، والإستخدام يناقض الإكرام. **(قال: فأنبه الغلام)** يصلحه؟ **(قال)**: لا **(هي)** أي النومة **(أول نومة نامها)** الليلة فلا تشوّش عليه نومه، **(فقام)** عمر **(وأخذ البطة)** التي فيها الدهن **(وملأ المصباح زيتاً)** ورد البطة إلى مكانها ثم جلس **(فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين)**! متعجباً من ذلك لمخالفته عادة الولاة فضلاً عن الخلفاء. **(قال: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء! وخير الناس من كان عند الله متواضعاً)** رواه القشيري في الرسالة نحوه دون قوله وخير الناس الخ.

وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا أحمد بن الوليد، حدثنا محمد بن كثير، حدثنا ابن كثير بن مروان، عن رجاء بن حيوة قال: سهرت ليلة عند عمر فاعتل السراج فذهبت أقوم أصلحه، فأمرني عمر أن أجلس ثم قام فأصلحه ثم عاد فجلس. فقال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز، ولؤم بالرجل أن يستخدم ضيفه. ورواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد من طريق عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فذكر مثله.

(ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين. كان رسول ﷺ يفعل ذلك) قال العراقي: رواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله وقد تقدم.

رسول الله ﷺ يفعل ذلك، وقال علي كرّم الله وجهه: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله، وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلاً له من خشب إلى الحمام. وقال ثابت بن أبي مالك: رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك، وعن الأصبغ بن نباتة قال: كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله. وقال بعضهم: رأيت علياً

قلت: وفي حديث أبي سعيد الخدري: «وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله» هكذا رواه القشيري في الرسالة بلا سند، وسيأتي الكلام عليه قريباً.

(وقال علي رضي الله عنه: لا ينقص الرجل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله) أو ورد الموسوي في نهج البلاغة **(وكان أبو عبيدة)** عامر **(بن الجراح)** رضي الله عنه **(وهو أمير)** على دمشق من جهة عمر **(يحمل سطلاً له من خشب الى الحمام)** فيغتسل به ولا يأنف من ذلك تواضعاً لله تعالى. **(وقال ثابت بن أبي مالك)** هكذا في سائر نسخ الكتاب وهو غلط من النساخ، والصواب ثعلبة بن أبي مالك وهو القرظي حليف الأنصار أبو مالك، ويقال: أبو يحيى المدني إمام مسجد بني قريظة، له رواية عن النبي ﷺ قاله ابن معين. وقال العجلي: تابعي ثقة. وقال ابن سعد: قدم أبو مالك واسمه عبد الله بن سام من اليمن وهو من كندة فتزوّج إمرأة من قريظة فعرف بهم، روى له البخاري، وأبو داود، وابن ماجه: **(رأيت أبا هريرة)** رضي الله عنه **(أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة)** أي نائب بالمدينة **(لمروان)** بن الحكم **(فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك)** أخرجه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أحمد بن سعيد، حدثنا ابن وهب، حدثني عمرو الحارث، عن يزيد بن زياد القرظي أن ثعلبة بن أبي مالك القرظي حدثه أن أبا هريرة أقبل في السوق فذكره. وزاد فقلت: أصلحك الله تكفي هذا؟ فقال: أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه.

وقال القشيري في الرسالة: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: سمعت أبا نصر السراج الطوسي يقول: رؤى أبو هريرة وهو أمير المدينة وعلى ظهره حزمة حطب وهو يقول: طرّقوا للأمير.

(وعن الأصبغ بن نباتة) بضم النون التميمي الحنظلي الكوفي يكنى أبا القاسم متروك، رمي بالرفض، روى له ابن ماجه. **(قال: كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقاً لحمة في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الأسواق حتى دخل رحله)** أي منزله. رواه يونس بن بكير عن الوليد بن عبدة عن أصبغ بن بناته قال: خرجت أنا وأبي من زرود حتى ننتهي إلى المدينة في غلس، فانصرف الناس من الصلاة فرفع إلينا رجل معه درة فقال: يا أعرابي أتبيع فلم يزل حتى راضاه على ثمن، وإذا هو عمر فجعل يطوف في السوق يأمرهم بتقوى الله فجعل يقبل ويدبر ثم مرّ على أبي فقال: حبستني، ثم مرّ الثانية فقال له كذلك فيرد عليه عمر لا أريم حتى أوفيك، ثم مر

رضي الله عنه قد اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته، فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين. فقال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل.

ومنها: اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي ﷺ: «البذاذة من الإيمان» فقال هارون: سألت معناً عن البذاذة فقال: هو الدون من اللباس. وقال زيد بن وهب: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه

الثالثة فوثب أبي مغضباً فأخذ بثوب عمر فقال له: كذبتني وظلمتني ولهزه، فوثب المسلمون إليه يا عدوّ الله لهزت أمير المؤمنين، فأخذ عمر بمجامع ثياب أبي فجرّه وكان شديداً فانتهى به إلى قصاب فقال: عزمت عليك لتعطين هذا حقه ولك ربحي. قال: لا يا أمير المؤمنين ولكن أعطيه وأهبك ربحك فأعطاه، فقال لأبي عمر: استوفيت؟ قال: نعم. قال: بقي حقنا عليك لهزتك قد تركتها لله. قال أصبغ: فكأني أنظر إلى عمر أخذ ربحه لحماً فعلقه في يده اليسرى وفي اليمنى الدرة حتى دخل رحله. أخرجه الذهبي في مناقب عمر.

(وقال بعضهم رأيت علياً رضي الله عنه اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أبو العيال أحق أن يحمل) .

(ومنها: اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع، وقد قال النبي ﷺ: «البذاذة من الإيمان») قال العراقي: رواه أبو داود، وابن ماجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم.

قلت: وكذلك رواه أحمد، والطبراني، والحاكم في الكنى، والبيهقي، وأبو نعيم، والضياء من رواية صالح بن أبي صالح، عن عبد الله بن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي عن أبيه رفعه قاله ثلاثاً.

(قال هارون) أحد رواة هذا الحديث، وهو هارون بن سعيد الإيلي السعدي مولاهم أبو جعفر نزيل مصر ثقة فاضل مات سنة ثلاث وخمسين وله ثلاث وثمانون سنة: **(سألت معناً)** يحتمل أن يكون ابن عيسى القزاز من أصحاب مالك. أو معن بن محمد بن معن الغفاري **(عن البذاذة)** وفي بعض النسخ قال هارون: سألت عن معنى البذاذة **(فقال: هو الدون من الثياب)**. أعلم أن البذاذة هي رثاثة الهيئة وترك الترفه في البدن والملبس وجعله من أخلاق أهل الإيمان، لأن المؤمن يؤثر الخمول بين الناس ويقصد التواضع ويزهد في الدنيا ويكف نفسه عن الفخر والكبرياء، فالبذاذة أليق به هذا إذا قصد به ذلك لا أن يظهر به الفقر ويصون المال، فليس هذا من الإيمان بل عرض النعمة للكفران وأعرض عن شكر المنعم المنان.

(وقال زيد بن وهب) الجهني أبو سليمان الكوفي مخضرم ثقة جليل مات بعد الثمانين، وقيل سنة تسعين، وروى له الجماعة: **(رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده**

إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم، وعوتب علي كرّم الله وجهه في إزار مرقوع فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب. وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء في القلب. وقال طاوس: إني لأغسل ثوبي هذين فأنكر قلبي ما داما نقيين. ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تُشترى له الحلة بألف دينار فيقول: ما أجودها لولا خشونة فيها. فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول: ما أجوده لولا لينه! فقيل له: أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن

الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة **رقعة بعضها من أدم)** .رواه علي بن هاشم عن الأعمش عن زيد بن وهب. وقال أسد بن موسى: حدثنا أبو سفيان عطية، سمعت مالك بن دينار، حدثني نافع، حدثني ابن عمر أنه رأى عمر يرمي الجمرة عليه إزار فيه إثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم. وقال أسباط بن محمد، عن خالد، عن أبي كريمة، عن أبي محصن الطائي: صلى بنا عمر وعليه ازار فيه رقاع بعضها من أدم وهو أمير المؤمنين. وقال عفان: حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا الجريري عن أبي عثمان النهدي قال: رأيت عمر يطوف عليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن من أدم أحمر. وقال حماد بن زيد، عن ابن جدعان، عن أبي عثمان قال: رأيت إزار عمر قد رقعه بقطعة من أدم. وقال جعفر بن سليمان: حدثنا مالك بن دينار، حدثنا الحسن أن عمر خطب وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة. وقال معمر، عن ثابت، عن أنس قال: نظرت في قميص عمر، فإذا بين كتفيه أربع رقاع لا يشبه بعضها بعضاً. وقال سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: كان بين كتفي عمر ثلاث رقاع. وقال حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كنا عند عمر وفي ظهر قميصه أربع رقاع.

(وعوتب عليّ كرّم الله وجهه في إزار مرقوع. فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد عن علي بن حكيم. ورواه أبو القاسم البغوي عن علي بن الجعد قالا: حدثنا شريك، عن عثمان بن أبي زرعة، عن زيد بن وهب قال: قدم على عليّ وفد من أهل البصرة فيهم رجل من رؤوس الخوارج يقال له الجعد بن بعجة فعاتب علياً في لبوسه فقال علي: ما لك وللبوسي إن لبوسي أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدي به المسلم.

(وقال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب) أي يورث العجب في القلب. **(وقال طاوس)** اليماني رحمه الله تعالى: **(إني لأغسل ثوبيّ هذين فأنكر قلبي ما داما نقيين)** اشارة الى ما يداخله من العجب في الباطن. **(ويروى أن عمر بن عبد العزيز)** رحمه الله **(كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة)** إزار أو رداء **(بألف دينار فيقول: ما أجودها)** وما أحسنها **(لولا خشونة فيها)** عند المشي، **(فلما استخلف كان يشتري له الثوب بخمسة دراهم فيقول: ما أجوده)** وما أحسنه **(لولا لينه، فقيل له أين لباسك ومركبك وعطرك)** الذي

لي نفساً ذوّاقة توّاقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطباق تاقت إلى ما عند الله عز وجل. وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة، وقال ﷺ: «من ترك زينة لله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله أن يدخر له عبقري الجنة».

كنت تختاره لنفسك؟ (**فقال: ان لي نفساً ذوّاقة توّاقة**) كثيرة الذوق والتوقان، (**وأنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها حتى إذا ذاقت**) طعم (**الخلافة**) على الأمة (**وهي أرفع الطبقات تاقت إلى ما عند الله**) عز وجل.

) قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن الحسين الملطي، حدثنا الحسين بن محمد الزعفراني، حدثنا سعيد بن عامر، حدثنا جويرية بن أسماء قال: قال عمر: إن نفسي هذه توّاقة لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلما أعطيت الذي لا شيء أفضل منه تاقت إلى ما هو أفضل منه. قال سعيد: الجنة أفضل من الخلافة.

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا شعيب بن صفوان، عن محمد بن مروان، عن أبان بن عثمان بن عفان عمن سمع مزاحماً مولى عمر بن عبد العزيز يقول: قال عمر: إن لي نفساً تواقة لقد رأيتني بالمدينة وأنا غلام مع الغلمان، ثم تاقت نفسي إلى العلم، فأصبت منه حاجتي، ثم تاقت نفسي إلى السلطان فاستعملت على المدينة، ثم تاقت إلى اللباس والعيش والطيب فما علمت أن أحداً من أهل بيتي ولا غيرهم كانوا في مثل ما كنت فيه، ثم تاقت نفسي إلى الآخرة والعمل بالعدل، فأنا أرجو أن أنال ما تاقت إليه نفسي من أمر آخرتي.

(**وقال سعيد بن سويد: صلى بنا عمر عبد العزيز يوم الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست فنكس رأسه ملياً**) أي زماناً (**ثم رفع رأسه فقال: إن أفضل القصد**) (**عند الجدة**) أي عند الغنى (**وإن أفضل العفو عند القدرة**) أخرجه أبو نعيم في الحلية عن محمد بن إبراهيم قال: حدثنا الحسين بن محمد الحراني، حدثنا أبو الحسين الرهاوي، حدثنا زيد بن الحباب، أخبرني معاوية بن صالح قال: حدثنا سعيد بن سويد أن عمر بن عبد العزيز صلى بهم الجمعة ثم جلس فذكره.

(**وقال ﷺ: «من ترك زينة لله ووضع ثيباً حسنة تواضعاً لله وابتغاء مرضاته كان حقاً على الله أن يدخر له عبقري الجنة»**) قال العراقي: رواه أبو سعد الماليني في مسند الصوفية،

فإن قلت: فقد قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب. وقد سئل نبينا ﷺ عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر؟ فقال: «لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس». فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم أن الثوب الجيد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ وهو الذي عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال. إني امرؤ حبب إلي من الجمال ما ترى، فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر، وقد يكون ذلك من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع. وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان. وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في سنور داره، فذلك ليس من التكبر. فإذا انقسمت الأحوال نزل قول عيسى،

وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس «من ترك زينة الدنيا لله» الحديث وفي اسناده نظر اهـ.

قلت: ورواه أبو علي الذهلي الهروي في فوائده، وابن النجار بلفظ: «من ترك زينة لله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً له وابتغاء وجهه كان حقاً على الله أن يكسوه من عبقري الجنة». ولفظ أبي نعيم في الحلية: «كان حقاً على الله أن يبدله بعبقري الجنة». وروى الترمذي، والطبراني، وأبو نعيم، والحاكم، والبيهقي من حديث سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رفعه: «من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسه». وإسناده حسن.

(**فإن قلت: فقد قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب**) كما ذكر قريباً، (**وقد سئل نبينا ﷺ عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر**)؟ والسائل هو ثابت بن قيس ابن شماس عند الطبراني كما تقدم. (**قال: «لا ولكن من سفه الحق**) أي جهله أو رده (**وغمص الناس»**) أي احتقرهم وقد تقدم قريباً. (**فكيف طريق الجمع بينهما؟ فاعلم أن الثوب الجيد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، وهو الذي عرفه ﷺ من حال ثابت بن قيس**) بن شماس (**إذ قال**) له: (**إني امرؤ حبب الي من الجمال ما ترى**) كما تقدم، (**فعرفه**) ﷺ (**أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر، كما أن الرضا بالثوب الدون**) ليس من ضرورته أن يكون من التواضع، و (**قد يكون**) ذلك (**من التواضع. وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان، وعلامة طلب الجمال أن يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته**) بنفسه في ستور داره، (**فذلك ليس من الكبر. فإذا انقسمت الأحوال نزل قول**

عليه السلام على بعض الأحوال على أن قوله: خيلاء القلب، يعني قد تورث خيلاء في القلب، وقول نبينا ﷺ: «إنه ليس من الكبر» يعني أن الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر. وبالجملة؛ فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة. وقد قال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير سرف ولا مخيلة» «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وقال بكر بن عبدالله المزني: البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية، وإنما خاطب بهذا قوماً يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح. وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم ما تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري؟ البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية.

عيسى عليه السلام) السابق **(على بعض الأحوال على أن قوله: هو خيلاء القلب، يعني قد يورث خيلاء في القلب)** أي مظنة له، **(وقول نبينا ﷺ «ليس من الكبر» يعني أن الكبر لا يوجبه، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثاً للكبر وبالجملة؛ فالأحوال تختلف في مثل هذا)** وينزل كل قول على حال **(والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة)** وإشارة إليه بالأصابع **(بالجودة ولا بالرداءة)** فما أوجب في كل منهما شهرة فهو مكروه. **(وقد قال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة إن الله يحب أن يظهر أثر نعمته على عبده»)**. قال العراقي: هما حديثان وقد جعلهما المصنف حديثاً واحداً. أما الأوّل: فرواه النسائي، وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. والثاني: رواه الترمذي وحسنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده اهـ.

قلت: لم يجعلها المصنف حديثاً واحداً من عند نفسه بل هكذا رواه في سياق واحد أحمد والحاكم والبيهقي وتمام في فوائده من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولفظهم: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أي يرى أثر نعمته على عبده». وقد روى القطعة الاولى منه النسائي وابن ماجه كما أشار إليه العراقي. وروى الترمذي القطعة الثانية كما أشار إليه العراقي أيضاً، ورواها سمويه في فوائده من حديث أبي سعيد بزيادة «ويبغض البؤس والتباؤس».

(وقال بكر بن عبد الله المزني) تقدمت ترجمته في كتاب العلم: **(إلبسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية)**. وأخرج أبو نعيم في ترجمته من طريق مبارك بن فضالة قال: قال بكر ابن عبدالله قال: أعيش عيش الأغنياء وأموت موت الفقراء. قال: فمات، وأن عليه لشيئاً من دين. وأخرج أيضاً من طريق معتمر عن حميد قال: كانت قيمة ثياب بكر بن عبد الله أربعة آلاف، فكان يجالس الفقراء والمساكين ويقول: إنهم يعجبهم ذلك. ومن طريق عمرو بن أبي وهب قال:

ومنها : أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد. وبالجملة؛ فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ فيه فينبغي أن يقتدى به، ومنه ينبغي أن يتعلم. وقد قال أبو سلمة قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم؟ فقال: يا ابن أخي كُل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهوّ أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله ﷺ في بيته، كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه إذا أعيا، ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف

قال بكر بن عبد الله: كان أصحاب رسول الله ﷺ الذين يلبسون لا يطعنون على الذين لا يلبسون، والذين لا يلبسون لا يطعنون على الذين يلبسون، **(وإنما خاطب)** بكر بن عبد الله **(بهذا قوماً يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح، وقد قال عيسى عليه السلام: ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري)** أي مولعة بالنهش، **(البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية)** من الله عز وجل. أي: فالعمدة على إصلاح الباطن.

(ومنها): أي من أخلاق المتواضعين **(أن يتواضع بالإحتمال إذا سبّ وأوذي وأخذ حقه)** غصباً، **(فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من إحتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد. وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة رسول الله ﷺ، فبه ينبغي أن يقتدى، ومنه ينبغي أن يتعلم. وقد قال أبو سلمة)** بن عبد الرحمن بن عوف تابعي مدني ثقة: **(قلت لأبي سعيد الخدري)** رضي الله عنه: **(ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمركب والمطعم والمشرب؟ فقال: يا ابن أخي كُل لله واشرب لله والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهوّ)** أي عجب **(أو مباهاة)** أي مفاخرة **(أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك من الخدمة** ما **كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته. كان يعلف الناضح)** أي البعير أي يطعمه العلف، **(ويعقل البعير)** أي يشده بالعقال. وعند الطبراني من حديث ابن عباس: كان يعقل الشاة **(ويقم البيت)** أي يكنسه **(ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب)**. وروى أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة: كان يفلي ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه. وروى ابن سعد من حديثها: كان يعمل عمل البيت وأكثر ما يعمل الخياطة. وروى ابن عساكر من حديث أبي أيوب: كان يخصف النعل ويرقع القميص ويلبس الصوف، **(ويأكل مع خادمه)** تواضعاً لله تعالى، **(ويطحن عنه)** بالرحى **(إذا أعيا)** أي تعب، **(ويشتري**

ثوبه، وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقر ما دعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل، لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء، هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسّام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ولم يمد يده من طمع، قال أبو سلمة: فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله ﷺ فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلىء قط شبعاً ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى، وإن كان ليظل جائعاً يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتي بكنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض

الشيء من السوق ولا يمنعه الخيلاء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والصغير والكبير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير أو أسود أو أحمر، حر أو عبد من أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه) إلا أن البيهقي روى من حديث جابر أنه كان له برد يلبسه في العيدين والجمعة. (**لا يستحي من أن يجيب إذا دعي وإن كان**) الداعي (**أشعث أغبر**). وعند ابن ماجه من حديث أنس: كان يجيب دعوة المملوك، (**ولا يحقر ما دعي إليه**) ولو كان قليلاً أو حقيراً (**وإن لم يجد إلا حشف الدقل**) وهو رديء التمر. (**لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء**) وقد روي عن عطاء عن أبي سعيد نحوه كما سيأتي التنبيه عليه، (**هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسّام من غير ضحك**) أي كثير التبسم من غير مجاوزة فيه، كما روي من حديث عبد الله بن الحرث بن جزء (**محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قربى ومسلم، رقيق القلب دائم الإطراق**) أي النظر إلى الأرض. (**لم يتجشأ قط من شبع ولم يمد يده إلى طمع. قال أبو سلمة**) بن عبد الرحمن: (**فدخلت على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد**) الخدري رضي الله عنه (**في زهد رسول الله ﷺ فقالت: ما أخطأ منه حرفاً واحداً ولقد قصر إذ ما أخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلىء قط شبعاً ولم يبث إلى أحد شكوى، وإن كانت الفاقه لأحب إليه من اليسار والغمى، وإن كان**) ﷺ (**ليظل جائعاً يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز الأرض**

ومغاربها لفعل، وربما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: «يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني استحي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي دونهم فاصبر أياماً يسيرة أحب إليَّ من أن ينقص حظي غداً في الآخرة، وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني واخلائي». قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل.

فما نقل من أحواله ﷺ يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به، ومن رأى نفسه فوق محله ﷺ ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشد جهله! فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء

وثمارها ورغد عيشها من مشارقها ومغاربها لفعل) أي لم يكن ذلك من اضطرار به إليه ولكنه اختار ما عند الله، **(وربما بكيت رحمة له مما أوتي من الجوع فأمسح بطنه بيدي وأقول: نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع، فيقول: «يا عائشة إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبر وأعلى ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم)** أي منصرفهم، **(وأجزل)** أي وفر **(ثوابهم فاجدني استحي إن ترفهت)** أي توسعت **(في معيشتي أن يقصر بي دونهم، فأصبر أياماً يسيرة أحب إليَّ من أن ينقص حظي غدا في الآخرة، وما من شيء أحب إليَّ من اللحوق بإخواني وأخلائي». قالت عائشة رضي الله عنها: فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل)**.

قال العراقي في حديث أبي سعيد الخدري وعائشة قال الخدري لأبي سلمة: عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله ﷺ يعالج في بيته. كان يعلف الناضح الحديث، وفيه قال أبو سلمة: فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبي سعيد فقالت: ما أخطأ منه حرفاً ولقد قصر وما أخبرك أنه لم يمتلىء شبعاً قط. الحديث بطوله لم أقف لهما على إسناد اهـ.

قلت: روى أبو نعيم في الحلية من طريق الوضين بن عطاء، حدثنا عطاء بن أبي رباح قال: دعي أبو سعيد الخدري إلى وليمة وأنا معه فرأى صفرة وخضرة فقال: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد.

(فما نقل من أحواله ﷺ يجمع جملة أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به) فإن في الإقتداء به مقنعاً له، **(ومن رأى نفسه فوق محله ﷺ ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما أشد جهله)** وما أكثر حمقه، **(فلقد كان)** ﷺ **(أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين، فلا عز ولا رفعة إلا في الإقتداء به)** والإستنان بسنته، **(ولذلك قال عمر رضي**

به، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره، لما عوتب في بذاذة هيئته عند دخوله الشام. وقال أبو الدرداء: اعلم لله عباداً يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوّة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد ﷺ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن، وتواضع في غير مذلة، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون صدّيقاً أو ثلاثون رجلاً قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام

الله عنه: «إنّا قوم أعزنا الله ولا نطلب العز في غيره). قال ذلك (**لما عوتب في بذاذة هيئته**) أي رثاثتها (**عند دخوله الشام**) قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المقري، حدثنا يحيى بن الربيع، حدثنا سفيان، عن أيوب الطائي، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع خفيه وأمسكهما وخاض الماء ومعه بعيره، فقال أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض فصك في صدره وقال: أوه لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس فأعزكم الله برسوله فمهما تطلبون العزة بغيره يذلكم الله. رواه الأعمش عن قيس بن مسلم مثله.

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا محمد بن شبل، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن إسماعيل، عن قيس قال: لما قدم عمر الشام استقبله الناس وهو على بعيره فقالوا: يا أمير المؤمنين لو ركبت برذوناً يلقاك عظماء الناس ووجوههم. فقال عمر: لا أراكم ههنا إنما الأمر من ههنا وأشار بيده إلى السماء. خلوا سبيل جملي اهـ.

قلت: وروى الحافظ الذهبي من طريق قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب نحواً مما رواه أبو نعيم وفيه فقيل له: يا أمير المؤمنين الآن يلقاك الجنود والبطارقة وأنت هكذا. فقال: إنَّا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نلتمس العز بغيره.

(**وقال أبو الدرداء**) رضي الله عنه: (**اعلم أن لله عباداً يقال لهم الأبدال خلف من الأنبياء هم أوتاد الأرض، فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم أقواماً من أمة محمد ﷺ لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن خلقة**) وفي نسخة حلية ولفظ النوادر ولا تسبيح، (**لكن بصدق الورع**) ولفظ النوادر ولكن بحسن الخلق وصدق الورع (**وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبر، وتواضع في غير مذلة، وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه، وهم أربعون صدّيقاً ثلاثون رجلاً منهم قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل**

لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه، واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيب الناس خبراً وألينهم عريكة وأسخاهم نفساً، علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة، قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات ﴿أولئك حِزْبُ الله ألا إنَّ حزبَ اللهِ هُمُ المفلحون﴾ [المجادلة: ٢٢] قال الراوي: فقلت: يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد عليَّ من تلك الصفة وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة، وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة، واعلم يا ابن أخي أن ذلك في كتاب الله تعالى المنزل: ﴿إنَّ الله مع الذين اتَّقوا والَّذين هم محسنون﴾ [النحل: ١٢٨]، قال يحي بن كثير: فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب

منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه) أي يصير خلفاً له، **(واعلم يا أخي أنهم لا يلعنون شيئاً)** أي لأن الصديق لا يكون لعاناً كما ورد في الخبر وتقدم في آفات اللسان، **(ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً)** على ما آتاه الله من فضله، **(ولا يحرصون على الدنيا . هم أطيب الناس خبراً)** بضم فسكون أي مخبراً، **(وإلينهم عريكة)** أي طبيعة، **(واسخاهم نفساً . علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشية وغداً في غفلة ولكن مداومون على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة . قلوبهم تصعد ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقدماً في استباق الخيرات ﴿أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون﴾ قال الراوي: قلت يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة هي أشد عليّ من هذه الصفة، فكيف لي أن أبلغها؟ قال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها إلا أن تبغض الدنيا فإنك إذا بغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة، وبقدر حبك للآخرة تزهد في الدنيا . وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك، وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة . واعلم يا أخي أن ذلك في كتاب الله المنزل ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسـنون﴾ قال يحي بن كثير)** الكاهلي الكوفي لين الحديث روى له أبو داود . قال الذهبي في الديوان: هو معاصر للأعمش مجهول، وضعفه النسائي . وفي رجال ابن ماجه يحيى بن كثير بن أيوب . قال الدارقطني: متروك أما يحي بن كثير بن درهم العنبري البصري فثقة معروف، **(فنظرنا في ذلك فما تلذذ**

مرضاته. اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك يا رب العالمين فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته) هكذا أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول بطوله من قول أبي الدرداء).

اعلم أن حديث الأبدال قد روي عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً. منهم أنس بن مالك، وعبادة بن الصامت، وعبدالله بن عمر، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وعوف بن مالك، وأبو هريرة، ومعاذ بن جبل.

أما حديث أنس، فله طرق بألفاظ مختلفة.

منها: للخلال في كرامات الأولياء، والديلمي في مسند الفردوس بلفظ: «الإبدال أربعون رجلاً وأربعون امرأة كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً وإذا ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة».

ومنها للطبراني في الأوسط بلفظ: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن فبهم يسقون وبهم ينصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر» وإسناده حسن.

ومنها لابن عدي في كامله بلفظ: «البدلاء أربعون رجلاً إثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق وكلما مات منهم واحد أبدل الله مكانه آخر فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم فعند ذلك تقوم الساعة». وقد رواه أيضاً الحكيم في نوادر الأصول، والخلال في كرامات الأولياء.

ومنها: «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين» رواه الدارقطني في كتاب الأجواد، وابن لال في مكارم الأخلاق، وقد رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد به نحوه. وقال فضيل بن عياض: لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدور والنصح للأمة.

وأما حديث عبادة بن الصامت فلفظه: «الإبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً» رواه أحمد، والحكيم والخلال في كرامات الأولياء وإسناده حسن. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الواحد بن قيس وثقة العجلي وأبو زرعة وضعفه غيرهما، يروي: «لا يزال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن كلما مات واحد أبدل الله مكانه آخر». وروى أحمد والخلال، وهو عند الطبراني في الكبير بلفظ لا يزال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم يمطرون وبهم ينصرون».

وأما حديث عبدالله بن عمر: فأخرجه الطبراني في الكبير، وعنه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا محمد بن الحرث حدثنا سعيد بن أبي زيدون، حدثنا عبدالله بن هارون الصوري، حدثنا الإوزاعي،

عن الزهري، عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «خيار أمتي في كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون. كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم». قالوا: يا رسول الله دلنا على أعمالهم قال: يعفون عمن ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم ويتواسون فيما آتاهم الله». وقد رواه كذلك ابن عساكر وفي لفظ للخلال: «لا يزال أربعون رجلاً يحفظ الله بهم الأرض كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخروهم في الأرض كلها».

وأما حديث علي بن أبي طالب: فيروي بلفظ: «الابدال ستون رجلاً ليسوا بالمتنطعين ولا بالمبتدعين ولا بالمتعمقين ولا بالمعجبين لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكن بسخاء الأنفس وسلامة القلوب والنصيحة لائمتهم إنهم يا علي في أمتي من الكبريت الأحمر» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، والخلال في كراماتهم، ولأحمد في مسنده من طريق ابن شريح يعني ابن عبيد قال: ذكر أهل الشام عند علي رضي الله عنه وهو بالعراق فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين. فقال: لا إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «البدلاء» وفي لفظ: «الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب». ورجاله من رواه الصحيح إلا شريحاً وهو ثقة ورواه أيضاً الطبراني والحاكم من طرق تنوف على العشرة.

وأما حديث عبدالله بن مسعود؛ فقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا محمد بن السري القنطري، حدثنا قيس بن إبراهيم بن قيس السامري، حدثنا عبد الرحيم بن يحيى، حدثنا عثمان بن عمارة، حدثنا المعافي بن عمران، عن سفيان الثوري، عن منصور عن إبراهيم، عن الأسود عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام، ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام، ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب عزرائيل عليه السلام، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء». قيل لابن مسعود: كيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون فيسقون، ويسألون فتنبت لهم الأرض، ويدعون فتدفع عنهم أنواع البلاء.

وأما حديث عوف بن مالك، فاخرجه الطبراني وابن عساكر بلفظ: «الابدال في أهل الشام وبهم ينصرون وبهم يرزقون».

....

وأما حديث أبي هريرة فأخرجه ابن حبان في تاريخه بلفظ: «لن تخلو الأرض من ثلاثين مثل إبراهيم خليل الرحمن بهم يعافون وبهم يرزقون وبهم يمطرون» وإسناده حسن.

وأما حديث معاذ بن جبل، فأخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في سنن الصوفية والديلمي بلفظ: «ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال. الذين بهم قوام الدنيا وأهلها. الرضا بالقضاء، والصبر على محارم الله، والغضب في ذات الله» وقد روي موقوفاً على علي بلفظ: «لا تسبوا أهل الشام جماً غفيراً فإن بها الأبدال. قالها ثلاثاً أخرجه عبد الرزاق. ومن طريقه البيهقي في الدلائل، بل أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه من قوله، وكلهم رووه من طريق عبدالله بن صفوان عن علي. وهذه الرواية صححها الضياء في المختارة، ولفظ الحاكم: «لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال». وقد رواه الطبراني في الأوسط، وابن عساكر في التاريخ من حديث علي مرفوعاً.

ومن المراسيل ما رواه أبو داود في مراسيله، والحاكم في الكنى من حديث عطاء بن أبي رباح: الأبدال من الموالي زاد الحاكم: ولا يبغض الموالي إلا منافق، وفي مسنده رجال بن سالم منكر الحديث.

ومنها: ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، عن بكر بن خنيس مرفوعاً مرسلاً: «علامة أبدال أمتي أنهم لا يلعنون شيئاً أبداً» وقال السخاوي: هو مرفوع معضل وأما الآثار فسيأتي ذكرها.

وقد أورد ابن الجوزي أحاديث الأبدال في الموضوعات وطعن فيها واحداً واحداً، وتعقبه الحافظ السيوطي بأن خبر الأبدال صحيح، وإن شئت قلت متواتراً وأطال، ثم قال: مثل هذا بالغ حد التواتر المعنوي بحيث يقطع بصحة وجود الأبدال ضرورة انتهى.

وقال الحافظ بن حجر في فتاويه: الأبدال وردت في عدة أخبار منها ما يصح ومنها ما لا يصح، وأما القطب فورد في بعض الآثار، وأما الغوث بالوصف المشتهر بين الصوفية فلم يثبت انتهى.

وبهذا يظهر بطلان زعم ابن تيمية أنه لم يرد لفظ الأبدال في خبر صحيح ولا ضعيف إلا في خبر منقطع، وليته نفي الرؤية بل نفي الوجود وكذب من ادعى الورود، فهذه الأخبار وإن فرض ضعفها جميعها لكن لا ينكر تقوى الحديث الضعيف بكثرة طرقه وتعدد مخرجيه.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وإنما استتر الأبدال عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله وهم عند أنفسهم الجهلاء علماً اهـ.

ورأى بعضهم النبي ﷺ في المنام فقال: اين بدلاء أمتك؟ فأومأ بيده نحو الشام. قال: فقلت يا رسول الله أما بالعراق منهم أحد؟ قال: «بلى» وسمى جماعة. ومما يتقوّى به هذا الحديث ويدل لانتشاره بين الأئمة قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في بعضهم كنا نعده من الأبدال، وقول

البخاري في غيره كانوا لا يشكون أنه من الأبدال، وكذا وصف غيرهما من النقاد والحفاظ والأئمة غير واحد بأنهم من الأبدال، وقال بعضهم: الأبدال أكلهم فاقة وكلامهم ضرورة، وقال بعضهم علامة الأبدال أن لا يولد لهم، وعن معروف الكرخي قال: من قال اللهم ارحم أمة محمد في كل يوم كتبه الله من الأبدال وهو في الحلية بلفظ: من قال كل يوم اللهم اصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد كتب من الأبدال، وقال يزيد بن هارون الأبدال هم أهل العلم، قال أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم؟

وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن مقسم، حدثنا الياس بن يوسف الشكلي، حدثني محمد بن عبد الملك قال: قال عبد الباري قلت لذي النون المصري صف لي الأبدال فقال: إنك لستألني عن دياجي الظلم لأكشفنها لك عبد الباري. هم قوم إذا ذكروا ذكروا الله بقلوبهم تعظيماً لربهم لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله على خلقه ألبسهم النور الساطع من محبته ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته، وأقامهم مقام الأبطال لارادته، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفتهم، وطهر أبدانهم بمراقبته وطيبهم بطيب أهل معاملته وكساهم حللاً من شبح مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مسرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب فهي معلقة بمواصلته فهمومهم إليه ثائرة وأعينهم إليه بالغيب ناظرة إلى آخر ما قاله.

وروى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول أن الأرض اشتكت إلى ربها انقطاع النبوة فقال تعالى: سوف أجعل على ظهرك أربعين صديقاً كلما مات منهم رجل أبدلت مكانه رجلاً، ولذلك سموا بدالاً، فهم أوتاد الأرض وبهم تقوم الأرض وبهم يمطرون. وقال القطب أبو العباس المرسي قدس سره: جلت في الملكوت فرأيت أبا مدين معلقاً بساق العرش رجل أشعر أزرق العين فقلت له: ما علومك وما مقامك؟ قال: علومي أحد وسبعون علماً ومقامي رابع الخلفاء ورأس الأبدال السبعة. قلت فالشاذلي؟ قال: ذاك بحر لا يحاط به. وقال المرسي أيضاً: كنت جالساً بين يدي أستاذي الشاذلي فدخل جماعة فقال: هؤلاء أبدال، فنظرت ببصيرتي فلم أرهم أبدالاً فتحيرت فقال الشيخ: من بدلت سيئاته حسنات فهو بدل، فعلمت أنه أول مراتب البدلية.

وأخرج ابن عساكر أن ابن المثني سأل أحمد بن حنبل ما تقول في بشر بن الحرث؟ قال: رابع سبعة من الأبدال. وقال بلال الخواص فيما رويناه في مناقب الشافعي وفي رسالة القشيري: كنت في تيه بني إسرائيل فإذا رجل يماشيني فتعجبت منه وألهمت أنه الخضر، فقلت: بحق الحق من أنت؟ قال: أنا أخوك الخضر، فقلت له: أريد أن أسألك. قال: سل. قلت: ما تقول في الشافعي؟ قال: هو من الأوتاد. قلت: فما تقول في أحمد؟ قال: رجل صديق. قلت: فما تقول في بشر بن الحرث؟ قال: رجل لم يخلق بعده مثله. قلت: فبأي وسيلة رأيتك؟ قال: ببرك أمك.

وفي تاريخ الخطيب عن أبي بكر الكتاني قال: النقباء ثلاثمائة والنجباء سبعون والبدلاء أربعون والأخيار سبعة والعمد أربعة والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر،

....

ومسكن البدلاء الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض ومسكن الغوث مكة.

فصل

قال الشيخ الأكبر قدس سره في كتاب حلية الأبدال: أخبرني صاحب لنا قال: بينا أنا ليلة في مصلاي قد أكملت وردي وجعلت رأسي بين ركبتي أذكر الله تعالى إذ حسست بشخص قد نقض مصلاي من تحتي وبسط عوضه حصيراً وقال: صلى عليه وباب بيتي علي مغلق فداخلني منه الفزع فقال لي: من يأنس بالله لم يجزع. ثم قال: اتق الله في كل حال: ثم إني ألهمت الصوت فقلت: يا سيدي بماذا يصير الأبدال ابدالاً؟ فقال: بالأربعة التي ذكرها أبو طالب في القوت: الصمت العزلة والجوع والسهر، ثم انصرف ولا أعرف كيف دخل ولا خرج وبابي مغلق انتهى.

قال الشيخ الأكبر: وهذا رجل من الأبدال إسمه معاذ بن أشرس والأربعة المذكورة هي عماد هذا الطريق الأسنى وقوائمه، ومن لا قدم له فيها ولا رسوح تائه عن طريق الله تعالى وفي ذلك قلت:

يـا مَـنْ أراد منـازل الأبـدال ... مـن غير قصـد منـه للأعمالِ
لا تطمعـن بها فلسـت مـن أهلهـا ... إن لم تـزاحمهـم على الأحـوالِ
واصمت بقلبك واعتزل عن كل مـن ... يـدنيـك مـن غير الحبيـب الدالي
وإذا سهرت وجعت نلـت مقـامهـم ... وصحبتهـم في الحل والترحـالِ
بيـت الولايـة قسمـت أركـانـه ... سـاداتنـا فيـه مـن الأبـدالِ
مـا بين صمـت واعتـزال دائـم ... والجوع والسهـر النـزيـه العـالي

تنبيه:

لا تناقض بين أخبار الأربعين والثلاثين لأن الجملة أربعون رجلاً منهم ثلاثون قلوبهم على قلوب إبراهيم وعشرة ليسوا كذلك، فلا خلاف كما صرح به خبر أبي هريرة عند الحكيم الترمذي. وقال الشيخ الأكبر قدس سره: الأوتاد الذين يحفظ الله بهم العالم أربعة فقط، وهم أخص من الأبدال، والإمامان أخص منهم، والقطب أخص الجماعة، والأبدال لفظ مشترك يطلقونه على من تبدلت أوصافه المذمومة بالمحمودة ويطلقونه على عدد خاص وهم أربعون. وقيل: ثلاثون، وقيل: سبعة، وإنما سموا ابدالاً لأنه إذا مات واحد منهم أبدل، أو لأنهم أعطوا من القوة أن يتركوا بدلهم حيث يريدون، ولكل وتد من الأوتاد الأربعة ركن من أركان البيت ويكون على قلب نبي من الأنبياء، فالذي على قلب آدم له الركن الشامي، والذي على قلب إبراهيم له الركن العراقي، والذي على قلب يحيى له الركن اليماني، والذي على قلب محمد ﷺ له ركن الحجر الأسود وهو لنا بحمد الله تعالى. وقال في الفتوحات قوله في حديث على قلب إبراهيم، وفي

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له:

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

المقام الأول: في استئصال أصله، وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما.

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله،

حديث آخر على قلب آدم، وكذا قوله في غير هؤلاء ممن هو على قلب شخص من أكابر البشر أو الملائكة معناه أنهم يتقلبون في المعارف الإلهية بدل ذلك الشخص إذ كانت واردات العلوم الإلهية إنما ترد على القلوب، فكل علم يرد على قلب ذلك الكبير من ملك أو رسول يرد على هذه القلوب التي هي على قلبه، وربما يقول بعضهم: فلان على قدم فلان ومعناه ما ذكر، والله أعلم.

بيان في الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له:

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه**) إلا من عصمه الله تعالى، (**وإزالته فرض عين**) أي بمنزلته (**ولا يزول بمجرد التمني**) والتشهي (**بل بالمعالجة**) والرياضة وتهذيب النفس (**واستعمال الأدوية القامعة له. وفي معالجته مقامان**).

(**أحدهما: استئصال أصله من سنخه**) بكسر السين المهلة وسكون النون والخاء المعجمة، وسنخ كل شيء أصله والجمع أسناخ (**وقلع شجرته من مغرسها في القلب**).

(**الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره**).

(**المقام الأول: في استئصال أصله وعلاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما**).

(**أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه ويكفيه ذلك في إزالة الكبر فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل، فإنه لا يليق به إلا التواضع والمذلة والمهانة**) فتلك أخص أوصافه، (**وإذا عرف ربه**) حق المعرفة (**علم أنه لا**

أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته، وقد قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ ما أكفَرهُ★ من أيِّ شيء خَلَقَهُ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّره★ ثمّ السبيلَ يَسَّره★ ثم أماتَهُ فأقبره★ ثم إذا شاء أنشره﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان في حيز العدم دهوراً بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك في القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء، ثم من أقذرها إذ قد خلقه من

تليق العظمة والكبرياء) والجلال والمهابة **(إلا بالله)** عز وجل. **(أما معرفة ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة، وأما معرفته نفسه فهو أيضاً يطول لكن نذكر من ذلك علم ما ينفع في إثارة)** التواضع **(والمذلة، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله تعالى فإن في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته)** فقد روى الديلمي من حديث أنس «من أراد علم الأولين والآخرين فليتبوأ القرآن». **(وقد قال الله عز وجل: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾)** دعاء عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفران وهو مع قصره يدل على سخط عظيم وذم بليغ. **(من أي شيء خلقه)** بيان لما أنعم عليه خصوصاً من بعد عمومه والاستفهام للتحقير، ولذلك أجاب عنه بقوله: **(﴿من نطفة خلقه فقدره★﴾)** أي هيأه لما يصلح له من الأعضاء والأشكال أو فقدره أطواراً إلى أن تم خلقه **(﴿ثم السبيل يسره﴾)** أي ثم سهل مخرجه من بطن أمه بان فتح فوهة الرحم وألهمه أن ينتكس أو ذلل له سبيل الخير والشر، وتعريفه باللام دون الإضافة للإشعار بأنه سبيل عام وفيه إيماء بأن الدنيا طريق والمقصود غيرها ولذلك عقبه بقوله: **(﴿ثم أماته فأقبره★ ثم إذ شاء أنشره﴾)** وعد الإماتة والإقبار في النعم لأن الإماتة وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية واللذات الخالصة، والأمر بالقبر تكرمة وصيانة عن السباع، وفي **(إذا شاء)** إشعار بأن وقت النشور غير متعين في نفسه إنما هو موكول إلى مشيئته، **(فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخره وإلى أوسطه، فلينظر الإنسان ذلك)** ببصيرته **(ليفهم معنى هذه الآية. أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً)** كما قال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ [الإنسان: ١] **(وقد كان في كتم العدم)** وفي نسخة في حيز العدم **(دهوراً)** أي أزمنة متطاولة، **(بل لم يكن لعدمه، أول، وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم وقد كان كذلك في القدم ثم خلقه الله من أرذل الأشياء)** وفي نسخة من أذل الأشياء، **(ثم من اقذرها إذ خلقه من تراب)** وهو أذل الأشياء لكونه يداس بالأرجل، **(ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من**

تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم جعله عظماً، ثم كسا العظم لحماً، فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئاً مذكوراً فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوّته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنى قوله: ﴿من أي شيء خلقه* من نطفة خلقه فقدره﴾ ومعنى قوله: ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدَّهرِ لم يكُنْ شيئاً مذكوراً* إنَّا خلقْنَا الإنسان من نُطْفَةٍ أمشاجٍ نبتليه﴾ [الإنسان: ١، ٢] كذلك خلقه أولاً ثم امتن عليه فقال: ﴿ثمّ السبيل يسّره﴾ [عبس: ٢٠] وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت. وكذلك قال: ﴿من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه

مضغة، ثم جعله عظماً ثم كسا العظم لحماً) كما قال تعالى: ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ [المؤمنون: ١٤] (**فقد كان هذا بداية وجوده حيث صار شيئاً مذكوراً**) بعد أن لم يكن، (**فما صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الاوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً بل خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم** فبدأ **بموته**) الذي هو العدم (**قبل حياته**) وهي الوجود، (**وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره**، وبصممه قبل سمعه، وببكمه **قبل نطقه، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. وهذا**) هو (**معنى قوله**) تعالى: (**من أي شيء خلقه* من نطفة خلقه فقدره﴾ و**) كذلك (**معنى قوله تعالى: (﴿هل أتى على الإنسان﴾**) وهو إستفهام تقرير وتقريب ولذلك فسر بقد (**﴿حين من الدهر﴾**) أي طائفة محدودة من الزمان الممتد الغير المحدود (**لم يكن شيئاً مذكوراً**) بل كان شيئاً منسياً غير مذكور بالإنسانية كالعنصر والنطفة، والجملة حال من الإنسان أو وصف لحين بحذف الراجع، والمراد بالإنسان الجنس لقوله: (**﴿إنا خلقنا الإنسان﴾**) أو آدم بين أولا خلقه ثم ذكر خلق بنيه فقال: (**﴿من نطفة أمشاج نبتليه﴾ كذلك** خلقه أولاً ثم امتن **عليه فقال: ﴿ثم السبيل يسره﴾**) أي سبيل الخير والشر. (**وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت، وكذلك قال في الآية الأخرى ﴿من نطفة أمشاج﴾**) أي إخلاط جمع مشيج من مشجت الشيء إذا خلطته. وصف النطفة بها لأن المراد بها مجموع مني الرجل والمرأة وكل منهما مختلفة الأجزاء في الرقة والقوام والخواص، ولذلك يصير كل جزء منها مادة عضو، وقيل مفرد كأعشار وأكباش، وقيل: ألوان فإن ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اختلطا اخضرا أو أطوار، **فإن النطفة تصير علقة ثم** مضغة إلى تمام الخلقة (**نبتليه**) في موضع الحال أي مبتلين له بمعنى مريدين اختباره أو ناقلين له من حال إلى حال، فاستعار له الابتلاء (**فجعلناه سميعاً بصيراً**) ليتمكن من مشاهدة الدلائل

سميعاً بصيراً إنّا هديناهُ السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جاداً ميتاً تراباً أولاً ونطفة ثانياً، وأسمعه بعدما كان أصم، وبصره بعد ما كان فاقداً للبصر، وقوّاه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال. فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل كيف يسره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره؟ فقال: ﴿أوَلَمْ يَرَ الإنْسَان أنَّا خلقناهُ مِنْ نُطفةٍ فإذا هُو خصيمٌ مبين﴾ [يس: ٧٧] ﴿ومِنْ آياتهِ أنْ خلقكُم من ترابٍ ثمّ إذا أنتُم بشرٌ تنتشرون﴾ [الروم: ٢٠] فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجوداً بعد العدم، وحياً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمى، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد

واستماع الآيات فهو كالمسبب من الإبتلاء، ولذلك عطف بالفاء على الفعل المقيد به ورتب عليه قوله: (﴿**إنا هديناه السبيل**﴾) أي بنصب الدلائل وانزال الآيات (**إما شاكراً وإما كفوراً﴾ ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جاداً ميتاً تراباً أولاً ونطفة ثانياً، وأسمعه بعد ما كان** أصم، وبصره بعدما كان فاقداً للبصر، وقواه بعد الضعف، وعلمه بعد الجهل، وخلق له **الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات**) الدالة على عظيم قدرته (**بعد الفقد لها، وأغناه بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العري، وهداه بعد الضلال**) ثم قال تعالى: ﴿**أما** شاكراً وإما كفوراً﴾ وهما حالان من ضمير هديناه. «وإما» للتفصيل أو للتقسيم أي هديناه في حالتيه جيعاً أو مقسوماً إليها بعضهم شاكر بالإهتداء والأخذ به، وبعضهم كفور بالإعراض عنه. (**فانظر كيف دبره وصوره، وإلى السبيل**) المفضي للخير والشر (**كيف يسره**) أي سهله وذلله، (**وإلى طغيان الإنسان**) على ربه وخلقه (**ما أكفره، وإلى جهل الإنسان**) بمعرفته نفسه (**كيف أظهره فقال**) تعالى: (﴿**أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين**﴾) أي فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً من طينه قادر على الخصام معرب عما في نفسه، وقال تعالى: (﴿**ومن آياته**﴾) الدالة على باهر قدرته (**أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون**﴾) فوق الأرض وفي الآية الأولى تقبيح بليغ لإنكار الإنسان حيث عجب منه وجعله إفراطاً في الخصومة بينا، ومنافاة الجحود لقدرته على ما هو أهون مما عليه في بداية خلقه ومقابلة نعمته التي لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفاً مكرماً بالعقوق والتكذيب، وقد أشار إليه المصنف بقوله: (**فانظر إلى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة**) والشرف، (**فصار موجوداً بعد العدم، وحياً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمي، وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعد**

الجهل، ومهدياً بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وغنياً بعد الفقر؟ فكان في ذاته لا شيء وأي شيء أخس من لا شيء؟ وأي قلة أقل من العدم المحض؟ ثم صار بالله شيئاً، وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضاً ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا. ولذلك امتن عليه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ له عينين★ ولساناً وشفتين★ وهديناهُ النَّجدينِ﴾ [البلد: ٨ - ١٠] وعرف خسته أوّلاً فقال: ﴿أَلم يكُ نطفةً من منيٍّ يمنى★ ثم كان علقةً﴾ ثم ذكر منته عليه فقال: ﴿فخلق فسوى★ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٩] ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أوّلاً بالاختراع. فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق أخس الاخساء وأضعف الضعفاء؟ ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود

الجهل، ومهدياً بعد الضلال، وقادراً بعد العجز، وغنياً بعد الفقر، وكان في ذاته لا شيء) يذكر ويشار إليه **(وأي شيء أخس من لا شيء)** ولذلك سميت الجيفة القذرة لا شيء لما فيها من نهاية وصف الخسة. **(وأي قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيئاً)** يذكر ويشار به وإليه، **(وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضاً ليعرفه خسة ذاته)** ودناءتها، **(فيعرف به نفسه. وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وأنه لا يليق الكبرياء إلا به جل وعلا ولذلك امتن عليه فقال)** عز وجل: **(ألم نجعل له عينين)** يبصر بهما **(﴿ولساناً﴾)** يترجم به عما في ضميره **(﴿وشفتين﴾)** يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها **(﴿وهديناه النجدين﴾)** طريقي الخير والشر. **(وعرف خسته أولاً فقال)** ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدي★﴾ **(﴿ألم يك نطفة من مني يمنى﴾)** أي يراق يقال: أمنى منيه إذا أراقه **(ومني يمنى﴾ كرمي يرمي لغة فيه. (﴿ثم كان علقه﴾)** أي دماً. **(ثم ذكر منته عليه فقال: ﴿فخلق فسوى﴾)** أي قدره فعدله **(﴿فجعل منه الزوجين﴾)** الصنفين **(﴿الذكر والأنثى﴾ ليدوم وجوده بالتناسل)** والتوالد ولا ينقطع **(كما جعل وجوده ابتداء بالإختراع)** البديع من غير سبق مثال. **(فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله)** وأطواره **(فمن أين له البطر)** والأشر **(والكبرياء والفخر والخيلاء)** والتجبر **(وهو على التحقيق أخس الأخساء وأضعف الضعفاء)** وأذل الأشياء؟ **(ولكن هذه عادة الخسيس إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة إلا بالله. نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام**

باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة، من المرّة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى رضي أم سخط، فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار، فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه، يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل إن ترك بقي وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟ وأنَّى يليق الكبر به لولا جهله؟ فهذا أوسط أحواله فليتأمل.

له الوجود باختياره) وفي قبضة قدرته **(لجاز)** له **(أن يطغى)** ويبطر **(وينسى المبتدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة)** أي المخيفة **(والأسقام العظيمة والآفات المختلفة والطبائع المتضادة، من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أو أبى)** أي امتنع **(رضي أم سخط، فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً)** كل ذلك إجباراً عليه، **(لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً)**، ومن غريب أحواله أنه **(يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه، ويريد أن يصرف قلبه إلى ما يهمه)** ويعنيه **(فيجول في أودية الوساوس والأفكار)** المختلفة **(بالإضطراب، فلا يملك قلبه قلبه ولانفسه نفسه، فيشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه، ويكره الشيء وربما يكون حياته فيه، يستلذ الأطعمة)** المختلفة الألوان **(فتهلكه وترديه)** إما من الإكثار فيها أو من ضعف المعدة عن تحملها أو بغير ذلك، **(ويستبشع الأدوية)** المرة **(وهي تنفعه وتحييه)** وهو مع ذلك **(لا يأمن)** على نفسه **(في لحظة من ليله ونهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه)** كل ذلك فلتة **(ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل إن ترك بقي وإن اختطف فني عبد مملوك لا يقدر على شيء من)** عند **(نفسه ولا على شي من غيره، فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله)** وعناده. **(فهذا أوسط أحواله فيتأمله)** ببصيرته حتى ينكشف له ذلك.

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثم أماته فأقبره* ثم إذا شاء أنشره﴾ [عبس: ٢١، ٢٢] ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جماداً كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأوّل نطفة مذرة، ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميماً رفاتاً، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدىء بحدقتيه فيقلعهما وبخدّيه فيقطعهما، وبسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الإنتان، وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان فيصير تراباً يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان، فيصير مفقوداً بعدما كان موجوداً. وصار كأن لم يغن بالأمس حصيداً كما كان في أول أمره أمداً مديداً، وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً،

(**وأما آخره ومورده**) الذي يرد عليه (**فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثم أماته فاقبره* ثم إذا شاء أنشره﴾ ومعناه أنه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته فيعود جماداً كما كان أول مرة لا يبقى**) معه (**إلا شكل أعضائه وصورته**) الظاهرة (**لا حس فيه ولا حركة**) ثم يدرج في ثياب، (**ثم يوضع في التراب**) ويغلق عليه الباب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأول نطفة مذرة، ثم) بعد ذلك (**تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه فيصير رمياً ورفاتاً**) وقد رم العظم يرم من باب ضرب بلى فهو رميم، والجمع أرماء كدليل وأدلاء وجاء رمام مثل كريم وكرام والرفات بالضم العظم المتكسر، (**ويأكل الدود**) المتولد منه (**أجزاءه فيبتدىء بحدقتيه**) فإنهما أول ما يسيلان على الخدين (**فيقلعهما**) من موضعهما (**وبخديه فيقطعهما وبسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان**) ومن هنا مخاطبة القبر للإنسان: «أنابيت الدود» كما في الخبر، (**ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ويستقذره كل إنسان ويهرب منه لشدة الأنتان**) إذ لا نتن أشد من نتن جيفة الإنسان، (**وأحسن أحواله أن يعود**) إلى ما كان (**فيصير تراباً تعمل منه الكيزان ويعمر به البنيان، ويصير مفقوداً بعد ما كان موجوداً، وصار كأن لم يغن بالأمس حصيداً**) محصوداً متكسراً (**كما كان في أول مرة أمداً مديداً**) أي ممتداً، (**وليته بقي كذلك فما أحسنه لو ترك تراباً**) ومن هنا قول بعضهم:

ليتني كنت رماداً مديداً

وقال آخر:

ولو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حيّ

لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر إليه المجرم فيتحسر، ويرى صحائف منشورة فيقال له: ﴿اقرأ كتابك﴾ [الاسراء: ١٤] فيقول: وما هو؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود، قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم إلى الحساب واستعدّ للجواب أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه؟ فإذا شاهده قال: ﴿يا ويلتَنَا ما لهذا الكتـابِ لا يغـادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها﴾ [الكهف: ٤٩] فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثم إذا شاء

(**لا بل يحييه بعد طول البلى**) بكسر الباء (**ليقاسي شدائد البلاء**) بفتح الباء (**فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويخرج إلى أهوال**) يوم (**القيامة**) التي لم تكن منه على بال، (**فينظر إلى قيامة قائمة وسماء ممزقة مشققة**) مطوية. قال تعالى: ﴿إذا السماء انشقت﴾ [الإنشقاق: ١] وقال تعالى: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾ [الزمر: ٦٧] (**وأرض مبدلة**) قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ [إبراهيم: ٤٨] (**وجبال مسيرة**): قال تعالى: ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ [الشمس: ٣] (**ونجوم منكدرة**) قال تعالى: ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ [الشمس: ٢] (**وشمس منكسفة**) مكوّرة (**وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد**) أي أقوياء. قال تعالى: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ [التحريم: ٦] (**وجحيم تزفر**) قال الله تعالى: ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾ [الشمس: ١٢] (**وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر**) على دخولها (**ويرى صحائف منشورة**) قال تعالى: ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ [الشمس: ١٠] (**فيقال له: ﴿أقرأ كتابك**) كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ (**فيقول: وما هو؟ فيقال**) له: (**كان قد وكل بك في حياتك التي كنت**) تفرح بها في الدنيا (**وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها**) واعراضها (**ملكان رقيبان**) عتيدان (**يكتبان عليك ما كنت تنطق به وتعمله من قليل وكثير وصغير وكبير ونقير وقطمير**). وأصل النقير النكتة التي على ظهر النواة، والقطمير قشرتها والمراد بهما القلة، (**وأكل وشرب وقيام وقعود قد نسيت ذلك وأحصاه الله**) وضبطه (**عليك، فهلم إلى الحساب واستعد للجواب، أو تساق إلى دار العذاب فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب قبل أن تنشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه**) وفضائحه، (**فإذا شاهده قال**) مبادراً: (**﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾**) ووجد ما عمله حاضراً ولا ينسي ربك أحداً. (**فهذا آخر أمره وهو معنى قوله**

أنشره﴾ [عبس: ٢٢] فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح في لحظة واحدة فضلاً عن البطر والاشر؟ فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً، وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق. ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته، ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة ـ إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو ـ كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً؟ وأي عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظنّ به ولا قوّة إلا بالله. أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط

تعالى: ﴿**ثم إذا شاء أنشره**﴾ **فما لمن هذا حاله وللتكبر بل ماله وللفرح في لحظة فضلاً عن البطر والتبختر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر**) له (**آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقي عذاباً**). ونظر إلى هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ليتني كنت كبش أهلي سمنوني ما بدالهم حتى إذا كنت أسمن ما أكون زارهم بعض من يحبون فجعلوا بعضي شواء وبعضي قديداً ثم أكلوني فأخرجوني عذرة ولم أك بشراً. أخرجه هناد في الزهد، عن أبي معاوية، عن جويبر، عن الضحاك، عن عمر. وقال المسور بن مخرمة: لما طعن عمر قال: والله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله من قبل أن أراه، (**وإن كان عند الله مستحقاً عذاباً**) وفي نسخة للنار. (**فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع إذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب، و**) أيضاً فإن (**الخنزير والكلب لا يهرب منه الخلق. ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب في النار لصعقوا من**) الرؤية إلى (**وحشة خلقته وقبح صورته**) أي سقطت قوتهم، (**ولو وجدوا ريحه لماتوا بنتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقي منه في بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة، فمن هذا حاله في العاقبة**) والمآل (**إلا أن يعفـو الله عنه**) ويسامح له (**وهو على شك من العفو**) هل يعفي له أم لا؟ (**فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر**) على إخوانه (**وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلاً؟ وأي عبد لم يذنب ذنباً استحق به العقوبة إلا أن يعفو الكريم بفضله**) وإحسانه (**أو يجبر الكسر بمنه، والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به. أرأيت من جنى على بعض الملوك بما استحق به**

فحبس في السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا ؟ كيف يكون ذلة في السجن أفترى أنه يتكبر على من في السجن؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون آخر أمره؟ فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً . فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر .

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول: « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » . وقيل لسلمان : لم لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال: إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً أشار به إلى العتق في الآخرة، ولم يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً ، وقيل : الصلاة عماد الدين ، وفي الصلاة

ضرب ألف سوط فحبس في السجن وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق وليس يدري أيعفى عنه أم لا ؟ يكف يكون ذلة في السجن) وينسى ما اعد له من العقوبة ؟ (وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه) وقد روى الحاكم في تاريخه من حديث أبي هريرة : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وقد تقدم . (وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون أمره، فيكفيه ذلك حزناً وخوفاً واشفاقاً ومهانة وذلاً ، فهذا هو العلاج العلمي القاطع) وفي نسخة القامع (لأصل الكبر) من نسخه.

(وأما العلاج العملي فهو التواضع بالفعل لله) تعالى (ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناه وحكيناه من أحوال) السلف (الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى أنه كان يأكل على الأرض) ويعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير . رواه الطبراني من حديث ابن عباس، (ويقول :« إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ») رواه الدارقطني في الإفراد، وابن عساكر من حديث البراء ورواه هناد في الزهد عن الحسن مرسلاً . ورواه ابن عدي، وابن عساكر من حديث أنس بزيادة « واشرب كما يشرب العبد » ورواه الديلمي من حديث أبي هريرة أنه ﷺ أتى بهدية فلم يجد شيئاً يضعها عليه . فقال: « دعها على الحضيض » يعني الأرض ثم نزل فأكل ثم قال: « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » وقد تقدم في كتاب آداب المعيشة (وقيل لسلمان) الفارسي رضي الله عنه وقد رؤي عليه ثوب خلق: (لم لا تلبس ثوباً جديداً فقال: إنما أنا عبد فإذا اعتقت يوماً لبست) وقد (أشار به إلى العتق في الآخرة) أي إذا اعتقت من عذاب الآخرة لبست، وإنما استراح من غفر له كما في حديث عائشة . (ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله

أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركوع والسجود، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الإنحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، حتى قال حكيم بن حزام: بايعت النبي ﷺ على أن لا أخرَّ إلا قائماً فبايعه النبي ﷺ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم، وبه أمر سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقاً، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً،

ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً) فالإيمان المعرفة والصلاة العمل. **(وقيل الصلاة عماد الدين)** روى أبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري في كتاب الصلاة له، عن حبيب بن سليم، عن بلال بن يحي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله عن الصلاة فقال: «الصلاة عمود الدين» وهو مرسل ورجاله ثقات. وروي الديلمي من حديث علي: «الصلاة عماد الإيمان» وعند الأصبهاني في الترغيب بلفظ: «الصلاة عماد الإسلام».

(وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركوع والسجود وقد كان العرب قديماً يأنفون من الإنحناء) ويعدوه من المهانة، **(فكان يسقط من يد الواحد منهم سوطه فلا ينحني لأخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه حتى قال)** أبو خالد **(حكيم بن حزام)** بن خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي الأسدي ابن أخي خديجة بنت خويلد له حديث في الكتب الستة، وكان من سادات قريش تأخر إسلامه رضي الله عنه حتى أسلم عام الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم وشهد حنيناً وأعطى من غنائمها مائة بعير، ثم حسن إسلامه، مات سنة خمسين، وقيل: ستين وهو ممن عاش مائة وعشرين سنة شطرها في الجاهلية وشطرها في الإسلام قاله ابن المنذر: **(بايعت رسول الله ﷺ على أن لا أخر إلا قائماً)** رواه أحمد والنسائي وفيه ارسال خفي، **(ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك، فلما كان السجود عندهم هو منتهى المذلة والضعة أمروا به لينكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم)** وينتفي عيبة الجاهلية عنهم، **(وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العمل الذي يقتضيه التواضع، فكذلك من عرف نفسه فلينظر ما يتقاضاه الكبر من الأفعال فليواظب على نقيضه)** فإن المعالجة لا تتم إلا بما يناقض الداء، **(حتى يصير التواضع له خلقاً)** راسخاً **(فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعاً، وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح وسر الإرتباط الذي بين**

وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت، والقلب من عالم الملكوت.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة، وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر، ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة.

الأول: النسب. فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فخرت بآباء ذوي شرف ... لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حياً لكان له أن يقول: الفضل لي ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي؟ افترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي من بول فرس؟ هيهات! بل هما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة.

عالم الملك وعالم الملكوت، والقلب من عالم الملكوت) كما تقدم في كتاب عجائب القلب والله الموفق.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب **(السبعة المذكورة)** آنفاً **(وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي)** لا حقيقة له **(فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر)** وكذا العابد، **(ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة)**.

(الأول: النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداوِ قلبه بمعرفة أمرين).

(أحدهما: أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ولذلك قيل:

(لئن فخرت بآباء ذوي شرف ... لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا)

(فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً في **صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره؟ بل لو كان الذي ينسب إليه حياً لكان له أن يقول الفضل لي ومن أنت وإنما أنت دودة خلقت من بولي، أفترى أن الدودة التي خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التي خلقت من بول فرس)** مثلاً. **(هيهات: فهما متساويان والشرف للإنسان لا للدودة)**.

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجده فإن أباه القريب نطفة قذرة وجدّه البعيد تراب ذليل، وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه★ وبدأ خلْق الإنسان من طين★ ثم جعلَ نَسْلَهُ مِنْ سلالة من ماء مهين﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩]، فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنوناً كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة.

فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول: افتخر بالقريب دون البعيد، فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك، ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الأعلى من التراب فمن أين رفعته؟ وإذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذاً أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فضل. وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان. فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه، فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك ـ إذا أخبره عدول لا يشك في

(**الثاني: هو أن يعرف نفسه نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد**) وهو آدم عليه السلام (**تراب ذليل فقد عرفه الله تعالى نسبه، فقال**) عز وجل: (﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه★ وقد بدأ خلق الإنسان من طين★ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين**﴾ **فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالأقدام**) ويوطأ بها عليه، (**ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنوناً كيف يتكبر؟ وأخس الأشياء ما إليه انتسابه إذ يقال: يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأ ويا أقذر من المضغة، فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فيقول: افتخر بالقريب دون البعيد فالمضغة والنطفة أقرب إليه من الأب فليحقر نفسه بذلك ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالأب الاعلى**) خلق (**من التراب فمن أين رفعته**) ومن شأن التراب الذل؟ (**وإذا لم تكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده؟ فإذاً أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فضل. وهذه غاية خسة النسب فالأصل يوطأ بالأقدام والفصل تغسل منه الأبدان فهذا هو النسب الحقيقي للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه**) أنه (**من**) ولد (**بني هاشم**) بن عبد مناف جد النبي ﷺ (**وقد أخبره بذلك والده فلم تزل فيه نخوة الشرف**) أي عظمته، (**فبينا هو كذلك إذا**

قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم، أفترى ان ذلك يبقى شيئاً من كبره؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره. فهذا حال البصير إذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لماسة أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه؟

السبب الثاني: التكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم. ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيع في إمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطه، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه، كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا في حال توسطه.

أخبره) جماعة من المسلمين (**عدول لا يشك في قولهم أنه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات**) أي مص الدماء، (**وكشفوا له وجه التلبيس عليه**) إلى أن وثق به، (**فلم يبق له شك في صدقهم. أفترى أن ذلك يبقى شيئاً من كبره لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره. فهذا حال البصير**) الناقد (**إذا تفكر في أصله وعلم أنه** من النطفة والمضغة والتراب إذ لو **كان أبوه من يتعاطى نقل التراب**) بأن كان كناساً أو زبالاً (**أو يتعاطى الدم**) أي مصه (**بالحجامة**) أو التشريط (**وغيرها لكان يعلم به خسة نفسه لماسة أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو**) ويتباعد في نفسه؟

(**السبب الثاني: الكبر بالجمال، ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء المتأملين ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم. ومهما نظر إلى باطنه**) والدم (**في عروقه رأى من الفضائح ما يكدر عليه تعززه بجماله فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه الرجيع**) أي العذرة (**في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فيه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والصنان تحت إبطيه، ويغسل الغائط**) بيده (**كل يوم دفعة أو دفعتين، ويتردد إلى الخلاء كل يوم مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً عن أن يمسه أو يشمه**) ولو أصاب منه شيئاً من جسده أو ثوبه لساء

وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور ، ومن النطفة ودم الحيض ، وأخرج من مجرى الأقذار ، إذ خرج من الصلب ، ثم من الذكر مجرى البول ، ثم من الرحم مفيض دم الحيض ، ثم خرج من مجرى القذر . قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول مرتين . وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز : ما هذه مشية من في بطنه خرء إذ رآه يتبختر ، وذلك كان قبل خلافته وهذا أوله ووسطه .

ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار ، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التي لا تتعهد نفسها قط . فإذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن في أقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الأزهار في البوادي ، فبينما هو كذلك إذ صار هشيماً تذروه الرياح ، كيف ولو كان جماله باقياً وعن هذه القبائح خالياً لكان يجب

مزاجه وبادر إلى إزالته ، فتراه مدة جلوسه واضعاً يده على أنفه لئلا يشمه **(كل ذلك ليعرف قذراته وذله . هذا في حال توسطه)** .

(وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم الحيض) ، ولذلك إذا علقت المرأة انقطع عنها الدم . **(وأخرج من مجاري الأقذار إذ خرج)** أولاً **(من الصلب)** أي من صلب أبيه **(ثم من الذكر مجرى البول)** ومجرى المني غير مجرى البول عند الشافعي رحمه الله تعالى كما تقدم الكلام عليه في سر الطهارة ، **(ثم من الرحم مفيض دم الحيض ، ثم خرج من مجرى)** وفي نسخة من مخرج **(القذر . قال أنس)** بن مالك **(رحمه الله تعالى : كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول مرتين)** الأولى من مجرى بول أبيه ، والثانية من مجرى بول أمه . **(وكذلك قال طاوس)** اليماني **(لعمر بن عبد العزيز)** رحمهما الله تعالى : **(ما هذه مشية من في بطنه خرء إذ رآه يتبختر وذلك قبل خلافته)** وقد تقدم . **(هذا أوله ووسطه)** .

(ولو ترك نفسه في حال حياته يوماً لم يتعهدها بالتنظف والغسل) بالماء **(لثارت منه الأنتان والأقذار)** أي انبعثت **(وصار أقذر أنتن من الدواب المهملة التي لا تتعهد في نفسها قط ، فإذا نظر أنه خلق من أقذار واسكن في أقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن)** أي الشجرة الخضراء في منبت سوء ، فإن ما ينبت في الدمن وإن كان ناضراً لا يكون ثامراً وهو سريع الفساد ، **(وكلون الأزهار في البوادي بينما هو كذلك إذ صار هشيماً)** يابساً متكسراً **(تذروه)** أي تسفيه **(الرياح ، كيف ولو كان جماله باقياً وعن هذه القبائح خالياً لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح)**

أن لا يتكبر به على القبيح ،إذا لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين يتصوّر أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو سبب من الأسباب؟ فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجهال لمن أكثر تأملها.

السبب الثالث: التكبر بالقوّة والأيدي ، ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد في يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه وأن بقة لو دخلت في أنفه أو نملة دخلت في أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته ، وأن حمى يوم تحلل من قوّته ما لا ينجبر في مدة. فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغي أن يفتخر بقوّته! ثم إن قوي الإنسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل ، وأي افتخار في صفة يسبقك فيها البهائم؟

السبب الرابع والخامس: الغنى وكثرة المال ، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار

الصورة ، (**إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه؟ كيف ولا بقاء له بل هو في كل حين**) وفي نسخة حالة (**يتصور أن يزول بمرض أو جدري أو قرحة أو بسبب من الأسباب**) غير ما ذكر؟ (**فكم من وجوه جميلة سمجت**) أي قبحت بعد أن كانت جميلة (**بهذه الأسباب؟ فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجهال لمن أكثر تأملها**) .

(**السبب الثالث: التكبر بالقوة والأيدي ، ويمنعه من ذلك ما سلط عليه من العلل**) العارضة (**والأمراض**) الفاجئة (**فإنه لو توجع عرق واحد في يده**) لسلب القرار و(**لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل**) فكم لله من نعمة على عرق ساكن ، (**وأنه لو سلبه الذباب**) الذي هو أحقر المخلوقات (**شيئاً لم** يستنقذه منه وأن **بقة لو دخلت أنفه**) لأفسدت دماغه وبها كان هلاك النمروذ ، أو نملة دخلت أذنه لقتلته ، وأن شوكة لو دخلت رجله لأعجزته) عن المشي (**وأن حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة**) من الزمان ، (**فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر أن يمنع عن نفسه ذبابة ، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته**) ثم بتأمل أن أصله من التراب وهو أذل ما يكون فما يكون للمخلوق منه من القوة حتى يفتخر بها . (**ثم إن قوي الإنسان لا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل . وأي افتخار في صفة تسبقك البهائم فيها**) .

(**السبب الرابع والخامس: الغني وكثرة المال ، وفي معناه كثرة الإتباع والأنصار**)

والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان لا كالجمال والقوّة والعلم. وهذا أقبح أنواع الكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً. والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بني أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر، فإن تغير عليه كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل؟ فأف لشرف يسبقك به اليهودي! وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً؟ فهذه أسباب ليست في ذاته وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل، وكل ما ليس إليك فليس لك، وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه إن أبقاه بقي لك وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء ومن عرف ذلك لا بدَّ وأن يزول كبره.

ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوّته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وأن

والخدم (**والتكبر بولاية السلاطين**) للمناصب (**والتمكن من جهتهم، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعمل، وهذا أقبح أنواع التكبر، فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره، ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلاً، والمتكبر بتمكين السلطان وولايته**) لمنصب (**لا بصفة في نفسه بني أمره على قلب هو أشد غلياناً من القدر، فإن تغير عليه**) عزله عن ولايته وأسقطه من عينه و(**كان أذل الخلق، وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل**) فاسد العقل. (**كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى في اليهود**) والنصارى (**من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل**) بالأثاث والأمتعة. (**فأف لشرف يسبقك به اليهود**) والنصارى! (**وأف لشرف يأخذه السارق في لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلاً مفلساً فهذه أسباب ليست في ذاته وما هو في ذاته ليس إليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال، فالتفاخر به غاية الجهل وكل ما ليس إليك فليس لك وشيء من هذه الأمور ليس إليك بل هي إلى واهبه إن أبقاه بقي لك وإن استرجعه زال عنك، وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شيء. فمن عرف ذلك**) وتأمل فيه حق التأمل (**لا بد وأن يزول كبره. ومثاله: أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته**) وأعوانه (**واستقلاله**) في أموره، (**وسعة منازلة وكثرة خيوله وغلمانه إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف**) عادل (**بأنه رقيق لفلان، وأن أبويه كانا**

أبويه كانا مملوكين له، فعلم ذلك وحكم به الحاكم، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يده، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أنّ له مالكاً، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحد منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً في الخلاص البتة. أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوّته وجماله أم تذل نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك. فمن هذا حاله لا يتكبر بقوّته وقدرته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوّة. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما، ولكن في التكبر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره.

السبب السادس: الكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان

مملوكين له فعلم ذلك) وثبت لديه، **(وحكم به الحاكم فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما في يديه، وهو يخشى مع ذلك أن يعاقبه وينكل به لإفراطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرف أن له مالكاً، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوساً في منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو في كل حال على وجل من كل واحدة منها، وقد بقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً في الخلاص البتة. افترى أن من هذا حاله هل يفتخر بقدرته وثروته وقوته وجماله، أم يذل في نفسه ويخضع؟ وهذا حال كل عاقل بصير فإنه يرى نفسه كذلك فإنه لا يملك رقبته وماله وبدنه وأعضاءه، وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك، فمن هذا حاله لا يتكبر بقدرته وقوته إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة. فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل، فإنهما كمالان في النفس جديران بأن يفرح بهما لكن في التكبر بهما أيضاً نوع من الجهل خفي كما سنذكره).**

(السبب السادس: التكبر بالعلم، وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد، وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما

معها علم وعمل. ولذلك قال كعب الأحبار: إن للعلم طغياناً كطغيان المال. وكذلك قال عمر رضي الله عنه: العالم إذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم. ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين.

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم، فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم، ولذلك قال ﷺ: «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه». وقد مثل الله سبحانه

علم وعمل، ولذلك قال كعب الأحبار رحمه الله: **(إن للعلم طغياناً كطغيان المال، وقال عمر رضي الله عنه: العالم إذا زل بزلته عالم)** الأولى بكسر اللام والثانية بفتحها وأخصر منه: «زلة العالم زلة العالم» وقد تقدم في كتاب العلم. **(فيعجز العالم أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم، ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:**

أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أوكد، وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشرة من العالم، وأنه من عصى الله عن معرفة وعلم فجنايته أفحش) وأغلظ **(إذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العالم، ولذلك قال النبي ﷺ «يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه»)** أي أمعاؤه **(فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار** فيقولون **مالك)**، أي ما شأنك؟ **(فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهي عن الشر وآتيه)** قال العراقي: متفق عليه من حديث أسامة بن زيد بلفظ «يؤتى بالرجل وتقدم في العلم».

قلت: لفظ الشيخين «يجاء بالرجل وفيه فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر»؟ فيقول: «بلى قد كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه». ورواه كذلك أحمد ولفظ الحميدي والعوفي في مسنديها: يؤتى برجل كان والياً فيلقى في النار فتندلى أقتابه فيدور في النار كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر. والباقي سواء، وعند أبي نعيم في الحلية: يجاء بالأمير يوم القيامة فيلقى في النار فيطحن فيها كما يطحن الحمار بطاحونته فيقال له: ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال: بلى ولكن لم أكن لأفعله. وروى ابن النجار من حديث أنس: يؤتى بعلماء السوء يوم القيامة فيقذفون في نار جهنم فيدور أحدهم في جهنم بقصبه كما يدور الحمار بالرحى، فيقال له: يا ويلك بك اهتدينا فما بالك؟ قال: إني كنت أخالف ما أنهاكم.

وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل: ﴿مَثَلُ الّذين حُمِّلوا التَّوراة ثم لم يحمِلُوها كمثل الحمارِ يحملُ أسفاراً﴾ [الجمعة: ٥] أراد به علماء اليهود. وقال في بلعم بن باعوراء: ﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ حتى بلغ: ﴿فمَثَلُهُ كمثلِ الكَلْبِ إن تحملْ عليه يلهثْ أو تتركه يلهث﴾ [الأعراف: ١٧٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوتي بلعم كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض أي سكن حبه إليها

(وقد مثل الله تعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال: ﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ أراد به علماء اليهود) فإنهم لم يعملوا بما علموا. **(قال بلعم بن باعوراء)** بن يرم بن برسم بن مازن بن هاران بن تارح بن ناحور بن سروع بن ارغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح، وقيل في نسبه غير ذلك، وقيل هو من الكنعانيين وكان قد أوتي علم بعض كتب الله: ﴿واتل عليهم﴾ أي على اليهود ﴿نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ وكان أحد علماء بني إسرائيل أو المراد به أمية بن أبي الصلت، فإنه حينئذ قد كان قرأ الكتاب وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً في ذلك فرجا ان يكون هو، فلما بعث الله محمداً ﷺ حسده فكفر به، وهذا يروى عن عبد الله بن عمرو ﴿فانسلخ منها﴾ أي من الآيات بالله كفر بها أو أعرض عنها **(حتى بلغ ﴿فمثله كمثل الكلب﴾)** وتمام الآية بعد قوله: ﴿فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب﴾ أي فصفته التي هي مثل في الخسة كصفة الكلب في أخس أحواله، وقوله: ﴿أخلد إلى الأرض﴾ أي مال إلى الدنيا وإلى السفالة واتبع هواه في إيثار الدنيا واسترضاء قومه، وأعرض عن مقتضى الآيات وكان من حقه أن يقول: ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد إلى الأرض واتبع هواه مبالغة وتنبيهاً على ما حمله عليه، وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة.

(قال ابن عباس) رضي الله عنهما. **(أوتي بلعم كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض)** أي مال إليها. روى عبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعورا، وفي لفظ بلعام بن باعر الذي أوتي الاسم، وكان من بني إسرائيل. وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم أوتي اسم الله الأكبر، فلما نزل بهم موسى عليه السلام أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وأنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يردّ عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه مضت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فانسلخ ما كان فيه. وروى ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: هو رجل يدعى بلعم من أهل اليمن آتاه الله آياته فتركها. وروى ابن جرير عن مجاهد قال: هو نبي من بني إسرائيل يقال له بلعم أوتي النبوّة، فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه.

فمثله بالكلب ﴿إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته، ويكفي العالم هذا الخطر فأي عالم لم يتبع شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك. وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال؟ والعياذ بالله منه. فهذا الخطر يمنع من التكبر، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه، فكيف يتكبر من هذا حاله؟ فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عند نفسه من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي! ويأخذ الآخر تبنة من

﴿إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ واللهث إدلاع اللسان في التنفس الشديد أي يلهث دائماً سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ولم يتعرض له بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده، والشرطية في موضع الحال، والمعنى لاهثا في الحالتين والتمثيل واقع موقع لازم التركيب الذي هو نفي الرفع ووهن المنزلة للمبالغة والبيان، وقيل لما دعا على موسى خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كالكلب (**أي سواء آتيته أو لم أوته فلا يدع شهوته**). وقال ابن عباس: أي إن حمل الحكمة لم يحملها وإن ترك لم يهتد لخير كالكلب إن كان رابضاً يلهث وإن طرد يلهث. وقال قتادة: هذا مثل الكافر ميت الفؤاد كما أميت فؤاد الكلب. وقال عكرمة: هم أناس من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاه الله آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل الكلب. وقال مجاهد: قوله ﴿إن تحمل عليه﴾ أي إن تطرده بدابتك ورجليك وهو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به. وقال الحسن: (**إن تحمل عليه**) أي تسعى عليه. وقال ابن جرير: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع كان ضالاً قبل وبعد. (**ويكفي العالم هذا الخطر فأي عالم لم يتبع شهوته**) وركن إليها (**وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا**) يقابل (**بذاك**) فانظر أيهما أرجح (**وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه، فإنه إذا أخذ وقهر**) واذل (**اشتهى أن يكون قد كان فقيراً**) من آحاد الرعية ولم يكن ملكاً، (**فكم من عالم يشتهي في الآخرة**) لما يعاين الأهوال (**سلامة الجهال والعياذ بالله تعالى منه، فهذا الخطر يمنع من التكبر**) ويشغله عنه (**لأنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه**) إذ لا حساب على الخنزير، (**فكيف يتكبر من هذا حاله، فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عند نفسه من الصحابة رضوان الله عليهم، وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي**) روي ذلك من قول عمر رضي الله عنه بلفظ: ليت أم عمر لم تلد عمر ليتني كبشاً لأهلي فسمنوني

الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة! ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً أؤكل! ويقول الآخر: ليتني لم أك شيئاً مذكوراً! كل ذلك خوفاً من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من الطير ومن التراب. ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره، ورأى نفسه كأنه شر الخلق.

ومثاله: مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها، فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا؟ فأخبر مخبر أن سيده أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلاً ويلقيه على بابه في الحر والشمس زماناً طويلاً، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون؟ فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات

فذبحوني وأكلوني، **(ويأخذ الآخر)** منهم **(تبنة من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة، ويقول الآخر: ليتني كنت طيراً)** آوي إلى الأشجار وآكل الثمار ولا أشاهد هول القيامة، **(ويقول الآخر: ليتني لم أك شيئاً مذكوراً. كل ذلك خوفاً من خطر العاقبة، فكانوا يرون أنفسهم اسوأ حالاً من الطير ومن التراب)** ومن التبنة وما أشبه ذلك من المحتقرات، **(ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق)** فهذه مشاهدة العارفين الكاملين.

(ومثاله: مثال عبد أمر سيده بأمور فشرع فيها) بالعمل **(وترك بعضها)** تهاوناً **(وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا فأخبره مخبر أن مولاه أرسل إليه رسولاً يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلاً ويلقيه على بابه في الشمس والحر زماناً طويلاً حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغ به المجهود)** أي نهاية طاقته **(أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم)** ذلك العبد **(أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون)** أمن المعذبين أم من الخالصين؟ **(فإذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه، ولم يتكبر على أحد من الخلق بل تواضع)** وخشع **(رجاء أن يكون من شفعائه عند نزول العذاب به، فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه)** وقصر فيها

على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلم ما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي، فلا بدّ وأن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه. وهذا يزيل التكبر عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصوّر ذلك. وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام إذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه، وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة.

فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى. وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر؟ فاعلم أن ذلك إنما يمكن

(بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره وعلم ما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة).

(الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده) لقوله تعالى: ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾ [الجاثية: ٣٧] **(وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً)** لأنه نازع صفة من صفاته تعالى، **(وقد أحب الله تعالى منه ان يتواضع)** وأثنى على من اتصف به **(وقال له)**: يا عبدي **(إن لك عندي قدراً)** أي منزلة ومقاماً **(ما لم تر لنفسك قدراً فإن رأيت لنفسك قدراً فلا قدر لك عندي، ولا بدَّ أن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه** وهذا) الفهم **(يزيل التفكير عن قلبه وإن كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلاً أو تصوّر ذلك)** من غير استيقان، **(وبهذا زال الكبر عن الأنبياء)** عليهم السلام. **(إذ علموا أن من نازع الله في رداء الكبرياء)** بأن أراد ان يرتدي به **(قصمه)** أي كسره وقطعه، **(وقد أمرهم الله تعالى أن يصغروا أنفسهم)** ويذللوها **(حتى يعظم عند الله محلهم، فهذا أيضاً مما يبعثه على التواضع لا محالة)** ويحمله على الإتصاف به.

(فإن قلت: فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع) الحامل على بدعته، **(وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد)** ورع تقي، **(وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله، وكيف يخطر بباله وهو يعلم أن خطر الفاسق المبتدع أكثر؟ فاعلم أن ذلك إنما**

بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه، إذ يتصوّر أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر، والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الإسلام وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده، فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة. فإذاً من حق العبد أن لا يتكبر على أحد، بل إن نظر إلى جاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني، وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال: هذا قد أطاع الله قبلي فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن، فليس دوام الهداية إليّ، كما لم يكن ابتداؤها إليّ؟ فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفى الكبر عن نفسه،

يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه إذ يتصوّر) في العقل **(ان يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم ويختم له بالكفر)** عياذاً بالله منه، وقد وقع ذلك لكثير منهم وحكاية ابن السقاء والقطب عبد القادر الجيلاني في دخولهما على أحد الأولياء المكاشفين مشهورة في المناقب **(والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة، والكلب والخنزير أعلى مرتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك، فكم من مسلم نظر إلى عمر رضي الله عنه قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق)** بعد ذلك **(جميع المسلمين إلا أبا بكر)** رضي الله عنه **(وحده)** بنص: «ما طلعت شمس ولا غربت على أفضل من أبي بكر» كما هو في الخبر، **(فالعواقب مطوية عن العباد)** لا علم لهم بها **(ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة، وجميع الفضائل)** إنما **(تراد للعاقبة، فإذاً من حق العبد أن لا يتكبر على أحد)** أبداً **(بل إن نظر إلى جاهل قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهذا أعذر مني)** أي يقبل عذره أكثر مني. **(وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم)** وحصل ما لم أحصل، **(فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سناً قال: هذا قد أطاع الله قبلي)** وعبد الله قبلي، **(فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله؟ وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام)** ولعل المبتدع يتوب ويحسن حاله **(ويختم لي بما عليه الآن)** من الكفر والابتداع. **(فليس دوام الهداية إليَّ كما لم يكن ابتداؤها إليَّ)** إذ هي بيد الله تعالى؟ **(فبملاحظة الخاتمة يقدر على ان ينفي)** وصف **(الكبر عن نفسه)** ويزيله، **(وكل ذلك بأن**

وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله، لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه! ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته، لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان على نفسه. فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر، إذ شغل كل واحد همّ نفسه عن الالتفات إلى همّ غيره، حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.

فإن قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟ فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق، إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله، كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم؟ وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شراً والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير، فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه

يعلم أن الكمال) إنما هو **(في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له)** ولا دوام. **(ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه، ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا أن يشتغل بخوف غيره، فإن الشفيق بسوء الظن مولع، وشفقة كل إنسان على نفسه فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر)** جميعاً **(إذ شغل كل واحدهم نفسه عن الالتفات إلى هم غيره حتى كان كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره.**

فان قلت: فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟ فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله في انكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال) أي الإعجاب **(بالعلم والورع، فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقاً)** من الفساق **(جلس بجنبه أزعجه)** أي أقامه **(من عنده وتنزه عنه)** أي تباعد **(بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله)** وليس كما ظن، **(كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم)** وتقدم ذكره قريباً، **(وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شراً والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير، فإن الغضبان أيضاً يتكبر على من غضب عليه**

والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون.

والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث أنها نعمة من الله تعالى عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته، أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك، إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك، وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجياً وصاحبك

والمتكبر يغضب، وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه) فالغضب يوجب التكبر والتكبر يوجب الغضب، **(وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون)** بالله تعالى.

(والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف أو) عند **(نهيهما عن المنكر ثلاثة أمور)**.

(أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك) وسائر ما قصرت فيه من أوامر الله ونواهيه **(ليصغر عند ذلك قدرك في عينك)** فلا ترى لنفسك مقاماً.

(والثاني: اما أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث أنها نعمة من الله عليك، فله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبر) وفي بعض النسخ لم تنفر.

(والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته انه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه) فإذا حضرت هذه الأمور الثلاثة عند مشاهدة هؤلاء أو عند أمرهم ونهيهم يرجى أن يكون غضبه لله تعالى.

(فإن قلت: فكيف أغضب مع) وجود **(هذا الأحوال؟ فأقول: تغضب لمولاك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك وأنت في غضبك)** عليه **(لا ترى نفسك ناجياً**

هالكاً ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة ، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم انه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره. فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرّة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ، ويغضب عليه. فإن كان الغلام محباً مطيعاً لمولاه فلا يجد بداً من أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب ، وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام. فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع ؟ فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل ، ولما سُبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه ، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة. فهكذا يكون بغض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما

وصاحبك هالكاً، بل يكون خوفك على نفسك لما علم الله من خفايا ذنوبك) ودقائق معاصيك **(أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال)** يفهمك المقصود **(لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره. فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه)** والعزيز عنده **(وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه)** ويحافظ عليه **(وأمره بأن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه، فإن كان الغلام محباً مطيعاً لمولاه)** وفي نسخة مطيعاً محباً لمولاه **(فلا يجد بداً من أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب، وإنما يغضب عليه لمولاه)** لا لنفسه، **(لأنه** أي مولاه **(أمره به ولأنه يريد التقرب** بامتثال **أمره إليه ولانه جرى من ولده ما يكره مولاه، فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له)** عارف به **(يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام)** وأقرب، **(فإذاً ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما عند الله في الآخرة أعظم لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه)** ونهى عنه **(مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة، فهكذا يكون بغض العلماء الأكياس)** المتفطنين، **(فينضم**

يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور. فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم. وقد قال تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر: ٩] وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»، إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم.

فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر، فيقال له: أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك، وإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه التواضع له.

إليه الخوف والتواضع، وأما المغرور) بعلمه (**فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعافية وذلك غاية الغرور**) وهو مهلك. (**فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله واعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر**) الإلهي.

(**السبب السابع: التكبر بالورع والعبادة، وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد**) والورعين. (**وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم أن من تقدم عليه في العلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم، وقد قال تعالى**) في كتابه العزيز: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ تقدم الكلام عليه في أوّل كتاب العلم. (**وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»**) رواه الترمذي والطبراني من حديث أبي أمامة بلفظ: «كفضلي على أدناكم» قال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقد تقدم في كتاب العلم. وروى الحرث بن أبي أسامة في مسنده، وابن حبان في الضعفاء، وابن عبد البر في العلم، وابن النجار من حديث أبي سعيد بلفظ: «كفضلي على أمتي» (**إلى غير ذلك مما ورد في فضل العلم**) مما تقدم جميعها في كتاب العلم، (**فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر. فيقال له: أما علمت أن الحسنات يذهبن السيئات، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له إلى النجاة وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن. وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك فإذا كان هذا الأمر غائباً عنه لم يجز له أن يحتقر عالماً بل يجب عليه أن يتواضع له**) ويراه بعين الكمال.

فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام: « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ». فاعلم أن ذلك كان ممكناً لو علم العالم عاقبة أمره، وخاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم وقد مقته به، وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفاً على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من التكبر بكل حال. فهذا حال العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوباً وأكثر منه عبادة وأشد منه حباً لله، وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك. فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنباً، لأن عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة. نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا، ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد

(فإن قلت: فإن صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله ﷺ: « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » فاعلم أن ذلك كان ممكناً لو علم العالم عاقبة أمره وخاتمة الأمر مشكوك فيها) غير معلومة لأحد، **(فيحتمل أن يموت بحيث أن يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق بذنب واحد كان يحسبه هيناً وهو عند الله عظيم وقد مقته به)** وأبغضه بسببه، **(وإذا كان هذا ممكناً كان على نفسه خائفاً فإذا كل واحد من العالم والعابد خائف على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فيكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء، وذلك يمنعه من الكبر بكل حال. فهذا حال العابد مع العالم، فأما مع غير العالم فينقسمون في حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور)** الذي لم يجاهر بمعصيته **(فلعله أقل منه ذنوباً وأكثر منه عبادة وأشد منه حباً لله، وأما المكشوف حاله)** عند الناس **(إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه، ولا يمكن)** لك **(أن تقول هذا أكثر مني ذنباً، لأن عدد ذنوبك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة)** فيها. **(نعم يمكن أن يعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا)** وغيرها من الكبائر، **(ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه إذ ذنوب القلب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله**

والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله، فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً، وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك.

وقد قال وهب بن منبه: ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال، فعد تسعة حتى بلغ العاشرة فقال: العاشرة! وما العاشرة! بها ساد مجده وبها علا ذكره، أن يرى الناس

تعالى وتخيل الخطأ في ذلك كل ذلك شديد عند الله) مؤاخذ به العبد **(فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتاً)** وأنت لا تشعر، **(وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله وإخلاص وخوف وتعظيم)** لأمر الله **(ما أنت خال عنه، وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته، فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات، فهذا ممكن والإمكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنت مشفقاً على نفسك ولا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى)** أي لا تحمل حاملة ذنب نفس أخرى، **(وعذاب غيرك لا يخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق نفس غيرك)**.

(وقد قال وهب بن منبه) اليماني رحمه الله تعالى: **(ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال فعدّ تسعاً حتى بلغ العاشرة فقال: العاشرة! وما العاشرة)** أخرجه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مخلد، حدثنا الحرث بن أبي أسامة، حدثنا داود بن المحبر، حدثنا عباد بن كثير.

وحدثنا أحمد بن السندي، حدثنا الحسن بن علوية القطان، حدثنا اسماعيل بن عيسى، حدثنا إسحاق بن بشير كلاهما عن إدريس عن جده وهب بن منبه قال: ماعبد الله بشيء أفضل من العقل وما تم عقل امرىء حتى يكون فيه عشر خصال حتى يكون الكبر فيه مأموناً والرشد فيه مأمولاً. يرضى من الدنيا بالقوت وما كان من فضل فمبذول التواضع فيها أحب إليه من الشرف، والذل فيها أحب إليه من العز لا يسأم من طلب العلم دهره ولا يتبرم من مطالب الخير ولا يستكثر قليل

كلهم خيراً منه، وإنما الناس عنده فرقتان: فرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه، إن رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة ويقول: لعل بر هذا باطن فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، ويرى ظاهر فذلك شر لي. فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها، ثم قال: فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه. فهذا كلامه.

وبالجملة؛ فمن جوّز أن يكون عند الله شقياً وقد سبق القضاء في الأزل بشقوقه فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال.

نعم. إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيراً من نفسه وذلك هو الفضيلة، كما روي أن عابداً أوى إلى جبل فقيل له في النوم: ائت فلاناً الإسكاف فسله أن يدعو لك. فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم

المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه، والعاشرة هي ملاك أمره (بها ساد مجده) ولفظ الحلية: ينال مجده (وبها علا) ولفظ الحلية يعلو (ذكره) وزاد بعده، وبها علا في الدرجات في الدارين كلاهما. قيل: وما هي؟ قال: (أن يرى الناس كلهم خيراً منه. وإنما الناس عنده فرقتان: ففرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقة هي شر منه وأدنى. فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه، إن رأى من هو خير منه) وأفضل (سره ذلك وتمنى أن يلحق به، وإن رأى من هو شر منه) وأرذل (قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة ويقول: لعل بر هذا باطن) ولفظ الحلية: لعل لهذا باطناً لم يظهر لي (فذلك خير له، ولا أدري لعل فيه خلقاً كريماً بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال، ويرى ظاهر فذلك شر لي) ولفظ الحلية: ولعل ذلك شر لي، (فلا يأمن فيما أظهره من الطاعات أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها ثم قال: فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه) ولفظ الحلية: فهناك يكمل عقله ويسود أهل زمانه، وكان من السبّاق إلى رحمة الله عز وجل وجنته إن شاء الله،(فهذا كلامه).وفي سياق الحلية إختصار ومخالفة في بعض المواضع.

(وبالجملة؛ فمن جوّز أن يكون عند الله شقياً وقد سبق القضاء في الأزل بشقوته فما له سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال. نعم إذا غلب عليه الخوف رأى واحداً خيراً من نفسه وذلك هو الفضيلة، كما روي) في أخبار بني إسرائيل (أن عابداً) من عبادهم (آوى إلى جبل)فنام (فقيل له في النوم: ائت فلاناً الإسكاف) وسماه له (فسله أن يدعو لك فأتاه فسأله عن عمله فأخبره أنه يصوم النهار، ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه

عياله ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فأتي في النوم ثانياً فقيل له ائت فلاناً الاسكاف. فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله فقال له: ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد بهذه.

والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى: ﴿يؤتُونَ ما أُوتُوا وقلوبهم وجِلَة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي انهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها. وقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خشيَةِ رَبِّهِمْ مشفقُون﴾ [المؤمنون: ٥٧] وقال تعالى: ﴿إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ [الطور: ٢٦] وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدؤوب بالإشفاق، فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يَفتُرونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ﴿وهُمْ من خَشيتِهِ مشفقون﴾ [الأنبياء: ٢٨] فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل ـ وينكشف عند خاتمة الأجل ـ غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن والأمن مهلك. والتواضع دليل الخوف وهو مسعد؛ فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الاستصغار أكثر مما

فرجع) العابد (**وهو يقول: إن هذا لحسن، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله تعالى فأتي في النوم ثانياً وقيل له: ائت فلاناً الإسكاف**) المذكور (**فقل له: ما هذا الصفار الذي بوجهك**) أي أيّ شيء صفر لون وجهك؟ (**فأتاه فسأله فقال: ما رأيت أحداً من الناس إلا وقع لي**) في خاطري (**أنه سينجو وأهلك أنا، فقال العابد: بهذه**) نال ما نال من القرب والكرامة.

(**والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله عز وجل: ﴿يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة﴾ أي يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ وقال تعالى: ﴿إنّا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ وقد وصف الله الملائكة**) عليهم السلام (**مع تقدسهم من الذنوب ومواظبتهم على العبادة على الدؤوب**) أي الاستمرار (**بالاشفاق فقال تعالى مخبراً عنهم: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الأزل وينكشف عند خاتمة الأجل غلب الأمن من مكر الله، وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن، والأمن مهلك، والتواضع دليل الخوف وهو مسعد**) أي يورث السعادة في الآخرة. (**فإذاً ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر إليهم بعين الإستصغار**)

يصلحه بظاهر الأعمال. فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعن هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس.

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة.

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والإنقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه. أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وإن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى. وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما نقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الإستفادة ويقول: ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له! فالحكمة ضالة المؤمن

والمهانة (**أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال. فهذه معارف بها**) إذا تحقق بها (**يزول داء الكبر من القلب لا غير، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع**) في باطنها (**وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة**) في دعواها، (**فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ونسيت وعدها، فعن هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس**).

(**وبيانه أن يمتحن بخمسة امتحانات هي أدلة**) قوية (**على إستخراج ما في الباطن وإن كانت الإمتحانات كثيرة**).

(**الإمتحان الاوّل: أن يناظر في مسألة**) من المسائل العلمية (**مع واحد من أقرانه، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والإنقياد له والإعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه**) بالعلم والعمل. (**أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله**) عز وجل. (**وأما بالعمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الإعتراف بالحق فيطلق اللسان بالحمد**) له (**والثناء**) عليه، (**ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الإستفادة**) وهو أن يقول: **ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له!**

فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها ، فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر ، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ ، فليس فيه كبر وإنما فيه رياء ، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني. فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم ، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله ، فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق

فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلّه عليها) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها » وعند ابن النجار من حديث بريدة بلفظ « حيثما وجدها أخذها ! وروى القضاعي من مرسل زيد بن أسلم بلفظ « حيثما وجد المؤمن ضالته فليجمعها إليه ». (**فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك طبعاً له)** وسجية لازمة (**وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ، ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فهم)** من الأوصاف (**ففيه كبر فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملاء فليس فيه كبر ، وإنما فيه رياء فيعالج الرياء بما ذكرناه)** آنفاً (**من قطع الطمع عن الناس)** وعدم الإلتفات إلى ما بأيديهم ، (**ويذكر القلب بأن منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق إلى غير ذلك من أدوية الرياء)** كما تقدم ، (**فإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتلخص من الثاني ، فليعالج كِلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان)** .

(**الإمتحان الثاني: أن يجتمع من الأقران والأمثال في المحافل)** العامة (**ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور)** من المجالس (**تحتهم ، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله)** ويصير طبعاً له ، (**فبذلك يزايله الكبر . وههنا للشيطان مكيدة)** خفية (**وهو أن يجلس في صف النعال)** وهي آخر الصفوف وأرذلها ، (**أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل فيظن أن ذلك تواضع)** منه (**وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين)** ولا يثقل عليهم ، (**إي يوهمون أنهم تركوا**

والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة، والقلوب لا تدرك السعادة إلا

مكانهم بالإستحقاق **والتفضل فيكون قد تكبر بإظهار التواضع أيضاً)** فظاهره يرى متواضعاً وفي باطنه داء الكبر، **(بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن)**.

(الإمتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير) ولا يتأنف منه **(ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب)** والاصدقاء، **(فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق)** ومحاسنها **(والثواب عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث)** كامن **(في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر)**.

(الإمتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك) وامتنعت **(فهو كبر ورياء، فإن كان يثقل ذلك مع خلوّ الطريق)** عن الناس **(فهو كبر، وإن كان لا يثقل عليه إلا عند مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له)** هلاكاً أبدياً **(إن لم تتدارك)** بالمعالجات، **(وقد أهمل الناس طب القلوب)** مع شدة الحاجة إليه **(واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة)** فأنى يجدي الإشتغال بمداواتها **(والقلوب لا تدرك السعادة إلا**

بسلامتها إذ قال تعالى: ﴿إلاَّ من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٩] ويروى عن عبدالله بن سلام انه حمل حزمة حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك! قال: أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة؟ وفي الخبر: « من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برىء من الكبر ».

الامتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر. وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل، وقد قال ﷺ: « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر » وقال عليه السلام: إنما أنا

بسلامتها) عن الغش والغل والكبر والرياء والعجب وغيرها من الاخلاق الذميمة؟ (**إذ قال تعالى: ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ ويروى عن عبد الله بن سلام)** بن الحرث الإسرائيلي رضي الله عنه يكنى أبا يوسف وهو من ذرية يوسف عليه السلام. أسلم أوّل ما قدم النبي ﷺ المدينة. مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين، (**أنه حمل حزمة حطب)** على ظهره (**فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك)** وهم محمد ويوسف (**ما يكفيك)** يعني حمل الحطب! (**قال: أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك)** أم لا؟ (**فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة؟ وفي الخبر: « من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برىء من الكبر »)** قال العراقي رواه البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ « من حمل بضاعة » اهـ.

قلت: وبهذا اللفظ رواه ابن لال في مكارم الأخلاق، ورواه القضاعي والديلمي في مسنديهما، وأبو نعيم من طريق سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر به مرفوعاً بلفظ سلعته. وفي لفظ الشرك بدل الكبر، وروى ابن منده، وأبو نعيم من رواية حكيم بن حجدم عن أبيه رفعه في أثناء حديث: « ومن حمل من سوقه فقد برىء من الكبر » وسيأتي قريباً. وروى الديلمي من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه « من اشترى لعياله شيئاً ثم حمله بيده إليهم حط عنه ذنب سبعين سنة » وقد تقدم.

(**الإمتحان الخامس: أن يلبس ثياباً بذلة)** أي مبتذلة (**فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر. وكان عمر بن عبد العزيز)** رحمه الله تعالى (**له مسح يلبسه بالليل)** والمسح بكسر الميم وسكون السين المهملة كساء من صوف أسود، (**وقد قال ﷺ: « من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر »)** قال العراقي: رواه البيهقي من حديث أبي هريرة بزيادة فيه، وفي إسناده القاسم العمري ضعيف جداً اهـ.

قلت: وروى الطبراني في الكبير من حديث السائب بن يزيد: « من لبس الصوف وحلب الشاة

عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعقل البعير وألعق أصابعي وأجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنتي فليس مني». وروي أن أبا موسى الأشعري، قيل له أن أقواماً يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس. وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فاعرف! فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.

أو أكل مع ما ملكت يمينه فليس في قلبه إن شاء الله الكبر». وروى ابن منده، وأبو نعيم من رواية حكيم بن حجدم عن أبيه رفعه بسند ضعيف: «من حلب شاته ورقع قميصه وخصف نعله وواكل خادمه وحمل من سوقه فقد برىء من الكبر». وروى تمام في فوائده، وابن عساكر من حديث ابن عمر: «من لبس الصوف وانتعل المخصوف وركب حماره وحلب شاته وأكل معه عياله فقد نحى الله عنه الكبر» الحديث وسيأتي بقيته بعد هذا الحديث.

(وقال ﷺ: «إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف وأعتقل البعير وألعق أصابعي وأجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنتي فليس مني») قال العراقي: تقدم بعضه ولم أجد بقيته.

قلت: كأنه يشير إلى حديث البراء وأنس: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد» وقد تقدم ذكره. وروى تمام في فوائده، وابن عساكر من حديث ابن عمر «من لبس الصوف» الحديث وفيه «أنا عبد إبن عبد أجلس جلسة العبد وآكل أكلة العبد إني قد أوحي إليّ أن تواضعوا ولا يبغي أحد على أحد» وروى ابن عساكر من حديث أبي أيوب: «كان النبي ﷺ يركب الحمار ويخصف النعل ويرقع القميص ويلبس الصوف ويقول: من رغب عن سنتي فليس مني» وروى الحاكم من حديث أنس: «كان يردف خلفه ويضع طعامه على الأرض ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار» وحديث لعق الأصبع تقدم في كتاب أخلاق النبوّة.

(وروي أن أبا موسى الأشعري) رضي الله عنه **(فقيل له: أن أقواماً يتخلفون عن)** صلاة **(الجمعة)** أي بالبصرة **(بسبب ثيابهم)** أي بسبب إبتذالها وكأنهم يستحيون أن يحضروا في تلك الثياب. **(فلبس عباءة)** وهي كساء صوف على هيئة القميص **(فصلّى فيها بالناس)**. أخرجه أبو نعيم في الحلية، ثنا أحمد بن جعفر بن حدان، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو هلال، حدثنا قتادة أن أبا موسى بلغه أن ناساً يمنعهم من الجمعة أن لا ثياب لهم فلبس عباءة ثم خرج فصلى بالناس. **(وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فاعرف)** وليميز بينهما ثم يداوي كلاً منها بما تقدم من ذكر الأجزاء المركبة من العلم والعمل، **(فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا يداويه)**، فمعرفة الشر من حيث أنه شر لازم كمعرفة المرض فإنه إذا وقع فيه يعرف كيف يتخلص منه، والله الموفق.

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة، والوسط يسمى تواضعاً. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها، فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع. أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه. والعالم إذا دخل عليه اسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل، وهذا أيضاً غير محمود بل المحمود عند الله العدل، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته فإما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره ولا يعرف خاتمة أمره. فإذا سبيله في اكتساب التواضع

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع:

(اعلم) هداك الله تعالى (**أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً**) وهو الإفراط، (**وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة**) وهو تفاعل من الخسة وهذا هو التفريط، (**والوسط يسمى تواضعاً. والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس، فإن كلا طرفي**) قصد (**الأمور ذميم وأحب الأمور إلى الله أوساطها**) .وروى صاحب الحلية عن وهب بن منبه قال: إن لكل شيء طرفين ووسطاً، فإن أمسك بأحد الطرفين مال الآخر وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان فعليكم بالأوساط من الأشياء. (**فمن يتقدم على أمثاله**) وفي نسخة أقرانه (**فهو متكبر، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع**) بأن يجلس بجنبهم. (**أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه، والعالم إذا دخل عليه إسكاف**) أو من في معناه من السوقية (**فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم تقدم وسوّى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه**) يودعه (**فقد تخاسس وتذلل وهو أيضاً غير محمود، بل المحمود عند الله تعالى وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله**) وأقرانه (**ولمن يقرب من درجته، فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام**) والبشاشة في الوجه (**والرفق في السؤال وإجابة دعوته**) إذا دعاه إلى منزله (**والسعي في حاجته**) حتى يتمها، (**وأمثال ذلك. وأن لا يرى نفسه خيراً منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره**) وخاتمته

أن يتواضع للاقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع، وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية، فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه إلى أن يعود إلى الوسط الذي هو الصراط المستقيم، وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الأخلاق. والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل، فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع.

بماذا يختم لكل منها. (**فإذا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه، فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وإن كان يثقل عليه، وهو**) مع هذا (**يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع، بل الخلق**) كما تقدم في رياضة النفس (**ما يصدر عنه بسهولة**) ويسر (**من غير ثقل ومن غير روية**) أي تروّ في أمر بأن يقدم رجلاً يؤخر أخرى، (**فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج إلى طرف النقصان فليرفع نفسه إذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه**) كما ورد في الخبر وتقدم في كتاب العلم (**إلى أن يعود إلى**) حد (**الوسط الذي هو الصراط المستقيم**) السالم عن الميل، (**وذلك غامض في هذا الخلق**) بل (**وفي سائر الأخلاق، والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق**) والتذلل (**أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل**) لما فيه من البذل للغير وإن كان في غير موضعه بخلاف طرف البخل، (**فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان**) وقد جاء في كل منهما من الآيات والأخبار ما يشهد على الذم وأحدهما أفحش من الآخر، وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضع الأمور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما تعرف ذلك بالشرع والعادة فما اقتضته القواعد الشرعية واستحسنته العادة العرفية فليقدم عليه ومالا فلا. (**ولنقتصر على هذا القدر من بيان خلق الكبر والتواضع**) وبه يتم الشطر الأوّل من هذا الكتاب، والله الموفق.

الشطر الثاني: من الكتاب) في العجب، وفيه بيان ذم العجب وآفاته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه.

بيان ذم العجب وآفاته:

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قال الله تعالى: ﴿ويومَ حنيْن إذ أعجبتكم كثرتَكُم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ [التوبة: ٢٥] ذكر ذلك في معرضْ الإنكار وقال عز وجل: ﴿وظنّوا أنَّهم مانعتهم حصونهم من الله فآتاهُمُ الله من حيثُ لم يحتسبوا﴾ [الحشر: ٢] فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم، وقال تعالى: ﴿وهم يحسَبونَ أنَّهم يحسنون صُنعاً﴾ [الكهف: ١٠٤] وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل. وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه. وقال ﷺ: « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه »، وقال لأبي ثعلبة ـ حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال ـ « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب

(**الشطر الثاني من الكتاب في العجب**) : وفيه بيان ذم العجب وآفته، وبيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما، وبيان علاج العجب على الجملة، وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه).

بيان ذم العجب وآفته:

(**اعلم**) ارشدك الله تعالى (**أن العجب مذموم في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله** ﷺ . **قال الله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ ذكر ذلك في معرض الإنكار**) أي أنكرَ إعجابهم بقولهم: إنا لن نغلب من قلة قاله رجل من الأنصار، وكان المسلمون اثني عشر ألفاً عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان من مسلمة الفتح وقد تقدم ذلك. (**قال تعالى ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا**) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم. وقال تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه. وقال ﷺ: « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ») رواه الطبراني في الأوسط والبزار وأبو الشيخ في التوبيخ والبيهقي والخطيب في المتفق والمفترق، وأبو نعيم في الحلية من حديث أنس بزيادة « من الخيلاء ». ورواه الطبراني في الأوسط أيضاً من حديث ابن عمر. ورواه البزار من حديث أنس بلفظ « وإعجاب المرء برأيه » وقد تقدم ذلك مراراً في كتاب ذم البخل وأوّل ما ذكره المصنف في كتاب العلم. (**وقال**) ﷺ (**لأبي ثعلبة**) الخشني رضي الله عنه (**حيث ذكر آخر هذه الأمة**)

كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك ». وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين القنوط والعجب. وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمر، والقانط لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى. فالموجود لا يطلب، والمحال لا يطلب، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط، فمن ههنا جمع بينهما. وقد قال تعالى: ﴿فلا تزكُوا أنفسَكُم﴾ [النجم: ٣٢] قال ابن جريج: معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت. وقال زيد بن أسلم: لا تبروها، أي لا تعتقدوا أنها بارة وهو معنى العجب. ووقى طلحة رسول الله ﷺ يوم أُحد بنفسه فاكب عليه حتى أصيبت كفه، فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح، فتفرس ذلك عمر فيه فقال: ما زال يعرف في طلحة بأو منذ

وما تؤول إليه من الحوادث والوقائع: (« إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ») رواه أبو داود والترمذي وحسنه ابن ماجه وقد تقدم. (**وقال ابن مسعود**) رضي الله عنه: (**الهلاك في اثنتين**) أي في خصلتين هما: (**القنوط**) من رحمة الله، (**والعجب**) بنفسه، (**وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير**) وبذل الهمة (**والقانط**) من شأنه أنه (**لا يسعى ولا يطلب والمعجب**) بنفسه أو برأيه (**يعتقد أنه قد سعد وظفر بمراده فلا يسعى**) أيضاً. (**فالموجود**) المتيسر (**لا يطلب والمحال لا يطلب**) لكون فرضه محالاً وإن لم يكن في نفسه محالاً (**والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له**) كأنها في حوزة يده (**ومستحيلة في اعتقاد القانط**) ولو لم تكن في الحقيقة كذلك، (**فمن ههنا جمع بينهما وقد قال تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾**) أي لا تمدحوها ولا تثنوا عليها والتزكية النسبة إلى الصلاح. (**وقال ابن جريج**) عبد الملك بن عبد العزيز القرشي مولاهم: (**معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت**). وروي نحوه عن مجاهد عند ابن المنذر. (**وقال زيد بن أسلم**) العدوي مولاهم: معناه (**لا تبروها**) رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. (**أي لا تعتقدوها أنها بارة وهو معنى العجب، ووقى طلحة**) بن عبيد الله التيمي القرشي أحد العشرة رضي الله عنهم (**رسول الله ﷺ يوم أحد بنفسه فأكبّ عليه حتى أصيبت كفه**) قال العراقي: رواه البخاري من رواية قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها رسول الله ﷺ اهـ.

وروى أبو داود، والطيالسي من حديث عائشة قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحد قال: ذلك يوم كله لطلحة رأيناه في بعض تلك الحفار فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر بين طعنة وضربة ورمية، وإذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا من شأنه، (**فكأنه أعجبه فعله العظيم إذ فداه بروحه حتى جرح فتفرس ذلك فيه عمر**) رضي الله عنه (**فقال: ما زال يعرف في**

أصيبت أصبعه مع رسول الله ﷺ . والبأو : هو العجب ـ في اللغة ـ إلا أنه لم ينقل فيه انه أظهره واحتقر مسلماً ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس : أين أنت من طلحة ؟ قال : ذلك رجل فيه نخوة. فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم؟ وقال مطرف : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً . وقال ﷺ : « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب » فجعل العجب أكبر الذنوب. وكان بشر بن منصور من

طلحة بأومنذ أصيب أصبعه مع رسول الله ﷺ . والبأ : وهو العجب في اللغة) ، ومنهم من قال : هو العجب بحسن الهيئة ، ومنهم من فسره بالإفتخار **(إلا أنه لن ينقل فيه أنه أظهره) في** وقت من الأوقات **(واحتقر مسلماً)** وقد عصمه الله من ذلك ، **(ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس)** رضي الله عنهما : **(أين أنت من طلحة؟ قال ذاك رجل فيه نخوة)** .أخرجه إسحاق بن بشير في كتاب المبتدأ له باسناد له عن ابن عباس قال : دخلت على عمر وقد خلا يوماً فتنفس تنفساً ظننت أن نفسه خرجت ، ثم رفع رأسه فتنفس الصعداء فقلت : والله لأسألنه . فقلت : ما أخرج هذا منك إلاّ همّ. قال : هم والله شديد هذا الأمر لو أجد له موضعاً يعني الخلافة ثم قال : لعلك تقول أن صاحبك لها يعني علياً . قلت : يا أمير المؤمنين أليس هو أهلها في هجرته وأهلها في صحبته وأهلها في قرابته؟ قال : هو كما ذكرت ، ولكن رجل فيه دعابة. فقلت : فالزبير ؟ قال : يقاتل على الصاع بالبقيع . قلت : طلحة ؟ قال : إن فيه لبأواً وما أرى الله يعطيه خيراً وما برح ذلك فيه منذ أصيبت يده. قلت : سعد ؟ قال : يحضر الناس ويقاتل وليس بصاحب هذا الأمر . قلت : فابن عوف ؟ قال : نعم المرء ولكنه ضعيف . قال : وأخرت عثمان لكثرة صلاته وكان أحب الناس إلى قريش فقلت : عثمان ؟ قال : أوه أوه كلف بأقاربه كلف بأقاربه لو استعملته استعمل بني أمية أجمعين أكتعين ويحمل بني أبي معيط على رقاب الناس ، والله لو فعلت لفعل ولسارت إليه العرب حتى تقتله إن هذا الأمـر لا يحمله إلا اللين في غير ضعف ، القوي في غير عنف ، الجواد في غير سرف ، الممسك في غير بخل . وإسحاق بن بشر قال الذهبي كذاب . **(فإذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم؟ قال مطرف)** بن عبد الله بن الشخير رحمه الله تعالى تابعي عابد ثقة : **(لأن أبيت قائماً وأصبح نادماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً)** أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أبي حامد بن جبلـة ، حدثنا أبو العباس السراج ، حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو الأشهب عن رجل قال : قال مطرف فذكره . **(وقال ﷺ : « لو لم تذنبوا)** وفي رواية « لو لم تكونوا تذنبون » **(لخشيت)** وفي رواية « لخفت » **(عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب »)** هكذا هو مرتين. قال العرقي : رواه البزار ، وابن حبان في الضعفاء ، والبيهقي في الشعب من حديث أنس ، وفيهسلام بن أبي الصهباء . قال البخاري : منكر الحديث. وقال أحمد : حسن الحديث . ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف جداً اهـ

الذين إذا رأوا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر، فلما انصرف عن الصلاة قال له: لا يعجبنك ما رأيت مني فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه. وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن، وقد قال تعالى: ﴿لا تبطلوا صدقاتكُم بالمنِّ والأذى﴾ [البقرة: ٢٦٤] والمن نتيجة استعظام الصدقة، واستعظام العمل هو العجب. فظهر بهذا أن العجب مذموم جداً.

بيان آفة العجب:

اعلم أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه ـ كما

قلت: ورواه كذلك الخرائطي في مساوىء الأخلاق، والحاكم في تاريخه، وأبو نعيم في الحلية كلهم من حديث أنس وطرق الكل ضعيفة. ولذا قال الذهبي في الميزان عقب إيراده: ما أحسنه من حديث لو صح. وقال السيوطي في المنار: هو حسن وكأنه راعى تعدد طرقه فإنه يفيد نوع قوّة. بل قال المنذري رواه البزار بإسناد جيد. (**فجعل العجب أكبر من الذنوب**) لكونه يورث الغرور بالعمل فلا يوفق للتوبة بخلاف غيره من المعاصي، ولان العجب يصرف وجه العبد عن الله والذنب يصرفه إليه، ولأن العجب يقبل به على نفسه والذنب يقبل به على ربه، ولأن العجب ينتج الإستكبار والذنب ينتج الإضطرار والإفتقار، وخير أوصاف العبد اضطراره وافتقاره إلى ربه. وفي الحديث دلالة على أن العبد لا تبعده الخطيئة عن الله، وإنما يبعده الإصرار والإستكبار والإعراض، بل قد يكون الذنب سبب الوصلة بينه وبين ربه. (**وكان بشر بن منصور**) السليمي أبو محمد البصري والد إسماعيل وسليمة كسفينة حي من الأزد قال أحمد: ثقة وزيادة. وقال أبو زرعة: ثقة مأمون مات سنة ثمانين ومائة. روى له مسلم، وأبو داود، والنسائي، (**من الذين إذا رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة**) قال ابن المديني: ما رأيت أحداً أخوف لله منه وكان يصلي كل يوم خمسمائة ركعة وحفر قبره وختم فيه القرآن وكان ورده ثلث القرآن، (**فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر، فلما انصرف من الصلاة قال: لا يعجبنك ما رأيته مني فإن إبليس قد عبد الله مع الملائكة مدة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه**) أي فلا ينبغي للإنسان أن يغتر بالعمل أو يسلك به مسلك الإعجاب. (**وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن. وقال** [illegible] **﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ والمنّ**) على المتصدق عليه (**ينتجه** [illegible] **واستعظام العمل هو العجب**) لأنه لولا يعجب به لما عدّه عظيماً، (**فظهر** [illegible] **العجب مذموم جداً، والله أعلم**)

بيان آفة العجب:

(**اعلم**) هداك الله تعالى (**أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه** [illegible]

ذكرناه ـ فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى ، هذا مع العباد ، وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه انه مستغن عن تفقدها فينساها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له ، وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع ، وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن انه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقاً بأعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه ، ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها ، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الإستفادة ومن الإستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه . وربما يعجب بالرأي الخطا الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ناصح

أحد أسبابه ـ كما ذكرناه) ـ قريباً (**فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى**) فآفات الكبر في آفات العجب (**هذا مع العباد ، وأما مع الله**) عز وجل (**فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها**) من أصلها (**فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها**) لأجل ذلك ، (**وما يتذكر منها فيستصغره ولا يستعظمه ولا يجتهد في تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال**) الصادرة منه (**فإنه يستعظمها ويتبجح بها**) أي يتفاخر ، (**ويمنّ على الله تعالى بفعلها وينسى نعمة الله تعالى عليه بالتوفيق والتمكين منها**) ولو شاء لصرفه عنها ، (**ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها**) التي في ضمنها وما يطرأ عليها منها ، (**ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً ، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب**) الخفية (**قلما تنفع**) صاحبها ، (**وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون**) من يغلب عليه (**العجب ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان**) ومنزلة . (**وأن له عند الله منة وحقاً بأعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه ويخرجه العجب إلى أن يثنى على نفسه ويحمدها ويزكيها**) وينسب لها الفضيلة ، (**فإن أعجب برأيه وعقله وعلمه**) بأن نسب الرأي إلى السداد والعقل إلى الكمال والعلم إلى الكثرة (**منع ذلك من الإستفادة والإستشارة والسؤال فيستبد**) أي يستقل (**بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه**) أو يجلس بين يديه فيستفيد منه حكمة . (**وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخاطر غيره**

ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه، فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله إلى الحق، فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات. ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه انه قد فاز وإنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما:

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان.

إحداهما: أن يكون خائفاً على زواله ومشفقاً على تكدره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب.

والأخرى: أن لا يكون خائفاً من زواله لكن يكون فرحاً به من حيث أنه نعمة من

فيصر عليه) ويعمل بمقتضاه، (ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الإستجهال) والإستحماق (ويصر على خطاياه، فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيتحقق فيه وإن كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم) مع أهله (وتابع سؤال أهل البصيرة) والعرفان (لكان ذلك يوصله إلى الحق) لا محالة. (فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات) ويشير إليه لفظ البزار في الحديث المتقدم عن أنس، وإعجاب المرء برأيه. (ومن أعظم آفاته أنه يفتر) أي يكسل (في السعي لظنه أنه قد فاز) وسعد (وقد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه) والله الموفق.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما:

(اعلم) وفقك الله تعالى (أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان).

(إحداهما: أن يكون خائفاً على زواله مشفقاً على تكدره أو سلبه من أصله، فهذا ليس بعجب).

(والأخرى: أن يكون خائفاً من زواله لكن يكون فرحاً به من حيث أنه نعمة من الله

الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضاً ليس بمعجب.

وله حالة ثالثة: هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه، ويكون فرحه به من حيث انه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث انه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه به من حيث أنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث انه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه فإذاً العجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم. فإن انضاف إلى ذلك ان غلب على نفسه أن له عند الله حقاً وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالاً بالعمل، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة، وكذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً، فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ [المدثر: ٦] أي لا تدل بعملك

تعالى) أنعم به (**عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه وهذا أيضاً ليس بعجب**) لأن العجب كما سيأتي كناية عن الركون إلى النعمة مع نسيان إضافتها إلى المنعم وفي الحالتين ليس كذلك.

(**وله حالة ثالثة: هي العجب وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحاً به ومطمئناً إليه ويكون فرحه به من حيث أنه كمال ونعمة ورفعة وخير لا من حيث أنه عطية من الله ونعمة منه، فيكون فرحه به من حيث أنه صفته ومنسوب إليه بأنه له لا من حيث أنه منسوب إلى الله بأنه منه، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه، فإذاً العجب هو استعظام النعمة والركون إليها**) أي الإطمئنان بها (**مع نسيان إضافتها إلى المنعم، فإن انضاف إلى ذلك إن غلب على نفسه أن له عند الله حقاً وأنه منه بمكان**) رفيع (**حتى يتوقع**) أي يترجى (**بعمله كرامة له في الدنيا، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق**) ولفجار (**سمي هذا إدلالاً بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة**) وهو بتشديد اللام اسم من الدلال، (**ولذلك قد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمنّ عليه فيكون معجباً**) باستعظامه ومنه، (**فإن استخدمه**) أي شغله في خدمة (**أو إقترح عليه الاقتراحات واستبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه. قال**) أبو الخطاب (**قتادة**) بن دعامة السدوسي البصري رحمه الله (**في قوله عز وجل ﴿ولا تمنن تستكثر﴾**) أي (**لا تدل بعملك**). وروى عبد بن حميد

وفي الخبر: «إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك» والإدلال وراء العجب، فلا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلاً بعمله، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من

عن ابن عباس قال: معناه أن تستكثر عملك. وعن مجاهد قال: لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر الخير ورواه كذلك ابن المنذر. (**وفي الخبر « إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه، ولأن تضحك وأنت معترف بذنبك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك »**) قال العراقي: لم أجد له أصلا.

قلت: هو كذلك ليس له أصل في المرفوع، ولكنه من كلام راهب من رهبان بني إسرائيل، قال أبو نعيم في الحلية. حدثنا أبو بكر الآجري، حدثنا عبد الله بن محمد العطشي، حدثنا إبراهيم بن الجنيد، حدثنا عبد الله بن أبي بكر المقدمي، حدثنا جعفر بن سلمان، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الصنعاني قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لقي رجل راهباً فقال: يا راهب كيف صلواتك؟ فقال الراهب: لا أحسب أحداً سمع بذكر الجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يصلي فيها. قال: فكيف ذكرك للموت؟ قال: ما أرفع قدماً ولا أضع أخرى إلا رأيت أني ميت. فقال الراهب: كيف صلاتك أيها الرجل؟ قال: إني لأصلي وأبكي حتى ينبت العشب من دموع عيني. فقال الراهب للرجل: أما إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك، فإن المدل لا يرفع له عمل. فقال الرجل للراهب: فأوصني فإني أراك حكيماً. فقال: إزهد في الدنيا ولا تنازع أهلها، وكن منها كالنحلة إن أكلت طيباً وإن وضعت وضعت طيباً وإن وقعت على عود لم تكسره، وانصح لله عز وجل نصح الكلب لأهله يجيعونه ويطردونه ويضربونه ويأبى إلا أن ينصح لهم، قال: فكان وهب بن منبه إذا ذكر هذا الحديث قال: واسوأتاه إذ كان الكلب أنصح لأهله منك لله عز وجل.

وحدثنا أبو بكر الآجري: حدثنا ابن عمر بن أيوب السقطي، حدثنا أبو همام، حدثني قبيصة، حدثنا سفيان، عن رجل من أهل صنعاء، عن وهب قال: مرّ رجل مع راهب فقال: يا راهب كيف دأب نشاطك فذكر نحوه.

(والإدلال وراء العجب. ولا مدل إلا وهو معجب ورب معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء، فإن توقع إجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لأنه لا يتعجب من

رد دعاء نفسه لذلك، فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه، والله تعالى أعلم.

بيان علاج العجب على الجملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوّة والنسب وما لا يدخل تحت إختياره ولا يراه من نفسه.

فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث انه منه وبسببه وبقدرته وقوّته؛ فإن كان يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل، لأن المحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الايجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من حيث انه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تم، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله انها من أين كانت له؟ فإن

رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك، فهذا هو العجب والإدلال) وقد اتضح لك حدهما وحقيقتهما، (**وهو من مقدمات الكبر وأسبابه**) فإنه إذا وجد ذلك ترشح منه وصف الكبر والله الموفق.

بيان علاج العجب على الجملة:

(**اعلم**) أرشدك الله تعالى (**أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت إختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم، فإن العجب بهذا أبلغ من العجب بالجمال والقوّة والنسب و**) كل (**ما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث أنه فيه فهو محله ومجراه، أو**) يعجب به (**من حيث أنه منه وبسببه وبقدرته وبقوّته، فإن كان يعجب به من حيث أنه فيه وهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره، فهذا جهل**) من المعجب (**لأن المحل**) إنما هو (**مسخر ومجرى**) يجري فيه (**لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل**) ولا يدله في شيء منهما، (**فكيف يعجب بما ليس إليه**) ولا مدخل له فيه؟ (**وإن كان يعجب به من حيث هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته وقوّته تم، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها تم عمله من أين كانت له**) وكيف

كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله، إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة، فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره من غير استحقاق وإعجابه بنفسه من أين وما سببه؟ ولم ينبغي أن يعجب هو بنفسه؟ نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول: الملك حكم عدل لا يظلم ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب، فلولا أنه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة لما آثرني بها، فيقال: وتلك الصفة أيضاً هي من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك من غير وسيلة، أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضاً لم يكن لك أن تعجب بها، بل كان كما لو أعطاك فرساً فلم تعجب به، فأعطاك غلاماً فصرت تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلاماً لأني صاحب فرس فأما غيري فلا فرس له، فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معاً أو يعطيك أحدهما بعد الآخر! فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك. وأما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة،

تيسرت له؟ (**فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها، فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله تعالى وكرمه وفضله إذا فاض عليه ما لا يستحقه**) وخصصه (**وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة**) يمن بها، (**فمهما برز الملك لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم**) خلعة (**لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة، فينبغي أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وإيثاره**) له من دونهم (**من غير إستحقاق**) ظاهر له، (**فإعجابه بنفسه من أين وما سببه؟ ولم ينبغي أن يعجب هو بنفسه؟ نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول: الملك حكم عدل لا يظلم**) أحداً (**ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب**) خفي على مدركه، (**فلولا أنه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها**) واختصني من دونهم، (**فيقال**) له: (**وتلك الصفة هي أيضاً من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها عن غيرك من غير وسيلة، أو هي عطية غيره؟ فإن كانت من عطية الملك أيضاً لم يكن لك أن تعجب بها، بل كان كما لو أعطاك فرساً**) تركبه (**فلم تعجب به. فأعطاك غلاماً فصرت تعجب به وتقول: إنما أعطاني غلاماً لأني صاحب فرس**) إذ صاحب الفرس لا يستغني عن غلام، (**وأما غيري فلا فرس له فيقال: وهو الذي أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معاً أو يعطي أحدهما بعد الآخر! فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك. وإما إن كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد أن يعجب بتلك**

وهذا يتصوّر في حق الملوك، ولا يتصوّر في حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن عجبت بعبادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبي له، فيقال: ومن خلق الحب في قلبك؟ فستقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك! فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده، والمحل أيضاً من فضله وجوده.

فإن قلت: لا يمكنني أن أجهل أعمالي وإني أنا عملتها فإني أنتظر عليها ثواباً، ولولا انها عملي لما انتظرت ثواباً، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال مني وبقدرتي فكيف لا أعجب بها؟ فاعلم أن جوابك من وجهين.

أحدهما: هو صريح الحق. **والآخر**: فيه مسامحة.

الصفة وهذا يتصور في حق الملوك) في الدنيا، (**ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك**) جلا جلاله (**المنفرد باختراع الجميع**) من غير سابق مثال (**المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت: وفقني للعبادة لحبي له فيقال: ومن خلق الحب في قلبك؟ فتقول: هو، فيقال: فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذا نعم بوجودك وبوجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك! فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بماله! لأن كل ذلك من فضل الله**) ومن إحسانه وجوده وكرمه، (**وإنما هو محل لفيضان فضل الله وجوده، والمحل أيضاً من جوده وفضله**).

(**فإن قلت: لا يمكنني أن أجحد أعمالي وإني أنا عملتها**) أي لا يمكنني إنكارها، (**فإني انتظر عليها ثواباً**) أي جزاء ومكافأة (**ولولا أنها عملي**) وصدر مني (**لما انتظرت عليها الثواب فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الإختراع فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال مني وبقدرتي فكيف لا أعجب بها**) وهي في محل الإعجاب؟ (**فاعلم أن جوابك**) عن هذا الإشكال (**من وجهين**).

(**أحدهما: وهو صريح الحق والآخر فيه مسامحة ما**)؟

أما صريح الحق: فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك وجميع ذلك من خلق الله واختراعه، فما علمت إذ عملت وما صليت إذ صليت: ﴿وما رميت إذ رميْتَ ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧] فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدة أوضح من أبصار العين، بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوّة والقدرة والصحة، وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك مستبداً باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع، إلا انه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوّة وفي القلب إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علماً بالمراد، ولم يخلق علماً ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خُيل لك انك

(**أما صريح الحق؛ فهو أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك جميع ذلك من خلق الله تعالى واختراعه فما عملت إذ عملت**) إلا بإعانته، (**وما صليت إذ صليت**). إلا بتأييده، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى يخاطب به حبيبه ﷺ: (**﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾**) وقد تقدم الكلام على هذا في مواضع من هذا الكتاب فاغنانا عن إعادته. (**فهذا هو الحق**) الصريح (**الذي انكشف لأرباب القلوب**) لما ترقوا من حضيض المجاز إلى ارتفاع الحقيقة واستكملوا معراجهم (**بمشاهدة**) عيانية (**أوضح من إبصار العين**) فليس في الوجود إلا الله وكل شيء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأزل رؤى موجوداً لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجده، فيكون الموجود وجه الله فقط ولكل شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه، فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه الله موجود فإذاً لا موجود إلا الله ووجهه، (**بل خلقك وخلق أعضاءك وخلق فيها القوّة والقدرة والصحة**) والكمال (**وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الإرداة، ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه، ثم خلق الحركات في أعضائك**) مختلفة الأحوال (**مستبداً بها**) أي مستقلاً بذاته (**من غير مشاركة من جهتك معه في**) أصل (**الإختراع**) والإبتداع، (**إلا أنه خلقه على ترتيب**) بديع (**فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوّة**) لاحتمالها (**وخلق في القلب إرادة ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علماً بالمراد، ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم**) ومستقره ومصدر أحكامه، فهذه الثلاثة مرتبة بعضها أعلى من بعض، ولكل واحد مقام معلوم ودرجة خاصة لا تتعداه. وكذلك الأنوار الملكوتية إنما وجدت على ترتيب كذلك وهي لا تتسلسل إلى غير نهاية بل ترتقي إلى منبع أول هو النور لذاته وبذاته ليس يأتيه نور من غيره ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها. (**فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيء هو الذي خيل إليك أنك أوجدت عملك وقد غلطت**) في هذا التخييل، (**وإيضاح ذلك وكيفية الثواب**

أوجدت عملك وقد غلطت. وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنه أليق به فارجع إليه.

ونحن الآن نزيل اشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة مّا، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك؟ ولا يتصوّر العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك! فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله، ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم وهي بيد الله لا محالة. أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن، ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها، ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها

على عمل هو من خلق الله. سيأتي تقريره في كتاب الشكر فإنه أليق به فارجع إليه) وطالعه.

(**ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مسامحة مّا، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك**) ومن أوجدها فيك؟ (**ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك**)! وتفصيل ذلك الصلاة وهي عمل من أعمالك وهي تستدعي الطهارة والطهارة تكون بالماء فمن أنزل من السماء ماء طهوراً، وإذا كان الماء موجوداً متيسراً فمن أوجد فيك القدرة لاستعماله، ثم إذا تطهرت فمن أوجد فيك قوّة إلى القيام ورفع اليدين إلى الأذنين والنطق بالقراءة بتحريك اللسان والركوع والسجود والجلوس، وقس على ذلك سائر الأعمال. (**فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه**) الذي يفتح به باب ذلك العمل، (**وهذا المفتاح بيد الله**) عز وجل. (**ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل، فالعبادات**) كلها بمثابة (**خزائن**) مملوءة (**بها يتوصل إلى السعادات**) الدنيوية والأخروية (**ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم، وهي بيد الله تعالى لا محالة**) وهذا نحو ما ورد في بعض الأخبار: العلم خزائن ومفاتيحها السؤال، فكذلك نقول: العبادات خزائن ومفاتيحها القدرة والعلم والإرادة. (**أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا**) بأسرها (**لو كانت مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن وجلست على بابها و**) درت (**حول حيطانها ألف سنة**) مثلاً (**لم يمكنك أن تنظر إلى دينار**) واحد (**مما فيها، ولو أعطاك**) الخازن (**المفتاح لأخذته من قريب**) من غير مشقة (**بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك**

كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها؟ فلا تشك في انك ترى ذلك نعمة من الخازن لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح. فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف، حتى لم يبق صارف إلا دفع ولا باعث إلا وكل بك فالعمل هين عليك، وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الأسباب كلها من الله ليس شيء منها إليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك، وسلط اخوان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاه بعدله فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك! فإذا لا تنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله

وأخذتها كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح) أكثر، (أو بما إليك من مدّ اليد وأخذها) وتناوله، (فلا شك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن) حيث مكنك منه (لأن المؤونة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة، وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح) فينبغي أن يكون الإعجاب به أكثر، (فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرفت عنك الموانع والصوارف) أي الشواغل (حتى لم يبق صارف إلا دفع) عنك (ولا باعث إلا وكل بك، فالعمل هين عليك) متيسر لك بسهولة (وتحريك البواعث وصرف العوائق) ومنع الشواغل (وتهيئة الأسباب كلها من الله تعالى) وحده (ليس شيء منها إليك) ابتداء وانتهاء، (فمن العجائب أن تعجب بنفسك) وبعملك (ولا تعجب بمن إليه الأمر كله) بدءاً وعوداً (فلا تعجب بجوده وفضله وكرمه) ومنته عليك (في إيثاره إياك على الفساق من عباده إذ سلط دواعي الفساد) وبواعث الشر (على الفساق وصرفها عنك وسلط إخوان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات) فيها بتوافيها (وزواها عنك) فمن العصمة أن لا تقدر، (وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك، حتى يتيسر لك الخير) ويسهل سبيله (ويتيسر لهم الشر! فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي) عن حظيرة قربه (وأشقاه بعدله فما أعجبك بإعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك) وتأملته! (فإذاً لا تنصرف قدرتك إلى

عليك داعية لا تجد سبيلاً إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً فله الشكر والمنة لا لك ـ وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه ـ والعجب ممن يتعجب ـ إذا رزقه الله عقلاً وأفقره ـ ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض علي هذا نعيم الدنيـا وهو الغافل الجاهل؟ حتى يكاد يرى هذا ظلماً، ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال، إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما؟ وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه.

والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالاً من نفسه، ولو قيل له

المقدور) من أي عمل كان (**إلا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلاً إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلاً تحقيقاً فله الشكر والمنة**) وحده (**لا لك: وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات**) وارتباط بعضها ببعض (**ما تستبين به أنه ـ لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه ـ والعجب ممن يتعجب إذا رزقه الله عقلاً**) وحكمة (**وأفقره**) أي جعله فقيراً معدماً (**ممن أفاض عليه المال من غير علم**) ولا عقل، (**فيقول: كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الجاهل الغافل حتى يكاد يرى هذا ظلماً**)، ومن ذلك قول ابن الراوندي الملحد:

كم عـاقـل عـاقـل ضـاقـت معيشتـه وجـاهـل جـاهـل تلقـاه مـرزوقـا
هـذا الذي تـرك الأوهـام حـائـرة وصيّـر العـالم النحـريـر زنـديقـاً

وقال غيره:

كم مـن قـوي قـوي في تقلبـه مهـذب الرأي عنـه الرزق منحـرفُ
وكم ضعيـف ضعيـف العقـل مختلـط كـأنـه مـن خليـج البحـر يغترفُ

(**ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعاً لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال**) وإن لم يكن ظلماً حقيقة (**إذ يقول الجاهل الفقير: يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما، فهلا جمعتها لي**) فجعلتني عاقلاً غنياً، (**أو هلا رزقتني أحدهما؟ وإلى هذا أشار عليّ رضي الله عنه حيث قيل: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه**) أي فبقدر ما يعطى من العقل والحكمة ينقص من رزقه. وفي لفظ: إن ذكاء الرجل والمعنى واحد، (**والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني**

هل تؤثر جهله وغناه عوضاً عن عقلك وفقرك لامتنع عنه! فإذاً ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر؛ فلم يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الذميمة القبيحة فتتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح؟ ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وإنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال؟ فإذن نعمة الله عليها أكبر. وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه: يا رب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال؟ كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول: أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس؟ فيقول: كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس؟ فهب إني ما أعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها، ومنشأ جميع ذلك الجهل، ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الإستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة، ومن عرف هذا لم يتصوّر أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم إن ذلك من الله تعالى، ولذلك قال داود عليه السلام: يا رب ما تأتي ليلة إلا

أحسن حالاً من نفسه، ولو قيل له: هل تؤثر جهله وغناه عوضاً من عقلك وفقرك لامتنع عنه، فإذاً ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجب من ذلك وكذلك المرأة الحسناء) الجميلة الصورة (الفقيرة ترى الحلى والجواهر على الذميمة القبيحة فتتعجب وتقول: كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة) الظاهرة من الحلي والجواهر، (ويخصص مثل ذلك القبيح) الصورة (ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وأنها لو خيرت بين الجمال والقبح مع الغنى لآثرت الجمال) ولم تلتفت إلى الغنى مع قبح الصورة، (فإذاً نعمة الله عليها أكبر، وقول العاقل الفقير بقلبه: يا رب لم حرمتني من الدنيا وأعطيت الجهال؟ كقول من أعطاه الملك فرساً فيقول: أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس؟ فيقول) الملك: (كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس فهب أني ما أعطيتك فرساً أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة أخرى؟ فهذه أوهام لا تخلو الجهال عنها، ومنشأ جميع ذلك الجهل) وثقل وتكثر باختلاف أنواع الجهل فمن كان جهله بسيطاً كان الوهم عنده أكثر، (ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله نعمة ابتدأه بها قبل الإستحقاق، وهذا ينفي العجب والإدلال ويورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة. ومن عرف هذا لم يتصوّر أن يعجب بعلمه وعمله إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى، ولذلك لما قال داود عليه السلام: ما تأتي ليلة

وإنسان من آل داود قائم ولا يأتي يوم إلا وإنسان من آل داود صائم، وفي رواية: ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك ـ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ومن أين لهم ذلك! إن ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك، قال ابن عباس: إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلاً به حتى وكل إلى نفسه، فأذنب ذنباً أورثه الحزن والندم. وقال داود: يا رب ان بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: إني ابتليتهم فصبروا، فقال: يا رب وأنا إن ابتليتني صبرت، فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى: فإني لم أخبرهم بأي شيء ابتليهم ولا في أي شهر ولا في أي يوم، وأنا مخبرك في سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك، فوقع فيما وقع فيه. وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين على

إلا وإنسان من آل داود قائم، ولا يأتي يوم إلا وإنسان من آل داود صائم. وفي رواية: ما تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك إما يصلي وإما يصوم وإما يذكرك فأوحى الله تعالى إليه: يا داود من أين لهم ذلك؛ إن ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني إياك ما قويت وسأكلك إلى نفسك. قال ابن عباس) رضي الله عنه: **(إنما أصاب داود ما أصاب من الذنب نعجبه بعمله إذ أضافه إلى آل داود مدلاً به حتى وكل إلى نفسه فأذهب ذنباً أورثه الحزن والندم)**. أخرجه الحاكم وصححه البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: ما أصاب داود ما أصاب بعد القدر إلا من عجب بنفسه، وذلك أنه قال يا رب ما من ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك فيصلي لك أو يسبح أو يكبر وذكر شيئاً فكره الله ذلك، فقال: يا داود ذلك لم يكن إلا بي ولولا عوني ما قويت عليه وجلالي لأكلنك إلى نفسك يوماً. فقال: يا رب فأخبرني به فأصابته الفتنة في ذلك اليوم. **(وقال داود)** عليه السلام: **(يا رب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال: إني ابتليتهم فصبروا. فقال: يا رب وأنا إن ابتليتني صبرت فادل بالعمل قبل وقته، فقال تعالى: أما اني لم أخبرهم بشيء أبتليهم، ولا في أي شهر، ولا في أي يوم، وأنا مخبرك في سنتك هذه في شهرك هذا أبتليك غداً بامرأة فاحذر نفسك فوقع فيما وقع فيه)**. أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: إن داود قال: يا رب قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لو أردت أعطيتني مثله. قال الله عز وجل: إني ابتليتهم بما لم أبتلك فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم وأعطيك كما أعطيتهم. قال: نعم قال له: فاعمل حتى أرى بلاءك فكان ما شاء الله أن يكون وطال ذلك، فكاد أن ينساه، فبينما هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة ثم ذكر باقي القصة بطولها في ابتلائه بأورياء ورجوعه وتوبته.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن داود حدث نفسه إن ابتلي

قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا نغلب اليوم من قلة وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: ﴿ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرضُ بما رُحبت ثم وليتم مدبرين﴾ [التوبة: ٢٥] وروى ابن عيينة أن أيوب

أن يعتصم فقل له: إنك ستبتلى وستعمل الذي تبتلى فيه فخذ حذرك فقيل له: هذا اليوم تبتلى فيه فأخذ الزبور ودخل المحراب وأغلق الباب واقعد منصفاً على الباب وقال: لا تأذن لأحد عليّ اليوم، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائر مذهب فذكر الحديث.

وأخرج ابن جرير والحاكم عن السري قال: كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوماً يقضي فيه بين الناس، ويوماً يخلو فيه بعبادة ربه، ويوماً يخلو فيه بنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة وكان فيما يقرأ من الكتب آية قال: يا رب إن الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي فاعطني مثل ما أعطيتهم وافعل بي ما فعلت بهم، فأوحى الله إليه أن آباءك قد ابتليتهم ببلايا لم تبتل بها إبتلى إبراهيم بذبح ابنه، وابتلى إسحاق بذهاب بصره، وابتلى يعقوب بحزنه على يوسف، وأنت لم تبتل بشيء من ذلك. قال: يا رب ابتليني كما ابتليتهم واعطني مثل ما أعطيتهم، فأوحى الله إليه أنك مبتلى فاحترس، فمكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب ثم ذكر باقي الحديث.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال: إنما كانت فتنة داود النظر.

(**وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين على قوّتهم**) وشوكتهم (**وكثرتهم إذ كانوا اثني عشر ألفاً**) عشرة آلاف من أهل المدينة وألفان من مسلمة الفتح، (**ونسوا فضل الله عليهم وقالوا: لا نغلب اليوم من قلة**) وكان القائل لذلك رجلاً من الأنصار، وكون قائل ذلك أبا بكر الصديق من افتراء الرافضة، (**وكلوا إلى أنفسهم فقال تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾**) أي اتسعت (**﴿ثم وليتم مدبرين﴾**) أي منهزمين. قال العراقي: رواه البيهقي في الدلائل من رواية الربيع بن أنس مرسلاً أن رجلاً قال يوم حنين لن نغلب من قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ ولابن مردويه في تفسيره من حديث أنس: لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، فقالوا: اليوم نقاتل ففروا فرَّ الفرخ وابن فضالة ضعفه الجمهور اهـ.

قلت: وتمام سياق البيهقي في الدلائل قال الربيع: وكانوا اثني عشر ألفاً منهم ألفان من أهل مكة، وجاء تفصيل ذلك في رواية عبيد بن عمير الليثي عند أبي الشيخ قال: كان مع النبي ﷺ أربعة آلاف من الأنصار، وألف من جهينة، وألف من مزينة، وألف من أسلم، وألف من غفار، وألف من أشجع، وألف من المهاجرين وغيرهم.

وأما حديث أنس الذي عند ابن مردويه، فقد رواه أيضاً أبو الشيخ، والحاكم وصححه ولفظه:

عليه السلام قال: إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد علي أمر إلا آثرت هواك على هواي، فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب أنّى لك ذلك، أي من أين لك ذلك؟ قال: فأخذ رماداً ووضعه على رأسه وقال: منك يا رب منك يا رب، فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ [النور: ٢١] وقال النبي ﷺ لأصحابه وهم خير الناس: «ما منكم من أحد ينجيه عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا تراباً وتبناً

لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال القوم: اليوم والله نقاتل فلما التقوا واشتد القتال ولّوا مدبرين الحديث.

وأخرج ابن المنذر عن الحسن البصري قال: لما اجتمع أهل مكة وأهل المدينة قالوا: الآن والله نقاتل حين اجتمعنا فكره رسول الله ﷺ ما قالوا وما أعجبهم من كثرتهم فالتقوا فهزموا الحديث

(وروى ابن عيينة) سفيان رحمه الله (**أن أيوب عليه السلام قال: إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد عليّ أمر إلا آثرت هواك على هواي فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت: يا أيوب، أنى لك ذلك**) من أين لك (**ذلك فأخذ رماداً فوضعه على رأسه وقال: منك يا رب منك يا رب فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى**) أخرجه أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو الربيع سليمان بن داود المصري، حدثنا يونس بن عبد الرحمن قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول، قال أيوب عليه السلام: اللهم إنك تعلم أنه لم يعرض لي أمران قط أحدهما لك فيه رضا والآخر لي فيه هوى إلا آثرت الذي لك فيه رضا على الذي لي فيه هوى. قال: فنودي من غمامة من عشرة آلاف صوت يا أيوب من فعل ذلك بك؟ قال: فوضع التراب على رأسه ثم قال: أنت يا رب، (**ولهذا قال**) الله (**تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم أحد أبداً﴾ وقال النبي ﷺ لأصحابه وهم خير الناس**) بنص الخبر: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم (**ما منكم من أحد ينجيه عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»**) قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي هريرة اهـ.

قلت: ورواه ابن حبان أيضاً بزيادة ولكن سددوا. ويروى من حديث شريك بن طارق وأبي موسى.

أما حديث شريك فلفظه: يدخله بدل ينجيه وربي بدل الله. رواه ابن حبان والبغوي وابن قانع والطبراني. قال البغوي: ولا أعلم له غيره.

وأما حديث أبي موسى فلفظه: يدخله ويتغمدني الله برحبته. رواه الطبراني.

وطيراً مع صفاء أعمالهم وقلوبهم، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه؟ فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب، ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل، فيخاف من ذلك فيقول: إن من لا يبالي أن يحرم من غير جناية ويعطي من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء. وهذا لا يبقى معه عجب بحال، والله تعالى أعلم.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر ـ كما ذكرنا ـ وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطا الذي يزين له بجهله، فما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوّته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته. وبالجملة تفصيل خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة

(ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا تراباً) ورماداً (وتبناً وطيراً) كما تقدم عن عمر وابن مسعود وغيرهما (مع صفاء أعمالهم و) طهارة (قلوبهم) واستقامة أحوالهم، (فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه، فإذاً هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب، ومهما غلب ذلك القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول: إن من لا يبالي أن يحرم) أي يمنع (من غير جناية) سابقة (ويعطي من غير وسيلة لا يبالي أن يعود ويسترجع ما وهب، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بالسوء) والعياذ بالله (وهذا لا يبقى معه عجب بحال) والله الموفق.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

(اعلم) هداك الله تعالى (أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر كما ذكرنا، وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله فما به العجب ثمانية أقسام).

(الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوّته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته. وبالجملة تفصيل خلقته فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من

من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في اقذار باطنه وفي أول أمره وفي آخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة انها كيف تمزقت في التراب وانتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني: البطش والقوّة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم: ﴿مَنْ أشد منا قوّة﴾ [فصلت: ١٥] وكما اتكل عوج على قوّته واعجب بها فاقتلع جبلاً ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت في عنقه، وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوّته كما روي عن

الله) تعالى (**وهو**) مع ذلك (**بعرضة الزوال**) أي مظنة لأن يعرض له زوال ما يتكبر به (**في كل حال**) من أحواله، (**وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه**) أي ما في باطنه من المستقذرات (**و**) التفكر (**في أول أمره**) كيف بدىء ومن أي شيء خلق، (**وآخره**) كيف يعود (**وفي الوجوه الجميلة**) الوضيئة (**والأبدان الناعمة**) المربربة (**أنها كيف تمزقت في التراب وانتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع**) ونفرت من مقاربتها والنظر إليها

(**الثاني: القوّة والبطش كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم:**) ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا (**من أشد منا قوّة**﴾) إغتراراً بقدرتهم وشوكتهم فردّ الله عليهم فقال: ﴿أوَلَم يَرَوْا أنَّ الله الذي خَلَقَهُمْ هو أشدُّ منهم قوّة﴾ [فصلت: ١٥] وعاد قبيلة من العرب الأول وهم قوم هود عليه السلام قال الليث: هم بنو عاد بن عاديا بن سام بن نوح عليه السلام قال زهير:

وأهلك لقمان بن عاد وعاديا.

وأما عاد الآخرة، فهم بنو تميم ينزلون رمال عالج عصوا الله فمسخوا نسناساً وقال أئمة النسب: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح كان يعبد القمر، ويقال أنه رأى من صلبه وأولاده وأولاده وأولاده أربعة آلاف، وأنه نكح ألف جارية، ومن أولاده شداد بن عاد صاحب المدينة المذكورة، (**وكما اتكل عوج**) بالضم (**على قوّته فأعجب بها**) وهو رجل ذكر أنه ولد في منزل آدم عليه السلام وعاش إلى زمن موسى عليه السلام قال القزاز في جامع اللغة: هو رجل من الفراعنة كان يوصف من الطول بأمر شنيع. قال الخليل: ذكر أنه كان إذا قام كان السحاب له مئزراً قال: (**فاقتلع جبلاً**) أي صخرة كبيرة منه (**ليطبقه على عسكر موسى**) عليه السلام فدعا موسى إلى ربه بهلاكه، (**فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل**) بأن سلط عليه طيراً فثقبه بمنقاره (**حتى صارت في عنقه**) ولم يزل بها حتى هلك بها، ولم تنفعه قوّته شيئاً. واختلف في اسم أبيه فقيل: عنق بضم العين والنون، وهذا هو المشهور على الألسنة، وخطّأه صاحب القاموس وقال: الصواب عوق بالضم وسكون الواو. قال شيخنا أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي في

سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة؟ ولم يقل إن شاء الله تعالى، فحرم ما أراد من الولد وكذلك قول داود عليه السلام: إن ابتليتني صبرت، وكان إعجاباً منه بالقوّة، فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر، ويورث العجب بالقوّة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما

حاشيته على القاموس. زعم بعض الحفاظ المؤرخين أن عنق إسم أم عوج وعوق أبوه، فعلى هذا لا خطأ ولا غلط، وفيه شعر عرقلة الدمشقي المتوفى سنة ٥٦٧.

أعـــور الدجـــال يمشي خلـف عـوج بـن عنـاق

وهو ثقة عارف وتمام الكلام عليه في شرحي على القاموس فراجعه، **(وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على مائة امرأة ولم يقل إن شاء الله فحرم ما أراد من الولد)**. رواه أحمد والشيخان والنسائي من حديث أبي هريرة بلفظ: «قال سليمان بن داود عليه السلام لأطوفن الليلة على مائة امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه: قل إن شاء الله فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق إنسان، والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته يجاهدون في سبيل الله فرساناً أجمعين».

شرح الحديث في رواية: لأطيفن قال عياض: وهما لغتان فصيحتان واللام موطئة للقسم أي والله لأدورن الليلة أي في الليلة على مائة امرأة فكنى بالطواف عن الجماع، وفي رواية على سبعين، وفي أخرى تسعين، وجمع بأن البعض سراري والبعض حرائر على أن القليل لا ينفي الكثير بل مفهوم العدد ليس بحجة عند الأكثرين كلهن يأتي بفارس أي تلد ولداً ويصير فارساً فقال له صاحبه، أي قرينه وبطانته أو وزيره من الإنس أو خاطره، وفي رواية: الملك قل إن شاء الله ذلك فلم يقل أي بلسانه لنسيان عرض له فعلة الترك النسيان لا الإباء عن التفويض إلى الرحمن، فصرف عن الإستثناء القدر السابق أن لا يكون ما تمنى، وفيه تقديم وتأخير أي لم يقل إن شاء الله فقال له صاحبه: قل ذكره عياض فطاف عليهن أي جامعهن جميعاً في ليلة واحدة، وفيه دلالة على ما رزقه الأنبياء عليهم السلام من القوّة في الجماع، وأنها في الرجال فضيلة وهي تدل على صحة الذكورية وكمال الإنسانية فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق انسان. قيل: هو الجسد الذي القي على كرسيه والذي. وفي رواية: «أما والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث» أي لو سلك طريق الأدب والتفويض لأدرك مراده وهذه منقبة عظيمة لسليمان عليه السلام حيث كان همه الأعظم اعلاء كلمة الله حيث عزم أن يرسل أولاده الذين هم أكباده إلى الجهاد المؤدي إلى الموت.

(وكذلك قول) والده **(داود عليه السلام: إن ابتليتني صبرت)** كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وتقدم قريباً، **(وكان إعجاباً للقوّة)** ورؤيتها، **(فلما ابتلي بالمرأة لم يصبر ويورث العجب بالقوّة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب**

ذكرناه، وهو ان يعلم أن حمى يوم تضعف قوّته! وإنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الثالث: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم اعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقاراً لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه! فلا يأمن أن يسلب عقله ان أعجب به ولم يقم بشكره، وليستصغر عقله وعلمه، وليعلم انه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وان اتسع علمه، وإن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى؟ وإن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم، فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري. فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله. فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه،

والقتل لكل من قصده بالسوء، وعلاجه ما ذكرناه وهو أن يعلم أن حمّى يوم) اذا أطبقت عليه **(تضعف قوّته)** أي قوّة سنة كما صرح به الأطباء، **(وأنه إذا أعجب بها سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه)**.

(الثالث: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من صلاح الدين والدنيا، وثمرته الإستبداد) أي الإستقلال **(بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه)** واستبلادهم، **(ويخرجه ذلك إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقاراً لهم وإهانة، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزقه من العقل)** والمعرفة **(ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن)** فيتغير عقله **(بحيث يضحك منه، فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره)** فما من نعمة لم يؤد شكرها فقد عرضها للزوال. **(وليستصغر عقله وعلمه وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه)** لقوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] **(و)** ليعلم **(أن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما علمه)** هو، **(فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى)** الناقصين **(كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم، فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله)** ولو علمه لسعى في إزالة قصوره، **(فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه و)** أن يعرف مقداره **(من أعدائه)** وحساد نعمته **(لا من أصدقائه)** ومعتقديه **(فإن**

فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجباً.

الرابع: العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد، وعلاجه أن يعلم انه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والإزراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، فليتشرف بما شرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣] أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد، ثم ذكرنا فائدة النسب فقال: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ [الحجرات: ١٣] ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب

من يداهنه يثني عليه) ويمدحه (فيزيده عجباً) وتيهاً (وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجباً).

(الرابع: العجب بالنسب الشريف) أي المتصل إلى حضرته ﷺ (كعجب الهاشمية) هم بنو هاشم فيشمل العلويين والطالبين والجعفريين (حتى يظن بعضهم أنه ينجو بسبب شرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد) أي بمنزلتهم في المذلة. (وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل) الحقيقة فإن اللحوق يقتضي الموافقة، (وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب) بالنسب وغيره، (بل الخوف والإزراء على النفس واستعظام الخلق ومذلة النفس) واستصغارها، (ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال المحمودة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به) فيلحق بهم، (وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله) ولم يرفع له رأساً وسلك سبيل العناد كأبي جهل وأبي لهب وأضرابها، (فكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير، ولذلك قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾) أي آدم وحواء (أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد) من فوق (ثم ذكر فائدة النسب) بجعلهم متميزين (فقال: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾) [الحجرات: ١٣] فالشعب هو النسب الأول والقبيلة ما انقسم فيه أنساب الشعب ثم عمارة وبطن وفخذ وفصيلة، فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. (ثم بيّن أن الشرف) الذي هو كرم الأصل (بالتقوى لا بالنسب فقال: ﴿إن

فقال: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] ولما قيل لرسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ من أكيس الناس؟ لم يقل: من ينتمي إلى نسبي ولكن قال: «أكرمهم أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم له استعداداً»، وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة. فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد: هذا العبد الأسود يؤذن فقال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقال النبي ﷺ: «إن الله قد

أكرمكم عند الله أتقاكم﴾) أي أخشاكم في السر والعلانية (**ولما قيل لرسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ من اكيس الناس؟ لم يقل**) في الجواب (**من ينتمي إلى نسبي**) بالولادة، (**ولكن قال: «أكثرهم للموت ذكراً وأسدهم له استعداداً»**) قال العراقي: رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله أكرم الناس، وهو بهذه الزيادة عن ابن أبي الدنيا في كتاب ذكر الموت، وسيأتي في كتاب ذكر الموت في آخر الكتاب.

قلت: ولفظ ابن ماجه: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: من أكيس الناس الحديث. وسيأتي هذا السياق للمصنف في آخر الكتاب.

وقال أبو نعيم في الحلية: حدثنا عبد الله بن العباس، حدثنا ابراهيم بن إسحاق الحربي، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن العلاء بن عتبة، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عمر قال: قام فتى فقال: يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً قبل أن ينزل به أولئك الأكياس». رواه أبو سهيل بن مالك، وحفص بن غيلان، ويزيد بن أبي مالك، وقرة بن قيس، ومعاوية بن عبد الرحمن، عن عطاء مثله. ورواه مجاهد عن ابن عمر نحوه.

(**وإنما أنزلت هذه الآية حيث أذن بلال**) رضي الله عنه (**يوم الفتح على الكعبةفقال الحرث ابن هشام**) بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم من مسلمة الفتح وكان من سادات قومه، (**وسهيل بن عمر و**) بن عبد شمس بن عبدود العامري القرشي أبو يزيد خطيب قريش أسلم يوم الفتح، (**وخالد بن أسيد**) بن أبي العيص بن أمية الأموي أخو عتاب أسلم يوم الفتح، وكان فيه تيه شديد (**هذا العبد الأسود يؤذن فقال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**) روى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الدلائل، عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح رقي بلال فأذن على الكعبة فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة؟ وقال بعضهم: أن يسخط الله هذا يغره فنزلت الآية. وروى ابن المنذر عن ابن جريج قال: أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحرث بن هشام: أهذا العبد حين يؤذن على الكعبة؟ فقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أسيداًأن يرى هذا. وقال سهيل بن عمرو: أن يكره الله هذا ينزل فيه، وسكت أبو سفيان فنزلت الآية.

أذهب عنكم عيبة الجاهلية ـ أي كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب » وقال النبي ﷺ : « يا معشر قريش لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا ـ أي أعرض عنكم ـ » فبين أنهم أن مالوا إلى

(وقال النبي ﷺ : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية) بضم العين المهملة وكسر الموحدة وتشديد التحتية المفتوحة ـ **(أي)** نخوتها **(وكبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم)** خلق **(من تراب »)** قال العراقي : رواه أبو داود ، والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة ، ورواه الترمذي أيضاً من حديث ابن عمر وقال : غريب اهـ .

قلت : لفظ أبي داود : « إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالإباء مؤمن تقي وفاجر شقي أنتم بنوا آدم وآدم من تراب ليدعن عن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن » . هذا لفظه وقد تقدم بعضه للمصنف قريباً . هكذا رواه أحمد والبيهقي .

وأما لفظ الترمذي من حديث ابن عمر : أن النبي ﷺ طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج فلم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال : « الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها بآبائها الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً ﴾ إلى قوله ﴿ خبير ﴾ [الحجرات : ١٣] ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » وهكذا رواه عبد بن حميد ، وابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب . وروى البيهقي من حديث أبي أمامة رفعه : « إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها كلكم لآدم وحوّاء كطف بالصاع وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(وقال ﷺ : « يا معشر قريش لا تأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون : يا محمد يا محمد فأقول هكذا أي فأعرض عنكم ») قال العراقي : رواه الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال : يا معشر بني هاشم وسنده ضعيف اهـ .

قلت : صدر الحديث رواه البخاري في التاريخ ، وابن عساكر من رواية شريح بن الحرث ، عن أبي أمامة ، والحرث بن الحرث الغامدي وكثير بن مرة وعمير بن الأسود معاً ولفظه : « يا معشر قريش لا ألفين أناساً يأتون يتحرون الجنة وتأتون تحرون الدنيا . اللهم لا أحل لقريش أن يفسدوا ما أصلحت أمتي » الحديث .

وروى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة : « يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً . سلوني من مالي ما شئتم واعلموا أن أولى الناس بي يوم القيامة المتقون وأن تكونوا أنتم

الدنيا لم ينفعهم نسب قريش. ولما نزل قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤] ناداهم بطناً بعد بطن، حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ إعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً»، فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع

مع قرابتكم فذاك لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتوني بالدنيا تحملونها على أعناقكم فتقولون: يا محمد. فأقول: هكذا ثم تقولون: يا محمد فأقول هكذا أعرض بوجهي عنكم، فتقولون: يا محمد أنا فلان بن فلان. فأقول: أما النسب فأعرف وأما العمل فلا أعرف نبذتم الكتاب فارجعوا فلا قرابة بيني وبينكم». وأما لفظ الطبراني من حديث عمران بن حصين: «يا بني هاشم إن أوليائي منكم المتقون، يا بني هاشم اتقوا النار ولو بشق تمرة، يا بني هاشم لا ألفينكم تأتون بالدنيا تحملونها على ظهوركم ويأتون بالآخرة يحملونها».

(فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش ولما نزل قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الاقربين﴾ ناداهم بطنا بعد بطن) فقال: «يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب (حتى قال: يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً») قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث عائشة اهـ.

قلت: ورواه الحكم من حديث أبي هريرة وتقدم سياقه قبل هذا. وعند البيهقي: «يا فاطمة بنت محمد اشتري نفسك من النار ولو بشق تمرة، يا عائشة لا يرجع من عندك سائل ولو بظلف محرق». ورواه الترمذي من حديث عائشة وقال: حسن غريب: «يا صفية بنت عبد المطلب يا فاطمة بنت محمد يا بني عبد المطلب: إني لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم».

وأما لفظ مسلم من حديث أبي هريرة: «يا بني كعب بن لؤي انقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة ابن كعب انقذوا انفسكم من النار، يا بني عبد شمس انقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف انقذوا انفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة انقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً». ورواه كذلك النسائي.

ولفظ أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضراً ولا نفعاً، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضراً ولا نفعاً، يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار، فإني لا أملك من الله ضراً ولا نفعاً».

(فمن عرف هذه الأمور عرف أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع

اقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه ـ بلسان حاله ـ مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق.

فإن قلت فقد قال ﷺ بعد قوله لفاطمة وصفية: «إني لا أغني عنكما من الله شيئاً إلا ان لكما رحماً سأبلها ببلالها» وقال عليه السلام: «أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب» فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة؟ فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله ﷺ: «والنسيب أيضاً جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه، فإنه ان يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له، وإلى ما يعفي عنه بسبب الشفاعة كالذنوب عند ملوك الدنيا فإن كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك، فمن الذنوب ما لا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿ولا

فإن اقتدى) وسلك طريقهم (**في التقوى والتواضع**) فهو المطلوب، (**وإلاَّ كان طاعناً في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق**) والحذر من المقت.

(**فإن قلت: فقد قال رسول الله ﷺ بعد قوله لفاطمة وصفية**) رضي الله عنهما: (**«إني لا أغني عنكما من الله شيئاً إلا أن لكما رحماً سابلها ببلالها»**) قال العراقي: رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «غير أن لكما رحماً سابلها ببلالها»، اهـ.

قلت: ورواه النسائي كذلك وليس في حديثها ذكر صفية، وأوّل الحديث قد تقدم قريباً. ورواه أحمد والترمذي بلفظ: «إن لك رحماً وسابلها ببلالها» وذكره بعد قوله: «يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً» وأوّل الحديث تقدم أيضاً قريباً

(**وقال** ﷺ: «**أترجو سليم**) مصغر قبيلة من العرب (**شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب»**) قال العراقي: رواه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر، وفيه أصرم بن حوشب عن إسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جداً، (**فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة. فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله ﷺ والنسيب**) أي ذو النسب (**جدير بأن يرجوها**) وينالها، (**ولكن بشرط أن يتقي الله أن**) يمقت و (**يغضب عليه، فإنه أن يغضب عليه فلا يأذن لأحد في شفاعته، فإن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت**) من الله تعالى وهو أشد الغضب، (**فلا يؤذن في الشفاعة له**) أصلاً (**وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذنوب عند ملوك الدنيا، فإن كل ذي مكانة عند الملك**) أي منزلة وقدر (**لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك، فمن الذنوب ما لا تنجى منه

يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء : ٢٨] وبقوله : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة : ٢٥٥] وبقوله : ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ [السبأ : ٢٣] وبقوله : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [المدثر : ٤٨] وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة ، ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشاً بالطاعة ولما نهى رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة ، فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالاً على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتماداً على طبيب حاذق قريب مشفق من أب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل لأن سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها ، فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرد الطب ، بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعاً ، وذلك لا يزيل

الشفاعة وعنه العبارة بقوله عز وجل: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وبقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وبقوله ﴿لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا﴾ وبقوله: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾) فهذه الآيات كلها دالة أنه ليس كل أحد يستقل بالشفاعة ولا كل الذنوب يشفع فيها . (**وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه وجب الخوف والإشفاق لا محالة ، ولو كان كل ذي ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشاً**) وهم خيار البطون من القبائل (**بالطاعة**) والامتثال لأوامر الله تعالى ، (**ولما نهى فاطمة**) رضي الله عنها وهي بضعة من جسده ﷺ (**عن المعصية**) ولما أمرها أن تشتري نفسها من الله تعالى ، (**ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذتها في الدنيا**) بها ، (**ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذتها في الآخرة**) فتكون قد جمعت بين اللذتين ، (**فالإنهماك في الدنيا وترك التقوى اعتماداً على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته**) وانبساطه فيها (**اعتماداً على طبيب حاذق**) بصير بالمعالجة (**مشفق من أب أو أخ أو غيره**) ممن يعتمد على صحبته ، (**وذلك جهل لأن سعي الطبيب وهمته وحذقه**) إنما (**ينفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلها ، فلا يجوز ترك الحمية**) التي هي رأس الدواء (**مطلقاً اعتماداً على مجرد الطب بل للطبيب أثر على الجملة ، ولكن في الأمراض الخفيفة**) السهلة التي يرجى بمعالجتها البرء من قرب (**وعند غلبة إعتدال المزاج**) وأما عند فساده فلا ينجح تدبير الطبيب فيه إلا قليلاً ، (**فهكذا ينبغي أن يفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء والأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعاً وذلك لا يزيل الخوف والحذر**) والإشفاق ، (**وكيف يزيل وخير الخلق**

الخوف والحذر، وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله ﷺ أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بها ثم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله ﷺ إياهم بالجنة، خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلموا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم.

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وإنهم الممقوتون عند الله تعالى، ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم وأقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب إليهم ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً واستحقاراً لهم، ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة

بعد رسول الله ﷺ أصحابه) بمقتضى الخبر: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» **(وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بها ثم)** كما تقدم من قول عمر رضي الله عنه: ليتني كنت كبشاً لاهلي فذبحوني وأكلوني كل ذلك **(من خوف الاخرة)** وهو المطلع. هذا **(مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم و)** مع **(ما سمعوه من وعد رسول الله ﷺ إياهم بالجنة خاصة)** يشير إلى ما رواه ابن شيبة، وأحمد، وابن منيع، وابن أبي عاصم، وأبو نعيم في الحلية، والضياء من حديث سعيد بن زيد رفعه: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة». ورواه أيضاً أحمد، والترمذي، وأبو نعيم في المعرفة، وابن عساكر من رواية عبد الرحمن بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن جده رفعه بهذا. **(وسائر المسلمين بالشفاعة عامة)** يشير إلى ما رواه الحرث بن أبي أسامة من حديث أبي هريرة: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق لسانه قلبه وقلبه لسانه». **(ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخشوع والخوف قلوبهم؟ فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم)** وتقواهم وإخلاصهم.

(الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم) والإفتخار به **(دون نسب الدين والعلم. وهذا غاية الجهل، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم)** وفضائحهم **(وما جرى لهم من الظلم والتعدي على عباد الله والفساد في دين الله، وأنهم ممقوتون عند الله ولو نظر إلى صورهم في النار)** وقد امتحشوا وصاروا حمماً **(و)** نظر إلى **(أقذارهم وأنتانهم)** مما يسيل من أجسادهم **(لاستنكف منهم ولتبرأ من الإنتساب إليهم ولأنكر على من نسبه إليهم استقذاراً لهم واستحقاراً، ولو انكشف له ذمهم في القيامة)** ومهانتهم **(وقد تعلق الخصماء بهم)**

آخذون بنواصيهم يجزونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الإنتساب إليهم فحق أولاد الظلمة ان عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين! فأما العجب بنسبهم فجهل محض.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع، كما قال الكفار: ﴿نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً﴾ [السبأ: ٣٥] وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نغلب اليوم من قلة، وعلاجه ما ذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وإن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴿وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ [البقرة: ٢٤٣] ثم كيف يعجب بهم وإنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئاً، وهو في أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ★ وصاحبته وبنيه﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٦] الآية فأي خير فيمن

يطالبونهم بحقوقهم (**والملائكة يأخذون بنواصيهم**) وأقدامهم (**يجرونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد لتبرأ إلى الله منهم، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الإنتساب إليهم، فحق أولاد الظلمة أن عصمهم الله تعالى من ظلمهم أن يشكر والله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين. وأما العجب بنسبهم فجهل**).

(**السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد**) والأحفاد والأسباط (**والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار**) والأعوان (**والأتباع، كما قال الكفار: ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾**) فأعجبوا بكثرتهم، (**وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نغلب اليوم عن قلة**) إذ عجبوا بكثرة المؤمنين وكانوا اثني عشر ألفاً، سوى من خرج معهم من مشركي مكة نحو الثمانين مساعدة لهم. (**وعلاجه ما ذكرناه في الكبر، وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد وعجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴿وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾**) كما جرت به عادة الله وما النصر إلا من عند الله، (**ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لا يرافقه ولد ولا أهل ولا قريب ولا حميم ولا عشيرة**) ممن كان يعتمد عليه ويتبجح به، (**فيسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب والديدان**) ينتهبون جسمه العزيز الغالي وينتهشونه نهشاً حتى يصير روثاً في أجوافها، (**ولا يغنون عنه شيئاً وهو في أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربون منه يوم القيامة**) كما قال تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه ★ وأمه وأبيه ★ وصاحبته وبنيه﴾ ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن

يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك ؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى ؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك ، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك .

السابع : العجب بالمال كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال : ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ [الكهف : ٣٤] ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه ، فقال عليه السلام : « أخشيت أن يعدو إليك فقره » وذلك للعجب بالغنى وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غوائله ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة ، وإلى ان المال غاد ورائح ولا أصل له ، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : « بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه إذا أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وقال أبو ذر : كنت مع رسول الله ﷺ فدخل المسجد فقال لي : « يا أبا ذر ارفع رأسك » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب

يغنيه﴾ (**فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك ؟ فيكف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة على الصراط إلا عملك**) الصالح الذي قدمته بين يديك ؟ (**فكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك ضرك ونفعك وموتك وحياتك ؟**) .

(**السابع : العجب بالمال كما قال تعالى**) حكاية عن الكفار : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ و (**قال تعالى إخباراً عن صاحب**) إحدى (**الجنتين إذ قال**) أحدهما لصاحبه : (**﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾**) أي أولاداً وأعواناً . (**ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض منه وجمع ثيابه فقال ﷺ : « خشيت أن يعدو إليك فقره »**) قال العراقي : رواه أحمد في الزهد ، (**وذلك للعجب بالغنى . وعلاجه أن يتفكر في آفات المال**) التي تعرض بسببه (**وكثرة حقوقه وعظم غوائله**) أي دواهيه ، (**وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في القيامة**) قبل الأغنياء بخمسمائة عام كما تقدم ذلك في الاخبار ، (**وإلى أن المال غادٍ ورائح**) أي يغدو تارة ويروح أخرى لا اعتماد عليه (**ولا أصل له ، وإلى أن في اليهود**) والنصارى (**من يزيد عليه في المال**) كما هو مشاهد ، (**وإلى قوله ﷺ : « بينما رجل يتبختر في حلة أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »**) رواه الشيخان من حديث أبي هريرة وقد تقدم في أول هذا الكتاب ، (**أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وقال أبو ذر**) رضي الله عنه : (**كنت مع رسول الله ﷺ فدخل المسجد فقال : « يا أبا ذر إرفع رأسك »**) قال : (**فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقان**) بالضم جمع

جياد ثم قال: « ارفع رأسك » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقه فقال لي: « يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا » وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى، فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله؟

الثامن: العجب بالرأي الخطأ. قال الله تعالى: ﴿أفمن زُيِّن له سوءُ عملهِ فرآه حَسناً﴾ [الفاطر: ٨] وقال تعالى: ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ [الكهف: ١٠٤] وقد أخبر رسول الله ﷺ أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقاً فكل معجب برأيه: ﴿وكلُّ حزب بما لديهم فرحون﴾

خلق محركة. يقال: ثوب خلق وثياب خلقان وقد خلق ككرم إذا بلي وتقطع، (**فقال لي: « يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا »**) والقراب بالكسر مصدر قارب الأمر إذا داناه يقال: لو جاء بقراب الأرض أي بما يقاربها ولو أن لي قراب الأرض ذهباً أي ما يقارب ملأها. قال العراقي: رواه ابن حبان في صحيحه اهـ.

قلت: لكن لفظه: « يا أبا ذر انظر إلى أرفع رجل في المسجد في عينك » قال: فنظرت فإذا رجل عليه حلة. قلت: هذا. قال: « انظر إلى أوضع رجل في المسجد » قال: فنظرت فإذا رجل عليه خلاق. قلت: هذا. قال: « والذي نفسي بيده لهذا عند الله يوم القيامة خير من ملء الأرض مثل هذا وهكذا ». رواه أيضاً أحمد وهناد كلاهما في الزهد، وأبو يعلى في المسند، والروياني، والحاكم، والضياء في المختارة.

(**وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الأغنياء وشرف الفقراء عند الله**) تعالى، (**فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته**) أي كثرة ماله، (**بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال وأخذه من حله ووضعه في حقه**) وأنى يقوم بتلك الحقوق، (**ومن لايفعل ذلك**) أي لا يأخذ المال من حيث الحل ثم إذا أخذه كذلك لا يضعه في حقه، (**فمصيره إلى الخزي والبوار**) أي الهلاك، (**فكيف**) يتصوّر أن (**يعجب بماله؟**).

(**الثامن: العجب بالرأي الخطأ قال الله تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾**) أي زين له الشيطان في عينه فأعجب. (**وقال تعالى**) في حق الأخسرين أعمالاً: (**﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ وقد أخبر ﷺ أن ذلك**) أي الإعجاب بالرأي الخطا (**يغلب على هذه الأمة و**) أنه (**بذلك هلكت الأمم السالفة إذا افترقت فرقاً، فكل**

[المؤمنون: ٥٣] وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقاً، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جداً. لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان معجباً برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقل صحيح جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر في الطلب وممارسة للكتاب والسنّة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في

معجب برأيه: ﴿وكلّ حزب بما لديهم فرحون﴾) يشير بذلك إلى حديث أبي ثعلبة الخشني، فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك، وهو عند أبي داود والترمذي وقد تقدم في أوّل هذا الكتاب، (**وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها**) أي على بدعهم (**لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظن كونه حقاً**) وصواباً. (**وعلاج هذا العجب أشد من غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه**) وباشر أسباب ما يضاده، (**ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جداً، إلا أن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه**) بحسن العبارة والإلقاء (**إلا إذا كان معجباً بجهله ورأيه فإنه لا يصغي إلى العارف**) ولا يرفع له رأساً (**ويتهمه، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة، فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده**) فهذا سبب عسر المداواة، (**وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنّة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة**) يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى حصول المطلوب، (**ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط منها إلا بقريحة تامة**) راجحة، (**وعقل ثابت**) وذهن صَحيح (**وجدّ وتشمر في الطلب**) قد عرف به وأكب عليه، (**وممارسة في الكتاب والسنّة**) بكثرة المراجعة لها في كل مهمة، (**ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة العلوم**) مع أهلها إلقاء وتقرير أو مباحثة، (**ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور**) كما هو من عوائد البشر، (**والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن يخوض في المذاهب**) وما

المذاهب ولا يصغي إليها ولا يسمعها ، ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى : ١١] وأن رسوله صادق فيما أخبر به ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل ، بل يقول آمنا وصدقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الأعمال ، فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد هلك من حيث لا يشعر . وهذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم ، فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأوّل مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الأمر فيه ، والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جداً ، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الإغترار بخيالات الجهال .

فيها من الآراء والإختلافات ، (**ولا يصغي إليها ولا يسمعها**) فإنه يورث تشتيتاً للفكر وحيرة في المقام وأحوالاً مختلفة تتولد منها أوصاف التعصب ما إن أخلد إليها كانت سبباً لهلاك باطنه ، (**ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأنه : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ وأن رسوله**) ﷺ (**صادق فيما أخبر به**) وبلغه ، (**ويتبع سنة السلف**) ويسلك على منهاجهم بما تلقفه من شيوخه ومن مطالعة كتب القوم ، (**ويؤمن بجميع ما جاء به الكتاب والسنّة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل**) ما أجمل فيه أو أشير إليه ، (**بل يقول : آمنا وصدقنا**) فهذا هو الإيمان الإجمالي (**ويشتغل**) بعد ذلك (**بالتقوى واجتناب المعاصي**) ومجانبة الرذائل المسقطة للمروءة (**وأداء الطاعات**) كما أمر بها (**والشفقة على المسلمين**) فلا يألو في نصحهم ولا يحقرهم ولا يذلهم (**وسائر الأعمال**) الصالحة ، (**فإن خاض في المذاهب والبدع والتعصب في العقائد**) فقد شغل نفسه بغير الأهم ، بل ربما (**هلك من حيث لا يشعر هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم**) فإنه يكفيه القدر المذكور ، (**فأما الذي عزم على التجرد للعلم فأوّل مهم له معرفة الدليل وشروطه**) وهو مبين في كتب الأصول ، (**وذلك مما يطول الأمر فيه**) لأنه متوقف على تحصيل فنون بها يتدرج على معرفة شروط الدليل ، فالأعمار تفنى وهو لم يحصل بعد حتى يأتيه الموت وهو يتحسر على فوات مقصوده ، (**والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد**) عسر .

كيف الوصول إلى سعادتها ودونها ... قلل الجبال ودونهن حتوفُ

(**لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى**) إذ من أيد بنوره انكشف له غوامض الحقائق من وراء حجاب واتضحت له وجوه الصواب بلا إتياب (**وهو عزيز الوجود جداً**) لما استحوذ الشيطان والنفس الأمّارة على غالب الطالبين وآثروا دنياهم على آخرتهم بجعلهم ما يجعلونه شبكة يصطادون بها الغافلين . (**فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال**

تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ونعوذ به من الإغترار بخيالات الجهال) أنه سميع قريب مجيب، والحمد لله رب اعالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الأئمة الأطهرين وأصحابه الكرام الفاضلين.

وبه تم شرح كتاب ذم الكبر والعجب بحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات. كان الفراغ من تسويده في مجالس آخرها في الساعة الخامسة من نهار الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الآخر من شهور سنة ١٢٠٠ أحسن الله ختامها. قال المؤلف: وذلك على يد مؤلفه العبد الفقير إلى مولاه أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني لطف الله به وأحسن إليه بمنه وكرمه حامداً لله ومصلياً ومسلماً ومحسباً ومحوقلاً.

كتاب ذم الغرور وهو الكتاب العاشر
من ربع المهلكات من كتب إحياء علوم الدين
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور، مخرج

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً الله ناصر كل صابر

الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا بطوله، مانح كل غنيمة وفضل وكاشف كل عظيمة وأذل احمده على عواطف كرمه، وسوابغ نعمه، ونؤمن به أوّلاً بادياً،واستهديه قريباً هادياً، واستعينه قادراً قاهراً، وأتوكل عليه كافياً ناصراً، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أرسله لإنفاذ أمره، وإنهاء عذره، وتقديم نذره، فبلغ الرسالة صادعاً بها، وحمل على المحجة دالاً عليها، وأقام أعلام الإهتداء ومنار الضياء، وجعل أمراس الإسلام متينة وعرى الإيمان به وثيقة، صلى الله عليه وعلى آله الائمة الأطهار، وأصحابه الأنجاب الأخيار، والتابعين لهم بإحسان إلى ما بعد القرار، وسلم تسليماً كثيراً وبعد فهذا شرح:

كتاب ذم الغرور

وهو العاشر من الربع الثالث من كتاب الإحياء للإمام أبي حامد الغزالي قدس الله سره، وواصل إلينا فتوحه وبرّه،أوضحت فيه سبل النجاة للسالكين ونبهت فيه على جمل من فوائد توقظ المغترين، وكشفت فيه عن رموز عجب الخفا، وأوردت فيه من زبد إشارات القوم مما رق وصفا، سالكاً مسلك الإيجاز المفيد، معرضاً عن التطويل الممل للمريد، سائلاً من الله الإعانة والتوفيق، والهداية إلى ابتهاج الطريق، إنه ولي كل مأمول، والحري بإجابة السول. قال المصنف رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(**الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور**) أي مفاتيحها جمع إقليد بالكسر معرب كليد وهذا كما قالوا ملامح ومشابه ومحاسن ومذاكير، أو جمع مقليد أو مقليد أو مقلاد، وبه فسر مجاهد قوله

أوليائه من الظلمات إلى النور، ومورد أعدائه ورطات الغرور، والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور، صلاة تتوالى على ممر الدهور، ومكرّ الساعات والشهور.

أما بعد؛ فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله

تعالى: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ [الزمر: ٦٣] فقال: أي مفاتيحها. وقال السري: أي خزائنها، فهذا قد فسر المقاليد بالخزائن. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ولله خزائن السموات والأرض﴾ [المنافقون: ٧٠] وأحسن ما فسر القرآن بالقرآن وشاهد الإقليد قول تبع:

واقنابه من الدهر سبتا　　وجعلنا لبابه إقليدا

(**وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور**) فما من خير أو شر إلا مفاتيحه في قبضة قدرته وحيطة قهره، إذ هو القادر المطلق أي لا يملكها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، وهو كناية عن كمال قدرته وحفظه للأمور. وفي الجملتين مزيد دلالة على الإختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من بيده مفاتيحها، (**مخرج أوليائه**) بهدايته وتوفيقه (**من الظلمات**) ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه المؤدية إلى الكفر (**إلى النور**) أي الهدى الموصل للإيمان، (**ومورد أعدائه**) ممن ثبت في علمه أنه لا يؤمن (**ورطات الغرور**) والشبهات، وذلك لفساد استعدادهم وأنهاكهم في الشهوات. وأصل الغرور الغفلة وسكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع، (**والصلاة على**) سيدنا (**محمد مخرج الخلائق من الديجور**) أي من ظلمة الشكوك والشبهات إلى نور اليقين والبينات، وأصل الديجور ظلمة الليل وشدة سواده، والجمع دياجير ويستعار لظلمات الكفر والجحود وفساد العقائد، (**وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا**) أي لم تأخذهم غرة بالكسر وهي الخصلة التي يغتر بها ظاهرها حسن ومآلها قبيح، (**ولم يغرهم بالله الغرور**) كصبور كل ما يغرك من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسّر بالشيطان وبالدنيا لأنها تغر وتضر وتمر، فأما الشيطان فهو أقوى الغاوين وأخبثهم وإغراره بالإنسان بأن يرقبه التوبة والمغفرة فيجسره على المعاصي، (**صلاة تتوالى**) أي تتضاعف وتتكرر (**على ممرّ الدهور**) على مرور أزمان بعد أزمان بحيث لا تنقطع، (**ومكر الساعات والشهور**) والمكر بمعنى الممر أي مرور كل ساعة من الساعات في ضمن الأيام والليالي من الشهور الكارة.

(**أما بعد؛ فمفتاح السعادة**) التي هي معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير (**التيقظ**) أي الانتباه (**والفطنة**) وهي سرعة هجوم النفس على حقائق معاني ما توردة الحواس عليها، (**ومنع الشقاوة**) وهي ضد السعادة ومنبع كل شيء أصله (**الغرور والغفلة**) تقدم معنى الغرور قريباً. والغفلة عبارة عن فقد الشعور بما حقه أن يشعر به أو هي الذهول عن الشيء، وقال بعضهم: هي سهو يعتري عن قلة التحفظ والتيقظ، وقيل: بل هي متابعة النفس على ما تشتهيه

على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليها سوى عمي القلب بظلمة الجهالة، فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم: ﴿كمشكاةٍ فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور﴾ [النور: ٣٥] والمغترون قلوبهم ﴿كظلمات

(فلا نعمة له على عباده أعظم من الإيمان) به وحده (والمعرفة) وبها تكمل لذة الإيمان، (لا وسيلة إليه) أي إلى الإيمان المستكمل بالمعرفة (سوى انشراح الصدر بنور البصيرة) بأن ينفسح لقبوله، (ولا نقمة أعظم من الكفر) بالله (والمعصية، ولا داعي إليها) أي إلى ارتكابها (سوى عمى القلب بظلمة الجهالة) بأن يغلب عليه الجهل فيظلمه فيعميه عن درك الحقائق ويدعوه إلى عدم الإنقياد للحق، (فالأكياس) أي العقلاء (وأرباب البصائر) المضيئة (قلوبهم ﴿كمشاة﴾) أي بمثابة كوّة في الحائط غير نافذة (﴿فيها مصباح﴾) أي سراج ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأنبوبة في وسط القنديل، والمصباح: الفتيلة المشتعلة: (﴿المصباح في زجاجة﴾) أي في قنديل من الزجاج: (﴿الزجاجة كأنها كوكب دريّ﴾) مضيء متلالىء (﴿توقد من شجرة مباركة زيتونة﴾) أي ابتدأ ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت ذبالته بزيتها (﴿لا شرقية ولا غربية﴾) تقع الشمس عليها حيناً دون حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتي تكون على قلة جبل أو صحراء واسعة فإن ثمرتها تكون أجود وزيتها أصفى (﴿يكاد زيتها يضيء﴾) أي يكاد يضيء بنفسه (﴿ولو لم تمسسه نار﴾) لتلألؤه وفرط وبيصه (﴿نور على نور﴾) أي نور متضاعف، فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعته، وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه. والأوفق للسياق أنه تمثيل لما نوّر الله به قلوب أوليائه من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها مصباحها. ويؤيده قراءة أبيّ بن كعب: مثل نور المؤمن، وقيل: بل هو تمثيل لما منح الله به عباده من القوى الدراكة الخمس وهي الحساسة التي تدرك المحسوسات بالحواس الخمس، والخيالية التي تحفظ صورة تلك المحسوسات لتعرضها على القوّة العقلية متى شاءت والعملية التي تدرك الحقائق الكلية والفكرة هي التي تؤلف المعقولات تستنتج منها علم ما لم يعلم، والقوّة القدسية التي تتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاه نُوراً نهدي به مَنْ يَشَاءُ مِنْ عبادِنا﴾ [الشورى: ٥٢] بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية. وهي المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت، فإن الحساسة: كالمشكاة لأن محلها كالكوّة ووجهها إلى الظاهر ويدري ما وراءها وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية: كالزجاجية في قبول صور المذكورات من الجوانب وضبطها إلى الأنوار العقلية وإنارتها بها بما يشتمل عليها من المعقولات، والعاقلة: كالمصباح لإضاءته بالإدراكات الكلية والمعارف الإلهية، والفكرة بالشجرة المباركة لتأديها إلى ثمرات لا نهاية لها، والزيتون المثمرة بالزيت الذي هو مادة المصباح التي لا تكون شرقية

في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه، موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ [النور: ٤٠] فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم، فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء. والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً وبقي في العمى فاتخذ

ولا غربية لتجردها عن اللواحق الجسمية والقوّة القدسية كالزيت لصفائها وشدة ذكائها،تكاد تضيء بالمعارف من غير تعليم، وقد أوسع الكلام على هذا المقام المصنف في كتابه مشكاة الأنوار وتقدم شيء من ذلك في كتاب عجائب القلب.

(**والمغترون**) بأعمالهم التي يحسبون أنها صالحة نافعة عند الله فإذا هي لاغية عند الله في العاقبة، فهؤلاء (**قلوبهم**) خالية عن نور الحق (﴿ **كظلمات**﴾) متراكمة (﴿ **في بحر لجيّ**﴾) أي عميق (﴿ **يغشاه**﴾) أي البحر (﴿ **موج من فوقه موج**﴾) أي أمواج مترادفة (﴿ **من فوقه**﴾) أي الموج الثاني(﴿ **سحاب**﴾) غطى النجوم وحجب أنوارها (﴿ **ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده**﴾) وهي أقرب ما ترى إليه. (﴿ **لم يكد يراها**﴾) أي لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها (﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً**﴾) أي من لم يقدر له الهداية ولم يوفقه لأسبابها (﴿ **فما له من نور**﴾) بخلاف الموفق الذي هو نور، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آخر كتاب عجائب القلب.

(**والأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم**) أي يعرفهم طريق الحق ويوفقهم لأسباب الهداية، (**فشرح صدورهم للإسلام والهدى**) أي اتسعت وانفسحت لقبولها وهو كناية في جعل النفس قابلة للحق مهيأة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار ﷺ حين سئل عنه فقال: « نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح » فقالوا: هل لذلك من أمارة نعرف بها؟ فقال: « نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والإستعداد للموت قبل نزوله ». (**والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدورهم ضيقة حرجة**). أي شديدة الضيق بحيث تنبو عن قبول الحق فلا يدخلها الإيمان (**كأنما يصعد في السماء**) شبه مبالغة في ضيق صدورهم بمن يزلزل ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الإستطاعة وتنبيه على أن الإيمان يمتنع عنها كما يمتنع صفةِ الصعود، وقد أشار بذلك إلى قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ومَنْ يرد أنْ يُضلّه يَجعَلْ صَدْرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً كأنما يصَّعَّدُ في السَّماءِ كذلِكَ يجْعَلُ اللهُ الرِّجسَ على الذين لا يؤمنون﴾ [الأنعام: ١٢٥]

(**والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته**) أي عين بصيرته (**ليكون بهداية نفسه كفيلاً**) أي متكفلاً لضبطها ومراعاتها (**وبقي في العمى**) أي ظلمة جهله (**فاتخذ الهوى قائداً**) يقوده

الهوى قائداً والشيطان دليلاً ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً﴾ [الإسراء : ٧٢] وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بدّ من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر الغرور فيه، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه، فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره.

ونحن نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادىء الأمور، الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها، ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الاستقصاء وفرق المغترين كثيرة، لكن يجمعهم أربعة أصناف:

الصنف الأوّل: من العلماء.

حيث شاء (**والشيطان دليلاً**) وقريناً ﴿ومَنْ يَكُنِ الشَّيْطان له قريناً فساءَ قريناً﴾ [النساء : ٣٨] ومن كان الغراب له دليلاً، يكون مآله جيف الكلاب.

(﴿**ومن كان في هذه**﴾) أي دار الدنيا (**أعمى**) لم يهتد لنور إيمانه (﴿**فهو في الآخرة أعمى**﴾) أي أكثر عمى (﴿**وأضل سبيلاً**﴾) وقيل: المراد بالعمى الأول عمى القلب، وبالثاني عمى البصر بدليل قوله عز وجل حكاية عنه: ﴿رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ [طه : ١٢٥] فيأتيه النداء بالجواب قد: ﴿أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ [طه : ١٢٦] (**وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات**) أي أصلها (**ومنبع المهلكات**) منه تتفرع (**فلا بدّ من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد**) السالك في طريق الحق (**بعد معرفته فيتقيه**) ويتجنبه، (**فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد**) في أعماله، (**فأخذ منها حذره**) واتقاه (**وبنى على الحزم والبصيرة أمره**) ومن لا يعرف الشر يقع فيه وهو لا يشعر.

(**ونحن**) بحمد الله تعالى (**نشرح أجناس مجاري الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادىء الأمور**) وأوائلها (**الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها**) أي بواطنها (**ونشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغني عن الإستقصاء**) أي عن طلب النهاية فيه، (**وفرق المغترين كثيرة لكن يجمعهم أربعة أصناف**).

(**الصنف الأوّل: من العلماء**).

الصنف الثاني: من العباد.

الصنف الثالث: من المتصوّفة.

الصنف الرابع: من أرباب الأموال. والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غررهم مختلفة، فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه، ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة، ولنبدأ أوّلاً بذكر غرور العلما. واكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحدّه.

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته:

اعلم أن قوله تعالى: ﴿فلا تغرنّكم الحياةُ الدّنيا ولا يُغرنّكم باللهِ الغَرُور﴾ [لقمان:

(**الصنف الثاني: من العباد**).

(**الصنف الثالث: من المتصوّفة**).

(**الصنف الرابع: من أرباب الأموال**) هكذا على هذا الترتيب فالعلم هو الأصل والعبادة تنشأ عنه والتصوّف ينشأ عنهما. (**والمغتر من كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة، فمنهم من رأى المنكر معروفاً كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذي غرضه**) من وعظه (**القبول والجاه**) فقط، (**ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة، ومنهم من يترك اللباب**) وهو المخ الخالص من الثمرة (**ويشتغل بالقشر**) الذي يكون من فوق اللب (**كالذي يكون همه في الصلاة مقصوراً على تصحيح مخارج الحروف**) وكيفية النطق بها (**إلى غير ذلك من مداخل لا تتضح إلا بتفصيل الفرق وضروب الأمثلة، ولنبدأ أوّلاً بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور وبيان حقيقته وحدّه**).

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته:

(**اعلم**) هداك الله تعالى (**أن قوله تعالى: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾**) أي لا توقعنكم في الغرور (**﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾**) تقدم أنه فسر بالشيطان لأنه أكبر الغارين وبالدنيا فإنها

٣٣] وقوله تعالى: ﴿ولكِنّكم فتنْتُم أنْفُسَكُمْ وترَبَصتم وارتبْتُم وغرتْكُمُ الأماني﴾ [الحديد: ١٤] الآية. كاف في ذم الغرور، وقد قال رسول الله ﷺ: « حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين ». وقال ﷺ: « الكيس من دان نفسه وعمل » بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وكل ما ورد في فضل

تغر وتضر وتمر. (**وقوله تعالى: ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم﴾**) أي تأخرتم عن نصرة الرسول (**وارتبتم**) أي شككتم (**وغرتكم الأماني﴾**) أي أوقعتكم في الغرور (**الآية**) إلى آخرها. (**كاف في ذم الغرور، وقد قال** ﷺ: « **حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين** ») قال العراقي: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بنحوه. وفيه انقطاع وفي بعض الروايات أبي الورد بدل أبي الدرداء ولم أجده مرفوعاً اهـ.

قلت: رواه أيضاً أبو نعيم في الحلية من قول أبي الدرداء قال: حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا يزيد، حدثنا أبو سعيد الكندي عمن أخبره عن أبي الدرداء أنه قال: « يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامهم ومثقال ذرة من بر صاحب تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترين ». والإنقطاع الذي أشار إليه العراقي هو ما بين أبي سعيد الكندي، وبين أبي الدرداء.

(**وقال** ﷺ: « **الكيس**) كسيد هو الظريف الفطن وقد كاس كيساً (**من دان نفسه**) أي استعبدها وقهرها بأن جعلها مطية منقادة لأوامر ربها. قال الشيخ الأكبر قدس سره. كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيدونه في دفتر، فإذا كان بعد العشاء حاسبوا نفوسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم من قول وعمل وقابلوا كلاً بما يستحقه إن استحق استغفاراً استغفروا أو توبة تابوا أو شكراً شكروا ثم ينامون، فزدنا عليهم في محاسبة الخواطر فكنا نقيد ما تحدث به نفوسنا وتهم به ونحاسبها عليه. (**وعمل لما بعد الموت**) قبل نزوله ليصير على نور من ربه فالموت عاقبة أمور الدنيا، فالكيس من أبصر العاقبة، (**والأحمق**) وفي رواية العاجز بالعين المهملة والزاي، ورواية العسكري في الأمثال الفاجر بالغاء (**من اتبع نفسه هواها**) فلم يكفها عن الشهوات ولم يمنعها عن مقارفة المحرمات واللذات (**وتمنى على الله** ») زاد في رواية الأماني بتشديد الياء جمع الأمنية وهي طلب ما لا طمع فيه أو ما فيه عسر أي فهو على تقصيره في طاعة ربه واتباع شهوات نفسه لا يستعد ولا يعتذر ولا يرجع، بل يتمنى على الله العفو والجنة مع الإصرار وترك التوبة والإستغفار. قال العراقي: رواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث شداد بن أوس اهـ.

قلت: ورواه أيضاً أبو داود، والطيالسي، وأحمد، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس، والحرث

العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور هو جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور: مغروراً فيه مخصوصاً ومغروراً به وهو الذي يغره، فمهما كان المجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل عن

ابن أبي أسامة، والبيهقي، والعسكري في الأمثال، والقضاعي، والطبراني، والحاكم من حديث ابن المبارك، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن حمزة بن حبيب، عن شداد بن أوس به مرفوعاً.

وأخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق ابن المبارك، ثم من طريق أبي داود الطيالسي، والحرث بن أبي أسامة فقال: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود يعني الطيالسي ح.

وحدثنا أبو بكر بن خلاد، حدثنا الحرث بن أبي أسامة، حدثنا أبو النضر قالا: حدثنا عب الله بن المبارك، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن حمزة بن حبيب، عن شداد بن أوس، عن النبي ﷺ فذكره ثم قال: هذا حديث مشهور بابن المبارك عن أبي بكر بن أبي مريم رواه عنه المتقدمون، ورواه عمرو بن شر بن السرح، عن أبي بكر بن أبي مريم مثله، ورواه ثور بن يزيد، وغالب عن مكحول عن ابن غنم عن شداد عن النبي ﷺ مثله.

وحدثناه سليمان بن أحمد، حدثنا مكحول البيروني، حدثنا إبراهيم بن بكر بن عمرو قال: سمعت أبي يحدث عن ثور وغالب بإسناده اهـ كلام أبي نعيم.

وكأنه نظر إلى هذا الحاكم فصححه، وتعقبه الذهبي بأن ابن أبي مريم واه، وكذا قال ابن طاهر: أن مداره على أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف جداً، وكأنهم لم يروا ما توبع عليه فتأمل والله أعلم.

وقال العسكري: هذا الحديث فيه رد على المرجئة واثبات للوعيد. وروى البيهقي من طريق عون بن عمارة، عن هشام بن حسان، عن ثابت عن أنس رفعه: «الكيس من عمل لما بعد الموت والعاري العاري عن الدين اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة».

(وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل إذ الجهل) في الأصل خلو النفس عن العلم وقد جعله بعض معنى مقتضياً للأفعال الجارية على النظام ثم هو نوعان: الأول: **(هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به)** وعليه، والثاني: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل به اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أم فاسداً كتارك الصلاة عمداً. ومن أنواع الجهل بمعنى الذم، ومن أنواعه البسيط والمركب، **(والغرور هو الجهل إلا أن كل جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور مغروراً فيه مخصوصاً ومغروراً به وهو الذي يغره، فمهما كان المجهول المعتقد شيئاً يوافق الهوى**

شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً سمي الجهل الحاصل به غروراً. فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق، فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور.

المثال الأول: غرور الكفار، فمنهم من غرته الحياة الدنيا، ومنهم من غرهم بالله

وكان السبب الموجب للجهل لشبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً) في الحقيقة (سمي الجهل الحاصل به غروراً) فهو أخص من الجهل، (فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان) أشار إليه الراغب في المفردات، وصاحب القاموس في البصائر. (فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور) قد غرَّه الشيطان بتلك الشبهة حين ألقاها في مخيلاته وتدرج في تمكينها منه حتى رسخت فأورثت اعتقاد الخيرية، (وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه) وسبب خطئهم قيام تلك الشبهة في ضمائرهم وعدّها دليلاً، (فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم) وتنوّعت (واختلفت درجاتهم) فيه (حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من) غرور (بعض، وأظهرها وأشدها غروراً الكفار وغرور العصاة والفساق، فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور) بها تتضح تلك الحقيقة فنقول:

(المثال الأول: غرور الكفار) وهم المحجوبون بمحض الظلمة وهم أقسام.

الأول: الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة وهؤلاء صنفان:

صنف تشوّف إلى طلب سبب لهذا العالم فأحاله على الطبع والطبع عبارة عن صفة مركوزة في الأجسام حالة فيها، وهي مظلمة إذ ليس لها معرفة إدراك ولا خبر لها من نفسها ولا مما يصدر منها، وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضاً.

الصنف الثاني: هم الذين شغلوا بأنفسهم ولم يتفرغوا لطلب السبب أيضاً بل عاشوا عيش البهائم، فكان حجابهم أنفسهم المكدرة وشهواتهم المظلمة، فلا ظلمة أشد من الهوى والنفس، وهؤلاء ينقسمون فرقاً.

الغرور . أما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا : النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهي إذا خير فلا بد من إيثارها ، وقالوا : اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا تترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس

الأولى : زعمت أن عامة المطلب في الدنيا هي الأوطار ونيل الشهوات وإدراك اللذات البهيمية ، فهؤلاء عبيد اللذات يعبدونها ويطلبونها ويعتقدون أن نيلها غاية السعادة رضوا لأنفسهم أن يكونوا بمنزلة البهائم بل أخس حالاً منها ، فأي ظلمة أشد من ذلك ؟ . فقد حجب هؤلاء بمحض الظلمة .

والثانية : رأت أن غاية السعادات هي الغلبة والإستيلاء والفتك والسبي والقتل والأسر ، وهم محجوبون بظلمة الصفات السبعية لغلبتها عليهم .

الثالثة : رأت أن غاية السعادات كثرة المال واتساع اليسار ، لأن المال هو آلة قضاء الشهوات كلها ، وبه يحصل للإنسان الإقتدار على قضاء الأوطار ، فهؤلاء همتهم جمع الأموال والإستكثار منها ، واكتساب الضياع والعقار والخيل والأنعام والحرث بركوب الأخطار في البراري والبحار .

والرابعة : ترقت عن جهالة هؤلاء وتعاقلت وزعمت أن أعظم السعادات اتساع الجاه والصيت وانتشار الذكر وكثرة الإتباع ونفوذ الأمر المطاع ، فتراها لا همَّ لها إلا المراءاة وعمارة أبصارهم ناظرين حتى أن الواحد قد يجوع في بيته ويتحمل الصبر ويصرف ماله إلى ثياب يتجمل بها عند خروجه كيلا ينظر إليه الناس بعين الحقارة ، وأصناف هؤلاء لا يحصون وكلهم محجوبون عن الله بمحض الظلمة وهي نفوسهم المظلمة . **(فمنهم من غرتهم الحياة الدنيا ، ومنهم من غرّهم بالله الغرور)** ويدخل في ظلمة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم لا إله إلا الله ، ولكن حملهم على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين وتجمل بهم واستمداد من مالهم ، أو لأجل التعصب بنصرة مذهب الآباء ، وهؤلاء إذا لم تحملهم الكلمة على الكمال الصالح فلا تخرجهم الكلمة عن الظلمة إلى النور بل أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئة وسرته حسنة ، فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية .

القسم الثاني : طائفة حجبوا بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف : صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة ، وتحت كل صنف طوائف . فمن طوائف الصنف الأول عبدة الأوثان ، وعبدة الجمال المطلق ، وعبدة النار ، وعبدة الكواكب والثنوية . **(أما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا : النقد)** وهو الحاضر المعجل في الحال **(خير من النسيئة)** وهو الغائب المقدر بالأجل فعلية من نسأ الأمر إذا أخره **(والدنيا نقد والآخرة نسيئة فإذاً هي خير فلا بدّ من إيثارها)** على الآخرة ، **(وقالوا)** أيضاً : **(اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين)** أي متيقن بها لحصولها في الحال **(ولذات الآخرة شك)** إذ هي غير مرئية وإنما يحكى عنها **(فلا تترك اليقين بالشك ، وهذه**

إبليس حيث قال: ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [ص: ٧٦] وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ [البقرة: ٨٦] وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان، أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى في قوله: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ [النحل: ٩٦] وفي قوله عز وجل: ﴿وما عند الله خير﴾ [الشورى: ٣٦] وقوله: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ [الأعلى: ١٧] وقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقوله: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ [لقمان: ٣٣] وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان، ومنهم من قال: نشدتك الله أبعثك الله رسولاً ؟ فكان يقول: « نعم » فيصدق، وهذا إيمان العامة وهو يخرج من الغرور، ينزل

أقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال (في معرض تفضيل نفسه على آدم عليه السلام: (﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين]) والنار خير من الطين إذ هي جوهر نوراني والطين جوهر ظلماني، (وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) أي استبدلوا بها (فلا يخفف عنهم العذاب) يوم القيامة (ولا هم ينصرون﴾) في الدنيا أو لا يغاثون في الآخرة. (وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان وإما بالبرهان، أما التصديق بمجرد الإيمان فأن يصدق الله تعالى في قوله: ﴿ما عندكم ينفد) أي يفنى (وما عند الله باق﴾) لا نفاد له. (وفي قوله: ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ وفي قوله: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ وفي قوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ وفي قوله: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ فإذا صدق الله تعالى في هذه الأقوال انمحت ظلمة الكفر) عن قلبه وارتسم نور ذلك التصديق فيه، فهذا مبدأ الأنوار (وقد أخبر ﷺ بذلك طوائف الكفار) من عبدة الأوثان والكواكب (فقلدوه وصدقوه وآمنوا ولم يطالبوه بالبرهان). قال العراقي: وهو مشهور في السير من ذلك: قصة إسلام الأنصار وبيعتهم وهي عند أحمد بإسناد جيد من حديث جابر، وفيه: « حتى بعثنا الله إليه من يثرب فأويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه » الحديث. (ومنهم من قال: نشدتك الله) أي حلفتك به (أبعثك الله رسولاً؛ فكان يقول: نعم فيصدق). قال العراقي: متفق عليه من حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبة، وقوله للنبي ﷺ: آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: « اللهم نعم » وفي آخره فقال: « الرجل آمنت بما جئت به ». وللطبراني من حديث ابن عباس في قصة ضمام قال: نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى ؟ قال: نعم الحديث انتهى.

قلت: حديث ضمام في الصحيحين من رواية أنس قال: بينما نحن عند النبي ﷺ إذ جاء اعرابي

هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب مع أنه لا يدري وجه كونه خيراً.

وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان، فإن كل مغرور فلغروره سبب، وذلك السبب هو دليل، وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه، وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء، فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه أصلان.

أحدهما: أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح.

والآخر: قوله أن النقد خير من النسيئة، وهذا محل التلبيس فليس الأمر كذلك،

فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ الحديث، وفيه أنه أسلم وقال: أنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة، ومداره عند البخاري على الليث عن سعيد المقبري، عن شريك عن أنس، وعقله البخاري أيضاً ووصله من رواية سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس. وأخرجه النسائي والبغوي من طريق عبيد الله بن عمر، عن سعيد عن أبي هريرة وعدوه وهماً في السّنة، وفي آخر المتن قبل قوله: وأنا ضمام بن ثعلبة قال: فأما هذه الهنات ـ يعني الفواحش ـ فوالله إنا كنا نتنزه عنها في الجاهلية، فلما أن ولى قال رسول الله ﷺ: «فقه الرجل» وكان عمر رضي الله عنه يقول: ما رأيت أحداً أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة. وروى أبو داود من طريق إسحاق، عن سلمة بن كهيل وغيره عن كريب عن ابن عباس قال: بعث بنو سعد ضمام بن ثعلبة إلى النبي ﷺ فذكره مطولاً وفي آخره: «فما سمعنا بوافد قوم قط كان أفضل من ضمام» قال البغوي: كان يسكن الكوفة وكان قدومه سنة تسع.

(وهذا إيمان العامة وهو مخرج من الغرور وينزل هذا منزلة تصديق الصبي) الغر **(والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب، مع أنه لا يدري وجه كونه خيراً. وأما المعرفة بالبيان والبرهان وهو أن تعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان)** ورتبه وحسنه إياه، **(فإن كل مغرور فلغروره سبب)** لولاه لما وجد، **(وذلك السبب هو دليل)** أي بمنزلته، **(وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون إليه)** في الجملة، **(وإن كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء)** كما جرت به العادة من تقسيمه إلى لفظي ووضعي، وتقسيم الوضعي إلى مطابقة وتضمن والتزام. **(فالقياس الذي نظمه الشيطان)** في قلبه **(فيه أصلان)**.

(أحدهما: أن الدنيا نقد) معجل **(والآخرة نسيئة وهذا)** أصل **(صحيح)** لصدق الموضوع والمحمول فيهما.

(والآخر أن النقد خير من النسيئة، وهذا) باطل على عمومه وهو **(محل التلبيس فليس**

بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير ، فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه ، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقداً لأجل الراحة والربح نسيئة ، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة ، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة . فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حدّ ، وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة ، فإذاً قد غلط في قوله : النقد خير من النسيئة فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور أطلق وأريد به خاص ، فغفل به المغرور عن خصوص معناه . فإن من قال :

الأمر كذلك ، بل) فيه تفصيل وذلك **(إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود)** بأن يتساويا فيهما بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر **(فهو)** حينئذ **(خير من النسيئة لأن عند التساوي يرجح ما هو الحاضر)** لسرعة الإنتفاع به **(وإن كان أقل منها فالنسيئة خير)** منه ، وأما قولهم : عصفور في الكف خير من كركى في الجوّ فهو إشارة إلى تمني ما يعسر عليه الوصول له مع إمكانه ، فحينئذ الكثرة في الطرف الثاني غير معتبرة وكلامنا في النقد والنسيئة إذا كانا متيسرين على حدّ واحد ، **(فإن هذا الكافر)** المحجوب بظلمة الطبع **(المغرور)** في حاله **(يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة ، ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه ، وإذا حذره الطبيب الفواكه)** الرطبة **(ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل وقد)** تراه **(ترك النقد ورضي بالنسيئة و)** أيضاً فإن **(التجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار)** في البراري والقفار **(نقداً لأجل)** حصول **(الراحة والربح نسيئة ، فإن كان عشرة في ثاني حال خيراً من واحد في الحال فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة ، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة)** وهو المقارب للعمر الطبيعي في الغالب **(وليس عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة . فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حدّ ، وإن نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا)** كلها **(مكدرة)** ممررة **(مشوبة بأنواع المنغصات)** أي المكدرات **(ولذلت الآخرة)** بأسرها صافية غير مكدرة ولا منغصة ، وأيضاً فلذات الدنيا إلى نفاد ولذات الآخرة إلى ازدياد ، **(فإذاً قد غلط في قوله : النقد خير من النسيئة)** على الإطلاق **(فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور)** وضع وضعاً واحداً لكثير غير محصور مستغرق لجميع ما يصلح له **(أطلق وأريد به)** معنى **(خاص)** معلوم على الإنفراد ،

النقد خير من النسيئة أراد به خيراً من نسيئة هي مثله وإن لم يصرح به.

وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر وهو: أن اليقين خير من الشك والآخرة شك وهذا القياس أكثر فساداً من الأوّل لأن كلا أصلية باطل إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله، وإلا فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك، والنفقة في اجتهاده على يقين. وفي إدراكه رتبة العلم على شك، والصياد في تردده في المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على شك، وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك، ولكن التاجر يقول: إن لم أتجر بقيت جائعاً وعظم ضرري، وإن اتجرت كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً، وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ولكن يقول: ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت، فكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة؟ فإن كان ما قيل فيه كذباً فما يفوتني إلا التنعم أيام حياتي وقد كنت في العدم من الأزل إلى الآن أتنعم فاحسب أني بقيت في العدم، وإن كان ما قيل صدقاً فأبقى في النار أبد

وإنما قيدنا بالإنفراد ليتميز عن المشترك، (**فغفل المغرور عن خصوص معناه فإن من قال: النقد خير من النسيئة أراد به من نسيئة هي مثله**) في المقدار والمقصود، (**وإن لم يصرح به**).

(**وعند هذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر**) لما يرى نفسه منهزماً من الأول، (**وهو أن اليقين خير من الشك**) والدنيا يقين حاضر (**والآخرة شك**) غائب (**وهذا القياس أكثر فساداً من الأول لأن كلا أصليه باطل، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله**) ومساويه في الرتبة (**وإلاّ فالتاجر في التعب على يقين وفي ربحه على وشك، و**) كذلك (**الصياد في تردده إلى المقتنص**) أي موضع الصيد (**على يقين وفي الظفر بما يصيد على شك، وكذلك الحزم**) وهو الأخذ بالتحري والضبط (**دأب العقلاء بالإتفاق، وكل ذلك لليقين بالشك، ولكن التاجر يقول: إن لم أتجر بقيت جائعاً وعظم ضرري، وإن اتجرت كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً، وكذلك المريض يشرب الدواء البشع**) المرّ (**الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين، ولكن يقول: ضرر مرارة الدواء قريب**) وفي نسخة قليل (**بالإضافة إلى ما أخاف من المرض والموت، وكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر**) وباقيه قريب وفي نسخة قليل (**بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذباً فما يفوتني إلا التنعم أيام حياتي وقد كنت في العدم من الآزال إلى الآن لا أتنعم فأحسب أني بقيت في العدم**)

الآباد وهذا لا يطاق. ولهذا قال علي كرّم الله وجهه لبعض الملحدين: إن كان ما قلته حقاً فقد تخلصت وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلكت. وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبيّن له أنه وإن لم يكن متيقناً فهو مغرور.

وأما الأصل الثاني من كلامه: وهو أن الآخرة شك فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان.

أحدهما: الإيمان؛ والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء، وذلك أيضاً يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص، ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني فإنه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطب، بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه

كما كنت أوّلاً. (**وإن كان ما قيل صدقاً فأبقى في النار أبد الآباد وهذا لا يطاق، ولذلك قال علي كرم الله وجهه لبعض الملحدين**) من منكري الآخرة وقد سأله عن أشياء فأجاب ثم قال: (**إن كان ما قلته حقاً**) أي في أمر الآخرة والعذاب (**فقد تخلصت وتخلصنا، وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلكت**) أورده الشريف في نهج البلاغة، (**وليس هذا**) الجواب (**عن شك منه**) رضي الله عنه (**في**) أمور (**الآخرة، ولكن**) سجل بذلك إذ (**كلم الملحد على قدر عقله، وبيّن له أنه وإن لم يكن**) متيقناً فهو مغرور).

(**وأما الأصل الثاني: وهو أن الآخرة شك فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان**).

(**أحدهما: الإيمان والتصديق تقليداً للأنبياء والعلماء، وذلك أيضاً يزيل الغرور وهو مدرك ليقين العوام وأكثر الخواص، ومثاله مثال مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم**) أي جميعاً (**على أن دواءه النبت الفلاني**) مثلاً (**فإنه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي سوادي**) منسوب إلى سواد الأرض والمراد به الغافل المشتغل بحراثة الأرض البعيد عن الجماعة (**أو معتوه**) فاسد العقل (**يكذبهم في ذلك**) القول (**وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم**) أي الأطباء وأهل الصناعة (**أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم بالطب منه، لا بل لا علم له**) أي لذلك السوادي والمعتوه (**بالطب**) أصلاً

بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمه بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليه الاعتراف من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء، فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقته الشهوات لا يشك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء، وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به.

وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء والإلهام للأولياء، ولا تظنن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع

(**فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمه بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً**) مخطئاً في عمله، (**فلذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها**) وما فيها من المخاوف والأهوال والسعادة والإقبال (**والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها وجدهم خير خلق الله**) وخلاصتهم، (**وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليهم الخلق على أصنافهم**) حيناً بعد حين، (**وشذّ منهم آحاد من البطالين**) الذين قد (**غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع**) بالأعراض الفانية، (**فعظم عليهم ترك الشهوات**) وقد ألفوا بها (**وعظم عليهم الإعتراف بأنهم من أهل النار**)استنكافاًمنهم، (**فجحدوا الآخرة**) رأساً (**وكذبوا الأنبياء**) والرسل عليهم السلام ولم يصغوا لأقوال العلماء، (**وكما أن قول الصبي**) والمعتوه (**وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هذا الغبي**) الفدم (**الذي استرقته الشهوات**) وغلب عليه حب اللذات (**لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء، وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به**).

(**وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة فهو الوحي للأنبياء**) خاصة (**والإلهام**) لهم (**وللأولياء**) وقد تقدم ذكر مراتب الوحي وأقسامه وما خص بها كل من الأنبياء والأولياء، (**ولا تظنن أن معرفة النبي لأمر الآخرة ولأمر الدين**) فيما يوحى إليه (**تقليد لجبريل**) عليه

منه، كما أن معرفتك تقليد للنبي ﷺ حتى تكون معرفتك مثل معرفته، وإنما يختلف المقلد فقط وهيهات! فإن التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والأنبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد. وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذي يقابل النهي؟ لأن ذلك الأمر كلام والروح ليس بكلام وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام في جميع المخلوقات بل العالم عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق، ولله الخلق والأمر. فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر، وشرح ذلك سر الروح، ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذي منع من إفشائه. فمن عرف سر

السلام (**بالسماع منه، كما أن معرفتك تقليد للنبي حتى تكون معرفتك كمعرفته، وإنما يختلف المقلد**) بفتح اللام (**فقط وهيهات**) هيهات! (**فإن التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح**) في اتباعه غيره من غير نظر وتأمل في دليل (**والأنبياء**) عليهم السلام (**عارفون**) لا مقلدون (**ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها**) عند الله تعالى، (**فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون**) ما أخبروا (**عن مشاهدة**) صحيحة (**لا عن سماع وتقليد**) للغير. (**وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح وأنه من أمر الله وليس المراد بكونه من الله الأمر الذي يقابل النهي، لأن ذلك الأمر والروح ليس بكلام وليس المراد بالأمر الشأن حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط لأن ذلك عام في جميع المخلوقات بل العال عالمان: عالم الأمر وعالم الخلق، ولله الخلق والأمر**) كما قال تعالى: ﴿الا لَهُ الخلق والامر تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤] فعالم الأمر ما وجد عن الحق من غير سبب ويطلق بإزاء الملكوت وعالم الخلق ما وجد عن سبب ويطلق بإزاء عالم الشهادة. (**فالأجسام ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق إذ الخلق عبارة عن التقدير**) المستقيم (**في وضع اللسان**) ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا اقتداء، (**وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر**) والكمية منسوب إلى كم وهو العرض الذي يقتضي الإنقسام لذاته، (**وشرح ذلك سر الروح ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه**) وحيث أمسك ﷺ عن الأخبار عنه وعن ماهيته بإذن الله ووحيه، وهو ﷺ معدن العلم وينبوع الحكمة كيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه، لا جرم لما تقاضت النفس الإنسانية المتطلعة إلى الفضول المتشرفة إلى المعقول، المتحركة بوضعها إلى كل ما أمرت بالسكوت فيه، والمتسوّرة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه، فأطلقت عنان النظر

الروح فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته، وأنه في العالم الجسماني غريب وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته، وذلك العارض الغريب ورد على آدم ﷺ وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فإنها في جوار الرب تعالى، وأنه أمر رباني وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه. ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ [الحشر : ١٩] أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة

في مسارح للفكر وخاضت غمرات ماهية الروح تاهت في التيه وتنوّعت آراؤها فيه، ولو لزمت النفوس حدّها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى، وذلك (**كسَّر القدر الذي منع من إفشائه**) والخوض في مشكلاته، (**فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه عرف ربه، وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته، وأنه في العالم الجسماني غريب، وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته**) . وتحقيقه أن الروح الإنساني العلوي السماوي من عالم الأمر، والروح الحيواني البشري من عالم الخلق، والروح الحيواني البشري محل الروح العلوي ومورده، ولو ورد الروح الإنساني البشري العلوي تجنس الروح الحيواني وباين أرواح الحيوانات واكتسب صفة أخرى فصار نفساً مخلاً للنطق والإلهام، فتكوّنت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي في عالم الأمر كتكوين حواء من آدم في عالم الخلق وصار بينهما للتألف والتعاشق كما بين آدم وحواء، فسكن الروح الآدمي الإنساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيّره نفساً وتكوّن من سكون الروح إلى النفس القلب، والمراد به اللطيفة التي محلها المضغة اللحمية، فالمضغة اللحمية من عالم الخلق، وهذه اللطيفة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق. (**وذلك العارض الغريب ورد على آدم عليه السلام وعبّر عنه بالمعصية وهي التي حطته من الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فإنها في جوار الرب تعالى وأنه أمر رباني وحنينه إلى جوار الرب تعالى طبيعي ذاتي إلا أن تصرفة عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب عن ذاته فينسى عند ذلك نفسه وربه، ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه إذ قيل له: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾**) أي تركوا معرفته ولم يذكروه (**﴿فأنساهم أنفسهم﴾**) أي جعلهم ناسين لها فلم يعرفوها ففيه أن نسيان النفس من ثمرات نسيان الرب، كما أن نسيان النفس يورث نسيان الرب والمطلوب معرفتها جميعاً فتضمحل النفس ويبقى الرب، أو المعنى أنهم لما نسوا الله أراهم من أهوال الحجاب ما أنساهم أنفسهم أي حجبهم عن نور المعرفة بالظلمة المتراكمة على القلوب (**﴿أولئك هُمُ الفَاسِقُون﴾ أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم**) وهذا معنى صحيح

استحقاقهم. يقال: فسقت الرطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطري، وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون، فإنها تضربهم كما تضر رياح الورد بالجعل وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش، وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية فيسمى صاحبه ولياً وعارفاً وهي مبادىء مقامات الأنبياء. وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء.

ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدي وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم

مطابق لوضع اللغة. (**يقال: فسقت الرطبة من كمامها إذا خرجت من معدنها الفطري**) ولفظ الصحاح من قشرها، (**وهذه إشارة إلى أسرار**) مخزونة (**تهتز**) أي تتحرك طرباً (**لاستنشاق روائحها**) الطيبة بآنافهم (**العارفون**) الكاملون (**وتشمئز**) أي تنقبض (**لسماع ألفاظها**) الغريبة (**القاصرون**) عن درجة المعرفة، (**فإنها**) أي تلك الروائح الذكية (**تضربهم**) فيحيدون عنها (**(كما تضر رياح الورد بالجعل**) بضم الجيم وفتح العين المهملة. حيوان شبه الخنفساء تدحرج العذرة برجليها وتشمها بآنافها، ومن شأنها إذا شمت الرائحة الطيبة حصلت لها حالة مثل السبات، وربما تهلك وهو نصف مصراع بيت، (**وتبهر أعينهم الضعيفة**) أي تغلبها (**كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش**) جمع خفاش وهو حيوان معروف لا يقدر أن يفتح عينه في مقابلة الشمس ولا يستطيع النظر إلى النور، (**وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية**). وبه يقوم العبد بالحق عند الفناء عن نفسه (**ويسمى صاحبه ولياً وعارفاً وهي مبادىء مقامات الأنبياء**) ثم يترقون إلى معاريج الكمال، (**وآخر مقامات الأولياء**) الذي ينتهون إليه في سيرهم (**أوّل مقامات الأنبياء**). وقول أبي يزيد البسطامي قدس سره: خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله إشارة إلى الولاية الخاصة.

(**ولنرجع إلى الغرض المطلوب والمقصود أن غرور الشيطان بأن االآخرة شك يدفع إما بيقين تقليدي**) يسلم الأمر إلى المقلد له ولا يفاتحه ببرهان ولا دليل، (**وإما ببصيرة**) نافذة (**ومشاهدة**) حاصلة (**من جهة الباطن**) ثم أن ذلك الحجب الحاصل لهم من الغرور الشيطاني لا يختص به الكفار المحجوبون بمجرد الظلمة، بل قد يحصل أيضاً لجماعة ظاهرهم الإسلام وباطنهم ملوّث بالعقائد الفاسدة، ولهم أعمال سيئة وإليه أشار المصنف بقوله: (**والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى**) لم يقوموا بها كما أمروا تهاوناً بها (**وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا الشهوات**) النفسية وآثروا اللذات الحسية (**و**) ارتكبوا (**المعاصي**) والدناءات، (**فهم**)

مشاركون للكفار في هذا الغرور لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين، ولكنهم أيضاً من المغرورين فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا، ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز. قال الله تعالى: ﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢] وقال تعالى: ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦] ثم قال النبي ﷺ: « الإحسان ان تعبد الله كأنك تراه »، وقال تعالى: ﴿والعصر ★ إن الإنسان لفي خسر ★ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [العصر] فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان

مشاركون للكفار في هذا الغرور) ومحجوبون بمحض الظلمة كما حجبوا، (**لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة**) فكان حجابهم أنفسهم الكدرة وشهواتهم المظلمة، فلا ظلمة أشد من الهوى والنفس. (**نعم، أمرهم أخف**) من أمر الكفار (**لأن أصل الإيمان يعصمهم من عقاب الأبد فيخرجون من النار ولو بعد حين**) لما روى الترمذي وقال: حسن صحيح من حديث أبي سعيد: « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ». وروى أحمد، والشيخان، والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان من حديث أنس: « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برّة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة ». وللبخاري من حديثه: « يخرج من النار قوم بعدما احترقوا فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين ». (**ولكنهم أيضاً من المغرورين فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها**) وانهمكوا في شهواتها ولذاتها، (**ومجرد الإيمان**) عن صالح العمل (**لا يكفي للفوز. قال الله تعالى: ﴿وإني لغفّار لمن تاب**) عن الشرك (**وآمن**) بما يجب الإيمان به (**وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾**) ثم استقام على الهدى المذكور. (**وقال تعالى: ﴿إنَّ رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين﴾ ثم قال النبي ﷺ: « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**) فإن لم تكن تراه فإنه يراك ». رواه أحمد، والشيخان، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، ورواه النسائي من حديث أبي هريرة، وأبي ذر معاً. ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث عمر ويروى: « الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت ». هكذا رواه أحمد، والبزار من حديث ابن عباس، ورواه ابن حبان من حديث ابن عمر. ورواه أحمد أيضاً من حديث أبي عامر أو أبي مالك. ورواه البزار أيضاً من حديث أنس، وهو في تاريخ ابن عساكر من حديث عبد الرحمن بن غنم، وقد اختلف في صحبته. (**وقال تعالى: ﴿والعصر ★ إنَّ الإنسان**) التعريف للجنس (**لفي خُسرٍ ★**) في مساعيهم وصرف أعمالهم في مطالبهم والتنكير للتعظيم (**﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾**) فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية، (**فوعد المغفرة في جميع كتاب الله منوط**

والعمل الصالح جميعاً بالإيمان وحده، فهؤلاء أيضاً مغرورون أعني المطمئنين إلى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده، فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعاً.

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله، فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم، أنه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظاً فيه وأسعد حالاً، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ [الكهف: ٣٦] وجملة أمرهما كما نقل في التفسير أن الكافر منهما بنى قصراً

بالإيمان والعمل الصالح جميعاً لا بالإيمان وحده، فهؤلاء أيضاً مغرورون أعني المطمئنين إلى الدنيا) المائلين إليها، (**الفرحين بها المترفهين بنعيمها**) المتقلبين في لذاتها، (**المحببين لها الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا**) فقط (**دون الكارهين له خيفة لما بعده**) من الأهوال والشدائد والوقوف بين يدي الله تعالى. (**فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعاً**) ومن المؤمنين من حجب بمحض الأنوار فاغتروا بها، وهذا هو القسم الثالث من الأقسام التي ذكرناها، وهم كذلك أصناف شتى وقد دخلهم الغرور في عقائدهم ومذاهبهم، وإنما الواصل منهم صنف واحد وهم العارفون.

(**ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم: أنه لو كان لله من معاد**) كما يزعمون (**فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظاً فيه**) من غيرنا (**وأسعد حالاً**) من غيرنا، (**كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتجاورين إذ قال**) أي الكافر وهما إخوان من بني اسرائيل مؤمن وكافر، فالمؤمن اسمه يهوذا، والكافر اسمه فرطس، وقد ضرب الله لهم مثلاً في كتابه العزيز فقال: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل بينهما زرعاً ★ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً ★ وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره﴾ أي يراجعه في الكلام: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ★ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ (**﴿وما أظن الساعة قائمة**) أي كائنة (**﴿ولئن﴾**) كانت قائمة ثم (**﴿رددت إلى ربي﴾**) بالبعث كما زعمت (**لأجدن خيراً منها﴾**) أي من جنته (**﴿منقلباً﴾**) [الكهف: ٣٢ - ٣٦] أي مرجعاً وعاقبة لأنها فانية وتلك باقية، وإنما أقسم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما اولاه ما أولاه لاستئهاله له واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما يلقاه (**وجملة أمرهما كما نقل في التفسير أن الكافر منهما**) واسمه فرطس كما تقدم أو فرطوس أو أبو فرطس قيل: ونهر أبي فرطس المشهور بفلسطين نسب إليه (**بنى قصراً بألف دينار واشترى بستاناً**

بألف دينار واشترى بستاناً بألف دينار وخدماً بألف دينار وتزوّج امرأة على ألف دينار، وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول: اشتريت قصراً يفنى ويخرب ألا اشتريت قصراً في الجنة لا يفنى، واشتريت بستاناً يخرب ويفنى ألا اشتريت بستاناً في الجنة لا يفنى وخدماً لا يفنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول: ما هناك شيء وما قيل من ذلك فهو أكاذيب وإن كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا، وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول: ﴿لأوتين مالاً وولداً﴾ [مريم: ٧٧]، فقال الله تعالى رداً عليه: ﴿أطلع الغيب أم اتخذ عنه الرحمن عهداً * كلا﴾ [مريم ٧٨، ٧٩] وروي عن خباب بن الأرت أنه قال: كان لي على

بألف دينار وخدماً بألف دينار وتزوّج امرأة على ألف دينار، وفي ذلك كله يعظه المؤمن) أخوه وهو يهوذا (**ويقول**): يا أخي (**اشتريت قصراً يخرب ويفنى. ألا اشتريت قصراً في الجنة لا يفني؟ واشتريت بستاناً يخرب ويفنى ألا اشتريت بستاناً في الجنة لا يفني، وخدماً لايفنون ولا يموتون، وزوجة من الحور العين لا تموت؟ وفي كل ذلك يرد عليه**) أخوه (**الكافر ويقول: ما هناك شيء**) وكان منكراً للبعث، (**وما قيل من ذلك فهو أكاذيب**) وتهويلات، (**فإن كان**) كما يزعمون وارد ثانياً (**ليكونن لي في الآخرة**) وفي نسخة الجنة (**خيراً من هذا**). قال البيضاوي: وكانا قد ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً، وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآل أمرهما إلى ما حاكاه الله تعالى. وقيل: الممثل لهما أخوان من بني مخزوم: كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، ومؤمن وهو أبو سلمة بن عبد الأسد، وهو زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ.

(**وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل**) بن هشام بن سعيد بنسهم بن عمرو بن مغيص بن لؤي القرشي والد عمرو وهشام وهما مؤمنان وأبوهما المذكور كان هو من المتعنتين المنكرين للبعث (**إذ قال**) فيما حكى الله تعالى عنه في كتابه العزيز: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال (**لأوتينّ مالاً وولداً**﴾) ولما كانت الرؤية أقوى سند الأخبار استعمل أرأيت بمعنى الأخبار والفاء على أصلها، والمعنى أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك (**فقال الله تعالى رداً عليه: ﴿أطلع الغيب﴾**) أي لقد بلغ من عظم شأنه إلى أن يؤتى إرتقى إلى عالم الغيب الذي توحد به الواحد القهار حتى ادعى أنه يقرر له في الآخرة مالاً وولداً وتمالأ عليه (**﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾**) أي أو اتخذ من علم الغيب عهداً بذلك، فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين (**﴿كلاً﴾**) ردع وتنبيه على أنه مخطىء فيما تصوّره لنفسه.

(**وروي عن**) أبي عبد الله (**خباب بن الأرتّ**) بتشديد المثناة ابن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي حالف بني زهرة وأسلم قديماً، وكان من المعذبين في الله، وشهد المشاهد كلها، وكان يعمل السيوف في الجاهلية، توفي سنة سبع وثلاثين بالكوفة، وهو أوّل

العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي، فقلت: إني آخذه في الآخرة، فقال لي: إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالاً وولداً أقضيك عنه. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً﴾ [مريم: ٧٧] وقال الله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن

من دفن بظهرها وكان عمره ثلاثاً وستين سنة (**أنه قال: كان لي على العاص بن وائل**) المذكور قريباً (**دين**) وكان قد عمل له في السيوف في الجاهلية، (**فجئت أتقاضاه**) أي أطالبه به (**فلم يقضه**) أي امتنع من دفعه (**فقلت: إني آخذه في الآخرة فقال**) مستهزئاً به: (**إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالاً وولداً فاقضيك منه فأنزل الله قوله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً﴾**) قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم اهـ.

قلت: ولفظ البخاري، ومسلم من رواية أبي هريرة عن خباب قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال والله لاأقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني وثم مال وولد فأعطيك، فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً﴾ إلى قوله: ﴿ويأتينا فرداً﴾. وهكذا رواه أيضاً أحمد، وسعيد بن أبي منصور، والبزار، ورواه أيضاً ابن جرير، وسعيد بن أبي منصور وعبد بن حميد، والترمذي، والبيهقي في الدلائل، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن حبان، وابن مردويه من حديث خباب. ورواه الطبراني بلفظ: عملت للعاص بن وائل عملاً فأتيته أتقاضاه فقال: إنكم تزعمون أنكم ترجعون إليّ مال وولد وأني راجع إلى مال وولد، وإذا رجعت إليه ثم أعطيك فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآية.

وروى ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل بدين وأتوه يتقاضونه فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم الآخرة والله لأوتين مالاً وولداً ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به، فقال الله تعالى: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآيات.

وروى سعيد بن منصور من مرسل الحسن قال: كان لرجل من أصحاب النبي ﷺ دين على رجل من المشركين فأتاه يتقاضاه فقال: ألست مع هذا الرجل؟ قال: نعم. قال: يزعم أن لكم فيه جنة وناراً وأموالاً وبنين؟ قال: بلى. قال: اذهب فلست قاضيك فأنزلت الآية: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ إلى قوله: ﴿ويأتينا فرداً﴾.

(**وقال تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته﴾**) بتفريجها عنه (**﴿ليقولن هذا لي﴾**) حقي استحقه من الفضل والعمل أولى دائماً فلا يزول (**﴿وما أظن الساعة قائمة﴾**) أي

رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت: ٥٠] وهذا كله من الغرور بالله، وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى: ﴿ويقُولُون في أنْفُسِهِم لَوْلاَ يُعَذِّبُنا الله بما نقول﴾ [المجادلة: ٨٠] فقال تعالى جواباً لقولهم: ﴿حسْبُهُم جهنّم يصلَوْنها فبئسَ المصيرُ﴾ [المجادلة: ٨٠] ومرة ينظرون إلى المؤمنين، وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم، فيقولون: ﴿أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا﴾ [الأنعام: ٥٣] ويقولون: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ [الأحقاف: ١١] وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب، وكل محب فإنه يحسن أيضاً في المستقبل كما قال الشاعر:

لقد أحسن الله فيما مضى ... كذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب إذ يقول: لولا أني كريم عند الله ومحبوب لما أحسن إلي، والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب، لا بل تحت ظنه أن انعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده بدليل لا يدل على

تقوم كما يزعمون (الآية) وتمامها: ﴿ولئنْ رجعت إلى ربي ان لي عنده للحسنى﴾ (**وهذا كله من الغرور بالله**) والتمادي في الغفلة واعتقاد في أنه ما أصابه من نعم الدنيا فلاستحقاقه لا ينفك، (**وسببه قياس من أقيسة إبليس، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليه نعمة الآخرة وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال عز وجل: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ فقال تعالى جواباً لقولهم: ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث**) الرؤوس (**غبر**) الألوان (**فيزدرون بهم ويستحقرونهم ويقولون**) كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا (**أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا**) أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ (**ويقولون: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ وترتيب القياس الذي نظمه الشيطان** (**في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا**) وأغدقه علينا، (**وكل محسن فهو محب، وكل محب فهو يحسن في المستقبل أيضاً كما قال الشاعر:**

لقد أحسن الله فيما مضى ... كذاك يحسن فيما بقى

وإنما قيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة) أي الإكرام الظاهر (**والحب إذ يقول: لولا أني كريم عند الله ومحبوب**) لديه (**لما أحسن إليّ، والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب**) ولا يلزم من الإحسان الحب، (**لا بل تحت ظنه أن إنعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد**

الكرامة بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان. ومثاله: أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التي تضره ويسقيه الأدوية التي تنفعه والذي يبغضه ويهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب ويأكل كل ما يشتهي فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكّنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه ولم يحجر عليه، وذلك محض الغرور، وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله « فإن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه ». هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر.

اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عند الله بدليل) إحسانه إليه، وهذا (**لا يدل على الكرامة بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان**) والبعد والمقت، ولقد هلك بهذا الغرور خلق كثير لا يحصون، ولقد فاوضت مع جماعة أن أردهم عن هذا الظن الفاسد فلم يمكن ذلك ولا حول ولا قوّة إلا بالله ما شاء الله كان.

(**ومثاله: أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ويمنعه من الفواكه**) الرطبة (**وملاذ الأطعمة التي تضره ويسقيه الأدوية**) المرة البشعة (**التي تنفعه، والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب**) طول نهاره مع الصبيان، (**ولا يدخل المكتب ويأكل ما يشتهي**) من ألوان الطعام والفواكه، (**فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم، لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه ولم يمنعه**) عنها (**ولم يحجر عليه، وذلك لأنه محض الغرور**) ونهاية الغفلة. (**وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله**) تعالى، (**وأن الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب وهو يحبه. هكذا ورد في الأخبار**) قال العراقي: رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان اهـ.

قلت: وروي ذلك أيضاً من حديث محمود بن لبيد، وأبي سعيد، وأنس وحذيفة بلفظ حديث محمود بن لبيد: « إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه ». هكذا رواه ابن عساكر، ورواه أحمد، إلا أنه قال: من الدنيا. ورواه الحاكم بهذا اللفظ من حديث أبي سعيد، ولفظ حديث أنس: « إن الله تعالى ليحمي المؤمن من الدنيا نظراً وشفقة عليه كما يحمي المريض أهله من الطعام » رواه الديلمي. ولفظ حديث حذيفة إن الله تعالى يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مواقع الهلكة » رواه أبو الشيخ في الثواب، وفي

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا أو قالوا: ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ٭ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ فأجاب الله عن ذلك ﴿كلا﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٧] أي ليس كما قال إنما وهو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء، ونسأل الله التثبيت: فبين أن ذلك غرور. قال الحسن: كذبهما

رواية له بلفظ: «إن الله يتعاهد عبده بالبلاء كما يتعاهد الوالد ولده بالخير وإن الله ليحمي عبده من الدنيا كما يحمي المريض أهله الطعام» وقد رواه أيضاً الروياني، والحسن بن سفيان، وابن عساكر، وابن النجار. وروى ابن النجار من حديث أنس: أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى إن من عبادي من لو سألني الجنة بجذافيرها لأعطيته، ولو سألني علاقة سوط لم أعطه ليس ذلك من هوان له عليَّ ولكن أريد أن أدخر له في الآخرة من كرامتي وأحميه من الدنيا كما يحمي الراعي غنمه من مراعي السوء.

(**وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته، ورأوا ذلك أمارة المقت والإهمال، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين.** رواه الديلمي من حديث أبي الدرداء مرفوعاً قال: أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى ارض بكسرة خبز من شعير تسد بها جوعتك وخرقة تواري بها عورتك، واصبر على المصيبات، وإذا رأيت الدنيا مقبلة فقل إنا لله وإنا إليه راجعون عقوبة عجلت في الدنيا، وإذا رأيت الدنيا مدبرة والفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين. وروى الصابوني في المائتين نحوه عن الفضيل بن عياض وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا.

(**والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله**) أكرمه بها، (**وإذا صرفت عنه ظن أنه هوان**) به (**كما أخبر الله تعالى عنه**) في كتابه العزيز (**إذ قال: ﴿فأما الإنسان**) وهو متصل بقوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ من الآخرة فلا يريد إلا السعي لها، فأما الإنسان فلا يهمه إلا الدنيا ولذاتها. (**﴿إذا ما ابتلاه ربه﴾**) إختبره الغني واليسر (**﴿فأكرمه ونعمه﴾**) بالمال والجاه (**﴿فيقول ربي أكرمنِ﴾**) أي فضلني بما أعطاني (**﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه﴾**) أي حبسه (**فيقول ربي أهاننِ**) لقصور نظره ومرد فكره، فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين والتوسعة قد تفضي إلى قصد الأعداء والإنهماك في حب الدنيا، فلذلك ذمه على قوله وردعه عنه بقوله: (**﴿كلا﴾ أي ليس كما قال إنما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء، فبيّن أن ذلك غرور**) ولم يقل فأهانه وقدر عليه كما قال فأكرمه ونعمه، لأن التوسعة تفضل والإخلال به لا يكون إهانة.

جيعاً بقوله: ﴿كلا﴾ يقول ليس هذا بـأكرامي ولا هذا بهواني، ولكن الكريم من أكرمته بطاعتي غنياً كان أو فقيراً. والمهان من أهنته بمعصيتي غنياً كان أو فقيراً.

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة أو بالتقليد.

أما بالبصيرة فبان يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعداً عن الله، ووجه كون التباعد عنها مقربـاً إلى الله ويـدرك ذلـك بـالإلهام في منـازل العـارفين والأولياء، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة.

وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق، فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله، وقد قال تعالى: ﴿أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين ★ نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦] وقال تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [الأعراف: ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ [الأنعام: ٤٤] وفي تفسير قوله تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ أنهم كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة

(قال الحسن) البصري رحمه الله تعالى: (كذبهما جميعاً بقوله (كلا) يقول هذا ليس بكرامتي ولا هذا بهواني، ولكن الكريم من أكرمته بطاعتي غنياً كان أو فقيراً والمهان من أهنته بمعصيتي غنياً كان أو فقيراً﴾) رواه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن الحسن مختصراً بلفظ: كلا كذبتهما جميعاً ما بالغنى أكرمك ولا بالفقر أهانك. وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد نحوه قال: ظن كرامة الله في المال وهو أنه في قلته وكذب إنما يكرم بطاعته من أكرم ويهين بمعصيته من أهان.

(وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان إما بالبصيرة) النافذة (وإما بالتقليد) المحض

.(إما بالبصيرة) النافذة (فبأن تعرف وجه كون الإلتفات إلى شهوات الدنيا مبعداً عن الله، ووجه كون التباعد عنها مقرباً إلى الله) ضرورة من أحب القرب من الله تباعد عن شهوات الدنيا ومن مال إليها بعد عن قرب الله، (ويدرك ذلك بإلهام) رباني ينفث في روعه (في منازل العارفين والأولياء) ومقاماتهم وأحوالهم، (وشرحه) من حيث التفصيل يستدعي بسط مقدمات وهو (من جملة علوم المكاشفة، ولا يليق بعلم المعاملة. وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله ويصدق رسوله) فيما بلغه، (وقد قال تعالى) في كتابه العزيز: (﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ★ نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾) ما نريد بهم (وقال تعالى: ﴿سنستدرجهم) أي سنجرهم قليلاً قليلاً إلى العذاب

ليزيد غرورهم. وقال تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله، فمن آمن به تخلص من هذا الغرور. فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره، ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وهامان وقارون وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء ثم دمرهم تدميراً، فقال تعالى: ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ [مريم: ٩٨] الآية. وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾

(﴿من حيث لا يعلمون﴾ وقال تعالى: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾) أي منقطعون في حجتهم أو محزونون لشدة ما عرض لهم، (و) يروى (في تفسير قوله تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾أنهم كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم). وفي رواية كلما جددوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكر النعمة واستغفار الذنب. ويروى عن سعيد بن جبير الإغترار بالله المقام على الذنب ورجاء المغفرة. وروى أحمد والطبراني والبيهقي من حديث عقبة بن عامر. إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك له منه استدراج، وروى ابن المبارك في الزهد من مرسل سعيد بن أبي سعيد: إذا رأيت كلما طلبت شيئاً من أمر الآخرة وابتغيته يسر لك، وإذا رأيت شيئاً من أمر الدنيا وابتغيته عسر عليك، فاعلم أنك على حال حسنة، وإذا رأيت كلما طلبت شيئاً من أمر الآخرة وابتغيته عسر عليك، وإذا طلبت شيئاً من أمر الدنيا وابتغيته يسر لك فأنت على حال قبيحة. ورواه البيهقي مرفوعاً من حديث عمر بن الخطاب.

(وقال تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾) أي تكثر جرائمهم في مدة الإمهال. (وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ الآية). وتمامها ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخّص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ (إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله وسنة رسوله) ﷺ، (فمن آمن به) وصدق بما فيه (تخلص من هذا الغرور، فإن منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن من مكره ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات) والأوهام، (وينظر إلى فرعون وهامان وقارون) وشداد وأشباههم (وإلى ملوك الأرض) السالفين (وما جرى لهم كيف أحسن الله إليهم ابتداء) واسبغ عليهم نعمه (ثم دمرهم تدميراً) واستأصل شأفتهم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، (فقال تعالى: ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ الآية. وقد حذر الله تعالى مكره واستدراجه) في مواضع من الكتاب العزيز (فقال: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ وقال تعالى:

[الأعراف: ٩٩] ، وقال تعالى: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ [النمل: ٥٠] وقال عز وجل: ﴿ومكَرُوا ومكر الله واللهُ خير الماكرين﴾ [آل عمران: ٥٤] وقال تعالى: ﴿إنهم يكيدون كيداً ۞ وأكيد كيداً ۞ فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧] فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه وتمكينه من النعم على حب السيد، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكراً منه وكيداً مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه، فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى، فإذاً من أمن مكر الله فهو مغتر، ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حدّ الغرور.

المثال الثاني: غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم وإنا نرجو عفوه،

﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ وقال تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾) والمكر: هو صرف الغير عما يقصده بنوع من الحيلة وهو ضربان: محمود وهو مايتحرى به أمر جميل وعلى ذلك ما تقدم من الآيات، ومذموم وهو ما يتحرى به فعل ذميم ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ [فاطر: ٤٣] قالوا: ومن مكر الله بالعبد إمهاله وتمكينه من أعراض الدنيا. (**وقال تعالى: ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾**) من إبطال القرآن وإطفاء نوره والمراد بهم أهل مكة. (**﴿وأكيد كيداً﴾**) أي أقابلهم بكيدي في استدراجي لهم وانتقامي منهم بحيث لا يحتسبون (**﴿فمهل الكافرين﴾**) أي فلا تشتغل منهم أو لا تستعجل بإهلاكهم (**﴿أمهلهم رويداً﴾**) أي امهالاً يسيراً. (**فكما لا يجوز للعبد المهمل**)المتروك في لذاته (**أن يستدل بإهمال السيد إياه**) وتركه له (**وتمكينه من التنعم**) في شهوات الدنيا (**على حب السيد**) وتقربه منه، (**بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكراً منه**) وحيلة (**مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه**) ولم يعلمه به، (**فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه**) وتخويفه منه وتنبيهه عليه (**أولى، فإذاً من أمن من مكر الله فهو مغرور**) ولذا قال علي رضي الله عنه: من وسع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله، (**ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند المنعم**) محبوب لديه، (**واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان، ولكن ذلك احتمال لا يوافق الهوى، والشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الغرور**).

(**المثال الثاني: غرور العصاة من المؤمنين بالله بقولهم: إن الله كريم وإنَّا نرجو عفوه**

واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم، وأين معاصي العباد في بحار رحمته وإنا موحدون ومؤمنون؟ فنرجوه بوسيلة الإيمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى. فقياس الشيطان للعلوية: أن من أحب إنساناً أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون إلى الطاعة، وينسى المغرور أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة فلم يرد فكان من المغرقين: فقال: ﴿ربّ إن ابني من أهلي﴾ [هود: ٤٥] فقال تعالى: ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير

واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال) رأساً **(وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم. وأين معاصي العباد)** وإن كثرت **(في)** جنب **(بحار رحمته؟ وإنا موحدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الإيمان)** فهذا مستند كبير درجت عليه عامة العصاة وخاصتهم، **(وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء)** والجدود **(وعلو رتبتهم)** عند الناس، **(كاغترار العلوية)** أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهم البيوت الخمسة **(بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم)** الطاهرين **(في الخوف والتقوى والورع)** كما روي عن علي بن الحسين بن علي وولده محمد وحفيده جعفر وغيرهم، وهو ظاهر لمن طالع مناقبهم وسبر سيرهم، **(وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين)** على أنفسهم **(وهم مع غاية الفجور والفسق آمنون، وذلك نهاية الاغترار بالله. فقياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنساناً أحب أولاده، وأن الله تعالى قد أحب آباءكم فيحبكم)** لحبه إياهم **(فلا تحتاجون إلى الطاعة، وينسى المغرور أن نوحاً عليه السلا ٍ)** كما أذن له أن يعمل للسفينة وذلك قوله تعالى: ﴿واصنع الفُلْكَ بأعيُنِنا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] ثم أمره أن يحمل فيها وذلك قوله تعالى: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾ **(أراد أن يستصحب ولده)** كنعان **(معه في السفينة فلم يرد: ﴿فكان من المغرقين﴾)** [هود: ٤٣] وذلك: [ونادَى نوحٌ ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ [هود: ٤٢] فكان من امتناعه من الركوب ما قص الله في كتابه بقوله: ﴿وحال بينهما الموج وكان من المغرقين﴾ [هود: ٤٣] **(فقال)** نوح لما رآه كذلك يا رب: ﴿إنَّ إبني من أهلي﴾ وإنَّ وعدك الحق﴾ وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما حاله أو فما له لم ينج؟ ويجوز أن يكون هذا قبل غرقة، فردّ الله تعالى عليه **(فقال)**: ﴿يا نوح **(إنه ليس من أهلك)** لقطع الولاية بين

صالح﴾ [هود : ٤٦] وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه ، وأن نبينا ﷺ وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه في أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار ، فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله . فهذا أيضاً اغترار بالله تعالى وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصي ، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع ، ولو كان الحب يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضاً

المؤمن والكافر وأشار إليه بقوله (**إنه عَمَلٌ غيرُ صالح**) أي ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة ، ثم أبدل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيها ، (**وان إبراهيم**) عليه السلام (**استغفر لأبيه**) آزر (**فلم ينفعه**) ذلك وقد اعتذر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز فقال : ﴿وما كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلاّ عن مَوْعِدَةٍ وعَدَها إياه﴾ إلى قوله : ﴿إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم﴾ [التوبة : ١١٤] (**وان نبينا استأذن أن يزور قبر أمه**) آمنة بنت وهب وذلك بالأبواء (**ويستغفر لها فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الإستغفار ، فجلس يبكي على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله﴾**) قال العراقي : رواه مسلم من حديث أبي هريرة اهـ .

وفي الوسيط للواحدي عند قوله تعالى : ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ قال : قرأ نافع بفتح التاء الفوقية وجزم اللام على النهي للنبي ﷺ ، وذلك أنه سأل جبريل عليه السلام عن قبر أبيه وأمه فدله عليهما ، فذهب إلى القبرين ودعا وتمنى أن يعرف حال أبويه في الآخرة فنزلت اهـ .

قلت : وروى عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ : « ليت شعري ما فعل أبواي » . فنزلت . فما ذكرهما حتى توفاه الله .

وروى ابن جرير ، عن داود بن أبي عاصم أن النبي ﷺ قال ذات يوم : « أين أبواي » فنزلت .

وأما حديث إحيائهما حتى آمنا به ، فأورده السهيلي في الروض من حديث عائشة ، وكذا الخطيب في السابق واللاحق . وقال السهيلي في إسناده مجاهيل ، وقال ابن كثير : انه حديث منكر جداً وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله عز وجل ، وقد ألّف الحافظ السيوطي في نجاة الأبوين سبع رسائل ورد عليه فيها غير واحد من علماء عصره ومن بعدهم ، ولي في هذا الشأن جزء لطيف سميته : الإنتصار لوالدي النبي المختار ﷺ ، والذي أراه الكف عن التعرض لهذا نفياً وإثباتاً والله أعلم .

(**فهذا أيضاً اغترار بالله عز وجل وهذا لأن الله يحب المطيع ويبغض العاصي ، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع**) لله تعالى (**ببغضه للولد العاصي**) لله تعالى ، (**فكذلك لا يحب الوالد العاصي**) لله تعالى (**بحبه للولد المطيع**) لله تعالى ، (**ولو كان الحب يسري من الأب إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضاً بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى**) وكل شاة معلقة

بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى. ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، ويروى بشرب أبيه. ويصير عالماً بتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه، فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئاً. وكذا العكس، وعند الله جزاء التقوى ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه ★ وأمه وأبيه﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥] إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن في الشفاعة له ـ كما سبق في كتاب الكبر والعجب ـ.

فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة والفجار: إن الله كريم وإنا نرجو رحمته

برجلها. (**ومن ظن انه ينجو بتقوى أبيه**) وأنه ينفعه (**كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروي بشرب أبيه ويصير عالماً بتعلم أبيه ويصل إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه**) إليها وبرؤيته إياها هذا لا يكون. (**والتقوى فرض عين**) في حق كل أحد، (**ولا يجزى فيه والد عن ولده شيئاً، وكذا العكس. وعند الله جزاء التقوى**) في يوم القيامة: (﴿**يوم يفر المرء من أخيه ★ وأمه وأبيه ★**) وصاحبته وبنيه﴾ (**إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه وأذن له في الشفاعة كما سبق في كتاب الكبر والعجب**) غير أن صلاح الآباء قد يراعى في الأبناء، وله نوع تأثير فيهم بدليل قوله تعالى: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ [الكهف: ٨٢] فإنه نبه به على أن سعي الخضر عليه السلام كان لصلاحه.

قال البيضاوي قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبن أبي حاتم عن خيثمة قال: قال عيسى عليه السلام: طوبى لذرية المؤمن، ثم طوبى لهم كيف يحفظون من بعده، وتلا خيثمة: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن وهب بن منبه قال: إن الله يحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس.

وأخرج ابن ابي حاتم من طريق شيبة، عن سليمان بن سليم أبي سلمة قال: مكتوب في التوراة أن الله ليحفظ القرب إلى القرب إلى سبعة قروب.

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب قال: إن الرب تبارك وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: إني إذا اطعت رضيت وإذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ولعنتي تبلغ السابع من الولد.

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب قال: يقول الله اتقوا غضبي فإن غضبي يدرك إلى ثلاثة آباء، وأحبوا رضاي فإن رضاي يدرك الامة.

(**فإن قلت: فأين الغلط في قول العصاة والفجار إن الله كريم وإنّا نرجو رحمته**

ومغفرته، وقد قال: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر في القلوب؟ فاعلم أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر ،مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب، ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله». وهذا هو التمني على الله تعالى غيّر الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال. وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ [البقرة: ٢١٨] يعني ان الرجاء بهم أليق وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قال الله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ [السجدة: ١٧] وقال تعالى: ﴿وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ [آل عمران: ١٨٥] أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوانٍ وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريماً يفي بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الأواني

ومغفرته، وقد قال: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً فما هذا إلا كلام صحيح مقبول في القلوب؟ فاعلم أن الشيطان لا يغوي الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر) أي يرى قبوله بحسب ما يرى من ظاهره (**مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب**) وأخذ فيها مأخذاً، (**ولكن النبي ﷺ كشف عن ذلك فقال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله»**) رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث شداد بن أوس وتقدم قريباً. (**وهذا هو التمني على الله**) وإنما (**غيَّر الشيطان إسمه فسماه «رجاء» حتى خدع به الجهال**) والتمني طلب مالا طمع فيه أو ما فيه عسر، فالأوّل نحو قول الهرم:

ألا ليت الشباب يعود يوماً.

والثاني قول المعدم: ليت لي مال فلان، فإن حصول المال ممكن لكن بعسر، والحاصل أن التمني يكون في الممتنع وفي الممكن. (**وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجَروا وجَاهَدُوا في سبيل الله أولئك يرجُون رحمة الله﴾ يعني أن الرجاء بهم أليق**) فالرجاء يكون على أصل، والتمني لا يكون على أصل، وقد أفاد الخبر أن التمني مذموم، وأفادت الآية أن الرجاء محمود، وذلك لأن التمني يفضي بصاحبه إلى الكسل؛ وأما الرجاء فإنه يعلّق القلب بمحبوب فيحصل حاله، (**وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال قال تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ وقال**) تعالى: (**﴿إنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوانٍ**) جمع آنية وهو جمع إناء (**وشرط له أجرة**) إذا أصلحها، (**وكان الشارط كريماً**) معروفاً بالكرم (**يفي بالوعد مهما وعد، ولا يخلف**) ميعاده (**بل يزيد**) كما هو من

وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الأجر ويزعم أن المستأجر كريم، أفتراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة. قيل للحسن: قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال: هيهات هيهات! تلك أمانيهم يترجحون فيها من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه. وقال مسلم بن يسار: لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي! فقال له رجل: إنا لنرجو الله! فقال مسلم: هيهات هيهات! من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه. وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعد لم

شأن الكرم، (**فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها ثم جلس**) ناحية (**وينتظر الأجر، ويزعم أن المستأجر كريم افتراء العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً، وهذا للجهل بالفرق بي الرجاء والغرة**)، ومن هنا لما (**قيل للحسن**) البصري رحمه الله تعالى: (**هنا قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل**) فما تقول فيهم؟ (**فقال: هيهات هيهات! تلك أمانيهم يترجحون فيها من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه**) ويروى عنه أيضاً أنه قال: إن أقواماً ألهتهم أماني العفو حتى خرجوا من الدنيا ليست لهم حسنة يقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي وكذب، ولو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له. وروى الترمذي من حديث أبي هريرة: من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل.

(**وقال مسلم بن يسار**) البصري نزيل مكة، أبو عبد الله الفقيه، ويقال له مسلم سكره ومسلم المصبح ثقة عابد مات سنة مائة أو بعدها بقليل، روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه: (**لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنياتي. فقال له رجل: إنا نرجو الله. فقال: هيهات! من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه**).

قلت: هما أثران مستقلان بسندين مختلفين قد جعلهما المصنف واحداً.

قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا عبدالله بن المبارك، حدثنا سفيان عن رجل عن مسلم بن يسار أنه سجد سجدة فوقعت ثنيتاه، فدخل عليه أبو اياس معاوية بن قرة يعزيه ويهوّن عليه فذكر مسلم من تعظيم الله عز وجل.

وحدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، عن خالد بن أبي يزيد عن معاوية بن قرة قال: دخلت على مسلم بن يسار وقال: دخلت علي وأنا أدفن بعض جسدي. قال معاوية: وكان يطيل السجود أراه قال: فوقع الدم في ثنيتيه فسقطتا فدفنهما.

وحدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا علي بن إسحاق، حدثنا الحسين بن الحسن، حدثنا عبد الله ابن المبارك،حدثنا سفيان عن رجل عن مسلم بن يسار أنه قال: من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه، وما أدري ما حسب رجاء امرىء عرض له بلاء لم يصبر عليه لما يرجو، وما أدري ما حسب خوف الله من عرضت له شهوة لم يدعها لما يخشى.

ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه، فكذلك من رجاء رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحاً أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور، فكما أنه إذا نكح ووطىء وأنزل بقي متردداً في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقي متردداً بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وإن يختم له بالسوء، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيس، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ [الفرقان: ٤٢] ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٨] وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ [السجدة: ١٢] أي علمنا أنه كما لا يولد ولد إلا

وحدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، عن خالد بن أبي يزيد، عن معاوية بن قرة قال: دخلت على مسلم بن يسار فنلت: ما عندي كـ.. عمل إلا أني أرجو الله وأخاف منه. فقال: ما شاء الله من خاف من شيء حذ.. منه ومن رجا شيئاً طلبه، وما أدري ما حسب خوف عبد عرضت له شهوة فلم يدعها لما يخاف .و ابتلي ببلاء فلم يصبر عليه لما يرجو. قال معاوية: فإذا أنا قد زكيت نفسي وأنا لا أ..م.

(وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعد لم .. كح) أي لم يتزوّج امرأة (أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل) بأن عزل منه (فهو معتوه) أي قليل العقل، (وكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن) بالله (أو آمن) به (ولم يعمل صالحاً أو عمل) صالحاً (ولم يترك المعاصي فهو مغرور، وكما أنه إذا انكح ووطىء وأنزل بقي متردداً في الولد يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد، ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس) أي عاقل فطن، (وكذا إذا آمن وعمل صالحاً وترك السيئات بقي متردداً بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له) في آخر نفسه (بالسوء ويرجو من فضل الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت) وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، (ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت) وأهواله (حتى يموت على التوحيد) الخالص، (ويحرس قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيس) فطن، (ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلّ سبيلاً﴾ ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾وعند ذلك) أي عند معاينتهم العذاب (يقولون ما أخبر الله عنهم) في كتابه العزيز: (﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا) إلى الدنيا (نعمل صالحاً إنا

بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر ، فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحاً فقد علمنا الآن صدقك في قولك : ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ★ وأن سعيه سوف يرى﴾ [النجم: ٣٩ ، ٤٠] ﴿وكلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ★ قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾ [الملك : ٨ ، ٩] أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وأنه ﴿توفّى كل نفس ما كسبت﴾ [البقرة: ٢٨١] وأن ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر : ٣٨] فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ﴿قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ★ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾ [الملك : ١٠ ، ١١] .

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فاعلم أنه محمود في موضعين :

أحدهما : في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان : وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى ، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر

موقنون﴾ أي علمنا أنه لا يولد ولد إلا بوقاع ونكاح، ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر) أي رميه في الأرض، (**فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح فارجعنا**)ثانياً وردنا إلى ما كنا في الدنيا (**نعمل صالحاً، فقد علمنا الآن صدقك في قولك**) وأيقنا به، (**﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ★**) وحصله في دنياه (**وأن سعيه سوف يرى﴾**) ثم يجزاه الجزاء الأوفى (**﴿ كلما ألقي فيها﴾**) أي في النار (**﴿فوجٌ﴾**) أي جماعة من الكفرة (**﴿سألهم خزنتها﴾**) أي الملائكة الموكلون بها (**﴿ألم يأتكم نذير﴾ أي**) ألم يخوّفكم بهذا العذاب و (**لم يسمعكم سنّة الله**) التي قد خلت (**في عباده وأنه ﴿توفّى كل نفس ما كسبت﴾**) من خير أو شر (**وأن ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾**) أي محبوسة وهو توبيخ وتبكيت (**فما الذي غركم بالله بعد ان سمعتم وعقلتم ﴿قالوا﴾**) حينئذ في جواب الخزنة (**﴿لو كنا نسمع﴾**) كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث اعتماداً على ما لاح من صدقهم بالمعجزات، (**﴿أو نعقل﴾**) فنفكر في حكمه ومعانيه فكر المستبصرين (**﴿ما كنا في أصحاب السعير﴾**) أي في عدادهم ومن جملتهم (**﴿فاعترفوا بذنبهم﴾**) حين لا ينفعهم الإعتراف اقراراً عن معرفة والمراد بالذنب الكفر (**﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾**) أي أسحقهم الله سحقاً أي أبعدهم من رحمة الله والتطلب للإيجاز والمبالغة.

(**فإن قلت: فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود؟ فاعلم أنه محمود في موضعين.**

أحدهما : في حق العاصي المنهمك) في المعاصي (**إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان**) موسوساً إليه في قلبه : (**وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله، فيجب عند ذلك أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر أن الله كريم**) جواد ، ومقتضى كرمه وجوده قبول توبته ويتذكر قوله

﴿أن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر : ٥٣] وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب. قال الله تعالى : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم﴾ [الزمر : ٥٣ ، ٥٤] أمرهم بالإنابة. وقال تعالى : ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ [طه : ٨٢] فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور ، كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان : إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك فكذب الشيطان ومرّ يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور .

الثاني : أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر بقوله تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ إلى قوله :

(**تعالى ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده**) ويعفو عن السيئات﴾ (**فإن التوبة طاعة تكفر الذنوب**) وتمحوها . (**قال تعالى : ﴿قُلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**) أي بارتكاب المعاصي (**لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾**) وفي أرجى آية في كتاب الله . (**وقال**) تعالى : (**﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ أمرهم بالإنابة**) وهو الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة . (**وقال**) تعالى : (**﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾**) وغير ذلك من الآيات الدالة على أن المغفرة منوطة بالتوبة . (**فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج**) وفعله رجاء ، (**وإن توقع المغفرة مع الإصرار**) على الذنب (**فهو مغرور كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق**) مشغول في تجارته (**فخطر له أن يسعى إلى الجمعة**) رجاء أن يدرك الجمعة (**فقال له الشيطان : لا تدرك الجمعة فأقم في موضعك فكذب الشيطان ومرَّ يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت أو لأجل غيره أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها فهو مغرور**) في كل ذلك .

(**الثاني : أن يفتر نفسه**) أي يكسلها (**عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض فيرجى نفسه نعم الله تعالى وما وعد به الصالحين**) من صالح الجزاء (**حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ إلى قوله : ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها**

﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١] فالرجاء الأوّل يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر، فكل توقع حث على نوبة أو على تشمر في العبادة، فهو رجاء وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرة، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان: ما لك ولايذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم؟ فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة. وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وأنه مع أنه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد، مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هذه سنته في عباده وقد خوّفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف أغتر به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور. ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور، فقد

خالدون﴾ فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع القنوط من النشاط والتشمر) في الفضائل، (**وكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء، وكل توقع أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرّة**) بالكسر، وبه يظهر الفرق بينهما أيضاً، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان موسوساً في قلبه: (**ما لك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ولك رب غفور رحيم**) كريم فيغتر بذلك أي يكسله (**عن التوبة والعبادة فهي الغرة، وعند هذا يجب على العبد أن يستعمل العمل**) ويستمر عليه (**ويخوّف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول: إنه**) جل وعز (**مع أنه غافر الذنب وقابل التوب**) يغفر ذنوب عباده ويقبل توبتهم (**شديد العقاب**) على من عصاه وخالفه وقد قرنها في سياق واحد لأجل التنبيه على ذلك، (**وأنه**) جل وعز (**مع انه كريم**) عفو (**خلّد الكفار في النار أبد الآباد مع أنه لم يضره كفرهم، بل سلط العذاب والمحن والأمراض والعلل والفقر والجوع**) والعري (**على جلة من عباده في الدنيا وهو قادر على إزالتها، فمن هذه سنته في عباده وقد خوّفني عقابه فكيف لا أخافه**)لئلا يصيبني ما أصابهم؟ (**وكيف أغتر به؟ فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور**) وبهذا كذلك يتضح الفرق بين الرجاء والتمني، (**ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم**) وكسلهم عن الأعمال، (**وسبب إقبالهم على الدنيا وسبب إعراضهم عن الله عز وجل وإهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور، وقد أخبر النبي ﷺ وذكر أن الغرور سيغلب على آخر**

أخبر ﷺ وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة، وقد كان ما وعد به ﷺ، فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات ويؤتون ما أوتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم في الخلوات. وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع إكبابهم على المعاصي وإنهاكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله راجون لعفوه ومغفرته كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون، فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهويني فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه معقل بن يسار: « يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان أمرهم كله يكون طمعاً لا خوف معه، إن أحسن أحدهم قال: يتقبل مني، وإن أساء قال: يغفر لي »، فأخبر انهم

هذه الأمة)، وهو حديث أبي ثعلبة الخشني في إعجاب كل ذي رأي برأيه، وقد تقدم في آخر ذم الكبر والعجب. **(وقد كان ما وعد به ﷺ)** وتحقق وجدانه **(فقد كان الناس في الأعصار الأول يواظبون على العبادات)** مديمين عليها **(ويؤتون ما أتوا)** من الأعمال الصالحة **(وقلوبهم وجلة)** أي خائفة **(يخافون على أنفسهم)** من عدم القبول **(وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم في الخلوات)** كما هو معروف من سيرتهم لمن طالع في تراجمهم وأخبارهم، **(وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير عارفين مع إكبابهم على المعاصي وانهاكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله)** عز وجل **(زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وفضله وراجون لعفوه ومغفرته كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من كرم الله وفضله ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون، فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا)** أي بالمداوة والسهولة **(فعلى ماذا كان بكاء أولئك)** القوم **(وخوفهم وحزنهم؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الخوف والرجاء)** ـ كما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ **(وقد قال ﷺ فيما رواه معقل بن يسار)** المزني رضي الله عنه ممن بايع تحت الشجرة وكنيته أبو علي مات بعد الستين: **(« يأتي على الناس زمان يخلق)** أي يبلى **(فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب)** أي تبلى **(على الأبدان يكون أمرهم كله طمعاً لا خوف معه، إن أحسن أحدهم قال يتقبل مني، وإن أساء قال يغفر لي »)** قال العراقي: رواه الحارث بن أبي أسامة من طريق أبي نعيم بسند ضعيف. ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة.

يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه، ولمثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ معناه أنهم ﴿ورثوا الكتاب﴾ [الأعراف: ١٦٩] أي هم علماء. و ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي شهواتهم من الدنيا حراماً كان أو حلالاً. وقد قال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦] ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ [إبراهيم: ١٤]. والقرآن من أوّله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه وترى الناس يهذونه هذا. يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات إلى معانيه والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم مع أن ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ويكون ما

(فأخبر) ﷺ (أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن) وإنذارته (وما فيه، وبمثله أخبر) الله تعالى (عن النصارى إذا قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب﴾) أي تكلفوا دراسته وتلقفوه (﴿يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾ ومعناه أنهم ﴿ورثوا الكتاب﴾ أي هم علماء) بما فيه (و﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي شهواتهم من الدنيا حلالاً كان أو حراماً. وقد قال تعالى: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾) اسم من الإيعاد وهو الوعد من العذاب (والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه) مصدقاً له. (وترى الناس يهذونه هذا) الهذ: سرعة القطع، وقد هذ قراءته هذاً إذا أسرع فيها (يخرجون الحروف من مخارجها ويناظرون على رفعها وخفضها ونصبها فكأنهم يقرأون شعراً من أشعار العرب لا يهمهم الإلتفات إلى معانيه والعمل بما فيه)، وقد روى أبو نعيم من حديث ابن عباس: «يأتي على الناس زمان يتعلمون فيه القرآن فيجمعون حروفه ويضيعون حدوده، ويل لهم مما جمعوا، وويل لهم مما ضيعوا إن أدنى الناس بهذا القرآن من جمعه ولم ير عليه أثره». (وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟ فهذه أمثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور، ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص إلا أن معاصيهم أكثر وهم متوقعون المغفرة ويظنون أنه تترجح كفة حسناتهم مع أن ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال أو الحرام،

يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدق به هو من أموال المسلمين وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله. نعم ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتدّ بها كالذي يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله في اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق: ١٨] فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان. وذلك محض الغرور.

ولعمري ولو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبون من هذيانه

ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدق به هو من أموال المسلمين وهو يتكل عليه، ويظن أن أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحلال أو الحرام وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله. نعم ومنهم من يظن أن طاعته أكثر من معاصيه لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتدّ بها كالذي يستغفر الله بلسانه، أو يسبح الله تعالى في اليوم) والليلة **(مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم)** ويأكل لحومهم، **(ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سجته أنه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه)** وهو الكلام الذي لا فائدة فيه **(طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون)** وهم الحفظة من الملائكة، **(وقد أوعده الله تعالى العقاب على كل كلمة فقال: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾)** أي مراقب حاضر، **(فهو أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين بذكر ما لا يضمرونه إلى غير ذلك من آفات اللسان وذلك محض الغرور. (ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ**

الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به في فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه . فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه! ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها فقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين! فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن ، وأنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان ، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ولا يغتر به اتكالاً على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى ، والله أعلم .

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف :

الصنف الأول : أهل العلم ، والمغترون منهم فرق :

ففرقة : أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها إشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله

لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه) أي يمسكه (**حتى عن جملة من مهماته وما نطق به في فترته فكان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحانه حتى لا يفضل عليه أجرة نسخة. فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه . ما هذا إلا مصيبة عظيمة لم تفكر فيها**) وتأمل حق التأمل ، (**فقد دفعنا إلى أمر ام شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين** عياذاً بالله من ذلك ، **وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران**) والجحود ، (**فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان**) الواضح البرهان ، (**وما أجدر من يقدر علي تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقي**) مقامه (**ولا يغتر به اتكالاً على أباطيل المنى و**) اعتماداً (**على تعاليل الشيطان والهوى، والله الموفق**) .

بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف:

(**وهم أربعة أصناف**) .

(**الصنف الأول: أهل العلم ، والمغترون منهم فرق**) كثيرة.

(**ففرقة منهم: احكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها**) أي دخلوا في عمقها (**واشتغلوا بها**) ونسبوا إليها وقد كملوا في إتقان فنونها (**وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها**

بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان: علم معاملة وعلم مكاشفة، وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة.

فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. فمثال هذا كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها إلاَّ حذاق الأطباء فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الأخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التي منها تجتلب، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه، فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى

عن المعاصي وإلزامها الطاعات) الإلهية **(واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان)** ومنزلة، **(وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم)** ولا يؤاخذهم بما عملوا، **(بل يقبل في الخلق شفاعتهم وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله)** وشرفهم لديه **(وهم)** في الحقيقة **(مغرورون، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان: علم معاملة وعلم مكشفة. وهو)** أي علم المكاشفة كما سبق في كتاب العلم **(العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة)**.

(فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة) منها **(والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل)** لا لذواتها **(ولولا الحاجة إلى العمل لم تكن لهذه العلوم قيمة)** ولا قدر، **(وكل علم)** لا **(يراد)** إلا **(للعمل فلا قيمة له دون العمل)** وتفهم ذلك بمثال. **(فمثال ذلك كمريض به علة لا يزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة)** أي أجزاء مفردة **(لا يعرفها إلا حذّاق الأطباء)** ومهرتهم **(فسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر وطنه)** وفارق مألوفه **(حتى عثر على طبيب حاذق)** فشكا له حاله وذكر له العلة **(فعلمه الدواء)** لها **(وفصل لها الأخلاط)** التي يركب منها ذلك الدواء **(وأنواعها ومقاديرها)** وموازينها **(ومعادنها التي منها تجتلب)** تلك الأخلاط، **(وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيفية خلطه وعجنه. فتعلم ذلك منه وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن)** مقبول **(ورجع إلى بيته وهو يكررها ويقرؤها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها. أفترى أن ذلك يغني** عنه **من مرضه شيئاً؟ هيهات!**

أن ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً ؟ هيهات هيهات! لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً إلا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته، ويكون شربه في وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه، وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه، فكيف إذا لم يشربه أصلاً ؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره.

وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور إذ قال تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾ [الشمس: ٩] ولم يقل أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس وعند هذا يقول له الشيطان: لا يغرنك هذا المثال فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض، وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه، والعلم يجلب الثواب ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم، فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن إليه وأهمل العمل، وإن كان كيساً فيقول للشيطان: أتذكرني فضائل العلم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل

لو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئاً إلا أن يزن الذهب ويشتري الدواء ويخلطه) مع بعضه بعد الدق **(كما تعلم)** من الطبيب **(ويشربه)** بالمقدار الذي ذكره له **(ويصبر على مرارته، ويكون شربه في وقته)** المناسب **(وبعد تقديم الإحتماء)** عن مناولة ما يضاده **(و)** تقديم **(جميع شروطه)** المعروفة، **(وإذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه)** هل يحصل له أم لا ؟ **(فكيف إذا لم يشربه أصلاً ؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره)**، وقد أشار إليه المصنف في رسالته التي أرسلها لبعض معتقديه من تلامذته المسماة: برسالة أيها الولد ومثل فيها بمثال آخر فقال: أرأيت من كال الخمر بالقناطير أيكون بكيله سكراناً ؟ هيهات! حتى يذوق منها قطرة. **(وهكذا الفقيه الذي أحكم علم الطاعات ولم يعملها، وأحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها)** أي ما طهرها، **(وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور إذ قد قال تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾)** أي طهّرها من الكفر والمعاصي والرذائل، **(ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس، وعند هذا يقول له الشيطان: لا يغرنك هذا المثال، فإن العلم بالدواء لا يزيل المرض وإنما مطلبك القرب من الله تعالى وثوابه، والعلم يجلب الثواب)** كيفما كان ويقرب إلى الله **(ويتلو عليه الأخبار الواردة في فضائل العلم)** مما تقدم ذكرها في أوّل كتاب العلم، **(فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً وافق ذلك مراده وهواه واطمأن إليه وأهمل العمل)** رأساً **(وإن كان كيّساً)** فطناً حاذقاً **(فيقول للشيطان: أتذكرني فضائل**

بعلمه كقوله تعالى: ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ [الأعراف: ١٧٦] وكقوله تعالى: ﴿مَثَل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ [الجمعة: ٥] فأي خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار؟ وقد قال ﷺ: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بُعداً»، وقال أيضاً: «يلقي العالم في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى» وكقوله عليه الصلاة والسلام: «شر الناس العلماء السوء». وقول أبي الدرداء: ويل للذي لا يعلم مرة لو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات، أي أن العلم حجة عليه إذ يقال له: ماذا عملت فيما علمت، وكيف قضيت شكر الله؟ وقال ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه». فهذا

العلم وتنبيهي ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله عز وجل: ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ وهو بلعم بن باعوراء كان أوتي بعض علم الآيات فلما لم يعمل به وركن إلى شهوات الدنيا مقته الله تعالى وضرب له المثل المذكور كما تقدم. (**وكقوله**) تعالى: (**﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها**) أي لم يعملوا بما فيها (**﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ فأي خزي أعظم من التمثيل بالكلب والحمار**) وهما من أخس خلق الله تعالى؟ (**وقد قال ﷺ: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً»**) رواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بلفظ: ولم يزدد في الدنيا زهداً وقد تقدم في كتاب العلم. (**وقال**) ﷺ: (**«يلقى العالم في النار فتندلق أقتابه**) أي مصارينه (**فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحا»**) رواه ابن النجار من حديث أبي أمامة بلفظ: «يؤتى بعلماء السوء يوم القيامة فيقذفون في نار جهنم فيدور أحدهم في جهنم بعقبة كما يدور الحمار بالرحا. فيقال له: ويلك بك اهتدينا فما بالك؟ قال: فإني كنت أخالف ما كنت أنهاكم عنه». وعند الشيخين من حديث أسامة بن زيد: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه» الحديث. ورواه أبو نعيم في الحلية بلفظ: «يجاء بالأمير يوم القيامة فيلقى في النار فيطحن فيها كما يطحن الحمار بطاحونته» الحديث وكل ذلك قد تقدم مراراً، (**وكقوله**) ﷺ: (**«شر الناس العلماء السوء»**) تقدم في كتاب العلم. (**وقول أبي الدرداء**) رضي الله عنه: (**ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات**) رواه أبو نعيم، عن محمد بن أحمد ابن الحسن، حدثنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن جعفر بن محمد بن برقان، عن ميمون بن مهران قال: قال أبو الدرداء فذكره، وروي مثله من قول ابن مسعود كذلك. رواه أبو نعيم من طريق معاوية بن صالح عن عدي بن عدي قال: قال ابن مسعود فذكره، وقد تقدم في كتاب العلم. (**أي أن العلم حجة عليه إذ يقال له: ماذا عملت، وكيف قضيت شكر الله؟ وقال ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»**) رواه الطبراني في

وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى، إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه، وذلك عين الغرور فإنه إن نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وأن حالهم عند الله أشد من حال الجهال. فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور.

وأما الذي يدعي علوم المكاشفة: كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العلم ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد، ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك عاطلاً عن جميع ما يحبه متوسلاً إليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته، فهذا مغرور جداً إذ لو ترك

الصغير، وابن عدي، والبيهقي من حديث أبي هريرة بلفظ: «لم ينفعه علمه» وقد تقدم في كتاب العلم. (**فهذا وأمثاله مما أوردناه في كتاب العلم في باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى إلا أن هذا مما لا يوافق هوى العالم الفاجر**) فلا يرفع له رأساً (**وما ورد في فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه وذلك عين الغرور، فإنه ان نظر بالبصيرة**) الباطنة (**فمثاله ما ذكرناه، وإن نظر بعين الإيمان فالذي أخبره بفضيلة العلم هو الذي أخبره بذم العلماء السوء وأن حالهم أشد عند الله من حال الجهال، فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور**).

(**وأما الذي يدعي علوم المكاشفة**) وأنه بأزائها (**كالعلم بالله وصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العلم**) ويتركه (**ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد، ومثاله: من أراد خدمة ملك**) من الملوك (**فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون، فورد على الملك وهو يريد القرب منه والإختصاص به**) حالة كونه (**متلطخاً بجميع ما يكرهه الملك**) ويغضب عليه (**عاطلاً عن جميع ما يحبه**) ويميل إليه (**متوسلاً إليه بمعرفته له وبنسبه واسمه وبلده وشكله وصورته وعادته في سياسة**

جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد عن قربه والاختصاص به، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على انه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني، إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه. فلا يتصوّر أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الأسد، فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالي ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافاً مؤلفة وأبدّ عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثراً ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع، ولذلك قال تعالى: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] وفاتحة الزبور: «رأس الحكمة خشية الله». وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله

غلمانه ومعاملة رعيته، فهذا مغرور جداً إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يحبه ويكرهه لكان ذلك أقرب لنيله المراد من قربه والإختصاص به، بل تقصيره في التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامي دون المعاني إذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه) وآثر محبته على ما يهواه، **(فلا يتصوّر أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: خفني كما تخاف السبع الضاري. نعم من يعرف من الأسد لونه وشكله واسمه قد يخافه وكأنه ما عرف الأسد فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين)** بأسرهم **(ولا يبالي ويعلم أنه مسخر في قدرة من لو أهلك مثله آلافاً مؤلفة وأبدّ عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثراً ولم تأخذه عليه رأفه ولا اعتراه عليه جزع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾)** وقد تقدم الكلام عليه في كتاب العلم. **(وفاتحة الزبور: رأس الحكمة خشية الله)** هكذا رواه صاحب الحلية عن وهب بن منبه، والمراد بالحكمة هنا العلم بأحوال الموجودات على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية أي أصلها وأسها الخوف منه، لأن الحكمة تمنع النفس عن المنهيات والشهوات والشبهات، ولا يحمل على العمل بها إلا الخوف منه تعالى فيحاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة، ولأن الخشية تدعوه إلى الزهد في الدنيا وهو من آكد أسباب النجاة.

وأخرج الحكيم في النوادر، وابن لال في مكارم الأخلاق، ومن طريق الديلمي من طريق الحسن ابن عمارة عن عبد الرحمن بن عابس بن ربيعة عن أبيه عن ابن مسعود مرفوعاً: رأس الحكمة مخافة الله. والحسن بن عمارة ضعيف.

ورواه البيهقي من طريق الثورى عن ابن عباس ووقفه ولفظه: أنه كان يقول في خطبته: خير

جهلاً. واستفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك. فقال: وهل رأيت فقيهاً قط؟ الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا. وقال مرة: الفقيه لا يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله، وإن ردت عليه حمد الله، فإذاً الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم: «ومن يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي

الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، وأعاده مقتصراً على الجملة الأخيرة، ثم ساقه من جهة بقية حدثنا عثمان بن زخر، عن أبي عمار الهذلي عنه مرفوعاً وضعفه.

ورواه الطبراني، والقضاعي من حديث سعيدة ابنة حكامة عن أمها عن أبيها عن مالك بن دينار عن أنس رفعه: «خشية الله رأس كل حكمة والورع سيد العمل».

وروى البيهقي في الدلائل، والعسكري في الأمثال، والديلمي من طريق عبد الله بن مصعب بن منظور بن جميل بن سنان عن أبيه عن عقبة بن عامر قال: خرجنا في غزوة تبوك فذكر حديثاً طويلاً فيه قول النبي ﷺ أما بعد: «فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الزاد التقوى ورأس الحكمة مخافة الله».

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه: **(كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً)**. وروى البيهقي في الشعب عن مسروق مرسلاً: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بنفسه. ورواه أبو نعيم عنه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «كفى بالمرء فقهاً إذا عبد الله، وكفى بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه». **(واستُفتي الحسن)** البصري رحمه الله تعالى **(عن مسألة فأجاب)** عنها. **(فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك. فقال: وهل رأيت فقيهاً قط؟ الفقيه القائم** لله **ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا)** نقله صاحب القوت وقد تقدم في كتاب العلم. **(وقال مرة: الفقيه يداري ولا يماري)** أي لا يخاصم **(ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله، وإن ردت عليه حمد الله، فإذاً الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه)** فائتمر بأوامره وانتهى بنواهيه وأحب ما أحبه وكره ما أبغضه. **(وهذا العالم الذي)** ورد **(فيه)** قول النبي ﷺ: **(«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»)** رواه أحمد والشيخان وابن حبان من حديث معاوية. ورواه أحمد والدارمي والترمذي وقال: حسن صحيح من حديث ابن عباس. وروى الطبراني في الأوسط من حديث عمر ومن حديث أبي هريرة وقد تقدم الكلام عليه في كتاب العلم. **(وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين)**.

(وفرقة أخرى) منهم: **(أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة**

إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرئاسة والعلاء وإرادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت إلى قوله ﷺ : « أدنى الرياء شرك » . وإلى قوله عليه السلام : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وإلى قوله عليه الصلاة والسلام : « حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل » إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »

وتركوا المعاصي إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرئاسة والعلاء ، وإرادة السوء للأقران والنظراء ، وطلب الشهرة في البلاد والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير محترز عنها ولا يلتفت إلى قوله ﷺ : « أدنى الرياء شرك ») رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم من حديث معاذ وابن عمرو معاً بلفظ : « إن أدنى الرياء شرك وأحب العبيد إلى الله الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا شهدوا لم يعرفوا أولئك أئمة الهدى ومصابيح الظلم » وقد تقدم في كتاب ذم الجاه والرياء . (**وإلى قوله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »**) رواه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم مراراً . (**وإلى قوله ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »**) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة . وقال البخاري : لا يصح . ورواه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف . ورواه الخطيب في التاريخ بإسناد حسن وقد تقدم في كتاب العلم . (**وإلى قوله ﷺ : « حب الشرف والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل »**) رواه أبو نعيم . ومن طريق الديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ : « حب الغنى ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب » . ورواه الديلمي من طريق سلمة بن علي عن عمر مولى غفرة عن أنس بلفظ : « الغنى واللهو ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب » الحديث . وروى البيهقي من حديث جابر : « الغنى ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع » . ورواه هكذا ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي ، والبيهقي أيضاً من حديث ابن مسعود ، ولكن بلفظ « البقل » بدل « الزرع » وكل ذلك قد تقدم في كتاب الوجد والسماع ، وفي كتاب ذم الجاه . (**إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها في جميع ربع المهلكات في الأخلاق المذمومة ، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**) رواه أحمد ، ومسلم ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ « أن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم

فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب ـ والقلب هو الأصل ـ إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ومثال هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة، أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم، أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فجصص باب داره وترك المزابل في صدر داره، ولا يخفى أن ذلك غرور، بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب، فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه، فقنع بالطلاء وترك الدواء وبقي يتناول ما

وأعمالكم». ورواه أيضاً أبو بكر الشافعي في الغيلانيات، وابن عساكر من حديث أبي امامة. ورواه هناد عن الحسن مرسلاً، وعند الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أحسابكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه». ورواه الحكم عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً نحوه. (**فتعهدوا الأعمال ولم يتعهدوا القلوب ـ والقلب هو الأصل ـ إذ لا ينجو**) غداً يوم القيامة (**إلا من أتى الله بقلب سليم**) أي سالم عن الغش والكدر. (**ومثال هؤلاء كبئر الحش**) كذا في النسخ، وفي بعضها كبيت الحش وهو الصواب والحش بالضم ويفتح بستان النخل. قال أبو حاتم: قولهم بيت الحش مجاز لأن العرب كانوا يقضون حوائجهم في البساتين، فلما اتخذوا الكنف وجعلوها خلفاً عنها أطلقوا عليها ذلك الاسم. (**ظاهرها جص**) أي مبيض به (**وباطنها نتن، أو كقبور الموتى ظاهرها مزين**) بالعمارة (**وباطنها جيف، أو كبيت مظلم باطنه وضع السراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم**) وهذه الأمثلة الثلاثة في العلماء السوء لسيدنا عيسى عليه السلام نقله صاحب القوت، وتقدم بعضها في كتاب العلم وبعضها في كتاب ذم الدنيا، (**أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره فجصص باب داره وترك المزابل في صدر داره، ولا يخفى أن ذلك غرور بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش**) المذكور (**بقلعه من أصله، فأخذ يجز رؤوسه**) أي يقطعها (**وأطرافه**) المتشعبة (**فلا يزال يقوى أصله وينبت**) وإنما كان هذا أقرب مثال إليه، (**لأن مغارس المعاصي هي الأخلاق المذمومة في القلب، فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة، بل هو كمريض ظهر به الجرب**) والحكة (**وقد أمر بالطلاء**) عليه من ظاهر البدن (**وشرب الدواء**) من الباطن، (**فالطلاء يزيل ما على ظاهره والدواء يقلع مادّته من باطنه فيقنع بالطلاء ويترك الدواء، وبقي يتناول ما يزيد في**

يزيد في المادة، فلا يزال يطلي الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التي في الباطن.

وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قالوا: ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين! وإني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك وكان ذلي ذلاً على الإسلام. ونسي المغرور أن عدوه الذي حذره منه مولاه هو الشيطان وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به، وينسى أن النبي ﷺ بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين؟ ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة، حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره، ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والإبريسم ـ المحرم ـ والخيول والمراكب ويزعم انه يطلب

المادة) من داخل **(فلا يزال يطلى الظاهر)** فلا ينفعه **(والجرب به دائم يتفجر عن المادة التي في الباطن.**

وفرقة أخرى: علموا هذه الأخلاق الباطنة وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وانهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هو فأعظم عند الله من أن يبتليه) وهذا من ثمرات العجب، (ثم إذا ظهر عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلوّ والشرف قال: ما هذا كبر وإنما هذا طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين) والحاسدين! **(فإني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس شمت بي اعداء الدين وفرحوا بذلك)** ولو باطناً **(وكان ذلى ذلاً على الإسلام، ونسي المغرور أن عدوّه الذي حذره منه مولاه)** وذلك العدوّ هو **(الشيطان وأنه)** من شأنه أنه **(يفرح بما يفعله ويسخر به، وينسى أن النبي ﷺ بماذا نصر الدين وبم أرغم الكافرين، وينسى ما روي عن الصحابة)** رضوان الله عليهم **(من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة، حتى عوتب عمر رضي الله عنه في بذاذة زيه)** أي رثاثة هيئته **(عند قدومه الشام فقال: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره)**. رواه الأعمش عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب وقد تقدم **(ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقي والإبريسم ـ المحرم ـ والخيول)** المسوّمة **(والمراكب)** الفاخرة **(ويزعم**

به عز العلم وشرف الدين، وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه أو فيمن رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال: إنما هذا غضب للحق ورد على المبطل في عدوانه وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رئاسة وزوحم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن؟ فيكون غضبه لله أم لا يغضب مهما طعن عالم آخر ومنع؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من حيث باطنه، وهكذا يرائي بأعماله وعلومه، وإذا خطر له خاطر الرياء قال: هيهات إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى، ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائهم به، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم، فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر، وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضاً ويقول: إنما ذلك لأنه إذا اهتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي فإنما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق. قولي هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على انه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، وحبس مع ذلك في سجن وقيد

أنه يطلب عز العلم وشرف الدين) هيهات! لا يكون غير العلم وشرف الدين بهذا، (وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد في أقرانه) ونظرائه (أو فيمن ردّ عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال: إنما هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يعتقد أنه لو طعن في غيره من أهل العلم أو منع غيره من رئاسته وزوحم فيها هل كان غضبه وعدواته مثل غضبه الآن؟ فيكون غضبه لله أم لا يغضب مهما طعن في عالم آخر ومنع؟ بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لأقرانه من حيث باطنه، وهكذا يرائي بأعماله وعلومه، فإذا خطر له خاطر الرياء قال: هيهات إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي) فيهما (ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله ولا يتأمل المغرور انه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح هو باقتدائهم به، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان)، وهذا (كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر، وربما يذكر هذاله فلا يخليه الشيطان أيضاً ويقول: إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر لي والثواب لي، فإنما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق قولي هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره) أي باطنه (على أنه لو أخبره نبي بأن ثوابه في الخمول وإخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل) والأغلال (لاحتال في هدم السجن

بالسلاسل لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رئاسته من تدريس أو وعظ أو غيره. وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان: هيهات إنما ذلك عند الطمع في مالهم، فأنت أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر في جميع المسلمين ثقل ذلك عليه، ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل، وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم وإذا خطر له أنه حرام قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين، أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟

فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور:

أحدها: في أنه مال لا مالك له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم، ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها فلا خلاف في أنه مال حرام،

وحل السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي تظهر به رئاسة **من تدريس أو وعظ أو غيره، وكذلك يدخل على السلطان ويتودّد إليه ويثني عليه ويتواضع له، فإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام)** وأن من تواضع لهم صار له كذا وكذا **(قال له الشيطان: هيهات! إنما ذلك عند الطمع في مالهم، فأما أنت فغرضك أن تتشفع للمسلمين فتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار بشفعه)** أي يقبل شفاعته **(في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه، فلو قدر أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل، وكذلك قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من ماله، وإذا خطر له حرام قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له معين وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين فلا يحل لك أن تترك قدر حاجتك)** وفي نسخة: أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك، **(فيغتر بهذا التلبيس في ثلاثة أمور)**.

(أحدها: أنه مال لا مالك له فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم احياء، وغاية الأمر وقوع الخلط في أموالهم. ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها فلا خلاف في أنه مال حرام، ولا يقال هو

ولا يقال هو مال لا مالك له. ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة. وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر.

الثاني والثالث: في قوله: إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال على الرئاسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله، فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين، إذ الإمام هو الذي يقتدي به في الاعراض عن الدنيا والإقبال على الله كالأنبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف، والدجال هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا، فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين، ومثله كما قال المسيح عليه السلام: للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم في هذه الإعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر

مال لا مالك له. ويجب أن يقسم بين العشرة ويرد إلى كل واحد عشرة. وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر.

الثاني والثالث في قوله: إنك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا) أخذ (**أموال السلاطين ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال على الرئاسة والإعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله، فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين، إذ الإمام هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الدنيا والاقبال على الله كالأنبياء**) عليهم السلام، (**والصحابة**) رضي الله عنهم، (**وعلماء السلف. والدجال هو الذي يقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا، فلعل موت هذا انفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين، ومثله كما قال عيسى عليه السلام للعالم السوء: إنه كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع**) نقله صاحب القوت وقد تقدم في كتاب العلم. (**وأصناف غرور أهل العلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير**).

(**وفرقة منهم: أحكموا العلم وطهرواالجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا**) وفي

المعاصي وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم في التبرىء منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية، ولكنهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض وظن أن الكل قد ظهر وبرز، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها وهو يظن أنه قد قلعها، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري، فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق وانطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم له في المهمات وإيثاره في الأغراض، والإجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد والتمتع بتحريك الرؤوس

نسخة: تركوا **(المعاصي)** الظاهرة **(وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والحقد وطلب العلوّ، وجاهدوا أنفسهم في التبرىء منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية)** أي الظاهرة **(القوية، ولكنهم بعد مغرورون إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكائد الشيطان وخبايا خداع النفس مادق)** منها **(وغمض مدركه)** ولم يتبين سره، **(فلم يفطنوا لها)** لدقتها وغموضها، **(وأهملوها، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه)** مضراً للزرع **(فقلعه، إلاّ أنه لم يفتش عما يخرج رأسه بعد من تحت الأرض فظن أن الكل قد ظهر وبرز، وكان قد نبتت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فأهملها)** ولم يلتفت إليها **(وهو يظن أنه قد قلعها)** واستأصلها، **(فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت فأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري)** ولا يشعر بها، **(فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدقائق فتراه يسهر ليله ونهاره في جميع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها)** وتركيب معانيها **(وجمع التصانيف فيها، وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر)** بين الناس **(وانتشار الصيت في الأطراف وكثرة الرحلة إليه من الآفاق وإطلاق الألسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم في المهمات وايثاره في الاغراض، والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ**

إلى كلامه والبكاء عليه، والتعجب منه والفرح بكثرة الأصحاب والاتباع والمستفيدين، والسرور بالتخصيص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا، لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص؛ ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء، فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوّش عليه قلبه وتختلط أوراده ووظائفه. وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج إلى أن يكذب في تغطية عيبه، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع، وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره وينبو قلبه عمن عرف حدّ فضله وورعه، وإن كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد إصغاء إليه وأحرص على خدمته، ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من

بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد) لكلامه **(والتمتع بتحريك الرؤوس)** والتمايل يميناً وشمالاً **(على كلامه)** حين يورده **(والبكاء عليه، والتعجب منه والفرح بكثرة الأصحاب والأتباع والمستفدين، والسرور بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمكن به من إطلاق لسان الطعن في كافة المقبلين على الدنيا)** المعرضين عن الله تعالى **(لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن إدلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص، ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من أمر وإمارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء)** وطيب ذكر، **(فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوّش عليه قلبه)** ويتكدر بذلك خاطره **(وتختلط أوراده ووظائفه. وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه)** يبديها **(وربما يحتاج إلى تكذب)** أي تكلف في الكذب **(في تغطية عيبه، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع، وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره)** الذي هو فيه **(وينبو قلبه عمن عرف حدّ فضله وورعه، وإن كان ذلك على وفق حاله)** ومساوياً لقدره. **(وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثر لتقدمه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوع واتبع لمراده)** أي أكثر طوعاً وتبعاً لهوى نفسه **(وأكثر ثناء عليه)** عند الناس **(وأشد إصغاء لديه)** إذا تكلم **(وأحرص على خدمته، ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما**

منافع خلقه ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه. وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة والاختفاء لذة القبول وعزة الرئاسة. ولعل مثل هذا هو المراد بقوله: الشيطان من زعم من بني آدم انه يعلمه امتنع مني فبجهله وقع في حبائلي وعساه يصنف ويجتهد فيه ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف، فلو ادعى مدع تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف، والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضمناً بالطعن في غيره ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علماً، ولقد كان في غنية عن الطعن فيه، ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه إلى قائله، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه، فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق، ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه كيلا ينسب إلى الركاكة ويرى أن غرضه

يسر على لسانه) أي سهله **(من منافع خلقه، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه. وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثار الخمول والعزلة وإخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة والاختفاء لذة القبول وعزة الرئاسة، ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من بني آدم أنه بعلمه امتنع مني فبجهله وقع في حبائلي)** أي إشراكي. **(وعساه يصنف ويجتهد فيه)** أي في تصنيفه **(ظاناً أنه يجمع علم الله لينتفع به، وإنما مراده استطارة اسمه بحسن التصنيف، فلو ادعى أحد تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه إلى نفسه ثقل ذلك عليه)** وقامت قيامته وشكاه بكل لسان كما وقع ذلك لبعض العلماء، **(مع أن علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف)** وأجر الانتفاع به **(إنما يرجع للمصنف، والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه. ولعله في تصنيفه لا يخلوم من الثناء على نفسه إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة وإما ضمناً بالطعن في غيره)** من معاصريه أو ممن تقدم عليه، **(ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علماً)** وأغزر منه فهماً، **(ولقد كان في غنيـة من الطعن فيه، ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يريد تزييفه)** أي توهينه **(فيعزيه)** أي ينسبه **(إلى قائله)** ليحط بذلك عن مقامه، **(وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه)** فيرتفع قدره **(فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير)** إما بقلب الألفاظ أو تقديم أو تأخير أو اختصار **(كالذي يسرق قميصاً فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق، ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه)** وسبكه

ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس، وعساه غافلاً عما روي أن بعض الحكماء وضع ثلاثمائة مصحف في الحكمة فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض بقاقاً وإني لا أقبل من بقاقك شيئاً. ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه، وأنه أكثر تبعاً أو غيره، فيفرح إن كان أتباعه أكثر وإن علم أن غيره أحق بكثرة الاتباع منه، ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا، ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غير ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثني مع علمه بأنه مشغول بالإستفادة، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه، ولعل واحداً منهم إذا تحركت فيه مبادىء الحسد لم يقدر على إظهاره

في قالب البلاغة (**كي لا ينسب إلى الركاكة**) أي ضعف العقل والفهم (**ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب إلى نفع الناس. وعساه غافلاً عما روي أن بعض الحكماء**) من بني إسرائيل (**وضع ثلاثمائة مصحف في الحكمة**) لينتفع بها الناس، (**فأوحى الله إلى نبي زمانه**) أن (**قل له قد ملأت الأرض بقباقاً**) وفي نسخة: بقاقاً وهو الكلام الكثير (**وأنا لا أقبل من بقباقك شيئاً**) وفي نسخة بقاقك أورده أبو نعيم في الحلية في ترجمة الشعبي، وقد ذكر في كتاب العلم وفي كتاب ذم الكبر. (**ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة من عيوب القلب وخفاياه، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه وأنه أكثر تبعاً أو غيره، فيفرح إن كان اتباعه أكثر، وإن علم أن غيره أحق بكثرة الاتباع منه ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة**) تغايروا تغاير التيوس في الزرب، (**وتحاسدوا، ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره**) فترك الحضور بين يديه (**ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه، فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه**) أي لا ينتشط (**ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل، ولا يحرص على الثناء عليه كما اثنى عليه من قبل مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة**). وأصل التحيز هو المبل إلى حيز جماعة أي ناحيتهم وكذلك الانحياز، (**ومع ذلك فلا تزول النفرة عن قلبه، ولعل واحداً منهم إذا تحركت فيه مبادىء الحسد لم يقدر على إظهاره فيتعلل بالطعن فيه وفي دينه وفي**

فيتعلل بالطعن فيه وفي دينه وفي روعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول: إنما غضبت لدين الله لا لنفسي. ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وإن أثني عليه ربما ساءه وكرهه، وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه ـ يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين ـ وسر قلبه راض به ومريد له. والله مطلع عليه في ذلك. فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه، فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال، وأمره أقرب من الغرور المزكي لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه، الظان أنه من خيار خلقه. فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال. هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم.

ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه.

روعه) بكل ما أمكنه (**ليحمل غضبه على ذلك ويقول: إنما غضبت لدين الله لا لنفسي، ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح به**) وله (**وإن أثني عليه ربما ساءه وكرهه وربما قطب وجهه**) أي عبسه كأنه (**يظهر**) من نفسه (**أنه كاره لغيبة المسلمين**) وذمهم، (**وسر قلبه**) أي باطنه (**راض به ومريد له والله مطلع عليه في ذلك. فهذا وأمثاله من خفايا العيوب**) ودقائقها (**لا يفطن له إلا الأكياس**) المستبصرون (**ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء**) الجلدون، (**ولا طمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الانسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص على إصلاحه، فإذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه**). روى الدارقطني في الإفراد، وابن عساكر في التاريخ من حيث أنس: «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً فقههم في الدين ووقر صغيرهم كبيرهم ورزقهم الرفق في معيشتهم والقصد في نفقاتهم وبصرهم عيوبهم فيتوبوا منها، وإذا أراد بهم غير ذلك تركهم هملاً» قال الدارقطني: تفرد به موسى بن محمد بن عطاء عن ابن المنكدر عن أبيه عن أنس وهو متروك (**ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجوّ الحال**). روى الخطيب من حديث جابر، والطبراني من حديث أبي موسى: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن». (**وأمره أقرب من المغرور المزكي نفسه الممتن على الله بعلمه وعمله، الظان أنه من خيار خلقه، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال. هذا غرور الذين حصلوا العلم المهم**) وفي نسخة العلوم المهمة (**وأهملوا العمل بالعلم**) وفي نسخة ولكن قصروا في العمل بالعلم.

(**ولنذكر غرور الذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم**) منها (**وهم به**) أي بما حصلوه (**مغترون إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم وإما لاقتصارهم عليه**).

فمنهم فرقة : اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقد الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين ، وكذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين .

أحدهما : من حيث العمل .

والآخر : من حيث العلم .

أما العمل ، فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه ، لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول : ربما

(**فمنهم فرقة: اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعاش، وخصصوا اسم الفقه بها وسموه علم الفقه وعلم المذهب، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة**) والكذب ، (**ولا البطن عن الحرام**) والشبهة ، (**ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين**) وأرباب الأموال : (**وكذا سائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم**) عن الكبر والرياء (**والحسد وسائر المهلكات**) التي ذكرت . (**فهؤلاء مغرورون من وجهين**) .

(**أحدهما : من حيث العمل**) .

(**والآخر من حيث العلم**) .

أما) من حيث (**العمل: فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه**) فلا ينفعه ذلك إلا إذا عمل بما فيها ، (**بل مثالهم مثال من به علة البواسير**) جمع باسور وهو ورم تدفعه الطبيعة إلى كل موضع في البدن يقبل الرطوبة من المقعدة والانثيين والأشفار وغير ذلك ، فإن كان في المقعدة لم يكن حدوثه دون انفتاح العروق . (**والبرسام**) : وهو ورم للحجاب الذي بين الكبد والمعي ثم يتصل بالدماغ . قال ابن دريد : هو معرب (**وهو مشرف على الهلاك ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعليم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ،**

تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك، وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلاقي فيلقى الله وهو عليه غضبان، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والاجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرئاسة والمال، وقد دهاه الشيطان وما يشعر إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية. هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل.

وأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم الفتاوي وظن أنه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ وربما طعن في المحدثين وقال: إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك

ولكن يقول: ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك) فأجيبها، **(وذلك غاية الغرور، فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا وابتاع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلاقي)** أي التدارك، **(فيلقى الله وهو عليه غضبان، فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والإجارة والظهار واللعان وسائر الجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض، وهو لا يحتاج إلى شيء من ذلك قط في عمره لنفسه، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والمال والرئاسة، وقد دعاه الشيطان)** وسوّل له **(وما يشعر)** بذلك **(إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه، وليس يدري أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية. هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى، فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه، وهذا غرور من حيث العمل.**

فأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وربما طعن على المحدثين وقال: إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون) أي لا يدركون فقه الحديث، **(وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق وترك**

جلاله وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فتراه آمنا من الله مغتراً به متكلاً على أنه لا بدّ وأن يرحمه فإنه قوام دينه وأنه لو لم يشتغل بالفتاوي لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور ، وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوّفة والمرجوّة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى ، إذ قال تعالى : ﴿ فلولا نفرٌ مِن كلِّ فرقةٍ منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ [التوبة : ١٢٢] والذي يحصل به الانذار غير هذا العلم ، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات والمال في طريق الله آلة ، والبدن مركب ، وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله . فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك في أنه لو لم يكن

الفقه عن الله بإدراك جلاله وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فتراه آمناً من الله مغتراً به متكلاً على أنه لا بدّ وأن يرحمه فإنه قوام دينه) وحامل شرع نبيه (**وأنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مغرور ، وسبب غروره ما يسمع في الشرع من تعظيم الفقه** كالخبر السابق: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. **ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوّفة والمرجوّة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى، إذ قال الله تعالى** ﴿فلولا نفرٌ من كلّ فرقة منهم طائفة﴾ . أي: فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعة قليلة (﴿ليتفقهوا في الدين﴾) أي يتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها (﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾) أي وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة ارشاد القوم وإنذارهم ، (**والذي يحصل به الانذار**) والإرشاد (**هو غير هذا العلم**) الذي يشتغلون به ، (**فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات وحفظ الأبدان بالأموال أو بدفع القتل والجراحات والمال في طريق الله آلة، والبدن مركب**) والعبد مسافر ، (**وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله ، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله**) مبعداً عن حضرته . (**فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الرواية**) أي خياطتها . يقال: روى البعير يروى من باب رمى حمله فهو راوية للمبالغة، ثم أطلقت الرواية على كل دابة يستقي الماء عليها، ثم أطلقت على هذه الآلة من الجلود تحمل المياه فهو من مجاز المجاز ، (و) علم خرز (**الخف**) وهو

لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شيء ولا بسبيله ـ وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم ـ ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة، فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الاقران والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية، وهؤلاء هم سباع الأنس طبعهم الايذاء وهمهم السفه، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران، فكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل. وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا إذا اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً. بل جميع دقائق الجدل الفقه بدعة لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وفهم معانيها، وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية، فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام

ما يلبس في الرجل (**ولا يشك في أنه لو لم يكن لتعطل الحج**) لأن كلاً منها من لوازم المسافر في قطع البادية، (**ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شيء. وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم**) فلا نعيده هنا. (**ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات**) وهي المسائل المختلفة في المذاهب (**ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة والإلزام**) والتبكيت والتسجيل (**وإفحام الخصوم ودفع الحق لأجل الغلبة والمباهاة**) بين الأقران، (**فهو طول الليل والنهار في التفتيش**) والبحث (**عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية، فهؤلاء هم سباع الانس**) وذئاب الطمع (**طبعهم الإيذاء وهمهم السفه**)وغمص الحق، (**ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران**) ومجادلتهم، (**وكل علم لا يحتاجون إليه في المباهاة كعلم القلب وعلم سلوك الطريق إلى الله بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة، فإنهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ**) ويسخرون بالذي يشتغل بهويجهلونه، (**وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل، وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى ولكن زادوا**) عليهم (**إذا اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضاً، بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة**) أحدثت (**لم يعرفها السلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وفهم معانيها. وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة**) مع الخصوم

وإقامة سوى الجدل بها، فغرور هؤلاء أشد كثيراً وأقبح من غرور من قبلهم.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان، ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم، وما سموه أدلة عقائدهم وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها.

ثم هم فرقتان: ضالة ومحقة، فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنّة. والمحقة هي التي تدعو إلى السنة والغرور شامل لجميعهم.

أما الضالة: فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضاً، وإنما أتيت من حيث أنها لم تتهم رأيها ولم تحكم أولاً شروط الأدلة ومنهاجها، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة.

(والإفحام وإقامة سوق الجدل بها، فغرور هؤلاء أشد كثيراً واقبح من غرور من قبلهم).

(وفرقة أخرى) منهم: **(اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين)** من أصحاب المذاهب المخالفة **(وتتبع مناقضاتهم، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة)** على كثرتها **(واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم)** وإلزامهم، **(وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة)** أوردها ابن أبي الدم في كتاب له قد جمعه في ذلك، **(واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بايمان، ولا يصح إيمان إلا بان يتعلم جدلهم، وما سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لا يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم)** ولم يسلك على طريقتهم، **(ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها)** وحسنت طريقتها.

(ثم هم فرقتان: ضالة ومحقة، فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنّة، والمحقة هي التي تدعو إلى السنّة والغرور شامل لجميعهم).

(أما الضالة: فلغفلتها عن ضلالتها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة) أوردها أبو نصر التميمي في كتاب الأسماء **(يكفر بعضهم بعضاً، وإنما أتيت من حيث أنها لم تتهم رأيها ولم تحكم أوّلاً شروط الأدلة ومنهاجها، فرأى أحدهم الشبه دليلاً والدليل شبهة)** فمن ههنا كان سبب ضلالتهم.

وأما الفرقة المحقة؛ فإنما اغترارها من حيث أنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس بكامل الإيمان ولا مقرب عند الله.

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل، ولكنه لالتذاذه بالغلبة والإفحام ولذة الرئاسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأوّل، فإن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم عرضاً للخصومات

(**وأما الفرقة المحقة: فإنما اغترارها من حيث أنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن**) هذا قول أكثرهم، (**أو ليس بكامل الإيمان ولا مقرب عند الله تعالى.**

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم وأهملوا نفوسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة) وحجب عنهم التفقد لها، (**وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل**) لزعمه أنه يوصل إلى معرفة الله، (**ولكنه لا لتذاذه بالغلبة والإفحام ولذة الرئاسة وعز الانتماء إلى الذب عن دين الله عميت بصيرته**) فحجبت عن شهود ما وراء ذلك (**فلم يلتفت إلى القرون الأولى، وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق**) وذلك فيما رواه أحمد، والطحاوي، وابن أبي عاصم، والروياني، والضياء من حديث بريدة: «خير هذه الأمة القرن الذي بعثت أنا فيهم ثم الذي يلونهم» ورواه ابن أبي شيبة من مرسل عمرو بن شرحبيل «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». ورواه كذلك أحمد والشيخان والمزني وابن ماجه من حديث ابن مسعود. وروى مسلم من حديث أبي هريرة «خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». ورواه الطبراني من حديث سمرة، ومن حديث أبي برزة. ورواه الطبراني من حديث سعد بن تميم الكوفي «خير أمتي أنا وأقراني ثم القرن الثاني ثم القرن الثالث».

(**وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والأهواء فما جعلوا أعمالهم ودينهم عرضاً**

والمجادلات، وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته، وإذا رأوا مصراً على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر، بل قالوا: إن الحق هو الدعوة إلى السنّة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة، إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل».

وخرج رسول الله ﷺ يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقيء في وجهه حب الرمان ـ حمرة من الغضب ـ فقال: «ألهذا بعثتم أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه

للخصومات **والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم، بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة)** اضطرتهم إلى الكلام فيه **(وتوسموا مخايل قبول)** ومظانه **(فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته)** وينبه عليها، **(وإذا رأوا مصراً على ضلالته هجروه وأعرضوا عنه)** بالكلية **(وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة)** أي المخاصمة بشدة الإلحاح **(معه طول العمر، بل قالوا: إن الحق هو الدعوة إلى السنّة ومن السنّة ترك الجدل في الدعوة إلى السنّة. إذ روى أبو أمامة)** صدي بن عجلان **(الباهلي)** رضي الله عنه، **(عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»)** رواه الترمذي وابن ماجه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح وتقدم في كتاب العلم وفي آفات اللسان.

(وخرج رسول الله ﷺ يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقيء في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب فقال: «أبهذا بعثتم أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا») رواه نصر المقدسي في الحجة من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «أبهذا أمرتم أو لهذا خلقتم أن تضربوا كتاب الله بعضاً ببعض انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فانتهوا». وروي عن أنس أنه ﷺ سمع قوماً يتراجعون في القدر فقال: «أبهذا أمرتم أو بهذا عنيتم إنما هلك الذين من قبلكم بأشباه هذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض أمركم الله بأمر فاتبعوه ونهاكم عن شيء فانتهوا». هكذا رواه الدارقطني في الإفراد، والشيرازي في الألقاب، وابن عساكر، وروى الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ: «أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم أن لا تنازعوا فيه». وروى البزار، والطبراني في الأوسط، وابن الغريس من حديث أبي سعيد بلفظ: «أبهذا بعثتم أم بهذا أمرتم ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

فانتهوا ». فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال ثم أنهم رأوا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لالزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لأن ذلك يشوّش القلوب ويستخرج منها الاشكالات والشبه، ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم، وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام، ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم، وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم، فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجدله بل يزيده التعصب والخصومة تشدداً في بدعته؟ فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة، فكيف وقد نهيت عنه؟ وكيف أدعو إلى السنّة بترك السنة؟

(فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدل، ثم أنهم رأوا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى كافة أهل الملل) مع تباين أنواعها، **(فلم يذكر)** أنه كان **(يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وإيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه)** بل أمر فيه بأن يجادلهم فيه بالتي هي أحسن، **(لأن ذلك يشوّش القلوب ويستخرج منهم الإشكالات والشبه، ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم)** إن رسخت فيها، ولهذا السبب كان هجران أحمد بن حنبل رحمه الله للحرث المحاسبي كما تقدم في كتاب العلم، **(وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام)** للخصوم، **(ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم، وليس علينا من المجادلة أكثر مما كان على الصحابة)** رضوان الله عليهم **(مع اليهود والنصارى وأهل الملل)** المختلفة **(وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم)** والزاماتهم، **(فما لنا نضيع العمر)** سبهللا **(ولا نصرفه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا)** وهو يوم القيامة؟ **(ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجدله)** معه **(بل يزيده التعصب والخصومة تشدداً في بدعته، فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجاهدتها ومجادلتها لتترك الدنيا للآخرة أولى، هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة، فكيف وقد نهيت عنه؟ فكيف ادعو إلى السنة بترك السنة؟ فالأولى أن أتفقد نفسي**

فأولى أن أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بالوعظ والتذكير وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون، ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله؟ فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من

وأنظر من صفاتها) الباطنة فيها **(ما يبغضه الله تعالى وما يحبه لا تنزه عما يبغضه)** أي أتباعد عنه **(وأتمسك بما يحبه)** وأستوثق به.

(وفرقة أخرى منهم: اشتغلوا بالوعظ والتذكير وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء **والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين واالإخلاص والصدق ونظائره، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات)** قائمين بإزائها **(وهم منفكون عنها عند الله)** أي عارون، **(إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، وغرور هؤلاء أشد الغرورة لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب)** وهو مهلك **(ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، و)** أنهم **(ما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، و)** أنهم **(ما وقعوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون. ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله؟ فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين)** لحقوق الله، **(ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين)** على أفعال الله، **(ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والمال والجاه والأسباب)** الدنيوية، **(ويرى أنه من المخلصين**

المتكلمين على العز والجاه والمال والأسباب، ويرى انه من المخلصين وهو من المرائين، بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص في الوصف ويصف الرياء ويذكره وهو يرائي بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزهد في الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوّة رغبته فيها فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار، ويخوّف بالله تعالى وهو منه آمن، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس، ويقرب إلى الله تعالى وهو منه متباعد، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصاً، لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه لمات غماً وحسداً، ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه. فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم على التنبه والرجوع إلى السداد، لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمنفر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به، فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوّف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف. نعم إن ظن بنفسه أنه موصوف بهذه الصفات

وهو من المرائين) في أعماله **(بل يصف الإخلاص)** للناس **(فيترك الإخلاص في الوصف)** أي لا يتصف به بنفسه **(ويصف الرياء ويذكر)** وفي نسخة ويذكر الرياء ويصف، **(ويرائي بذكره ليعتقدوا فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى لدقائق الرياء ويصف الزهد في الدنيا)** والتخلي عنها **(لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها، فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار، ويخوّف بالله وهو منه آمن، ويذكر بالله وهو له ناس، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف، ويصرف الناس عن الخلق)** أي يحذر عن الخلطة **(وهو على الخلق أشد حرصاً)** بحيث **(لو منع عن مجلسه الذي يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت)** أي ضاقت حضيرته، **(ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه)** وأشكاله **(من أقبل الخلق عليه وصلحوا على يديه مات غماً وحسداً، ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه. فهؤلاء أعظم الناس غرة وأبعدهم من التنبيه والرجوع إلى السداد)** إلى طريق الحق، **(لأن المرغب في الأخلاق المحمودة والمنفر عن)** الأخلاق **(المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به، فبعد ذلك بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوّف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف. نعم إن ظن بنفسه أنه موصوف بهذه**

المحمودة يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة، وهو أن يدعي مثلاً حب الله فما الذي تركه من محاب نفسه لأجله؟ ويدعي الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف؟ ويدعي الزهد فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعي الانس بالله فمتى طابت له الخلوة ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلىء بالحلاوة إذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى. فهل رأيت محباً يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره؟ فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق بل بموثق من الله غليظ، والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون بل يطرحون في النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه، وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث أنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني فظنوا أنهم ما قدروا على وصف

الصفات المحمودة يمكن أن يدل على طريق الإمتحان والتجربة، وهو أن يدعي مثلاً حب الله فما الذي تركه من محاب الدنيا) ومـلاذها **(لأجله؟ ويدعى الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف؟ ويدعى الزهد)** في الدنيا **(فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى؟ ويدعى الأنس بالله فمتى طابت له الخلوة ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلىء بالحلاوة إذ أحدق به المريدون)** وهو يتكلم عليهم وهم له ناظرون، **(وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى، فهل رأيت محباً آنساً يستوحش من محبوبه ويستروح منه إلى غيره؟ فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها بالتزويق)** الظاهر، **(بل بموثق من الله غليظ)** أي شديد، **(والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون فإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون)** على رؤوس الأشهاد **(بل يطرحون في النار فتندلق أقتابهم)** أي مصارينهم **(فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه وينهون عن الشر ويأتونه)**. وذلك فيما أخرجه أحمد والشيخان من حديث أسامة بن زيد: « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار فتندلق أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه ». وقد تقدم قريباً ورواه ابن النجار من حديث أبي أمامة وفيه قال: « إني كنت أخالف ما كنت أنهاكم ». وقد تقدم أيضاً. **(وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث أنهم يصادفون في قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله، ثم قدروا مع**

ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها ، وذهب عليهم أن القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان ، والمعرفة للعلم وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة ، فلم يفارق آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف بل ربما زاد أمنه وقلّ خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف في قلبه حب الله تعالى ، وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به ، وإنما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب ، فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل ، فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف بحقائقها ، ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم ، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والأخبار ، ووعظ الحسن البصري وأمثاله رحمة الله عليهم .

وفرقة أخرى: منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة إلا من عصمه الله على الندور في بعض أطراف البلاد إن كان ولسنا نعرفه ،

ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني، فظنوا أنهم ما قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها إلا لاتصافهم بها) وقيامهم بإزائها ، **(وذهب عليهم أن القبول للكلام، والكلام للمعرفة وجريان اللسان، والمعرفة للتعلم وأن ذلك كله غير الإتصاف بتلك الصفة فلم يفارق آحاد المسلمين في الإتصاف بصفة الحب والخوف، بل في القدرة على الوصف، بل ربما زاد أمنه وقلّ خوفه وظهر إلى الخلق ميله وضعف في قلبه حب الله، وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض)** بحقيقته **(ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحـة والشفاء)** ، وغيره من المرضى لا يقدر به على وصف الصحة والشفاء **(وأسبابه ودرجاته وأصنافه، فهو لا يفارقهم في صفة المرض والإتصاف به، وإنما يفارقهم في الوصف والعلم بالطب، فظنه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل)** كما أن ظن الصحيح بحقيقة المرض أنه مريض ظاهر البطلان ، **(فكذلك العلم بالخوف والتوكل والحب والزهد وسائر هذه الصفات غير الإتصاف بحقائقها ، ومن التبس عليه وصف الحقائق بالإتصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب في كلامهم ، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن و)** وعظ **(الأخبار ، ووعظ الحسن البصري وأمثاله)** .

(وفرقة أخرى) منهم : **(عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعاظ أهل الزمان كافة)** في بلاد الإسلام **(إلا من عصمه الله على الندور)** والقلة **(في بعض أطراف البلاد إن**

فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للأغراب. وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر هممهم بالأسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن تكثر في مجالستهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فإن الأوّلين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم. وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا، لا سيما إذا كان الواعظ متزيناً بالثياب والخيل والمراكب فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلاً ويضل خلقاً كثيراً ولا يخفى وجه كونه مغروراً.

وفرقة أخرى: منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون

كان ولسنا نعرفه) أي لم يبلغنا خبره، **(فاشتغلوا)** في وعظهم **(بالطامات)** أي الدواهي والمصائب التي تطم على غيرها أي تزيد والمراد بها ما يؤدونه من الكلمات العقم **(والشطح)** وهو كلام يعبر عنه اللسان مقرون بالدعوى ولا يرتضيه أهل الطريق من قائله وإن كان محقاً **(وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل طلباً للأغراب)** على الحاضرين. **(وطائفة)** منهم **(شغفوا بطيارات النكت)** وهي المسائل الدقيقة التي تتعب الخواطر في استنباطها من مكانها **(وبتسجيع الألفاظ وتلفيقها)** بأن يوردوها موزونة مقفاه مجموعة من مواضع شتى، **(فأكثر هممهم في الأسجاع)** والأوزان **(والإستشهاد باشعار الوصال والفراق)** والرقيب والواشي، **(وغرضهم)** من كل ذلك **(أن تكثر في مجالسهم الزعقات)** أي الصيحات **(والتواجد ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الأنس)** وهم أشر من شياطين الجن **(ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم)** بأن لم يتصفوا بتلك الصفات التي يذكرونها **(فقد أصلحوا غيرهم)** بكلامهم **(وصححوا كلامهم ووعظهم)** إذ جعلوه على منهاج الكتاب والسنة. **(وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على)** ارتكاب **(المعاصي ورغبة في الدنيا)** وميلاً إلى أعراضها، **(لا سيما إذا كان الواعظ متزيناً بالثياب والخيل والمراكب، فإنه يشهد فرقه إلى قدمه)** وفي نسخة تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه **(بشدة حرصه على الدنيا، فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلح بل لا يصلح أصلاً ويضل خلقاً كثيراً)** بتغريره إياهم **(ولا يخفي وجه كونه مغروراً).**

(وفرقة أخرى) منهم: **(قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا)** منظوماً

الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر، وبعضهم في المحاريب، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض، وصار مغفوراً له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه. وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

وفرقة أخرى: استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الأسانيد الغريبة العالية، فهمّ أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان ولقد رأيت فلاناً ومعي من الإسناد ما ليس مع غيري، وغرورهم من وجوه.

منها: أنهم كحملة الأسفار فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنّة فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم.

ومنها: أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضاً ولا يعملون به.

ومنثوراً، **(فهم يحفظون الكلمات على وجوهها ويوردونها)** على الناس **(من غير إحاطة بمعانيها، فبعضهم يفعل ذلك على المنابر،** وبعضهم في المحاريب، **وبعضهم في الأسواق مع الجلساء، وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقية)** والعوام **(والجندية إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفوراً له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن)** ملابسة **(الآثام، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه)** في نجاته **(وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم) .**

(وفرقة أخرى: استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه) من الشيوخ **(وجمع الروايات الكثيرة)** للحديث الواحد **(وطلب الأسانيد الغريبة العالية)** وعلوها باعتبار قلة الوسائط في السند **(فهم أحدهم أن يدور في البلاد)** القريبة والبعيدة **(ويرى الشيوخ)** ويسمع منهم وعليهم **(ليقول: أنا أروي عن فلان)** بن فلان **(ولقد لقيت فلاناً)** في بلد كذا في سنة كذا **(ومعي من الأسانيد الغريبة العالية ما ليس مع غيري، وغرورهم من وجوه) .**

(منها: أنهم كحملة الأسفار فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم) ونقل الكلام من غير فهم معناه غير كاف.

(ومنها: أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها ولا يعملون به) .

ومنها: أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالي منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك.

ومنها: وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضاً لا يقومون بشرط السماع، فإن السماع بمجرده وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث إذ التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم، فالأوّل السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر، وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع، فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب، ثم يكتب اسم الصبي في السماع فإذا كبر تصدى ليسمع منه، والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط وربما يشتغل بحديث أو نسخ، والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه، وكل ذلك جهل وغرور. إذ الأصل في الحديث أن يسمعه من رسول الله ﷺ فيحفظه كما سمعه، ويرويه كما حفظه، فتكون الرواية عن

(**ومنها: أنهم يتركون العلم الذي هو فرض عين وهو معرفة معالجة**) أمراض (**القلب**) الخفية (**ويشتغلون بتكثير الأسانيد وطلب العالي منها ولا حاجة بهم إلى شيء من ذلك**) أي في معالجة أمراض القلب.

(**ومنها: وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضاً لا يقومون بشرط السماع، فإن السماع بمجرده وإن لم تكن له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول إلى إثبات الحديث أو التفهم بعد الإثبات والعمل بعد التفهم، فالأول السماع**) وهو وصول لفظ الحديث إلى سمعه، (**ثم التفهم**) لمعناه، (**ثم الحفظ**) إما في قلبه أو في كتابه أو فيهما جميعاً وهو أعلى، (**ثم العمل**) به، (**ثم النشر**) لمن تأهل له، وقد نقل نحو من ذلك من قول كل من السفيانيين كما تقدم ذلك في كتاب العلم. (**وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع**) وتركوا ما بعده من التفهم والحفظ والعمل، (**ثم**) مع اقتصارهم (**تركوا حقيقة السماع فترى الصبي**) أي الصغير (**يحضر في مجلس الشيخ**) بنفسه أو يحضره والده (**والحديث يقرأ**) بين يديه، (**والشيخ**) تارة (**ينام**) أي يغلب عليه النعاس (**والصبي يلعب**) كما هو من شأنه (**ثم يكتب**) في الطباق (**إسم الصبي في السماع**) أي يكتبه المستملي أو كاتب السماع، (**فإذا كبر**) الصبي بعد البلوغ وقبله أيضاً (**تصدى ليسمع منه، والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي**) أي لا يلقي اذنه لما يسمعه (**ولا يضبط**) في عقله ما يسمعه، (**وربما يشتغل بحديث**) مع غيره (**أو نسخ**) لما يسمعه أو لغيره، (**والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغيَّر ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه**) إما لثقل في سمعه أو لكثرة إزدحام أو لأمر آخر شغله، (**وكل ذلك جهل وغرور إذ الأصل في الحديث أن تسمعه من رسول الله ﷺ فتحفظه كما سمعته وترويه كما حفظته**) كما كان

الحفظ والحفظ عن السماع، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعته من الصحابة أو التابعين، وصار سماعك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله ﷺ، وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروي كما حفظت، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفاً ولو غيَّر غيرك منه حرفاً وأخطأ علمت خطأه.

ولحفظك طريقان:

أحدهما: أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار. كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال.

والثاني: أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيّره، فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك فيكون كتابك

عليه الصحابة رضوان الله عليهم، **(فتكون الرواية عن الحفظ والحفظ عن السماع، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله ﷺ سمعته)** ممن بعده **(من الصحابة أو التابعين)** أو أتباعهم، **(وصار سماعك من الراوي كسماع من يسمع من رسول الله ﷺ وهو أن تصغي لتحفظ، وتروي كما حفظت، وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفاً ولو غيَّر غيرك منه حرفاً وأخطأ علمت خطأه)**، فقد أجمع أئمة الحديث والفقه والأصول على قبول ناقل الخبر المحتج به بانفراده بأن يكون ضابطاً معدلاً يقظاً بأن لم يكن مغفلاً يميز الصواب من الخطأ كالنائم والساهي، إذ المتصف بها لا يحصل الركون إليه ولا تميل النفس إلى الإعتماد عليه، وأن يكون يحفظ أن يثبت ما سمعه في حفظه بحيث يبعد زواله عن القوة الحافظة ويتمكن من استحضاره متى شاء، إن حدث من حفظه أو من كتابه الذي يحتوي عليه بحيث يصونه عن طرق التزوير والتغيير إليه من حين سمع فيه إلى أن يؤدي، وهذه الشروط موجودة في كلام الشافعي في الرسالة صريحاً، إلا الأول فيؤخذ من قوله أن يكون غافلاً لما يحدث به لقول ابن حبان: هو أن يعقل من صناعة الحديث ما لا يرفع موقوفاً ولا يصل مرسلاً أو يصحف إسماً وهذا كناية عن اليقظة.

(ولحفظك طريقان):

(أحدهما: أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار. كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الأحوال).

(والثاني: أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل إليه يد من يغيره، ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره) كما وقع لابن وهب مع جاره، **(وإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظاً بقلبك أو**

مذكراً لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف، فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوّزت أن يكون ما فيه مغيراً أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجز لك أن تقول: سمعت هذا الكتاب فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو في كلمة، فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن أين تعلم انك سمعت ذلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ ما ليس لكَ به

بكتابتك فيكون كتابك مذكراً لما سمعته وتأمن فيه من التغيير) والإزالة (**والتحريف، فإذا لم تحفظ بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل**) بضم فسكون أي مبهم لا يدري حقيقته، (**وفارقت المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ**) الذي وقع السماع عليه للكتاب المذكور من غير تلك النسخة، (**وجوّزت أن يكون ما فيه مغيراً**) مزالاً عن جهة الصواب (**أو يفارق حرفاً منه للنسخة التي سمعتها**) بعينها، (**لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب**) على الشيخ الفلاني، (**فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل سمعت شيئاً يخالف ما فيه ولو فيه كلمة**) واحدة، (**فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها**) وقت الأداء، (**فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك، وقد قال الله عز وجل: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾**) ؟ وقال ابن الأثير في مقدمة كتابه جامع الأصول: الضبط عبارة عن احتياط في باب العلم وله طرفان: العلم عند السماع، والحفظ بعد العلم عند التكلم، حتى إذا سمع ولم يعلم لم يكن معتبراً كما لو سمع صياحاً لا معنى له، وإذا لم يفهم اللفظ بمعناه لم يكن ضبطاً، وإذا شك في حفظه بعد العلم والسماع لم يكن ضبطاً. قال: ثم الضبط نوعان: ظاهر وباطن، فالظاهر ضبط معناه من حيث اللفظ، والباطن ضبط معناه من حيث تعلق الحكم الشرعي به وهو الفقه، ومطلق الضبط الذي هو شرط في الراوي هو الضبط ظاهراً عند الأكثر لأنه يجوز نقل الخبر بالمعنى فتحلقه تهمة تبديل المعنى بروايته قبل الحفظ أو قبل العلم حين يسمع، ولهذا المعنى قلت الرواية عن أكثر الصحابة هذا المعنى. قال: وهذا الشرط وان كان على ما بينا فإن أصحاب الحديث قلما يعتبرونه في حق الطفل دون الغفل فإنه متى صح عندهم سماع الطفل وحضوره أجازوا روايته، والأول أحوط للدين وأولى اهـ.

قال السخاوي: وحاصله اشتراط كون سماعه عند التحمل تاماً فيخرج من سمع صوتاً غفلاً، وكونه حين التأدية عارفاً بمدلولات الألفاظ ولا انحصار له في الثاني عند الجمهور لاكتفائهم بضبط كتابه ولا في الأوّل عند المتأخرين خاصة لاعتدادهم من لا يفهم العربي أصلاً. وقوله: لتعذر هذا المعنى عند ذلك الصحابي نفسه لخوفه من عدم حفظه وعدم تمكنه في الإتيان بكل المعنى، وهذا منهم رضي الله عنهم تورع واحتياط، ولقد كان بعضهم تأخذه الرعدة إذا روي ويقول: أو نحو ذلك أو قريب من ذا وما أشبه ذلك.

علم﴾ [الإسراء : ٣٦] وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان : إنا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح ، وأقل شروط السماع أن يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ولو جازم أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ، ولو جاز ذلك لجاز أن

(وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان) وقبله وبعده : **(إنا سمعنا ما في هذا الكتاب إذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح)** إلا أن تكون لهم إجازة من المسمع تصحب السماع ، فحينئذ يجوز لهم أن يقولوا قولهم ذلك ، وما أحسن قول ابن الصلاح فيما وجد بخطه لمن سمع منه صحيح البخاري ، وأجزت له روايته عني مخصصاً بالإجازة نازلاً عن السمع لغفلة أو سقط عند السماع بسبب من الأسباب ، وكذا كان ابن رافع يتلفظ بالإجازة بعد السماع قائلاً : أجزت لكم روايته عني سماعاً وإجازة لما خالف أصل السماع إن خالف ، بل قال مفتي قرطبة أو عبدالله بن عتاب : أنه لا غنى عن الإجازة مع السماع الجواز السهو أو الغفلة أو الإشتباه على الطالب والشيخ معاً أو على أحدهما ، وكلامه إلى الوجوب أقرب ، ويتعين على كاتب الطبقة استحباباً التنبيه على ما وقع من إجازة المسمع منها .

وقال القاضي عياض : وقفت على تقييد سماع لبعض نبهاء الخراسانيين من أهل المشرق قال فيه : سمع هذا الجزء فلان وفلان على الشيخ أبي الفضل عبد العزيز بن إسماعيل البخاري ، وأجاز ما أغفل وصحف ولم يصغ إليه أن يروي عنه على الصحة . قال القاضي : وهذا منزع نبيل في الباب جداً .

(وأقل شروط السماع أن يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير) إلا أن المتأخرين صرحوا باغتفار الكلمة والكلمتين سواء خلتا أو احداهما بفهم الباقي أم لا . لأن فهم المعنى لا يشترط وسواء كان يعرفها أم لا . وظاهر هذا أنه بالنسبة إلى الأزمان المتأخرة ، وإلاَّ ففي غير موضع في كتاب النسائي يقول وذكر كلمة معناها كذا وكذا لكونه فيما يظهر لم يسمعها جيداً وعلّمها . وسأل صالح بن أحمد بن حنبل أباه فقال له : إن أدمج الشيخ أو القارىء لفظاً يسيرا فلم يسمعه السامع مع معرفته أنه كذا وكذا ترى له أن يرويه عنه ؟ فأجاب أرجو أنه يعفى عنه ذلك ولا يضيق الحال عنه ، قال صالح ، فقلت له : الكتاب قد طال عهده عن الانسان لا يعرف بعض حروفه فيخبره بعض أصحابه . قال : إن كان يعلم أنه كما في الكتاب فلا بأس به . هكذا رواه البيهقي في مناقب أحمد . **(ولو جاز أن يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ لجاز أن يكتب سماع المجنون والصبي في المهد ، ثم إذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه)** ، وسيأتي الكلام عليه بعد ذلك . **(ولو جاز**

يكتب سماع الجنين في البطن ، فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبي الذي يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ ، وإن استجرأ جاهل فقال : يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت فما ينفع هذا ؟ وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر إذ صار شيخاً على أن يقول : سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلساً يروي فيه حديث كان يقرع سمعي صوته ولا أدري ما هو ؟ فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح . ولو جاز إثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لأنهم سمع صوتاً غفلاً لجاز إثبات سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل ، ومن أين يؤخذ هذا وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله ﷺ : « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها » . وكيف يؤدي كما سمع من لا

ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن ، فإن كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لأنه لا يفهم) اللفظ والمعنى معاً **(ولا يحفظ ، فالصبي الذي يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم)** لأن الفهم تابع لسماع اللفظ ، **(فإن استجرأ جاهل فقال : يكتب سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن ، فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت ، فماذا ينفع هذا ؟ وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر إذا صار شيخاً أن يقول : سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلساً يروى فيه حديث كان يقرع سمعي صوته ، ولا أدري ما هو ! ولا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ، ولو جاز اثبات سماع التركي)** ومن في معناه **(الذي لا يفهم العربية لأنه سمع صوتاً غفلاً)** لا يهتدي لمعناه **(لجاز اثبات سماع صبي في المهد ، وذلك غاية الجهل . ومن أين يؤاخذ هذا وهل للسماع مستند إلاّ قول رسول الله ﷺ « نضر الله)** بضاد معجمة مشددة وتخفف . قال في البحر : وهو أفصح ، وقال الصدر المناوي : أكثر الشيوخ يشددون وأكثر أهل الأدب يخففون وهو من النضارة الحسن والرونق **(امرءاً)** أي رجلا ، والمعنى خصه الله بالبهجة والسرور أو حسن وجهه عند الناس وحاله بينهم وأوصله نضرة النعيم فهو يحتمل الخبر والدعاء ، وعلى كل فيحتمل كونه في الدنيا وكونه في الآخرة وكونه فيهما **(سمع مقالتي فوعاها)** أي حفظها وداوم على حفظها ولم ينسها **(فأداها)** إلى غيره **(كما سمعها »)** أي من غير زيـادة ولا نقص ، فمن زاد أو نقص فهو مغير لا مبلّغ ، فيكون الدعاء مصروفاً عنه . وقوله : كما سمعها إما حال من فاعل أداها أو مفعول مطلق ، وما موصولة أو مصدرية . قال العراقي : رواه أصحاب السنن ، وابن حبان من حديث زيد بن ثابت ، والترمذي ، وابن ماجه من حديث ابن مسعود . قال الترمذي : حديث صحيح ، وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس اهـ .

قلت : هذا الحديث روي عن عدة من الصحابة من طرق كثيرة وفي ألفاظ بعضها مغايرة

وزيادة ونقص، وقد ذكر أبو القاسم بن مندة في تذكرته فيما نقله الحافظ في تخريج أحاديث المختصر: أنه رواه عن النبي ﷺ أربعة وعشرون صحابياً ثم سرد أسماءهم اهـ.

والذي عرفت منهم الأربعة المذكورون في سياق العراقي، وأبو سعيد الخدري، وعائشة، وأبو هريرة، وعمير بن قتادة الليثي، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وربيعة بن عثمان التيمي، وأبو الدرداء، وأبو قرصافة، وجابر، وشيبة بن عثمان، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وبشير بن سعد الانصاري والد النعمان.

أما حديث زيد بن ثابت فلفظه «نضر الله امرأً سمع منّا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه وليس بفقيه» قال الحافظ في تخريج المختصر: هو صحيح أخرجه أحمد، والطيالسي، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، وابن أبي حاتم، والخطيب، وأبو نعيم. ويروى بلفظ «نضر الله عبداً سمع مقالتي فحملها إلى غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» الحديث. هكذا رواه أحمد، والطبراني، والبيهقي، والضياء من حديث زيد بن ثابت. ورواه ابن النجار بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة.

وأما حديث ابن مسعود فلفظه: «نضر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فربّ مبلغ أوعى من سامع» رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وابن حبان، والبيهقي. قال عبد الغني في الأدب: تذاكرت أنا والدارقطني طرق هذا الحديث فقال: هذا أصح شيء روى فيه. وقال ابن القطان فيه: سماك بن حرب يقبل التلقين. ورواه ابن النجار بلفظ «نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وعقلها فرب حامل فقه ليس بفقيه». ورواه الشيرازي في الألقاب من حديث أبي هريرة.

وأما حديث عائشة فلفظه «نضر الله عبداً سمع مقالتي هذه فحفظها ثم وعَاها فبلغها». رواه الخطيب في المتفق والمفترق.

وأما حديث جبير بن مطعم فلفظه «نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» الحديث. رواه أحمد، وابن ماجه والدارمي، وأبو يعلى، والطبراني، والحاكم، وابن جرير، والضياء عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رفعه. وفي رواية للطبراني «ثم وعاها ثم حفظها فرب حامل فقه غير فقيه» والباقي سواء. ورواه الطيالسي، وأبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، والطبراني من حديث زيد بن ثابت. ورواه البزار، والدارقطني من حديث أبي سعيد. ورواه الترمذي وابن ماجه والبيهقي في المعرفة من حديث ابن مسعود. ورواه ابن منده من حديث ربيعة بن عثمان التيمي. ورواه ابن النجار من حديث ابن عمر. ورواه الطبراني من حديث أبي الدرداء. ورواه الطبراني والضياء من حديث أبي قرصافة. ورواه الطبراني في الأوسط وابن جرير والضياء من حديث جابر. ورواه ابن قانع والطبراني من حديث شيبة بن عثمان.

وأما حديث أنس فلفظه «نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها عني فرب حامل فقه غير

يدري ما سمع ؟ فهذا أفحش أنواع الغرور . وقد بلي بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل

فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » رواه أحمد وابن ماجه والضياء . ورواه الخطيب من حديث أبي هريرة ، وهو عند ابن عساكر من حديث أنس « نضر الله من سمع قولي ثم لم يزد فيه » الحديث . ورواه الطبراني من حديث عمير بن قتادة الليثي . ورواه في الأوسط من حديث سعد . ورواه الرافعي في التاريخ من حديث ابن عمر ، وعند الدارقطني في الافراد وابن جرير وابن عساكر من حديث أنس « نضر الله عبداً سمع مقالتي ثم وعاها ثم حفظها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » الحديث . وعند الخطيب من حديث ابن عمر « نضر الله من سمع مقالتي فلم يزد فيها ورب حامل علم إلى من هو أوعى له منه » . وعند الطبراني وأبي نعيم في الحلية من حديث معاذ بن جبل « نضر الله عبداً سمعت كلامي فلم يزد فيه فرب حامل كلمة إلى من هو أوعى لها منه » الحديث .

وأما حديث النعمان بن بشير فلفظه « نضر الله وجه عبد سمع مقالتي فحملها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » الحديث . رواه الطبراني والحاكم .

وأما حديث والده بشير بن سعد فلفظه « رحم الله عبداً سمع مقالتي فحفظها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » الحديث . هكذا رواه الطبراني ، وابن قانع ، وأبو نعيم ، وابن عساكر من رواية النعمان بن بشير عن أبيه .

فصل

وانما خص مبلغ سننه بالدعاء لكونه سعى في نضارة العلم وتجديد السنة فجوزي بما يليق بحاله . وقد رأى بعض العلماء النبي ﷺ في النوم فقال له « أنت قلت نضر الله امرءاً الخ . قال : نعم ووجهه يتهلل أنا قلته وكرره ثلاثاً . قالوا : ولذلك لا يزال في وجوه المحدثين نضارة ببركة دعائه ، وفيه وجوب تبليغ العلم وهو الميثاق المأخوذ على العلماء ، وأنه يكون في آخر الزمان من له من الفهم والعلم ما ليس لمن تقدمه ، لكنه قليل بدلالة « رب » ذكره بعضهم ، ومنعه ابن جماعة بمنع دلالته على المدعى ، وأن حامل السنّة يجوز أن يؤخذ عنه وإن كان جاهلاً بمعناها فهو مأجور على نقلها وإن لم يفهمها .

وسياق المصنف ينازعه حيث قال : **(وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع ؟)** ثم قال : **(فهذا أفحش أنواع الغرور)** وفي الحديث تنبيه على أن أساس كل خير حسن الاستماع ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، وقد حقق العارفون أن كلام الله رسالة عن الله لعبده ومخاطبته لهم وهو البحر المشتمل على جواهر العلم المتضمن لظاهره وباطنه ، ولهذا قاموا بأدب سماعه ورعوه حق رعايته ، وقد تجلى لخلقه في كلامه لو كانوا يعلمون ، وكذا كلام رسوله ﷺ مما يتعين حسن الاستماع إليه لأنه لا ينطق عن الهوى . وقال الخطابي : فيه دليل على كراهة اختصار الحديث لمن ليس بمتناه في الفقه ، لأن فعله يقطع طريق الاستنباط على من بعده ممن هو أفقه منه . **(وقد بلي**

الزمان لم يجدوا شيوخاً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة، إلا أن للمحدثين في ذلك جاهاً وقبولاً فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم وتقل أيضاً أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط، بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجري وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم علماء الأصول بالفقه، وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه.

بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخاً إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة إلا أن للمحدثين في ذلك جاهاً وقبولاً فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع في حلقتهم فينقص جاههم وتقل أيضاً أحاديثهم التي سمعوها بهذا الشرط، بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة وإن كان لا يدري ما يجري)، كلا والله إنما توسعوا في ذلك إبقاء لسلسلة الإسناد التي هي خصيص هذه الامة المحمدية شرفاً لنبيها ﷺ، وقد أعرضوا في الأعصر المتأخرة في اجتماع الشروط المتقدمة في الراوي وضبطه، فلم يتقيدوا بها في علمهم لتعذر الوفاء بها، بل استقر الحال عندهم على اعتبار بعضها وأنه يكتفي في الرواية بالعاقل المسلم البالغ المستور الحال وفي الضبط بأن يثبت ما روي بخط ثقة مؤتمن من أصل موافق لأصل شيخه، وإليه ذهب البيهقي فإنه لما ذكر توسع من توسع في السماع من بعض محدثي زمانه الذين لا يحفظون حديثهم ولا يحسنون قراءته من كتبهم ولا يعرفون ما يقرأ عليهم بعد أن تكون القراءة من أصل سماعهم، وذلك لتدوين الأحاديث في الجوامع التي جمعها أئمة الحديث قال: فمن جاء اليوم بحديث واحد لا يوجد عند جميعهم لم يقبل منه أي لأنه لا يجوز أن يذهب على جميعهم، ومن جاء بحديث معروف عندهم فالذي يرويه لا ينفرد بروايته والحجة قائمة برواية غيره اهـ.

قال السخاوي: والحاصل أنه لما كان الغرض أوّلاً معرفة التعديل والتجريح وتفاوت المقامات في الحفظ والاتقان ليتوصل بذلك إلى التصحيح والتحسين والتضعيف حصل التشديد بمجموع تلك الصفات، ولما كان الغرض آخراً الاقتصار في التحصيل على مجرد وجود السلسلة السندية اكتفوا بما ترى، ولكن ذلك بالنظر إلى الغالب في الوصفين وإلاّ فقد يوجد في كل منهما من نمط الآخر وإن كان التساهل إلى هذا الحد في المتقدمين قليلاً، وقد حكى نحوه عن الحافظ أبي طاهر السلفي، وهو الذي استقر عليه العمل بل حصل فيه التوسع أيضاً إلى ما وراء هذا كقراءة غير الأمي في غير أصل مقابل بحيث كان ذلك وسيلة لإنكار غير واحد من المحدثين فضلاً عن غيرهم عليهم، ثم أن قول المصنف، وافتضحوا فاصطلحوا يعزى لمالك بن دينار بلفظ: اصطلحوا فافتضحوا. رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمته من طريق يسار عن جعفر عنه.

(وصحة السماع لا يعرف من قول المحدثين لأنه ليس من علمهم بل من علم أصول

فهذا غرور هؤلاء ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضاً مغرورين في اقتصارهم على النقل

الفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه) الا أن المحدثين شاركوهم في الكلام على هذه المسألة استطراداً لشدة احتياجهم إلى معرفتها . **(فهذا غرور هؤلاء)** ولنورد من كلامهم في مفردات هذه المسألة وفاقاً وخلافاً ونجعل ذلك في فصول :

فصل

اختلف في سماع الصغير في حال صغره حضوراً ثم روايته بعد البلوغ وكذا قبله على وجه وصفه البلقيني بالشذوذ ، فمنعه قوم فلم يقبلوا قبل البلوغ ، وقالوا : لأن الصبي مظنة عدم الضبط وهو وجه للشافعية ، وعليه أبو منصور محمد بن المنذر بن محمد المراكشي الشافعي ، فحكى ابن النجار في ترجمته من تاريخه : أنه كان يمتنع من الرواية أشد الامتناع ويقول : مشايخنا سمعوا وهم صغار لا يفهمون ، وكذلك مشايخهم . وأنا لا أرى الرواية عمن هذه سبيله ، ولذا كان ابن المبارك يتوقف في تحديث الصبي ، فروينا من طريق الحسن بن عرفة قال : قدم ابن المبارك البصرة فدخلت عليه وسألته أن يحدثني فأبى وقال : أنت الصبي فأتيت حماد بن زيد وقلت : يا أبا إسماعيل دخلت على ابن المبارك فأبى أن يحدثني ، فقال : يا جارية هاتي خفي وطيلساني وخرج معي يتوكأ على يدي حتى دخلنا على ابن المبارك فجلس معه على السرير وتحدثا ساعة ثم قال له حماد : لم لم تحدث هذا فقال : يا أبا إسماعيل هو صبي لا يفقه ما يحمله . فقال له حماد : يا أبا عبد الرحمن حدثه فلعله والله أن يكون آخر من يحدث عنك في الدنيا فحدثه وكان كذلك أخرجه الخطيب في التاريخ . ونحوه ما رواه البيهقي في الشعب من طريق أحمد بن عبد الله بن نجدة الحوطي قال : لما دخل بي أبي إلى أبي المغيرة ـ يعني عبد القدوس بن الحجاج الخولاني الحمصي ـ وكان قد سمع منه أبي وأخي من قبلي ، فلما رآني أبو المغيرة قال لأبي من هذا ؟ قال : ابني . قال : وما تريد به ؟ قال : يسمع منك . قال : ويفهم ؟ فقال لي أبي وكنا في مسجد : قُم فصلِّ ركعتين وارفع صوتك بالتكبير والاستفتاح والقراءة والتسبيح في الركوع والسجود والتشهد ففعلت . فقال لي أبو المغيرة : أحسنت ثم قال لي أبي : حدثنا . فقلت : حدثني أبي وأخي ، عن أبي المغيرة ، عن أم عبد الله ابنة خالد بن معدان ، عن أبيها قال : من حق الولد على والده أن يحسن أدبه وتعلمه فإذا بلغ اثنتي عشرة سنة فلا حق له ، وقد وجب حق الوالد على ولده فإذا هو أرضاه فليتخذه شريكاً وان لم يرضه فليتخذه عدوًّا فقال لي أبو المغيرة : اجلس بارك الله عليك ثم حدثني به وقال : قد أغناك الله عن أبيك وأخيك . قل حدثني أبو المغيرة ، وقد ردّ على القائلين بعدم قبول رواية الصبي بإجماع الأئمة على قبول حديث جماعة من صغار الصحابة كالحسن والحسين ، والعبادلة ابن جعفر وابن الزبير وابن عباس والنعمان بن بشير والسائب بن يزيد والمسور بن مخرمة وأنس ومسلمة بن مخلد وعمر بن أبي سلمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وأبي الطفيل وعائشة رضي الله عنهم من غير فرق بين ما تحملوه قبل البلوغ وبعده ، مع إحضار أهل العلم خلفاً وسلفاً من المحدثين وغيرهم صبيانهم مجالس أهل العلم ثم قبولهم من الصبيان ما حدثوا به من ذلك بعد البلوغ .

وقد رأى أبو نعيم الفضل بن دكين أحد شيوخ البخاري أبا جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي وهو يلعب مع الصبيان وقد طينوه وكان بينه وبين والده مودة فنظر إليه وقال: يا مطين قد آن لك أن تحضر مجلس السماع، وكان ذلك سبباً لتلقيبه مطيناً، ومات عبد الرزاق وللوبري ست سنين أو سبع، ثم روي عنه عامة كتبه ونقلها الناس عنه. وكذا سمع القاضي أبو عمر الهاشمي السنن لأبي داود عن اللؤلؤي وله خمس سنين واعتد الناس بسماعه وحملوه عنه، وقال يعقوب الدورقي: حدثنا أبو عاصم قال: ذهبت يا بني إلى ابن جريج وسنّه أقل من ثلاث سنين فحدثه، وكفى ببعض هذا متمسكاً في الرد فضلاً عن مجموعه، بل قيل: إن مجرد إحضار العلماء للصبيان يستلزم اعتدادهم بروايتهم بعد البلوغ، لكنه متعقب بأنه يمكن أن يكون الحضور لأجل التمرين والبركة، والله أعلم.

فصل

وأما اشتراط البلوغ في قبول الرواية فهو قول الجمهور، وقبل بعضـهم رواية الصبي المميز الموثوق به. وفي المسألة لأصحاب الشافعي وجهان قيده الرافعي وتبعه النووي بالمراهق مع وصف النووي للقول بالشذوذ. وقال الرافعي في موضع آخر: وفي الصبي بعد التمييز وجهان كما في رواية اخبار الرسول، واختصه النووي بالصبي المميز ولا تناقض، فمن قيد بالمراهق عني المميز والصحيح عدم قبول غير البالغ، وهو الذي حكاه النووي عن الاكثرين. وحكى عن شرح المهذب تبعاً للمتولي عن الجمهور قبول إخبار الصبي المميز فيما طريقه المشاهدة بخلاف ما طريقه النقل كافتاء ورواية ونحوه، وأما غير المميز فلا يقبل قطعاً.

فصل

في الوقت الذي يسمى فيه الصبي سامعاً:

اعلم انهم اختلفوا في تعيين وقت السماع فقيل: إذا كان ابن خمس سنين وهو قول الجمهور وعزاه عياض في الالماع لأهل الصنعة. قال ابن الصلاح: وعليه استقر عمل أهل الحديث المتأخرين فيكتبون لابن خمس فصاعداً السماع ولمن لم يبلغها حضر وأحضر، وقد بوّب البخاري في كتابه متى يصح سماع الصغير وأورد فيه قصة محمود بن الربيع وعقله المجة التي مجها رسول الله ﷺ وكان ابن خمـس إذ ذاك، وهكذا رواه الزبير عن الزهري عن محمود وقيل: كان ابن أربعة كما حكاه ابن عبد البر ومال إليه عياض وغيره، وقد حكى السلفي عن الأكثرين صحة سماع من بلغ أربع سنين لحديث محمود، ولكن بالنسبة لابن العربي خاصة. أما ابن العجمي؛ فإذا بلغ سبعاً وقيده الإمام أحمد فيما رواه الحاكم عن القطيعي قال: سمعت عبد الله بن أحمد يقول: سمعت أبي سئل عن سماع الصبي فقال: إن كان ابن عربي فابن سبع، وان كان ابن عجمي فإلى أن يفهم، وقيده بالسبع مطلقاً بعضهم ونحوه ما رواه السلفي عن الربيع بن سليمان أن الشافعي سئل الإجازة لولده وقيل: انه

ابن ست سنين. فقال: لا تجوز الإجازة لمثله حتى يتم له سبع سنين، وإذا كان هذا في الإجازة ففي السماع أولى، فاجتمع أربعة أقوال في الوقت الذي يسمى فيه الصغير سامعاً، والصواب المعتبر في صحة سماعه قول خامس: وهو أن يكون ممن يعقل فهم الخطاب ورد الجواب، فمن لم يكن كذلك لم يصح أن يكون سامعاً وإن كان ابن خمس سنين. وقال الاستاذ أبو إسحاق الاسفرايني: إذا بلغ الصبي المبلغ الذي يفهم اللفظ بسماعه صح سماعه، حتى أنه لو سمع كلمة أداها في الحال ثم كان مراعيا لما يقوله من تحديث أو لقراءة القارىء صح سماعه وان لم يفهم معناه، بل عزا النووي عدم التقدير للمحققين حيث قال: إن التقييد بالخمس أنكره المحققون وقالوا: إن الصواب أن يعتبر كل صبي بنفسه فقد يميز لدون خمس وقد يتجاوز الخمس ولا يميز. وقال ابن رشيد: والظاهر أنهم أرادوا بتحديد الخمس انها مظنة لذلك لا ان بلوغها شرط لا بدّ من تحققه، ومما يدل على أن المعتبر التمييز والفهم خاصة دون التقييد بسن أنه قيل للإمام أحمد: إن رجلاً يقول: إن سن التحمل خمس عشرة سنة لا في دونها. فقال: بئس ما قال، بل إذا عقل الحديث وضبطه صح تحمله وسماعه، ولو كان صبياً. كيف يعمل بوكيع وابن عيينة وغيرهما ممن سمع قبل هذا السن؟ فقد روي عن ابن عيينة انه قال: أتيت الزهري وفي أذني قرط ولي ذؤابة، فلما رآني جعل يقول: واسنينه واسنينه ههنا ههنا. ما رأيت طالب علم أصغر من هذا. رواه الخطيب في الكفاية، بل روي أيضاً من طريق أحمد بن النضر الهلالي قال: سمعت أبي يقول: كنت في مجلس ابن عيينة فنظر إلى صبي في المسجد فكان أهل المجلس تهاونوا به لصغر سنه، فقال سفيان: كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ثم قال: لو رأيتني ولي عشر سنين طولي خمسة أشبار ووجهي كالدينار وأنا كشعلة نار ثيابي صغار وأكمامي قصار وذيلي بمقدار ونعلي كآذان الفأر اختلف إلى علماء الأمصار مثل الزهري وعمرو بن دينار أجلس بينهم كالمسمار. محبرتي كالجوزة ومقلتي كالموزة وقلمي كاللوزة، فإذا دخلت المسجد قالوا: اوسعوا للشيخ الصغير اوسعوا للشيخ الصغير، ثم تبسم ابن عيينة وضحك واتصل تسلسله بالضحك والتبسم إلى الخطيب مع مقال في السند، لكن القصد منه صحيح.

فصل

ومما يستدل به لتمييز الصغير أن يعد من واحد إلى عشرين. ذكر شارح التنبيه وهو من منقول القاضي أبي الطيب الطبري: أو يحسن الوضوء والاستنجاء أو ما أشبهها أو بنحو ما اتفق لإمامنا الاعظم أبي حنيفة رحمة الله تعالى حين دخل على جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، فإنه بينا هو جالس في دهليزه ينتظر الإذن إذ خرج عليه صبي خماسي من الدار. قال أبو حنيفة: فأردت أن أسبر عقله فقلت: أين يضع الغريب الغائط من بلدكم يا غلام؟ قال: فالتفت إليَّ مسرعاً وقال: توق شطوط الأنهار ومساقط الثمار وأفنية المساجد وقوارع الطرق، وتوار خلف الجدار وأشل ثيابك وسم باسم الله وضعه حيث شئت، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا موسى بن جعفر. أوردها ابن النجار في تاريخه في ترجمة محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حمدان.

....

أو بتبيين الدينار من الدرهم كما روينا في ترجمة أبي الحسن محمد بن محمد بن عبيد الله بن أبي الرعد من تاريخ ابن النجار أيضاً انه قال: ولدت سنة اثنين وعشرين، وأوّل ما سمعت من الحسن ابن شهاب العكبري في سنة سبع وعشرين إلى رجب سنة ثمان وعشرين قال: وكان أصحاب الحديث لا يثبتون سماعي لصغري وأبي يحثهم إلى ذلك إلى أن أجمعوا أن يعطوني ديناراً ودرهماً فإن ميزت بينهما يثبتون سماعي حينئذ قال: فاعطوني الدينار والدرهم وقالوا: ميز بينهما. فنظرت وقلت: أما الدينار فمغربي فاستحسنوا فهمي وذكائي، وقالوا: أخبر بالعين والنقد.

وسئل موسى بن هارون الحمال متى يسمع للصبي؟ فقال: إذا فرق بين البقرة والحمار، وجنح إلى ذلك من المتأخرين الولي العراقي فكان يقول: أخبرني فلان، وأنا في الثالثة سامع فهم، ويحتج بتمييزه بين بعيره الذي كان يركبه حين رحل به أبوه أوّل ما طعن في السنة المذكورة وبين غيره وهو حجة، وكل هذه الادلة قد يشملها فهم الخطاب ورد الجواب فلا تنافي بينها.

وروى الخطيب في الكفاية قال: سمعت القاضي أبا محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاصبهاني يقول: حفظت القرآن ولي خمس سنين؟ وحملت إلى أبي بكر بن المقري لأسمع منه ولي أربع سنين، فقال بعض الحاضرين: لا تسمعوا له فيما قرىء فإنه صغير، فقال لي ابن المقرى: اقرأ سورة الكافرون فقرأتها. فقال: اقرأ سورة الكوثر فقرأتها. فقال لي غيره: اقرأ والمرسلات فقرأتها ولم أغلط فيها. فقال ابن المقري: اسمعوا له والعهدة عليّ، ثم قال: سمعت أبا صالح صاحب الحافظ أبي مسعود أحمد بن الفرات يقول: سمعت أبا مسعود يقول: اتعجب من انسان يقرأ والمرسلات عن ظهر قلب ولا يغلط فيها. قال الخطيب: ومن أظرف شيء سمعناه في حفظ الصغير ما أخبرنا أبو المعلى محمد بن الحسن الوراق حدثنا أبو بكر أحمد بن كامل القاضي، حدثني علي بن الحسن النجار، حدثنا الصاغاني، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: رأيت صبياً ابن أربع سنين حمل إلى المأمون قد قرأ القرآن ونظر في الرأي، غير أنه إذا جاع يبكي اهـ.

قال العراقي في النكت: والذي يغلب على الظنّ عدم صحتها، وأحمد بن كامل القاضي قال فيه الدارقطني كان متساهلاً ربما حدث من حفظه ما ليس عنده في كتابه. وقال صاحب الميزان: كان يعتمد على حفظه فيهم.

فصل

وهل المعتبر في التمييز والفهم القوّة أو العقل؟ الظاهر الأوّل: ويشهد له أن الحافظ ابن حجر سئل عمن لم يعرف بالعربية كلمة فأمر باثبات سماعه، وكذا حكاه ابن الجوزي كل عن كل عن ابن رافع وابن كثير وابن المحب، بل حكى ابن كثير أن المزني كان يحضر عنده من يفهم ومن لا يفهم يعني من الرجال ويكتب للكل السماع، وكأنهم حملوا قول ابن الصلاح ومتى لم يكن يعقل فهم الخطاب ورد الجواب ولم يصح، وإن كان ابن خمس بل ابن خمسين على انتفاء القوّة مع العقل أيضاً

....

بقي هنا شيء آخر وهو، أن الذهبي قال: إن الصغير إذا حضر ان أجيز له صح التحمل وإلاَّ فلا شيء إن كان المسمع حافظاً، فيكون تقريره لكتابة ابن الصغير بمنزلة الإذن منه في الرواية عنه.

فصل

ولا يضر في كل من التحمل والاداء النعاس الخفيف الذي لا يختل معه فهم الكلام لاسيما مع الفطن، فقد كان الحافظ المزني ربما ينعس في حال اسماعه ويغلط القارىء أو يزل فيبادر للرد عليه، وكذلك كان يتفق للحافظ ابن حجر في بعض المرات في أثناء دروسه كما نقله تلميذه السخاوي عن مشاهدته له، وإنما يرد من وتساهل في النوم الكثير الواقع مع عدم المبالاة به فلم يقبلوا روايته، وأما من كان فطناً متيقظاً فلا، وما يوجد في الطباق من التنبيه على نعاس السامع أو المستمع، فلعله فيمن جهل حاله أو علم بعدم الفهم. وأما امتناع ابن دقيق العيد من التحديث عن ابن المغير مع صحة سماعه عنه لكونه شك هل نعس حال السماع أم لا؟ فلورعـه فلقد كان من الورع بمكان ونحوه انه قيل لعلي بن الحسين بن شقيق المروزي أسمعته الكتاب الفلاني؟ فقال: نعم ولكن نهق حمار يوماً فاشتبه على حديث ولم أعرف تعيينه فتركت الكتّاب.

فصل

واختلفوا في النسخ حال السماع هل يرد به سماع الناسخ أم لا فمنعه أبو إسحاق الاسفرايني وإبراهيم الحربي وابن عدي في آخرين، لأن الاشتغال بالنسخ مخل بالسماع، وقد قيل: السمع للعين والاصغاء للأذن، وقيل: إنه لا يسمى سامعاً إنما يقال له جليس العالم. وحكي نحو ذلك عن أبي بكر الصبغي أحد أئمة الشافعية فإنه قال: لا نرد أيها المحدث ما سمعته على شيخك في حال نسخه أو أنت تنسخ بحدثنا ولا أخبرنا. واختاره المصنف كما يشير إليه سياقه السابق، وأجازه أبو حاتم الرازي، وابن المبارك. فقد روي عن أولها أنه كان ينسخ حال تحمله عند كل من عارم وعمرو بن مرزوق، وأما ثانيهما ففي حال تحديثه وذلك عنهما مقتض للجواز وتوسط بينهما ابن الصلاح فقال: إن قارن النسخ فهم وتمييز صح السماع وإلاَّ فهو صوت غفل، وسبقه لذلك سعد الخير الأنصاري فقال: إذا لم تمنع الكتابة عن فهم ما قرىء فالسماع صحيح اهـ.

قال السخاوي: والعمل على هذافقد كان ينسخ في مجلس سماعه ثم اسماعه، بل ويكتب على الفتاوي ويصنف ويردد ذلك على القارىء رداً مفيداً، وكذا بلغنا عن الحافظ المزني وقبله وبعده، وقد جرى للدارقطني ببغداد أن حضر في حداثته إملاء أي على إسماعيل الصفار فرآه بعض الحاضرين ينسخ فقال: لا يصح سماعك وأنت تنسخ، فاستظهر عليه الدارقطني بالصحة فقال له المنكر عليه: كم أملى حديثاً فسرد ما أملى وهو ثمانية عشر حديثا وساقها على الولاء متناً واسناداً ذكر ذلك الخطيب في تاريخه. ثم أن هذا كله فيما إذا وقع النسخ حال التحمل أو الأداء فلو وقع ذلك فيهما معاً كان أشد، ووراء هذا قول بعضهم الخلاف في المسألة لفظي فإن المرء لو بلغ الغاية

وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الأخبار، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ربما يكفيه الحديث الواحد عمره، كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روي قوله عليه الصلاة والسلام: «من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره، فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة، إذ قوام الدين بالكتاب والسنّة، وقوام الكتاب

من الحذق والفهم لا بدّ أن يخفي عليه بعض المسموع، وإنما العبرة بالأكثر، فمن لاحظ الاحتياط قال: ليس بسامع، ومن لاحظ التسامح والغلبة عده سامعاً. ورأى ان النسخ إن حجب فهو حجاب رقيق اهـ.

وفي تسميته لفظياً مع ذلك توقف، وكذا في قول من قال: ان السمع للعين نظر ويلتحق بالنسخ الصلاة، وقد كان الدارقطني يصلي في حال قراءة القرآن وربما يشير برد ما يخطىء فيه القارىء، كما اتفق له حيث قرأ القارىء عليه مسرة يسير بن دغلوف بالياء التحتية فقال له: نون والقلم ومرة عمرو بن سعيد فقال له: يا شعيب أصلواتك. وقد قال الرافعي في أماليه: كان شيخنا أبو الحسن الطالقاني ربما قرأ عليه الحديث وهو يصلي ويصغي إلى ما يقول القارىء وينبهه إذا زل يعني بالإشارة، وهل يلتحق بذلك قراءة قارئين فاكثر في آن واحد فيه نظر والله أعلم.

ولنرجع إلى شرح كلام المصنف قال: (**ولو سمعوا على الشرط**) المتقدم (**لكانوا مغرورين في اقتصارهم على الفعل**) المجرد (**وفي إفناء أعمارهم**) وتضييع أوقاتهم النفيسة (**في جمع الروايات**) المتفرقة (**والأسانيد**) المختلفة (**واعراضهم عن مهات الدين ومعرفة معاني الأخبار، بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة، وربما يكفيه الحديث الواحد عمره، كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلس السماع**) على بعض الشيوخ، (**فكان أول حديث روي قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**) رواه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه من حديث أبي هريرة وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسلاً. وقد تقدم، (**فقام**) من المجلس (**وقال: يكفيني هذا**) الحديث للعمل (**حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره، فهكذا يكون سماع الأكياس**) العقلاء (**الذين يحذرون الغرور**) والله الموفق.

(**وفرقة: اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا وزعموا أنهم قد غفر لهم**) بسبب اشتغالهم بتلك العلوم، (**وأنهم من علماء الأمة**) وأحبارها، (**إذ قوام الدين بالكتاب والسنّة، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو**) فمن لم يعرف فيهما لم يعرف

والسنة بعلم اللغة والنحو ، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ، ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ، ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بدّ من تعلمها وتصحيحها ، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية ، وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند ، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللغة علم الغريبين في الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب ، فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه ، ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضاً مغرور ، بل مثاله مثال من ضيّع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو

الكتاب والسنّة ، (**فأفنى هؤلاء أعمارهم**) النفيسة (**في**) معرفة (**دقائق النحو**) وغرائبه (**وفي**) معرفة (**صناعة الشعر وفي**) معرفة (**غرائب اللغة**) وسبب إفناء الأعمار فيها أن تلك العلوم لا تستقل بأنفسها في معرفتها ، بل لا بد معها من علوم أخر هي متوقفة عليها ، فعلم النحو يستدعي علم التصريف ، وعلم جواهر الحروف ، وعلم الإشتقاق ، وعلم الخط وغيرها ، وكذا علم اللغة يتوقف عليها . وعلم صناعة الشعر يزيد عليها بمعرفة علم العروض ، وعلم القوافي ، وعلم العلل والزحاف وفي كل من ذلك تصانيف مستقلة ، فلا يكاد المشتغل ببعضها أن يفرغ إلى غيره فيفني العمر وهو لم يكمل في تلك العلوم . (**ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط**) العربي (**وتصحيح الحروف وتحسينها**) وتحصيلها بأوزانها المذكورة عند أصحاب الفن ، (**ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها وتصحيحها**) فأفنوا أعمارهم على تحصيل ذلك وتركوا الإشتغال بالمهم من الدين ، وساعدهم مع ذلك رغبة أهل الدنيا إليهم فراجت صنعتهم ، (**ولو عقل**) المشتغل بعلم الكتابة (**لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ**) ويوصل إلى المراد (**كيفما كان والباقي زيادة على**) قدر (**الكفاية**) ولذلك قالوا : خير العلم ما درى وخير الخط ما قرى ، (**وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك ، والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عمره في معرفة لغة الترك والهند**) وغيرهما ، (**وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفي من اللغة علم الغريبين في الحديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب**) من غير تعمق في كل منها ، (**فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه**) والمضيع عمره فيه مضيع في فضول ، (**ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة**) وفي نسخة المعاني الشرعية (**والعمل بها**) أي بمقتضاها (**فهو أيضاً مغرور ، بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور إذا المقصد من**

غرور إذ المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء وضيّع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين، فكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءات والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين، فاللب الأقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل وهو كالقشر للعمل وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية وهو قشر بطريق الإضافة إلى المعرفة، ولب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف، والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ورجا عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات. فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له ومنازل بالإضافة إليه، وكل

الحروف المعاني) المفهومة منها، **(وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين)** وهو الدواء المركب من الخل والعسل **(ليزول ما به من الصفراء)** العارضة على الطبيعة **(فضيع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين)** فإن القدح إنما هو ظرف للشرب وليس هو المقصود بالذات، **(وكذلك غرور أهل النحو واللغة والأدب)** والشعر **(والقراءة والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا إليها أكثر مما يحتاج إليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين)** في حقه، **(فاللب الأقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل وهو كالقشر للعمل وكاللب بالأضافة إلى ما فوقه، وسماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية وهو قشر بالإضافة إلى المعرفة، ولب بالإضافة إلى فوقها وما فوقه هو العلم باللغة والنحو، وفوق ذلك وهو القشر الأعلى العلم بمخارج الحروف، والقانعون بهذه الدرجات)** ما عدا اللب الأقصى **(كلهم مغرورون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل)** يرحل منها، **(فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته)** الضرورية، **(فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل وطالب بحقيقة العمل قلبه وجوراحه، وزجا)** أي ساق **(عمره في حمل النفس على تصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات)** العارضة لها. **(فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه وقشور له)** وهو اللب، **(ومنازل بالإضافة إليه،**

من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد. وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها. فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث أنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع، لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محموداً، ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى. والثاني محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى، فمن اتخذ القشر مقصوداً وعرج عليه فقد اغتر به.

وفرقة أخرى: عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساءوا تأويل الألفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطأوا فيها. وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه، والخطأ في الفتوى مما يكثر ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم فنشير إلى أمثلة. فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برىء الزوج بينه وبين الله تعالى وذلك خطأ، بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر إلى

وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب) في سعيه **(سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد، وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع)** إذ يكون الوصول إليها بها **(اغتر بها أربابها، فأما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها)** المشتغلون بها **(أنهم ينالون المغفرة)** والنجاة **(بها من حيث أنها علوم، فكان الغرور فيها أقل من الغرور بعلوم الشرع لأن العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة، كما يشارك اللب القشر في كونه محموداً، ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهي، والثاني محمود)** لا لذاته بل **(للوصول به إلى المقصود الأقصى، فمن اتخذ القشر مقصوداً وعرج عليه فقد اغتربه)** والله الموفق.

(وفرقة أخرى: عظم غرورهم في فن الفقه وظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه) الذي حكم به **(في مجلس القضاء، فوضعوا)** أنواع **(الحيل في دفع الحقوق)** الواجبة **(وأساؤا تأويل الألفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطأوا فيها، وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتاوى مما يكثر)** في طائفة الفقهاء، **(ولكن هذا نوع عمّ الكافة إلا الأكياس منهم، ونشير إلى أمثلة له فمن ذلك: فتواهم بأن المرأة مهما أبرأت من الصداق)** المتأخر على ذمة الزوج **(برىء الزوج بينه وبين الله، وذلك خطأ. بل الزوج قد يسيء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق فتضطر)** حينئذ **(إلى طلب**

طلب الخلاص فتبرىء الزوج لتتخلص منه ، فهو ابراء لا على طيبة نفس وقد قال تعالى : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ [النساء : ٤] وطيبة النفس غير طيبة القلب فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه ، وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونها ، فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه الباطن . نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ، ولكن مهما تصدى القاضي الأكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيل الإبراء ، ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه ، فلو طلب من الإنسان مالاً على ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه . وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال وردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلام البدن ،لسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار

الخلاص) منه لراحتها ، **(فتبرىء الزوج)** عن حقها **(لتتخلص منه فهو إبراء)** في ظاهر الشرع لكن **(لا على طيبة نفس، وقد قال تعالى: ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه)** أي من الصداق **(فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وطيبة النفس غير طيبة القلب فقد يريد الإنسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فإنه يريد الحجامة بقلبه)** لما لها من النفع للبدن **(ولكن تكرهها نفسه)** لما يحصل لها من ألم التشريط ، **(إنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لا عن ضرورة تقابله)** أي الإبراء ، وفي نسخة تقابلها أي المرأة **(حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونها ، فهذه مصادرة على التحقيق بأكراه الباطن . نعم القاضي)** الأصغر **(في الدنيا لا يطلع على القلوب والأغراض)** الباطنة ، **(فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر)** أي فيما يظهر له **(والإكراه الباطن ليس يطلع عليه الخلق ، ولكن مهما تصدى القاضي الأكبر)** يوم عرض الأعمال **(في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوباً ولا مفيداً في تحصيل الإبراء ، ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال الإنسان إلا بطيب نفس منه، فلو طلب من إنسان مالاً على ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة)** حيث لا يكون الناس **(حتى لا يعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال فردد نفسه فاختار أهون الألمين وهو ألم التسلم فسلمه ، فلا فرق بينه وبين المصادرة إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال)** وقد

أهون الألمين، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله: وهبت لأنه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب، وكذلك من يعطي اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه، وكذلك كل ما لا يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام. ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال ـ بعد أن غفر له ـ يا رب كيف لي بخصمي؟ فأمر بالاستحلال منه وكان ميتاً فأمر بندائه في صخرة بيت المقدس فنادى: يا أوريا فأجابه: لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فماذا تريد؟ فقال: إني أسأت إليك في أمر فهبه لي. قال: قد فعلت ذلك يا نبي الله، فانصرف وقد ركن إلى ذلك فقال له جبريل عليه السلام: هل ذكرت له ما فعلت؟ قال: لا. قال: فارجع فبين له، فرجع فناداه. فقال: لبيك يا نبي الله. فقال: إني أذنبت إليك ذنباً، قال: ألم أهبه لك؟ قال: ألا تسألني ما ذلك الذنب؟ قال: ما هو يا نبي الله؟ قال: كذا وكذا، وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب، فقال: يا أوريا ألا تجيبني؟ قال: يا نبي الله ما هكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله، فاستقبل

صادره مصادرة (**فيختار أهون الألمين، والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط**) ومنه قولهم: ما أخذ بسيف المحاياة فهو حرام، (**ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى، فإن الباطن**) إنما هو بالإضافة إلينا، وأما (**عند الله تعالى**) فهو (**ظاهر**) لا يخفي عليه شيء في السماء والأرض، (**وإنما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت**) لك (**لأنه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب، وكذلك من يعطي اتقاء لشر لسانه**) وفحشه (**أو لشر سعايته**) عند الظلمة (**فهو حرام عليه، وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام. ألا ترى إلى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له: يا رب كيف لي بخصمي؟ فأمر بالإستحلال منه وكان ميتاً**) قد مات شهيداً في غزو (**فأمر بندائه في صخرة بيت المقدس فنادى: يا أوريا، فأجابه لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فما تريد؟ قال إني أسأت إليك في أمر فهبه لي. قال: قد فعلت ذلك يا نبي الله. فانصرف وقد ركن إلى ذلك**) أي مال إليه واعتمده، (**فقال له جبريل عليه السلام: هل ذكرت له ما فعلت**) من الإساءة؟ (**قال: لا قال: فارجع فبيّن له**) إساءتك، (**فرجع فناداه**) يا أوريا (**فقال: لبيك يا نبي الله. فقال: إني أذنبت إليك ذنباً. قال: ألم أهبه لك؟ قال: أولا تسألني ما ذلك الذنب؟ قال: ما هو يا نبي الله؟ قال: كذا وكذا فذكر شأن المرأة**) كما تقدمت القصة (**وانقطع الجواب، فقال**) داود (**يا أوريا ألا تجيبني؟ قال: يا نبي الله ما هكذا تفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدي الله، فاستقبل داود الصراخ والبكاء من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه في القيامة**).

أخرج الحكيم في النوادر وابن أبي حاتم بسند ضعيف من حديث أنس: لما أصاب داود ما أصاب مكث أربعين ليلة ساجداً حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه، وأكلت الأرض جبينه، فجاءه جبريل بعد ذلك فقال: يا داود إن الله قد غفر لك. قال داود: عرفنا أن الله عدل لا يميل فكيف بفلان إذا جاء يوم القيامة فقال: يا رب دمي الذي عند داود فقال جبريل: ما سألت ربك عن ذلك، فإن شئت لأفعلن. فقال: نعم فعرج جبريل وسجد داود فمكث ما شاء الله ثم نـزل فقال: يا داود قد سألت الله عن الذي أرسلتني فيه. فقال: قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول: هب لي دمك الذي عند داود فيقول: هو لك يا رب فيقول: فإن لك في الجنة ما شئت وما اشتهيت عوضاً.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن الحسن في قوله: ﴿وخرَّ راكعاً وأناب﴾ قال: سجد أربعين ليلة حتى أوحى الله إليه قد غفرت لك. قال: يا رب كيف تغفر لي وأنت حكم عدل لا تظلم أحداً؟ قال: إني أقضيك له ثم استوهبه دمك ثم أثيبه الجنة حتى يرضى. قال: الآن طابت نفسي وعلمت أن قد غفرت لي.

وأخرج أحمد في الزهد، عن أبي عمران الجوني قال: سجد داود أربعين ليلة ويوماً لا يرفع رأسه إلا إلى فريضة حتى يبس وقرحت جبهته وكفاه وركبتاه، فأتاه ملك فقال: يا داود إني رسول الله إليك، وأنه يقول لك: ارفع رأسك فقد غفرت لك. فقال: كيف يا رب وأنت حكم عدل وأنت ديان يوم الدين لا يجوز منك ظلم، كيف تغفر لي ظلمة الرجل؟ فترك ما شاء الله ثم أتاه ملك آخر فقال: يا داود إني رسول ربك إليك وأنه يقول لك إنك تأتيني يوم القيامة أنت وابن صوريا تختصمان إليَّ فاقضي له عليك ثم أسألها إياه فيهبها لي ثم أعطيه من الجنة حتى يرضى.

وأخرج ابن جرير والحاكم عن السدي قال: مكث داود أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة وهو يبكي حتى نبت العشب من دموع عينيه، فأوحى الله إليه يا داود أرفع رأسك فقد غفرت لك. قال: يا رب كيف أعلم أنك غفرت لي وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء إذا جاء أورياً يوم القيامة أخذ رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دماً في قتلى عرشك يقول: رب سل هذا فيما قتلني؟ فأوحى الله إليه إذا كان ذلك دعوت أوريا فاستوهب منه فيهبك لي فأثيبه بذلك الجنة. قال: يا رب الآن علمت أنك غفرت لي.

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن مسعود قال: لما سجد داود قيل له: ارفع رأسك فقد غفرت لك. قال: يا رب كيف تكون هذه المغفرة وأنت قضاء بالحق ولست ظلاماً للعبيد رجل ظلمته عصيته قتلته؟ فأوحى الله إليه بلى يا داود تجتمعان عندي فاقضي له عليك، فإذا برز الحق عليك استوهبته منه فوهب لي وأرضيه من قبلي وأدخله الجنة: فرفع داود رأسه وطابت نفسه وقال: نعم يا رب هكذا تكون المغفرة لي.

داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه في الآخرة. فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد، وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خلى الإنسان واختياره حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه لا أن تضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل والالزام.

ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لإسقاط الزكاة. فالفقيه يقول: سقطت الزكاة فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه فقد صدق فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال، وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجته إلى البيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل، فإن البخل مهلك. قال ﷺ: «ثلاث مهلكات شح مطاع» وإنما صار شحه مطاعاً بما فعله وقبله لم يكن مطاعاً. فقد تمّ هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وحبه للمال وحرصه عليه، وأنه بلغ من حرصه على المال أنه استنبط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر

(فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيب قلب لا تفيد وأن طيبة القلب لا تحصل إلا بالمعرفة، فكذلك طيبة القلب لا تكون في الإبراء والهبة وغيرهما إلا إذا خلى الإنسان واختياره حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه لا أن تضطر بواعثه إلى الحركة بالحيل **والإلزام، ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته وإتهابه مالها لإسقاط الزكاة)** كما أفتى به أبو يوسف، **(فالفقيه يقول: سقطت الزكاة)** بهذه الحيلة **(فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي قد سقطت عنه فقد صدق، فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال، وإن ظن أنه يسلم في القيامة ويكون كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجته إلى** البيع لا على هذا القصد، فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة) وقد تقدمت الإشارة إليه في كتاب العلم وزاد المصنف هنا فقال: **(فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فإن البخل مهلك)** كما ورد به الخبر **(قال ﷺ: « ثلاث مهلكات شح مطاع)** وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » وقد تقدم مراراً **(وإنما صار شحه مطاعاً بما فعله)** من الحيلة **(وقبله لم يكن مطاعاً)** فمجرد الشح إذا كان موجوداً في النفس لا يكون مهلكاً لأنه من لوازم النفس مستمد من أصل جبلتها الترابي، وفي التراب قبض وإمساك، وإنما يكون مهلكاً إذا كان مطاعاً أي ينقاد له، **(فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه فإن الله مطلع على قلبه وحبه للمال وحرصه عليه، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل**

الحاجة، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأماني والفضول والشهوات وبين الحاجات، بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة، فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته. ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات، والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول.

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل، والمغرورون منهم فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الصلاة، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن، ومنهم في الحج، ومنهم في الغزو، ومنهم في الزهد، وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً عن غرور إلا الأكياس وقليل ما هم.

فمنهم فرقة: أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء

والغرور، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح) المتقدم ذكره في كتاب الحلال والحرام (**للفقيه وغيره بقدر الحاجة الداعية لهم، والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأماني)** النفسية وهي التي تتمناها نفوسهم (**والفضول والشهوات وبين الحاجات)** الضرورية، (**بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة وهو محض الغرور، بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة وسلوك طريق الله، فكل ما يتناوله العبد للإستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته)**، فهم يأخذون من مال المصالح ويصرفونه في شهوات نفوسهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً. (**ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات، والغرض التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الإستيعاب والإستقصاء فإن ذلك يطول)** والبصير الكامل يكفيه ما ذكرنا فليقس عليه ما عداه، والله الموفق.

(**الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل: والمغرورون منهم فرق كثيرة، فمنهم من غروره في الصلاة ومنهم في تلاوة القرآن، ومنهم في الحج، ومنهم في الغزو، ومنهم في الزهد، وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خالياً عن نوع غرور إلا الأكياس وقليل ما هم.**

(**فمنهم فرقة أهملوا الفرائض)**: أي تركوها (**واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى)** حدّ (**العدوان والسرف كالذي يغلب عليه الوسوسة**

فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة، إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة. وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام، ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وذلك منهي عنه، وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت، وإن لم يفته فهو مغرور ولإسرافه في الماء، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سني ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك.

وفرقة أخرى: غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوّش عليه حتى تفوته الجماعة وتخرج الصلاة عن الوقت وإن تم تكبيره

في الوضوء فيبالغ فيه) ويكرر غسل الأعضاء (و) ربما (**لا يرتضي الماء المحكوم بطهارتـه في فتوى الشرع ويقدر الأحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الإحتمالات القريبة بعيدة، وربما أكل الحرام المحض، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة**) رضوان الله عليهم، (**إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء من جرة نصرانية**) كما أورده البخاري في أول صحيحه وتقدم في كتاب سر الطهارة (**مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام**) كما هو معروف من سيرته، (**ثم في هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صب الماء، وذلك منهي عنه**) في أخبار كثيرة منها ما رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث أبي بن كعب أن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان الحديث، وقد تقدم في كتاب عجائب القلب (**وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها عن وقتها أيضاً فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت**) فإنه رضوان الله، (**وإن لم يفته فهو مغرورة لإسرافه في الماء وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء**) وأنفسها (**فيما له مندوحة عنه إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطرق**) شتى، (**ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك**).

(**وفرقة أخرى: غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوّش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت**) باشتغاله بالنية،

فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه، يفعلون ذلك في أول الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم.

وفرقة أخرى: تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره. وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام.

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى، وهو في

(وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير) مع رفع الصوت **(لشدة الإحتياط فيه يفعلون ذلك في أول الصلاة، ثم يغفلون في جميع الصلاة ولا يحضرون قلوبهم)** بل يسرعون في القراءة ويخففون الركوع والسجود، وكل ذلك مشاهد خصوصاً في هذه الأزمنة المتأخرة **(ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والإحتياط فهم على خير عند ربهم)** وليس كما ظنوا.

(وفرقة أخرى: تغلب عليها الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات) التي في الفاتحة وهي أربعة عشر تشديدة **(والفرق بين)** مخرجي **(الضاد والظاء)** ويتحمل المشقة في ذلك **(وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلاً عن معنى القرآن)** الذي هو المقصود بالذات **(و)** عن **(الإتعاظ به و)** عن **(صرف الفهم إلى أسراره، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام)** أي في محاوراتهم، ولذا لم ينقل عن أحد من السلف هذا التشدد.

(ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى، وهو في ذلك

ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل.

وفرقة أخرى: اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذا، وربما يختمونه في اليوم والليلة مرة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه.

ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتاباً وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور. نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى

غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل) فهكذا من فعل بحضرة ملك الملوك جل جلاله ولم يراع حرمة الحضرة في أداء رسالته فإنه يستحق التأديب.

(وفرقة أخرى: اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذاً) أي يسرعون فيه، **(وربما يختمون في اليوم والليلة مرة، ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني)** وشهوات النفوس، **(إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الإعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه)** أي عن فهم معانيه.

(ومثاله مثال عبد كتب إليه مالكه كتاباً وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه) فقط **(فهو مستمر على خلاف ما أمر به مولاه إلا أنه مكرر للكتاب بنغمته وصوته كل يوم مائة مرة فهو مستحق** للعقوبة، ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور. نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والإنتفاع بمعانيه) على قدر فهمه، **(وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به)** في نفسه **(ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة**

وسماع كلامه، وإنما هي لذته في صوته ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرف أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته.

وفرقة أخرى: اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور.

وفرقة أخرى: اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام

مناجاة الله وسماع كلامه، **وإنما هي لذته في صوته)** لا غير **(ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لألتذ به ذلك الإلتذاذ)** بعينه، **(فهو مغرور إذا لم يتفقد قلبه فيعرفه أن لذته بكلام الله من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته)**.

(وفرقة منهم: اغتروا بالصوم) الكثير **(وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة)** كالإثنين والجمعة وكعشر ذي الحجة وعشر المحرم ويوم ليلة مولده ﷺ ويوم ليلة المعراج ويوم ليلة النصف من شعبان **(وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة)** والكذب **(وخواطرهم عن الرياء)** وحب المحمدة، **(وبطونهم عن أكل الحرام)** أو الشبهة **(عند الإفطار)** وفي السحور، **(وألسنتهم من الهذيان)** واللغو **(بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه، وذلك غاية الغرور)**.

(وفرقة أخرى: اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم) التي ترتبت على ذمته ومن غير توبة عن المعاصي **(و)** من غير **(قضاء الديون)** التي عليه **(و)** من غير **(استرضاء الوالدين)** إن كانا موجودين **(و)** من غير **(طلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام)** عن ذمته **(ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن)** كسلامنهم أو لعذر عدم الماء **(ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم)** ولا يرجعون عن الطريق، والمراد بالظلمة أمراء البلاد الذين يمرون عليهم وفي معناهم الأعراب الصادون عن الطريق إلا بدفع شيء من المال على كل إنسان، فحكمه حكم المكس وقد تقدم الكلام عليه في كتاب الحج مفصلاً **(ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام)** المنهي عنها، **(وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق**

وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء ، فيعصي الله تعالى في كسب الحرام أولاً وفي إنفاقه بالرياء ثانياً ، فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ، ثم يحضر البيت بقلب ملوّث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور .

وفرقة أخرى: أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرئاسة والعزة ، وإذا باشر منكراً ورد عليه غضب وقال: أنا المحتسب فكيف تنكر عليّ؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه ، وإنما غرضه الرياء والرئاسة ، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال: لم آخذ حقي وزوحمت على مرتبتي ، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال انه إمام المسجد ، فلو تقدم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه .

وهو يطلب به السمعة والرياء) بين نظرائه ، **(فيعصي الله في كسب الحرام أولاً ، وفي إنفاقه عليهم بالرياء ثانياً ، فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ، ثم يحضر البيت)** المكرم **(بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيره)** الظاهر والباطن **(على حضوره)** البيت ، **(وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه وهو مغرور)** قد خدع به .

(وفرقة أخرى: أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فترى واحداً منهم **(ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، فإذا أمرهم بالخير عنف)** وشدد **(وطلب الرئاسة والعزة ، وإذا باشر)** بنفسه **(منكراً فرد عليه غضب وقال: أنا المحتسب فكيف تنكر علي)** وهو غرور ، **(وقد يجمع الناس إلى مسجده)** أو زاويته للصلاة والذكر ، **(ومن تأخر عنه أغلظ عليه القول وإنما غرضه)** في ذلك **(الرياء)** والسمعة **(والرئاسة)** على الناس ولو **(قام بتعهد المسجد غيره لحرد)** أي غضب وحقد ، **(بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن)** حسبة **(لله)** تعالى ، **(ولو جاء غيره وأذَّن في وقت غيبته قامت عليه القيامة)** وتبربر **(وقال: لم آخذ حقي وزوحمت على مرتبتي)** وهو غرور ، **(وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد)** حسبة لله تعالى **(ويظن أنه على خير وإنما غرضه)** في إمامته **(أن يقال أنه إمام المسجد)** الفلاني ، وكذلك قد يتقلد تدريس علم في ذاته ويغتر به وغرضه أن يقال أنه مدرس الزاوية الفلانية ، **(ولو تقدم غيره)** في تلك الإمامة والتدريس **(وإن كان أورع منه وأعلم منه ثقل عليه)** ، ويا ليته ثقل عليه باطناً ويسكت على هذا القدر ، بل يشاكيه إلى أهل محلته ويقع فيه وهو غرور فاحش .

وفرقة أخرى: جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلاناً مجاور بمكة وتراه يتحدى ويقول: قد جاورت بمكة كذا كذا سنة، وإذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدي وأحب أن يعرفه الناس بذلك، ثم أنه قد يجاور ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس، وإذا جمع من ذلك شيئاً شح به وأمسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة، ولكن حب المحمدة وأن يقال أنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل، فهو أيضاً مغرور، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات، فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور، ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة، وفي الحج من كتاب الحج، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب.

(**وفرقة أخرى: جاوروا بمكة أو المدينة**) شرفها الله تعالى (**واغتروا بذلك ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم**) تراهم، (**فقلوبهم معلقة ببلادهم**) لا تنفك عن خيالهم مع تمنيهم أن يكونوا بها فيعدون لذلك تلك الأيام عدا (**ملتفتة إلى قول من يعرفه أن فلاناً مجاور بمكة**) أو بالمدينة (**وتراه يتحدث**) مع الناس ويقول: (**قد جاورت بمكة**) أو بالمدينة. (**كذا كذا سنة**) وحضرت بها كذا وكذا موسماً ولقيت بها فلاناً وفلاناً، (**وإذا سمع أن ذلك قبيح ترك صريح التحدث وأحب**) في باطنه (**أن يعرفه الناس بذلك**) وهو غرور، (**ثم أنه يجاور**) بها (**ويمدّ عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس**) من الصدقات التي تفرق هناك، (**فإذا جمع من ذلك شيئاً شح عليه وأمسكه**) بخلاً (**ولم تسمح نفسه**) بلقمة واحدة (**يتصدق بها على**) فقراء أهله (**فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان**) هو (**عنها بمعزل لو ترك المجـاورة، ولكن حب المحمدة**) والثناء (**وأن يقال أنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل**) والخبائث (**فهو أيضاً مغرور، وما من عمل من الأعمال وعبادة من العبادات إلا وفيها آفات**) ظاهرة وباطنة، (**فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتاب إحياء علوم الدين**) وهو هذا الكتاب، (**فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة، و**) مداخله (**في الحج**) والزكاة والتلاوة في كتاب (**الحج و**) في كتاب (**الزكاة و**) في كتاب (**التلاوة و**)كذا (**سائر القربات من الكتب التي رتبناها فيها**) بحسب المناسبات على وجه التصريح، (**وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامـع ما سبق في الكتب**) على طريق التلويح.

وفرقة أخرى: زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرئاسة والجاه إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين، فإن الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب، فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدُنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرئاسة وأن الراغب فيها لا بدّ وأن يكون منافقاً وحسوداً ومتكبراً ومرائياً ومتصفاً بجميع خبائث الأخلاق. نعم وقد يترك الرئاسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور إذ يتطاول بذلك على الأغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لا يدري، وربما يعطي المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده، ولو قيل له: إنه حلال فخذه في الظاهر ورده في الخفية لم تسمح به نفسه خوفاً من ذم الناس فهو راغب في حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور، ومع ذلك فربما لا يخلو من توقير الأغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل إلى المريدين له والمثنين عليه

(**وفرقة أخرى: زهدت في المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون**) الحقير منها (**ومن المسكن بالمساجد**) والزوايا والخانات، (**وظنت أنها**) بذلك (**أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرئاسة والجاه إما بالعم أو بالوعظ**) أو بحلقة الذكر (**أو بمجرد الزهد، فقد ترك**) هذا (**أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين،** فان **الجاه أعظم من المال**) كما سبقت الإشارة إليه في كتاب الجاه، (**ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب، فهذا مغرور إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدرِ أن منتهى لذاتها الرئاسة وأن الراغب فيها لا بدّ وأن يكون منافقاً**) بأن يخالف باطنه ظاهره إبقاء للجاه (**وحسوداً**) يتمنى زوال نعمة الغير (**ومتكبراً**) على أقرانه (**ومرائياً**) في أحواله (**ومتصفاً بجميع خبائث الأخلاق. نعم، وقد يترك الرئاسة ويؤثر الخلوة والعزلة**) عن الناس (**وهو مع ذلك مغرور إذ يتطاول بذلك على الأغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر إليهم بعين الاستحقار، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لا يدري**) وهو غرور، (**وربما يُعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده**) وأقبل على الدنيا (**ولو قيل له: إنه حلال فخذه في الظاهر وردّه في الباطن لم تسمح به نفسه خوفاً من ذم الناس، فهو**) إذاً (**راغب في حمد الناس**) وثنائهم عليه (**وهو من ألذ أبواب الدنيا، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور مع ذلك، فربما لا يخلو**) حاله (**عن توقير الأغنياء**) إذا حضروا (**وتقديمهم على الفقراء**) في الجلوس والخطاب

والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان، نعوذ بالله منه. وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة، ويختم القرآن وهو في جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات، فلا يدري أن ذلك مهلك، وإن علم فلا يظن بنفسه ذلك وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته، وهيهات! وذرة من ذي تقوى وخلق واحد من أخلاق الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح، ثم لا يخلو هذا المغرور، مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوّث باطنه عن الرياء وحب الثناء فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غروراً، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله، ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه.

وفرقة أخرى: حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم

وغير ذلك (و) عن (**الميل إلى المريدين له**) المعتقدين فيه (**والمثنين عليه و**) عن (**النفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان**) يريد إهلاكه بذلك لو شعر، (**وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح حتى ربما يصلي في اليوم والليلة مثلاً ألف ركعة ويختم**) مع ذلك (**القرآن**) إما في صلاته أو خارجاً عنها (**وهو في جميع ذلك لا تخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات، فلا يدري أن ذلك مهلك وإن علم فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظن بنفسه ذلك فربما ظن أنه مغفور له لعمله الظاهر**) وما يخطر له من فضائله الواردة (**وأنه غير مؤاخذ بأعمال القلب، وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته، وهيهات؟ فذرة من ذي تقوى وخُلُق واحد من خُلق الاكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح**) وإليه الاشارة بما في الخبر ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ولكن بشيء وقر في صدره وقد تقدم، (**ثم لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس وخشونته**) في محاوراته (**وتلوث باطنه**) بالقاذورات (**عن الرياء وحب الثناء، فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض وأوليائه وأحبائه**) وربما قيل له: أنت قطب هذا الزمان ومجدده (**فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غروراً**) وتمادياً على طريقته، (**وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله**) تعالى، (**ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه**) ولو كشف لهم الحجاب فرأوا ما فيه من ذميم الأوصاف لم يقولوا ما قالوا.

(**وفرقة أخرى: حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ترى أحدهم**

يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: « ما تقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم ». وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور

يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل) كصلاة الأوّابين والصلوات المذكورة في كتاب ترتيب الأوراد، **(ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: « ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم »)** قال العراقي: رواه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ « ما تقرب إليّ عبدي » انتهى.

قلت: ولفظه حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة، حدثنا خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن شريك بن أبي نمر، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله تعالى قال من عادى لي ولياً فقد آذنني بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه » الحديث. وهذا الحديث من غرائب الصحيح مما تفرد به شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة. وتفرد به خالد بن مخلد، عن سليمان بن بلال، عن شريك وليس لمحمد بن عثمان بن كرامة في الصحيح إلا هذا الحديث الفرد.

وقال أبو نعيم في الحلية: وهذا أول أحاديث الكتاب حدثناه إبراهيم بن محمد بن حمزة، حدثنا أبو عبيدة محمد بن أحمد بن المؤمل ح.

وحدثنا إبراهيم بن عبد الله بن إسحاق، حدثنا محمد بن إسحاق السراج قالا: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة فساقه بسنده ولفظه: « ومن آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضته عليه » الحديث.

ورواه أحمد والحكيم وأبو يعلى والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الطب، والبيهقي في الزهد، وابن عساكر من حديث عائشة بلفظ: « قال الله تعالى من آذى لي ولياً فقد استحل محاربتي وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء الفرائض » الحديث.

ورواه ابن السني في الطب من حديث ميمونة بلفظ: « قال الله تعالى ما تقرب إليّ العبد بمثل أداء فرائضي » الحديث.

ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء، والحكيم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الاسماء، وابن عساكر من حديث أنس بلفظ « يقول الله تعالى من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » الحديث. وفيه « وما تعبد إليّ عبدي المؤمن بمثل الزهد في الدنيا ولا تقرب عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه » الحديث.

بل قد يتعين على الإنسان فرضان. أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان: أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً. ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت. وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبرّ يا رسول الله؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك» قال: ثم من؟ قال: «أدناك فأدناك». فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع، وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه، وكذلك إذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت

(وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعين على الانسان فرضان: أحدهما **يفوت، والآخر لا يفوت. أو فضلان**) أي نفلان. (**أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه فهو مغرور، ونظائر ذلك أكثر من ان تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة**) والأمر فيهما ظاهر، (**وإنما الغامض الخفي تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه**) مما ليس بأهم (**وتقديم ما يفوت**) بفوات الوقت (**على ما لا يفوت، وهذا كما يجب أن يقدم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبر**) أي من أحق بالبر؟ (**قال «أمك». قال: ثم من؟ قال «أمك» قال: ثم** من؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال «ثم أباك». قال: ثم من؟ قال «ثم أدناك فأدناك») أي الاقرب فالأقرب منك. رواه الترمذي، والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده. وقد تقدم في كتاب آداب الصحبة، وروى الديلمي من حديث ابن مسعود «برّ أمك ثم أباك ثم أخاك ثم أختك». (**فينبغي أن يبتدىء في الصلة بالأقرب**) نسباً منه، (**فإن استويا فبالأحوج فإن استويا فبالأتقى والأورع**) على هذا الترتيب، (**وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج**) فإن أنفق عليهما لم يف بالحج وبالعكس، (**فربما يحج**) ويترك الإنفاق عليهما (**وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه**) في الرتبة، (**وكذلك إذا كان على العبد ميعاد**) لرجل (**ودخل وقت**) صلاة

الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو طاعة في نفسه، وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة وايذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة. وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر. ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور. وهذا غرور في غاية الغموض لأن المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها. ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب، لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه، فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به إلا أن حب الرئاسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم يعمي عليه حتى يغتر به مع نفسه ويظن أنه مشغول بمهم دينه.

الصنف الثالث: المتصوّفة وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق كثيرة.

ففرقة منهم: وهم متصوّفة أهل الزمان إلا من عصمه الله اغتروا بالزي والهيئة

(**الجمعة فالجمعة تفوت بالاشتغال بالوفاء بالوعد وهو**) أي تفويت الجمعة به (**معصية، وإن كان هو**) أي الوفاء بالوعد (**طاعة في نفسه، وكذلك تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور**) أيضاً. (**والحذر من الأذى أهم من الحذر من النجاسة**) لأن زوال الأذى عن قلوبهم عسر بخلاف إزالة النجاسة من الثوب، (**وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات**) كثيرة (**لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض**) والدقة (**لأنّ المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها**)، والأكياس يظنون ذلك، (**ومن جملته الاشتغال بالمذهب**) الذي يتعبد الله به (**والخلاف من الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب، لأن مقصود الفقه معرفة ما يحتاج إليه غيره في حوائجه**) ومهماته، (**فمعرفة ما يحتاج هو إليه في قلبه أولى به**) وأليق (**إلا أن حب الرئاسة والجاه ولذة المباهاة**) أي المفاخرة (**وقهر الأقران**) والنظراء (**والتقدم عليهم يعمى عليه**) سلوك طريق الأولى (**حتى يغترّ به مع نفسه ويظن أنه مشغول بمهم دينه**) والله الموفق.

الصنف الثالث: المتصوّفة

(**وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق كثيرة**).

(**ففرقة منهم: متصوّفة أهل الزمان إلا من عصمة الله**) وأيده بتوفيقه (**اغتروا بالزي**

والمنطق، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة من السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضاً صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية. وكل ذلك من أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها؟ بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأمال السلاطين ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه، وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم في الديوان، ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة، فتاقت نفسها إلى أن يقطع

والمنظر والهيئة) الظاهرة، **(فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم)** في محاوراتهم **(وفي آدابهم)** الظاهرة **(ومراسمهم)** التي يجرونها بينهم **(واصطلاحاتهم)** التي توافقوا عليها، **(وفي أحوالهم الظاهرة في)** حال **(السماع والرقص)** والتواجد **(و)** في **(الطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس)** كالمراقب **(وإدخاله في الجيب)** أي جيب الخرقة **(كالمتفكر وفي تنفس الصعداء)** كالمتأسف لما فاته شيء، **(وفي خفض الصوت)** عند التكلم **(في الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أيضاً انهم صوفية و)** على ذلك **(لم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب)** بالذكر **(وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوّف)** عند هذه الطائفة العلية، **(ولو فرغوا من جميعها)** عملاً وتحققاً **(لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية)** إذ بينه وبين الوصول إلى مراتبهم مفاوز تقطع الأعناق، **(كيف ولم يحوموا قط حولها ولم يسوموا بأنفسهم شيئاً منها)** فهم عنها **(معرضون، بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين)** من المرتبات والإدرارات وغيرها **(ويتنافسون في الرغيف)** الواحد **(والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير)** النقطة التي على النواة **(والقطمير)** القشر الداخل على النواة، **(ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه، وهؤلاء غرورهم ظاهر)** لا يحتاج التنبيه بأكثر من ذلك، **(ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين)** في سبيل الله **(ثبتت اسماؤهم في الديوان)** السلطاني، **(ويقطع كل واحد منهم قطراً من أقطار المملكة)** أي يكتب له إقطاعات في البلاد تحت شجاعته، **(فتاقت نفسها إلى**

لها مملكة فلبست درعاً ووضعت على رأسها مغفراً وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً وتعوّدت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان وكيف تحريكهم الأيدي، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات، ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت إسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن في المبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر غنائها في الشجاعة، فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيل لها: أجئت للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم؟ خذوها فألقوها قدام الفيل لسحقها فألقيت إلى الفيل، فهكذا يكون حال المدعين للتصوّف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضي الأكبر الذي لا ينظر إلى الزي والمرقع بل إلى سر القلب.

وفرقة أخرى: زادت على هؤلاء في الغرور إذ شق عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب والرضا بالدون، فأرادت أن تتظاهر بالتصوّف ولم تجد بداً من التزين بزيهم

أن تقطع) أيضاً **(مملكة فلبست درعاً)** من حديد **(ووضعت على رأسها مغفراً)** وهو طاس من حديد يستر الرأس **(وتعلمت من رجز الأبطال أبياتاً)** مما جرت عادتهم بانشادها إرهاباً للعدوّ **(وتعوّدت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت)** مع ذلك **(كيف هيئة تبخترهم)** في الميدان عند قيام الصفين **(وكيف تحريكهم الأيدي)** بالسلام، **(وتلقت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكون، ثم توجهت إلى المعسكر)** أي الموضع الذي اجتمعت فيه العساكر **(ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما دخلت إلى المعسكر انفذت إلى ديوان العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع فينظر ما تحته)** من قوّة البنية **(وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر غنائها في الشجاعة، فلما جردت عن المغفر والدرع فإذا هي عجوز ضعيفة زمنة)** أي ملابسة الضعف **(لا تطيق حمل الدرع والمغفر)** فضلاً عن قوّة البراز، **(فقيل لها: أجئت للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم؟ خذوها فألقوها قدام الفيل)** ليثخنها) أي يهلكها وطأ بأقدامه، **(فألقيت إلى الفيل)** فوطئت، **(وهكذا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضي الأكبر)** جل جلاله **(الذي لا ينظر إلى الزي والمرقع)** والهيئة، **(بل إلى سر القلب)** أي باطنه.

(وفرقة أخرى: زادت على هؤلاء في الغرور إذ شق عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب) أي رثاثتها **(والرضا بالدون)** في المعيشة، **(وأرادت أن تتظاهر بالتصوّف ولم تجد**

فتركوا الحرير والإبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والابريسم، وظن أحدهم مع ذلك انه متصوّف بمجرد الثوب وكونه مرقعاً، ونسي أنهم إنما لوّنوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد، فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم، ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوّف كافة، ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطوّل اللسان في الصادقين منهم، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم.

وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال

بدأ من التزيي بزيهم فتركوا الخز والابريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة) المثمنة **(والسجادات المصبوغة)** بالألوان المختلفة **(ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الخز والابريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوّف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعاً)** أي رقعاً خيطت في بعضها **(ونسي أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ)** فيشغلهم عن المراقبة، **(و)** أنهم **(إنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة)** قد بليت من طول الاستعمال، **(فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد)** ويكتفون بالقديم لأنه يقضي الحاجة في ستر العورة، **(فأما تقطيع الفوط الرفيعة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها)** بالخيوط الملونة مع الهيئات الغريبة، **(فأين يشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش)** ولذة النفس، **(ويأكلون أموال السلاطين)** من إدرار وهدية **(ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير)** والصلاح، **(وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم)** أي يكون لهلاكه، **(ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوّف كافة إذ يظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان)** لا محالة **(في الصادقين منهم)** وقد سرى هذا الشر إلى جملة من العوام بل وبعض الخواص فلم يميزوا بين المتحقق والمتشبه، وأطلقوا ألسنتهم في أعراضهم ونسبوهم إلى ما هم مبرأون منه، **(وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم)**.

(وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق) من عين القلب **(ومجاوزة المقامات**

والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات، فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأوّلين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزدراء فضلاً عن العوام، حتى أن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار. ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء فيقول في العباد: أنهم أجراء متعبون، ويقول في العلماء أنهم بالحديث من الله محجوبون، ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يحكم قط علماً ولم يذهب خلقاً ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه.

وفرقة أخرى: وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي، وبعضهم يقول:

والأحوال) ولهم فروق في المقام والحال، وقد سبقت الإشارة إلى شيء منه وسياتي في الربع الأخير، **(والملازمة في عين الشهود)** مع عدم الإنفكاك **(والوصول إلى القرب)** المعنوي **(ولا يعرف)** واحد منهم **(هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ إلا أنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها)** على لسانه في محاوراته، **(ويظن أن ذاك أعلى من)** جملة **(علم الأوّلين والآخرين فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء)** شزراً **(بعين الإزدراء)** والاحتقار **(فضلاً عن العوام)** فإنهم عنده كالأنعام، **(حتى أن الفلاح يترك فلاحته)** أي حراثة الأرض، **(والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً معدودة ويتلقف منهم الكلمات المزيفة فهو يرددها كأنه يتكلم)** بها **(عن الوحي)** السماوي **(وعن سر الأسرار)** المكتومة، **(ويستحقر بذلك)** مطلقاً لسانه في **(جميع العباد والعلماء)** الذين هم من خواص عباد الله تعالى، **(فيقول في العباد: إنهم أجراء متعبون وفي العلماء أنهم بالحديث)** والقال والقيل **(عن الله محجوبون، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه)** عنده **(من المقربين)** في حضرته **(وهو)** في الحقيقة **(عند الله من الفجار المنافقين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين)** المغرورين **(لم يحكم قط علماً)** أي لم يتقنه **(ولم يهذب قلباً)** بالمجاهدة **(ولم يرتب عملاً)** يكون به واصلاً، **(ولم يراقب قلباً)** بالذكر **(سوى اتباع الهوى)** والشهوات **(وتلقف الهذيان وحفظه)** فما أشد غرور هذا.

(وفرقة أخرى؛ منهم: وقعت في) إباحة **(الإباحة فطووا بساط الشرع)** على غرته **(ورفضوا الأحكام)** الشرعية **(وسوّوا بين الحلال والحرام)** وهم طائفة الملاحدة وهم فرق،

قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن ، وإنما يغتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلها ، بل إنما كلفوا قلع مادتها بحيث ينقاد كل واحد منها لحكم العقل والشرع ، وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله ، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوّتهم فيها ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم السلام ، إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية ، وأصناف غرور أهل الإباحة من

(فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي) كما تقتضيه حقيقة الغنى المطلق ، **(فلم اتعب نفسي)** بالمجاهدة والرياضة ، وهؤلاء قد شبه عليهم الأمر لم يفطنوا أن عائدة الأعمال إنما تعود إليهم وهم لكمال فقرهم محتاجون لها ، وأما الحق تعالى فلا يسأل عما يفعل ، **(وبعضهم يقول : قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال ، فقد كلفوا ما لا يمكن)** تحصيله وما من قلب إلا وفيه الشهوة وحب الدنيا ، **(وإنما يغتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال)** وهؤلاء أيضاً قد اشتبه عليهم الأمر ، **(ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلها ، بل إنما كلفوا قلع مادتها بحيث ينقاد كل واحد منها لحكم العقل والشرع ، وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لا قدر)** وفي نسخة لا وزن **(لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة)** أي مهيمة **(بحب الله واصلة إلى معرفة الله ، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية)** نتمتع بها ، **(فنحن في الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام)** بهذا **(واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية)** لعدم الحاجة إليها **(و)** يزعمون **(أن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوّتهم فيها ويرفعون درجة أنفسهم عن درجة الأنبياء عليهم السلام ، إذ كان يصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية)** ، كما حكى ذلك في قصة آدم وداود عليهما السلام ، فأخرج أحمد في الزهد عن علقمة بن مرثد قال : لو جمع دموع أهل الأرض ودموع داود ما عدلوا دموع آدم حين أهبط من الجنة . وعند ابن أبي شيبة : لو عدل بكاء أهل الأرض بكاء داود ما عدله ولو عدل بكاء أهل الأرض ببكاء آدم حين أهبط إلى الأرض ما عدله . وأخرج أحمد عن ثابت قال : اتخذ داود سبع حثايا من الشعر وحشاهن من الرماد ثم بكى حتى انفذها دموعاً ، ولم يشرب داود شراباً إلا ممزوجاً بدموع عينيه ، ومن طريق الاوزاعي مرفوعاً لقد خددت الدموع في وجه

المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل أحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للاقتداء به وإحصاء أصنافهم يطول.

وفرقة أخرى: جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها. فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي حب الله قبل معرفته، ثم أنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى. وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحب. وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل وليس يدري أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن

داود خديد الماء في الأرض. ومن طريق أبي عبد الله الجدلي قال: ما رفع داود رأسه إلى السماء بعد الخطيئة حتى مات.

(**وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى**) وفضائحهم في سوء ما ذهبوا إليه لا تستقصى، (**وكل ذلك بناء على أغاليط**) وقعت لهم في فهمهم (**ووساوس يخدعهم الشيطان بها لأشتغالهم بالمجاهدة**) والرياضة (**قبل احكام العلم**) واتقان قواعده، (**ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح للإقتداء به**) نعم شيخهم الذي يقتدون به الشيطان (**وإحصاء أصنافهم يطول**).

(**وفرقة أخرى: جاوزت حدّ هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم**) بعد ذلك (**يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها**) وهم فرق (**فمنهم من يدعي الوجد**) وهو فقدانه بمحو أوصافه البشرية (**والحب لله تعالى، ويزعم أنه واله بالله**) مشغوف به (**ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدعي حب الله قبل معرفته**) ولا يتم حب شيء إلا بعد معرفته بحقيقته، (**ثم أنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق، ولو خلا**) بنفسه (**ما تركه حياء من الله وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحب**) ويضاده، (**وبعضهم** ربما يميل إلى **القناعة والتوكل فيخوض البوادي**) والقفار (**من غير زاد ليصحح دعوى التوكل وليس يدري أن ذلك بدعة لم ينقل عن السلف والصحابة**) رضوان الله عليهم كما

التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به ، وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور وقد اغتر به قوم ، وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها .

وفرقة أخرى: ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص ، وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي ، فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور .

وفرقة أخرى: ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوماً وتكلفوا بخدمتهم ، واتخذوا ذلك شبكة للرئاسة وجميع المال ، وإنما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع ، وغرضهم الارتفاع وهم يظهرون أن غـرضهم

عرف ذلك من سيرهم، **(وقد كانوا أعرف بالتوكل منه فما فهموا أن التوكل)** هو **(المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد ، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به)** فكيف يصح توكله **(وما من مقام من مقامات المنجيات)** على ما سيأتي **(إلا وفيه غرور قد اغتربه قوم، وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن إعادتها)** هنا .

(وفرقة أخرى: ضيقت على أنفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومكسبه وأخذ يتعمق في غير ذلك) من الأعمال، **(وليس يدري المسكين أن الله لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ولا رضي بسائر الأعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي، فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه)** عن البعض **(وينجيه)** من عقاب الله **(فهو مغرور)** في ظنه .

(وفرقة أخرى: منهم ادعو أحسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوماً) منهم **(وتكلفوا خدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للرئاسة و)** وسيلة إلى **(جمع المال، وإنما غرضهم)** من ذلك **(التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع، وغرضهم الإرتفاع)** بالمعيشة **(وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق)** للصوفية **(وغرضهم الإستتباع،**

الإرفاق وغرضهم الاستتباع، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم انهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والانفاق، وباعث جميعهم الرياء والسمعة، وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهراً وباطناً ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه. ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة.

وفرقة أخرى: اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علماً وحرفة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون: هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيباً عيب والإلتفات إلى كونه عيباً عيب، ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها، ومن جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه.

وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية) فهذه فضائحهم، **(ثم أنهم يجمعون من الحرام والشبهات)** من حيث اتفق **(وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر)** في الآفاق **(بالخدمة اسمهم، وبعضهم يأخذ أموال السلاطين وينفق عليهم)** منها، **(وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والإنفاق، وباعث جميعهم الرياء والسمعة، وآفة ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهراً وباطناً ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه. ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لإرادة الخير كمن يعمر مساجد الله)** قصداً للثواب **(فيطينها بالعذرة)** والنجاسة **(ويزعم أن قصده)** بذلك **(العمارة)**.

(وفرقة أخرى: منهم: اشتغلوا بالمجاهدة) والرياضة **(وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها)** ويبالغون، **(فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علماً وحرفة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون: هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيباً عيب والإلتفات إلى كونه عيباً عيب، ويشغفون بكلمات مسلسلة)** مزخرفة **(تضيع الأوقات في تلفيقها)** وتركيبها، **(ومن جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب)** والبحث عن مكانها **(وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه)** ولا يعد من السالكين.

وفرقة أخرى: جاوزوا هذه الرتبة وابتدأوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة، فكلما تشمموا من مبادىء المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكنه فيه لقاء الملك.

وفرقة أخرى: جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا فإن لله تعالى سبعين حجاباً من نور لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل، وإليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام إذ

(وفرقة أخرى: جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤا بسلوك الطريق فانفتح لهم أبواب المعرفة فكلما تشمموا من مبادىء المعرفة رائحة تعجبوا منها) لحسْنها **(وفرحوا بها)** واطمأنوا إليها **(وأعجبهم غرائبها)** ومحاسنها، **(فتقيدت قلوبهم بالإلتفات إليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم، وكل ذلك غرور)** مع الإعجاب حيث انفتح له وانسد على غيره، وأما الغرور فمن حيث تقيد القلب والإلتفات وهو أعظم حجاب للسالك في سلوكه **(لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه)** في سلوكه **(وحرم عن الوصول إلى المقصد)** وحيل بينه وبينه **(وكان مثاله مثال من قصد ملكاً)** من الملوك **(فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار)** ومتنزهات **(لم يكن رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها)** متعجباً منها **(حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك)** فحرم من مقصوده.

(وفرقة أخرى: جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق وإلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والإلتفات إليها) وقطعوا النظر عنها **(جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله، فظنوا أنهم وصلوا إلى الله فوقفوا)** عن سيرهم اعتماداً على ظنهم **(وغلطوا فإن لله تعالى سبعين حجاباً من نور)** وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره كما في الخبر، **(فلا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب)** أي النورانية **(إلا ويظن أنه قد وصل)** وتحقيقه أن الله تعالى

قال الله تعالى اخباراً عنه: ﴿فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي﴾ [الأنعام: ٧٦] وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة، فإنه كان يراها في الصغر ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحداً، والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله فمثل إبراهيم عليه السلام لا يغره الكوكب الذي لا يغر السوادية؛ ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين، ولا يتصوّر الوصول إلى الله

متجل في ذاته بذاته لذاته ويكون الحجاب في الإضافة إلى محجوب لا محالة، وإن المحجوبين من الخلق منهم من يحجب بمجرد الظلمة، ومنهم من يحجب بالنور المحض، ومنهم من يحجب بنور مقرون بظلمة، وقد أشرنا إلى الصنفين الأولين قريباً، والمحجوبون بمحض الأنوار أصناف كثيرة الواصلون منهم من اعتقد أن معبودهم واحد موصوف بصفة لا تنافي الوحدانية المحضة والكمال البالغ، وإن نسبته إلى الموجودات الحسية نسبة الشمس إلى الأنوار المحسوسة منه، فتوجهوا من الذي يحرك السموات ومن الذي أمر بتحريكها إلى الذي فطر السموات وفطر الأمر بتحريكها، فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم، إذ وجوده من قبله فاحرقت سبحات وجه الأول الأعلى جميع ما أدركه الناظرون وبصيرتهم، إذ وجوده مقدساً منزهاً، ثم هؤلاء انقسموا فمنهم من أحرق منه جميع ما أدركه بصره فانمحق وتلاشى ولكن بقي هو ملاحظاً للجمال والقدس وملاحظاً ذاته في جماله الذي ناله بالوصول إلى الحضرة الإلهية، وانمحقت منها المبصرات دون المبصر، وجاوز هؤلاء طائفة منهم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه وغشيهم سلطان الجلال وانمحقوا وتلاشوا في ذاته، ولم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم بفنائهم عن أنفسهم، ولم يبق إلا الواحد الحق وصار معنى كل شيء هالك إلا وجهه لهم ذوقاً وحالاً، فهذه نهاية الواصلين ومنهم من لم يندرج في الترقي والعروج عن التفصيل المذكور ولم يطل عليه العروج، فسبقوا في أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية في كل ما يجب تنزيهه عنه فغلب عليهم أولاً ما غلب على الآخرين آخراً، وهجم عليهم التجلي دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسي أو بصيرة عقلية، ويشبه أو يكون الأول طريق الخليل، والثاني طريق الحبيب صلوات الله عليهما وسلامه، وإليه أشار المصنف بقوله: (**وإليه الإشارة بقول الخليل عليه السلام إذ قال تعالى أخباراً عنه ﴿فلما جن عليه الليل**) أي أظلم (**رأي كوكباً**) من الكواكب (**قال هذا ربي﴾ وليس المعنى به**) الكوكب المعهود من (**هذه الأجسام المضيئة**) المركوزة في سطح السماء، (**فإنه**) عليه السلام (**كان يراها**) أي تلك الكواكب (**في**) حالة (**الصغر، ويعلم أنها ليست آلهة**) حاشاه من ذلك (**و**) مع ذلك (**هي كثيرة**) لا عدد يحويها (**وليست واحدة**) حتى يظن فيها الربوبية (**والجهال**) المحجوبون بظلمتهم (**يعلمون أن الكوكب ليس بالإلة، فمثل إبراهيم عليه السلام**) في جلالة قدره وعصمته لا يغره الكوكب (**الذي لا يغر السوادية**) الجهال، (**ولكن المراد به نور من الأنوار التي هي من حجب الله**) المشار إليها في الحديث السابق (**وهي**) أي حجب الأنوار (**على طريق السالك**) في

تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض، وأصغر النيران الكوكب فأستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال الله تعالى: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ [الأنعام: ٧٥] يصل إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل، ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً فيترقى إليه ويقول: قد وصلت فيكشف له ما وراءه، حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده فقال: ﴿هذا أكبر﴾ [الأنعام: ٧٨] فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال قال: ﴿لا أحب الآفلين إني وجهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾ [الأنعام: ٧٩] وسالك هذه

سلوكه إلى الله تعالى، **(ولا يتصور الوصول إلى الله إلا بالوصول إلى هذه الحجب وهي حجب من النور)** كالستائر الرفيعة التي تكون على أبواب حضرة الملوك في الدنيا **(وبعضها أعظم من بعض)** في الجرم وفي النور، **(وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه)** بجامع النور، **(وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر)** فهو أكبر من الكوكب وأضوأ وأصغر من الشمس وأقل نوراً منها، **(فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات)** بعين بصره وبصيرته **(حيث قال تعالى: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ يصل)** في سلوكه **(إلى نور بعد نور ويتخيل إليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل)** إلى الله **(ثم كان يكشف له أن وراءه أمراً فيرتقي إليه ويقول: قد وصلت)** إلى الله **(فيكشف له ما وراءه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلا بعده)** أي بعد رفعه وقطعة **(فقال: ﴿هذا أكبر﴾ فلما ظهر له أنه مع عظمه)** الذي يذكر فيه أن قدر سعة الدنيا كذا وكذا مرة **(غير خال عن الهوى)** أي السقوط **(في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال)** البالغ **(قال: ﴿لا أحب الآفلين إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض)** حنيفاً وما أنا من المشركين، وإلى هذا المعراج الإشارة بقوله ﷺ: «وأنه ليغان على قلبي وأني لأستغفر الله سبعين مرة».

قال المصنف في مشكاة الأنوار لما كان عالم الشهادة مرقى إلى عالم الملكوت وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقي وقد يعبر عنه بالدين وبمنازل الهدى، فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما تصور الترقي من أحدهما إلى الآخر فجعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال شيء من ذلك العالم، وربما كان الشيء الواحد مثالاً لأشياء من الملكوت، وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة، وإنما يكون مثالاً إذا ماثل نوعاً من المماثلة وطابقه نوعاً من المطابقة. مثال ذلك إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبر عنها بالملائكة تفيض الأنوار على الأرواح

الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الأول. وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضاً أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى، أعني سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى انه ليتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له، فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول: أنا الحق فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد إلى القمر، فضلاً عن الشمس فهو مغرور. وهذا محل

البشرية ولأجلها تسمى أرباباً، ويكون الله رب الأرباب كذلك، ويكون لها مراتب في نورانيتها متفاوتة، فبالحري أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب، وسالك الطريق ينتهي إلى ما درجته درجة الكوكب فيتضح له إشراق نوره ويتضح له من جماله وعلوّ درجته ما يبادر، فيقول: هذا ربي إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر رأى أفول الأول في مغرب الهوى بالإضافة إلى ما فوقه فقال: ﴿لا أحب الآفلين﴾ وكذلك يترقى حتى ينتهي إلى ما مثله الشمس فيراه أكبر وأعلى فيراه قابلاً للمثال بنوع مناسبة له معه، والمناسبة مع ذي النقص نقص وأفول أيضاً فمنه يقول: ﴿وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض﴾ ومعنى «الذي» إشارة مبهمة لا مناسبة لها. إذ لو قال قائل: ما مثال مفهوم الذي لم يتصور أن يجاب عنه فالمنزه عن كل مناسبة هو الله الحق. **(وسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب)** فيظن أنه قد وصل **(وقد يغتر بالحجاب الأول، وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه فإنه أيضاً أمر رباني)** أي هو من عالم الأمر، **(وهو نور من أنوار الله أعني سر القلب)** أي باطنه **(الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله)** توكيد من الضمير المجرور، **(حتى أنه)** أي القلب **(ليتسع لجملة العالم ويحيط به)** إحاطة كلية **(وتتجلى فيه صورة الكل)** ولذا عبر عنه بالعالم الأكبر، **(وعند ذلك يشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له)** عن مشاهدة ما وراء ذلك، **(فإذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه وربما التفت صاحب القلب إلى القلب فيرى من جماله الفائق ما يدهشه)** ويستغرق الهم به، وينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تلألأ فيه من حلية الحق، **(وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة)** والإستغراق بالجلال والجمال فيظن أنه هو **(فيقول: أنا الحق)** كما وقع لأبي منصور الحلاج، ويعبر عن هذه الحالة بالإتحاد على سبيل التجوز والتوسع لا أنه هو تحقيقاً وهذه مزلة قدم، **(فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغترّ به ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ولم يصل بعد**

الالتباس إذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل:

رق الزجاج ورقت الخمر   فتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ   وكأنما قدح ولا خمرُ

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن رأى كوكباً في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور، وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة، وذلك مما لا رخصة في ذكره، ولعل القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركه إذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن

إلى القمر فضلاً عن الشمس فهو مغرور، وهذا محل الإلتباس) فمن ليس له قدم راسخ في المعقولات لم يتميز له أحدهما عن الآخر، **(إذ المتجلي يلتبس بالمتجلي فيه كما يلتبس لون ما يتراءى)** من صورة متلونة انطبعت **(في المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة)** وأن تلك الصورة صورة المرآة، وهيهات، فإن المرآة في ذاتها لا لون لها وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أن ذلك هو صورة المرآة، فكذلك القلب خال عن الصورة في نفسه وعن الهيئات وإنما هيئاته قبول ما فيه الهيئات والصور والحقائق فما يحمله يكون كالمتحد به تجوز إلا أنه كالمتحد به تحقيقاً، **(وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج)** فمن لا يعرف الزجاج والخمر إذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما فتارة يقول: لا خمر، وتارة يقول لا زجاجة **(كما قيل)**:

(رق الزجاج ورقت الخمر   فتشابها فتشاكل الأمر)
(فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ   وكأنما قدح ولا خمر)

(وبهذه العين نظرت النصارى إلى المسيح عليه السلام فرأوا إشراق نور **الله قد تلألأ فيه)** فقالوا باتحاد اللاهوت بالناسوت **(فغلطوا فيه)** غلطاً فاحشاً، وقول من قال: أنا الحق إما أن يكون معناه ما ذكرنا من التجوز والتوسع، وإما أن يكون قد غلط كما غلط النصارى، وهو **(كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد إليه)** اليد **(ليأخذه وهو مغرور)** واعلم أن العبد في مجاوزته هذه الحجب سالك لا واصل، وإنما الوصول أن تنكشف له جلية الحق ويصير مستغرقاً به فإن نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله، وإن نظر إلى همه فلا همّ له سواه فيكون كله مشغولاً بكله مشاهدة وهما لا يلتفت في كل ذلك إلى نفسه. **(وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة، وذلك مما لا رخصة في ذكره، ولعل القدر الذي ذكرناه)** آنفاً

يسمعه من غيره، والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضربه إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم، ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذي هو فيه، بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف، ويصدق أيضاً بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله، ومن عظم غروره ربما أصر مكذباً بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل.

الصنف الرابع: أرباب الأموال، والمغترون منهم فرق.

فرقة منهم: يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين.

أحدهما: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في إنفاقها، وكان

(**كان الأولى تركه**) وكتمه (**إذا السالك لهذا الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره، والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضربه إذ يورثه ذلك وحشة**) وحيرة (**من حيث**) أنه (**يسمع مالا يفهم**) معناه، (**ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذي هو فيه إذ ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه**) بعقله الناقص (**ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجد له المزخرف**) بالأدلة الوهمية، (**ويصدق أيضاً بما يحكى له من المكاشفات التي اخبر عنها أولياء الله**) من صالحي عباده (**ومن عظم غروره ربما أصر مكذباً بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل**).

(**الصنف الرابع: أرباب الأموال**) وملاكها، (**والمغترون منهم فرق**).

(**ففرقة منهم: يحرصون على بناء المساجد والمدارس**) والزوايا والتكايا (**والرباطات**) للصوفية (**والقناطر**) والجسور في الطرق العامة المسلوكة (**وما يظهر للناس كافة**) كالسبل والخانات ومكاتب الأطفال والقبب على قبول الأولياء المشهورين، (**ويكتبون أساميهم بالآجر عليها**) وتارة على الرخام حفراً مع ذكر تاريخ عمارتها، وتارة يكتبون ما صرف عليها من الأموال (**ليتخلد ذكرهم**) ويدوم (**ويبقى بعد الموت آثارهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا**) بذلك (**المغفرة**) والعفو من الله تعالى (**بذلك**) الصنيع، (**وقد اغتروا فيه من وجهين**).

(**أحدهما: أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا**) جمع الرشوة (**والجهات المحظورة**) شرعاً (**فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها**) فإن الجهات التي اكتسبها منها قد كرهها الله (**وتعرضوا لسخطه في إنفاقها**) في هذه المواضع، (**فكان**

الواجب عليها الامتناع من كسبها فإذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله تعالى وردها إلى ملاكها إما بأعيانها وإما بردّ بدلها عند العجز. فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن يظهر ذلك للناس، فيبنون الأبنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لبقاء الخير.

والوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب، ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك.

وفرقة أخرى: ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضاً مغرورة من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال

الواجب عليهم الإمتناع عن كسبها، فإذاً قد عصوا الله بكسبها كان الواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله تعالى وردها إلى ملاكها) الأصول. **(إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز)** كما هو شرط التوبة **(فإن عجزوا عن الملاك)** بهلاك أو فقد **(فكان الواجب ردها على الورثة)** لانتقال الحق إليهم، **(فإن لم يبق للمظلوم وارث)** بأن لم يعرف **(فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين من أهل بلده وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن يظهر ذلك للناس فيبنون الأبنية بالآجر)** والحجارة **(وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء)** من الناس **(وحرصهم على بقائها لبقاء اسمهم المكتوب بها لا لبقاء الخير)**.

(الوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك) وصعب **(ولم تسمح نفسه به، والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب، فلولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك)** فهو قرينة قائمة على أصل نيته.

(وفرقة أخرى: ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد) أي على بنائها **(وهي أيضاً مغرورة من وجهين)**.

(أحدهما: الرياء وطلب الثناء فإنه ربما يكون في جواره أو في بلده فقراء) محتاجون،

إليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها، وإنما يخفف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

والثاني: أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهن عنها وشاغلة قلوب المسلمين ومختطفة أبصارهم والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك، ووبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لأمره، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا، فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه، ووبال ذلك كله في رقبته، إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى. قال مالك بن دينار: أتى رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلي لا يدخل بيت الله فكتبه الملكان عند الله صديقاً. فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو يزخرف الدنيا منة على الله تعالى. وقال الحواريون للمسيح عليه السلام: انظر

(**فصرف المال إليهم أهم وأفضل من الصرف إلى المساجد وتزيينها**) وتنقيشها، (**وإنما يخف عليه الصرف إلى المساجد ليظهر بذلك بين الناس**) ويشتهر أسمه.

(**والثاني: أنه يصرف**) تلك الأموال (**إلى زخرفة**) المسجد (**وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها**) رواه البخاري من قول عمر بن الخطاب أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر، (**وشاغله قلوب المصلين**) عن الحضور (**وتختطف أبصارهم**) بالنظر إليها (**والمقصود من الصلاة**) إذا هو (**الخشوع وحضور القلب**) وجمع الهمة، (**وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك، ووبال ذلك كله يرجع إليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات**) ومن القربات (**ويعد ذلك وسيلة له إلى الله تعالى، وهو بذلك قد تعرض لسخط الله وهو يظن أنه مطيع لله وممتثل لأمره**) في عمارة المساجد، (**وقد شوش قلب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم إلى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه، ووبال ذلك كله في رقبته، إذ المسجد**) إنما اتخذ (**للتواضع**) والمسكنة والخشوع (**ولحضور القلب مع الله. قال**) أبو يحيى (**مالك بن دينار**) البصري رحمه الله تعالى: (**أتى رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلي لا يدخل**) وفي نسخة يدخل (**بيت الله**) على سبيل الإنكار على نفسه، (**فكتب على المكان عند الله صديقاً**) أخرجه أبو نعيم في الحلية، (**فبهذا ينبغي أن تعظم المساجد**) لا بالزخرفة، (**وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله. وقال الحواريون**

إلى هذا المسجد ما أحسنه! فقال: أمتي أمتي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله. إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة. بها يعمر الله الأرض وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك. وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم». وقال الحسن: «إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا تزخرفه ولا تنقشه». فغرور هذا من حيث أنه رأى المنكر معروفاً واتكل عليه.

وفرقة أخرى: ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ويكرهون التصدق

للمسيح عليه السلام: **انظر إلى هذا المسجد ما أحسنه فقال: أمتي أمتي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً وأن أحب الأشياء إلى الله القلوب الصالحة بها يعمر الله الأرض وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك. وقال أبو الدرداء**) رضي الله عنه، (**قال رسول الله ﷺ: «إذا زخرفتم مساجدكم**) أي بالنقوش (**وحليتم مصاحفكم**) أي بالذهب والفضة (**فالدمار عليكم**») أي الهلاك. قال العراقي: رواه ابن المبارك في الزهد، وأبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف موقوفاً على أبي الدرداء اهـ.

قلت: ورواه الحكيم في النوادر من حديث أبي الدرداء مرفوعاً.

(**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالى: (**إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له: ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا تزخرفه ولا تنقشه**). قال العراقي: لم أجده هكذا وفي قصر الأمل لابن أبي الدنيا: ابنوه كعريش موسى وليس فيه مجيء جبريل اهـ.

قلت: وروى البيهقي من مرسل سالم بن عطية: عرش كعرش موسى، ورواه الدارقطني في الأفراد، والديلمي، وابن النجار من حديث أبي الدردا: عريشاً كعريش موسى ثمام وخشيبات والأمر أعجل من ذلك. قال الدارقطني: غريب (**فغرور هذا من حيث أنه رأى المنكر معروفاً واتكل عليه**) واطمأن به.

(**وفرقة أخرى: ينفقون المال في الصدقات وعلى الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة**) للناس لأجل أن يظهر لهم اتفاقه (**و**) يختارون (**من الفقراء من عادته**

في السر ، ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفراناً ، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيجمعون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعاً ، ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهوّن عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه . وقال أبو نصر التمار : إن رجلاً جاء يودع بشر بن الحرث وقال : قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء ؟ فقال له : كم أعددت للنفقة ؟ فقال : ألفي درهم . قال بشر : فأي شيء تبتغي بحجتك تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال : ابتغاء مرضاة الله . قال : فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فاعطها عشرة أنفس : مديون يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه ، وإن قوي قلبه تعطيها واحداً فافعل ، فإن ادخالك السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفان وكشف الضر وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام .

الشكر) والثناء **(والإفشاء للمعروف)** بين الناس ، **(ويكرهون التصدق في السر ، ويرون إخفاء الفقير لما أخذ منهم جناية عليهم وكفراناً)** لنعمتهم ، **(وربما يحرصون على انفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعاً ، ولذلك قال ابن مسعود)** رضي الله عنه ، **(في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهون عليهم السفر)** أي لما يتعوّدونه **(ويبسط لهم في الرزق)** أي يكثر دخلهم بالتجارات وغيرها ، **(ويرجعون محرومين)** أي عن الأجر **(مسلوبين)** عن الثواب **(يهوي بأحدهم بعيره بين القفار والرمال وجاره مأسور)** أي مربوط **(إلى جنبه لا يواسيه)** ولا يسأل عنه . **(وروى أبو نصر التار)** عبد الملك بن عبد العزيز القشري النسائي ثقة عابد مات سنة ثمان وعشرين وهو ابن إحدى وتسعين سنة روى له مسلم والنسائي **(أن رجلاً جاء يودع)** أبا نصر **(بشر بن الحرث)** الحافي رحمه الله تعالى **(وقال : قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء فقال له)** بشر : **(كم أعددت للنفقة)** أي هيأت لها ؟ **(فقال : ألفي درهم . فقال بشر : فأي شيء تبتغي بحجك تزهداً)** في الدنيا **(أو اشتياقاً إلى البيت)** المكرم **(أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال : ابتغاء مرضاة الله)** . قال بشر : **(فإن أصبت رضا الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله أتفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فاعطها عشرة أنفس : مدين يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه)** أي يصلح حاله الذي غيره ، **(ومعيل)** أي صاحب عيال **(يغني عائلته ، ومر بي يتيم يفرحه وإن قوى قلبك تعطيها واحداً)** من هؤلاء **(فافعل ، فإن ادخال السرور على قلب المسلم وإغاثة اللهفات وكشف الضر)** عن المضرور **(وإعانة الضعيف أفضل من**

قم فأخرجها كما أمرناك وإلاً فقل لنا ما في قلبك. فقال: يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر رحمه الله تعالى وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

وفرقة أخرى: من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها. ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء، ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين؟ ولذلك قيل لبشر: إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة، فقال المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

مائة حجة بعد حجة الإسلام. قم فاخرجها كما أمرناك وإلا فقل لنا ما في قلبك. فقال) الرجل: **(يا أبا نصر)** هي كنية بشر **(سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر رحمة الله وأقبل عليه فقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً)** من أوطارها، **(فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين)** نقله صاحب القوت.

(وفرقة أخرى: من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل) والشح، **(ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن)** وغير ذلك، **(وهم مغرورون لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج إلى قمعه باخراج المال، فقد اشتغل بفضائل هو مستغن عنها)** فغرور هؤلاء في ترك الأهم الأنفع. **(ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين، ولذلك قيل لبشر)** الحافي رحمه الله تعالى: **(إن فلاناً الغني كثير الصوم والصلاة فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء)** منها نقله صاحب القوت.

وفرقة أخرى: غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم أنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم، أو من يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخار في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض، أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته. وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر إذ طلب بعبادة عوضاً من غيره، فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضاً لا يحصى، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور.

وفرقة أخرى: من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجراً، وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مزغباً في الخير، فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها، وما يراد لغيره فإذا قصر عن

(**وفرقة أخرى: غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم أنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه**) وهو القديم أو الممسوح سكته أو المكسور جانبه أو الناقص وزنه أو عياره، (**ويطلبون من الفقراء من يخدمهم**) في منزلهم (**ومن يتردد في حاجاتهم**) لتقضى من بعيد أو قريب، (**أو من يحتاجون إليه في المستقبل للاستسخار في خدمة**) معينة، (**أو من لهم فيه على الجملة غرض، أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمته**) أي يستقوى بها (**لينال بذلك عنده منزلة فيقوم له بحاجاته، وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور، و**) هو مع ذلك (**يظن أنه مطيع لله وهو فاجر إذ طلب لعبادة الله عرضاً من غيره، فهذا وأمثاله من غرور أرباب الأموال أيضاً لا يحصى، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور**) ليقاس عليه ما لم يذكره.

(**وفرقة أخرى: من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر**) والاغتباط بها، (**واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة**) لا يفارقونها، (**ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ**) والذكر (**دون العمل ودون الاتعاظ أجراً**) من الله تعالى، (**وهم مغرورون لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير فإن لم يهيج الرغبة**) فيه (**فلا خير فيه والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل، فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها، وما يراد لغيره، فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا**

الأداء إلى الغير فلا قيمة له، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ عن فضل حضور المجلس وفضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربما يسمع كلاماً مخوّفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم! أو نعوذ بالله أو سبحان الله! ويظن أنه قد أتى بالخير كله وهو مغرور، وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئاً. فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك، فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً.

فإن قلت: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه، وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر خفايا هذه الآفات؟ فأقول: الإنسان إذا فترت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق في الوصول إلى الغرض حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جوّ السماء مع

قيمة له، وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي وربما يسمع كلاماً مخوّفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا رب سلم سلم، أو) يقول (**نعوذ بالله أو سبحان الله**) أو نحو ذلك. (**ويظن انه قد أتى بالخير كله وهو مغرور، وإنما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري**) فيها من المحاورات، (**أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف، و**) معلوم ان (**ذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئاً، وكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتى تقبل على الله إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتعرض عن الدنيا**) قلباً وقالباً، (**فذلك الوعظ زيادة حجة عليك فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغـــروراً**).

(**فإن قلت: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه وهذا يوجب اليأس**) من إدراكه (**إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات؟ فأقول: الإنســان إذا فترت همتــه**) أي ضعفـت (**في شيء أظهـر اليـأس منـه واستعظم الأمر**) أي عدّه عظيماً (**واستوعر الطريق**) أي استصعبه، (**وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق في الوصول إلى الغرض حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق**) أي المرتفع (**في جوّ السماء مع بعده منه**

بعده منه استنزله، وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه، وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها، وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملوّن المنقش من ورق التوت اتخذه، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات، فسخر الفرس للركوب، والكلب للصيد، وسخر البازي لاقتناص الطيور، وهيأ الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي. كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه، فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال: هذا محال ومن الذي يقدر عليه؟ وليس ذلك بمحال ولو أصبح وهمه هذا الهم الواحد بل هو كما يقال:

استنزله) بحيله منه، **(وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه)** بحيلة منه، **(وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه)** بحيلة منه، **(وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها)** بحيلة منه، **(وإذا أراد أن يستسخر السباع)** الضارية **(والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها)** بحيلة منه، **(وإذا أراد أن يأخذ الأفاعي والحيات ويعبث بها أخذها واستخرج الترياق من أجوافها)** كل ذلك بحيلة منه، **(وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملوّن المنقش من ورق التوت)** والفرصاد **(اتخذه)** فإن دود القز إنما يتربى بورق التوت ولهم في تربيته صناعات دقيقة، **(وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها)** وكيف سيرها وقطعها الفلك **(استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض)** لم يتحرك، **(وكل ذلك باستنباط الحيل)** اللطيفة **(وإعداد الآلات)** المتنوّعة الموصلة إلى ذلك، **(فسخر الفرس للركوب)** بالارتياض، **(والكلب للصيد)** وللحراسة، **(وسخر البازي لاقتناص الطيور، وهيأ الشبكة لاصطياد السمك إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي، كل ذلك لأن همه أمر** دنياه **وذلك معين له على دنياه، فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه)** فقط وهو تسويته وتعديله وتنظيفه عن الخواطر الرديئة حتى يكون مهبطاً لأنوار الله تعالى، **(فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل. وقال: هذا محال ومن الذي يقدر عليه)** جهلاً منه وعناداً، **(وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد بل هو كما يقال)**:

لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحين ومن اتبعهم بإحسان فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها.

فإن قلت: قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثرت في ذكر مداخل الغرور فيم ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل والعلم والمعرفة. فهذه ثلاثة أمور لا بد منها.

أما العقل: فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء، فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة، والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بدّ منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن. نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة. قال رسول الله ﷺ: «تبارك الله الذي قسم العقل بين

(لو صح منك الهوى أرشدت للحيل)

أي فمتى استقام القلب تنبه لمداخل الغرور فلا يبقى منه شيء إلا وقد وفق لقمعه، (**فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون**) من الصحابة الكرام (**ومن اتبعهم باحسان**) وسلك على سوى نهجهم، (**فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرداته**) في سلوك طريق الحق (**وقويت همته**) بعد أن أجمعت، (**بل لا يحتاج إلى عُشر**) معشار (**تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها**) وتلفيق أجزائها.

(**فإن قلت: قد قربت الأمر فيه بعد أن أكثرت في ذكر مداخل الغرور**) وآفاتها، (**فبم**) وفي نسخة: فمتى (**ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم أنه ينجو**) منه (**بثلاث أمور: بالعقل والعلم والمعرفة. فهذه ثلاثة أمور لا بدّ منها**).

(**أما العقل فاعني به الفطرة الغريزية**) التي فطر عليها الإنسان (**والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء**) على ما هي عليها، (**فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة، والبليد لا يقدر على التحفظ من الغرور، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بدّ منه في أصل الفطرة، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان**) من الأصل (**فاكتسابه غير ممكن**) امكاناً عادياً. (**نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة**) والمزاولة، (**فأساس السعادات كلها العقل والكياسة، قال رسول الله ﷺ: «تبارك الله الذي قسّم العقل بين عباده**

عباده أشتاتاً » إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أُحد، وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين. وعن أبي الدرداء أنه قيل: يا رسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدق ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: « إنما يجزى على قدر عقله ». وقال أنس: أثني على رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا خيراً، فقال رسول الله ﷺ: « كيف عقله »؟ قالوا: يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه. فقال: « كيف عقله فإن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر. وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم ».

أشتاتاً » إن الرجلين ليستوي عملهما وبرّهما وصومهما وصلاتهما، ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة) وهي تتراءى في ضوء الشمس من الكوّة **(في جنب أُحد)** الجبل المشهور، **(وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين)** قال العراقي: رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلاً، وفي أوله قصة وإسناده ضعيف. ورواه بنحوه من حديث أبي حميد وهو ضعيف أيضاً اهـ.

قلت: حديث أبي حميد لفظه: « إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلي وصلاته لا تعدل جناح بعوضة، وأن الرجل ليأتي المسجد فيصلي وصلاته تعدل جبل أُحد إذا كان أحسنهما عقلاً ». قيل: وكيف يكون أحسنهما عقلاً؟ قال « أورعهما عن محارم الله وأسرعهما عن أسباب الخير وإن كان دونه في العمل والتطوّع ».

(وعن أبي الدرداء) رضي الله عنه **(أنه قيل: يا رسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدق ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ما يعلم منزلته عند الله تعالى يوم القيامة؟ فقال: ﷺ: « إنما يجزي على قدر عقله »)** قال العراقي: رواه الخطيب في التاريخ، وفي رواية مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبي الدرداء اهـ.

قلت: وهو كذلك لكن لفظه « إن الرجل يصوم ويصلي ويحج ويعتمر فإذا كان يوم القيامة أعطي بقدر عقله » هكذا رواه الخطيب في كتابيه، وأبو الشيخ في كتاب الثواب.

(وقال أنس) رضي الله عنه: **(أثني على رجل عند رسول الله ﷺ فقالوا: خيراً فقال ﷺ « كيف عقله »؟ قالوا: يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه. فقال: « كيف عقله فإن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وإنما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم »)** رواه داود بن المحبر في كتاب العقل وهو ضعيف، وقد تقدم في كتاب العلم.

وقال أبو الدرداء: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله، فإذا قالوا حسن قال: «أرجوه» وإن قالوا غير ذلك قال: «لن يبلغ» وذكر له شدة عبادة رجل فقال: «كيف عقله»؟ قالوا: ليس بشيء. قال: «لم يبلغ صاحبكم حيث تظنون». فالذكاء وصحة غريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها.

الثاني: المعرفة. وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة. فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعاً هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط، فلا يتصوّر أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه، فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة، وفي كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب التفكر، وكتاب الشكر إذ فيها إشارات إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله، ويحصل به التنبه على الجملة وكمال المعرفة وراءه، فإن هذا من علوم المكاشفة، ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة. وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما

(وقال أبو الدرداء) رضي الله عنه: **(كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قلوا حسن قال «أرجوه» وإن قالوا غير ذلك قال «لن يبلغ» قال: وذكر له شدة عبادة رجل فقال «كيف عقله»؟ قالوا: ليس بشيء. قال «لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون»)**. قال العراقي: رواه الحكيم في النوادر وابن عدي ومن طريقه البيهقي في الشعب وضعفه. **(فالذكاء وصحة غريزة العقل نعمة من الله تعالى)** في أصل الفطرة، **(فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها)**.

(الثاني: المعرفة وأعني به أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة: فيعرف نفسه بالعبودية والذل) والافتقار، ويعرف ربه بالسيادة والعظمة والاقتدار، **(و)** يعرف نفسه أيضاً **(بكونه غريباً في هذا العالم)** مسافراً منه إلى دار الآخرة **(وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، وإنما الموافق له طبعاً هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه فقط، ولا يتصوّر أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه و)** ما **(لم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه في كتاب المحبة، وفي كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب التفكر، وكتاب الشكر إذ فيها إشارات)** ورموز **(إلى وصف النفس وإلى وصف جلال الله تعالى)** وعظمته، **(ويحصل به التنبيه على الجملة وكمال المعرفة وراءه، فإن هذا من علوم المكاشفة ولم نطنب في هذا الكتاب إلا في علوم المعاملة)**. وأما علوم المكاشفة فإنما نشير إليها بنتف من العبارات على حسب اقتضاء المقام. **(وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما**

ذكرناه في كتاب ذم الدنيا، وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة، فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة. وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال، فإن ذلك هو المفسد للنية. وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور.

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم. أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله، وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله، فإن

ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذم الموت ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة، فإذا **عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الدنيا، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، فيصير أهم** أموره ما يوصله إلى الله **تعالى وينفعه في الآخرة. فإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منها الاستعانة على سلوك طريق الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال)** والتطلع إليها. (**فإن ذلك هو المفسد للنية. وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله فلا يمكنه الخلاص من الغرور)** أصلاً.

(فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث وهو العلم: أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى، والعلم بما يقربه من الله وبما يبعده عنه، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين، فيعلم من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه) ويتركه، **(ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة في طريق**

المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بدّ وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فإن قلت: فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه؟ فأقول: يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاء من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها وانقطع طمعه عن الخلق، فلم يلتفت إليهم ولم يبق له إلا هم واحد، وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه. وقد عجز الشيطان عن إغوائه إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس، فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء إلى الله، فينظر العبد برحمته إلى العبيد فيراهم

الله) وهي الصفات التي كالعقبات (**فإن المانع من الله**) هي (**الصفات المذمومة في الخلق**) وهي التي تصد عن الله، (**فيعلم المذموم**) منها (**ويعرف طريق علاجها ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بدّ وأن توضع خلفاً عن**) الصفات (**المذمومة بعد محوها**) وإزالة أثرها، (**فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.**)

(**فإن قلت: فإذا فعل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه؟ فأقول: يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه إلى نصح الخلق**) بالوعظ والتذكير (**ونشر العلم**) بالإفادة والتدريس (**ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله، فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب**) بالأذكار السرية (**حتى صفاه من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم**) الذي لا عوج فيه ولا ميل إلى حدي الافراط والتفريط، (**وصغرت الدنيا**) مع ضخامتها (**في عينيه فتركها**) لحقارتها (**وانقطع طمعه عن الخلق، فلم يلتفت إليهم ولم يبق له إلا همّ واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق إلى لقائه، وقد عجز الشيطان عن إغوائه**) وإضلاله (**إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه**) إذ هو قد تركها واستحقرها، (**ويأتيه من جهة الدين ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله والشفقة عليهم وعلى دينهم بالنصح لهم والدعاء إلى الله فينظر العبد**) حينئذ (**برحمته**) وعاطفته

حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صماً عمياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون. وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب، فغلب على قلبه الرحمة لهم، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه، وكان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء عفواً صفواً من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة في تناوله فاستعمله فبرىء وصحّ فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدأ بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية الكدر، وأصاب لذة العافية بعد طول السقام، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم، فتذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أرجى زمان فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم، فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفي من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم

(**على العبيد فيراهم حيارى في أمرهم سكارى في دينهم صماً**) آذانهم (**عمياً**) عيونهم، (**قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب**) أي الهلاك، (**فغلب على قلبه الرحمة لهم، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة**) وثقل، (**وكان مثله كرجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه، وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الألم فوجد له دواء عفواً صفواً**) بسهولة (**من غير تعب**) ولا مشقة (**ولا ثمن**) يدفع في عوضه (**ولا مرارة في تناوله، فاستعمله فبرىء**) في الحال (**وصحّ**) من مرضه (**فطاب نومه بالليل بعد طول سهره، وهدأ**) أي سكن (**بالنهار بعد شدة القلق**) والانزعاج، (**وطاب عيشه بعد نهاية الكدر، وأصاب لذة العافية بعد طول السقام، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال**) لذلك (**سهرهم واشتد قلقهم وارتفع إلى السماء أنينهم، فتذكر أن دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون وفي أدنى زمان**) أي أسرعه، (**فأخذته الرحمة والرقة**) وفي نسخة الرأفة (**ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم**) إلى معالجتهم، (**فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق وشفي من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم**) أي صعب حتى أيس من دوائه، (**وقرب هلاكهم واشفاؤهم وسهل عليه دواؤهم، فانبعث من ذات**

وإشفاؤهم، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالاً للفتنة، فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفياً أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك الدبيب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للحق بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئة، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك إذ رأوه شافياً لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع، فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولاً كالعبد والخدم فخدموه وقدموه في المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة، وأمارة انتشار الطبع وركون النفس إلى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدي الخلق غضب، فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل إليه أن ذلك

نفسه عزم جازم في الاشتغال بنصحهم) ووعظهم، **(وحرضه الشيطان على ذلك)** بتحسينه إياه **(رجاء أن يجد مجالاً للفتنة)** أي سبيلاً لايقاعها. **(فكلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالاً للفتنة فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفياً أخفى من دبيب النمل)** على الصخرة الصماء **(لا يشعر به المريد)** لخفائه، **(فلم يزل ذلك الدبيب في قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق)** وذلك **(بتحسين الألفاظ)** في وعظه **(والنغمات)** المعجبة **(والحركات)** الموزونة **(والتصنع في الزي والهيئات، فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك إذا رأوه شافياً لأدوائهم)** أي أمراضهم **(بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع)** في عوض، **(فصار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، فآثروه بأبدانهم وأموالهم وصاروا له خولاً)** أي أتباعاً **(كالخدم والعبيد)** والأجراء، **(فخدموه وقدموه في المحافل)** أي المجالس الحافلة **(وحكموه على الملوك والسلاطين، فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها من لذة)** لا توصف، **(وأصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة، وكان)** من قبل **(قد ترك الدنيا)** ولذاتها **(فوقع في أعظم لذاتها، وعند ذلك وجد الشيطان غرضه)** ومكنه **(وامتدت إلى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة)** ويصونها. **(وإمارة انتشار الطبع وركون النفس إلى الدنيا)** وفي نسخة إلى الشيطان **(أنه لو أخطأ)** مثلاً في القائه **(فردّ عليه بين يدي الخلق غضب)** على الراد **(فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل إليه أن ذلك غضب**

غضب لله لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور ، فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ، ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات ، وكذلك إذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الأوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فاتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك والشيطان يخيل إليه أنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور ، بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرئاسة ، ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ، ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرئاسة لكان يغتنم ذلك إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقي من البئر بسببه فرق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر

لله) تعالى ، **(لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع)** بهذا التخييل **(في الغرور)** أن اطمأنت نفسه إليه ، **(فربما)** إذا تمكن منه **(أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه)** في المجلس **(فوقع في الغيبة المحظورة)** شرعاً **(بعد تركه للحلال المتسع ، ووقع)** أيضاً **(في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات)** إن تطرق قلبه **(وكذلك إذا سبقه الضحك)** في المجلس **(أو فتر عن بعض الأوراد)** الذي كان وظفه على نفسه **(جزعت النفس أن يطلعوا عليه فيسقط قبوله)** عندهم **(فاتبع ذلك باستغفار وتنفس الصعداء)** كأنه يتحسر على ما فاته أو صدر منه ، **(وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجلهم)** ليريهم جدّه واجتهاده **(والشيطان يخيل إليه أنك إنما تفعل ذلك كيلاً يفتر رأيهم عن)** سلوك **(طريق الله فيتركون الطريق بتركه ، وإنما ذلك خدعة وغرور ، بل هو جزع من النفس خيفة فوات الرئاسة)** والحشمة ، **(ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه)** ونظرائه ، **(بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ، ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرئاسة لكان يغتم لذلك إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر وغطى رأس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقي)** أي الصعود **(من البئر بسببه ، فرّق قلبه لإخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه)** رفعه **(فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه)** رفعه **(أو**

عليه أو كفاه ذلك ونجاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر ، فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه يثقل ذلك عليه إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه ، فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ، ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء .

فإن قلت : فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس؟ فأقول : إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم فاستوى عنده حمدهم وذمهم ، فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم إما إلى السادات فمن حيث انه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيراً منه لجهله بالخاتمة . وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم ، فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع ، بل راعي الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه ، فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى

كفاه ذلك ونجاه بنفسه) من غير مساعدة أحد **(فيعظم بذلك فرحه لا محالة إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر ، فإن كان غرض الناصح)** الذكي **(خلاص إخوانه المسلمين من النار فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه)** باطناً وظاهراً . **(أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي ان لا يثقل عليه ذلك إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى)** ارتكاب **(جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح)** وسوّل له وأملى له **(وأهلكه)** وهو لا يشعر ، **(فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ، ومن اعوجاج النفس بعد الاستوا)** أي الاستقامة .

(فإن قلت: فمتى يصح له أن يشتغل بنصيح الناس؟ فأقول إذا لم يكن له قصد الاهدايتهم لله تعالى ، وكان يود لو وجد من يعينه عليه أو لو اهتدوا بأنفسهم) من غير مرشد **(وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم ، فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده)** ويحبه **(ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى ، وينظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم أما إلى السادات فمن حيث أنه لا يتكبر عليهم)** ولا يرى لنفسه فضلا عليهم بل **(يرى كلهم خيراً منه لجهله بالخاتمة ، وأما إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع)** في لبسه وهيئته ، **(بل راعي الماشية إنما غرضه رعاية الماشية ودفع**

نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه.

فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب؟ فأقول: قد قال رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعاش وهلكت القلوب والأبدان جميعاً إلا أنه ﷺ علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكاً لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر، ولم يترك ذكره خوفاً من أن يترك ثقة بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده لسوقهم بها إلى جهنم تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ولكن حقّ القول مني لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [السجدة: ١٣] فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب

الذئب عنها دون نظر الماشية إليه فيا لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الإشتغال بإصلاحهم نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم، فيكون كالسراج الذي يضيء لغيره ويحترق في نفسه) وقد روى الطبراني من حديث أبي برزة الأسلمي: مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها. وقد تقدم في كتاب العلم.

(فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة خلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب) لأن عمارتها بسماع النصح والناصح بالوصف المذكور نادر الوجود. **(فأقول: قد قال رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»)** رواه الديلمي في الفردوس من حديث علي وتبعه ولده ولم يذكره سنداً. ورواه البيهقي في الحادي والسبعين من الشعب من مرسل الحسن البصري وإسناده حسن، ويروى من قول عيسى عليه السلام كما في الحلية ومن قول مالك بن دينار كما عند ابن أبي الدنيا، ومن قول سعد بن مسعود التجيبي كما عند ابن يونس في تاريخ مصر ومن قول جندب البجلي كما جزم به ابن تيمية، وقد تقدم كل ذلك في كتاب ذم الدنيا **(ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش)** واضمحلت الأسباب **(وهلكت القلوب والأبدان جميعاً، إلا أنه ﷺ علم أن حب الدنيا مهلك وأن ذكر كونه مهلكاً لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم)** لها، **(فلم يترك النصح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر)** العظيم، **(ولم يترك ذكره خوفاً من أن يترك ثقة بالشهوات المهلكة التي سلطها الله تعالى على عباده ليسوقهم بها إلى جهنم تصديقاً لقوله: ﴿ولكن حق القول مني لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾)** أي ممن ركن إلى الشهوات ووثق بها ولم يرفع رأسه إلى إتباع ما جاء به رسول الله ﷺ، **(فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرئاسة)** والجاه **(ولا يدعونها)** أي لا يتركونها **(بقول من**

الرئاسة ولا يدعونها بقول من يقول: إن الوعظ لحب الرئاسة حرام، كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس، فإن الله تعالى يصلح خلقاً كثيراً بإفساد شخص واحد وأشخاص: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ [البقرة: ٢٥١] وأن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، فإنما يخشى أن تنسد طريق الاتعاظ فإما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرئاسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبداً.

فإن قلت: فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه، فما الذي يخاف عليه، وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الاغترار؟ فاعلم أنه بقي عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له: قد أعجزتني وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك، وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قوّاك على قهري ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري، فيصغي إليه ويصدقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر،

يقول: إن الوعظ لحب الرئاسة حرام كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقة والربا والظلم وسائر المعاصي بقول الله وقول رسوله) ﷺ: **(إن ذلك حرام، فانظر لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس)** غير ملتفت إليهم، **(فإن الله يصلح خلقاً كثيراً بإفساد شخص واحد وأشخاص)** كما قال الله تعالى: **(﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ و)** كما جاء في الخبر: **(إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم)** وقد تقدم الكلام عليه، **(فإنما يخشى أن يفسد طريق الإتعاظ)** أي قبول الوعظ **(فإما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرئاسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبداً)**.

(فإن قلت: فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح) والخلطة **(أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه، فما الذي يخاف عليه، وما الذي بقي بين يديه من الأخطار)** أي الأمور المخطرة **(وحبائل الإغترار)** وشبكاته؟ **(فاعلم أنه بقي عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له: قد أعجزتني)** وغلبت علي **(وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك)** وقوة يقينك، **(وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء)** فأمكنت منهم، **(وما قدرت عليك فما أصبرك)** أي أقواك صبراً **(وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قواك على قهري ومكنك من التفطن)** والتنبه **(لجميع مداخل غروري فيصغي إليه)** بإذن قلبه **(ويصدقه)** فيما زخرفه **(ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله، فيكون**

فالعجب أعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: يا ابن آدم إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي.

فإن قلت: فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى، فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب؟ فأقول: يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والإنقلاب فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره، ومن أمن مكر الله فهو خاسر جداً، بل سبيله أن يكون مشاهداً جلة ذلك من فضل الله ثم خائفاً على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه، ويكون خائفاً أن يسلب حاله في كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه

إعجابه بنفسه غاية الغرور هو المهلك الأكبر، فالعجب أعظم من كل ذنب) كما تقدم بيانه في شرح كتاب ذم العجب، ولذلك قال الشيطان: يا ابن آدم إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(فإن قلت: فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه وأن مثله لا يقوي على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله و) حسن **(معونته ومن حيث ضعف نفسه وعجز عن أقل القليل، فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى، فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب)**؟ وهو آخر مداخل الغرور **(فأقول: يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الونيرة)** أي الطريقة **(في المستقبل)** كما هو في الحال الراهن **(ولا يخاف من الفترة)** والوقفة **(والإنقلاب)** من حال إلى حال **(فيكون حاله الإتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره، ومن أمن من مكر الله فهو خاسر جداً)** بنص الآية ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٩] **(بل سبيله أن يكون مشاهداً لجملة ذلك من فضل الله)** ومنته عليه، **(ثم)** يكون **(خائفاً على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز)** في غير ذلك **(وهو غافل عنه، ويكون)** أيضاً **(خائفاً أن يسلب حاله في كل تطريفة)** وفي نسخة في كل طريقة، وفي أخرى في كل طرفة عين **(غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة)** وسوء المنقلب، **(وهذا)** أي خطر الخاتمة **(خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط)** الذي على متن جهنم،

وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال: أفلت مني يا فلان! فقال: لا. بعد. ولذلك قيل: الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فإذاً المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر، فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبداً. فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة فإن الأمور بخواتيمها.

تم كتاب ذم الغرور، وبه تم ربع المهلكات، ويتلوه في أوّل ربع المنجيات كتاب التوبة والحمد لله أوّلاً وآخراً، وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

(ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال له) الشيطان: **(أفلت مني يا فلان)** أي خلصت مني؟ **(فقال)** الولي عند ذلك: **(لا أبعد)** أي ما دام النفس موجوداً لا أتخلص من شرك. روي ذلك عن الإمام أحمد فأحب إلى الشيطان أن يسلب المؤمن إيمانه عند النزع، **(ولذلك قيل: الناس كلهم هلكى)** أي هالكون محجوبون بظلمات جهلهم المورث فيه للهلاك **(إلا العالمون)** فهم رفعوا تلك الحجب بنور معرفتهم بالله تعالى، **(والعالمون كلهم هلكى)** إذ هم محجوبون بحجب النور فيظنون أنهم قد كشف عنهم الحجاب فاغتروا فكان سبب هلاكهم **(إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون)** الذين أخلصوا الله في سائر أحوالهم، **(والمخلصون على خطر عظيم)** وقد روي هذا القول عن أبي محمد سهل بن عبدالله التستري رحمه الله تعالى أخرجه الخطيب في اقتضاء العلم والعمل قال: أخبرنا الحسن بن محمد بن محمد الخلال، حدثنا محمد بن عبدالله الشيباني قال: سمعت عبد الكريم بن كامل يقول: سمعت سهل بن عبدالله التستري يقول: الناس كلهم سكارى إلا العلماء، والعلماء كلهم حيارى إلا من عمل بعلمه.

وأخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن فضالة الحافظ أخبرنا أبو محمد الغطريفي، حدثنا بكر بن أحمد بن سعدويه قال: قال سهل بن عبدالله: الدنيا جهل وموات إلا العلم، والعلم كله حجة إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص، والإخلاص على خطر عظيم حتى يختم به، **(فإذاً المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر، فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبداً، فنسأل الله العون والتوفيق وحسن الخاتمة فإن الأمور بخواتيمها والسلام)** والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبه تم شرح كتاب ذم الغرور، وبه تم ربع المهلكات يتلوه ربع المنجيات. قال المؤلف رحمه الله تعالى: وكان الفراغ من تسويده في الثالثة من يوم الإثنين ثاني عشر جمادي الأول سنة ١٢٠٠ وكتب أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني غفر الله له بمنه حامداً الله ومصلياً ومسلماً.

كتاب التوبة وهو الأوّل من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي قبل توبة عباده رعفا عن السيئات، وأعلى مقام من خرَّ إليه بالأنابة في أعلى الدرجات، وأفاض أنواع إحسانه على المخلصين ووفقهم للأعمال الصالحات، أحمده حمداً يشرق إشراق النجوم في الدجنات، واستغفره مما سلف من الذنوب في الأيام الخاليات، وأتوب إليه من كل معصية ومخالفة وخطرات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تدفع حجوب الشكوك والشبهات وتضيء نجوم هدايتها في أوج العنايات، وتزهر سرج يقينها من مشكاة لإصابات، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله الذي ابتعثه والناس بضربون في الغمرات، ويموجون في جرة الظلمات، قد قادتهم أزمة الجبن واستغلقت على افئدتهم قفال الدين فأراهم بواهر الآيات وقارعهم بأوضح النيرات، وقادهم إلى أبواب الجنات، صلى الله عليه وعلى آله الأئمة الهداة وصحبه الآجلة الإثبات، صلاة تستنزل من سحائبه غيوب الرحمات، وتحل صاحبها من الرضمان أعلى الدرجات، وسلم تسليماً كثيراً.

(أما بعد) فهذا شرح **(كتاب التوبة)** ولواحقها الفرار والإنابة والإخبات، وهو أول الربع الرابع الموسوم بالمنجيات من كتاب الإحياء للإمام الهمام قدوة الأنام حجة الإسلام أبي حامد محمد ن محمد بن محمد الغزالي، سقى الله عهده صوب الغفران المتوالي قد وفقني الله جلت نعماؤه وتقدست اسماؤه إلى فتح باب الإرشاد، للسالكين في مسارح رياضه ومنح عدة الإسعاد، للواردين بحسن ذوقهم على موارد حياضه، لم آل جهداً في سلوك شعابه، ورياضة صعابه، وتحرير ألفاظه ومعانيه، وتبيين ما أشكل لمعانيه، متحفاً لهم بإبراز ما فيه من جلائل الفوائد ومجرياً لهم على ما ألفوه من جميل العوائد، موضحاً أدلة براهينه، مفصحاً مقاصده من قضايا قوانينه على وجه يرتضيه أهل الإرادة، ويقتفيه من وقف نفسه على الإخلاص في العبادة، باذلاً في ذلك جهد الإستطاعة، معترفاً بقلة البضاعة، مستعيناً بالله في تيسير كل عسير مستوثقاً بفيضه إنه على كل شيء قدير لا إله غيره، ولا رب سواه ولا خير إلا خيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب، وبذكره يصدّر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم في دار الثواب، وبإسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب، ونرجوه رجاء من يعلم انه

قال رحمه الله تعالى: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) المستعان به في أمر الدنيا والأخرى.

(**الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب**) الكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه، والتحميد كثرة الحمد والإستفتاح الابتداء أي كل صحيفة مهيأة للكتابة فيها، فالكاتب إنما يبتدىء فيها أول كل شيء بحمد الله تعالى وثنائه وتمجيده بما اثنى به على نفسه على لسان أنبيائه ورسله، (**وبذكره يصدر كل خطاب**) الذكر أعم من الحمد والتصدير الإبتداء، والخطاب القول الذي يفهم المخاطب به شيئاً أي ما من كلام يتحاوره المخاطبان إلا وذكر الله يكون في صدره أي أوله وصدر كل شيء أعلاه، وصدر المجلس المرتفع منه وصدره تصديراً رفعه للصدر وتصدرا ارتفع، (**وبحمده يتنعم أهل النعيم**) أي النعمة الكثيرة والتنعم تناول ما فيه نعمة وطيب عيش (**في دار الثواب**) أي الجنة يشير بذلك إلى قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ (**وباسمه يتسلى الأشقياء**) وهم المنافقون المحجوبون بنور ممزوج بالظلمة، والتسلي تفعل من السلو. قال أبو زيد: هو طيب نفس الإلف على إلفه، (**وإن أرخى دونهم الحجاب**) وهو كل ما ستر المطلوب أو منع من الوصول إليه، وقيل للستر حجاب لمنعه للمشاهدة، (**وضرب بينهم وبين السعداء**) وهم المؤمنون الموسعة صدورهم لقبول نور الإيمان (**بسور**) أي بحائط (**له باب**) يدخل فيه المؤمنون (**باطنه**) أي باطن السور أو الباب (**فيه الرحمة**) لأنه يلي الجنة، (**وظاهره من قبله العذاب**) أي من جهته لأنه يلي النار يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ أي انتظرونا فإنهم يسرح بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف، أو أنظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم بين أيديهم قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة فإنه يتولد منها، وهو تهكم بهم وتخييب من المؤمنين أو من الملائكة، فضرب بينهم بسورة الآية. (**ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب**) أي سيد السادات ومالك الملوك (**ومسبب الأسباب**) جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى غيره وقد سببه إياها وسبب له إذا أمكنه منها، (**ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك**) المستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، ومحتاج إليه كل موجود (**الرحيم**) وهو

الملك الرحيم الغفور التوّاب، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب، إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب.

ونصلي على نبيه محمد ﷺ وعلى آلة وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب. وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب.

أما بعد فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب علام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأوّل أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الإصطفاء والاجتباء للمقربين، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وما أجدر بالأولاد، الإقتداء بالآباء والأجداد، فلا غرو أن أذنب الآدمي

مفيض الخير على المحتاجين تماماً وعموماً (**الغفور**) أي تام الغفران وكامله حتى يبلغ أقصى درجات المغفرة (**التواب**) وهو الذي يرجع إلى تيسر أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى بما يظهر لهم من آياته ويسوق إليهم من تنبيهاته ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتى إذا طلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه فرجعوا إلى التوبة فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول، (**ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب**) أي لا يشك، (**أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب**) مصدر كالتوبة وقيل جمعها (**شديد العقاب**) أي مشددة أو الشديد عقابه وتوسط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الإتحاد أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر وذلك لمن لم يتب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

(**ونصلي**) ونسلم (**على**) سيدنا ومولانا (محمد و)على (**آله وصحبه**) الأكرمين (**الأئمة الأنجاب**) وسقط ذلك من بعض النسخ، (**صلاة تنقذنا**) أي تخلصنا (**من هول**) أي مخافة (**المطلع**) هو مفتعل اسم مفعول موضع الإطلاع من المكان المرتفع إلى المنخفض، وهو المطلع من ذلك شبه ما يشرب عليه من أمور الآخرة (**يوم العرض**) على الله (**للحساب**) بذلك، (**وتمهد لنا**) أي تهيء وتبسط (**عند الله زلفي**) وهو اسم المصدر بمعنى القربة والمنزلة (**وحسن مآب**) أي مرجع.

(**أما بعد، فإن التوبة من الذنوب بالرجوع إلى سائر العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين**) إلى الله (**وراس مال الفائزين**) بوصال الله، (**وأول أقدام المريدين**) في سلوك طريق الله، (**ومفتاح استقامة المائلين**) في زخارف الإشتباه بل هي أصل كل مقام وقوامه ومفتاح كل حال وهي أول المقامات وهي بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا بناء له، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام، (**و**) هي (**مطلع الإصطفاء والإجتباء للمقربين**) في حضرة الربوبية، (**ولأبينا آدم**) صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين (**أجمعين وما اجدر**) أي

واجترم، فهي شنشنة يعرفها من أخزم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر وعمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كل طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم، ولقد قرع آدم سن الندم، وتندم على ما سبق منه وتقدم. فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة قد زلت به القدم. بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجردللشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين، فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان، فقد ازدوج في طينة الإنسان

اليق (**بالأولاد الإقتداء بالآباء والأجداد فلا غرو**) أي لا عجب (**أن أذنب الآدمي واجترم**) أي اكتسب الإثم (**فهي شنشنة**) بكسر الشينين المعجمتين وسكون النون الأولى وفتح الثانية وهي الطبيعة والعادة (**يعرفها من أخزم ومن شابه أباه فما ظلم**) أي ما تعدى، وهذا المثل لأبي أخزم رؤبة بن ربيعة بن جرول بن ثقل بن عمرو الطائي الجد السادس لحاتم المشهور مات ابنه أخزم وكان عاقاً لأبيه وترك بنين منهم مرة وعدي وعبد شمس فوثبوا يوماً على جدهم في مكان واحد فادموه فقال:

إن بني زملوني بالدم ... من يلق آساد االرجال يكلم
ومن يكن ذاد أبه يفدم ... بشنشنة يعرفها من أخزم

أي أنهم أشبهوا أباهم في الطبيعية والعادة هكذا ذكره ابن الكلبي وتبعه الجوهري: ونقل أبو عبيدة فيه: نشنشة بتقديم النونين على الشينين وهو من الأمثال السائرة المشهورة أوسعت الكلام فيه في شرحي على القاموس فراجعه، (**ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هرم**) أي أعطى عمراً ثانياً بعد أن ضعفت قواه، (**فليكن النزوع إليه**) أي إتباعه (**في كلا طرفي النفي والإثبات والوجود والعدم، ولقد قرع آدم عليه السلام سن الندم**) وهو أيضاً من الأمثال المشهورة يقال قرع فلان سنه إذا أحرقه ندماً وانشد أبو نصر النابغة الذبياني:

ولو أني أطعتك في أمور ... قرعت ندامة من ذاك سني

وقال تأبط شراً:

لتقرعن عليّ السن من ندم ... إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي

(**وتندم على ما سبق منه**) من المخالفة (**وتقدم فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم**) أي اضطربت ولم يثبت (**بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين والتجرد للشرّ دون التلافي**) أي التدارك (**سجية الشياطين**) أي طبيعتهم وعادتهم التي جبلوا عليها، (**والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر، ضرورة الآدميين فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان والمتجرد للشر شيطان والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان**) فالموجودات منقسمة إلى حية وميتة، ودرجات الأحياء ثلاث درجات: درجة الملائكة،

شائبتان، واصطحب فيه سجيتان، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان، والمصر على الطغيان، مسجل على نفسه بنسب الشيطان، فأما تصحيح النسب بالتجرد لمحض الخير إلى الملائكة فخارج عن حيز الإمكان، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم كما لا يخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين، والمبادرة إلى أخف الشرين قبل أن يطوي بساط الإختيار، ويساق إلى دار الإضطرار. أما إلى الجنة وإما إلى النار. وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها

ودرجة الأنس والجنَ،ودرجة البهائم. فالملك درجته أعلى الدرجات لأنه عبارة عن موجود لا يؤثر القرب والبعد في إدراكه، بل لا يقتصر على إدراكه على ما يتصور فيه القرب والبعد إذ القرب والبعد يتصور على الأجسام والأجسام أخس أقسام الموجودات، ثم هو مقدس عن الشهوة والغضب فليست أفعاله بمقتضى الشهوة والغضب بل داعية إلى طلب القرب إلى الله، وأما الإنسان: **(فقد أدرج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيتان)** فإن درجته متوسطة بين الدرجتين، فكأنه مركب من بهيمية وملكية، والأغلب عليه في بداية أمره البهيمية إذ ليس له املاء عن الإدراك إلا الحواس التي يحتاج في الإدراك بها إلى طلب القرب من المحسوس بالسعي والحركة إلى أن يشرق عليه بالآخرة نور العقل المتصرف في ملك السموات والأرض من غير حاجة إلى حركة بالبدن وطلب قرب مماشـة مع المدرك له، بل مدركه الأمور المقدسة من قبول القرب والبعد بالمكان وكذلك المستولى عليه أولاً شهوته وغضبه وبحسب مقتضاهما انبعاثه إلى أن تظهر فيه الرغبة في طلب الكمال والنظر للعاقبة وعصيان مقتضى الشهوة والغضب، **(وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم عليه السلام بملازمة حد الإنسان)** الذي هو الرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر، **(والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان)** أي قاض به يقال سجل القاضي تسجيلاً إذا قضى وحكم وأثبت حكمه في السجل وهو كتاب القاضي والجمع سجلات، **(فأما تصحيح النسب بالتجرد لمحض الخير إلى الملائكة فخارج عن حيز الإمكان، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عليه السلام عجباً محكماً لا تخلصه إلا إحدى النارين نار الندم)** في الدنيا **(أو نار جهنم)** في الآخرة **(فالإحراق بالنار ضروري)** أي معلوم بالضرورة **(في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان)** وهي مقتضى الشهوات النفسية. **(وإليك الآن اختيار أهون النارين والمبـادرة إلى أخـف الشريـن قبـل أن يطـوي بسـاط الإختيار)** وذلك عند حلول الموت، **(ويساق إلى دار الإضطرار إما إلى الجنة وإما إلى النار)** فإن أذاب تلك الخبائث بنار الندم ومضى مقتضى الشهوة والغضب وأناب إلى ربه وملك بنفسه أخذ

في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان:

الركن الأوّل: في نفس التوبة وبيان حدّها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال، وأنها إذا صحت كانت مقبولة.

الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر.

الركن الثالث: في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة.

بذلك شبهاً من الملائكة، وكذلك إن نظم نفسه من الجمود والخيالات والمحسوسات وأنس بالإدراك أخذ شبهاً آخر من الملائكة، فإن خاصية الحياة الإدراك والعقل وإليهما يتطرق النقصان والتوسط والكمال، ومهما اقتدى بالملائكة في هاتين الخاصيتين فقد صحح نسبه إليهم وصار قريباً بهم، والملك قريب من الله، والقريب من القريب قريب. وعلى هذا التفصيل قالوا: إن التوبة مخصوصة بنوع الإنسان لتركيبه من طرفي مشابهة الملائكة والبهائم ومن نظر إلى هذا قال: حقيقة التوبة ترجع إلى الرجوع من الشر الشرعي إلى الخير الشرعي ومن الطريق المبعدة إلى الطريق المقربة كما سيأتي بيانه.

(وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها) وحدها **(وشروطها)** الملازمة لها **(وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان)**.

(الركن الأول: في نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال، وأنها إذا صحت كانت مقبولة).

(الركن الثاني: فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان أنقسامها إلى صغائر وكبائر وما يتعلق) منها **(بالعباد وما يتعلق)** منها **(بحق الله تعالى، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر)**.

(الركن الثالث: في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة).

الركن الرابع: في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين.

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل.

الركن الأول: في نفس التوبة: وفيه فصول أربعة

بيان حقيقة التوبة وحدها:

(**الركن الرابع: في**) بيان (**السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الإصرار من المذنبين، ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله تعالى**) .

الركن الأول: في نفس التوبة، وفيه فصول أربعة:
أول فصل في بيان حقيقة التوبة وحدها:

ولنقدم قبل الخوض في كلام المصنف بيان أن التوبة من جملة المقامات، والفرق بين المقام والحال واختلاف أقوالهم فيه، وكيفية ترتيب المقامات. قال الشيخ أبو طالب المكي في القوت الفصل الثاني والثلاثون فيه كتاب شرح مقامات اليقين التسعة، وأحوال المتقين أصل مقامات اليقين التي ترد إليها فروع أحوال المتقين تسعة: أولها التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا والمحبة وهذه مجملة للخصوص وهي محبة المحبوب اهـ.

وقال صاحب العوارف في ذكر المقامات على الترتيب: هكذا التوبة الورع الزهد الصبر الفقر الشكر الخوف الرجاء التوكل الرضا، فزاد فيها الورع وفي ترتيب الأحوال هكذا المحبة لله تعالى الأنس به القرب الحياء الإتصال القبض والبسط الفناء والبقاء، فهي تسعة. وجعل صاحب القوت المحبة لله من مكملات المقامات، وسيأتي الكلام في محله إن شاء الله تعالى.

وأما الحال والمقام والفرق بينهما فقال صاحب العوارف ما حاصله: كثر الإشتباه بينهما واختلفت إشارة الشيوخ في ذلك ووجود الإشتباه لمكان تشابههما في أنفسهما وتداخلهما، فتراءى للبعض الشيء حالاً، وتراءى للبعض مقاماً وكلا الروايتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة مشعر بالفرق، فالحال سمي حالاً لتحوّله، والمقام مقاماً لثبوته واستقراره، وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً، وقد تداولت السنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب، وإن شئت قلت كلها مواهب، إذا المكاسب محفوفة بالموهبة والمواهب محفوفة بالكسب، فالأحوال مواسد والمقامات طرق المواجيد، ولكن المقامات ظهر الكسب وبطنه الموهبة، وفي الأحوال بطن الكسب وظهره الموهبة، فالأحوال مواهب علوية وسماوية والمقامات طرقها.

وقال بعض مشايخ العراق الحال ما من الله فكل ما كان من طريق الإكتساب والأعمال يقولون

هذا ما من العبد فإذا لاح للمريد شيء من المواهب والمواجيد قالوا هذا ما من الله تعالى وسموه حالاً إشارة منهم إلى أن الحال موهبة.

وقال بعض مشايخ خراسان، الأحوال مواريث الأعمال وقال بعضهم: الأحوال كالبرق فإن بقي فحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق، وإنما يكون ذلك في بعد الأحوال، فإنها تطرق ثم تسليها النفس فأما على الإطلاق مثلاً. والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء. وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت، فإذا لم تدم فهي لوائح وطوالع وبوادر وهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال.

فصل

وهل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه؟ اختلفوا فيه، فقال بعضهم: لا ينبغي أن ينتقل إلى غير الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه. وقال بعضهم: لا يكمل له الذي هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالي إلى ما دونه من المقام فيحكم أمر مقامه. والأولى أن نقول: والله أعلم. اعلم ان الشخص يعطى حالاً من مقامه الأعلى الذي سوف يرتقي اليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك، ولا يضاف الشيء إلى العبد أن يرتقي أو لا يرتقي، فإن العبد بالأحوال يرتقي إلى المقامات والأحوال مواهب ترقى الى المقامآت التي يمتزج منها الكسب بالموهبة، ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه، فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال، فعلى ما ذكرنا يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة ولا تعرف إلا مقاماً فيها حال مقام، وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام والمحبة حال ومقام.

فصل

وأما كيفية ترتيب المقامات على وجه الأعمال؟ اعلم أن المقامات والأحوال وثمراتها فجميعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة، وهي في إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التي جعلها الله باجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية، ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلج ملكوت السموات ويكاشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله المنزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيأت وتأكدت إحدى الثلاث بعد الايمان التوبة النصوح، والثاني الزهد في الدنيا، والثالث تحقيق العبودية بدوام العمل له ظاهراً وباطناً من غير فتور ولا قصور، ثم يستعان على هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي: قلة الكلام، وقلة المنام، وقلة الطعام والاعتزال عن الناس، فالتوبة في مبدأ صحتها تفتقر إلى أحوال، وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال، فالأحوال التي تتقدم التوبة في استقامتها إلى المحاسبة في الظاهر والمراقبة في الباطن والرعاية، والأخيران

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال،

حالان شريفان ويصيران مقامين بصحة مقام التوبة على الكمال بها، فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة، وإذا صدق العبد في توبته صار منيفاً وهو ثاني درجة التوبة، ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة وهو تحقيق مقام التوبة، ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة، ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بالصبر، وحقيقته كائن في التوبة ككينونة المراقبة فيها، والصبر على الخمول، والتواضع والذل داخل في الزهد وإن لم يكن داخلاً في التوبة، وكل ما في التوبة من المقامات والأحوال يوجد في الزهد وهو ثالث الأربعة، ثم ان النفس بالمحاسبة والمراقبة تصفو وتنطفىء نيرانها المتنافجة بمتابعة الهوى وتبلغ بطمأنيتها محل الرضا ومقامه، والرضا ثمرة التوبة النصوح، وما تخلف عبد عن الرضا إلا بتخلفه عن التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر وحال الرضا ومقام الرضا، والخوف والرجاء مقامان كائنان في صلب التوبة النصوح لأن خوفه حمله على التوبة، ولولا خوفه ما تاب، ولولا رجاؤه ما خاف، ويعتدلان للتائب المستقيم في التوبة. ثم ان التائب حيث قيد الجوانح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعته فقد شكر المنعم، فإذا جمعت التوبة هذه المقامات والأحوال انجلت مرآة القلب وبان قبح الدنيا فيه فيحصل الزهد، والزاهد يتحقق فيه التوكل لأنه لا يزهد في الموجود إلا لاعتماده على الموعود، والسكون إلى وعد الله هو عين التوكل وكل ما بقي على العبد من بقية في تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهده في الدنيا وهو ثالث الأربعة، وإذا صح زهد العبد صح توكله أيضاً لأن صدق توكله مكنه من الزهد في الوجود، فمن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقق هذين المقامين استوفى سائر المقامات وتحقق بها، فإذا تاب توبة نصوحاً ثم زهد في الدنيا حتى لا يهتم لأمر غد ولا يدخر جمع في هذا الزهد والفقر والزهد أفضل من الفقر وهو فقر وزيادة لأن الفقير عادم للشيء اضطراراً، والزاهد تارك للشيء اختياراً، وزهده يحقق توكله، وتوكله يحقق رضاه، ورضاه يحقق الصبر، والصبر يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة، وحبس النفس لله يحقق خوفه، وخوفه يحقق رجاءه. ويحظى بالتوبة والزهد بكل المقامات وهما إذا اجتمعا مع صحة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها، وهو دوام العمل لأن الأحوال السنية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة ويصير بعضها متوقفاً على وجود الرابع، وهو دوام العمل لله لا يشغله عنه إلا واجب شرعي أو مهم لا بدّ منه طبعي، فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكاً بدوام العمل فقد أكمل الفضل وما آلى جهداً في العبودية، ومنه يصل إلى مقام الفناء والبقاء وهو مقام عزيز، ولنعد إلى شرح كلام المصنف قال رحمه الله تعالى:

(**اعلم ان التوبة**) مقام من جلة مقامات اليقين التسعة، وهي (**عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم وحال وفعل**)، والمراد بالفعل العمل لكن العمل أخص إذ الفعل ما ظهر عن داعية من الموقع كان عن علم أو غير علم لتدين كان أو غيره، والعمل كل فعل من الحيوان يقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوان الذي يقع منه فعل بغير

وفعل، فالعلم الأول، والحال الثاني، والفعل الثالث، والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث ايجاباً اقتضاه إطراد سنة الله في الملك والملكوت. أما العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة

قصد وقد ينسب إلى الجهاد، والعمل قد لا ينسب إلى ذلك، ولذلك قيل: لو قال وعمل كان أنسب.

ولنقدم قبل الخوض فيه مقدمة تتنزل منزلة التوطئة وتمهيد الكل ما نستقبله من مقام وحال. فاعلم أن جملة ما تكلم الناس فيه من المقامات والأحوال كلها هي من الايمان بالله ولله. قال الله تعالى: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي﴾ [البقرة: ١٨٦] والإيمان بالله ولله عقود كثيرة لا نهاية لها لأن كل ما ورد من أسماء الله تعالى سواء دل على عين الذات الأقدس أو على صفة من صفاتها أو على سلب نقص وعيب عنها أو على اثبات جلال وكمال لها، فهو من عقود الايمان بالله. وكل ما جاءنا عن الله من أمر أو نهي أو خبر ماض أو مستقبل أو حال فهو من الإيمان لله تعالى، وسيأتي في كل مقام بيان كل ما هو من الإيمان بالله أو لله في موضعه إن شاء الله تعالى، فإذا علمت أن عقود الإيمان لا حصر لها كان النفي والإيجاب لا نهاية لها والأوامر والنواهي كذلك، لان من جملتها النفي والإيجاب علمت أن كل عقد من عقود الايمان أصل، ولذلك الأصل فرع وللفرع ثمرة، ولذلك شبه الله تعالى الإيمان بالشجرة. قال الله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب اللهُ مثلاً كلمة طيبةً كشجرةٍ طيّبةٍ أصلُها ثابت وفرعها في السماء ★ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] فعرفنا أن لها أصلاً ثابتاً في القلوب بما أمد ساقه من النظر والاعتبار، وعرفنا أن لها فروعاً تنشأ منها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها، وعرفنا بقوله: ﴿تؤتى أكلها كل حين﴾ أن لها ثماراً هي أعمالنا الناشئة عن أحوال قلوبنا وبها نجاتنا وكمالنا، وقوله: ﴿بإذن ربها﴾ لأنه خالقها ومالكها، وفيه دليل الرد على من يقول بالتولد، وفيه دليل على أن لا يصدر منها فعل من أفعالنا إلا وهو موجود بقدرته على ما قدرته مشيئته.

ولما علم المصنف رحمه الله تعالى ذلك قال ما قال مشيراً إلى أن كل مقام ينتظم من علم وحال وفعل، (**فالعلم أوّل**) لأنه هو الأصل الذي هو عقد من عقود الايمان بالله أو لله، (**والحال ثاني**) وهو ما ينشأ عنه من المواجيد، (**والفعل ثالث**) وهو ما تنشئه المواجيد على القلوب والجوارح من الأعمال، (**فالأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه إطراد سنة الله تعالى في**) عالمي (**الملك والملكوت**)، ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿وليعلم الذين أُوتوا العلم أنـه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم﴾ [الحج: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ١٣٥] وهذه الآية جامعة لمجامع أركان التوبة للمتأمل، فإذا فهمت هذه المقدمة لم يعسر عليك استنتاج الأحوال من العلوم واستفتاح الأعمال من الأحوال.

(أما العلم؛ فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب،

محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم. فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوّت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى ارادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالإستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً، وأما بالإستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر. وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب

فإذا عرف ذلك معرفة حقيقية) مؤيدة **(بيقين غالب على قلبه)** فإذا استغرقه **(ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم)** لا محالة، **(فإن كان فواته بفعله)** الموجب لذلك **(تأسف على الفعل المفوّت)** لمحبوبه **(فيسمى تألمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندماً)**، وقد اختلف في حدّه فقال الراغب: هو التحسر من تغرر أي في أمر فائت، وقال أبو البقاء: هو أن يلوم نفسه على تفريط وقع منه، وقال غيره: هو غم يصحب الإنسان يتمنى أن ما وقع منه لم يقع وكل هذه المعاني متقارب، **(فإذا غلب هذا الندم على القلب واستولى انبعث من هذا الندم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له متعلق بالحال والماضي والاستقبال، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً له)** ومصاحباً به وهو واجب شرعاً، **(وأما)** تعلقه **(بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر)** فلا يعود فيه ولا في مثله وهذا أيضاً واجب شرعاً. **(وأما)** تعلقه **(بالماضي فبتلافي)** أي تدارك **(ما فات)** وفرط من أمره وهل تتوقف صحة التوبة على هذا أم لا؟ فيه خلاف أما من منع فقال العلم والندم يرادان لهذا وهذا هو الغاية المقصودة، وأما من أجاز الصحة فيكتفي بالعلم والندم والعزم والترك في الحال، والصحيح أن فيه تفصيلاً قد أشار المصنف له **(بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر)** أي أن المعاصي المرجوع عنها إما أن تكون قاصرة الضرر على المذنب أو متعدية إلى غيره، فالقاصرة منها ما يقبل القضاء كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ومنها ما لا يقبل القضاء كمس المصحف على غير وضوء واللبث في المسجد على غير طهارة وشرب الخمر وإلقاء المال في البحر وإنفاقه في المعصية، وما أشبه ذلك مما لا يقبل القضاء، فيكفي فيه الندم والترك والعزم على أن لا يعود، والذي يقبل القضاء فتصح أيضاً توبته ولكن يجب عليه قضاء ما فات لأن التوبة عبادة الوقت لوجوبها على الفور، وقد قام بها. والقضاء لا وقت له معين والذمة مشغولة به، وهذا الحكم في المعاصي المتعدى ضررها إلى الغير، وسيأتي الكلام عليها قريباً. وقد علم مما تقدم أن واجبات التوبة وأركانها أربعة علم وندم وترك، **(فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم)** عقد **(الإيمان)** لله

سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بإرادته للإنتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والإستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق إسم التوبة على مجموعها وكثيراً ما يطلق إسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الإعتبار قال عليه السلام: « الندم توبة » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوظاً بطرفيه أعني ثمرته ومثمره، وبهذا

(واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب) والمعاصي **(سموم مهلكة)** في الآخرة، **(واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق)** وترسخه في القلب **(وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب)** لكن مع هذا التصديق لا بدّ من تصديق أن الله جبل نفوسنا على محبة السعادة، فإذا حضرت في قلبك محبتك للسعادة واحضرت في قلبك أيضاً معرفتك بضرر الذنوب وانها حائلة بينك وبين مقصودك وأدمت الفكر في هاتين المعرفتين من غير مانع من الشكوك ولا شاغل مذهل، نتج عنها حال يسمى الندم كما أشار إليه المصنف بقوله: **(فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب)** واستولى عليه **(نار الندم)** فأعجب من نور يثمر ناراً، وإنما قال: نار الندم ولم يقل الندم لأنه تأسف واحتراق. وهذا الندم واجب لأنه المقصود من المعرفتين المتقدمتين وهو وسيلة لترك الذنوب وقدر الواجب منه ما يحث على الترك لأن الوسيلة إذا لم تؤد إلى مقصودها فلا فائدة فيها، وهذا الندم يوجب الترك بأقسامه الثلاثة المذكورة في سياق المصنف قريباً. **(فيتألم به القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه)** محالاً بينه وبينه **(كمن يشرق عليه نور الشمس)** باضاءتها وانبساطها على وجه الأرض، **(وقد كان)** قبل **(في ظلمة)** وحيرة **(فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب)** أي انكشافها **(أو انحسار حجاب)** من الحجب الظواهر، **(فيرى محبوبه)** ويجد مطلوبه **(وقد أشرق)** الرائي **(على الهلال)** من فقده محبوبه **(فتشتعل نيران الحب في قلبه فتنبعث بتلك النيران إرادته للانتهاض للتدارك)** لما فات، **(فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق إسم التوبة على مجموعها)** وهو أركانها وواجباتها **(وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق، والمقدمة والترك الذي يوجبه الندم كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال النبي ﷺ « الندم توبة » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه)**، والمراد أن

الإعتبار قيل في حد التوبة أنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، فإن هذا يعرض لمجرد الألم، ولذلك قيل:

هو نار في القلب تلتهب   وصدع في الكبد لا ينشعبُ

الندم لما كان معظم أركانها خصه بالذكر تنويهاً لشأنه لا أن الندم وحده كاف فيها، فهو إذاً من قبيل الحج عرفة قاله القشيري في الرسالة، (**فيكون الندم محفوظاً بطرفيه أعني ثمرته**) **وهي العزم** (**ومثمره**) وهو العلم ووجه تخصيصه بالذكر لأنه شيء يتعلق بالقلب والجوارح تبع له، فإذا تحقق الندم في القلب انقطع عن المعاصي فرجعت برجوعه الجوارح ووجهه المصنف في موضع آخر فقال: إنما نص على أن الندم توبة ولم يذكر جميع شروطها ومقدماتها لأن الندم غير مقدور للعبد، فإنه قد يندم على أمر وهو يريد أن لا يكون والتوبة مقدورة له مأمور بها، فعلم أن في الخبر معنى لا يفهم من ظاهره وهو أن الندم لتعظيم الله وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح، فإذا ذكر مقدمات التوبة الثلاث يندم ويحمله الندم على ترك اختيار الذنب وتبقى ندامته بقلبه في المستقبل فتحمله على الابتهال والتضرع ويجزم بعدم العود، وبذلك تتم شروط التوبة الأربعة، فلما كان الندم من أسباب التوبة سماه باسمها، والحديث المذكور قال العراقي: رواه ابن ماجه، وابن حبان، والحاكم من حديث أنس وقال: صحيح على شرط الشيخين اهـ.

قلت: رواه ابن ماجه من طريق عبد الكريم الجزري عن زياد بن أبي مريم عن ابن معقل قال: دخلت مع أبي علي ابن مسعود فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ «الندم توبة»؟ قال: نعم، ومن هذا الوجه. أخرجه الطيالسي في مسنده، ولكن قال عن زياد وليس بابن أبي مريم، وقال عن عبد الله بن مغفل ولفظه: دخلت مع أبي وأنا إلى جنبه على عبد الله بن مغفل فقال له أبي: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «الندم توبة» وأخرجه الطبراني في الكبير وآخرون، وفي مسنده اختلاف كثير كذا قاله السخاوي. وأخرجه أحمد والبخاري في التاريخ والحكيم والبيهقي وأبو نعيم.

وأما حديث أنس، فقد رواه أيضاً الدارقطني في الافراد، والبيهقي في السنن، والضياء. وقال الحافظ في الفتح: وهو حديث حسن، وقال العامري في شرح الشهاب: صحيح، ورواه الطبراني في الكبير أيضاً، وأبو نعيم في الحلية من طريق ابن أبي سعيد الأنصاري عن أبيه به مرفوعاً بزيادة «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» وسنده ضعيف.

وفي الباب ابن عباس، وابن عمر، وجابر، وأبو هريرة، ووائل بن حجر وغيرهم. فحديث ابن عباس أشار إليه السخاوي، وحديث ابن عمر رواه تمام والخطيب في رواة مالك وابن عساكر، وحديث جابر رواه الشيرازي في الألقاب، وحديث أبي هريرة رواه ابن عساكر، وحديث وائل بن حجر رواه الطبراني في الكبير. (**وبهذا الاعتبار قيل في حدّ التوبة أنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، فإن هذا تعرض لمجرد الألم**) والحشا داخل البطن وذوبانه بتأثير ألم فيه عن الزلات السابقة (**ولذلك قيل**):

(**هو نار في القلب تلتهب   وصدع في الكبد لا ينشعبُ**)

وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة أنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء. وقال سهل بن عبدالله التستري: التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة، والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر، وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها

أي شيء لا ينجبر ولا يلتئم. **(وباعتبار معنى الترك)** الذي هو ثمرة التوبة **(قيل في حدّ التوبة أنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء)** والمراد بخلع لباس الجفاء أن لا يعود إلى ما يبعده عن حضرة الله وينشر لباس الوفاء بأن يستقيم عليه فلا يمر بباله الجفاء حتى ذكره.

قال القشيري في الرسالة: أخبرنا أبوعبدالله الشيرازي قال: سمعت أبا عبد الله بن مفلح بالأهواز يقول: سمعت شمر بن زيري يقول: سمعت الجنيد، يقول: دخلت على السري يوماً فرأيته متغيراً فقلت له: ما بالك؟ فقال: دخل عليّ شاب فسألني عن التوبة فقلت له: أن لا تنسى ذنبك فعارضني، وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك فقلت أن الأمر عندي على ما قال الشاب. فقال: لم قلت لأني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء وفاء فسكت، وسيأتي الكلام على هذا.

(وقال) أبو محمد **(سهل بن عبد الله التستري)** رحمه الله تعالى: أوّل ما يؤمر به المبتدىء المريد **(التوبة)** وهو **(تبديل)**، ولفظ القوت تحويل **(الحركات المذمومة بالحركات المحمودة)** ولفظ القوت إلى الحركات المحمودة **(ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال)**، ولفظ القوت ويلزم نفسه الخلوة والصمت ولا تصح له التوبة إلا بأكل الحلال ولا يقدر على الحلال حتى يؤدي حق الله تعالى في الخلق وحق الله تعالى في نفسه، ولا يصح هذا حتى يتبرأ عن كل حركة وسكون إلا بالله وحتى لا يأمن الاستدراج بأعمال الصالحين، هذا تمام قول سهل **(وكأنه)** رحمه الله تعالى **(أشار إلى المعنى الثالث من التوبة)** ومن نظر إلى أن الإنسان متركب من طرفي مشابهة الملائكة والبهائم فبميله إلى صفة البهائم يبعد عن ربه، وبميله إلى صفة الملائكة يقرب من ربه، وطباع البهائم شر كله وطباع الملائكة خير كله. قال: إن حقيقة التوبة ترجع إلى الرجوع من الشر الشرعي إلى الخير الشرعي، ومن الطريق المبعدة إلى الطريق المقربة، وهذا الحد أعم من قولنا هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة لأن الحد الأوّل يدخل فيه الوجوب والاستحباب، قال الله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ [التوبة: ١١٧] وتوبة رسول الله ﷺ في رجوعه من حسن إلى أحسن منه، ومن قرب إلى ما هو أقرب منه وأسنى، **(والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر)** وقد ذكر بعضها في القوت وبعضها وأجمعها وأشدها على ما قال صاحب المفهم أنها اختيار ترك ذنب سبق حقيقة أو تقديراً لأجل الله تعالى، **(وإذ)** قد **(فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في**

عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة.

بيان وجوب التوبة وفضلها:

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة. فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه، واما بصير يهدي إلى أوّل الطريق ثم يهتدي بنفسه، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الإنقسام، فمن قاصر على مجاوز التقليد في خطوة فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله، وربما يعوزه ذلك فيتحير، فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة، ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدة نور باطنه يجتزىء

حدودها قاصر على الإحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة) التي لا تحيط بالمعاني كلها، والله الموفق.

فصل

في بيان وجوب التوبة وفضلها:

(**اعلم**) أرشدك الله تعالى (**أن وجوب التوبة ظاهر بالآيات والأخبار وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل**) وشبهاته (**مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطر، فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه**) فهو عاجز عن السلوك فلا قائد، (**وإما بصير يهدى**) أي يرشد إلى أول الطريق، (**ثم**) بعد ذلك (**يهتدي بنفسه**) في سلوكه ويكفيه أول الهداية، (**وكذلك الناس في**) سلوك (**طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام، فمن قاصر**) في سلوكه (**لا يقدر على مجاوزة التقليد**) للغير (**في خطوة فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم**) يرفعه أو يضعه (**نصاً من كتاب الله تعالى أو سنّة رسول الله ﷺ، وربما يعوزه ذلك**) ويعسر عليه دركه (**فيتحير**) في سيره، (**فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده**) أي حظه (**مختصر وخطاه قاصرة، ومن سعيد**) موفق (**شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه يتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق مغوصة**) بالغين المعجمة، وفي نسخة بإهمالها أي صعبة (**وقطع عقبات**) أي ثنيات (**متعبة**) في طلوعها والنزول عنها (**فيشرق في قلبه نور القرآن**

بأدنى بيان، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار، فإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، وهـذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن بوصفه لكونه واجباً معنى. وقول القائل: صار واجباً بالإيجاب، حديث محض فإن مالاً غرض لنا آجلاً وعاجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به، أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه؟ فإذا عرف معنى الوجوب وإنه الوسيلة إلى سعادة الأبد، وعلم أن لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى، وإن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم. وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله

ونور الإيمان، فهو لشدة نور باطنه يجتزىء) أي يكتفي **(بأدنى كمال، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار، وإذا مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء)** فإن الروح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدد من خارج حتى يستمر في أنوار المعارف، وبعضها يكون في شدة الصفاء كأنه يتنبه عن نفسه بغير مدد من خارج، فبالحري أن يكون نوراً على نور، **(وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة، فمن كان هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولاً بنور البصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم أن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد)**وهي الفوز بلقاء الله **(والنجاة من هلاك الأبد)** وهو البعد عن حضرة الله، **(وأنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى)** يعقل، **(وقول القائل: صار)** الانس **(واجباً بالإيجاب حديث محض)** مجرد عن الفائدة، **(فإن مالا غرض لنا عاجلاً ولا آجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه، فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد علم أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى و)** علم **(أن كل محجوب عنه)** بحجاب ظلمة محض أو ظلمة ممزوجة بنور **(يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي)** قيل: هو التوبة، وقيل الزيادة في العمل، وقيل حسن الخاتمة وبكل فسر قوله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ [سبأ: ٥٤] **(محترق بنور الفراق ونار جهنم)** وفي نسخة: نار الجحيم، **(وعلم)** أيضاً **(أنه لا مبعد من لقاء الله تعالى إلا اتباع الشهوات)** والعمل بمقتضاها، **(والانس بهذا العالم الفاني والإكباب على حب من لا بدّ)** وفي نسخة ما لا بدّ **(من فراقه**

إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكلية على الله طلباً للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم ان الذنوب التي هي اعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله تعالى فلا يشك في أن الإنصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق، ففي التقليد والإتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور : ٣١] وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله

قطعاً، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله تعالى إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم) أي زينته (**والاقبال على الله تعالى طلباً للأنس به**) وذلك يكون (**بدوام ذكره**) بأي نوع كان، فلا يرى إلا مشتغلاً إما مصلياً وإما صائماً وإما تالياً وإما طالباً للعلم وغير ذلك، وكل ما يعين على الذكر فهو ذكر ودوام العمل من جملة مقامات التوبة كما سبقت الإشارة إليه في المقدمة، (**و**) يكون الاقبال على الله طلباً (**للمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته**) وهو أيضاً من أحوال التوبة، (**وعلم**) أيضاً (**أن الذنوب التي هي إعراض عن الله عز وجل واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته**) وفي بعض النسخ لمحاب الشيطان عدوّ الله المبعد عن حضرته (**سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله**) تعالى، (**فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب، وإنما يتم الإنصراف**) بثلاثة أمور مرتبة: (**بالعلم والندم والعزم فإنه ما لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد من المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع بقلبه فلا يرجع**) عما هو ملابس له، (**ومعنى الرجوع الترك والعـزم، فلا يشـك أن المعـاني الثلاثـة**) بترتيبهـا (**ضروريـة في الوصول إلى المحبوب، وكذا يكون الإيمان الحاصل من نور البصيرة، وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام**) المحمود (**المرتفع ذروته**) أي أعلاه (**عن**) درك (**حدود أكثر الخلق**) من المترسمين، (**ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهـلاك**) الأبدي (**فيلاحظ فيه قول الله تعالى، وقول رسوله ﷺ، وقول السلف الصالحين، فقد قال الله تعالى**) في كتابه العزيز في البيان الأوّل من خطاب العموم: (**﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ وهذا أمر على العموم**)، ومعناه ارجعوا إليه من هوى أنفسكم

توبة نصوحاً ﴾ [التحريم : ٨] الآية . ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح ، ويدل على فضل التوبة قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله يحبُ التوّابين ويحبُ

ومن وقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم في المعاد ، وكي تبقوا ببقاء الله في نعيم لا زوال له ولا نفاد ، ولكي تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة وتنجوا من النار وهذا هو الفلاح ففرض في هذه الآية التوبة ، ووعد عليها عظيم المثوبة . كذا في القوت وفي البصائر لصاحب القاموس هذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة تعلق المسبب بسببه وأتى بأداة « لعل » المشعرة بالترجي إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح فلا يرجوا الفلاح إلا التائبون . **(وقال تعالى) في** البيان الثاني من مخاطبة الخصوص **(﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً ﴾ الآية)** وتمامها ﴿ عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي بالغة في النصح وهي صفة التائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة وصفت به على الاسناد المجازي مبالغة ، أو من النصاحة بالكسر وهي الخياطة لأنها تنصح ما خرق الذنب ، وقرىء نصوحاً بالضم وهو مصدر تقديره ذات نصوح أو تنصح نصوحاً أو توبوا نصوحاً لأنفسكم . قال صاحب البصائر : يقال ان التوبة من طريق المعنى على ثلاثة أنواع ، ومن طريق اللفظ وسبيل اللطف على ثلاث وثلاثين درجة ، ثم قال : وأما درجات اللطف في الأولى أن الله أمر الخلق بالتوبة وأشار بأيها التي تليق بحال المؤمن **(وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون)** الثانية لا تكون التوبة مثمرة حتى يتم أمرها **(توبوا إلى الله توبة نصوحاً)** .

(ومعنى النصوح الخالص لله خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح) بضم فسكون فعول للمبالغة في النصح وهو الخلوص ، ومنه قولهم : نصح العسل إذا صفاه كما تقدم ، وفي القوت وقيل اشتقاقه من النصاح بالكسر وهو الخيط ، والمعنى حينئذ أي مجردة لا تتعلق بشيء ولا يتعلق بها شيء وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب ، وأن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب متى قدر عليه وأن يترك الدنيا لأجل الله خالصة لوجهه كما ارتكبه لأجل هواه مجمعاً عليه بقلبه ، فمتى لقي الله تعالى بقلب سليم من الهوى وعمل مستقيم على السنة فقد ختم الله له بحسن الخاتمة ، فحينئذ أدركته الحسنى السابقة وهذا هو التوبة النصوح ، وهذا العبد التواب المتطهر الحبيب .

وسئل الحسن عن التوبة النصوح فقال : هي ندم بالقلب واستغفار باللسان وتزكية الجوارح وإضمار أن لا يعود ، وروي ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من حديث أبيّ بن كعب التوبة النصوح الندم على الذنب حين يُفرط منك فتستغفر الله ثم تعود إليه أبداً . قال القرطبي في تفسير التوبة النصوح ثلاثة وعشرون قولاً .

(ويدل على فضل التوبة قوله تعالى : ﴿ إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين ﴾) وهو إخبار بمن سبقت له من الله الحسنى ووصف لمن قصده بخطابه العام والخاص ، وهذه إحدى

المتطَهرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وقال عليه السلام: « التائب حبيب الله والتائب من الذنب

درجات اللطف كأنه يقول: إذ تبت بتوبتي عليك وتوفيقي لك جازيتك بالمحبة، وفي عطف الجملة الثانية على الأول أشارة إلى أن التوبة مطهرة عن الذنوب، ولذا قرنهما في سياق. ولهذا قيل: التوبة قصار المذنبين وغسال المجرمين وقائد المحسنين وعطاء المريدين وأنيس المشتاقين وسابق إلى رب العالمين، **(وقال رسول الله ﷺ: « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة »)** قال العراقي: رواه مسلم من حديث الأغر المزني، ولابن ماجه من حديث جابر: « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا » الحديث وسنده ضعيف اهـ.

قلت: حديث الأغر لفظه عند مسلم: « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى الله في اليوم مائة مرة ». وهكذا رواه الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو عوانة، والطحاوي، وابن حبان، وابن قانع، والباوردي والبغوي كلهم عن الأغر، وهو ابن يسار المزني ويقال: الجهني له صحبة. ورواه ابن مردويه من حديث أبي هريرة ويروى: « يا أيها الناس استغفروا الله وتوبوا إليه فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أو في كل يوم مائة مرة أو أكثر من مائة مرة » هكذا رواه ابن أبي شيبة وأحمد، والطبراني، وابن مردويه عن أبي بردة عن رجل من المهاجرين ورواه الحكيم عن أبي بردة عن الأغر.

وأما حديث جابر فطويل رواه أيضاً البيهقي وضعفه وفيه بعد قوله: « توبوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشتغلوا » الخ بطوله. وعند الطبراني من حديث أبي أمامة: « يا أيها الناس أنيبوا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » الحديث.

وفي القوت: ولا يكون العبد تائباً حتى يكون مصلحاً، ولا يكون مصلحاً حتى يعمل الصالحات ثم يدخل في الصالحين وقد قال تعالى: ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] وهذا وصف التواب وهو المتحقق بالتوبة الحبيب لله تعالى كما قال سبحانه ﴿يحب التوابين﴾ أي يتولى قبول الراجعين إليه من هوائهم، المتطهرين من المكاره، وكما **(قال رسول الله ﷺ: « التائب حبيب الله »)** وسئل سهل التستيري رحمه الله: متى يكون التائب حبيب الله؟ فقال: إذا كان كما قال سبحانه ﴿التائبون العابدون﴾ [التوبة: ١١٢] الآية كلها، ثم قال: الحبيب لا يدخل إلا في شيء يحب الحبيب، والحديث قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ. وروى ابن أبي الدنيا في التوبة، وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف: « إن الله يحب الشاب التائب » ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبي يعلى بسند ضعيف من حديث علي: « إن الله يحب الشاب العبد المؤمن المفتن التوّاب » اهـ.

قلت: وروى القشيري من طريق ابن عاتكة طريف بن سليمان عن أنس رفعه: « ما أي شيء أحب إلى الله من شاب تائب » وعاتكة ضعيف **(و)** قال ﷺ **(« التائب من الذنب)** توبة

كمن لا ذنب له »، وقال رسول الله ﷺ: « لله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة

مخلصة صحيحة (**كمن لا ذنب له**) فإن العبد إذا استقام ضعفت نفسه وانكسر هواه وساوى الذي قبله من لا صبوة له. قال الطيبي: هذا من إلحاق الناقص بالكامل مبالغة كما تقول: زيد كالأسد ولا يكون المشرك التائب معادلاً بالنبي المعصوم، والحديث قال العراقي: رواه ابن ماجه من حديث ابن مسعود اهـ.

قلت: وكذا الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب كلهم من طريق أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه مرفوعاً به. قال المنذري: رواه الطبراني رواه الصحيح، لكن أبو عبيدة لم يسمع عن أبيه. وقال السخاوي: رجاله ثقات بل حسنه شيخنا يعني لشواهده، وإلا فأبو عبيدة جزم غير واحد بأنه لم يسمع عن أبيه اهـ.

ورواه الحكيم في النوادر، والطبراني، وأبو نعيم من حديث ابن أبي سعيد عن أبيه مرفوعاً بهذا بزيادة في أوله: « الندم والتائب من الذنب » الخ وقد تقدم قال في الميزان، قال أبو حاتم: حديث ضعيف وابن أبي سعيد مجهول رواه عنه يحيى بن أبي خالد وهو مجهول أيضاً.

ومن شواهد هذا الحديث ما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني، والبيهقي، والديلمي من حديث ابن عباس: « التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه، ومن آذى مسلماً كان عليه من الذنوب مثل منابت النحل » قال الذهبي: إسناده مظلم وقال الحافظ في الفتح: الراجح أن قوله والمستغفر الخ موقوف. وأخرجه البيهقي كذلك من حديث أبي عنبسة الخولاني وإلا فسنده أيضاً ضعيف.

ومنها ما قال القشيري في الرسالة: حدثنا أبو فورك أخبرنا أحمد بن محمود بن خرزاد، حدثنا محمد بن الفضل بن جابر، حدثنا سعيد بن عبدالله، حدثنا أحمد بن زكريا، حدثنا أبي قال: سمعت ابن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « التائب من الذنب كمن لا ذنب له وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب ثم تلا ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ قيل يا رسول الله ما علامات التوبة؟ قال: « الندامة » وقد رواه الديلمي وابن النجار إلى قوله: « لم يضره ذنب » ورواه ابن أبي الدنيا من قول الشعبي جملة الترجمة، ثم تلا ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾.

(**وقال ﷺ: « لله**) اللام لام الإبتداء واسم الجلالة مبتدأ وخبره (**أشد**) أي أكثر (**فرحاً**) تمييز أي رضا، ومنه قوله تعالى: ﴿ بما لديهم فرحون ﴾ [المؤمنون: ٥٣] أي راضون (**بتوبة عبده المؤمن**) فإطلاق الفرج في حق الله مجاز عن رضاه وبسط رحمته ومزيد إقباله على عبده والكرامة له (**من رجل نزل في أرض دوية**) أي مفازة (**مهلكة**) وهو مفعلة من الهلاك (**معه راحلته**) أي ناقته التي يرتحلها (**عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه**) على الأرض (**فنام نومة**

فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »، وفي بعض الألفاظ قال: « من شدة فرحه إذا أراد شكر الله: أنا ربك وأنت عبدي ».

فاستيقظ) من نومه **(وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى)** طلع عليه النهار و**(اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله تعالى قال)** في نفسه **(ارجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »)** فالمراد أن التوبة تقع من الله في القبول والرضا موقعاً في مثله ما يوجب فرط الفرح ممن يتصور في حقه ذلك، فعبر بالرضا عن الفرح تأكيداً للمعنى في ذهن السامع ومبالغة في تقريره، وحقيقة الفرح لغة انشراح الصدر بلذة عاجلة وهو محال في حقه تعالى، والحديث قال العراقي: متفق عليه من حديث ابن مسعود، وأنس. ورواه مسلم من حديث نعمان بن بشير، ومن حديث أبي هريرة مختصراً اهـ.

قلت: لفظ حديث ابن مسعود عن الشيخين « لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً ،به مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش قال ارجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته ». ورواه أيضاً هكذا أحمد والترمذي.

وأما لفظ حديث أنس عندهما: « لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة » هكذا روياه في التوبة وغيرها مختصراً. ورواه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة هكذا، ورواه الترمذي وابن ماجه بلفظ: « لله أفرح بتوبة أحدكم بضالته إذا وجدها » قال الترمذي حسن صحيح غريب، ولفظ حديث النعمان بن بشير: « للرب أفرح بتوبة أحدكم من رجل كان في فلاة من الأرض معه راحلته عليها زاده وماؤه فتوسد راحلته فنام فغلبته عيناه ثم قام وقد ذهبت الراحلة فصعد شرقاً فنظر فلم ير شيئاً ثم هبط فلم ير شيئاً فقال: لأعودن إلى المكان الذي كنت فيه حتى أموت فيه فعاد فنام فغلبته عينه ثم انتبه فإذا الراحلة قائمة على رأسه، فالرب بتوبة أحدكم أشد فرحاً من صاحب الراحلة بها حين وجدها ». هكذا رواه ابن زنجويه.

(وفي بعض الألفاظ) لهذا الحديث **(قال: « من شدة فرحه إذا أراد شكر الله تعالى: اللهم أنا ربك وأنت عبدي »)** قال العراقي: رواه مسلم من حديث أنس بلفظ: « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب، يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب. والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى، وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه،

قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح».

وفي الباب أبو سعيد الخدري ولفظه: «لله أفرح بتوبة عبده من رجل أضل راحلته بفلاة من الأرض فطلبها فلم يقدر عليها فتنحى للموت فبينما هو كذلك إذ سمع وحية الراحلة حين بركت، فكشف عن وجهه فإذا هو براحلته» رواه أحمد وابن ماجه وأبو يعلى.

ومن شواهده حديث أبي هريرة: «لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ومن الضال الواجد ومن الظمآن الوارد» رواه ابن عساكر في أماليه، ورواه ابن تركان الهمداني في كتاب التائبين من طريق بقية بن عبد العزيز الوصاني، عن أبي الجون مرسلاً بزيادة «فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياه.

(**وروي عن الحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**أنه قال: لما تاب الله على آدم عليه السلام هنأته الملائكة**) بقبول توبته، (**فهبط جبرائيل وميكائيل**) عليهما السلام (**فقالا له: يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك**) أي بقبولها منك، (**فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك**) أي اجبته كما أجبتك، (**ومن سألني المغفرة**) من ذنوبه (**لم أبخل عليه**) بها (**لأني قريب**) للسائلين (**مجيب**) للداعين، (**يا آدم واحشر التائبين من القبور مستبشرين**) فرحين (**ضاحكين ودعاؤهم مستجاب**) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة، وأورده القشيري في الرسالة مقتصراً على قوله، وقيل أوحى الله إلى آدم عليه السلام يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة، من دعاني منهم بدعوتك لبيته كتلبيتك، يا آدم احشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعواهم مستجاب.

(**والأخبار والآثار في ذلك لا تحصي**) لكثرتها (**والإجماع منعقد من الائمة على وجوبها إذ معناها العلم بأن الذنوب والمعاصي كلها**) سمائم (**مهلكات**) هلاك الأبد (**ولكن قد**

فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة، ولا خلاف في وجوبها، ومن معانيها: ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الإستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال. وذلك لا يشك في وجوبه. وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب، وهو روح التوبة، وبه تمام التلافي، فكيف لا يكون واجباً، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله.

فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الإختيار، فكيف يوصف بالوجوب فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإن ذلك محال، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر والكل من خلق الله وفعله ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [الصافات: ٩٦] هذا هو الحق عند ذوي الأبصار وما سوى هذا ضلال.

تدهش الغفلة عنه، فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها، ومن معانيها ترك المعاصي في الحال) والتخلي عنها **(والعزم على تركها في الإستقبال)** بأن لا يعود لها ولمثلهاأبداً **(وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال، وهذا لا يشك في وجوبه، وأما التندم على ما سبق)** وفرط منه **(والتحزن عليه فواجب)** أيضاً **(وهو روح التوبة)** ومعظم أركانها **(وهو تمام التلافي، فكيف لا يكون واجباً بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فاته من العمر وضاع)** سبهللا **(في سخط الله)** وأنواع ما يكرهه.

(فإن قلت: تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الإختيار) لأنه حال ينتج من المعرفتين كما تقدم، **(فكيف يوصف بالوجوب؟ فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب)** وفقده السعادة، **(وله سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه)** ولا يعقل منه أن العلم يولد الندم والندم يولد العزم على الترك، **(بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله)** كما قال تعالى: **(﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾)** على أن « ما » مصدرية أي وعملكم، **(وهذا هو الحق)** المقبول الراجح **(عند ذوي الأبصار)** من أهل السنة والجماعة **(وما سوى هذا ضلال)** نعوذ بالله من ذلك وفي قوله تعالى: ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ رد على من يقول بالتولد كما سبق قريباً، وإنما اقتضت حكمة رب الأرباب خلق المسببات عند خلق الأسباب فيخلق الري عند شرب الماء، ويخلق الشبع عند أكل الخبز، وهذا العلم واجب لأنه من نفس الإيمان بالقدرة، ومن اعتقد غير ذلك فقد جعل لله شريكاً في أفعاله، وما أنزل بذلك من سلطان هذا على طريق الإجمال وقد أشار المصنف إلى هذا بالتفصيل وقال:

فإن قلت : أفليس للعبد إختيار في الفعل والترك ؟ قلنا : نعم وذلك لا يناقض قولنا : إن الكل من خلق الله تعالى ، بل الإختيار أيضاً من خلق الله ، والعبد مضطر في الإختيار الذي له ، فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة ، خلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الخواطر المتعارضة في ان هذا الطعام هل فيه مضرة مع انه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ، ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول ، فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى إختياراً ، ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه ، فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة ، إذ بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعلِ ضرورياً ، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة وهما أيضاً من خلق الله ، وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع وهما أيضاً من خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيباً جرت به سنة الله تعالى في خلقه : ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾

(**فإن قلت : أو ليس للعبد اختيار في الفعل والترك**) ؟ فقد يريد فعل كل شيء فيختار تركه وبالعكس ، (**قلنا : نعم**) له ذلك (**وذلك لا يناقض قولنا : إن الكل من خلق الله**) وحده (**بل الإختيار أيضاً من خلق الله ، والعبد مضطر في الإختيار الذي له فإن الله تعالى إذا خلق اليد الصحيحة**) السالمة من العيوب ، (**وخلق الطعام اللذيذ**) المشتهي ، (**وخلق الشهوة للطعام في المعدة ، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام مسكن للشهوة**) أي شهوة الجوع ، (وخلق الخواطر المتعارضة مع بعضها في أن هذا الطعام هل فيه مضرة) بدنية أم لا ؟ (**مع**) علمه (**أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ؟ ثم خلق الله العلم بأنه لا مانع**) عن تناوله ، (**ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول**) منه ، فانجزام الإرادة بعد تعدد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختياراً) والجزء الإختياري (**ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه**) المذكورة (**فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام**) اللذيذ (**لا محالة ، إذا بعد تمام الإرادة والقدرة يكون حصول الفعل ضرورياً فتحصل الحركة بخلق الله تعالى بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ، وهما أيضاً من خلق الله وانجزام الإرادة يحصل بعد الشهوة**) وهو ما يختل البدن بدونه (**والعلم بعدم الموانع وهما أيضاً من خلق الله تعالى ، ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتباً جرت به سنة الله تعالى في خلقه ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾**) أي تغييراً ، (**فلا يخلق الله تعالى حركة اليد**

[الفتح : ٢٣] فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة ، ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلاً في النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة والإرادة أبداً تستردف الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والكل من اختراع الله تعالى ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض ، فلذلك يجب تقدم البعض ، وتأخر البعض كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم لا أن العلم يتولد من الحياة ، ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة لا لأن العلم يولد الإرادة ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم ولا يدخل في الوجود إلا ممكن ، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير لأن تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود

بكتابة منظومة) متناسبة الأطراف **(ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الإرادة المجزومة ما لم يخلق فيها شهوة وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا الميل انبعاثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس، إما في الحال أو في المآل، ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة ولذاذة وعلم، فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة والإرادة والقدرة أبداً يستردف الحركة، وهذا الترتيب في كل فعل والكل من اختراع الله تعالى، ولكن بعض مخلوقاته شرط للبعض فلذلك يجب تقدم البعض)** في الوجود **(وتأخر البعض كما لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم ويكون)** حينئذ **(خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة)** فيه ، **(لا لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون)** كذلك **(خلق الحياة شرطاً لخلق العلم)** فيها **(لا لأن العلم يستولد من الحياة، ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حياً)** أي موصوفاً بالحياة، **(ويكون)** كذلك **(خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة لا لأن العلم يولد الإرادة، ولكن لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم)** أي موصوف بالحياة، والعلم هذا هو الحق عند أهل الحق **(ولا يدخل في الوجود)** سواء كان بإحدى الحواس أو بقوة الشهوة أو بواسطة العقل **(إلا ممكن، وللإمكان ترتيب لا يقبل التغيير)** والتبديل **(لأن تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل لقبول)** ذلك **(الوصف، فحصل ذلك الوصف من**

الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الإستعداد، ولما كان للإستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب، والعبد يجري هذه الحوادث المرتبة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر : ٤٩] وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى: ﴿وما أمرْنا إلاَّ واحدةٌ كلمْحٍ بالبصَرِ﴾ [القمر : ٥٠] وأما العباد فإنهم مستخرون تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة، وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة، فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت، وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت، ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت ﴿وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكِنَّ الله رَمَى﴾ [الأنفال :

الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الإستعداد) لقبوله، (**ولما كان للإستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله**) تعالى (**ترتيب، والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة**) أي محل لجريانها عليه (**وهي مرتبة**) إجمالاً (**في قضاء الله الذي هو واحد**) لا شريك له في فعله (**كلمح البصر**) أو هو أقرب (**ترتيباً كلياً لا يتغير**) ولا يتبدل، (**وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا تتعداه**) ولا تتجاوز طوره، (**وعنه العبارة بقوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾**) أي إنا خلقنا كل شيء مقدراً ومرتباً على مقتضى الحكمة وكل شيء منصوب بفعل يفسره ما بعده، وقرىء بالرفع على الإبتداء، وعلى هذا فالأولى أن يجعل خلقناه خبراً لا نعتاً ليطابق المشهور في الدلالة على أن كل شيء مخلوق بقدر، وقد تقدم الكلام عليه في كتاب قواعد العقائد (**وعن القضاء الكلي الأزلي العبادة بقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدةٌ**) أي فعلة واحدة وهو الإيجاد بلا معالجة (**كلمح بالبصر﴾**) في المسير والسرعة، وقيل معناه معنى قوله تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر﴾ [النحل: ٧٧] (**والعباد مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوي الازم في نفسه يسمى القصد، وبعد علمه بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن**) دقائق (**عالم الغيب**) المختص (**والملكوت، وقالوا: يا أيها الرجل قد تحركت وكتبت ورميت، ونودي من وراء حجاب الغيب** وسرادقات **الملكوت ﴿وما رميت إذ رميت**

١٧] وما قتلت إذ قتلت. ولكن الله قتل: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ [التوبة: ١٤] وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة؛ فمن قائل إنه جبر محض، ومن قائل إنه اختراع صرف، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب، ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه، وأن القصور شامل لجميعهم. فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه، وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوّة نافذة إلى عالم الغيب، وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الإرتضاء، ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه.

ولكن الله رمى﴾) كما هو في الكتاب العزيز خطاباً لحبيبه ﷺ وفي معناه (**وما قتلت إذ قتلت ولكن الله قتل**) ويؤيده قوله تعالى: (**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ [التوبة: ١٤] وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة**) والملك، (**فمن قائل إنه جبر محض**) أي خالص وهؤلاء هم الجبرية الخالصة يسندون فعل العبد إلى الله تعالى ولا يثبتون للعبد كسباً، (**ومن قائل أنه إختراع صرف**) من فعل العبد وهؤلاء هم القدرية (**ومن متوسط**) بين الجبر المحض والمقيد (**مائل إلى أنه كسب**) فيسندون الفعل إلى الله ويثبتون للعبد كسباً في الفعل، وهؤلاء هم الأشاعرة من أهل السنة والجماعة ومن وافقهم في هذه المسألة من الماتريدية إلا أنهم سموه جزءاً اختيارياً وهؤلاء هم المتوسطة. (**ولو فتحت لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق**) فيما ذهب إليه (**من وجه أن القصور شامل لجميعهم، فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر**) وحقيقته (**ولم يحط علمه بجوانبه**).

وكــل يــدعــى وصلاً بليلي   وليلي لا تقـــرّ لهم بـــذاك

(**وتمام علمه**) إنما (**ينال بإشراف**) النور الأقدس (**من كوة نافذة إلى عالم الغيب**) فترفع الستور عن بصيرته (**وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**) كما أخبر بذلك في كتابه العزيز، (**وقد يطلع على الشهادة من لا يدخل في حيز الإرتضاء**) فعدم الإطلاع مخصوص بعالم الغيب (**ومن حرك مسلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب**) أي موضع تعليقها من ناطه نوطاً إذا علقه (**وانكشف له سر القدر**) المخفي (**علم علماً يقينيا أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه**) وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك في كتاب العقائد.

فإن قلت: قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقة قاصر وهذا تناقض، فكيف يمكن فهم ذلك؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال؟ فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه، فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فطلبوه، فلما وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرجل: إن الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألين منها، وقال الذي لمس الناب: ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الأسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود، وقال الذي لمس الأذن: لعمري هو لين وفيه خشونة، فصدق أحدهما فيه ولكن قال: ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم

(فإن قلت: فقد قضيت لكل واحد من القائلين بالجبر والإختراع والكسب بأنه صادق من وجه وهو مع صدقة قاصر) عن درجة الكمال، **(وهذا تناقض)** كيف يكون صادقاً وقاصراً، **(فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال؟ فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه قد حمل إلى البلدة)** التي هم فيها **(حيوان عجيب إسمه الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته)** من قبل **(ولا سمعوا بأسمه فقالوا: لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه)** لفقد حاسة البصر وتقوم تلك المعرفة مقام المشاهدة، **(فطلبوه)** أي توجهوا إليه، **(فلما وصلوا إليه لمسوه)** بأيديهم **(فوقعت بعض يد العميان على رجله، وقعت يد بعضهم على نابه، ووقعت يد بعضهم على أذنه فقالوا: قد عرفناه، فلما انصرفوا)** إلى مواضعهم **(سألهم بقية العميان)** عن حقيقة الفيل **(فاختلفت اجوبتهم، فقال الذي)** قد (لمس الرجل: ان الفيل ما هو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر **إلا أنه ألين منها . وقال الذي)** كان قد **(لمس الناب: ليس الفيل كما يقول)** هو **(بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الأسطوانة)** أصلاً بل **(هو مثل عمود . وقال الذي)** كان قد **(لمس الأذن: لعمري هو لين وفيه خشونة، فصدق أحدهما فيه)** وهو الذي قال أنه لين، **(ولكن)** كذب الآخر إذ **(قال ما هو مثل عمود ولا هو مثل إسطوانة، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ، فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم**

بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل، فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فإنه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه، وإن كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك، وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله.

بيان أن وجوب التوبة على الفور:

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس

بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل) ما هي عليها **(فأستبصر بهذا المثال واعتبر به)** ما يرد عليك **(فإنه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه)** من المذاهب والمشارب، **(وإن كان هذا كلاماً يناطح بحار علوم المكاشفة)** ويصادمها **(ويحرك أمواجها)** ويثير عجاجها، **(وليس ذلك من غرضنا)** الآن في هذا الكتاب، **(فلنرجع إلى ما كنا بصدده، وهو: بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك، وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقعاً في جملة أفعال الله تعالى المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته المتخللة بينها وما هذا وصفها. فإسم الوجوب يشمله)** لا محالة والله الموفق.

فصل

ولما ثبت وجوب أصل التوبة بالدلائل المتقدمة شرع المصنف في بيان هل وجوبها على الفور أو على التراخي؟ فقال:

بيان أن وجوب التوبة على الفور:

لا على التراخي، ولنقدم قبل الشروع في المقصود أن التوبة يتقدمها واجبان:

أحدهما: معرفة الذنب المرجوع عنه أنه ذنب إذ كثير من العلماء فضلاً عن الجهال يقعون فيما لا يحل لهم وهم يحسبون أنهم على شيء لأنه لم يتبين من العلم معرفة ما يحبه مما يكرهه، وهذا من قسم الإيمان لله الواجب.

الثاني: أن العبد لا يستبد بالتوبة بنفسه لأن الله هو خالقها في نفس العبد وميسر أسبابها قال الله تعالى: ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ [التوبة: ١١٨] وهذا من قسم الإيمان بالله تعالى لتعلقه بالقدرة، فإذا عرفت ذلك فلنعد إلى شرح كلام المصنف قال: **(أما وجوبها على الفور)** حاصل ما سيذكره في السياق الآتي؟ هو أن المعاصي للإيمان، كالمأكولات المضرة بالأبدان، فمن

الإيمان وهو واجب على الفور والمتقصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل، فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل بل هي من علوم المعاملة، وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصي عن عهدته ما لم يصر باعثاً عليه، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عليه السلام: «لا يزني الزاني حين

تناول سماً بغير علم وأدركه الأسف على بدنه أترى يخرجه من بدنه بالقيء وغيره على الفور تلافياً لبدنه أو يتراخى في ذلك؟ فإن كان خوفه على بدنه يوجب إخراج ما فيه من المهلك فالرجوع على الفور من سمائم الذنوب المفوتة لسعادة الأبد أولى، وقد ذكر المصنف ذلك تفصيلاً فقال: أما وجوبها على الفور، **(فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي)** سمائم **(مهلكات من نفس الإيمان)** لله **(وهو واجب على الفور، والمقتضي)** هكذا بالقاف والضاد في نسخ الكتاب، وفي بعضها بالفاء والصاد المهملة أي المتخلص **(عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه)** أي مما يكرهه الله تعالى، **(فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا تتعلق بعمل بل هي من علوم المعاملة، وكل علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التقصي)** أي التخلص **(عن عهدته ما لم يصر باعثاً عليه، فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حتى يزني وهو مؤمن»)** قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي هريرة انتهى.

قلت: وتمامه عندهما: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن». وهكذا رواه أيضاً أحمد، والنسائي، وابن ماجه. ورواه أيضاً عبد الرزاق، والطيالسي، وعبد بن حميد، والحكيم، والطبراني، والبيهقي من حديث عبدالله بن أبي أوفى. ورواه الطبراني في الكبير أيضاً من حديث عبدالله بن مغفل، وفي الأوسط من حديث علي، وزاد عبد الرزاق وأحمد ومسلم في رواية: «ولا يغل أحدكم حين يغل وهو مؤمن فإياكم إياكم».

ويروى: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن والتوبة معروضة بعد» هكذا رواه عبد الرزاق، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والحاكم من حديث أبي هريرة. ورواه عبد بن حميد وسمويه والضياء من حديث أبي سعيد. ورواه الحكيم من حديث عائشة».

ويروى: «لا يزني الرجل وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن ينزع منه الإيمان ولا يعود إليه حتى يتوب فإذا تاب عاد إليه». هكذا رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة.

يزني وهو مؤمن »، وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى موجباً للمقت، كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال: تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيباً وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله أنه سم مهلك، فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان، وليس الإيمان باباً واحداً بل هو نيف وسبعون باباً. أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن

ويروى: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ». هكذا رواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة، والبزار من حديث أبي سعيد.

ويروى: « لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يقتل وهو مؤمن ». رواه عبد الرزاق وأحمد والبخاري والنسائي من حديث ابن عباس.

ويروى: « لا يزني الرجل وهو مؤمن، ولا يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف وهو مؤمن فإذا تاب تاب الله عز وجل عليه ». رواه البزار والطبراني والخطيب من طريق عكرمة عن ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر.

ويروى: « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن يخرج منه الإيمان فإذا تاب رجع إليه ». رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد.

(وما أراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله، فإن ذلك لا ينافيه الزنا والمعاصي) المذكورة في الأخبار السابقة، **(وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله عز وجل وموجباً للمقت)** والغضب، **(كما إذا قال الطبيب)** للعليل: **(هذا)** المأكول **(سم)** مهلك **(فلا تتناوله فإذا تناوله يقال: تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيباً وغير مصدق به بل المراد به أنه غير مصدق بقوله أنه سم مهلك، فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان باباً واحداً بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)** روى الترمذي وقال: حسن صحيح من حديث أبي هريرة بلفظ: « الإيمان بضع وسبعون باباً فأدناه إماطة الأذى عن الطريق وأرفعه قول لا إله إلا الله » وفي لفظ له: « أربعة وستون باباً » وعند ابن حبان بلفظ: « الإيمان سبعون أو إثنان

الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً. أعلاها القلب والروح، وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار تقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها، وهذا مثال مطابق فالإيمان كالإنسان وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح، وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقوّيها، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت وورده، فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة إلا ما سقي بماء الطاعات على توالي الأيام

وسبعون باباً أرفعه لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان». وفي رواية: «الإيمان بضع وسبعون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» هكذا رواه أحمد، ومسلم وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان من حديث أبي هريرة، والطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد. **(ومثال ذلك قول القائل ليس الإنسان موجوداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى)** أي إزالة ما يؤذي **(عن البشرة)** محركة وهو ظاهر الجسد **(بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نفي البشرة عن الخبث)** الظاهر **(حتى يتميز)** بذلك **(عن البهائم المرسلة)** في الرعي **(المتلوثة بأرواثها المستكرهة الصورة بطول مخالبها وأظلافها)** وحوافرها، **(وهذا مثال مطابق)** لما نحن فيه **(فالإيمان كالإنسان وفقد شهادة التوحيد)** منه **(يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح)** من البدن، **(والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين)** أي منخوسهما **(فاقد لجميع أعضائه الظاهرة والباطنة لا أصل الروح)** فهو ناقص، **(وكما أن هذا حاله قريب من ان يموت فتزايله)** أي تفارقه **(الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال)** غير ملتفت إليها **(قريب من أن تنقطع شجرة إيمانه إذا صدمتها)** أي عارضتها **(الرياح العاصفة)** القوية الشديدة **(المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده، فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم)** يكن **(يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة إلا ما)** ثبت في أرض النفس و**(سقي بماء الطاعات على توالي الأيام**

والساعات حتى رسخ وثبت. وقول العاصي للمطيع: إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الإسم إذا عصفت رياح الخريف، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجر مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار.

وسوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون، فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته، وإن الموت غالباً لا يقع فجأة فيقال له الصحيح يخاف المرض، ثم إذا مرض خاف الموت، وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود في النار، فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فلا تزال تجتمع

والساعات حتى ثبت ورسخ) فهو الذي لا يخشى عليه من عواصف الأهوال. **(وقول العاصي للطائع أني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع)** وهي أضعف الأشجار **(لشجرة الصنوبر)** وهي أقواها ومنابتها الجبال الشاهقة **(أني شجرة مثلك وأنت شجرة)** أي شملنا هذا الإسم جميعاً، وقد ثبت تسمية القرع شجرة بنص القرآن وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. قال المفسرون: هو القرع **(وما أحسن جواب شجرة الصنوبر)** لها **(إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الإسم إذ عصفت رياح الخريف)** الزعازع، **(فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في إسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبات الأشجار)** وقد قيل في المثل:

(وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرسٌ تحتك أم حمار)

(وهذا أمر يظهر عند الخاتمة، وإنما انقطعت نياط قلوب العارفين) النياط بالكسر العرق الذي معلق به القلب فعلى هذا فالأولى، وإنما انقطع **(خوفاً من دواهي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون)** فمن ثبته الله على الصراط المستقيم، **(فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرة)** من المأكولات وغيرها **(إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته)** وقوة مزاجه **(وأن الموت غالباً لا يقع فجأة)** بل يتقدمه المرض **(فيقال له: الصحيح يخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت، فكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة، ثم إذا ختم له بسوء وجب الخلود في النار)** عياذاً بالله منه، وإذا عرفت ما ذكرنا **(فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة بالأبدان فلا تزال**

في الباطن مغيرة مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصي، فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك، وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لا يفوّت عليه إلا هذه الدنيا الفانية، فمتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم، وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته، إذ ليس لمدته آخر البتة، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم، ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه بأنه من

تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط) الأربعة عن أصلها **(وهو لا يشعر به)** وفي نسخة بها **(إلى أن يفسد المزاج)** من أصله **(فيمرض دفعة)** واحدة **(ثم يموت دفعة، فكذلك المعاصي)** بمنزلة السموم المهلكة. **(فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية)** الفانية **(يجب عليه الترك للسموم وما يضره من المأكولات)** المفسدة مزاج البدن **(في كل حال وعلى الفور)** بلا تراخ، **(فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك)** وهذا يظهر وجوب التوبة على الفور، **(وإذا كان متناول السم إذا ندم)** من تناوله بأن راجعه تصديق قول الطبيب **(يجب عليه أن يتقايأ)** بنحو سمن أو لبن ليفرغ ما استقر في جوفه، **(ويرجع عن تناوله بإبعاده وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية فتناول سموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بما أمكن التدارك ما دام باقياً للتدارك مهلة وهي العمر)** أي مدة بقائه في هذه الدنيا، **(فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم)** لا يحول **(والملك العظيم)** لا يزول، **(وفي فواتها نار الجحيم والعذاب الأليم)** أي الموجع **(الذي تنصرم)** أي تنقطع وتفنى **(أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته، إذ ليس لمدته آخر البتة فالبدار البدار)** والسرعة السرعة **(إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه اختبار الأطباء)** وفي نسخة الأطباء واختيارهم، **(ولا ينفع بعده الإحتماء)** وفي نسخة الحمية **(فلا ينجع)** أي لا ينفع ولا يؤثر **(بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين)** وزجر الزاجرين، **(وتحق الكلمة)** أي تجب كلمة **(الله عليه**

الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿ إنَّا جعلْنا في أعناقِهم أغلالاً فهي إلى الأذْقان فهُم مقمحون ★ وجعلْنا مِنْ بين أيديهم سدًّا ومن خلْفِهِمْ سدًّا فأغشيناهُم فَهُم لا يُبْصِرُون ★ وسواءٌ عليهم أأَنْذَرتَهُم أمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لاَ يُؤْمِنُون﴾ [يس: ٨ ـ ١٠] ولا يغرنك لفظ الإيمان فنقول: المراد بالآية الكافر، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً، وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل، فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل

بأنه من) الخاسرين **(الهالكين)** أبد الآبدين، وأشار بذلك إلى قوله تعالى: ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ [يس: ٧] يعني قوله تعالى: ﴿لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ [هود: ١١٩] **(ويدخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم﴾)** جمع عنق بضمتين وبضم فسكون في لغة الحجاز أي في رقابهم **(أغلالاً)** جمع غل بالضم وهو طرف من حديد وهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآيات والنذر بتمثيلهم بالذين غلت أعناقهم **(فهي)** أي تلك الأغلال **(إلى الأذقان)** أي واصلة إلى أذقانهم فلا تخليهم يطاطئون رؤوسهم **(فهم مقمحون)** رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم. **(﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾)** أي أحاط بهم سدّان فغطى بصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن لنظر في الآيات والدلائل **(وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم)** أي هؤلاء مستو عليهم إنذاك وعدمه لهم، أو معناه انذارك وعدمه سيان عليهم، والإنذار التخويف من الله وإنما اقتصر عليه لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيراً في النفس من حيث أن رفع الضرر أهم من جذب النفع، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى **(لا يؤمنون)** جلة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الإستواء. **(ولا يغرنك لفظ الإيمان)** من قوله: ﴿لا يؤمنون﴾ وقد نفى عنهم وصف الإيمان، **(فنقول: المراد به)** أشخاص بأعيانهم كأبي جهل حين أراد الفتك بالنبي ﷺ فلزقت يده وقصده آخر فقال: لأرضخنه بهذا الحجر فأعماه الله تعالى، أو أن المراد به **(الكافر)** وفي نسخة الكافرون أي على الإطلاق ممن اتصف بالكفر **(إذ بين لك)** مما سبق: **(أن الإيمان نيف وسبعون باباً وإن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن)** والسارق لا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، **(فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب)** متبوعة **(وفروع)** متشعبة **(سيحتجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل)** لتلك الفروع، **(كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل)** لبقاء تلك الأطراف، **(فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الفرع والأصل**

والفرع إلا في شيء واحد وهو: أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل، فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازم كتلازم الفرع والأصل، فلا يستغني أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هي لم يعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها، ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم.

إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل) فلا بدّ من وجود الأصل حتى يوجد الفرع ويكون سبب بقائه، **(وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع)** فقد يكون موجوداً بنفسه من غير فرع، **(فبقاء الأصل بالفرع)** أي قوّته به **(ووجود الفرع بالأصل)** لأنه السبب فيه، **(فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغني أحدهما على الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة التابع)** له، **(وعلوم المعاملة إذا لم تكن** باعثة **على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له)** بعد ذلك **(قامت)** وفي نسخة: كانت **(مؤيدة للحجة على صاحبها)** فاردته إلى أسفل سافلين، **(ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر)** الذي علم ولم يعمل بعلمه **(على عذاب الجاهل** الفاجر **)** كما قيل:

وعـــالم بعلمـــه لـــن يعملـــن   معـذب مـن قبـل عبـاد الوثـن

(كما أوردنا من الأخبار) الواردة من مذاهب العلماء الفجار **(في كتاب العلم)** وغيره والله أعلم. وهذا الفصل بعينه هو الفرار وهو من لـواحق التوبة. قال الله تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾ [الذاريات: ٥٠] لأن حقيقة الفرار الهرب من المعصية إلى الطاعة. هذا هو الفرار الواجب، ومن فرّ من محسوساته أي معقولاته رأى ربه بعين قلبه يقيناً ثم يفر منه إليه ثم يفر من رؤيته لفراره وليس وراء الله مرمى.

فصل

ولما فرغ من بيان وجوب التوبة على الفور شرع في بيان عمومها في الوجوب في الأشخاص والأحوال فقال:

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة:

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فعمم الخطاب. ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان، ولا يتصور ذلك إلا من عاقل، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر

بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال:

فلا ينفك أحد عنه البتة في حال من أحواله، ولذا كانت من أفضل مقامات السالكين لأنها أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد أبداً ولا يزال فيها إلى الممات، وإن ارتحل السالك منها إلى منزل آخر ارتحل به وترك فهي بداية للعبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما حاجته إليها في البداية كذلك، ولذلك قال المصنف رحمه الله تعالى:

(**أعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا**) أي على عموم وجوبها في الأشخاص والأحوال، (**إذ قال عز وجل**) مخاطباً أهل الإيمان وخيار خلقه: (﴿**وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون**) لعلكم تفلحون﴾ يعني أيها المؤمنون الصابرون المجاهدون، (**فعم الخطاب**) وأمرهم أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم ومجاهدتهم، وقد استدل المصنف رحمه الله تعالى على مقصوده بهذه الآية، وتكلم على ذلك بما سنعرضه عليك إجمالاً لتدرك منه تفصيله الذي لا يستنبط منه الأصل المقصود إلا بعد تأمل شديد وهو أن حقيقة التوبة هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة وهذا موجب للنجاة وهذا هو الوجوب المبني على أصل الإيمان ورجوع العبد من الشواغل الملهية إلى الله ومن الحسن إلى الأحسن هو أيضاً توبة ورجوع، وبه كمال السعادة في الآخرة، وهذا هو الواجب المبني على كمال الإيمان، فمن أراد كمال الإيمان حتى ينال به السعادة الكبرى في الدنيا بمعرفته ومشاهدته في الآخرة بالنظر إلى وجهه أوجبنا عليه ذلك لإرادته لأنه من لازم الكمال، كمن أراد النافلة فإنا نوجب عليه الطهارة قبل الدخول فيها. هذا حاصل ما سيذكره المصنف، فلنعد إلى شرحه فقال:

(**ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله تعالى المقرب إلى الشيطان**) وهذا مبني على أن التوبة مركبة من علم وحال وعمل، وأنها مخصوصة بنوع الإنسان لتركبه من طرفي مشابهة الملائكة والبهائم، فطباع البهائم شر كله وطباع الملائكة خير كله فبميله إلى صفة البهائم يبعد عن ربه وبميله إلى صفة الملائكة مقرب من ربه لأن الملائكة قريبون من الله تعالى والقريب إلى القريب قريب كما تقدمت الإشارة إليه. (**ولا يتصور ذلك إلا من عاقل**) أي من موصوف بصفة العقل، (**ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء**

الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين، والشهوات جنود الشيطان، والعقول جنود الملائكة، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه، ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز للعين موعوده حيث قال: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢] وإن كمل العقل وقوي كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا،

الإنسان، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين) من عمره وهو بلوغ الأشد عند أكثر المفسرين، **(وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ)** باحتلام أو سن على اختلاف فيه تقدم في كتاب العلم، **(ومباديه تظهر بعد سبع سنين)** في الغالب وذلك أيضاً مختلف باختلاف الأجناس من الأشخاص، **(والشهوات)** بأسرها **(جنود الشيطان، والعقول)** من حيث هي **(جنود الملائكة فإذا اجتمعا)** أي جند الشهوة وجند العقل **(قام القتال بين الجنديين بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما بالآخر فإنهما ضدان)** أحدهما يبعث على الخير والثاني يبعث على الشر، **(فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار و)** بين **(النور والظلمة ومهما غلب أحدهما)** في محل **(أزعج الآخر)** منه **(بالضرورة، وإذا كانت الشهوة تكمل في الصبي)** في صباوته **(والشاب)** في شبابه **(قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان)** وأرخى كلا كله عليه، **(ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوة بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه)** والتخلص منه، **(ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج)** والتمهل، **(فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان)** فاستولى عليها بما فيها من العجائب والخزائن وصار ما في البدن رعايا له **(وأنجز للعين موعوده)** الذي وعد به **(حيث قال: ﴿لاحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾)** ممن عصمهم الله من شره **(وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات)** ومزايله المألوفات **(ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان إلى طريق الله**

وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان، إلى طريق الله تعالى، وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان نبياً كان أو غبياً، فلا تظنن أن هذه الضرورة إختصت بآدم عليه السلام، وقد قيل:

فلا تحسبنَّ هنداً لها الغدر وحدها ... سجية نفس كل غانية هندُ

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها، فإذاً كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جهله وكفره، فإذا بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والإنفكاك والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه، وكل هذا رجوع وتوبة، فدل أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصوّر أن يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم، فخلقة

تعالى) وبه عرف وجه اختصاصها بنوع الإنسان، **(وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة لعقله، وغريزته التي هي عدة للشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة للملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان نبياً كان أو غبياً)** من غير خصوصية، **(فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام فقد قيل)**.

(فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها ... سجية نفس كل غانية هند)

(بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الإنسان لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها) لقوله تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢] **(فإذاً كل من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من كفره وجهله، فإن بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام)** حتى يكون بذلك مسلماً، **(فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يسلم بنفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للإسترسال وراء الشهوات)** فيستأصلها على قدر الإمكان **(من غير صارف)** عنه **(بالرجوع إلى قالب حدود الله في المنع والإطلاق والإنكفاف والإسترسال، وذلك من أشق أبواب التوبة)** وأشدها، **(وفيه هلك الأكثرون إذا عجزوا عنه وكل هذا رجوع وقربة، فدل أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يستغني عنها أحد من**

الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلاً. وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب؟ فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصوّر الخلوّ في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بد منه، ولهذا قال عليه السلام: «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة». الحديث، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال:

البشر كما لم يستغن عنها آدم عليه السلام، فخلقة الولد لا تتسع لما لم تتسع له خلقة الوالد أصلاً) وهذا حال وجوبها على كل الأشخاص، **(وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عن ذلك الأنبياء عليهم السلام مع جلالة قدرهم كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء عليهم السلام وتوبتهم وبكاؤهم على خطاياهم)** وقد تقدم بعض ذلك، **(فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب)**، فروى أحمد وأبو يعلى وابن عدي والضياء من حديث ابن عباس: «ما من أحد من ولد آدم وقد أخطأ أوهم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا فإنه لم يهم بها ولا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». ورواه الحكيم والحاكم بلفظ: «ما من آدمي إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة غير يحيى بن زكريا لم يهم بخطيئة ولم يعملها». **(وإن خلا من الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله)** تعالى، **(فإن خلا عنها)** أي عن الخواطر الناشئة عن الوسواس **(فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص)** عن رتبة الكمال، **(وله أسباب وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع من طريق إلى ضده، والمراد بالتوبة الرجوع)** كما هو حقيقة اللفظ يقال: تاب عنه توبة ومتاباً إذا رجع **(ولا يتصور الخلوّ في حق الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير فأما الأصل فلا بدّ منه، ولهذا قال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة سبعين مرة فاستغفر الله منه» الحديث)** هكذا في سائر نسخ الكتاب، وفي بعضها «إنه يغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة». قال العراقي: رواه مسلم من حديث الأغر المزني إلا أنه قال في اليوم مائة مرة، وكذا هو عند أبي داود، وللبخاري من حديث أبي هريرة: «إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين». وفي رواية البيهقي في الشعب «سبعين» ولم يقل: «أكثر من» وتقدم في الأذكار والدعوات.

﴿ليغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تقدمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ﴾ [الآية : ٢] وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟

فإن قلت : لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال في الخلوّ عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وإنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأنّ الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لا فرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال ، والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة ، إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع : فما المراد بقولك : التوبة واجبة في كل حال ؟ فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً ، وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى ، وكل

قلت : حديث الأغر المزني رواه كذلك أحمد ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن حبان ، والبغوي ، وابن قانع ، والباوردي ، والطبراني وتقدم قريباً حديث الأغر عند مسلم « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالله إني لأتوب إلى الله في اليوم مائة مرة » . وعند الحكيم « فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أو في كل يوم مائة مرة أو أكثر من مائة مرة » . وقد تقدم الكلام على الأغر في الأذكار والدعوات ، ثم قول المصنف : الحديث يدل على أن للحديث بقية لم يذكرها ، وهذا لأن الموجود في نسخ الكتاب : « إنه ليغان على قلبي في اليوم والليلة سبعين مرة » . ثم قال : « الحديث أي إلى آخره وآخره : « فاستغفر الله منه » وإلا فالحديث هو هذا بتمامه .

(**ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال**) في كتابه العزيز في خطابه إليه : (**﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾**) وقد اختلفوا في معنى ذلك على أقوال : أحسنها أن يقال جميع ما فرط منك مما يصح أن يعاتب عليه ، (**وإذا كان هذا**) مع علو مقامه (**حاله فكيف حال غيره**) ؟

(**فإن قلت : لا يخفي أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص**) في الجملة (**وأن الكمال في الخلو عنها**) وفي نسخة عنه ، (**وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله**) وعظمته (**نقص وأن كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الإنتقال إلى الكمال من أسباب النقص رجوع والرجوع توبة**) كما تقرر ، (**ولكن هذه فضائل**) زائدة **لا** (فرائض ، **وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة من هذه الأمور ليست واجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع ، فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال ؟ فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدأ خلقته من إتباع الشهوات أصلاً**) لكونها معجونة في طينته ولا يزايلها إلا بمسدد العقل ومعونته ، والعقل إنما يكمل بعد (**وليس معنى التوبة تركها فقط لأن تمام**

شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار ريناً كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً، كما قال تعالى: ﴿كلاَّ بل رانَ على قلُوبِهِمْ ما كانُوا يكسِبُون﴾ [المطففين: ١٤] فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخشب، ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بدّ من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب، كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو

التوبة بتدارك ما مضى) في مبدأ عمره، **(وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه)** فتغيره **(كما يرتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة)** أي المصقولة، **(فإن تراكمت ظلمة الشهوات)** بأن كثرت حتى ركب بعضها بعضاً **(صار ريناً)** على القلب **(كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه)** وكثرته **(خبثاً)** وصدأ **(كما قال الله تعالى)** في كتابه العزيز في حق المكذبين بالحق ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ ﴿كلا﴾ ردع عن هذا القول ﴿**بل ران على قلوبهم وما كانوا يكسبون**﴾ أي غلب عليهم حب المعاصي بالإنهماك فيها حتى صار ذلك ريناً على قلوبهم، فعمى عليهم معرفة الحق والباطل، فإن كثرة الأفعال سبب لحصور الملكات، **(فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه)** ومصداقة في حديث أبي هريرة: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب صقل منها فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه» رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم، وقد كان الحسن يقول: إن بين العبد وبين الله تعالى حداً من المعاصي معلوماً إذ بلغه العبد طبع على قلبه فلا يوفقه بعدها لخير. وفي حديث ابن عمر: الطابع فيطبع على القلب بما فيها **(كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد)** الهند **(وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخشب)** أي كأنه طبع منه، **(ولا يكفي في تدارك إتباع الشهوات تركها في المستقبل)** فقط، **(بل لا بدّ من محو تلك الآثار التي انطبعت في القلب)** من المعاصي، **(كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس)** عنها **(وقطع البخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان)**، فإذا صقلها ظهرت فيها الصور ولو ظهر تغير القلوب بعد المعصية على وجه العاصي لا سوّد وجهه، ولكن الله سلم بحلمه وستره فغطى ذلك على القلب مع تأثيره فيه وحجابه لصاحبه وقساوته على الذكر وطلب البر والمسارعة إلى الخيرات، وذلك من أعظم العقوبات. ويقال: إن العبد إذا عصى اسود قلبه فيثور على القلب دخان يشهده الإيمان وهو مكان حزن الكبد الذي يسود ويكون ذلك الدخان حجاباً له عن العلم والبيان كما تحجب السحابة الشمس فلا ترى، وإذا تاب العبد وأصلح انكشف

ما انطبع فيها من الأريان، وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»، فإذا لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات؛ هذا في قلب حصل أوّلاً صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة، فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل؛ إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة، فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً، وكل ذلك يرجع إلى التوبة،

الحجاب فيظهر الإيمان ويأنس بالعلم كما تبرز الشمس من تحت السحاب، **(وكما ترتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فكذلك يرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات، فتمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «ابتع السيئة الحسنة تمحها»)** قال العراقي: رواه الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال: حسن انتهى.

قلت: الحديث بتمامه «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» هكذا رواه الترمذي وحسنه، والدارمي، والحاكم، والبيهقي، والضياء. ورواه أحمد، والترمذي، والبيهقي من حديث معاذ بن جبل، والصحيح حديث أبي ذر. ورواه ابن عساكر من حديث أنس. وقال الدارقطني في كتاب العلل: رواه ابن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ بن جبل قال: قلت يا رسول الله أوصني قال: «اتق الله حيثما كنت» قال: قلت يا رسول الله زدني. قال: «اتبع السيئة الحسنة تمحها». قال: قلت يا رسول الله زدني قال: «خالق الناس بخلق حسن». هكذا رواه حماد بن شبيب، وليث بن أبي سليم، وإسماعيل بن مسلم المكي، عن حبيب ورواه الثوري عن حبيب، واختلف عنه فرواه وكيع عن الثوري هكذا، وأرسله جماعة عن وكيع فلم يذكروا فيه معاذاً، وكذلك رواه أبو سفيان، واسمه سعيد بن سنان، عن حبيب، عن ميمون مرسلاً. وقيل: عن الثوري عن حبيب عن ميمون عن أبي ذر ورواه أبو مريم الغفاري عن الحكم بن عتبة عن ميمون عن معاذ وغيره يرويه به عن الحكم مرسلاً عن النبي ﷺ، وكان المرسل أشبه بالصواب انتهى.

قلت: وقد وقع لنا عالياً في جزء أبي بكر محمد بن العباس الرافعي، حدثنا أحمد بن بزيع الخفاف، حدثنا سعيد بن مسلم عن الليث بن سليم عن حبيب فذكره.

(فإذاً لا يستغني العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات من قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئة الحاصلة في القلب هذا في قلب حصل أولاً صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم بأسباب عارضة) فأما التصقيل الأول ففيه يطول الشغل **(إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة، فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً**

فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجباً بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم أن الواجب له معنيان:

أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية، ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى، بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار.

والواجب الثاني: هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال: الطهارة واجبة في صلاة التطوّع أي لمن يريدها، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها. فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها، كما يقال: العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان، يعني أنه شرط

وكل ذلك يرجع إلى التوبة، فأما قولك: إن هذا لا يسمى واجباً بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم أن الواجب له معنيان:):

(أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع واشترك فيه طائفة الخلق، وهو القدر الذي لو اشتغل كافة الخلق به لم يخرب) نظام **(العالم، ولو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعاش)** كما أن في غالب معاملاتها ما يضاد التقوى **(ورفضوا الدنيا بالكلية)** وهجروها، **(ثم يؤدي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى)** لشدة الأعواز إلى إصلاح ما يتعيش به، **(بل شغل الحياكة والحراثة والخبز)** ولو قال: الخبازة كان أولى **(يستغرق عمر كل واحد فيما يحتاج إليه، فجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار)**.

(والواجب الثاني: هو الذي لا بدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه، كما يقال: **الطهارة واجبة في صلاة التطوع لمن يريدها فإنه لا يتوصل إليها إلا بها، فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست بواجبة لأجلها، وكما يقال: العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان يعني أن ذلك شرط لمن يريد أن**

لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضي أن يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تنتهي الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، وعليه كان حرصهم، وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجراً في منامه، فجاء إليه الشيطان وقال: أما تركت الدنيا للآخرة فقال: نعم، وما الذي حدث؟ فقال: توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض، وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم. أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على

يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلى في الدنيا، فأما من قنع بأصل الحياة ورضي بأن يكون كلحم على وضم) وهو محركة ما وقيت به اللحم من الأرض كذا في المصباح. وقال صاحب الأساس: هو كل ما وقى به الأرض من خشبة أو خصفة أو غيرهما، ووضمته وضماً إذا وضعته على الوضم، وروي على العكس، ويقال للذليل هو لحم على وضم، **(وكخرقة مطروحة)** على الأرض أي متبذلة، **(فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل، فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا توصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها أصل الحياة تجري مجرى الأعضاء والآلات بها تتهيأ الحياة، وفي ذلك سعى الأنبياء)** عليهم السلام **(والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل)** من المتبعين على أقدامهم، **(وعليه كان حرصهم وحواليه)** بفتح اللام وسكون التحتية **(كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام)** في كمال زهده **(إلى أن توسد يوماً حجراً في منامه)** أي وضع رأسه على حجر لينام عليه وجعله بمنزلة الوسادة، **(فجاءه الشيطان وقال: أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم وما الذي حدث؟ قال: توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الأرض؟ فرمى عيسى عليه السلام الحجر ووضع رأسه على الأرض)** أخرجه ابن عساكر عن الحسن البصري أنه مرّ إبليس يوماً بعيسى عليه السلام وهو متوسد حجراً وقد وجد لذة النوم فقال له إبليس: يا عيسى إنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا فهذا الحجر من عرض الدنيا، فقام عيسى عليه السلام فأخذ الحجر فرمى به وقال: هذا لك مع الدنيا.

(وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعم افترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع

الأرض لا يسمى واجباً في فتاوى العامة؟ أفترى أن نبينا محمداً ﷺ لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه وشغله شراك نعله الذي جدده حتى أعاد الشراك الخلق. لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة عباده، فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثراً في قلبه أثراً يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به؟ أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ـ ما علم من الفقه هذا القدر؟ وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه؟ فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر، وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون، فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله، وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور، فهذه أسرار من استنشق

الرأس على الأرض لا يسمى واجباً في فتوى العامة، افترى أن نبينا ﷺ لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلاته حتى نزعه) وأرسله إلى أبي جهم وطلب منه انبجانيته وقال: « قد ألهاني »؟ وقد تقدم في كتاب الصلاة، **(وشغله شراك نعليه الذي جدده حتى أعاد الشراك الخلق)** تقدم أيضاً في كتاب الصلاة **(لم يعلم أن ذلك ليس واجباً في شرعه الذي شرعه لكافة العباد، وإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه؟ وهل كان ذلك إلا أنه رأى مؤثراً في قلبه أثراً يمنعه من بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به)** الذي يحمده فيه الأولون والآخرون؟ **(افترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن)** من يد غلامه **(وعلم أنه على غير وجهه)** لأنه أخبره عن أصله **(أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد أن تخرج معه روحه)** أخرجه أبو نعيم في الحلية وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام، **(فما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما تناوله)** وفي نسخة ما أكله **(من جهل، فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراجه)** بالقيء، **(فلم تاب من شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة منه، وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره)** لما ورد: « ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام وإنما سبقكم بسر وقر في صدره». وقد تقدم في كتاب العلم **(عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر، وإن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون، فتأمل)** أيها المصر **(أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله، وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور)** أي الشيطان، **(فهذه أسرار من استنشق مبادىء روائحها)** وكان صحيح الشم للحقائق، **(وعلم أن لزوم**

مبادىء روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمّر عمر نوح، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة، ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله؟ وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة فبكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منها أشد، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جوهر أنفس من هذا؟ فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً، وإن صرفتها إلى معصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً. فإن كنت لا تبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته، والناس

التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى في كل نفس من أنفاسه) لا تفارقه في سائر أحواله في بدايته ووسطه ونهايته، **(ولو عمر عمر نوح)** عليه السلام وهو ألف سنة وخمسمائة وقد يضرب به المثل في التعمير، **(وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة)** ولا تراخ، **(ولقد صدق أبو سليمان الداراني)** رحمه الله تعالى **(حيث قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوات)** وفي نسخة فوت وفي أخرى تفويت **(ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً)** أي جديراً **(أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف بمن يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله)**؟ أورده صاحب القوت. **(وإنما قال)** أبو سليمان **(هذا)** الذي قال **(لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة)** رفيعة **(فضاعت منه بغير فائدة)** تؤل منها إليه **(بكى عليها لا محالة، فإن ضاعت منه وكان ضياعها بسبب هلاكه كان بكاؤه من ذلك أشد)** من الأول، **(وكل ساعة من العمر بل كل نفس)** من أنفاسه **(جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها لأنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جوهرة)** توجد **(في الدنيا أنفس من هذا)** وأعلى من هذا؟ **(فإذا ضيعتها في الغفلة)** عن الله تعالى **(فقد خسرت خسراناً مبيناً، وإن صرفتها إلى معصية هلكت هلاكاً فاحشاً، فإن كنت لا تبكي على هذه المعصية فذلك لجهلك)** عنها **(ومعصيتك، فجهلك أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام)** في غفلتهم **(فإذا ماتوا انتبهوا)** كما روي ذلك من قول علي

نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلاً، وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿وحيلَ بينهُمْ وبيْنَ ما يشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أنْ يأتِي أحَدَكُمُ الْمَوْتُ فيقُولُ ربّ لولا أخرتني إلى أجلٍ قريبٍ فأصَّدَّق وأكن من الصّالحين ★ ولن يؤخِّر الله نفساً إذا جاء أجلُها﴾ [المنافقون: ١٠] فقيل: الأجل القريب الذي يطلبه: معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يا ملك الموت أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزوّد صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول:

رضي الله عنه وتقدم في كتاب العلم، **(فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه، ولكل مصاب مصيبته، وقد وقع اليأس عن التدارك)** لفوات وقته. **(قال بعض العارفين: إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وأنك لا تتأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت الدنيا بحذافيرها)** من أولها إلى آخرها **(لخرج منها على أن يضم لتلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك فيها تفريطه فلا يجد إلى ذلك سبيلاً)** نقله صاحب القوت إلا أنه قال: ويقال إن ملك الموت الخ **(وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾)** قيل التوبة، وقيل الزيادة في العمل، وقيل حسن الخاتمة فإذا كل ساعة تمضي على العبد تكون بمنزلة هذه الساعة قيمتها الدنيا كلها إذا عرف قيمة ذلك، فلذلك قيل: ليس لما بقي من عمر العبد قيمة إذا عرف وجه التقدير من الله تعالى بالتصريف والحكمة، **(وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فاصدق)** أي أزكي **(وأكن من الصالحين)** وقيل: أول من يسأل الرجعة من هذه الأمة من لم يكن أدى زكاة ماله، ولم يكن حج بيت ربه، فذلك تأويل قوله تعالى: ﴿فاصدق وأكن من الصالحين﴾ وكان ابن عباس يقول: هذه الآية من أشد شيء على أهل التوحيد هذا لقوله في أولها ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ وقيل: لا يسأل عبد الرجعة عند الموت وله عند الله مثقال ذرة من خير وفي معناه الخبر من كان له عند الله في الآخرة مثقال ذرة لو أن له الدنيا وما فيها لم يحب أن يعود فيها. **(﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها)** والله خبير بما تعملون﴾ وقد اختلف في هذه الآية **(فقيل: الأجل القريب الذي يطلبه معناه أن يقول عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخرني يوماً اعتذر فيه إلى ربي)** ولفظ القوت أعتب فيه ربي، **(فأتوب واتزود صالحاً لنفسي**

فأخرني ساعة فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه، ويتجرّع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ولمثل هذا يقال: ﴿وليسَتِ التوبة للّذينَ يعملُون السيئاتِ حتى إذا حضَر أحدَهُم الموتُ قال إني تُبتُ الآن﴾ [النساء : ١٨] وقوله: ﴿إنّما التوبةُ عَلَى اللهِ للذينَ يعملُونَ السُّوءَ بجهالةٍ ثُمّ يتُوبُون مِنْ قريبٍ﴾ [النساء : ١٧] ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندّم

فيقول) ملك الموت: **(فنيت الأيام فلا يوم فيقول)** العبد: **(فاخرني ساعة. فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة)**، فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكمظمه عند الغرغرة **(فيغلق عليه باب التوبة)** ويحجب عنه **(فيغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه)** وهي عظام الحلق وتنقطع الأعمال وتذهب الأوقات، **(ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر)** النفيس، ويشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيمتد بصره، **(فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال فإذا)** كان في آخر نفس **(وزهقت نفسه، فإن كان سبقت له من الله الحسنى)** ولفظ القوت فيدركه ما سبق له من السعادة **(فتخرج روحه على التوحيد وذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقاوة والعياذ بالله)** تعالى **(خرجت)** ولفظ القوت: أو يدركه ما سبق له من الشقاوة فتخرج **(روحه على الشك والإضطراب)** ولفظ القوت على الشرك بالشك، **(وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا قال تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾)** وقيل: هو المنافق المدمن على المعاصي المصر عليها.

وروى الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود: « إن العبد يولد مؤمناً ويعيش مؤمناً ويموت كافراً، وإن العبد يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت مؤمناً، وإن العبد ليعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقياً، وأن العبد ليعمل برهة من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً ».

(وقوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾) قيل: قبل الموت وقبل ظهور رآيات الآخرة، وقيل الغرغرة لأنه تعالى حكم أن التوبة بعد ظهور علام الآخرة لا تنفع، ومنه قوله تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ أي قبل معاينة الآيات **(أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ [الأنعام: ١٥٨] قيل: التوبة هي كسب الإيمان بأصول الخيرات، وقيل الأعمال الصالحة وهي الإيمان وعلامة الإيقان، (و)** قيل في قوله من قريب **(معناه عن قرب عهد بالخطيئة)** لا يتمادى

عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»، ولذلك قال لقمان لابنه: يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو.

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر: «إن أكثر صياح أهل النار من التسويف»، فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده،

فيها ولا يتباعد عن التوبة (**بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها**) بأن يعقب الذنب عملاً صالحاً ولا يردفه ذنباً آخر، أن يخرج من السيئة إلى الحسنة ولا يدخل في سيئة أخرى (**قبل أن يتراكم الرين على القلب**) فيصير طبعاً (**فلا يقبل المحو**) أصلاً، (**ولذلك قال ﷺ**) لمعاذ بن جبل حين قال له أوصني فقال: «خالق الناس بخلق حسن و(**اتبع السيئة الحسنة تمحها** ») وقد تقدم قريباً. (**ولذلك قال لقمان لأبنه: لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة**) أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائده، والبيهقي عن عثمان بن زائدة، (**ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف**) أي المطل والتأخير وأصله أن يقول: لمن وعده بالوفاء: سوف افعل مرة بعد أخرى (**كان بين خطرين عظيمين**).

(**أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى تصير ريناً وطبعاً فلا تقبل المحو**).

(**الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للإشتغال بالمحو، ولذلك ورد في الخبر: «إن أكثر صياح أهل النار من التسويف»**) قال العراقي: لم أجد له أصلاً (**فما هلك من هلك إلا بالتسويف**) وفي القوت: حقيقة التوبة أن لا يسوف أبداً إنما يلزم أنها في الوقت (**فيكون تسويده للقلب**) بتلك المعاصي (**نقداً**) حاضراً (**وجلاؤه بالطاعة نسيئة**)، وما زال كذلك (**إلى أن يختطفه الأجل**) بسرعة (**فيأتي الله**) يوم العرض (**بقلب غير سليم**) من الغش، (**ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، والقلب أمانة الله عند عبده، والعمر أمانة**

والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر.

قال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام.

أحدهما: إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلي كيف تلقاني.

والثاني: عند خروج روحه يقول: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أوفُوا بعهْدي أُوفِ بِعَهدِكُم﴾ [البقرة: ٤٠] وبقوله تعالى: ﴿والذين هُمْ لأماناتِهِمْ وعهْدَهِمْ راعُونَ﴾ ﴿المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢].

الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر) جداً.

(قال بعض العارفين) من الصوفية: **(إن الله عز وجل أسر إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام)** ولفظ القوت: إن الله تعالى أسرّ إلى عبده سرين يسرهما إليه يوجده ذلك بإلهام يلهمه.

(أحدهما: إذا) ولد و **(خرج من بطن أمه يقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً)** سوياً **(نظيفاً استودعتك عمرك وائتمنتك عليه)** ولفظ القوت لتمسك عليه، **(فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف تلقاني)** به كما أخرجتك.

(و) السر **(الثاني: عند خروج روحه يقول له: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد)** والرعاية **(فالقاك على الوفاء)؟** ولفظ القوت بالوفاء والجزاء **(أو ضيعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ وإلى ذلك الإشارة بقوله عز وجل: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾)** قيل: العهد على أمانة عبده إن كان حفظها فقد أدى الأمانة، وإن كان ضيعها فقد خان الله والله لا يحب الخائنين. **(وبقوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾)** ويروى عن ابن عباس مرفوعاً: «من ضيع فرائض الله خرج من أمانة الله» وإذ قد فهمت ما ساقه المصنف في هذا الفصل ظهر لك أنه لا نهاية لمراتب التوبة ومراقيها، وتسمية هذا الفصل بالإنابة أولى لأن حقيقة الإنابة تكرار الرجوع إلى الله تعالى وإن لم يتقدمها ذنب، والله أعلم.

بيان ان التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة:

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى، وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه

فصل

في بيان ان التوبة إذا استجمعت شرائطها:

وأركانها وشهدت العلامات بصحتها (**فهي مقبولة لا محالة**) بفضل الله تعالى لا بطريق الوجوب، إذ لا يجب شيء على الخالق لأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً قال الله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾ [الشمس: ١٥] هذا حاصل ما ذكره المصنف في هذا الفصل، وقد أخر تلك الشرائط وكان الأولى تقديمها حتى يكون ما في هذا الفصل كالمتمم له، والإيمان بهذا واجب لأنه من عقود الإيمان بالله تعالى.

(**أعلم**) أرشدك الله تعالى (**أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة**) وهي المستجمعة الشروط والأركان، (**فهي مقبولة. فالناظرون بنور البصائر**) وهو المفاض على القلوب (**المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم**) من المعاصي (**مقبول عند الله تعالى، ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى، ومستعد لان ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى، وعلموا**) أيضاً (**أن القلب خلق سليماً في الأصل**) أي في الفطرة الأصلية، (« **وكل مولود يولد على الفطرة** ») كما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وتمامه « فأبواه يهودانه وينصرانه ويشركانه » الحديث وقال: حسن صحيح وقد تقدم، (**وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه**) أي تعلوه (**من غبرة الذنوب وظلمتها**)، وروى أحمد من حديث جابر: « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا أعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » (**وعلموا أن نار الندم**) المتولدة من التوجع (**تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي من نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار**) بل ينسخه ويمحوه، (**بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع**

فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول، فإنما عليك التزكية والتطهير. وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له، وهو المسمى فلاحاً في قوله: ﴿قَدْ أفلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل، ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصوّر الجمع بينهما، فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه، إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أنّ الشمس تطلع والظلام لا يزول، والثوب يغسل بالصابون

بياض الصابون) المتخذ من القلي والجير والزيت، **(وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه، فالقلب)** المظلم لا يقبله الله تعالى و**(لا)** يليق **(أن يكون في جواره)** وحظيرته، **(وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب)** ويدنسه **(وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة)** ويزيل وسخه، **(فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فإنما عليك التزكية والتطهير)** من الأدناس والأرجاس، **(وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له وهو المسمى فلاحاً في قوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾)** أي طهرها أي نفسه من الشهوات الخفية، **(ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة)** هي **(أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثراً متضاداً يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل)** بجامع عدم الاهتداء، **(ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم، وأن بين النور والظلمة تضاداً ضرورياً لا يتصور الجمع بينهما، فكأنه لم يعرف من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه)** يقال: علق إذ لصق **(وقلبه في غطاء كثيف)** أي غليظ **(عن)** معرفة **(حقيقة الدين بل)** هو في غطاء **(عن)** معرفة **(حقيقة نفسه، ومن جهله نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به)** أي بغيره **(قلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه، فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه؟ فمن يتوهم أن التوبة تصح لا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول)** هذا لا

والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعاً وريناً على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب، نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به، فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية، فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة، ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى: ﴿وهُوَ الَّذي يقبلُ التوبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ويعْفو عن السيئات﴾ [الشورى: ٢٥] وقال تعالى: ﴿غافر الذَّنبِ وقَابلِ التَّوبِ﴾ [غافر: ٣] إلى غير ذلك من الآيات. وقال ﷺ: « لله أفرح بتوبة

يكون، (و) كمن يتوهم أن (**الثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول**) اللهم (**إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله**) أي أثنائه، (**فلا يقوى الصابون على قلعه. ومثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى يصير طبعاً وريناً على القلب، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب**) ولا ينجع فيه تأثير ولا يوفق بعده لغيره، وقال مجاهد: القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب ذنباً انقبض أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فتشتبك على القلب، فذلك هو القفل وسيأتي هذا للمصنف قريباً. ويقال: إن لكل ذنب نباتاً ينبت في القلب، فإذا كثرت الذنوب تكاثف النبات حول القلب مثل الكم المثمرة فانضم على القلب، فذلك الغلاف ويقال: الكنان واحد الأكنة التي ذكر الله أن القلب لا يسمع معها ولا يفقه (**نعم، قد يقول باللسان**) إني (**تبت**) الآن، (**فيكون ذلك كقول القصار بلسانه: قد غسلت الثوب، وذلك**) أي مجرد هذا القول (**لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به**) الراسخ فيه، (**فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين**) بهممهم (**على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية**) وحاصل الكلام أن توبة العبد إذا وقعت على الوجه المعتبر شرعاً فهي مقبولة إلا أنها إذا كانت توبة الكافر من كفره فهي مقطوع بقبولها؟ وإن كانت سواها من أنواع التوبة فهل قبولها مقطوع به أو مظنون؟ فيه خلاف لأهل السنة، واختار إمام الحرمين أنه مظنون. قال النووي: وهو الأصح. قال القشيري في الرسالة: التائب من الذنب على يقين ومن قبوله التوبة على خطر، فينبغي أن يكون دائم الحذر. (**فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر**) والعقول (**في قبول التوبة**) ولا يفتقر بعده إلى تنبيه، (**ولكن نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار**) ليتأيد بها، (**فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به، وقد قال تعالى**) في كتابه العزيز: (﴿**وهو الذي يقبل التوبة عن عباده**﴾ **وقال تعالى**: ﴿**غافر الذنب وقابل التوب**﴾ **إلى غير ذلك من الآيات**) كقوله

أحدكم » الحديث والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة. وقال ﷺ: « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل، فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل. وقال ﷺ: « لو علمتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم

تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ [التوبة: ١٠٤] وكقوله: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾ الآية [١٧: من سورة النساء] وكقوله فيمن رمى بنفسه في وهدة الكفر ﴿لن تقبل توبتهم﴾ [آل عمران: ٩٠] وكقوله: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ [النساء: ٢٧] وكقوله: ﴿والله يحب التوابين﴾ [البقرة: ٢٢٢] والحبة وراء القبول.

(**وقال ﷺ أفرح بتوبة أحدكم » الحديث**) أي إلى آخره، وقد تقدم قريباً من رواية مسلم وغيره، (**والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة**) وقد تقدم أن الفرح لغة استرواح الصدر بلذة عاجلة وهي محال في حقه تعالى، وإنما أريد بذلك الرضا والقبول تأكيداً للمعنى في ذهن السامع ومبالغة في تقريره (**وقال ﷺ: « إن الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل**) ولا يزال كذلك (**حتى تطلع الشمس من مغربها »**) فإذا طلعت أغلق باب التوبة يعني يقبل التوبة من العباد ليلاً ونهاراً. قال العراقي: رواه مسلم من حديث أبي موسى بلفظ: « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار » الحديث. وفي رواية الطبراني: « لمسيء الليل أن يتوب بالنهار » الحديث انتهى.

قلت: لفظ مسلم: « إن الله عز وجل ليبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » وهكذا رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والنسائي، والدارقطني، والبيهقي في الصفات، وأبو الشيخ العظمة.

وأما لفظ الطبراني الذي أشار إليه العراقي، فرواه في الأوسط من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر بلفظ: « إن الله يعرض على عبده في كل يوم نصيحة فإن هو قبلها سعد وإن تركها شقي فإن الله باسط يده بالليل لمسيء النهار ليتوب فإن تاب تاب الله عليه، وباسط يده بالنهار لمسيء الليل فإن تاب تاب الله عليه » الحديث ورواه كذلك ابن عساكر، وابن شاهين عن ابن جريج عن الزهري مرسلاً.

(**وبسط اليد كناية عن طلب التوبة**) وقبولها وهو في حقه تعالى عبارة عن التوسع في الجود والتنزيه عن المنع عند اقتضاء الحكمة، (**والطالب وراء القابل، فرب قابل ليس بطالب**) فقبوله وإقباله على قدر حاله (**ولا طالب إلا وهو قابل**) ففي الطلب قبول وزيادة عليه. (**وقال ﷺ: « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء**) أي لكثرتها وتراكم بعضها على بعض (**ثم ندمتم لتاب الله عليكم »**). قال العراقي: رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ: « لو أخطأتم » وقال: « ثم تبتم » وإسناده حسن انتهى.

ندمتم لتاب الله عليكم » ، وقال أيضاً : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة ، فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون نصب عينه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة » . وقال ﷺ : « كفارة الذنب الندامة » ، وقال ﷺ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

قلت : لفظ ابن ماجه : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم » قال المنذري إسناده جيد . وأخرج ابن زنجويه في فوائده عن الحسن بلاغاً « لو أخطأ أحدكم حتى تملأ خطيئته ما بين السماء والأرض ثم تاب لتاب الله عليه » . وروى أحمد ، وأبو يعلى ، والضياء من حديث أنس « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفر تم الله لغفـر لكم » الحديث . ورجاله ثقات ورواه ابن زنجويه من حديث أبي هريرة بلفظ : « والذي نفسي بيده لو أنكم تخطئون حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تتوبون لتاب الله عليكم » وفي أوله زيادة .

(وقال) ﷺ **(أيضاً : « إن العبد)** أي الإنسان **(ليذنب)** أي ليوقع ويفعل **(الذنب فيدخل به)** أي بسببه **(الجنة »)** لأن الذنب مستجلب للتوبة والإستغفار الذي هو موقع محبة الله تعالى : إن الله يحب التوابين ومن أحبه لم يدخله النار . **(قيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يكون)** ذنبه **(نصب عينه)** أي مستحضراً له كأنه يشاهده أبداً **(تائباً)** إلى الله **(منه فاراً)** منه إليه **(حتى يدخل)** به **(الجنة »)** لأنه كلما ذكره طار عقله حياء من ربه حيث فعله وهو بمرأى منه ومسمع ، فيجد في توبته ويتضرع في إنابتـه بخاطـر منكسر وقلـب حـزيـن ، والله تعـالى يحب كـل قلب حزين ومن أحبه أدخله جنته ورفع منزلته . قال العراقي : رواه ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلاً ، ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة : « إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر الله له » الحديث ، وفيه صالح المري وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث . ولابن أبي الدنيا في التوبة من حديث ابن عمر : « إن الله ينفع العبد بالذنب يذنبه » والحديث غير محفوظ قاله العقيلي انتهى .

قلت : لفظ أبي نعيم : « غفر له ما صنع » وتمامه « قبل أن تأخذ في كفارتـه بلا صلاة ولا صيـام » وقد رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان ، وابن عساكر كلاهما من طريق عيسى بن خالد ، عن صالح المري ، عن هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة . قال أبو نعيم : غريب من حديث هشام وصالح لم يكتبه إلا من حديث عيسى .

(وقال ﷺ : « كفارة الذنب الندامة ») أي ندامته تغطي ذنبه ، والكفارة عبارة عن الفعلة والخصلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة وهي فعالة للمبالغة كقرابة ومثالة وهي من الصفات الغالبة في الإسمية قاله الطيبي قال رزين : وكون الندامة تكفر الذنب خصيصية لهذه الأمة ، وكانت بنو إسرائيل إذا أخطأ أحدهم حرم عليه كل طيب من الطعام وتصبح خطيئته مكتوبة على باب داره ، والحديث قال العراقي ، رواه أحمد ، والطبراني ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس ، وفيه يحيى بن عمر بن مالك البكري ضعيف انتهى .

ويروى «ان حبشياً قال: يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «نعم» فولى ثم رجع فقال: يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «نعم» فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه».

ويروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح.

وقال ﷺ: «إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ» والأخبار في هذا لا تحصى.

قلت: ولكن للحديث بقية وهي: «لو لم تذنبوا لأتى الله بقوم يذنبون فيغفر لهم» ويحيى بن عمر بن مالك من رجال الترمذي قال الذهبي كان حماد بن زيد يرميه بالكذب، وأبوه عمرو بن مالك كان يسرق الحديث. وقد رواه القضاعي أيضاً في مسند الشهاب، وكلهم من هذا الطريق عن ابن الجوزي عن ابن عباس.

(وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له») رواه ابن ماجه من حديث ابن مسعود، وقد تقدم الكلام عليه قريباً.

(ويروى: «أن حبشياً قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال: «نعم» فولى) منصرفاً (ثم رجع) على يديه (فقال: يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «نعم» فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه») حياء من الله تعالى وحشمة منه طار به عقله ثم تبعه روحه. فقال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(ويروي) في بعض الأخبار: (إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة) بكسر الظاء أي الإمهال وذلك في قوله تعالى: ﴿فانظرني إلى يوم يبعثون﴾ [الحجر: ٣٦] (فانظره إلى يوم القيامة) وذلك قوله تعالى: ﴿فإنك من المنظرين﴾ [الحجر: ٣٧] (فقال) إبليس: (وعزتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دامت فيه الروح) أي أصحبه إلى آخر أنفاسه واغاويه، (فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لاحجبت عنه التوبة ما دامت فيه الروح). قال العراقي: رواه أحمد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد: إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أزال أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده المصنف بصيغة ويروى كذا، ولم يعزه إلى النبي ﷺ فذكرته احتياطاً انتهى.

قلت: ورواه كذلك ابن زنجويه وعبد بن حميد والضياء.

(وقال ﷺ: «إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ») قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى، وهو بمعنى: اتبع السيئة الحسنة تمحها. رواه الترمذي وتقدم قريباً.

وأما الآثار؛ فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى: ﴿إنه كان للأوّابين غفوراً﴾ [الاسراء: ٢٥] في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقال الفضيل:

قلت: بل روى أبو نعيم في الحلية من حديث شداد بن أوس «أن التوبة تغسل الحوبة وأن الحسنات يذهبن السيئات» الحديث فلعل المصنف أشار إلى هذا **(والأخبار في هذا)** الباب يعني قبول التوبة **(لا تحصى)** لكثرتها.

ومن ذلك قوله ﷺ: «إن الله عز وجل يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب» قيل: وما وقوع الحجاب؟ قال: «تخرج النفس وهي مشركة». رواه أحمد، والبخاري في التاريخ، وأبو يعلى، وابن حبان، والبغوي في الجعديات، والحاكم، والضياء من حديث أبي ذر.

وقوله ﷺ: «إن الله عز وجل يفتح أبواب سماء الدنيا ثم يبسط يده ألاعبد يسألني فأعطيه فلا يزال كذلك حتى يسطع الفجر» رواه ابن عساكر من حديث ابن مسعود.

وقوله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» رواه ابن زنجويه، والحاكم، والبيهقي من حديث ابن عمر. ورواه ابن جرير من حديث عبادة، ومن حديث أبي أيوب بشير بن كعب، ورواه ابن زنجويه، وابن جرير عن الحسن بلاغاً. ورواه أحمد عن رجل من الصحابة بلفظ: «ما لم يغرغر بنفسه» وفي رواية له: «قبل أن يموت بضحوة» وفي أخرى له: «قبل أن يموت بنصف يوم» وفي أخرى له: «قبل أن يموت بيوم» رواه من حديث أبي ذر بلفظ: «إن الله يقول يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك، ويا عبدي إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي لقيتك بقرابها مغفرة.

وقوله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما من أحد يتوب قبل موته بيوم إلا قبل الله توبته» رواه البغوي عن رجل من الصحابة.

وقوله ﷺ: «ما من عبد يتوب إلى الله عز وجل قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه وأدنى من ذلك وقبل موته بيوم أو ساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إلا قبل الله منه». رواه الطبراني من حديث ابن عمر.

وقوله ﷺ: «من تاب قبل موته بعام يتب عليه حتى قال بشهر حتى قال بجمعة حتى قال بيوم حتى قال بساعة حتى قال بفواق». رواه الحاكم والبيهقي والخطيب في المتفق والمفترق من حديث أبي عمرو.

(وأما الآثار فقد قال سعيد بن المسيب) رحمه الله تعالى: **(أنزل قوله تعالى: ﴿إنه كان للأوابين غفوراً﴾ في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب)** وقال سعيد بن جبير **(للأوّابين)** الرجاعين إلى الخير أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة. وقال الضحاك: نزلت في الراجعين من الذنب إلى التوبة ومن السيئات إلى الحسنات أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب.

قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذر الصديقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم.

وقال طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب.

ويروى: أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لئن عدت لأعذبنك، فقال يا رب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تعصمني لأعودن فعصمه الله تعالى.

(وقال الفضيل) ابن عياض رحمه الله تعالى: **(قال الله تعالى: بشر المذنبين بأنهم إن تابوا)** إليّ **(قبلت منهم)** توبتهم، **(وحذر الصديقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم)**.

(وقال طلق بن حبيب) العنزي البصري العابد، قال أبو حاتم: صدوق في الحديث، وقال طاوس: هو ممن يخشى الله. وقال مالك: بلغني أن طلقاً كان من العباد كان براً بأبيه، وكان ممن دخل الكعبة في نفر كان الحجاج طلبهم فأخذهم وقتلهم، وروى له الجماعة إلا البخاري: **(إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين)**، أخرجه المزني في التهذيب إلا أنه قال: أن تقوم بها العباد وزاد بعده: وإن نعمه أكثر من أن تحصى والباقي سواء.

(وقال عبدالله بن عمر) ابن الخطاب رضي الله عنهما: **(من ذكر خطيئة ألم بها)** أي فعلها ووقع فيها **(فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب)** أي اللوح المحفوظ، وذلك لأن الوجل إنما يحصل من الندم، والندم أعظم أركان التوبة فهو أحرى بأن تحقق به توبته وتمحى بذلك خطيئته.

(ويروى) في بعض الأخبار: **(أن نبياً من أنبياء بني إسرائيل أذنب)** ذنباً **(فأوحى الله إليه وعزتي لئن عدت لاعذبنك. فقال: يا رب أنت أنت)** في ربوبيتك **(وأنا أنا)** في عبوديتي، **(وعزتك إن لم تعصمني لأعودن فعصمه الله تعالى)**.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

وقال حبيب بن ثابت: تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما إني قد كنت مشفقاً منه؛ قال فيغفر له.

ويروى: أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق فاعمل ولا تيأس.

(وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب) أي ليفعله **(فلا يزال نادماً)** أي متحسراً على ما صدر منه **(حتى يدخل الجنة)** بسبب حزنه عليه **(فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب)** وشاهده ما تقدم من حديث أبي هريرة عند أبي نعيم وابن عساكر قريباً.

(وقال حبيب بن أبي ثابت) الأسدي مولاهم أبو يحيى الكوفي ثقة فقيه جليل، مات سنة تسع عشرة ومائة، روى له الجماعة، وأبو ثابت اسمه قيس بن دينار وقيل هند: **(تعرض على رجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول: أما أني قد كنت مشفقاً منه)** أي خائفاً. **(قال: فيغفر له)** أي بسبب إشفاقه منه في الدنيا، وهذا يدل على قبول التوبة.

(ويروى: أن رجلاً سأل ابن مسعود) رضي الله عنه **(عن ذنب ألم به هل له من توبة، فاعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان)** أي تسيلان بالدموع **(فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإنه عليه ملك موكل به لا يغلقه)** أبداً **(فاعمل ولا تيأس)**.

وروى الطبراني في الكبير من حديث صفوان بن عسال: أن للتوبةباباً عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها، ولابن حبان إن من قبل المغرب باباً فتحه الله للتوبة مسيرة أربعين سنة يوم خلق الله السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه. ولابن ماجه: إن من قبل المغرب باباً مفتوحاً عرضه سبعون سنة فلا يزال ذلك الباب مفتوحاً حتى تطلع الشمس نحوه، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. ولابن زنجويه: إن الله جعل بالمغرب باباً مسيرة عرضه سبعون عاماً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله، وكذلك قوله: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقول ابن مسعود السابق قد روي مرفوعاً بلفظ: «للجنة ثمانية أبواب سبعة مغلقة وباب مفتوح للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من نحوه» أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، وأبو يعلى، والطبراني، والحاكم.

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إن ينتهُوا يُغفَر لَهُم ما قَدْ سَلفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فقال إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً، ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام. وقال عبدالله بن سلام: لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

وقال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوّابين فإنهم أرق أفئدة.

وقال بعضهم: أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب علي.

وقال آخر: أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة، أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة.

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين

(**وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم: تذاكرنا مع عبد الرحيم**) بن يحيى الدمشقي المعروف بالأسود (**توبة الكافر وقول الله تعالى: ﴿إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ فقال: إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً**) من الكافر، ولقد بلغني أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام.

(**وقال عبدالله بن سلام**) بالتخفيف الإسرائيلي أبو يوسف رضي الله عنه حليف الأنصار. قيل: كان اسمه الحصين، فسماه النبي ﷺ عبدالله مشهور له أحاديث وفضل، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين: (**لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل: إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه**) ذلك الذنب (**أسرع من طرفة عين**)، وشاهده حديث أبي هريرة السابق ذكره عند أبي نعيم: « فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له ما صنع ».

(**وقال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة**) ولفظ القوت في الخبر: جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة وسيأتي للمصنف قريباً.

(**وقال بعضهم: أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل: ومتى؟ قال: إذا تاب عليّ**) نقله صاحب القوت بلفظ: وكان بعضهم يقول: قد علمت والباقي سواء.

(**وقال آخر: أنا من أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة**) نقله صاحب القوت (**أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة**)، فإذا حرم التوبة حرم المغفرة فلذلك من حرمان التوبة كان أخوف.

(**ويروى: أنه كان في بني إسرائيل شاب عبدالله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة**

سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً. أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزناً، فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عي ولا بكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم

ثم نظر) وجهه يوماً **(في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك)** أي أحزنه **(فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فإن رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصه: أحببتنا فاحببناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فأمهلناك وإن رجعت إلينا قبلناك)** وقد قال تعالى: ﴿وإن عدتم عدنا﴾ [الإسراء: ٨] وفي الخبر: «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة».

(وقال) أبو الفيض **(ذو النوب المصري)** رحمه الله تعالى: إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب) أي نصبوها بين أعينهم حيث ترمقها القلوب، **(وسقوها بماء التوبة)** فتفرعت **(فأثمرت ندماً وحزناً، فجنوا من غير جنون)** وفيهم قيل:

مجانين إلا أن سر فنـــونهم ... عزيز لدى ابدائه يسجد العقل

(وتبلدوا من غير عي) أي حصر لسان **(ولا بُكم وأنهم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله)** فجنونهم وتبلدهم إنما هو على ظهر ما يرى منهم، **(ثم شربوا بكأس الصفاء)** فتصفت بواطنهم عن الجفاء **(فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولهت قلوبهم في الملكوت)** الأعلى **(وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت)** وهو عالم الملائكة المقربين، **(واستظلوا تحت رواق الندم** وقرأوا صحيفة الخطايا **فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علوّ)** مقام **(الزهد بسلم الورع)** والتقوى **(فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا)** وفطموا نفوسهم عنها **(واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت**

في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة، فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة.

فإن قلت: أفتقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله؟ فأقول: لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ، وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش، وأنه إذا منع الماء مدة وجب العطش، وانه إذا دام العطش وجب الموت، وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى، بل أقول: خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية، والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلاً للعطش، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة، فلا واجب على الله تعالى، ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لا محالة.

أرواحهم في العلا) والملأ الأعلى **(حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع)** أي سدوها **(وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم)** الحقيقي أي بساحته **(واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا)** أي رفعوا شراعها **(بريح النجاة)** من الخوف **(في بحر السلامة)** من الكدر **(حتى وصلوا إلى رياض الراحة)** من التعب **(ومعدن العز والكرامة)** في حظيرة القدس الأقدس. أورده ابن خميس في مناقب الأبرار في ترجمة ذي النون من طريق يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون المصري فذكر نحوه بطوله. **(فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة)** بشروطها **(فمقبولة لا محالة)**.

فإن قلت: أفتقول ما قالت المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله) تعالى بناء على قاعدة مذهبهم من رعاية الصالح والأصلح؟ **(فأقول: لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله)** تعالى **(إلا ما يريده القائل بقوله: إن الثوب إذا غسل بالصابون)** مثلاً **(وجب زوال الوسخ)** عنه، **(وأن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش)** عنه، **(وأنه إذا منع الماء مدة وجب العطش، وأنه إذا دام العطش وجب الموت)** بيبس العروق ونفاد الرطوبة الغريزية، **(وليس في شيء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى، بل أقول: خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلاً للعطش والقدرة متسعة بخلافه فلو سبقت به المشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به الإرادة الأزلية فواجب كونه لا محالة)**. وقد سبق تقرير ذلك مع بيان قاعدة مذهبهم وما فرعوا عليها في كتاب قواعد العقائد فأغنانا عن الإعادة.

فإن قلت: فما من تائب إلا وهو شاك في قبول توبته، والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه؟ فأقول شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة؟ فإن للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة كما سيأتي، وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل يسهل وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته، فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى.

الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها:

اعلم أن التوبة ترك الذنب، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً، فمعرفة الذنوب إذا واجبة، والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح

(فإن قلت: فما من تاب إلا وهو شاك في قبول توبته) ليس على يقين منه، **(والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه)** بل هو على يقين منه وقد شبهت في وجوبه بوجوبه **(فلم يشك فيه؟ فاقول: شكه في القبول كشكه في وجود شرائط الصحة فإن للتوبة أركاناً وشروطاً دقيقة)** لا بد من مراعاتها في وجودها وصحتها وكمالها (كما سيأتي) ذكر ذلك قريباً، **(وليس يتحقق وجود جميع شرائطها)** بخلاف شرب الماء وهذا كالذي يشك في دواء شربه للإسهال في أنه هل يسهل) أم لا؟ **(وذلك لشكه في حصول شروط الإسهال في الدواء باعتبار الحال)** والمزاج **(والوقت، و)** باعتبار (كيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته. فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى)** قريباً والله الموفق وبه تم الركن الأول.

الركن الثاني فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها وكبائرها:

ومعرفة حدود كل منها:

(اعلم) وفقك الله تعالى **(أن التوبة)** في الأصل رجوع إلى الله تعالى ولا يكون الرجوع إلا بترك ما كان ملتبساً به فلذلك قلنا إن التوبة **(ترك للذنب)** أي لفعله وإيقاعه، **(ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته)** فما لا يعرف كيف يترك، **(وإذا كانت التوبة واجبة)** على ما تقرر **(كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً)** أيضاً **(فمعرفة الذنوب)** بأقسامها **(إذاً واجبة والذنب)** أصله الأخذ بذنب الشيء وفي العرف الشرعي **(عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله في ترك أو فعل)** مما تستوخم عاقبته، ولذلك سمي تبعة اعتباراً بما يحصل عن عاقبته،

التكليفات من أولها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها، والله الموفق للصواب برحمته.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد:

اعلم أن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله، ولكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية. وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة، فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار كما يقتضي السكر والخل والزعفران في السكنجبين آثاراً مختلفة.

فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم

وهو عند أهل الله ما يحجب عن الله تعالى. (**وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات**) الشرعية (**من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا**) الآن، (**ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها**) التي منها تتفرع أنواعها (**والله الموفق للصواب برحمته**) وفضله.

بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد:

(**اعلم**) أرشدك الله تعالى أن صاحب القوت قسم الذنوب إلى سبعة ضروب بعضها أعظم من ذنب لكل منها مراتب في كل مرتبة من المذنبين طبقة، وقد فصلها المصنف تفصيلاً غريباً وحصرها في ثلاث قسم فقال في القسمة الأولى: (**إن للإنسان أوصافاً وأخلاقاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله، ولكن تنحصر**) هنا (**مثارات الذنوب في أربع صفات**) هي منابعها: (**صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية، وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار كما يقتضي السكر**) أو العسل (**والخل**) وفي بعض النسخ زيادة والزعفران (**في السكنجبين آثاراً مختلفة**) ولا أعرف من الأطباء من ذكر الزعفران من جملة أجزاءالسكنجبين، وإنما هو مركب من عسل أو سكر وخل، ومنهم من يزيد فيه نعناعاً.

(**فأما ما يقتضي النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الإستعلاء على الكافة**)، فهذه كلها من الصفات المختصة بالرب تعالى (**حتى كأنه يريد**) إذا اجتمعت فيه تلك الصفات (**أن يقول**) للناس: (**أنا ربكم الأعلى**) كما قاله فرعون، (**وهذا تتشعب منه جملة من كبير الذنوب**

يعدوها ذنوباً، وهي المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات.

الثانية: هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال.

الثالثة: الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفة السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال، ويتفرع عنها جمل من الذنوب، وهذه الصفات لها تدريج في الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أوّلاً ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة

غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوباً وهي) في الحقيقة **(المهلكات العظيمة التي هي كالأمهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات)** وفيها من العموم طبقات.

(الثانية: هي الصفة الشيطانية التي منها يتشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد و) الإفساد **(والمنكر، وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة إلى البدع)** المنكرة **(والضلال)** وهي كبائر منها ما يذهب الإيمان وينبت النفاق، وست منها من كبائر البدع وهي تنغل عن المسألة القدرية والمرجئة والرافضة والإباحية والجهمية والساطخية والمعطلة.

(الثالثة: الصفة البهيمية: ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات).

(الرابعة:) هي **(الصفة السبعية: ومنها يتشعب الغضب والحقد)** والضغن **(والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال)** وهذه تتعلق بمظالم العباد في أمر الدنيا، **(وتتفرع عنها جمل من الذنوب)** مستكثرة كالكذب والبهتان وغيرهما. وهذه موبقات ولا بد فيها من القصاص بين يدي الله تعالى إلا أن يقع الإستحلال ويستوهبها الله من أربابها بكرمه ويعوّض المظلومين عليها في جناته بجوده، **(وهذه الصفات لها تدريج في)** أصل **(الفطرة، فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً، ثم تتلوها)** الصفة **(السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية**

تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق. فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح.

قسمة ثانية: أعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد. فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حق الغير، فإما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر، الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا

وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الإستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب) وأصولها (ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب) بأنواعها (من هذه المنابع على الجوارح، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس، وبعضها على العين والسمع، وبعضها على اللسان، وبعضها على البطن والفرج، وبعضها على اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى تفصيل ذلك فإنه واضح) فهذه قسمة الذنوب بحسب الصفات.

(**قسمة ثانية**): للذنوب، (**اعلم**) هداك الله تعالى (**أن الذنوب تنقسم**) بالنظر الآخر (**إلى ما بين العبد وبين الله، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد، فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم**) والواجبات الخاصة به، (**وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض وكل متناول من حقوق الغير، فأما** نفس أو **طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالأغواء والدعاء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجرأة على الله تعالى، كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ**) وأشد، (**وما بين العبد وبين الله تعالى اذا لم يكن شركاً، فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر الدواوين ثلاثة**) جمع ديوان بالكسر وقد تفتح فارسي معرب قال في المغرب: وهو الجريدة

يترك: فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأما الديوان الذي لا يغفر: فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذي لا يترك. فمظالم العباد، أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها.

قسمة ثالثة: اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها، فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة، بل كل مخالفة لله فهي كبيرة، وهذا ضعيف،

من دون الكتب إذا جمعها لأنها قطعة من دون القراطيس مجموعة؟ قال الطيبي: والمراد هنا صحائف الأعمال (**ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك، فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى**) من ترك صلاة وصوم وغيرهما مما أوجب الله عليه، فإنه تعالى كريم ومن شأن الكريم المسامحة. (**وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى**) ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة (**وأما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد**) بعضهم بعضاً (**أي لا بدّ وأن يطالب بها حتى يعفى عنها**) قال العراقي: رواه أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة، وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره، وله شاهد من حديث سلمان رواه الطبراني وهو منكر قاله الذهبي انتهى.

قلت: ورواه أحمد، والحاكم من طريق صدقة بن موسى، عن عمران الجوني، عن يزيد بن بابنوس، عن عائشة. وقد رد الذهبي على الحاكم تصحيحه وقال: صدقة بن موسى ضعفه الجمهور، ويزيد بن بابنوس فيه جهالة ولفظها جميعاً: الدواوين يوم القيامة ثلاثة فديوان لا يغفر الله منه شيئاً وديوان لا يعبأ الله به شيئاً وديوان لا يترك الله منه شيئاً، فأما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئاً فالإشراك بالله قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨] وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك إن شاء أن يتجاوز وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فمظالم العباد بينهم القصاص لا محالة.

(**قسمة ثالثة للذنوب: اعلم**) هداك الله تعالى (**أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون: لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله تعالى**) مما نهى عنه، (**فهي كبيرة**) وهذا مذهب ابن عباس وتبعه جماعة منهم: أبو إسحاق الأسفرايني، وأبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين في الإرشاد، والقشيري في المرشدة، بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة، واختاره في تفسيره فقال: معاصي الله عندنا كلها كبائر، وإنما يقال لبعض صغيرة وكبيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، ثم أول الآية الآتية: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الآية بما ينبوعنه ظاهرها وقال المعتزلة الذنوب على ضربين صغائر وكبائر، وهذا ليس بصحيح انتهى.

إذ قال تعالى: ﴿إنْ تَجْتَنِبُوا كبائِرَ مَا تُنْهونَ عنهُ نكفّرُ عنكُم سيئاتُكم وندخُلكم مدخلاً كريماً﴾ [النساء: ٣١] وقال تعالى: ﴿الذينَ يجتنبُونَ كبائِرَ الإثمِ والفواحِشَ إلاَ اللّممَ﴾ [النجم: ٣٢] وقال ﷺ: « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر ». وفي لفظ آخر: « كفارات لما بينهن إلا الكبائر ». وقد

وربما ادعى في موضع إتفاق الأصحاب على ما ذكره واعتمد ذلك التقي السبكي. قال القاضي عبد الوهاب: لا يمكن أن يقال في معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر، **(وهذا)** القول **(ضعيف)** ويعتذر بأنهم إنما قالوا ما قالوا نظراً إلى عظمة من عصى الرب فكرهوا تسمية معصية الله صغيرة مع اتفاقهم في الحرج على أنه لا يكون بمطلق المعصية، فالخلف لفظي يرجع المطلق القسمة. ثم بين المصنف وجه ضعف هذا القول فقال: **(إذ قال تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾)** قال السدي أي الصغار **(وندخلكم مدخلاً كريماً)** قال قتادة: أي الجنة. **(وقال تعالى: ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾)** أي الصغائر، ففي الآيتين دليل على تقسيم الذنوب إلى صغار وكبائر، وفي الحديث: « إن تغفر اللهم تغفر جما، وأي عبد لك ما ألماّ ».

(وقال ﷺ: « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة) فالمضاف محذوف أي صلاة الجمعة منتهية إلى الجمعة **(تكفر ما بينهن)** من الصغائر **(إن اجتنبت الكبائر »)** شرط جزاء دل عليه ما قبله. قال النووي: معناه أن الذنوب كلها تغفر إلا الكبائر فلا تغفر لا أن الذنوب تغفر ما لم تكن كبيرة، فإن كانت لا تغفر صغائره ثم كل من المذكورات صالح للتكفير، فإن لم تكن له صغائر كتب له حسنات ورفع له درجات والحديث قال العراقي: رواه مسلم من حديث أبي هريرة انتهى.

قلت: هذا لفظ ابن حبان، والطبراني من حديث أبي بكرة إلا أنها قالا: « كفارات لما بينهن ما اجتنبت » والباقي سواء ويقرب من ذلك لفظ الترمذي من حديث أبي هريرة « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » وأما لفظ مسلم ففيه زيادة « ورمضان إلى رمضان » والباقي كسياق الترمذي، وهكذا هو عند أحمد، وفي رواية لمسلم: « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم تفش » وزاد ابن ماجه من حديث أبي أيوب بعد قوله إلى الجمعة « وأداء الأمانات كفارات لما بينها » قيل: وما أداء الأمانة؟ قال: « الغسل من الجنابة فإن تحت كل شعرة جنابة ». وهكذا رواه محمد بن نصر، والشاشي، والطبراني، والسراج في مسنده، والبيهقي، وابن عساكر والضياء.

(وفي لفظ آخر: « كفارات لما بينهن إلا الكبائر ») رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس بلفظ: « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر والجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام ». وهنا إشكال صعب أورده ابن بزيزة، وهو أن الصغائر بنص القرآن مكفرة باجتناب

قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص: «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس»، واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، فقال ابن مسعود: هن أربع. وقال ابن عمر: هن سبع. وقال عبدالله بن عمرو: هن تسع. وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن

الكبائر، فما الذي تكفره الصلوات؟ وأجاب عنه البلقيني بأن معنى أن تجتنبوا الموافاة على هذه الحال من الإيمان أو التكليف إلى الموت، والذي في الحديث: «إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها إلا في يومها إذا اجتنبت الكبائر في ذلك اليوم» فالسؤال غير وارد، وبفرض وروده فالتخلص منه أنه لا يتم اجتناب الكبائر إلا بفعل الخمس، فمن لم يفعل لم يجتنب لأن تركها من الكبائر فيتوقف التكفير على فعلها، وأحوال المكلف بالنسبة لما يصدر منه من صغيرة وكبيرة خمسة.

أحداها: أن لا يصدر منه شيء فهذا ترفع درجاته.

الثانية: يأتي بصغائر بلا إصرار فهذا يكفر عنه حزماً.

الثالثة: مثله لكن مع الإصرار فلا يكفر لأن الإصرار كبيرة.

الرابعة: يأتي بكبيرة واحدة وصغائر.

الخامسة: يأتي بكبائر وصغائر وفيه نظر يحتمل إذ لم يجتنب أن تكفر الصغائر فقط، والأرجح لا تكفر إذ مفهوم المخالفة إذا لم تتعين جهته لا يعمل به والله أعلم.

(**وقد قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمرو**) بن العاص رضي الله عنهما (**«والكبائر الإشراك بالله**) وذلك بأن يتخذ مع الله إلهاً غيره (**وعقوق الوالدين**) الأصليين المسلمين وإن علياً (**وقتل النفس**) التي حرمها الله إلا بالحق كالقصاص والقتل بالردة والرجم (**واليمين الغموس»**) والواو في الثلاثة للعطف على السياق. قال العراقي: رواه البخاري.

قلت: ورواه كذلك أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن جرير، وعند بعضهم: «أو قتل النفس» شك شعبة. فهذه الآيات والأخبار دالة على انقسام الكبائر في عظمها إلى كبير وأكبر وأخذ منها ثبوت الصغيرة لأن الكبائر بالنسبة إليها أكبر منها، ولذلك قال المصنف: لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عرف من تدارك الشرع، (**واختلفت الصحابة**) رضوان الله عليهم (**والتابعون**) لهم (**في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك. فقال ابن مسعود**) رضي الله عنه: (**هي أربع**): الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. رواه عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التوبة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني. (**وقال**) عبدالله (**بن عمر**) بن الخطاب رضي الله عنهما: (**هي سبع**) الإشراك بالله، وقذف المحصنة، وقتل النفس المؤمنة، والفرار من الزحف، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم. أخرجه علي بن الجعد في الجعديات، والبيهقي

عمر : الكبائر سبع ، يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع ، وقال مرة: كل ما نهى

عن طيلسة قال: سألت ابن عمر عن الكبائر فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « هي سبع » فذكره.

وقد روي نحو ذلك عن أبي هريرة « اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ». رواه الشيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن أبي حاتم.

ويروى عنه أيضاً: « الكبائر سبع أولها الإشراك بالله ثم قتل النفس بغير حقها وأكل الربا وأكل مال اليتيم إلى أن يكبر والفرار من الزحف ورمي المحصنات والإنقلاب إلى الإعراب بعد الهجرة » هكذا رواه البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وأما لفظ حديث أبي سعيد: « الكبائر سبع الإشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وقذف المحصنة والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة ». ورواه الطبراني في الأوسط.

وأما حديث ابن عمر فلفظه: « هي عقوق الوالدين والإشراك بالله وقتل النفس وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا ». رواه ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه.

(وقال عبدالله بن عمرو) بن العاص: **(هي تسع)** هكذا في القوت وهي: « الإشراك بالله، وقتل النسمة يعني بغير حق، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والذي يستسحر وإلحاد في المسجد الحرام، وبكاء الوالدين من العقوق » رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن جرير، والقاضي إسماعيل في احكام القرآن، وابن المنذر بسند حسن كلهم من طريق طيلسة. قالوا عن ابن عمر ولم يقولوا عن ابن عمرو.

وقد روي مثله عن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه رفعه: « الكبائر تسع أعظمهن الإشراك بالله، وقتل النفس بغير حق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، واستحلال البيت الحرام قبلتكم إحياء وأمواتاً » رواه أبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي. **(وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر)** رضي الله عنه: **(الكبائر سبع: يقول هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع)** رواه عبد الرزاق، وعبد بن حميد. ويروى عن سعيد بن جبير: أن رجلاً سأل ابن عباس كم الكبائر سبع هي؟ قال: إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع الإستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. **(وقال مرة)** يعني ابن عباس في حد الكبيرة: **(كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة)** ورواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني والبيهقي في الشعب من طرق عنه. وأخرج ابن جرير عن أبي الوليد قال: سألت ابن

الله عنه فهو كبيرة. وقال غيره: كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر. وقال بعض السلف: كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة، وقيل: إنها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة. وقال ابن مسعود لما سئل عنها: اقرأ من أوّل

عباس عن الكبائر قال: كل شيء عصي الله به فهو كبيرة. **(وقال غيره)** من السلف **(كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر)** وهذا القول أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس. وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كل ذنب نسبه الله إلى النار فهو من الكبائر. وأخرج عن الضحاك قال: الكبائر كل موجبة أوجب الله لأهلها النار. وأخرج عن ابن عباس قال: كل ذنب حتمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، في الروضة وأصلها الكبيرة ما لحق صاحبها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة وحذف بعض المتأخرين تقييد الوعيد بكونه شديداً، وكأنه نظر إلى أن كل وعيد من الله تعالى لا يكون إلا شديداً فهو من الوصف اللازم وخرج بالخصوص ما اندرج تحت عموم فلا يكفي ذلك في كونه كبيرة بخصوصه **(وقال بعض السلف: كل ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا)** كزنا ولواط وشرب خمر وإن قل ولم يسكر ونبيذ ولم يعتقد حله وسرقة وقذف، فهذه فيها حدود والصغائر عندهم من اللمم وهو ما لا حدّ فيه وما لم يتهدد بالنار عليه. قال صاحب القوت: وقد روي هذا عن أبي هريرة وغيره اهـ.

قلت: وبه قال البغوي وغيره. قال الرافعي: وهذان الوجهان في حد الكبيرة أكثر ما يوجد لهم وهم إلى ترجيح هذا أميل، ولكن غير موافق لما ذكروه في تفصيل الكبائر لأنهم نصوا على كبائر كثيرة ولا حدّ فيها كأكل الربا ومال اليتيم والحقوق وقطع الرحم والسحر والنميمة وشهادة الزور والسعاية والقوادة والدياثة وغيرها. وبهذا يعلم أن الحد الأول منهما أصح من الثاني وإن قال الرافعي: إنهم إلى ترجيحه أميل، وأخذ صاحب الحاوي الصغير وغيره أنه الراجح فجزم به. وقال الأذرعي في القوت: عجيب قول الشيخين إن الأصحاب إلى الثاني أميل وهو في غاية البعد اهـ. لكن إذا أول على أن مراد قائله ما هو المنصوص عليه، لكن بعيد على أنه يرد على الحد الأول أيضاً بعض ما علم أنه كبيرة ولم يرد فيه وعيد شديد، وقد عدّ العز بن عبد السلام في قواعده أنواعاً من الكبائر اتفاقاً مع أنه لم يرد فيها نص.

(وقيل: إنها مبهمة لا يعرف) حقيقة **(عددها، كليلة القدر وساعة يوم الجمعة)** والصلاة الوسطى ليكون الناس على خوف ورجاء، فلا يقطعون بشيء ولا يسكنون إلى شيء كذا في القوت، واعتمده الواحدي في البسيط فقال: الصحيح أن الكبيرة ليس لها حدّ تعرفها العباد به، وإلا اقتحم الناس الصغائر واستباحوها، ولكن الله عز وجل أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب النهي عنه رجاء أن يجتنبوا الكبائر ونظائره إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك اهـ.

وليس كما قال بـل الصحيح أن لها حداً معلوماً، ونقل بعضهم عن الواحدي هذه المقالة، لكن

سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ [النساء: ٣١] فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة. وقال أبو طالب

على وجه يخفي به الإعتراض عليه، فقال قال الواحدي: المفسر الكبائر كلها لا تعرف أي لا تنحصر. قالوا: لأنه ورد وصف أنواع من المعاصي بأنها كبائر وأنواع أنها صغائر وأنواع لم توصف بشيء منها. وقال الأكثرون: إنها معروفة واختلفوا هل تعرف بحد وضابط أو بالعد اهـ.

وكل ما سبق من الحدود ومما سيأتي منها للمتأخرين إنما قصدوا التقريب فقط، والا فهي ليست بحدود جامعة، وكيف يمكن ضبط ما لا مطعم في ضبطه، وذهب آخرون إلى تعريفها بالعد من غير ضبطها بالحد، (و) قد **(قال ابن مسعود)** رضي الله عنه فيها قولاً حسناً من طريق الإستنباط **(لما سئل عنها أقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه)** نكفر عنكم سيئاتكم﴾ **(فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهي** كبيرة) فاشبه هذا استدلال قول ابن عباس في استنباط ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين من كون قوله تعالى هي سبعاً وعشرين كلمة قال صاحب القوت بعد أن نقل القول الأول وهو الإبهام، وهذا القول والله أعلم بحقيقة هذين القولين اهـ.

قلت: وقد استنبط ابن عباس أيضاً ليلة القدر أنها ليلة سبع وعشرين أنه عدّ حروف ليلة القدر وقد ذكرت ثلاث مرات في السورة كل كلمة منها تسعة أحرف فهي سبع وعشرون حرفاً من ضرب ثلاثة في تسعة، وأما قول ابن مسعود السابق فأخرجه عبد بن حميد، والبزار، وابن جرير عنه أنه سئل عن الكبائر فقال: ما بين أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: الكبائر من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ وأخرج عبد بن حميد أنه سئل عن الكبائر فقال: افتحوا سورة النساء فكل شيء نهى الله عنه حتى تأتوا ثلاثين آية فهو كبيرة، ثم قرأ مصداق ذلك ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ من أول السورة إلى حيث بلغه. وقد روي ذلك أيضاً عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يرون أن الكبائر فيما بين أول هذه السورة سورة النساء إلى هذا الموضع ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير.

فصل

وقد بقي من حدود الكبيرة ما لم يذكرها المصنف هنا فنقول، قال إمام الحرمين: كل جريمة على ما نقله الرافعي وعبارة إرشاده جريرة وهي بمعناها تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين، ورقة الديانة مبطلة للعدالة وكل جريمة أو جريرة لا تؤذن بذلك بل لسبق حسن الظن ظاهراً بصاحبها لا تحبط العدالة. قال: وهذا أحسن ما يتميز به أحد الضدين عن الآخر اهـ.

وقد تابعه القشيري في الرسالة، واختاره الإمام السبكي وغيره وفي معناه قوله: في نهايته الصادر من الشخص إن دل على الإستهانة بالدين فهو كبيرة، وإن صدر عن فلتة خاطر أو لقلة ناظر فصغيرة، ومعنى قوله لا بالدين أي لا بأصله، فإن الإستهانة بأصله كفر، ومن ثم عبّر في الأصول بقلة اكتراث ولم يقل بعدم اكتراث، والكفروان كان أكبر الكبائر فالمراد تفسير غيره بما يصدر من المسلم قال البرماوي: ورجح المتأخرون مقالة الإمام لحسن الضبط بها قياساً اهـ. وكأنه لم ير منازعة الأذرعي فيما قاله الإمام فإنه قال: وإذا تأملت بعض ما عدّ من الصغائر توقفت فيما أطلقه اهـ وكأنه أخذ ذلك من اعتراض ابن أبي الدم ضابط النهاية بأنه مدخول على أنك إذا تأملت كلام الإمام الأول ظهر لك أنه لم يجعل ذلك حداً للكبيرة خلافاً لمن فهم منه ذلك لأنه يشمل صغائر الخسة وليست بكبائر، وإنما ضبط ما يبطل العدالة من المعاصي الشامل لصغائر الخسة. نعم هذا الحد اشمل من التعريفين المتقدمين على سائر مفردات الكبائر، ولكنه غير مانع لما علمت أنه يشمل صغائر الخسة وغيرها. وقال في الخادم نقلاً عن الرافعي: التحقيق أن كل واحد من هذه الأوجه اقتصر على بعض أنواع الكبيرة، وأن مجموع هذه الأوجه يحصل به ضابط الكبيرة اهـ.

ولهذا قال الماوردي في حاويه: الكبيرة ما أوجب الحد أو توجه عليه الوعيد. وقال ابن عطية: كل ما وجب فيه أو ورد فيه توعد بالنار أو جاءت فيه لعنة ونحوه عن ابن الصلاح، واعترض قول الإمام: وكل جريمة لا تؤذن بذلك الخ بأن من أقدم على غصب ما دون نصاب السرقة أتى بصغيرة ولا يحسن في نفوس الناس الظن به، وكان القياس أن يكون كبيرة، وكذلك قبلة الأجنبية صغيرة ولا يحسن في نفوس الناس الظن بفاعلها، ويجاب بأن كون هذين صغيرتين إنما هو على قول جمع، وأما على مقابلة أنهما كبيرتان فلا اعتراض، وإنما يحسن أن لو اتفقوا على صغيرة، وأنها مما يسوء ظن أكثر الناس بفاعلها.

فصل

ومن حدود الكبيرة أنها كل فعل نص الكتاب على تحريمه أو بلفظ التحريم وهو أربعة أشياء أكل لحم الميتة والخنزير ومال اليتيم ونحوه والفرار من الزحف ورد بمنع الحصر في الأربعة.

فصل

ومن حدود الكبيرة ما قاله المصنف في بعض كتبه، كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف ووجد إن ندم تهاوناً واستجراء عليها فهي كبيرة، وما يحمل على فلتات النفس ولا ينفك عن ندم يمتزج بها وينقص التلذذ بها فليس بكبيرة، واعترضه العلائي بأنه بسط لعبارة الإمام وهو مشكل جداً إن كان ضابطاً للكبيرة من حيث هي، إذ يرد عليه من ارتكب نحو الزنا

نادماً عليه فقضيته أنه لا تنخرم به عدالته ولا يسمى كبيرة حينئذ وليس كذلك اتفاقاً وإن كان ضابطاً كما هو المنصوص عليه فهو قريب اهـ.

قال الجلال البلقيني: كان العلائي فهم أن كل من يذكر حداً يدخل المنصوص وهو ممنوع، وضابط الغزالي إنما هو لما عدا المنصوص عليه فهو قريب. وقد ذكر العلائي نفسه إن الحدود إنما هي لما عدا المنصوص عليه.

فصل

ومن حدود الكبيرة: قول العز بن عبد السلام: الأولى ضبط الكبيرة بما يشعر بتهاون مرتكبها بدينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها. قال: فإذا أردت الفرق بين الصغيرة والكبيرة فاعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبيرة المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقل الكبائر فهي صغيرة وإلا فهي كبيرة اهـ.

واعترض الأذرعي فقال: وكيف السبيل إلى الإحاطة بالكبائر المنصوص عليها حتى ينظر في أقلها مفسدة ويقيس بها مفسدة الذنب الواقع هذا متعذر اهـ.

قال الجلال البلقيني: ولا تعذر في ذلك إذا جمع ما صح من الأحاديث في ذلك، إلا أن الإحاطة بمفاسدها حتى يعلم أقلها مفسدة في غاية الندور والإستحالة إذ لا يطلع على ذلك إلا الشارع ﷺ، ثم قال ابن عبد السلام بعد ما ذكر: وكذلك من أمسك امرأة محصنة لمن يزني بها أو أمسك مسلماً لمن يقتله، فلا شك أن مفسدته أعظم من مفسدة مال اليتيم، وكذلك لو دلّ الكفار على عورة المسلمين مع علمه بأنهم يستأصلونهم بدلالته ويسبون حريمهم وأطفالهم ويغنمون أموالهم، فإن نسبة هذه المفاسد أعظم من التولي يوم الزحف بغير عذر، وكذلك لو كذب على إنسان وهو يعلم أنه يقتل بسبب كذبه وأطال في ذلك إلى أن قال: وقد ضبط بعض العلماء الكبائر بأن كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن فهو من الكبائر، فتغيير منار الأرض أي طرقها كبيرة لاقتران اللعن به، فعلى هذا كل ذنب يعلم أن مفسدته كمسفدة ما قارن به الوعيد أو اللعن أو الحد أو كان أكثر من مفسدته فهو كبيرة اهـ.

قال ابن دقيق العيد: وعلى هذا فيشترط أن لا توجد المفسدة مجردة عما يقترن بها من أمر آخر، فإنه قد يقع الغلط في ذلك ألا ترى أن السابق إلى الذهن في مفسدة الخمر إنما هو السكر وتشويش العقل، فإن أخذنا بمجرده لزم أن لا يكون شرب القطرة الواحدة منه كبيرة لخلوها عن المفسدة المذكورة لكنها كبيرة لمفسدة أخرى وهو التحري عن الشرب الكثير الموقع في المفسدة، فبهذا الإقتران يصير كبيرة.

المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار، وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم؛ أربعة في القلب وهي الشرك بالله، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربع في اللسان، وهي: شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس ـ وهي التي يحق بها باطلاً أو يبطل بها حقاً، وقيل هي التي يقتطع بها مال امريء مسلم باطلاً ولو سواكاً من أراك. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار ـ والسحر. وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن

فصل

ومن حدود الكبيرة ما اختاره ابن الصلاح في فتاويه الكبيرة: كل ذنب عظم عظماً يصح أن يطلق عليه اسم الكبيرة ويوصف بكونه عظيماً على الإطلاق، وعليها أمارات منها إيجاب الحد، ومنها الإيعاد عليه بالعذاب بالنار ونحوها في الكتاب أو السنة، ومنها وصف فاعلها بالفسق، ومنها اللعن اهـ.

ولخصه البارزي في تفسير الحاوي فقال: والتحقيق أن الكبيرة كل ذنب قرن به وعيد أو لعن بنص كتاب أو سنة أو علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به وعيد أو حد أو أكثر من مفسدته أو أشعر بتهاون مرتكبه في دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها من ذلك لو قتل من يعتقد براءته فظهر أنه مستحق لدمه، أو وطيء امرأة ظاناً أنه زان بها، فإذا هي زوجته أو أمته. ولنرجع لشرح كلام المصنف، وقد تقدم أن ما قالوه في حدودها إنما هو على سبيل التقريب فقط، وأن بعضهم ضبطها بالعد دون الحد.

(وقال أبو طالب) محمد بن علي بن عطية الحارثي **(المكي)** رحمه الله تعالى في كتاب قوت القلوب بعد أن نقل أقوال من قال أنها خمس أو سبع أو أكثر أو أقل قال: وكان عبد الرزاق يقول: الكبائر إحدى عشرة، وهذا أكثر ما قيل في جملة عددها مجملاً ثم قال: والذي عندي في جملة ذلك مجتمعاً من التفرق: **(الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار)** الواردة بلفظ الكبائر وبلفظ أكبر الكبائر، **(وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر)** وهم العبادلة الثلاثة **(وغيرهم)** رضي الله عنهم ـ كما سيأتي بيان ذلك تفصيلها ـ **(أربعة في القلب)** أي من أعمال القلوب **(هي الشرك بالله)** تعالى، **(والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربعة في اللسان)** أي من أعماله **(وهي شهادة الزور، وقذف المحصن)** وهو الحر البالغ المسلم، **(واليمين الغموس وهي التي يحق بها باطل أو يبطل بها حق. وقيل هي التي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً)** ولفظ القوت ظلماً **(ولو)** كان ذلك المقتطع **(سواكاً من أراك)** إشارة إلى حقارته **(و)** إنما **(سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها)** في غضب الله تعالى، وقيل **(في النار والسحر)** فكسر فسكون **(وهو كل)** ما كان من **(كلام)** أو فعل **(يغير الإنسان وسائر الأجسام)** عن أعيانها وينقل المعاني **(عن**

موضوعات الخلقة. وثلاث في البطن: وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا وهو يعلم. واثنتان في الفرج وهما: الزنا واللواط. واثنتان في اليدين وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين: وهي الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين. وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين، قال: وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما، وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما، وأن يسباه فيضربهما، ويجوعان فلا يطعمهما: هذا ما قاله وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام

موضوعات الخلقة) التي خلقت لها والسحرة هي النفاثات في العقد الذين أمر الله تعالى بالإستعاذة منهم. **(وثلاثة في البطن وهي: شرب الخمر، والمسكر من كل شراب)** أسكر ولفظ القوت شرب الخمر والمسكر من الأشربة **(وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا وهو يعلم، وإثنتان في الفرج وهما الزنا واللواط)** في الإدبار، **(وإثنتان في اليدين وهما القتل والسرقة، وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف الواحد من إثنين والعشرة من العشرين)** غير متحيزة إلى فئة ولا ممتد لكرة، **(وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين قال: وجملة عقوقهما)** ولفظ القوت وتفسير العقوق جملة **(أن يقسما عليه في حق فلا يبرّ قسمهما وأن يسألاه)** في **(حاجة فلا يعطيهما)** وأن يؤمناه فيخونهما وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما، **(وأن يسباه فيضربهما)** وذكر وهب بن منبه أصل البر بالوالدين في التوراة أن تقي ما لهما بمالك وتوفر ما لهما وتطعمهما من مالك، وأصل العقوق أن تقي مالك بمالهما وتوفر مالك وتأكل مالهما **(هذا ما قاله)** أبو طالب المكي رحمه الله تعالى.

قال ابن حجر في شرح الشمائل وعقوق الوالدين أو أحدهما وجمعهما لأن عقوق أحدهما يستلزم عقوق الآخر أو يجر إليه من العق وهو لغة القطع والمخالفة، وإما شرعاً فقيل: ضابطه أن يعصيه في جائز وليس هذا الإطلاق بمرضي والذي آل إليه أمر أئمتنا بعد طول البحث أن ضابطه أن يفعل معه ما يتأذى به تأذياً ليس بالهين، لكن هل المراد بقولهم ليس بالهين بالنسبة للوالد حتى أن من تأذى به كثيراً وهو عرفاً بخلاف ذلك كبيرة، أو بالنسبة للعرف فما عدّه أهله مما يتأذى به كثيراً ليس بكبيرة، وإن تأذى به كثيراً كل محتمل ولم يبينوه، والذي يظهر أن المراد الثاني بدليل أنه لو أمر ولده بنحو فراق حليلته لم تلزمه طاعته وإن تأذى بذلك كثيراً.

تنبيه:

وقد تقدم عن ابن عباس أن الكبائر إلى السبعمائة أقرب، وفي رواية إلى السبعين والقول الأول أكثر ما قيل فيه. وصنف الديلمي من الشافعية جزءاً ذكر فيه أكثر من أربعين، وصنف العلائي جزءاً فيه خمسة وعشرين من مجموع ما جاء في الأحاديث منصوصاً عليه أنه كبيرة، وزاد عليه الجلال البلقيني أشياء كثيرة، وكنت قد أمليت في زاوية القطب أبي محمود الحنفي قدس سره نيفاً وتسعين كبيرة مرتبة على حروف التهجي مع بيان حقائقها وحدودها وذكر ابن حجر منها في

....

شرح الشمائل جملة سردها إجمالاً، وفي كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر تفصيلاً فأوصلها في الباب الأول منه إلى ستة وستين كبيرة، وفي الباب الثاني منه إلى أربعمائة وسبع وستين كبيرة، ورتبها على ترتيب كتب الفقه وبرهن عليها بالآيات والأخبار، فهو أجمع كتاب في هذا الباب، وقد سبقه إلى ذلك الحافظ الذهبي فأورد جملة منها في كتاب ولم يرتب ولا حاجة إلى تعداد ما أورده لما فيه من التطويل الممل، وإنما ذكر هنا بيان ما ذكره صاحب القوت واستنبطه من الأخبار مع زيادة عليه، فالأربعة منها في حديث عبدالله بن عمرو وقد تقدم للمصنف، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله ما هي؟ قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» ولهما من حديث أبي بكرة: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور ـ أو قال وقول الزور». ولهما من حديث أنس: سئل عن الكبائر. قال: «الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين» وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور» ولهما من حديث ابن مسعود، سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «إن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك». وللطبراني من حديث سلمة بن قيس «إنما هي أربع لا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا» وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا» وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس: «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر». وفيه موقوفاً على عبدالله بن عمر «وأعظم الكبائر شرب الخمر» وكلاهما ضعيف وللبزار من حديث ابن عباس بإسناد حسن أن رجلا قال: يا رسول الله ما الكبائر» قال: «الشرك بالله واليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله». وله من حديث بريدة: «أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع الفحل» وفيه صالح ابن حيان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما، وله من حديث أبي هريرة: «الكبائر أولهن الإشراك بالله» وفيه الإنتقال إلى الإعراب بعد هجرته، وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف، وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حتمة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة، وفيه ابن لهيعة. وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري «الكبائر تسع» وفيه رجوع إلا الإعرابية بعد الهجرة، وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه «الكبائر تسع» فذكر منها «واستحلال البيت الحرام». وللطبراني من حديث واثلة «من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل» وله أيضاً من حديثه: «إن من أكبر الكبائر أن ينتفي الرجل من والده». ولمسلم من حديث جابر «بين الرجل وبين الإشراك والكفر ترك الصلاة» ولمسلم من حديث عبدالله بن عمر «ومن الكبائر شتم الرجل والديه». ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد «من أربى الربا الإستطالة في عرض المسلم بغير حق».

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه مر ﷺ على قبرين فقال: « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وأنه لكبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » الحديث. ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكرة « أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » الحديث. ولأبي داود والترمذي من حديث أنس « عرضت على ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها » وقال الترمذي: غريب. وروي ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة من حديث ابن عباس « لا صغيرة مع إصرار » وفيه أبو شيبة الخراساني يعرف به، والحديث منكر فهذه المرفوعات.

وأما الموقوفات؛ فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود وقال: الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله.

وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال: الكبائر الإشراك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمداً وإيتاء الزكاة مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم.

وروي ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس قال: كل ذنب أصر العبد عليه كبير. وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه.

وروي الديلمي عن أنس قوله: لا صغيرة مع الإصرار، وإسناده جيد قال العراقي بعد أن ساق هذه العبارة: فقد اجتمع من الموقوفات والمرفوعات ثلاثة وثلاثون أو إثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم، وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في الموقوفات اهـ.

قلت: وفي الموقوفات عن ابن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن الكبائر فقال: الإشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها وفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم بغير حقه وأكل الربا والبهتان، ويقولون إعرابية بعد الهجرة قيل لابن سيرين: والسحر؟ قال: إن البهتان يجمع شراً كثيراً أخرجه ابن جرير. وعن الإوزاعي قال: يقال من الكبائر أن يعمل الرجل الذنب فيحتقره. أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة، والبيهقي في الشعب وعن مغيرة قال: كان يقال شتم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من الكبائر. أخرجه ابن أبي حاتم، ويزاد على هذا مما استنبط من الأخبار نكث الصفقة وترك السنة والتسبب إلى شتم الوالدين والإصرار في الوصية والإلحاد في البيت وهو غير استحلاله كما هو ظاهر لصدقة بفعل معصية فيه ولو سراً وسوء الظن بالله والجمع بين الصلاتين لغير عذر وقطيعة الرحم والمن بالعطية واعتباد الحر وتغيير منار الأرض وإيواء المحدث والذبح لغير الله والدياثة والقيادة، وغير ذلك مما أورده ابن حجر في الزواجر.

الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه، فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر، وهي جناية على الأموال، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل، فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله، كيف وفي الخبر: «من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم»، وهذا زائد

تنبيه:

الفرد المطلق هو الكفر، فقد قال الله تعالى: ﴿إن الشرك الظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣] ولهذا لا يغفر بالإجماع، فحينئذ وقوع لفظ الكبيرة جمعاً في الآيات والأخبار لتنوعه كعبادة الصنم والشمس والقمر وكفر اليهود والنصارى والمجوس وأمثالهم، أو لتعدد المخاطب فوقع مقابلة الجمع بالجمع، أو لأن كفر زيد غير كفر عمرو. وقال ابن حجر في شرح الشمائل: إدعاء أن الأكبر لا يكون إلا واحداً إنما هو إن أريد الحقيقة أما إن أريد الأكبر النسبي فهو يكون متعدداً، ولا شك أن الأكبر بالنسبة إلى بقية الكبائر أمور أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «اتقوا السبع الموبقات» الحديث وحينئذ فالأكبر هنا لتعدده في الجواب يراد به الأمر النسبي والله أعلم.

ولنعد إلى شرح كلام المصنف فإنه بعدما أورد سياق كلام أبي طالب المكي من تقسيمه الكبائر على الأعضاء قال: (**وهو قريب، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فإنه جعل أكل الربا و**) أكل (**مال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الأموال ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل، فأما فقء العين**) أي نخسها (**وقطع اليدين ونحو ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له، وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لا شك في أنه أكبر من أكل ماله. كيف وفي الخبر: «من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم»**) قال العراقي: عزاه الديلمي في مسند الفردوس لأحمد، وأبي داود من حديث سعيد بن زيد، والذي عندهما من حديثه «من أربى الربا بالإستطالة في عرض المسلم بغير حق» كما تقدم اهـ.

قلت: ولفظ القوت وقد روينا عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق، ومن الكبائر السبتان بالسبة». وقد رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وفي ذم الغضب هكذا عن الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، عن زهير بن محمد، عن العلاء بن عبد الرحمن. ولفظ أبي داود: «من أكبر الكبائر استطالة المرء في عرض الرجل المسلم بغير حق ومن الكبائر السبتان بالسبة». وهكذا رواه أيضاً ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وأما حديث سعيد بن زيد فقد رواه أحمد وسمويه والطبراني وابن قانع والضياء بلفظ: «إن من أربى الربا الإستطالة في عرض المسلم بغير حق». الحديث.

على قذف المحصن. وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر. وقالت طائفة: كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا؟ لا يصح. ما لم يفهم معنى الكبيرة، والمراد بها كقول القائل: السرقة حرام أم لا؟ لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة؛ فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة، صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه، صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله

(وهو زائد على قذف المحصن وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة) رضوان الله عليهم: **(إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر)** لفظ القوت، وأما عبادة بن الصامت، وأبو سعيد الخدري وغيرهما من الصحابة فكانوا يقولون: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر وهي في بعض الألفاظ من الموبقات اهـ.

قال العراقي: رواه أحمد والبزار بسند صحيح وقال: من الموبقات بدل الكبائر، ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن الصامت وقال: صحيح الإسناد.

(وقالت طائفة) من العلماء: **(كل عمل كبيرة)** نقله صاحب القوت، **(و)** قال آخرون: **(كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة)** كذا في القوت، ورواه البيهقي في الشعب عن ابن عباس وقد تقدم، **(وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة هل هي كبيرة أم لا؟ لا يصح ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها)**، وهذا **(كقول القائل السرقة حرام أم لا. لا مطمع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات)** أي من الأسماء المتضايفة ويستعملان في الكمية المتصلة كالأجسام، وذلك كالكثير والقليل في الكمية المتصلة، كالعدد، **(وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه، فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة صغيرة بالإضافة إلى الزنا، وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله)** ونقل ابن الرفعة وغيره عن القاضي حسين عن الحليمي أن الكبيرة كل محرم لعينه منهي عنه لمعنى في نفسه، فإن فعله على وجه يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان فاحشة، فالزنا كبيرة

خاصة اسم الكبيرة، وتعني بوصفه بالكبيرة: أن العقوبة بالنار عظيمة، وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول: تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه، ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها، وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات، ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الإحتمالات، نعم من المهات أن تعلم معنى قول الله تعالى: ﴿ان تجْتَنبُوا كَبائِرَ ما تُنهونَ عنهُ نكفّر عنكمُ سيئآتكم﴾ [النساء : ٣١] وقول رسول الله ﷺ : « الصلوات كفارات لما بينهن إلا الكبائر »، فإن هذا إثبات حكم الكبائر. والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم إنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه، فلا يدري حكمه،

وبحليلة الجار فاحشة، والصغيرة تعاطي ما ينقص عن رتبة المنصوص عليه أو تعاطيه على وجه دون المنصوص عليه، فإن تعاطاه على وجه يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان كبيرة، فالقبلة واللمس والمفاخذة صغيرة ومع حليلة الجار كبيرة، ومن اختبارات الحليمي أنه ما من ذنب إلا وفيه صغيرة وكبيرة وقد تنقلب الصغيرة كبيرة بقرينة تضم إليها، وتنقلب الكبيرة فاحشة بقرينة تضم إليها إلا الكفر بالله فإنه أفحش الكبائر وليس من نوعه صغيرة.

(نعم، للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار) في الآخرة **(على فعله خاصة اسم الكبيرة، ونعني بوصفه بالكبيرة: أن العقوبة بالنار عظيمة، وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه)** في الدنيا **(مصيراً إلى أن ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة)** من رجم أو قتل أو ضرب **(عظيم، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فيقول: تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ثم يكون عظيماً وكبيرة لا محالة بالإضافة، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت** درجاتها. **فهذه الإضافات لا حرج فيها وما نقل من ألفاظ الصحابة)** ابن مسعود وأبي سعيد وابن عمر وغيرهم **(يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الإحتمالات. نعم من المهات أن تعلم معنى قول الله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾)** أي كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، وقرىء **(كبير)** على إرادة الجنس **(﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾)** أي نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم، **(و)** معنى **(قول رسول الله ﷺ « الصلوات)** الخمس **(كفارات لما بينهن إلا الكبائر »)** رواه مسلم وقد تقدم الكلام عليه قريباً، **(فإن هذا إثبات حكم الكبائر، والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها)** بالإبعاد عليها أو بإيجاب الحد في الدنيا على مرتكبها مثلاً، **(وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر)** وذلك ينقص رتبتها عن رتبة

فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول: إني أردت بالكبائر عشراً أو خمساً ويفصلها فإن لم يرد هذا، بل ورد في بعض الألفاظ: «ثلاث من الكبائر»، وفي بعضها: «سبع من الكبائر»، ثم ورد: «أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر»، وهو خارج عن السبع والثلاث: علم انه لم يقصد به العدد بما يحصر، فكيف يطمع في عدد ما لم يعده الشرع؟ وربما قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق. وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب، ونعرف أيضاً أكبر الكبائر، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً

المنصوص عليها، **(وإلى ما يشك فيه فلا يدري حكمه)** أهو من الكبائر أم من الصغائر **(فالطمع في معرفة عدد خاص)** ينتهي إليه **(أوحد جامع)** للايراد **(مانع)** من دخول ما ليس فيه منه **(طلب لما لا يمكن، فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله ﷺ بأن يقول: إني أردت بالكبائر عشراً أو خمساً)** أو سبعاً **(ويفصلها، فإن لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ ثلاث من الكبائر)** وهو ما رواه أحمد والشيخان والترمذي من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقول الزور» ورواه الطبراني في الكبير والخرائطي في مساوىء الأخلاق من حديث أبي الدرداء، وأخرجه أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه من حديث أبي أيوب «من عبدالله لا يشرك به شيئاً وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان واجتنب الكبائر فله الجنة» فسأله رجل ما الكبائر؟ قال: «الشرك بالله وقتل النفس المسلمة والفرار يوم الزحف». **(وفي بعضها سبع من الكبائر)** رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد «الكبائر سبع» وقد تقدم، وله في الكبير من حديث عبدالله بن عمرو «من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر» الحديث ثم عدّها سبعاً، وتقدم عن الصحيحين من حديث أبي هريرة: «اجتنبوا السبع الموبقات»، **(ثم ورد «أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر»)** كما رواه أبو داود وابن أبي الدنيا في ذم الغضب، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من حديث أبي هريرة وتقدم. **(وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يرد به العدد والحصر)** وإذا كان الأمر كذلك **(فكيف يطمع في عدد ما لم يعدده الشرع؟ وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها)** ولهذا اذهب بعض السلف أن الكبائر مبهمة وقطع بذلك كما تقدم. **(نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق، وأما أعيانها فتعرف بالظن والتقريب)** وذلك بالحدود التي ذكرت آنفاً، **(ونعرف أيضاً أكبر الكبائر، فأما أصغر الصغائر فلا سبيل)** لنا **(إلى معرفته. وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر**

أن مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيعبُدون﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليكونوا عبيداً لي. ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولا بدّ أن يعرف نفسه وربه، فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهو المعنى بقوله عليه السلام: «الدنيا مزرعة الآخرة»، فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه. والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال، فكل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه ما يسد باب حياة النفوس ويليه ما يسد باب المعايش التي بها حياة النفوس، فهذه ثلاث مراتب، فحفظ المعرفة على القلوب، والحياء على الأبدان، والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود

جيعاً أن مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ أي) إلا ليعرفون أو **(ليكونوا عبيداً لي)** خاصة. **(ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية، ولا بد أن يعرف نفسه وربه)** كما يرشد إليه الخبر: من عرف نفسه عرف ربه، **(فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء)** وللرسل عليهم السلام إلى الخلق ليرشدوهم إلى ذلك وكذا بارسال الكتب من السماء، **(ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا وهو المعنى بقوله ﷺ: «الدنيا مزرعة الآخرة»)** قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً، ورواه العقيلي في الضعفاء، وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم «نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته» الحديث وإسناده ضعيف اهـ.

قلت: وتمامه «حتى يرضى ربه وبئست الدار الدنيا لمن صدته عن آخرته وقصرت به عن رضا ربه وإذا قال العبد قبح الله الدنيا قالت الدنيا قبح الله أعصانا لربه». وقد رواه كذلك الرامهرمزي في الأمثال وهو عند الحاكم في مستدركه وصححه ولكن تعقبه الذهبي بأنه منكر وأن عبد الجبار يعني راويه لا يعرف. ويروى من قول سعيد بن عبد العزيز «الدنيا غنيمة الآخرة» أخرجه أبو نعيم في الحلية من طريق عقبة بن علقمة عنه، **(فصار حفظ الدنيا أيضاً تابعاً مقصوداً لحفظ الدين لأنه وسيلة إليه والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان النفوس والأموال، فكل ما يسدّ باب معرفة الله)** وصفاته **(فهو أكبر الكبائر، ويليه ما يسد باب حياة النفوس، ويليه ما يسد باب المعايش التي بها حياة النفوس. فهذه ثلاث مراتب فحفظ المعرفة على القلوب و)** حفظ **(الحياة على الأبدان و)** حفظ **(الأموال على الأشخاص**

الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصوّر أن يختلف فيها الملل، فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله؛ أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال، فحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب:

الأولى: ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر، فلا كبيرة فوق الكفر، إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله. ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته، فإن هذا أيضاً عين الجهل، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً، ويتلو هذه الرتبة: البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض، وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب

ضروري في مقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن تختلف فيها الملل) بأسرها، **(فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبياً يريد ببعثته إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال، فحصل من هذا أن معرفة الكبائر على ثلاث مراتب.**

الأولى: ما يمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر إذا الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل، والوسيلة المقربة إليه هو العلم والمعرفة وقربه) من ربه **(بقدر معرفته)** وعلمه، **(وبعده)** منه **(بقدر جهله)** فمن قوي جهله كان في المرتبة الأقصى من البعد، ومن قوي علمه كان في المرتبة الأعلى من القرب، **(ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً الأمن من مكر الله)** بالإسترسال في المعاصي مع الإتكال على الرحة **(والقنوط من رحمته)** وهو بعينه اليأس من رحمته وسوء الظن بالله تعالى لتلازم الثلاثة في معنى واحد، لكن الجلال البلقيني عدّ كل واحدة كبيرة مستقلة، ومن ثم قال أبو زرعة العراقي: وفي معنى اليأس القنوط والظاهر أنه أبلغ منه للترقي إليه في قوله تعالى: ﴿وإن مسه الشر فيئوس قنوط﴾ [فصلت: ٤٩] اهـ.

والظاهر أيضاً أن سوء الظن أبلغ منها لأنه يأس وقنوط، وزيادة التجوير على الله تعالى بما لا يليق بجوده وكرمه. وفي حديث ابن عباس أنه ﷺ سئل عن الكبائر فقال: «الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله» وخرّجه البزار، وابن أبي حاتم، وأخرج ابن المنذر عن علي رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر الأمن من مكر الله واليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله». وأخرج ابن جرير عن أبي سعيد نحوه. **(فإن هذا أيضاً عين الجهل فمن عرف الله)** بصفاته الحسنى **(لم يتصور أن يكون آمناً)** من مكره وغضبه، **(ولا يكون آيساً)** من رحمته، **(ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، وبعضها أشد من بعض،**

تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه، ومراتب ذلك لا تنحصر. وهي تنقسم إلى ما يعلم انها للداخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلى ما يعلم انه لا يدخل، وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع.

المرتبة الثانية: النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر، لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود، إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود.

وأما الزنا فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب ويبطل التوارث

وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه) ومن ذلك التكذيب بالقدر أي بأن الله يقدر على عبده الخير والشر كما زعمه المعتزلة، فإنهم يقولون: إن العبد يخلق أفعال نفسه من دون الله تعالى فهم ينكرون القدر، فسموا بذلك قدرية، وكذا القول بالإرجاء والإباحة ومقالة جهم والتعطيل والشطح والرفض، وغير ذلك من البدع مما يذهب الإيمان وينبت النفاق. **(ومراتب ذلك لا تحصى وهي تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن، وإلى ما يعلم أنه لا يدخل، وإلى ما يشك فيه وطلب رفع الشك في القسم المتوسط طمع في غير مطمع)**.

(المرتبة الثانية: النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله) تعالى، **(فقتل النفس لا محالة من الكبائر)** كما ورد التصريح بذلك في الآية والأخبار المتقدمة، **(وإن كان دون الكفر لأن ذلك)** أي الكفر **(يصدم عين المقصود، وهذا)** أي القتل **(يصدم وسيلة المقصود إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل بها إلى معرفة الله تعالى، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف)** كاليدين والرجلين والأنف والاذن واللسان، **(وكل ما يفضي إلى الهلاك)** ولو بعد مدة **(حتى الضرب)** المثخن **(وبعضها أكبر من بعض)** فإن في كل ذلك صد ما لوسائل المقصود، **(ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط)** في الإدبار **(لأنه لو اجتمع الناس على الإكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل)** أي الذرية، **(ورفع الوجود قريب من قطع الوجود)** هذا في اللواط.

(وأما الزنا، فإنه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الأنساب) ويخلطها **(ويبطل**

والتناصر وجلة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها. بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بأناث يختص بها عن سائر الفحول، ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح، وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل، لأنه ليس يفوّت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل، وينبغي أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعضم أثر الضرر بكثرته.

المرتبة الثالثة: الأموال. فإنها معايش الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما، بل ينبغي، أن تحفظ التبقي ببقائها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها. نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق.

أحدها: الخفية وهي السرقة فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً كيف يتدارك.

التوارث) المشروع **(والتناصر)** أي التعاون في الأمور المهمة، **(وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها، كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ولا تنتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها بانات يختص)** هو **(بها عن سائر الفحول؟ وكذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحاً في شرع قصد به الإصلاح، وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله، ولكنه يفوت تميز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل)** والتهالك، **(وينبغي أن يكون أشد من اللواط لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين)** الذكر والأنثى بحكم الفطرة **(فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته)** بخلاف اللواط.

(المرتبة الثالثة: الأموال فإنها معايش الخلق) يتعاملون بها **(فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا بالإستيلاء)** والقهر والغلبة **(والسرقة وغيرهما، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها)** لأربابها، **(وإن أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الأمر فيها)** لأمكان التدارك في الحالين. **(نعم إذا جرى تناولها طريق يعسر التدارك فيه، فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق)**.

(أحدها: أخذها خفية وهي السرقة) وهي أخذ ما ليس له أخذه في خفاء **(فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً كيف يتدارك)** وفي معناها الإختلاس والإستلال.

الثاني: أكل مال اليتيم، وهذا أيضاً من الخفية وأعني به في حق الولي والقيّم فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه، فتعظيم الأمر فيه واجب، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه.

الثالث: تفويتها بشهادة الزور.

الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً، وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس. وهذه الأربعة جديرة أن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها.

وأما أكل الربا؛ فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يجعل الغصب الذي هو أكل مال

(**الثاني: أكل مال اليتيم، وهذا أيضاً من الخفية وأعني به في حق الولي**) على ماله (**والقيم**) عليه من جهة الشرع، (**فإنه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه، فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانة في الوديعة فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه**).

(**الثالث: تفويتها**) أي الأموال (**بشهادة الزور**) أي الكذب بأن يشهد بما لا يتحققه. قال العز بن عبد السلام وعدّها كبيرة ظاهران وقع في مال خطير فإن وقع في قليل كزبيبة أو تمرة فمشكل كما سيأتي الكلام عليه قريباً.

(**الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس**) وقد تقدم معناها، (**فإن هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلاً، وبعضها أشد من بعض، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس**). قال العز بن عبد السلام في قواعده: وإن كان الشاهد بها كاذباً أثم ثلاثة آثام: اثم المعصية، وإثم اعانة الظالم، وإثم خذلان المظلوم، وإن كان صادقاً أثم إثم المعصية لا غير لتسببه إلى براء ذمة الظالم وإيصال المظلوم إلى حقه. (**وهذه الأربعة جديرة لأن تكون مرادة بالكبائر وان لم يوجب الشرع الحد في بعضها، ولكن أكثر الوعيد عليها**) بالنار بالويل وبالعذاب الأليم (**وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها**).

(**وأما أكل الربا؛ فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضي**) من الجانبين (**مع الإخلال بشرط وضعه الشرع**) ورتبه، (**ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يجعل الغصب**

الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع، وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة، والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر، وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضرورياً في الدين، فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين.

أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر، وقد دل عليه تشديدات

الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر، فأكل الربا أولى أن لا يكون من الكبائر، فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع، وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه) والوعيد عليه **(فقد عظم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة)** وهي التفريط في الأمانة **(والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر، وذلك واقع في مظنة الشك وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر، بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرائع فيه ليكون ضرورياً في الدين)** اعلم انه ذكر ابن عبد السلام في القواعد: أن أخذ الأموال وتفويتها على أربابها بشهادة الزور كبيرة إن كان من مال خطير، وإلاَّ فمشكل فيجوز أنْ يجعل من الكبائر فطاماً عن المفاسد، كما جعل شرب قطرة من الخمر من الكبائر، وإن لم تتحقق المفسدة ويجوز أن يضبط ذلك المال بنصاب السرقة قال: وكذلك القول في أكل مال اليتيم، قال في الخادم: ويشهد للثاني ما نقل عن أبي سعيد الهروي اشتراطه في كون الغصب كبيرة أن يكون المغصوب ربع دينار، ولكن ذكر ابن عبد السلام نفسه أنه حكى الإجماع على أن غصب الحبة وسرقتها كبيرة، وهذا يؤيد أنه لا فرق في كون شهادة الزور كبيرة بين قليل المال وكثيره فطما عن المفسدة، **(فيبقى مما ذكره)** الإمام **(أبو طالب المكي)** في القوت **(القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين)**.

(أما الشرب: لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر، وقد دل عليه تشديدات الشرع)، فمن ذلك ما رواه الشيخان والنسائي من حديث أبي هريرة «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» وقد تقدم. وروى الترمذي «إذا فعلت أمتي اثنتي عشرة خصلة فقد حلّ بهم البلاء» فذكرها وفيه «وشربت الخمور». وتقدم. وروى الحاكم وصححه «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر» وفي جامع رزين الخمر جماع الإثم، وعند ابن ماجه من حديث أبي الدرداء «ولا شرب الخمر فإنها مفتاح كل شر» وروى الطبراني من حديث ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قالوا حرمت الخمر وجعلت عدلاً للشرك. وعند أحمد من حديث قيس بن سعد: من شرب الخمر خرج نور الإيمان من قلبه، وعند البزار سقاه الله من حميم جهنم إلى غير ذلك من

الشرع وطريق النظر أيضاً، لأن العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة بل لا خير في النفس دون العقل، فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة، وإنما هو شرب ماء نجس، والقطرة وحدها في محل الشك، وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع، وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فللتوقف فيه مجال.

الأخبار الواردة فيه، (و) دل عليه (**طريق النظر أيضاً لأن العقل محفوظ، كما أن النفس محفوظة**) فكما يجب حفظ النفس يجب حفظ العقل، (**بل لا خير في النفس دون العقل فإزالة العقل**) بالمسكرات (**من الكبائر، ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة، وإنما هو شرب ماء نجس، والقطرة وحدها في محل الشك، وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في القوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع، فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلاّ فللتوقف فيه مجال**).

قال ابن حجر في الزواجر: أما شرب الخمرة ولو قطرة منها فكبيرة إجماعاً، ويلحق بذلك شرب المسكر من غيرها وفي الماء من غير المسكر خلاف، والأصح الحاقه إن كان شافعياً، وأما ما اقتضاه كلام الروياني من ان شرب غير الخمر إنما يكون كبيرة إذا سكر نته فمردود بأن القدر الذي لا يسكر داخل تحت الخمر على المشهور عند الشافعية من ثبوت اللغة قياساً، وفيه الحدّ عندهم أيضاً أي والحد من العلامات القطعية الدالة على كون الشيء المحدود عليه كبيرة، فسكون الرافعي على كلام الروياني ضعيف، وكذلك قول الحليمي: لو خلط خمراً بمثلها من الماء فذهبت شدتها وشربها فصغيرة اهـ.

وقد قال الاذرعي عقبه: وفيه نظر ولا يسمح الأصحاب بذلك فيما أراه، وقد قالوا: إن شرب القطرة منها كبيرة ومعلوم أنها لا تؤثر اهـ. وهو ظاهر، وهذا في حق من يعتقد التحريم أما من يعتقد الحل فقال الشافعي: أحده وأقبل شهادته أي لأنه لم يأت كبيرة في عقيدته على أن ما نقله الرافعي عن الروياني ذكر مثله القاضي أبو سعيد الهروي، وحكى الخلاف ولم يرجح منه شيئاً فقال في تعداد الكبائر وشرب الخمر والمسكر من غيره وفي اليسير منه خلاف إذا كان شافعياً اهـ.

والأرجح ما ذكر أنه كبيرة أيضاً. وأما قول الحليمي شرب الخمر كبيرة، فإن استكثر منه حتى سكر أو جاهر به ففاحشة، فإن مزج خمراً بمثلها من الماء فذهبت شدتها وضررها فذلك من الصغائر. فمردود أيضاً، فإن الأصحاب لا يسمحون فيما قاله في مزج الخمر بمثلها بل الصواب كما

وأما القذف، فليس فيه إلا تناول الأعراض، والأعراض دون الأموال في الرتبة ولتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا، وقد عظم الشرع أمره وأظن ظناً غالباً أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس، وهو الذي نريده بالكبيرة الآن، ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود

قاله الجلال البلقيني الجزم بخلاف ما قاله، وأن ذلك كبيرة لا محالة. ومرّ أن العز بن عبد السلام اختار ضبط الكبيرة بما يشعر بتهاون مرتكبها بدينه اشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها، وقرر ذلك إلى أن قال: فعلى هذا إن كانت مفسدته كمفسدة ما قرن به وعيد أو لعن أو حدّ كان أكثر مفسدة منه فهو كبير اهـ.

وذيّل عليه ابن دقيق العيد أنه لا بدّ ان توجد المفسدة مجردة عما يعتريها من أمر آخر فإنه قد يقع الغلط في ذلك قال: ألا ترى أن السابق إلى الذهـن في مفسدة الخمر السكر وتشويش العقل، فإن أخذنا بمجرده لزم أن لا يكون شرب القطرة الواحدة كبيرة لخلوها عن المفسدة المذكورة لكنها كبيرة لمفسدة أخرى وهو التجرؤ على شرب الكثير الموقع في المفسدة، فهذا الاقتران يصيره كبيرة والله أعلم.

(وأما القـذف: فليس فيـه إلا تنـاول الأعـراض) بـالشتم والغيبـة صريحاً أو كنـايـة **(والأعراض دون الأموال في الرتبة)** ويدل لذلك حديث الصحيح « فإذا قالوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم واعراضهم » **(ولتناولها مراتب، وأعظمها التناول بالقذف بالاضافة)** أي النسبة **(إلى فاحشة الزنا)** كان يقول: يا زاني أو يا منكوح أو يا علق ونحو ذلك، وللمرأة يا زانية أو بغية أو قحبة أو بنتها يا بنت الزنا أو ولدها يا ولد القحبة **(وقد عظم الشرع أمره)** ففي الكتاب قوله ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ [النور: ٤] إلى آخر الآيتين صريحاً في الاولى للنص فيها على أن ذلك فسق، وضمناً في الثانية للنص فيها على أن ذلك يلعن الله فاعله في الدنيا والآخرة، وهذا من أقبح الوعيد وأشده، **(وأظن ظناً غالباً أن الصحابة)** رضوان الله عليهم **(كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة)** كما سبق النقل عن جماعة منهم، **(فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس)** يشير إلى حديث أبي هريرة عند مسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبـائـر » وقـد تقـدم، **(وهو الذي نريد بالكبيرة الآن، ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته، بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى انساناً يزني)** بامرأة أجنبية **(فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه)** وهو الزاني **(بمجرد**

عليه بمجرد شهادته، فإن لم تقبل شهادته فحدّه ليس ضرورياً في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات، فإذاً هذا أيضاً يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر.

وأما السحر؛ فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلاَّ فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره.

شهادته) ولا يحتاج إلى ضم عدل آخر معه، **(فإن لم تقبل شهادته)** لكونه وحده **(فحدّه ليس ضرورياً في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات، فإذاً هذا أيضاً يلتحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع، فأما من ظن أن له أن يشهد وحده إن ظن أنه يساعده)** على تلك **(الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر)**.

(وأما السحر، فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته على حسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره). اعلم أن السحر أقسام: أولها: سحر الكسدانيين الذين بعث إليهم إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالاتهم وهم فرق ثلاث الثاني: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية. الثالث: الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهذه الأنواع الثلاثة انكرها المعتزلة. الرابع: التخيلات والأخذ بالعيون. الخامس: الأعمال الغريبة التي تظهر من تركيب الآلات على النسب الهندسية. السادس: الاستعانة بخواص الأدوية المزيلة للعقل ونحوها. السابع: تعليق القلب بأن يدعي أنه يعرف الاسم الأعظم، وان الجن تطيعه فيعلق به قلب غيره فيتمكن الساحر أن يفعل فيه ما يشاء، وحكى عن الشافعي أنه قال: السحر يخيل ويمرض ويقتل والقصاص واجب على من قتل به وهو من عمل الشيطان، وقيل: أنه يؤثر في قلب الأعيان، وقيل: الأصح أنه كذلك لكنه يؤثر في الأبدان بالأمراض والموت والجنون. واختلف العلماء في الساحر هل يكفر أم لا وليس من محل الخلاف النوعان الأولان. وأما النوع الثالث: فالمعتزلة وحدهم كفروه، وأما بقية أنواعه فقال جماعة: انه كفر مطلقاً. وقال الشافعي وأصحابه: بعدم الكفر، وهل تقبل توبة الساحر؟ فالنوعان الأوّلان معتقد أحدهما مرتد، فإن تاب وإلاَّ قتل. وقال مالك وأبو حنيفة: لا تقبل توبتها، وأما النوع الثالث وما بعده فإن اعتقد أن فعله مباح قتل لكفره وإن اعتقد أنه حرام فعند الشافعي أنه جناية، فإذا فعله بالغير وأقرانه يقتل غالباً قتل لأنه عمد أو نادراً فهو شبه عمداً، وأخطأ من اسم غيره إليه فهو خطأ والدّيه على العاقلة إن صدقته إذ لا يقبل إقراره إليهم. وعن أبي حنيفة إن أقرّ بأني كنت أسحر مدة وقد تركت ذلك منذ زمان قبل منه ولم يقتل، وقد ظهر بالآيات والأخبار أن سائر أنواعه كفر، وقال به كثيرون فلا أقل من كونها كبيرة لاسيا مع ما ورد فيه من الوعيد الشديد والزجر البليغ.

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف، وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بغصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم، وإجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر ـ إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه ـ فالتوقف في هذا أيضاً غير بعيد، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر، فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعاً وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه، والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنّة، وإذا لا مطمع فيه، فطلب رفع الشك فيه محال.

فإن قلت: فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدّها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده؟ فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الابهام لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من

(**وأما الفرار من الزحف**) غير متحرف لقتال أو متحيز إلى فئة (**وعقوق الوالدين**) أو أحدهما، (**فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف، وإذا قطع بأن السب للناس بكل شيء**) من أنواعه (**سوى الزنا**) بصريح أو كناية (**و**) سوى (**ضربهم**) المؤدي إلى الهلاك، (**و**) سوى (**الظلم لهم بغصب أموالهم**) وإن كان المغصوب عليه قليلاً، (**و**) سوى (**إخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم عن أوطانهم ليس من الكبائر، إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكثر ما قيل فيه**) كما ذكره صاحب القوت، (**فالتوقف في هذا أيضاً غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة**) وهو حديث ابن عباس «الكبائر الاشراك بالله» فساقه وفيه «وعقوق الوالدين والفرار يوم الزحف». وقد تقدم، (**فليلتحق الكبائر، فإذا رجع حصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة ما لا يكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع، وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعاً وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والاثبات**) برجحان الاعتقاد مع احتمال النقيض، (**وبعضه مشكوك فيه**) بالتردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما (**وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنّة، وإذا لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال**) إذ لا نص في ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر.

(**فإن قلت: هذا**) الذي ذكرته (**إقامة برهان على استحالة معرفة حدّها، فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده، فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام، فإن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا**

حيث أنها كبيرة، بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما، وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرأون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس، وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفِّر عنكم سيئآتكم﴾ [النساء: ٣١] ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من إمرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيراً في قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنيناً أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر. فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار، نعم. من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع،

من حيث أنها كبيرة بل كل موجبات الحدود الشرعية (**معلومة بأسما**[illegible] **السرقة والزنا وغيرهما**) كاللواط والشرب والقذف، (**وأما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها، فهذا أمر يتعلق بالآخرة والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرأون على**) اقتراف (**الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس، وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه**) نكفّر عنكم سيآتكم﴾ يعني الصغائر. (**ولكن اجتناب الكبائر إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة كمن يتمكن من امرأة**) بأن اختلى بها (**ومن مواقعتها فكيف**) أي يمنع (**نفسه عن الوقوع**) بها (**فيقتصر على نظر أو لمس**) أو تقبيل، (**فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره فإن كان عنيناً**) وهو العاجز عن إتيان النساء (**أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز**) القائم به (**أو كان قادراً**) على الوقاع، (**ولكن أمتنع لخوف أمر آخر**) من الخارج، (**فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والأوتار**) بأنواعها. (**نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة على الخمر ويطلقها في السماع**) أي سماع الملاهي والأوتار، (**فمجاهدة النفس بالكف**) عن الخمر (**ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع**) وقد تقدم أن المعاصي ترتفع منها ظلمة إلى القلب فتظلمه كما أن

فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حدّ جامع بل ورد بألفاظ مختلفات، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه انه قال: قال رسول الله ﷺ: « الصلاة إلى الصلاة كفّارة، ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث: إشراك بالله، وترك السنّة، ونكث الصفقة » قيل: ما ترك السنة؟ قيل: « الخروج عن الجماعة. ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله »، فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حدّ جامع فيبقى لا محالة مبهماً.

فإن قلت: الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر، والورع عن الصغائر ليس شرطاً ـ في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا؟ فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني

الطاعات يرتفع إليه منها نور فتنوره، (**فكل هذه أحكام أخروية وتجوز أن تبقى في محل الشك وتكون من المشتبهات، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص**) القاطع (**ولم يرد النص بعد**) معلوم (**ولا حدّ جامع**) أو مانع، (**بل ورد بألفاظ مختلفة، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه انه قال: قال رسول الله ﷺ: « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث الشرك بالله وترك السنّة ونكث الصفقة » قيل: ما ترك السنة؟ قيل « الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله »**). قال العراقي: رواه الحاكم نحوه وقال: صحيح الاسناد انتهى.

قلت: ورواه أيضاً أحمد والبيهقي ولفظهم جميعاً « الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التي قبلها كفارة لما بينهما والجمعة إلى الجمعة التي قبلها كفارة لما بينهما والشهر إلى الشهر كفارة لما بينهما إلا من ثلاث الاشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة » قيل: يا رسول الله! اما الاشراك بالله فقد عرفناه فما نكث الصفقة وترك السنة؟ قال: « أما نكث الصفقة فأن تبايع رجلاً بيمينك ثم تخالف إليه فتقاتله بسيفك وأما ترك السنة فالخروج عن الجماعة ». (**فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حدّ جامع**) للافراد، (**فيبقى لا محالة مبهماً**).

(**فإن قلت: الشهادة لا تقبل إلا ممن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة**) قال الرافعي، قال الأصحاب: يعتبر في العدالة اجتناب الكبائر فمن ارتكب كبيرة فسق وردت شهادته، وأما الصغائر فلا يشترط تجنبها بالكلية لكن بشرط أن لا يصر عليها، (**وهذا من أحكام الدنيا. فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل**

الذهب والفضة لا تقبل شهادته، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر. وقال الشافعي رضي الله عنه: إذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته، فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة، فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدح في العدالة إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأقوال، وسماع الغيبة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأكل الشبهات، وسب الولد والغلام وضربهما

شهادته، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر) لكن نقل الإمام عن الشيخ أبي محمد أن العراقيين ومعظم الأصحاب قطعوا بأن سماع الأوتار والملاهي من الكبائر وتابعه عليه المصنف في كتبه، وتوقف ابن أبي الدم فيما نسبه الإمام للعراقيين وقال: لم أر أحداً صرح به، بل جزم الماوردي وهو منهم بنقيض ما حكاه الإمام فقال: إذا قلنا بتحريم الأغاني والملاهي فهل من الصغائر دون الكبائر يفتقر إلى الاستغفار ولا ترد به الشهادة إلا بالاصرار، ومتى قلنا بكراهة شيء منها فهي من الخلاعة لا تفتقر إلى الاستغفار ولا ترد الشهادة إلا مع الإكثار انتهى.

وتابعه في المهذب، وكذا القاضي حسين فإنه قال في تعليقه، قال بعض أصحابنا: لو جلس على الديباج عند عقد النكاح لم ينعقد لأن محل الشهادة فيه كالأداء الذي صار إليه محصله أن هذا من الصغائر وما تعذر منه لا يوجب الفسق، وتابعه الفوراني في الإبانة، ورد انكار ابن أبي الدم على الإمام بما ذكر بأن مجلي صرح في ذخائره بما يوافقه فقال: إن كون ذلك هو ظاهر كلام الشامل حيث قال: من استمع إلى شيء من هذه المحرمات فسق وردت شهادته ولم يشترط تكرار السماع انتهى. هذا حاصل كلام القائلين بالحرمة ووراء ذلك أقوال فانظره من كلام المصنف.

(وقال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا شرب الحنفي النبيذ حددته) أي أقمت عليه الحد **(ولم أرد شهادته)** لأنه يعتقد حليته، **(فقد جعله كبيرة بايجاب الحد ولم يرد به الشهادة)** وفي الخادم للزركشي: ومن النبيذ المختلف فيه إذا شرب اليسير معتقداً تحريمه، ففي كونه كبيرة خلاف من أجل اختلاف العلماء فيه، وعدما صرح الرافعي بأنه على وجهين، وأن الاكثرين على الرد أي رد الشهادة به لأنه فسق، ولو استعملت للتداوي على القول بالتحريم، فيحتمل أن يقال ليس بكبيرة إذا قلنا لا يجب فيه الحد كما صححه النووي، ويحتمل خلافه للجرأة انتهى. وقال غيره الاوجه الأول. **(فدل على أن الشهادة نفياً وإثباتاً لا تدور على الصغائر والكبائر، بل كل الذنوب تقدح في العدالة)** أي الصغائر والكبائر. أما الكبائر فبمجردها يخرج عن العدالة، وأما الصغائر فبوقوعها منه مرة بعد مرة **(إلا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب)** الذي لا حدّ فيه ولا ضرر **(في بعض الأقوال)** ولو تعمداً، **(وسماع الغيبة والاصغاء إليها والسكوت عليها وترك الأمر بالمعروف)** والنهي عن المنكر مع عدم القدرة عليها، **(وأكل الشبهات)** وعدم التحري فيها، **(وسبّ الولد**

بحكم الغضب زائداً على حدّ المصلحة، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ويتجرد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يقبل إلا قول مثله لعزّ وجوده وبطلت الأحكام والشهادات، وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في

والغلام وضربهما بحكم الغضب) الطبعي **(زائداً على حدّ المصلحة)** الشرعية، **(وإكرام السلاطين الظلمة)** وأعوانهم، **(ومصادقة الفجار)** ومجالستهم إيناساً لهم، **(والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه في أمر الدين، فهذه ذنوب لا يتصوّر أن ينفك الشاهد عن قليلها وكثيرها)** لاسيما في بعض ما ذكر ما قيل أنه من الكبائر **(إلا بأن يعتزل الناس)** مدة **(ويتجرد لأمور الآخرة ويجاهد نفسه مدة)** مديدة **(بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك، ولو لم يقبل الأقوال مثله لعز وجوده)** أي قلّ **(وبطلت الأحكام والشهادات، وليس لبس الحرير)** والديباج **(وسماع الملاهي)** والأوتار **(واللعب بالنرد)** وما في معناه من المنقلة والكنجفة والاربعة عشر وغيرها **(ومجالسة أهل الشرب)** بفتح فسكون جمع شارب كركب وراكب **(في وقت الشرب والخلوة بالاجنبيات)** وكذا مباشرتهن بغير الجماع، **(وأمثال هذه الصغائر)** كالنظر إلى ما لا يجوز، وهجر المسلم فوق ثلاث لغير عذر شرعي، وكثرة الخصومات وإن كان محقاً، والتبختر في المشي، والعبث في الصلاة، وكشف العورة في الحمام، وكذا في الخلوة لغير حاجة في الأصح، وارسال الريح بحضرة الناس، ومدّ الرجلين في المجالس، والإكثار من الحكايات المضحكة وغير ذلك **(من هذا القبيل)**.

أما مجالسة أهل الشرب؛ فقد نقل الاذرعي عن صاحب العدة أنه من الصغائر، وأقره الشيخان الرافعي والنووي، وتقييد المصنف بكونه وقت الشرب دال على أن مجالستهم في غير هذا الوقت مباحة، فإن قصد إيناسهم من حيث كونهم فسقة فلا شك في حرمة ذلك.

وأما لبس الحرير فقيل: أنه كبيرة.

وأما سماع الملاهي والأوتار، فقد نقل الإمام عن الشيخ أبي محمد أن سماع الأوتار مرة واحدة لا يوجب رد الشهادة، وإنما ترد بالاصرار وتبعه المصنف فقال: وما ذكرناه في سماع الأوتار مفروض فيما إذا لم يكن الإقدام عليه مرة يشعر بالانحلال وإلاّ فالمرة الواحدة لا ترد بها الشهادة.

وأما اللعب بالنرد ففيه أربعة أقوال:

أحدها: أنه مكروه كراهة تنزيه، وبه قال أبو إسحاق والمروزي والاسفرايني، وحكاه ابن

قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة، ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في ردّ الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة، وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم، والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة

خيران، واختاره أبو الطيب وهو غلط ليس بشيء لمخالفته المنقول والدليل، وقول جماعة أنه منصوص عليه في الأم وغيره مردود، ولهذا قال صاحب البيان: إن المنصوص عليه في الأم التحريم، وبه قال أكثر الأصحاب.

الثاني: أنه حرام صغيرة وعليه مشى المصنف هنا ورجحه الرافعي.

الثالث: انه حرام كبيرة وهو الذي عليه الشافعي وأصحابه أشار إليه الروياني في الحلية، ونقل القرطبي في شرح مسلم الإجماع عليه، وكذا الموفق الحنبلي في المغني نقل الإجماع عليه.

الرابع: التفصيل بين بلد يستعظمون اللعب به فترد به الشهادة وبلد ليس كذلك فلا ترد به، وهذه التفرقة ضعيفة كما قاله البلقيني، وعلى القول بأنه صغيرة كما مشى عليه المصنف هنا فمحله حيث خلا عن القمار وإلاّ فهو كبيرة بلا نزاع كما أشار إليه الزركشي وهو واضح.

(فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها لا إلى الكبيرة والصغيرة، ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر في رد الشهادة) والمراد بالمواظبة هنا المداومة على نوع منها، وهذا هو الإصرار السالب للعدالة وبه قال جماعة من الأصحاب، **(كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس)** اعراضهم **(عادة)** له، ومنهم من فسر المواظبة بالاكثار على الصغائر سواء كانت من نوع أو أنواع مختلفة، وبه فسروا الاصرار السالب للعدالة. ونقل الرافعي القولين قال: ويوافق الثاني قول الجمهور أن من تغلب طاعته معاصيه كان عدلاً، ومن تغلب معاصيه طاعته كان مردود الشهادة، وإذا قلنا به لم تضر المداومة على نوع واحد من الصغائر إذا غلبت الطاعات، وعلى الاحتمال الأوّل تضر انتهى. وتبعه النووي في الروضة وقضية كلامهما ترجيح الثاني وبه صرح ابن سراقة وغيره.

(وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم) ولو في حال فجورهم، وكلام بعض الأصحاب صريح في أن مجرد مصادقتهم حرام وإن لم يجالسهم، وكلام بعضهم أن مجرد المجالسة من غير مصادقة ولا قصد إيناس لا إثم فيها وكلام المصنف صريح في أن كلاً منها يأثم به. **(والصغيرة تكبر)** أي تصير كبيرة **(بالمواظبة)** عليها أي تصير مثلها في رد الشهادة، **(كما أن المباح يصير كبيرة بالمواظبة عليه)** وهذا بناء على القول الضعيف، فإن المعتمد أنه لا تضر المداومة على نوع من الصغائر أو أنواع سواء كان مقيماً على الصغيرة أو الصغائر أو مكثرا مكرراً من فعل ذلك حيث غلبت الطاعات المعاصي. هكذا نقله الاذرعي والبلقيني والزركشي وابن العماد وغيرهم، ويؤيده قول الجمهور: من غلبت معاصيه طاعاته ردت شهادته سواء كانت المعاصي من نوع أو أنواع، ومن ثم قال الأذرعي المذهب وقول الجمهور وما تضمنته النصوص ان من كان الاغلب عليه الطاعة والمرؤة

كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره، فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر.

قبلت شهادته أو المعصية وخلاف المروءة ردت شهادته، وهذا القول الذي اعتمده المصنف مشى عليه الرافعي والنووي حيث قالا: المداومة على الصغيرة تصيرها كبيرة، لكن إن انضم إليه كون طاعاته لم تغلب معاصيه، ثم على القول من أن مطلق الإصرار على الصغيرة يصيرها كبيرة يحتاج لمعرفة ضبط الإصرار. قال ابن الصلاح: الاصرار هو التلبس بضد التوبة باستمرار النوع على المعاودة واستدامة الفعل بحيث يدخل به في حيز ما يطلق عليه الوصف بصيرورته كبيرة. وقال العز بن عبد السلام: الإصرار أن تتكرر منه الصغيرة تكرراً يشعر بقلة مبالاته بدينه إشعار ارتكاب الكبيرة بذلك. قال: وكذلك إذا اجتمعت صغائر مختلفة الأنواع بحيث يشعر مجموعها بما يشعر به أصغر الكبائر انتهى. هذا ضبط الإصرار.

وأما على القول المعتمد السابق فالمدار على غلبة الطاعات والمعاصي، وعلى هذا المعتمد كان ينبغي أن يقال شرط العدالة اجتناب الكبائر وعدم غلبة الصغائر على الطاعة، وقد أشار إلى ذلك البلقيني، **(كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيرها)**، وقوله على الدوام متعلق بالقولين، فاللعب بالشطرنج مكروه عند الشافعي حرام عند غيره بشروط. قال النووي في فتاويه: الشطرنج حرام عند أكثر العلماء إن فوت به صلاة عن وقتها أو لعب به على عوض، فإن انتفى ذلك كره عند الشافعي وحرم عند غيره انتهى.

وفي كلام ابن العماد أن اللعب به من الرذائل المباحة مع الكراهة فالإكباب عليه والملازمة له يصيره صغيرة، وكذا الترنم بالغناء مع نفسه إذا كان في بعض الأوقات لإزالة الوحشة عن نفسه لا بأس به، فإن داوم عليه حتى اتخذه عادة يصير صغيرة. **(فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر)**.

ثم اعلم أنه قد تقدم ذكر الكبائر وما يتعلق بها، وأما الصغائر فحصرها متعذر، وقد ذكر ابن حجر منها في شرح الشمائل جملة فقال: هي كالغيبة في غير عالم أو حامل قرآن معأبل حكى فيه الاجاع قالوا انها كبيرة مطلقاً. نعم تباح لأسباب ستة مقررة في محلها، وكقبلة أجنبية ولعن ولو بهيمة وكذب لأحد فيه ولا ضرر وهجو مسلم ولو تعريضاً وصدقاً، واشراف على بيت غيره وهجر مسلم فوق ثلاثة عدواناً، ونحو تناج وجلوس مع فاسق لا يناسبه وتنجيس بدن أو ثوب أو ثوب عدو أو نجش واحتكار وبيع معيب علم عيبه ولم يذكره اهـ فهذه ثلاثة عشر.

وقال ابن العماد في كتاب الذريعة في إعداد الشريعة زاد على ما ذكر النظر إلى ما لا يجوز، وذكر في التطلع على بيوت الناس بأنه لو كان المؤذن إلى بيوت الجيران وجب على الناظر عزله، ثم قال: وكثرة الخصومات وإن كان محقاً. قال الرافعي: وينبغي أن لا يكون معصية إذا راعى حدّ الشرع. قال النووي: وهو الصواب والسكوت على الغيبة والصياح وشق الجيب في المصيبة والتبختر

في المشي واللعب بالقردة وبالصور ونطاح الكباش ومهارشة الديكة والجلوس إليهم وإعانتهم بدفع مال إليهم والشغل في وقت الكراهة والبيع والشراء في المسجد وإدخال الصبيان والمجانين والنجاسات إليه وإمامة قوم يكرهونه والعبث في الصلاة والضحك فيها وتخطي الرقاب يوم الجمعة ونحوه. والتغوّط مستقبل القبلة أو في طريق المسلمين والقبلة للصائم التي تحرك شهوته والوصال في الصوم على الأصح والإستمناء باليد ومباشرة الأجنبية بغير الجماع ووطء الزوجة المظاهر منها قبل التكفير ووطء الرجعية والخلوة بالأجنبية ومسامرة المرأة بغير زوج ولا محرم ولا نسوة ثقات، والبيع على بيع أخيه والخطبة والسوم على سومه وتلقي الركبان وبيع الحاضر للبادي وتصرية الحيوان واقتناء الكلب لغير الحراسة والصيد وبيع العبد المسلم للكافر، وكذا المصحف وسائر كتب العلم الشرعي وكشف العورة في الحمام، وكذا في الخلوة على الأصح والسفاهة ولبس الحرير والرقص مع التثني وسماع أشعار الشربة وضرب الكوبة والصفاقتين والحاقر إن حرمت كحرسه، كما صححه النووي واللعب بالنرد انتهى فهذه سبعة وأربعون.

قال الصيدلاني: ومما ترد به الشهادة إرسال الريح بحضرة الناس، ثم قال ابن العماد: ومن الرذائل المباحة مع الكراهة قبلة الزوجة أو الأمة بحضرة الناس، وذكر ما جرى بينهما في الخلوة والمشي مكشوف الرأس ومدّ الرجلين في المجالس، وكذا نتف اللحية على المرجح في الكفاية. قال الماوردي: وكذا خضبها ولبس فقيه قباء وقلنسوة حيث لا يعتاد ولبس تاجر ثياب ولبس حمال عمامة وطيلساناً والإكثار من الحكايات المضحكة، ومن اللعب بالحمام وشبهه، ومن اللعب بالشطرنج وبالخاتم إذا كان بغير عوض ومن الغناء وسماعه، والحرف الدنية مما لا يليق به كالحجامة والكنس والدبغ وقيم الحمام والحارس والنجال والإسكاف والقصاب، وكذلك الحائك في الأشبه لا الصباغ على الأصح وفيما ذكر نظر، والله أعلم.

فصل

وقال أصحابنا: الصحيح في حد العدالة المعتبرة في الشهادات اجتناب الكبائر وعدم الإصرار على الضغائر وعليه صوابه على خطئه وصدقه على كذبه، وإن ألم بمعصية لأن في اعتبار اجتنابه الكل سدّ باب وهو مفتوح إحياء للحقوق والكبيرة كل ما يسمى فاحشة كاللواطة ونكاح منكوحة الأب أو ثبت لها بنص قاطع عقوبة في الدنيا وفي الآخرة. وقال الشمس الحلواني: كل ما كان شنَيعاً بين المسلمين وفيه هتك حرمة الله والدين فهي كبيرة ولا تقبل شهادة مخنث ونائحة ومغنية ومدمن على الشرب، ومن يلعب بالطيور والطنبور، ومن يفعل كبيرة توجب الحد، ومن يأكل الربا أو يقامر بالشطرنج أو تفوته الصلاة بسببه، أو يدخل الحمام بغير إزار أو يفعل فعلاً مستخفاً كالبول والأكل على الطريق، ومن يظهر سب السلف، والله أعلم.

بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا:

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة، والآخرة من عالم الغيب والملكوت، وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت بالآخرة حالتك بعد الموت، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخر آخرة، ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة، فإنا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت، ولا يتصوّر شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال، ولذلك قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربُها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت: ٤٣] وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت، ولذلك قال ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» وما سيكون في اليقظة لا يتبين في النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة

فصل

في بيان توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا:

فيها لف ونشر مرتب والدرج والدرك بمعنى واحد، لكن باعتبارين مختلفين فالدرج اعتباراً بالصعود والدرك اعتباراً بالهبوط ولذلك قيل درجات الجنة ودركات النار.

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن الدنيا من عالم الملك والشهادة**) من المحسوسات الطبيعية، (**والآخرة من علم الغيب والملكوت**) المختص بأرواح النفوس، (**وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت، فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا**) فعلى من الدنو (**والمتأخر**) منها (**آخرة، ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة، وهي عالم الملك**) والشهادة، (**وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت**) والغيب (**ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك**) ولا يتضح (**إلا بضرب الأمثال**) لأنه أقرب إلى الوصول للإفهام، (**ولذلك قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾**) أي المتبصرون واستنبط أن من ليس بعالم لا يعقل الأحكام الإلهية من ضرب الأمثال، (**وهذا لأن عالم الملك نوم**) أي بمنزلته (**بالإضافة إلى عالم الملكوت، ولذلك قال ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»**) قال العراقي: لم أجده مرفوعاً، وإنما يعزي إلى علي بن أبي طالب اهـ.

قلت: وهكذا أورده الشريف الموسوي في نهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين، وذكره أبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان الثوري. رواه من طريق المعافي بن عمران عنه.

(**وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الامثال المحوجة إلى التعبير**)

إلى التعبير، فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال، وأعني بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة.

فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال: رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال: إنك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر، قال: صدقت. وجاء رجل آخر فقال: رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون فقال: إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإنها أمك سبيت في صغرك، لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل، فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره. وقال له آخر: رأيت كأني أقلد الدر في أعناق الخنازير. فقال: إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما

أي القائه في عبارة (**فكذلك ما يكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا بكثرة الأمثال**) أي صورتها (**وأعني بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك فيه**) وفي نسخة منه (**إن كنت فطناً**) حاذقاً (**ثلاثة أمثلة**).

(**قد جاء رجل إلى**) أبي بكر محمد (**بن سيرين**) التابعي البصري الثقة رأس المعبرين رحمه الله تعالى، وكان يضاحي الحسن في علمه وورعه، وفيه القول المشهور الذي يستدل به علي أو للتخيير جالس الحسن أو ابن سيرين (**فقال: رأيت كأني في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال له: إنك مؤذن تؤذن في شهر رمضان قبل طلوع الفجر. فقال: صدقت، وجاءه رجل آخر فقال: رأيت كأني أصبت الزيت في الزيتون فقال: إن كان تحتك جارية ففتش عن حالها فإنها أمك سبيت في صغرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو ردّ إلى الأصل، فنظر الرجل فإذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره، وقال له آخر: رأيت كأني أقلد الدر في أعناق الخنازير، فقال: إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال**)، والأخير أخذه من قول عيسى عليه السلام معلم الحكمة غير أهلها كمقلد الدر في أعناق الخنازير.

ومن غرائب تعبيرات ابن سيرين ما رواه أبو نعيم في الحلية من طريق خالد بن دينار قال: كنت عند ابن سيرين فأتاه رجل فقال: يا أبا بكر رأيت في المنام كأني أشرب من بلبلة لها ثقبات، فوجدت أحدهما عذباً والآخر ملحاً. قال: اتق الله لك إمرأة وأنت تخالف إلى أختها. ومن طريق أبي قلابة أن رجلاً قال لأبي بكر: رأيت كأني أبول دماً. قال: تأتي امرأتك وهي حائض؟ قال: نعم. قال: اتق الله ولا تعد. ومن طريق أبي جعفر أن رجلاً رأى في المنام كأن في حجره صبياً يصيح، فقص رؤياه فقال له اتق الله ولا تضرب بالعود. ومن طريق حبيب المعلم أن امرأة رأت في المنام أنها تحلب حية فقصت على ابـن سيريـن فقال: اللبن فطرة والحية عدوّ، وليست من الفطرة في شيء هذه امرأة تدخل عليها أهل الأهواء. ومن طريق الحرث بن ثقيف قال: قال رجل لابن سيرين: إني رأيت كأني ألعق عسلاً من جام من

قال، والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال، وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة نظر إلى معناه وجده صادقاً، وإن نظر إلى صورته وجده كاذباً، فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً فإنه لم يختم به قط، وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له، وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق، ولذلك قال ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من

جوهر فقال: أتق الله وعاود القرآن فقد كنت تحفظه ثم نسيته قال، وقال رجل لابن سيرين: رأيت كأني أحرث أرضاً لا تنبت قال: أنت رجل تعزل عن امرأتك. ومن طريق مبارك بن يزيد البصري قال: قلت لابن سيرين رأيت في المنام كأني أغسل ثوبي وهو لا ينقي. قال: أنت رجل مصارع لأخيك. قال: وقال رجل لابن سيرين: رأيت كأني أطير بين السماء والأرض قال: أنت رجل تكثر التمني. ومن طريق هشام بن حسان قال: جاء رجل إلى ابن سيرين وأنا عنده فقال: إني رأيت كأن على رأسي تاجاً من ذهب قال: فقال له ابن سيرين: اتق الله فإن أباك في أرض غربة وقد ذهب بصره وهو يريد أن تأتيه. قال: فما زاده الرجل الكلام حتى أدخل يده في محزمه فأخرج كتاباً من أبيه فيه ذهاب بصره، وأنه في أرض غربة ويأمره بالإتيان إليه، **(والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال، وإنما نعني بالمثال أن أداء المعنى في صورة أن نظر إلى معناه وجده صادقاً وإن نظر إلى صورته)** الظاهرة **(وجده كاذباً، فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على)** الأفواه **(والفروج رآه كاذباً، فإنه لم يختم به قط، وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ قد صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له وليس للأنبياء)** عليهم السلام **(أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم)**، فقد روى الديلمي من طريق ابن عبد الرحمن السلمي، حدثنا محمد بن عبدالله بن قريش، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا إسماعيل بن محمد الطلمي، حدثنا عبدالله بن أبي بكر، عن أبي معشر، عن عكرمة، عن ابن عباس رفعه: «أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» وأبو معشر ضعيف، وعزاه الحافظ ابن حجر لمسند الحسن بن سفيان من حديث ابن عباس بلفظ «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم». قال: وسند ضعيف جداً. ورواه أبو الحسن التميمي من الحنابلة في كتاب العقل له بسنده عن ابن عباس أيضاً بلفظ: «بعثنا معاشر الأنبياء نخاطب الناس على قدر عقولهم». **(وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق، ولذلك قال ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»)** رواه أحمد ومسلم والدارقطني في الصفات من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع

أصابع الرحمن ». وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون، فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلاً، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً، فيثبت لله تعالى يداً وأصبعاً. تعالى الله عن قوله علواً كبيراً، وكذلك في قوله ﷺ: « إن الله خلق آدم على صورته » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة، فيثبت لله تعالى مثل ذلك. تعالى الله عن قوله علوًّا كبيراً. ومن ههنا زل من زل في صفات الإلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتاً وحرفاً إلى غير ذلك من الصفات، والقول فيه يطول، وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود

الرحمن كقلب رجل واحد يصرفه كيف يشاء اللهم مصرف القلوب اصرف قلوبنا على طاعتك ». وروى ابن خزيمة من حديث أبي ذر « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإذا شاء صرفه وإن شاء بصره » وروى الحاكم من حديث جابر: « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يقلبها هكذا ». وقد تقدم ذلك في كتاب عجائب القلب وفي كتاب قواعد العقائد، **(وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون. فأما الجاهل)** العامي الذي لم تكشف بصيرته بنور الإيمان **(فلا يجاوز قدره)** وفي نسخة عقله **(ظاهر المثال لجهله بالتعبير الذي يسمى تأويلاً كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً فيثبت لله تعالى يداً وأصبعاً تعالى عن قوله)** علوّاً كبيراً، وقد أمضاه جهله بحقائق الأمور حتى أوقعه في هذا الوهم، وكان يكفي في دفعه أن يعرف أن الله تعالى ليس بجسم وليس من جنس الأجسام، **(وكذلك قوله ﷺ: « إن الله خلق آدم على صورته »)** رواه أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة بلفظ: « خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً » الحديث. وقد تقدم في كتاب قواعد العقائد، **(فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة، فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى عن قوله علوّاً كبيراً)** مثال ذلك إذا أورد الفقيه في كلامه لفظ الظورة للمسألة بين يدي الصبي أو العامي الذي لا يفقه معنى المسألة ظن الصبي أو العامي أن المسألة يعني بها صورة في تلك الصورة أنف وفم وعين على ما عرفه واستقر عنده من معنى الصورة المعروفة، أما من عرف حقيقة المسألة المعروفة بأنها عبارة عن علوم مرتبة ترتيباً مخصوصاً، فهل يتصور أن يتوهم للمسألة عيناً وأنفاً وفماً وصورة من جنس صور الأجسام أو صورة الإنسان؟ بل تكفيه معرفته بأن المسألة منزهة عن الجسمية وعوارضها، فكذلك معرفة نفي الجسمية عن حقيقة الإلهية، وتقديسها عنها يكون قرينة في كل سمع مفهمة لفهم معنى الصورة في الحديث المذكور، ويتعجب من العارف بتقديسه عن الجسمية من يتوهم لله تعالى الصورة الجسمانية كما يتوهم بالمسألة الواقعة صورة جسمانية. **(ومن ههنا زلّ)** قدم **(من زل في صفات الإلهية)** كالإستواء والفوقية وغيرهما **(حتى في الكلام وجعلوه صوتاً وحرفاً، وغير ذلك من الصفات والقول فيه يطول)** وقد استوفيناه بتفصيله في شرح قواعد العقائد، وكذلك قد ورد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب

نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده، كقوله ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح». فيثور الملحد الأحمق ويكذب ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول: يا سبحان الله! الموت عرض والكبش جسم، فكيف ينقلب العرض جسماً؟ وهل هذا إلا محال، ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت: ٤٣] ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي

بها الملحدون) المارقون من الدين (**لجمود نظرهم على ظاهر المثال وتناقضه عندهم، كقوله ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح**) أي أسود يعلو شعره بياض. وقيل: نقي البياض، وقيل ليس بخالص البياض بل فيه عفرة (**فيذبح»**) قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي سعيد اهـ.

قلت: وروى الترمذي وقال: حسن صحيح ولفظ: «يؤتى بالموت كأنه كبش أملح حتى يوقف على السور بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة فيشرفون ويقال يا أهل النار فيشرفون، فيقال هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت فيضطجع ويذبح، فلولا أن الله تعالى قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحاً ولولا أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها لماتوا حزناً».

وقد روى من حديث أنس وأبي هريرة وابن عمر. أما حديث أنس، فرواه أبو يعلى والضياء مختصراً بلفظ: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح».

وأما حديث أبي هريرة، فرواه أحمد وهناد وابن ماجه والحاكم بلفظ: «يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط فيقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه فيقال: هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت فيؤمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين: كلا كما خلود فما تجدون لا موت فيها أبداً».

وأما حديث ابن عمر: فرواه الطبراني في الكبير بلفظ: «يجاء بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرفون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت».

(**فيثور الملحد الأحمق ويكذب**) هذا القول (**ويستدل به على كذب الانبياء**) عليهم السلام، (**ويقول**) متعجباً من قولهم: (**يا سبحان الله الموت عرض**) من الأعراض محتاج في وجوده إلى محل يقوم به، (**والكبش جسم**) من الأجسام (**فكيف ينقلب العرض جسماً؟ وهل هذا**) أي انقلاب العرض جسماً (**إلا محال**) لا يتصور وجوده في الخارج أو باطل، (**ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره. فقال: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ ولا يدري المسكين أن من قال: رأيت في منامي أنه جيء بكبش، وقيل**) لي (**هذا هو الوباء**

أنه جيء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر : صدقت والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فإذن المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته ، وترجع حقيقة ذلك إلى أن الملك الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له ، لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقاً وكان معناه صحيحاً ، فالرسل أيضاً إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفاً بعباده وتيسير الإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها ، ولذلك عبر القرآن بقوله : ﴿ كن فيكون ﴾ [البقرة : ١١٧] عن نهاية القدرة ، وعبَّر ﷺ بقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من

الذي في البلد) وهو المرض الذي يعقبه الموت سريعاً **(وذبح)** واستعبره عند المعبر **(فقال)** له **(المعبر : صدقت والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود)** إلى هذا البلد **(قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فإذاً المعبر صادق في تعبيره وهو صادق في رؤيته ، وترجع حقيقته إلى أن الملك الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ)** قد **(عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له)** حتى يدركه بفهمه ، **(لأن النائم إنما يحمل المثال ، فكان مثاله صادقاً وكان معناه صحيحاً ، فالرسل أيضاً إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة)** المضروبة **(حكمة من الله تعالى ولطفاً بعباده وتيسير الإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل)** ، فقد روى البخاري في الصحيح عن علي موقوفاً : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله . وروي مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود : ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، وروى الديلمي من حديث ابن عباس : لا تحدثوا أمتي من أحاديثي إلا ما تحتمله عقولهم فيكون فتنة عليهم ، فكان ابن عباس يخفي أشياء من حديثه ويفشيها إلى أهل العلم . وروي البيهقي في الشعب من حديث المقدام بن معدي كرب : إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يعزب عنهم ويشق عليهم ، **(فقوله)** ﷺ في الحديث السابق **(« يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت)** وثبوت الخلود إما في الجنة وإما في النار ، **(وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها ، وكذلك عبَّر القرآن بقوله : ﴿ كن فيكون ﴾ عن نهاية القدرة ، وعبر ﷺ بقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » عن سرعة**

أصابع الرحمن » عن سرعة التقليب، وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في « كتاب قواعد العقائد » من ربع العبادات، فلنرجع الآن إلى الغرض، فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال، فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته. فنقول: الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها، ولا تفارق الآخرة الدنيا إلا في هذا المعنى أصلاً البتة، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له. وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن إحصاء الأجناس.
فنقول: الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين. ومثاله في الدنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلي بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون، فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا

التقليب) وعن كمال القدرة والإحاطة به، **(وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات، فلنرجع الآن إلى الغرض، فالمقصود أن تعرف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات، ولا يمكن)** معرفة ذلك **(إلا بضرب الأمثال، فلتفهم من المثل الذي نضرب)** لك **(معناه)** المراد منه **(لا صورته، فنقول: الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها. ولا تفارق الآخرة الدنيا في هذا المعنى أصلاً البتة، فإن مدبر)** الأمور في **(الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها)** ولا تحويل عنها، **(إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات)** لعدم حصرها **(فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول: الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام: هالكين ومعذبين وناجين وفائزين)** لأنهم لا يخلون عن سعادة أو شقاوة، والشقاوة إن كانت بالشرك والكفر وجحود صفات الربوبية فهم الهالكون، فإن كان مع وجود الإقرار بالربوبية نوع عصيان ومخالفة فهم المعذبون، والسعادة إن كانت بالإيمان بالله وبما جاء به الرسل فهم الناجون، فإن كان مع ذلك نبذ الدنيا وإقبال على الله بالكلية فهم الفائزون، فهذا وجه الحصر في الأقسام المذكورة. **(ومثاله في الدنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم)** من الأقاليم السبعة **(فيقتل بعضهم فهم الهالكون، ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون، ويخلي بعضهم)** أي يتركهم **(فهم الناجون، ويخلع على بعضهم)** أي يلبسهم خلعاً **(فهم الفائزون فإن كان الملك عادلاً لم يقسمهم كذلك إلا بالاستحقاق فلا يقتل إلا**

باستحقاق فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك معانداً له في أصل الدولة، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلوّ درجته، ولا يخلي إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة، ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بجز الرقبة أو تنكيلاً بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة، وتعذيب المعذبين في الخفة والشدّة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم، فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر، فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالك، ومن معذب مدة، ومن ناج يحل في دار السلامة، ومن فائز. والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس، والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة، وذلك آخر من يخرج من

جاحداً) أي منكراً **(لاستحقاقه الملك معانداً له في أصل الدولة ولا يعذب إلا من قصر في خدمته)** والمثول بين يديه **(مع الإعتراف بملكه وعلو درجته)** واستحقاقه لتلك النعمة **(ولا يخلي إلا معترفاً له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب)** على تقصيره، **(ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع)** الملك **(إلا على من أبلى عمره)** وفي نسخة قدره **(في الخدمة والنصرة)** لـه، **(ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة)** والنصرة، **(وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً)** في الحال **(بجز الرقبة)** أي قطعها **(أو تنكيلاً بالمثلة)** بأن تقطع أطرافه عضواً عضواً حتى يهلك، وذلك **(بحسب درجاتهم)** ومراتبهم **(في المعاندة)** له **(وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم)** ومراتبه، **(فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر، فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون، فمن هالك)** مرة **(ومن معذب)** مرة، **(ومن ناج يحل في دار السلامة، ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس)** وهي أعلى الجنان وسيأتي ذكر الجنان في آخر الكتاب، **(والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلاً وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة. وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر)** قال العراقي: رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه: وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة اهـ.

ولفظ القوت: وقد جاء في الخبر: إن آخر من يبقى في جهنم من الموحدين سبعة آلاف سنة» وروى أبو سعيد، وأبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «آخر من يخرج من النار وهو أيضاً من يدخل الجنة» فلعله والله أعلم بعد سبعة آلاف سنة فيعطى من الجنة مثل الدنيا كلها عشرة آلاف سنة.

النار كما ورد في الخبر. وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها.

الرتبة الأولى: وهي رتبة الهالكين. ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى، إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه، فإن السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بـالإيمان والتصـديـق، والجاحـدون هـم المنكـرون، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد، وهم الذين يكذبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه

قلت: هذا الخبر رواه أحمد وعبد بن حميد عن أبي سعيد، وأبي هريرة بها ولفظه: «آخر من يخرج من النار رجلان يقول الله لأحدهما يا ابن آدم» الحديث بطوله. وفي آخره: «فيقول أي رب أدخلني الجنة. فيقول الله عز وجل: سل وتمن فيسأل ويتمنى مقدار ثلاثة أيام من أيام الدنيا فإذا فرغ قال: لك ما سألت ومثله معه». وقال أبو هريرة: «وعشرة أمثاله». وروى الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود: «إن آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة رجل يحبو، فيقال: ادخل الجنة فيخيل أنها ملأى فيقول: يا رب إنها ملأى فيقال له ادخل إن لك عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أنت الملك أتضحك بي فذلك أنقص أهل الجنة حظاً». (**وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تعالى تتفاوت دركاتهم، وهذه الدرجات والدركات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها**) فنقول:

(**الرتبة الأولى: وهي رتبة الهالكين ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى إذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه**) لك آنفاً (**آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال**)، فهذه الرتب قد رتبناها عليه (**وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين**) أي المنكرين (**والمعرضين**) عن الله بالكلية (**المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه**) فلا يرفعون لهم رأساً، (**فإن السعادة الأخروية**) إنما هي (**في القرب من الله**) تعالى (**والنظر إلى وجهه الكريم**) من غير حجاب، (**وذلك لا ينال أصلاً إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان**) بالله تعالى (**والتصديق**) لرسله وكتبه، (**والجاحدون هم المنكرون، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الأبد، وهم الذين يكذبون برب العالمين**) جلّ جلاله (**وبأنبيائه المرسلين**) وبالكتب المنزلة عليهم (**أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة**) كما قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ويل يومئذ للمكذبين * الذين يكذبون بيوم الدين* وما يكذب به إلا كل معتد أثيم* إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين* كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا

فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون محترقاً مع نار جهنم بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط. وقالوا: من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلا ذاته فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها. إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد، ولذلك قيل:

وفي فـؤاد المحـب نـار جـوى ... أحـرّ نار الجحيم أبردُهـا

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا، فقد رؤي من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به

يكسبون★ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون★ ثم إنهم لصالوا الجحيم★ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ [المطففين: ١٠ - ١٧] **(وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه)** أشار بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ [سبأ: ٥٤] ولا يكون ذلك إلا للمحجوبين **(فهو لا محالة يكون محترقاً مع نار جهنم)** أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثم أنهم لصالوا الجحيم﴾ **(بنار الفراق)** الحاصلة من الحجاب، **(ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين)** في الجنان، **(وإنما مطلبنا اللقاء)** أي مشاهدة الوجه الكريم **(ومهر بنا من الحجاب فقط، وقالوا)** أيضاً: **(من يعبد الله بعوض فهو لئيم)** وذلك (كان يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره، بل العارف) الكامل **(يعبـده لـذاتـه فلا يطلب إلا ذاته)** ووجهه **(فقط، فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها، وأما النار فقد لا يتقيها إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت على النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق)** هي **(نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة)** وهي بواطين القلوب **(ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام)** فتذيبها، **(وألم الأجسام يستحقر مع الفؤاد ولذلك قيل)** قائله المتنبي:

(وفي فؤاد المحب نار جوى) وفي نسخة هوى
(أحر نار الجحيم أبردها)

(ولا ينبغي أن ينكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا، فقد رؤي من غلب عليه الوجد) في السماع **(فغدا على النار وعلى أصول القصب)** بعد أن قطعت وطارت كالاسنة **(الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه)** وتقدم في كتاب

لفرط غلبة ما في قلبه، وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب، قال رسول الله ﷺ: «الغضب قطعة من النار»، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما نراه، فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث أنه يفرق بين جزءين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب، ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم، فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلاً ولم يعد ذلك ألماً وقال: العدو في الميدان مع الصولجان أحب إليّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء، وهذا كله لفقد

الوجد والسماع، (**وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال**) فيقاتل (**فتصيبه جراحات**) في بدنه (**وهو لا يشعر بها في حال**) ويشعر بها في المستقبل بعد خمود نار الغضب، (**لأن الغضب نار في القلب**) إذا تأججت شغلت القلب عن الإحساس بالألم. (**قال رسول الله ﷺ «الغضب قطعة من النار»**) رواه الترمذي من حديث أبي سعيد بلفظ «الغضب جمرة في قلب ابن آدم» وسنده ضعيف وقد تقدم في كتاب ذم الغضب، (**واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف**) أي فلا يحس به (**كما تراه، فليس التألم من النار والسيف إلا من حيث أنه**) أي كلا من النار والسيف (**يفرق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به**) وفي نسخة المرتبط به (**برابطة تأليف**) الحب (**أشد إحكاماً من تأليف الأجسام، فهو أشد إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب، ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم**) ولا يحس به (**ويستحقره**) أي يجده حقيراً (**بالإضافة إلى ألم الجسم، فالصبي لو خيّر بين الم الحرمان من**) لعب (**الكرة والصولجان**) وبين ألم الحرمان من رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان من رتبة السلطان أصلاً ولم يعد ذلك ألماً، وقال: العدو) أي الجري (**في الميدان مع الصولجان**) بضرب الكرة فيه (**أحب إليّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه، بل من تغلبه شهوة البطن لو خيّر بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لآثر**) أي اختار (**الهريسة والحلواء**) ولم يلتفت إلى الفعل الجميل، (**وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه**

المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوباً. ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذاً، وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب، وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان، فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس، كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان، وليس لكل إنسان قلب، ولو كان لما صح قوله تعالى: ﴿إنَّ في ذلك لذكرى لمنْ كانَ لهُ قلبٌ﴾ [ق: ٣٧] فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلساً من القلب. ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر، وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته، ولله الخلق والأمر جميعاً، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قل الرُوحُ من أمر ربي﴾ [الإسراء: ٨٥] هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيباً، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق، وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح

محبوباً، ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذاً وذلك لمن استرقته) أي استعبدته **(صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها إلا القرب من رب العالمين، ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان)** وهي قوّة منبثة في العصب المفروش على جوهر اللسان وبها تدرك الطعوم بمخالطة الرطوبة اللعابية **(والسمع إلا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب فمن لا قلب له ليس له هذا الحس)** والإدراك **(كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان** المطربة وحسن الصور **والألوان)** المختلفة، **(وليس لكل انسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ فجعل من يتذكر بالقرآن)** ولم يتعظ به **(مفلساً من القلب)** أي عارياً منه عادماً له عرى المفلس من المال، وقد تقدم الكلام عليه في فصول مقدمة كتاب العلم عند ذكر مختارات أقوال المصنف، **(ولست أعني بالقلب هذا اللحم)** الصنوبري **(التي تكتنفه عظام الصدر)** في الجهة اليسرى، **(بل أعني به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه)** المستوى عليه **(والصدر كرسيه وسائر الأعضاء عالمه ومملكته)** كما تقدم لك من قول سهل التستري في كتاب عجائب القلب، **(ولله الخلق والأمر جميعاً)** قال الله تعالى: ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤] **(ولكن ذلك السر الذي/قال الله تعالى فيه: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ هو الأمر والملك)** فاللطيفة من عالم الامر واللحم الصنوبري من عالم الخلق، **(لأن بين عالم الأمر و)** بين **(عالم الخلق ترتيباً، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق)** وحاكم عليه **(وهو اللطيفة التي إذا صلحت صلح بها سائر**

لها سائر الجسد . من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وعند ذلك يشم العبد مباديء روائح المعنى المطوي تحت قوله ﷺ : « أن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل ، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهي حكمته يختص بها من يشاء : ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [البقرة : ٢٦٩] ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول وطوّلنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها .

الرتبة الثانية: رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء

الجسد) كما ورد ذلك في الخبر وتقدم **(من عرفها)** أي تلك اللطيفة **(فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه)** كما ورد ذلك في الخبر وتقدم ، **(وعند ذلك يشم العبد)** السالك **(مبادىء روائح المعنى المطوى تحت قوله ﷺ : « ان الله خلق آدم على صورته »)** تقدم الكلام عليه قريباً **(وينظر بعين الرحمة إلى الجامدين)** الواقفين **(على ظاهر لفظه)** ولا يؤوّلون ، **(وإلى المتعسفين في طريق تأويله)** الخارجين عن الحدود ، **(وإن كانت رحمته لجامد)** الواقف **(على)** ظاهر **(اللفظ أكثر من رحمته للمتعسف في التأويل ، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك الجامدين أكثر ، وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر)** إذ كل منهما لم يحقق الأمر تحقيقاً شافياً فهما مشتركان في الحرمان ، **(فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهي حكمة)** ربانية **(يختص بها من يشاء ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول)** بكسر الطاء المهملة وفتح الواو الحبل ومنه قول الشاعر :

لكاد لطول المرضى وثنياه باليد

(وطوّلنا النفس) محركة هو في الأصل اسم للريح الداخل والخارج في البدن من الفم والمنخر وهو كالغذاء للنفس وبانقطاعه بطلانها **(في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين)** بالله ورسله ، **(وشهادة ذلك من كتاب الله)** تعالى **(وسنة رسوله ﷺ لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها)** والله الموفق .

(الرتبة الثانية: رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان) بالله ورسله **(ولكن**

بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ الهه هواه، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة، بل معنى قولك لا إله إلا الله معنى قوله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ [الأنعام: ٩١] وهو أن تذر بالكلية غير الله ومعنى قوله تعالى: ﴿الذينَ قالُوا ربّنا اللهُ ثم استقامُوا﴾ [الأحقاف: ١٣] ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل، وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم، فذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن، فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين من وجهين. ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين. أحدهما: قوة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته، وإذ لا يخلو بشر في

قصر الوفاء بمقتضاه، فإن رأس الإيمان هو التوحيد) أي هو بمنزلة الرأس من الجسد **(وهو أن لا يعبد إلا الله)** وحده، **(ومن اتبع هواه فقد اتخذ الهه هواه)** فمعبوده هواه ولم يكمل توحيده **(فهو موحد بلسانه)** فقط **(لا بالحقيقة)** إذ حقيقة التوحيد أن لا يشارك في توحيده **(بل معنى قولك لا إله إلا الله)** بعينه **(معنى قوله تعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾)** فقد أمر بالتوحيد الخالص وان يتركهم فيما يخوضون، **(وهو أن تذر بالكلية غير الله)** فلا يكون للغير إلى قلبه سبيل، **(و)** أيضاً **(معنى قوله)** تعالى: **(﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾)** أي على هذا القول: **(ولما كان الصراط المستقيم)** المشار إليه في قوله تعالى ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ **(الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه)** ومن هنا أشار بعض العارفين أن المراد هنا وحدة الوجود **(أدق من الشعر واحدّ من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة)** بهذا الوصف، **(فلا ينفك بشر عن الميل عن الاستقامة ولو في أثر يسير)** أي قليل تافه، **(إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم، فذلك يقتضى لا محالة نقصاناً في درجات القرب، ومع كل نقصان ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن)** في أي متعددة، **(فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذباً مرتين)** مرة في الدنيا ومرة في الآخرة **(من وجهين)** مختلفين، **(ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة إنما يكون بسبب أمرين، أحدهما: قوّة الإيمان وضعفه، والثاني: كثرة اتباع الهوى وقلته إذ لا يخلو بشر في غالب الأمر)** والأحوال **(عن واحد من الأمرين قال**

غالب الأمر عن واحد من الأمرين. قال الله تعالى: ﴿وإن منكُم إلا واردُها كان على ربك حتماً مقضياً ★ ثم ننجي الذين اتقوا ونَذَر الظّالمينَ بها جثياً﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢]، ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنا تيقنا إنا على النار واردون وشككنا في النجاة، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان قال الحسن: يا ليتني كنت ذلك الرجل. واعلم ان في الأخبار ما يدل على

الله تعالى: ﴿وإن منكم) أي ما منكم من أحد **(إلا واردها﴾)** أي إلا واصلها وحاضرها يعني جهنم **(الآيتين)** وهما ﴿كان على ربك حتماً مقضياً ★ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ فيمر بها المؤمن وهي خامدة. وفي الخبر « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا ان نرد النار؟ فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة ». قيل: المراد بورودها الجواز على الصراط فإنه ممدود عليها، **(ولذلك قال الخائفون من السلف: إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة)** ووجه التيقن قوله تعالى: ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ أي كان ورودهم واجباً أوجبه الله تعالى على نفسه ومضى بأن وعد به وعداً لا يمكن تخلفه. وأخرج أحمد في الزهد عن بكر بن عبد الله المزني أنه لما نزلت هذه الآية ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ ذهب عبد الله بن رواحة إلى بيته فبكى وبكى أهل بيته ببكائه، فسئل عن بكائه قال: أنزلت على رسول الله ﷺ آية نبأني فيها ربي أني وارد على النار ولم ينبئني أني صادر عنها، فذلك الذي أبكاني. وفي رواية أخرى عن قيس بن أبي حازم قال: بكى عبد الله بن رواحة فقالت له امرأته: ما يبكيك؟ قال: إني أنبئت أني وارد النار ولم أنبأ إني صادر منها. وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقوا يقول الرجل لصاحبه: هل أتاك انك وارد؟ يقول: نعم. فيقول: هل أتاك أنك خارج؟ يقول: لا، فيقول: ففيم الضحك إذاً؟ **(ولما روى الحسن البصري رحمه الله تعالى الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام فإنه)** وفي نسخة: وأنه **(ينادي: يا حنان يا منان. قال الحسن: يا ليتني كنت ذلك الرجل)** لشدة خوفه خاف أن يدخلها، ثم عظم خوفه فخاف أن لا يخرج منها فتمنى أن يخرج منها بعد ألف عام كذا في القوت، والحديث قال العراقي: رواه أحمد، وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسملي عن أنس. وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون اهـ.

قلت: ويقال فيه هلال بن سرير معروف بكنيته أخرج له الترمذي. قال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه. وروى الحكيم في النوادر من حديث جابر قال لي جبريل: يا محمد إن الله تعالى يخاطبني يوم القيامة فيقول: يا جبريل مالي أرى فلاناً في صفوف أهل النار؟ فأقول: يا رب إني لم أجد له حسنة يعود عليه خيرها اليوم. فيقول الله تعالى: إني أسمعه في دار الدنيا. يقول: يا حنان يا منان فأته فاسأله فيقول: وهل من حنان منان غير الله؟ فآخذ بيده من صفوف أهل النار فادخله في صفوف أهل الجنة.

أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة، وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث، وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر المدد وأن الإختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب. كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب، ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع، إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره، فهذه الإختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان، وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها. أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها

(واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبع آلاف سنة) رواه الحكيم الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم قريباً، **(وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى)** قد **(يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث)**. أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن مسعود قال: يرد الناس الصراط وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون على الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى أن آخرهم مرا رجل تذره على موضع ابهام قدميه يمر متكفياً به الصراط، **(وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والاسبوع والشهر وسائر المدد)**. وفي القوت: يخرجون من النار زمراً متفاوتون من اليوم والجمعة والشهر والسنة إلى ستة آلاف سنة، **(وأن الاختلاف بالشدة لا نهاية لأعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب)**. لما في الخبر «من نوقش الحساب عذب» **(كما أن الملك)** من ملوك الدنيا **(قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو)** فضلاً منه، **(وقد يضرب بالسياط)** وشبهها، **(وقد يعذب بأنواع أخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال)** أي أخذه منه ظلماً وتعدياً **(فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب وقطع)** الأطراف مثل **(اللسان واليد والانف وغيره، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوّة الإيمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها. أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات**

وأما كثرته فبكثرتها، وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات، وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وما ربّك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦]، وبقوله تعالى: ﴿اليوم تُجزَى كلُّ نفسٍ بِمَا كسبَتْ﴾ [غافر: ١٧] وبقوله تعالى: ﴿وإنَّ ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩] وبقوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه، وجانب العفو والرحمة أرجح، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ: «سبقت رحمتي غضبي»، وقال تعالى: ﴿وإن تكُ حسنة يضاعفها ويؤت من لدُنهُ أجراً عظيماً﴾ [النساء: ٤٠] فإذاً هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة، فإما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الإعتبار، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض ـ أعني الأركان الخمسة ـ ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر

وكثرتها **وأما كثرته فبكثرتها**) أي السيئات، (**وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات، وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنيّ**) أي المقصود (**بقوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**) وبقوله تعالى: ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ [غافر: ٣١] (**وبقوله**) تعالى: (**﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ وبقوله**) تعالى: (**﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ وبقوله**) تعالى: (**﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنّة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال**) مترتباً عليها، (**وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه**) ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩] (**وجانب العفو والرحمة أرجح اذ قال تعالى فيما أخبر**) وفي نسخة حكى (**عن نبينا ﷺ: «سبقت رحمتي غضبي»**) رواه مسلم من حديث أبي هريرة. (**وقال**) الله (**تعالى: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فإذاً هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات مطوية بقواطع الشرع**) أي بدلائله القطعية (**ونور المعرفة**) الحاصل من كمال الايمان هذا على سبيل الإجمال. (**وأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً ومستنده ظواهر الاخبار ونوع حدس**) أي تخمين (**يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض أعني الأركان الخمسة**) من التوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج (**ولم تكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها**، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة **فقط**،

عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط، فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته، إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن وكذلك، اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه، فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى، فكذلك يتبع أصناف الإيمان، لأن الإيمان إيمانان: تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه، فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله، فهذا الصنف هم المقربون

فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار «أن الصلوات الخمس والجمعة) إلى الجمعة **(وصوم رمضان)** إلى رمضان **(كفارة لما بينهن »)** رواه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم قريباً. **(وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر)** وهو قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم﴾ [النساء: ٣١] **(وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب ان لم يرفع الحساب، وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه)** بالحسنات، **(فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية)** يشير إلى قوله تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾ [القارعة: ٦] **(نعم، التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله في جنة عدن أو في الفردوس الأعلى، فكذلك يتبع أصناف الإيمان لأن الايمان إيمانات: تقليدي كايمان العوام يصدقون بما يسمعون ويستمرون عليه، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله)** عز وجل وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: ٢٢] **(حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه)** واجبه وممكنه، **(فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله)** وان: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [القصص: ٨٨] لا أنه يصيرها لكامن الأوقات، بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يتصوّر إلا كذلك، فإن كل شيء سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإذا اعتبر من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأزل فيكون الموجود وجه الله فقط، ولكل شيء وجهان. وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه، فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه الله موجود فإذاً لا موجود إلا الله ووجهه، فإذاً كل شيء هالك إلا وجهه أزلاً وأبداً، ونزيد ذلك وضوحاً أن الوجود ينقسم إلى ما الوجود له من ذاته وإلى ماله الوجود من غيره وماله الوجود من غير موجود مستعار قوام له بنفسه، بل إذا اعتبرت

النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى، وهم أيضاً على أصناف: فمنهم السابقون ومنهم من دونهم؛ وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى. ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر، إذ لإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق. وإنما يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم، وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل؛ فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله؛ فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم. وأما المؤمن إيماناً تقليدياً فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين، وهم أيضاً على درجات؛ فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين، هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها. أعني الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج؛ فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان

ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض، وإنما هو وجوده من حيث نسبته إلى غيره وذلك ليس بوجود حقيقي فاعرفه. (**فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى**) والقريب إلى القريب قريب، (**وهم أيضاً على أصناف: فمنهم السابقون**) بالخيرات، (**ومنهم من دونهم**) في الرتبة (**وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى**) فكل من قويت معرفته تم له السبق وذلك بقدر ما ينكشف لهم من معلومات الله وعجائب مقدوراته وبديع آياته في الدنيا والآخرة والملك والملكوت، (**ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنه جلال الله**) وعظمته (**غير ممكنة**) في قوة البشر والملائكة (**وبحر المعرفة ليس له ساحل**) ينتهي إليه (**و**) لا يعرف له (**عمق**) أي قرار، (**وإنما يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم**) واستعداداتهم (**وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل، فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله والسالكون لسبيل الله لا نهاية لدرجاتهم**) ونهاية معرفتهم عجزهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه وأنهم لا يمكنهم البتة معرفته، وأنه يستحيل أن يعرف الله المعرفة الحقيقية المحيطة بكنه صفات الربوبية إلا الله تعالى، فإذا انكشف لهم ذلك انكشافاً برهانياً فقد بلغوا المنتهى الذي يمكن في حق الخلق من معرفته، (**وأما المؤمن إيماناً تقليدياً فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين، وهم أيضاً على درجات: فالأعلى من أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين. هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها أعني الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج**) وهي أبنية الإسلام إذا اتمت كفرت ما بعدها من السيئات وثبتت للعبد نوافله وتبدل بسيئاته حسنات، (**فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام**) المذكورة (**فإن تاب توبة نصوحاً**

الإسلام، فإن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب، لأن التائب من الذنب، كمن لا ذنب له، والثواب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلاً، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإن التقليد وإن كان جزماً فهو قابل للإنحلال بأدنى شك وخيال، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله عذاباً يزيد على عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر، ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين! ففي الخبر: «آخر من يخرج من النار يعطي مثل الدنيا كلها

قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب ذنباً لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له) كما في الخبر وتقدم ذكره، **(والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلاً، وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه)** واضطرابه **(فيختم له بسوء الخاتمة)** عياذاً بالله منه، **(لاسيما إذا كان إيمانه تقليدياً)** لا كشفياً، **(فان التقليد وان كان جزماً فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يعفو الله)** تعالى **(عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب، وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار، ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر،** ومن حيث **اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات، وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب اليمين، والعارفون المستبصرون في أعلى عليين)** فهذا تفاوت درجاتهم في منازلهم، **(ففي الخبر «آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف»)** قال العراقي: متفق عليه من حديث ابن مسعود انتهى.

قلت: الذي في صحيح مسلم من حديثه «آخر من يدخل الجنة رجل يمشي على الصراط فهو يمشي مرة ويكبو مرة تسفعه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها وقال: تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئاً فما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول: أي رب ادنني منها فنستظل بظلها ونشرب من مائها. فيقول الله: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة أخرى هي أحسن من الأولى فيقول: أي رب ادنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني

عشرة أضعاف » ، فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام ، كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين ؛ فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال ، بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار ، فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشر عشيره ، بل هو موازنة معاني

غيرها ؟ فيقول : لعلي إذا أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولين فيقول : أي رب ادنني من هذه الشجرة لأستظل بظلها وأشرب من مائها ولا أسألك غيرها . فيقول : يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ؟ قال : بلى يا رب ادنني من هذه لا أسألك غيرها وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها ، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول : أي رب أدخلنيها . فيقول : يا ابن آدم ما يصريني منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟ فيقول : أي رب أتستهزىء مني وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إني لا أستهزىء منك ولكني على ما أشاء قدير » . هكذا رواه أحمد ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في الشعب . وقوله « ما يصريني منك » هكذا رواه مسلم وقيده النووي بفتح الياء واسكان الصاد المهملة ومعناه يقطع مسألتك عني . وروي في غير مسلم « ما يصريك مني » وكلاهما صحيح ، والمعنى أي شيء يرضيك ويقطع السؤال بيني وبينك انتهى .

وفي رواية للطبراني « إن آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة رجل يحبو فيقال له : أدخل الجنة فيحيل إليه انها ملأى . فيقول : يا رب إنها ملأى . فيقال له : أدخل إن لك عشرة أمثال الدنيا . فيقول : أنت الملك أتضحك بي فذلك انقص أهل الجنة حظاً » .

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد معاً « آخر من يخرج من النار رجلان » الحديث بطوله وفيه « فيسأل ويتمنى فإذا فرغ قال : لك ما سألت ومثله معه » . وقال أبو هريرة « وعشرة أمثاله » . رواه أحمد ، وعبد بن حميد ، وقد تقدم ، وفي الباب أبو أمامة الباهلي رواه الحكيم والطبراني ولكن ليس فيه ذكر عشرة أمثال الدنيا .

(فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كان يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة فراسخ بعشرين) المساحة بالكسر الذرع يقال : مسحت الأرض مسحاً أي ذرعتها ، والفرسخ ثلاثة أميال بالهاشمي والجمع فراسخ ، **(فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال ، بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوي)** في الثمن **(عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار)** وهو عشرة أمثال ، **(فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن ولا الثقل فلا تكون مائة دينار مثلاً للجمل لأن مائة دينار إذا وضعت في كفة الميزان و)**

الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها ؛ فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته ، فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة ، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال : أعطيته عشرة أمثاله ، كان صادقاً ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون ؛ فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر ، فلذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول : ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله : إني أعطيته عشرة أمثاله ، والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق ، والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله ﷺ في هذه الموازنة ، إذ يقول ﷺ : « الجنة في السموات » ، كما ورد في الأخبار .

وضع (**الجمل في الكفة** الأخرى لم يكن عُشر **عشيره ، بل هو موازنة معاني الأجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها**) أي صورها الظاهرة ، (**فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه**) الباطني (**المالية وجسمه اللحم والدم**) اللذان بهما تركيبه ، (**ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية ، وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والإبل ، بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال : أعطيته عشرة أمثالها كان صادقاً ، ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهري**) الذي يتعاطي بيع الجواهر وشراءها ، (**فإن روح الجوهرية لا يدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر**) وهي التي يميز بها بين الجيد منه والمغشوش وكثيراً ما يروج على من عدم هذه الفطنة الزجاج المغشوش بالجوهر ، (**ولذلك يكذب به الصبي**) الغر بالأمور (**بل القروي**) أي ساكن القرى البعيدة عن المدن (**والبدوي**) أي ساكن البراري والقفار (**ويقول**) لعدم الفطنة : (**ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال**) بل ألف ألف أرطال ، (**فقد كذب في قوله : إني أعطيته عشرة أمثاله ، والكاذب بالتحقيق هو الصبي ، ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال**) بالعقل (**وان يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق إنكشافاً برهانياً** ، (**والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر**) عقله (**صدق رسول الله ﷺ في هذه الموازنة**) التي ذكرت في الأخبار السابقة ، (**إذ يقول : « الجنة في السموات » كما ورد**

والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة؛ وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلي بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة، فالعارف مرحوم إذا بلي بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة، ولذلك قال ﷺ: « إرحموا ثلاثة: عالماً بين الجهال، وغني قوم

في الأخبار) قال العراقي: رواه البخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن » انتهى.

قلت: بل قد ورد أصرح من ذلك. وروى الشيخان من حديث أبي موسى « الجنة درة مجوّفة طولها في السماء ستون ميلاً لكل زاوية منها أهل لا يراهم الآخرون » وروى أبو نعيم، ومن طريقه الديلمي من حديث عبد الله بن سلام « الجنة في السماء والنار في الأرض ».

(والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة امثال الدنيا في الدنيا، وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي) فإنهما قاصران عن فهمها، **(وكما أن الجوهري مرحوم إذا بلي بالبدوي والقروي في تلك الموازنة، فالعارف)** البصير **(مرحوم إذا بلي بالأبله البليد)** الجامد الذهن **(في تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال ﷺ: « ارحموا ثلاثة: عالماً بين الجهال، وغني قوم افتقر، وعزيز قوم ذل »)** قال العراقي رواه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس، وعيسى ضعيف. ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال: « عالم يتلاعب به الصبيان » وفيه أبو البختري واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين انتهى.

قلت: لفظ ابن حبان في الضعفاء: « ارحموا ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر، وعالماً بين جهال » هكذا أورده في ترجمة عيسى وقال: إنه يتفرد بالمناكير عن أنس كأنه كان يدلس عن أبان بن عياش ويزيد الرقاشي عنه لا يجوز الإحتجاج بخبره. ورواه العسكري في الأمثال، والديلمي في الضعفاء من طريق زيد بن أبي الزرقاء عن عيسى بن طهمان بلفظ: « ارحموا ثلاثة من الناس » والباقي سواء. وقال ثانيهما: إن الحمل فيها فيه على عيسى، لكن وجد بخط الحافظ بن حجر ما نصه: عيسى ثقة لم يتكلم فيه غير ابن حبان، وقد احتج به البخاري والنسائي والأئمة ممن دونه انتهى.

وقال في التهذيب: صدوق أفرط فيه ابن حبان، والذنب فيما استنكره من حديثه لغيره، وسبقه المزي فقال في ترجمته، قال أحمد: شيخ ثقة وعنه أيضاً ليس به بأس، وكذلك قال ابن معين والنسائي، وقال أبو حاتم: لا بأس به يشبه حديثه حديث أهل الصدق ما بحديثه بأس. وقال أبو داود: لا بأس به أحاديثه مستقيمة، وقال مرة أخرى: ثقة. ورواه الخطيب من طريق جعفر بن هارون الواسطي عن سمعان عن أنس رفعه مثله لكن بلفظ: « فقيها يتلاعب به الصبيان الجهال » وسمعان مجهول لا يكاد يعرف الضعف إلا به نسخه مكذوبة. ورواه القضاعي من طريق عبدالله بن الوليد العدني، حدثنا الثوري عن مجاهد عن ابن مسعود به مرفوعاً بلفظ: « يتلعب به الحمقى والجهال » ومجاهد قال أبو زرعة عن ابن مسعود، وقد روي عن ابن عباس بلفظ: « وعالم يتلاعب

افتقر، وعزيز قوم ذل»، والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي، وهو المعني بقوله عليه السلام: «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل

به الصبيان» رواه ابن حبان في الضعفاء من طريق نوح بن الهيثم عن أبي البختري. ويروي عن أبي هريرة أيضاً، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إنما يعرف هذا من كلام الفضيل بن عياض وساقه من طريق الحاكم قال: سمعت إسماعيل بن محمد بن الفضل قال: سمعت جدي يقول: سمعت سعيد بن منصور يقول، قال الفضيل بن عياض» ارحموا عزيز قوم ذل، وغنياً افتقر، وعالماً بين جهال».

(والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة) عن إدارك ما يقولون لهم **(فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله)** تعالى **(وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو المعنى بقوله ﷺ: «البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل»)** قال العراقي: رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ فذكره دون ذكره الأولياء، وللطبراني من حديث فاطمة عمة أبي عبيدة بن حذيفة بإسناد صحيح في أثناء حديث: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون» انتهى.

قلت: رواه الترمذي في الزهد من جامعه من طريق عاصم بن بهولة، عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» فيبتلي الرجل على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة، وكذا هو عند النسائي، وابن ماجه في الفتن في سننه، والدارمي في الرقاق من مسنده. وأخرجه الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن أبي عمر، وابن منيع، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم كلهم من حديث عاصم. وهو عند مالك في الموطأ وآخرين. وقال الترمذي إنه حسن صحيح، وصححه ابن حبان، والحاكم، وأخرجة أيضاً من طريق العلاء بن المسيب عن مصعب.

وأما حديث فاطمة بنت اليمان أخت حذيفة فلفظه عند الطبراني في الكبير «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وروى البخاري في التاريخ عن أزواج النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء في الدنيا نبي أو صفي» وروي ابن النجار من حديث أبي هريرة «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون». وروى ابن حبان من حديث أبي سعيد «أشد النار بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الناس على قدر دينهم فمن تحقق دينه اشتد بلاؤه ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة». ورواه ابن سعد في الطبقات، وابن ماجه، وأبو يعلى، والحاكم وصاحب الحلية، والضياء بلفظ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحويها فيلبسها ويبتلى بالقمل حتى تقتله ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء».

فالأمثل » فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن ؛ فإن بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم ، إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً ، ولذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس قال : رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » ، فإذا لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين ، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ، ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين ، وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من

(فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن) ، وكان عليه السلام قد ابتلي سبع سنين و أشهراً بالضر في جسده كما رواه ابن جرير عن قتادة ، **(فإن بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فراراً)** وذلك قوله تعالى قال نوح : ﴿رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ★ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً﴾ [نوح : ٥ ـ ٧] أي عن الإيمان والطاعة ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً﴾ [نوح : ٥ ـ ٧] **(ولذلك لما تأذى رسول الله ﷺ بكلام بعض الناس قال : « رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر »)** قال العراقي : متفق عليه من حديث ابن مسعود انتهى .

قلت : والمراد ببعض الناس رجل من المؤلفة قلوبهم ، وذلك أنه ﷺ أعطى يوم حنين الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن مائة من الأبل ، وأعطى غيرهم أقل من ذلك فقال رجل : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فقال ﷺ ذلك . وقد رواه أحمد كذلك ، وتقدم في اخلاق النبوة ، ويحكى من تعنت من آمن بموسى من بني إسرائيل أن رموه بداء الأدرة واتهموه بقتل أخيه هارون لما مات معه في التيه بعد ما رأوا منه المعجزات الظاهرة بما جاء به التنزيل ، ومن سوء أخلاقهم أنه لما سلك بهم طريق البحر قالوا له : إن صحبنا لا نراهم ، فقال : سيروا فإنهم على طريق كطريقكم . قالوا : لا نرضى حتى نراهم ، فقال : اللهم أعني على أخلاقهم السيئة ففتحت لهم كوات في الماء فتراؤوا وتسامعوا إلى غير ذلك من أذاهم له عليه السلام ، وهذا القول منه ﷺ شفقة عليهم ونصحاً في الدين لا تهديداً وتثريباً إيثار الحق الله على نفسه في ذلك المقام الذي هو غب الفتح وتمكن السلطان الذي يتنفس فيه المكروب وينفث المصدور ويتشفى المغيظ المحنق ويدرك ثأره المأثور .

(فإذاً كما لا يخلو الأنبياء) عليهم السلام **(عن الإبتلاء بالجاحدين)** والمعاندين **(فلا يخلو الأولياء والعلماء عن الإبتلاء بالجاهلين ، ولذلك قلما ينفك الأولياء)** وكذلك العلماء **(عن ضروب)** أي أنواع **(من الإيذاء وأنواع البلاء بالإخراج عن البلد)** تارة ، **(والسعاية بهم إلى السلاطين)** تارة ، **(والشهادة عليهم بالكفر)** تارة ، **(والخروج عن الدين)** تارة أي

الكافرين، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين، فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه السلام: «إنه يعطي آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين، لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسر آلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم؛ فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها، فلا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله، إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسي الله أنساه الله ـ لا محالة ـ نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقي إلى الأفق

رميهم بالحلول والزندقة، وقد وقع كل ما ذكر لأعيان الأولياء والعلماء كما يعرف ذلك من تراجمهم في التواريخ وهم مع ذلك يصبرون على أذاهم إذا أخذ الله عليهم أن يعدلوا أو يقوموا بنواميس الشريعة والحقيقة والصدع بالحق والقيام لله في أمور الدين ومصالح المسلمين وتحمل الأذى المترتب على ذلك، إذ هم القدوة والمرجع في الأحكام وحجة الله على العوام، (**وواجب أن يكون أهل المعرفة**) بالله تعالى (**عند أهل الجهل من الكافرين، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير**) في الجسم (**جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين**) أموالهم في غير محالها: (**فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله ﷺ: «أنه يعطي آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات»**) كما تقدم بيان ذلك. (**وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط، فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشاركك في الحواس الخمس**) الظاهرة، (**وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهي عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه**) وحملته أنت، (**فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السر الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم**) وتميزت به عنها (**فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات**) وهي أخس الرتب، (**فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها**) وقد قال تعالى في كتابه العزيز: (**﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ [الحشرة: ١٩] فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله**) وجهل طريق المعرفة، (**إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس، وكل من نسي الله أنساه الله لا محالة نفسه ونزل إلى رتبة البهائم**) وامتنع سلوكه، (**وترك الترقي إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله**

الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرّضاً لنقمته إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت. وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة. والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه؛ فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال؛ فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ويعطي مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر، ولا يخرج من

تعالى) إياه، **(وأنعم بها عليه فغدا بذلك كافراً بنعمته ومتعرضاً لنقمته إلا أنه أسوأ حالاً من البهيمة، فإن البهيمة تتخلص بالموت)** وتصير هباء فلا تحاسب ولا تعاقب، **(وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة ومصيرها)** ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ [الشورى: ٥٣] **(وتلك الأمانة)** المودعة **(كالشمس الزاهرة)** أي المضيئة المشرقة، **(وإنما هبطت)** من الأفق الأعلى **(إلى هذا القالب)** الجسماني **(الفاني وغربت فيه)** وإليه أشار أبو علي بن سينا في عينيته:

هبطت إليك من المحل الأرفع هيفاء ذات تعجب وتمنع

(وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة، والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن الحضرة الربوبية، والمظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير للكل إليه إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين، ولذلك قال تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾) أي حياء وخجلاً وذلاً وحقارة، **(فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون)** منجوسون **(قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم)** أي إلى وراء قد وكس بهم **(وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل، وذلك حكم الله)** عز وجل **(فيمن حرمه توفيقه)** أي منعه إياه **(ولم يهده طريقه)** أي لم يره إياها، **(فنعوذ بالله من الضلال والنزول إلى منازل الجهال، فهذا حكم انقسام من يخرج من النار)** آخراً فيتمنى ويسأل **(فيعطي مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار إلا موحد، ولست أعني**

النار إلا موحد. ولست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الغانمين عن ماله، ومدة بقاء الرقبة والمال مدة الحياة، فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان، وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله، وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه، إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل، وهذا التوحيد متفاوت، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال، ومنهم من له مثقال. ومنهم من له مقدار خردلة وذرّة، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار. وفي الخبر يقال: «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان»، وآخر من يخرج من في قلبه

بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع) هذا التوحيد **(إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته)** أي سيف المجاهدين، **(و)** تدفع **(أيدي الغانمين عن ماله)** وذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم وأعراضهم وحسابهم على الله وجل». **(ومدة بقاء الرقبة والمال مدة الحياة)** في عالم الملك **(فحيث لا تبقى رقبة ولا مال له لا ينفع القول باللسان، وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله)** عز وجل. قال أبو عبدالله بن الجلاء: من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد، ومن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها فهو عابد، ومن رأى الأفعال كلها من الله فهو موحد، **(وعلامته أن لا يغضب على أحد من خلقه بما يجري عليه)** من المقدرات الأزلية من خير أو شر، **(إذ لا يرى الوسائط)** لأنها تضمحل عن نظرة، **(وإنما يرى مسبب الأسباب)** وهذا هو مرتبة الفناء في الله **(كما سيأتي تحقيقه في)** كتاب **(التوكل)** إن شاء الله تعالى، **(وهذا التوحيد متفاوت)** بتفاوت الموحدين، **(فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال)** وهؤلاء هم الأنبياء والمقربون والصديقون، **(ومنهم من له مثقال)** وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم، **(ومنهم من له مقدار خردلة)** والخردلة معروفة، **(و)** منهم من **(له مثقال ذرة)** وهي البهاء الذي يظهر في ضوء الشمس من كوة، **(فمن)** كان **(في قلبه)** منه **(مثقال دينار)** أي وزنه **(من إيمان فهو أول من يخرج من النار. وفي الخبر يقال: «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»)** روى الطيالسي، وأحمد والشيخان والترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان من حديث أنس «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من يقول لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة». وروى الترمذي وقال: حسن صحيح من حديث أبي سعيد «يخرج من النار في قلبه مثقال ذرة من الإيمان».

مثقال ذرة من إيمان، وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة، والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد، فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك، فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها، ففي الأثر: إن العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضي من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير، فيقول الله تعالى: ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكاً إلى النار». وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو

(وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة) وهؤلاء آخر الطبقات خروجاً إلى أن يبدو لبعضهم من الله تعالى ما لا يحتسبه فيعفو عن البعض ولا يجعل لمن حق عليه الوعيد مما سبق له من الكلمة الحسنى ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، **(والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرناه في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود، وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد)** يتحملونها على رقابهم فتكون سبباً لدخولهم في النار، **(فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك)** كما تقدم في ذكر الدواوين الثلاثة في الخبر السابق، وذلك لأن حقوق العباد مبنية على المشاحة. ولفظ القوت: وأكثر ما يوقي الناس من الكبائر المظالم، وأكثر ما يدخلهم النار ذنوب غيرهم إذا طرحت عليهم، وفي الخبر: ذنب يغفر وذنب لا يترك فالذي يغفر ذنب نفسك والذي لا يترك مظالم العباد. **(فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها ففي الأثر)** والمراد به هنا الخبر كما هو نص القوت فإنه قال: وقد جاء في الخبر وليس من عادة المصنف أن يستعمل لفظ الأثر إلا في أقوال الصحابة ومن بعدهم، ولذلك لم يتعرض له العراقي: **(إن العبد ليوقف بين يدي الله عز وجل وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون)** ولفظ القوت فيوجد **(قد سبّ عرض هذا وأخذ)** ولفظ القوت وأكل **(مال هذا فتقتص من حسناته حتى لا تبقى له حسنة، فتقول الملائكة: يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير، فيقول الله تعالى)** ولفظ القوت فيقال: **(القوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكاً إلى النار)** هكذا في القوت.

وروى الحاكم عن أبي عثمان النهدي عن سلمان وسعد وابن مسعود وغيرهم رفعوه «يرفع للرجل الصحيفة يوم القيامة حتى يرى أنه ناج فما زال مظالم بني آدم تتبعه حتى ما بقي له حسنة ويزاد عليه من سيئاتهم». **(وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة**

المظلوم بحسنة الظالم، إذ ينقل إليه عوضاً عما ظلم به وقد حكي عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال: لا أفعل، ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها، فكيف أمحوها. وقال هو وغيره: ذنوب أخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي، فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين، فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال، ولكن قد تتوب الى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم، إذ ليس في قوّة البشر الوقوف على كنهها، فكذلك النجاة

الظالم، إذ تنقل إليه عوضاً عما ظلم به) فقد روى الخرائطي في مساوىء الأخلاق من حديث أبي أمامة «إن العبد ليعطي كتابه يوم القيامة منشوراً فيرى فيه حسنات لم يعملها فيقول: رب لم أعمل هذه الحسنات، فيقول: إنها كتبت باغتياب الناس إياك، وأن العبد ليعطي كتابه يوم القيامة منشوراً فيقول: يا رب ألم أعمل حسنة يوم كذا وكذا؟ فيقال له: محيت عنك باغتيابك الناس». وفي إسناده الحسن بن دينار عن الخطيب بن حجدر، ولفظ القوت: وكثيرون يدخلون الجنة بحسنات غيرهم إذا طرحت عليهم لأنها صحيحة ثابتة وقد تبطل حسناتهم لدخول الآفات عليها.

(وقد حكي عن) أبي عبدالله محمد بن يحيى **(ابن الجلاء)** البغدادي أقام بالرملة ودمشق، صحب أبا تراب النخشبي، وذا النون، وأبا عبيد البسري، وأبا يحيى الجلاء ترجم له القشيري في الرسالة **(أن بعض إخوانه اغتابه)** أي ذكره بما يكره **(ثم أرسل إليه)** رسولاً **(ليستحله فقال: لا أفعل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها)** كذا في القوت؟ **(وقال هوْ وغيره: ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي)** ذكره صاحب القوت من بقية قول ابن الجلاء السابق.

(فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد) أي في الآخرة **(في درجات السعـادة والشقاوة، وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاحي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج)** لشدة ما عرض له من المرض. **(وعلى مريض آخر بأن عارضـه خفيف وعلاجه هين)** أي سهل، **(فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تثوب)** أي ترجع **(إلى المشرف على الهلاك نفسه)** أي إلى الصحة **(من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك لأسرار الله الخفية في أرواح الإحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم)** لا

والفوز في الآخرة لها أسباب خفية ليس في قوّة البشر الإطلاع عليها، يعبّر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضي إلى الهلاك بالغضب والإنتقام، ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها، فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الإعتماد على التقوى والتقوى في القلب، وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً، ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] ولا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وكل ذلك صحيح، فليس للإنسان إلا ما سعى، وسعيه هو الذي يرى، وكل نفس بما كسبت رهينة، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم، تحقيقاً

يتبدل ولا يتغير، (**إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها**) أي حقيقتها، (**فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لها أسباب خفية ليس في قوة البشر الإطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضي إلى الهلاك بالغضب والإنتقام، ووراء ذلك سر المشيئة**) الإلهية (**الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها**) فهم عنه محجوبون وعن إداركه غافلون، (**فكذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة و**) أن نجوز (**الغضب على المطيع وإن كثرت طاعته الظاهرة، فإن الإعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب**) والبصائر (**أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو**) والمسامحة، (**ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى، ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف**) وقد قال الله تعالى: ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ [التحريم: ٧] (**ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ ولا قوله تعالى**) ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩] ولا قوله تعالى: (**﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ وكل ذلك صحيح**) لا خلاف فيه (**فإنه ليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى**) كما قال تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى★ وأن سعيه سوف يرى★ ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١] (**و**) **قال تعالى:** (**﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾**) [المدثر:: ٣٨] أي محبوسة. وقال تعالى: (**﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾**) [الصف: ٥] أي أمالها عن وجه الصواب، (**ولما غيروا ما بأنفسهم غير**

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر، إذ البصر يمكن الغلط فيه، إذ قد يرى البعيد قريباً والكبير صغيراً ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها، وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب، وإلا فما يرى بها بعد الإنفتاح فلا يتصوّر فيه الكذب، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ ما رأى﴾ [النجم: ١١].

الرتبة الثالثة: رتبة الناجين، وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد، وعاشوا على

الله ما بهم تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وهذا كله قد انشكف لأرباب القلوب**) والبصائر (**إنكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر، إذ البصر يمكن الغلط فيه إذ قد يرى البعيد قريباً والكبير صغيراً**) والساكن متحركاً والمتحرك ساكناً ويبصره غيره ولا يبصر نفسه ولا يبصر ما بعد عنه ولا ما قرب منه ولا يبصر ما وراء حجاب، ويبصر من الأشياء ظاهرها لا باطنها، ومن الموجودات بعضها لا كلها ولا يبصر ما لا نهاية له. فهذه سبع نقائص لا تفارق البصر الظاهر، ومعنى كونه يبصر الكبير صغيراً أي لأنه يبصر الشمس في مقدار مجن، والكواكب في صورة دنانير منثورة على بساط أزرق، ويرى الكواكب ساكنة بل يرى الظل بين يديه ساكناً ويرى الصبي ساكناً مع أن يتحرك في الرحم على الدوام وأنواع غلط البصر كثيرة، (**ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها**).

فإن قلت: نرى جماعة من أرباب العقول يغلطون في نظرهم، فأعلم أن فيهم خيالات وأوهاماً واعتقادات يظنون أن أحكامها أحكام العقل، فالغلط منسوب إليها فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يتصور أن يغلط بل يرى الأشياء على ما هي عليه وفي تجرده عسر، وإليه أشار بقوله: (**وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب، وإلا فما يرى بها بعد الإنفتاح فلا يتصور فيه الكذب**) والغلظ والوهم، (**وإليه الإشارة بقوله تعالى في حق نبيه** ﷺ: ﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾) أي من عجائب الملكوت الأعلى، وذلك لأن البصر من عالم الشهادة والحس والبصيرة من عالم الملكوت لا ترى بالأبصار، إنما تشاهد ببصيرة القلب والله الموفق.

(**الرتبة الثالثة: رتبة الناجين وأعني بالناجين أصحاب السلامة فقط دون**) أصحاب (**السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فينخلع عليهم**) في مقابلة خدمتهم (**ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين**) الذين سلبت عقولهم (**والصبيان من الكفار**) يعني أولاد المشركين (**والمعتوهين**) من العته محركة وهو نقص العقل من غير جنون. وفي

البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبّر الشرع عنه بالأعراف، وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقيناً من الآيات والأخبار، ومن أنوار الإعتبار، فأما الحكم على العين كالحكم مثلاً بأن

التهذيب المعتوه المدهوش من غير مس أو جن، **(والذين لم تبلغهم الدعوة)** من الأنبياء عليهم السلام **(في أطراف البلاد)** وأقاصيها كما قيل في أهل الصين: **(وعاشوا على البله وعدم المعرفة، فلم تكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية ولا وسيلة تقربهم)** إلى الله تعالى **(ولا جناية تبعدهم)** عن الله تعالى، **(فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبّر الشرع عنه بالأعراف)** وأعرف الحجاب أعاليه وهو السور المضروب بين الفريقين أو بين الجنة والنار. جمع عرف بالضم من عرف الفرس، وقيل: العرف ما ارتفع من الشيء وقد اختلف فيه أقوال السلف، فقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار ورسوله باب أخرجه هناد وعبد بن حميد. وقال حذيفة: هو سور بين الجنة والنار. أخرجه سعيد بن منصور، وقال ابن عباس: هو الشيء المشرف أخرجه البيهقي في المبعث وعنه أيضاً قال: سور له عرف كعرف الديك أخرجه هناد وعبد بن حميد، وقال سعيد بن جبير: جبال بين الجنة والنار. أخرجه أبو الشيخ، وقال كعب: هو في كتاب الله عمقاً ما سقطا ما قال ابن لهيعة أي: واد عميق خلف جبل مرتفع أخرجه ابن أبي حاتم **(وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقيناً من الآيات والأخبار من أنواع الإعتبار)**، فالآيات قوله تعالى: ﴿فضرب بينهم بسور﴾ [الحديد: ١٣] الآية. وقوله تعالى: ﴿وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾ [الأعراف: ٤٦] الآية. وأما الأخبار؟ فقد قال العراقي: روى البزار من حديث أبي سعيد الخدري سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم، فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة، وهم على سور بين الجنة والنار الحديث. وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل، عن عمر بن عبد الرحمن المدني، عن أبيه مختصراً. وأبو معشر السندي اسمه نجيح ضعيف، ويحيى بن شبل لا يعرف. وللحاكم من حديث حذيفة قال: أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة الحديث. وقال: صحيح على شرط الشيخين. وروى الثعلبي عن ابن عباس قال: الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمزة وعلي وجعفر الحديث.

قلت: حديث أبي سعيد هذا قد رواه أيضاً ابن مردويه بسند الطبراني، ولفظه: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: « هم رجال قتلوا في سبيل الله » فذكره بسياق البزار وفيه بعد قوله: « وهم على سور بين الجنة والنار حتى تزول لحومهم وشحومهم حتى يفرغ الله من حساب

الخلائق، فإذا فرغ من حساب خلقه فلم يبق غيرهم أدخلهم الجنة برحمته» وفي الباب عبد الرحمن المزني، ورجل من مزينة قيل: عبد الرحمن، وقيل: غيره، وأبو هريرة، وابن عباس، ومالك الهلالي.

فلفظ عبد الرحمن المزني سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: «هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله ومنعهم من الجنة معصية آبائهم» أخرجه سعيد بن منصور، وابن منيع، وعبد الرحمن بن حميد، والحرث بن أبي أسامة في مسنديهما، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد، والخرائطي في مساوىء الأخلاق، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردوية، والبيهقي في البعث.

ولفظه حدث رجل من مزينة أن رسول الله ﷺ سئل عن أصحاب الأعراف فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقتلوا في سبيل الله» أخرجه أبو الشيخ، وابن مردويه من طريق محمد بن المنكدر عنه.

ولفظ حديث أبي هريرة سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم قوم قتلوا في سبيل الله وهم لآبائهم عاصون فمنعوا الجنة بمعصيتهم آباءهم ومنعوا النار بقتلهم في سبيل الله» أخرجه ابن مردويه، والبيهقي في العبث.

ولفظ حديث ابن عباس: «إن أصحاب الأعراف قوم خرجوا غزاة في سبيل الله وآباؤهم وأمهاتهم ساخطون عليهم وخرجوا من عندهم بغير إذنهم فأوقفوا عن النار بشهادتهم وعن الجنة بمعصية آبائهم» أخرجه ابن مردويه.

ولفظ حديث مالك الهلالي قال: قائل يا رسول الله ما أصحاب الأعراف؟ قال: «قوم خرجوا في سبيل الله بغير إذن آبائهم فاستشهدوا فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة فهم آخر من يدخل الجنة» أخرجه الحرث بن أبي أسامة في مسنده، وابن جرير، وابن مردويه من طريق عبدالله بن مالك الهلالي عن أبيه.

وهناك أقوال أخر في تعيين أصحاب الأعراف منها: حديث حذيفة الذي أشار إليه العراقي أخرجه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في البعث بلفظ: «أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم تجاوزت بهم حسناتهم عن النار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة جعلوا على سور بين الجنة والنار حتى يقضي بين الناس فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربهم فقال: قوموا فادخلوا الجنة فإني غفرت لكم».

وعند ابن جرير عنه قال: «أصحاب الأعراف قوم كانت لهم أعمال أنجاهم الله بها من النار وهم آخر من يدخل الجنة فعرفوا أهل الجنة وأهل النار» وفي لفظ آخر قال: «قوم تكافأت أعمالهم

فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم ».

وعند البيهقي في الشعب عنه أراه قال: قال رسول الله ﷺ: « يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ويؤمر بأهل النار إلى لنار ثم يقال لأصحاب الإعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرك. فيقال لهم: إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا بمغفرتي ورحمتي » وقد روي مثل هذا القول عن جماعة من الصحابة والتابعين فأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن قتادة قال في أصحاب الأعراف ذكر لنا عن ابن عباس كان يقول استوت حسناتهم وسيئاتهم فحبسوا هناك.

وأخرج ابن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: « أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقفوا هنالك على السور » الحديث.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال: « من استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف ». وروي مثله عن ابن مسعود أخرجه ابن جرير.

وأخرج عبد بن حميد، وأبو الشيخ، والبيهقي في البعث عن مجاهد في أصحاب الأعراف قال: « هم قوم إستوت حسناتهم وسيئاتهم وهم على سور بين الجنة والنار وهم على طمع من دخول الجنة وهم داخلون ».

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: « يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته اكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط » الحديث.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، وابن عساكر عن جابر بن عبدالله رفعه « يوضع الميزان يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابه دخل النار ». قيل: يا رسول الله فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: « أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون ».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن أبي زرعة عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: « هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم ».

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وهناد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ عن عبدالله بن الحرث بن نوفل قال: « أصحاب الأعراف أناس استوت حسناتهم وسيئاتهم فيذهب بهم إلى نهر يقال له الحياة » الحديث. وقيل: أصحاب الأعراف ناس من أهل الذنوب

الصبيان منهم، فهذا مظنون وليس بمستيقن، والإطلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوّة، ويبعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء، والأخبار في حق الصبيان أيضاً متعارضة. حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان: عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: وما يدريك»، فإذاً الإشكال والإشتباه أغلب في هذا المقام.

حبسوا على تل بين الجنة والنار. أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وفي لفظ قال: «الأعراف هو السور الذي بين الجنة والنار وأصحابه رجال كانت لهم ذنوب عظام وكان أمرهم الله أن يقوموا على الأعراف»الحديث. وهكذا رواه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والبيهقي في البعث وقيل: هم قوم صالحون فقهاء علماء، وهكذا أخرجه ابن أبي شيبة، وهناد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ،عن مجاهد. وقيل: هم قوم كان فيهم عجب، وهكذا أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة، عن الحسن. وقيل هم قوم كان عليهم دين. وهكذا أخرجه ابن المنذر، ومن بعده عن قتادة عن مسلم بن يسار. وقيل: هم مؤمنو الجن، وهكذا أخرجه البيهقي في البعث. من حديث أنس: «إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم. قال: على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ فقلنا: وما الأعراف؟ قال: حائط في الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار» وقيل: هم الملائكة.

أخرج سعيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد، وأبو الشيخ والبيهقي في البعث عن أبي مجلز قال: الأعراف مكان مرتفع عليه رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة بسيماهم وأهل النار بسيماهم، فقيل: يا أبا مجلز الله يقول رجال وأنت تقول الملائكة؟ قال: إنهم ذكور وليسوا بإناث. وأخرج أحمد في الزهد عن قتادة قال: قال سالم مولى حذيفة. وددت أني بمنزلة أصحاب الأعراف.

(وأما الحكم على العين) من الأعيان بالخصوص **(كالحكم مثلاً بأن الصبيان منهم، فهذا مظنون وليس بمستيقن والإطلاع عليه يقيناً)** وفي نسخة تحقيقاً **(في عالم النبوة)** فإن الأنبياء عليهم السلام إنما يخبرون بوحي من الله تعالى، **(ويبعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء)** لقصور رتبتهم في الإنكشاف **(والأخبار)** الواردة **(في حق الصبيان أيضاً متعارضة)** كتعارضها في حق أصحاب الأعراف، **(حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان)**: طوبى له **(عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله ﷺ وقال: « وما يدريك)** أنه عصفور من عصافير الجنة»؟ قال العراقي: رواه مسلم.

قلت ولفظه: توفي صبي من الأنصار فقالت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال النبي ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في

أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم». وعند مسلم أيضاً: إن الله خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلاً».

وروى الطبراني في الأوسط والصغير، والخطيب من حديث أبي هريرة: «إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً بعشائرهم وقبائلهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وخلق النار وخلق لها أهلاً بعشائرهم وقبائلهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم اعملوا فكل ميسر لما خلق له». وسنده ضعيف.

ولنذكر الأخبار المتعارضة في الصبيان. قال العراقي: روى الشيخان من حديث سمرة بن جندب في رؤيا النبي ﷺ وفيه: وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة. قيل: يا رسول الله وأولاد المشركين. قال: «وأولاد المشركين».

وللطبراني من حديثه سألنا رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال: «هم خدم أهل الجنة» وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة هو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب، وقد ضعفه ابن حبان.

وللنسائي من حديث الأسود بن سريع في غزاة لنا الحديث في قتل الذرية وفيه: «إلا إن خياركم أبناء المشركين» ثم قال: «لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة» الحديث. وإسناده صحيح.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث وفي رواية لأحمد «ليس مولود إلا يولد على هذه الملة» ولأبي داود في آخر الحديث فقالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وللطبراني من حديث الحرث الأنصاري كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا: هو صديق، فقال النبي ﷺ: «كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله تعالى في بطن أمه: إلا أنه شقي أو سعيد» الحديث. وفيه عبدالله بن لهيعة.

ولأبي داود من حديث ابن مسعود: الوائدة والموؤدة في النار، وله من حديث عائشة قلت: يا رسول الله ذراري المؤمنين. فقال: «مع آبائهم» قلت: بلا عمل. قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين». قلت: وذراري المشركين؟ قال: «مع آبائهم» قلت بلا عمل. قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وللطبراني من حديث خديجة قلت: يا رسول الله أين أطفالي منك قال: «في الجنة» قلت: بلا عمل. قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» قلت: وأين أطفالي قبلك؟ قال: «في النار» قلت: بغير عمل؟ قال: «لقد علم الله ما كانوا عاملين» وإسناده منقطع بين عبدالله بن الحرث وخديجة. وفي

....

الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم اهـ.

قلت: وجد بخط تلميذ الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى بإزاء هذا السياق ما نصه: جميع الأحاديث السابقة ناطقة بأن أولاد المسلمين في الجنة، فقول الغزالي: الأخبار في الصبيان متعارضة إطلاق مردود والتعارض إنما هو في أطفال المشركين اهـ.

قلت حديث سمرة عند البخاري أن النبي ﷺ رأى في منامه جبريل عليه السلام وميكائيل أتياه فانطلقا به وذكر حديثاً طويلاً، وفيه: وأما الشيخ الخ وفي رواية بعد قوله على الفطرة وكلّ بهم إبراهيم عليه السلام يربيهم إلى يوم القيامة. وروى الطبراني في الأوسط من حديث أنس «أطفال المشركين خدم أهل الجنة» ورواه سعيد بن منصور عن سلمان موقوفاً. وروى أحمد والحاكم والبيهقي في البعث من طريق مدهل بن إسماعيل، حدثنا سفيان الثوري، عن عبد الرحمن بن الأصبهاني، عن أبي حازم الأشجعي، عن أبي هريرة رفعه: «أطفال المؤمنين في جبل في الجنة يكفلهم إبراهيم إلى آبائهم يوم القيامة» وفي لفظ للديلمي: «أولاد المؤمنين» وقال الحاكم: صحيح على شرطها، وكذا صححه ابن حبان، وقد تابع مدهلاً على رفعه وكيع، لكن رواه ابن مهدي، وأبو نعيم كلاهما عن الثوري فوقفاه. وقال الدارقطني: أنه أشبه.

وروي الحكيم من حديث أنس: «كل مولود يولد من والد كافر أو مسلم فإنما يولد على الفطرة على الإسلام كلهم ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهمفهوّدتهم ونصرتهم ومجستهم وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً».

وروى الترمذي من حديث أبي هريرة «كل مولود يولد على الملة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه ويشركانه». قيل: يا رسول الله فمن هلك قبل ذلك؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وروي أبو يعلي والبغوي والباوردي والطبراني والبيهقي من حديث الأسود بن مربع: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويمجسانه».

ورواه ابن عبد البر في التمهيد بلفظ: «ما بال قوم بلغوا في القتل حتى قتلوا الولدان؟ قال رجل: أو ليس إنما هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «أو ليس خياركم أولاد المشركين إنه ليس من مولود إلا وهو يولد على الفطرة فيعرب عنه لسانه ويهوّدانه أبواه أو ينصرانه».

وحديث ثابت بن الحرث الأنصاري: «ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد» أخرجه أيضاً أبو نعيم.

وحديث ابن عباس سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» رواه الطيالسي والبخاري وأبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة، ورواه أبو داود والحكيم من حديث عائشة، ورواه عبد بن حميد من حديث أبي سعيد. وعند أحمد من حديث ابن عباس: «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم».

وحديث خديجة أخرجه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف عن عائشة قالت: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: « هم من آبائهم » ثم سألته بعد ذلك فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين » ثم سألته بعدما استحكم الإسلام فنزلت ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [فاطر: ١٨] فقال: « هم على الفطرة » أو قال في الجنة.

وحديث الصعب بن جثامة رواه أيضاً عبد الرزاق في المصنف، وأصحاب السنن عن ابن عباس قال: حدثني الصعب بن جثامة. وأخرج عبدالله بن أحمد في زوائد المسند من حديث علي: « إن المؤمنين أولادهم في الجنة وإن المشركين أولادهم في النار، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم﴾ [الطور: ٢١] وروى أحمد والنسائي والبغوي وابن المنذر وابن مردويه والطبراني من حديث سلمة بن يزيد الجعفي: « الوائد والموءودة في النار إلا أن يدرك الوائد الإسلام فيسلم ».

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وإذا الموءودة سئلت﴾ [التكوير: ٨] هي المدفونة. قال: فمن قال أنهم في النار فقد كذب، بل هم في الجنة. وغير ذلك من الأخبار وهي كما قال المصنف متعارضة.

(فإذاً الأشكال والإشتباه أغلب في هذا المقام) أعلم أنه قد اختلف العلماء في أولاد المسلمين، فالأكثرون على الجزم بأنهم في الجنة، وقيل: فيهم بالتوقف، واحتج قائلهم بحديث عائشة عند مسلم الذي ذكره المصنف من قولها: طوبي له عصفور من عصافير الجنة الخ. وحكى النووي الأول عن إجماع من يعتد به من علماء المسلمين والتوقف عن بعض ولا يعتد به. قال: وأجاب العلماء عن حديث عائشة بأنه لعله نهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، كما أنكر على سعد بن أبي وقاص في قوله اعطه إني لاراه مؤمناً. قال: « أو مسلماً » الحديث. قال: ويحتمل أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة. وذكر المازري أن بعضهم ينكر الخلاف في ذلك لقوله تعالى: ﴿واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ [الطور: ٢١] قال: وبعض المتكلمين يقف فيهم ولا يرى نصاً قاطعاً بكونهم في الجنة ولم يثبت عنده الإجماع فيقول به، واستثنى قبل ذلك من الخلاف أولاد الأنبياء عليهم السلام فقد تقرر الإجماع على أنهم في الجنة، وحكى ابن عبد البر التوقف في أولاد المسلمين عن جماعة كثيرة من أهل السنّة والحديث منهم: حماد ابن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قال: وهو شبه ما رسمه مالك في موطئه في أبواب القدر، وما أورده في غير ذلك من الأحاديث، وعلى ذلك أكثر أصحابه وليس فيه عن مالك شيء منصوص إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة اهـ.

وأما أطفال المشركين ففيهم مذاهب، أحدها: أنهم في النار تبعاً لآبائهم، والثاني: أنهم في الجنة، والثالث: التوقف فيهم، والرابع: أنهم يمتحنون في الآخرة، والخامس: أنهم في البرزخ حكاه

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين، وهم المقربون السابقون، فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان، والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن، فليس بعد بيان الله بيان، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقوله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»،

أبو العباس القرطبي عن قوم قال: واحسبهم من غير أهل السنة. وحكى النووي القول بأنهم في النار عن الأكثرين، والقول الثاني بأنهم في الجنة عن المحققين قال: وهو الصحيح، ويستدل عليه باشياء منها: حديث إبراهيم الخليل عليه السلام حين رآه النبي ﷺ في الجنة، وقوله: أولاد الناس قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين» رواه البخاري في صحيحه، ومنها قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ [الإسراء: ١٥] ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قول الرسول حتى يبلغ وهو متفق عليه. قال: والجواب عن حديث الله أعلم بما كانوا عاملين» أنه ليس فيه تصريح بأنهم في النار، وحقيقة لفظه الله أعلم بما كانوا يعملون لو بلغوا، والتكليف لا يكون إلا بالبلوغ وروى ابن عبد البر في التمهيد عن عائشة قالت: سألت خديجة النبي ﷺ عن أولاد المشركين فقال: «هم مع آبائهم» ثم سألته بعد ذلك فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [فاطر: ١٢] فقال: «هم على الفطرة» أو قال في الجنة. وروى أيضاً عن ابن عباس قال: «لا يزال أمر هذه الأمة مواسياً أو متقارباً أو كلمة شبه ذلك وما يتبين حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقدر» قال يحيى بن آدم: فذكرته لابن المبارك قال: أفيسكت الإنسان على الجهل؟ قلت: فتأمن بالكلام فسكت، والله أعلم.

(الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين وهم العارفون) المخصوصون **(دون المقلدين وهم المقربون السابقون، فإن المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون)** قال الله تعالى: ﴿والسابقون السابقون* أولئك المقربون* في جنات النعيم﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٢] ثم قال ﴿فأما إن كان من المقربين* فروح وريحانٌ وجنة نعيم* وأما إن كان من أصحاب اليمين* فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩١] **(وما يلقي هؤلاء يجاوز حد البيان، والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد الله بيان، والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)** جزاء بما كانوا يعملون﴾ **(وقوله ﷺ قال الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا أذن سمعت ولا عين رأت ولا خطر على قلب بشر»)** أغفله العراقي وسبب إغفاله أنه يوجد في بعض نسخ الكتاب وقال الله عز وجل بدون وقوله

والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والأساور فإنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ، ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك في الجنة ؟ فقالت : الجار ثم الدار ، فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فإنه في حال الإستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فني عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقاً بغيره وصارت همومه هماً واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه

ﷺ ، وهو حديث قدسي رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ورواه ابن جرير من حديث أبي سعيد ، ورواه أيضاً عن قتادة مرسلاً ، ورواه أيضاً عن الحسن بلاغاً بلفظ : « قال ربكم أعددت لعبادي الذي آمنوا وعملوا الصالحات ما لا عين رأت » الحديث.

(والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم ، وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلي والأساور) والذهب والحرير وغير ذلك مما ذكر في القرآن ، **(فإنهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها)** وطلبوا ما وراء ذلك ، **(ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات ، ولذلك قيل لرابعة)** بنت إسماعيل **(العدوية)** البصرية العابدة المشهورة **(رحمة الله عليها)** وكانت من أقران الحسن البصري : **(كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت : الجار ثم الدار)** .

وقد روي ذلك مرفوعاً من حديث علي : « الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق والزاد قبل الرحيل » . رواه الخطيب في الجامع ، ورواه الطبراني من حديث رافع بن خديج بزيادة في آخره.

(فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ، ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه) أي المولع به المدهوش في حبه **(المستوفي همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه ، فإنه في حالة الإستغراق غافل عن)** كل شيء سواه حتى (عن نفسه) فهو **(لا يحس بما يصيبه في بدنه)** من الآلام والمصائب ، **(ويعبر هذه الحالة بأنه فني عن نفسه ، ومعناه أن صار مستغرقاً بغيره وصارت همومه)** كلها **(هماً واحداً وهو محبوبه ، يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه)** . أعلم أنه من استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً ولا رسماً ولا طللاً يقال : إنه فني عن الخلق وبقي بالحق وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال إحساسه بنفسه وبهم ، فإذا فني عن الأفعال والأحوال والأخلاق فلا يجوز أن يكون فني عنه وجوداً ، وإذا قيل : إنه فني عن نفسه وعن الخلق فتكون نفسه موجودة والخلق موجودون ، ولكنه لا علم له بهم ولا بها ولا إحساس ولا خبر ،

ولا غير نفسه، وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما يتصوّر أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة: ﴿وإنَّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات، والله الموفق بلطفه.

فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين، ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق غير محس بنفسه وبالخلق، وقد يرى الرجل يدخل على ذي سلطان أو محتشم فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه، وربما يذهل عن ذلك المحتشم حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه وهيئة ذلك الصدر وهيئة نفسه لم يمكنه الأخبار عن شيء قال الله تعالى: ﴿فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن﴾ [يوسف: ٣١] لم يجدن عند لقاء يوسف على الوهلة ألم قطع الأيدي وهن أضعف الناس وقلن ﴿ما هذا بشرا﴾ ولقد كان بشراً وقلن ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ ولم يكن ملكاً فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق، فما ظنك بمن يكاشف بشهود الحق سبحانه؟ فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وابناء جنسه فأي أعجوبة فيه؟ فمن فني عن جهله بقي بعلمه، ومن فني عن شهوته بقي بإنابته، ومن فني عن رغبته بقي بزهادته، ومن فني عن مشيئته بقي بارادته. وكذلك القول في جميع صفاته فإذا فني العبد عن صفة مما جرى ذكره يرتقي عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه وهي مراتب ثلاث. فالأولى: فناء عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق كذا قرره القشيري في الرسالة، (**وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان**) المتنوعة (**والألحان**) المختلفة (**على قلب الأصم والأكمه**) فيه لف ونشر غير مرتب، والأكمه من ولد أعمى أو عمى قبل أن يميز ويدرك (**إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره، فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعاً أنه لم يتصور أن يخطر بباله قبل ذلك صورته، فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء**) وتتضح الحقائق، وإليه الإشارة بقول بعض السادة: إنما الكون خيال وهو حق في الحقيقة، كل من يفهم هذا حاز أسرار الطريقة، (**فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة**) المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ [النحل: ٩٧] (**و**) يدرك أيضاً: (**إن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**) وكيف يعلمون والحجاب على قلوبهم، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في كتاب العلم، (**فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات**) والدركات (**على الحسنات والسيئات**) في الآخرة (**والله الموفق بلطفه**) وكرمه.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

إعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال

فصل

في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

هذا الفصل مشتمل على سبعة أسباب بها تكبر الصغائر وهي في الحقيقة ثمانية.

(اعلم) وفقك الله تعالى **(أن الصغيرة تكبر بأسباب)**.

(منها الإصرار) يقال: أصر على الذنب إذا تعقد فيه وتشدد وامتنع عن الإقلاع عنه. قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ [آل عمران: ١٣٥] أي لم يعزموا على العود إليه، وإنما كان الإصرار تكبر به الصغيرة لأن التوبة واجبة على الفور كما تقدم، **(و) منها (المواظبة)** عليه لأنها تورث القساوة وتوجب الران على القلب، ولما كانت المواظبة بمعنى الملازمة والمداومة وهو أحد معاني الإصرار جعلها المصنف سبباً واحداً وهما في الحقيقة سببان مختلفان يظهر لك بالتأمل، **(ولذلك قيل: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الإستغفار)** رواه أبو الشيخ، ومن طريقه الديلمي في مسند الفردوس من حديث سعد بن سليمان سعدويه عن أبي شيبة الخراساني عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس به مرفوعاً لكن بتقديم الجملة الثانية على الأولى، قال ابن طاهر أبو شيبة الخراساني، قال البخاري: لا يتابع على حديثه، ومن هذا الوجه أخرجه العسكري في الأمثال والقضاعي في مسند الشهاب وسنده ضعيف، لا سيما وهو عند ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس من قوله. وكذا رواه البيهقي في الشعب من حديث صدقة عن قيس بن سعد عن ابن عباس مرفوعاً، وله شاهد عند البغوي. ومن طريقه الديلمي عن خلف بن هشام عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس به مرفوعاً وينظر سنده، ورواه إسحاق بن بشير أبو حذيفة في كتاب المبتدأ عن الثوري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وحديثه منكر، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين من رواية مكحول عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وزاد في آخره « طوبى لمن وجد في كتابه استغفاراً كثيراً » وفي إسناده بشر ابن عبيد الفارسي وهو متروك، ورواه الثعلبي وابن شاهين في الترغيب من رواية بشر بن إبراهيم عن خليفة بن سليمان عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.

(فكبيرة واحدة تنصرم) أي تنقطع **(ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك لكان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها)** ويلازمها، **(ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على**

فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «خير الأعمال أدومها وإن قل»، والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جلة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره.

ومنها: أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره وكبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه

الحجر على توال) أي تتابع (**فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء)** بعينه (**لو صب عليه دفعة**) واحدة (**لم يؤثر**) منه قول الشاعر:

أما ترى الحبل بتكراره ... في الصخرة الصماء قد أثرا

(**ولذلك قال رسول الله ﷺ: «خير الأعمال أدومها وإن قلّ»**) قال العراقي: متفق عليه من حديث عائشة بلفظ: «أحب الأعمال إلى الله» وقد تقدم.

قلت: ورواه أحمد بلفظ: «أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قلّ».

(**والأشياء تستبان بأضدادها فإذا كان النافع من الأعمال هو الدائم**) المتتابع (**وإن قل فالكثير المنصرم**) الذي ينقطع ويضمحل **قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام**) وتتابع (**عظم تأثيره في إظلام القلب**) وتسويده (**إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق** ،ولواحق **من جلة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة**) من الجانبين (**ومقدمات**) تسبقه من نظر ولمس وتقبيل ومفاخذة، (**وقلما يقتل**) إنساناً (**بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداه**) من الجانبين ومشاتمة في الأعراض، (**فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاصقة ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق**) له (**عليها عود**) أي رجوع (**ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره**) وداوم.

(**ومنها: أن يستصغر الذنب**) أي يعده صغيراً ويحتقره فيكون أعظم من اجترامه (**فإن الذنب**) كما يقال (**كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع**

وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر: « المؤمن يرى ذنبه كالجبل » فوقه » يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره، وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد: ليت كل ذنب عملته مثل هذا، وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها، وبهذا الإعتبار قال بعض العارفين، لا صغيرة، بل

من شدة تأثره به واستصغار يصدر عن الألف به) والأنس معه (وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه من الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر) في كون استصغار الذنب كبيرة: (« المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه » يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره) ولفظ القوت فيطيره. قال العراقي: رواه البخاري من رواية الحارث بن سويد قال: حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا. قال ابن شهاب بيده فوق أنفه، ثم قال: لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته الحديث.

وأما مسلم فقد أخرجه عن الحارث بن سويد قال: دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض، فحدثنا حديثين حديثاً عن نفسه، وحديثاً عن رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة » فساقه، ولم يذكر الحديث الثاني.

(وقال بعضهم: الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا) نقله صاحب القوت قال: وهذا كما قاله بلال بن سعد لا تنظر الخطيئة ولكن انظر من عصيت، (وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى) وعظمته وهيبته في قلبه، (فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغير كبيراً وقد أوحى الله إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها) نقله صاحب القوت إلا أنه قال: وقد حدثنا عن الله تعالى أنه أوحى إلى بعض أوليائه والباقي سواء، ثم قال: وإنما عظمت الذنوب على تعظيم المواجهة بها وكبرت في القلوب بمشاهدة ذي

كل مخالفة فهي كبيرة، وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين: إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم

الكبرياء ومخالفة أمره إليها فلم يغفر ذنب عند ذلك، (**وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة**) وروي ذلك عن ابن عباس. أخرج ابن جرير عن أبي الوليد قال: سألت ابن عباس عن الكبائر قال: كل شيء عصى الله به فهو كبيرة، وقد تقدم. واختاره أبو إسحاق الاسفرايني، وأبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين في الإرشاد والقشيري في المرشدة،بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في تفسيره واعتمد عليه التقي السبكي، وقد تقدم أن المصنف ضعف هذا القول. قال صاحب القوت: فكانت الصغائر عند الخائفين كبائر وهذا أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿ومن يعظّم حرمات الله﴾ [الحج: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ [الحج: ٣٢].

(**وكذلك قال بعض الصحابة**) أبو سعيد الخدري كما تقدم التصريح به للمنصف، وقيل أنس، وقيل عبادة بن الصامت (**للتابعين: إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات**) وتقدم للمصنف من الكبائر بدل الموبقات، فحديث أبي سعيد رواه أحمد والبزار، وحديث أنس رواه البخاري، وحديث عبادة رواه أحمد والحاكم وقد تقدم. قال صاحب القوت: ليس يعنون ان الكبائر التي كانت على عهد رسول الله ﷺ صارت بعد صغائر، ولكن كانوا يستعظمون الصغائر لعظم الله في قلوبهم وعظم نور الإيمان، ولم يكن ذلك في قلوب من بعدهم، وإليه أشار المصنف بقوله: (**إذ كانت معرفة الصحابة أتم بجلال الله فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف**) البصير، (**لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف**) فكلما زادت معرفته بالله زادت خشيته له وكان أبعد الناس عن المخالفة له في أمره.

(**ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها**) أي الافتخار (**واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة**) لأنه يدل على عدم التفكر في ثواب الله وعقابه، (**فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم اثرها في تسويد قلبه**)

أثرها في تسويد قلبه، حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه، ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى خجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه؟ ويقول المعامل في التجارة: «أما رأيت كيف روّجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

واظلامه، (**حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه**) وملابسته له (**كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه**) وذلك عند المخاصمة (**ويقول المناظر في مناظرته: أما رأيتني كيف فضحته**) في المجلس، (**وكيف ذكرت مساوئه وجهله حتى اخجلته**) وسجلت عليه، (**وكيف استخففت به، وكيف ابست عليه**) في الكلام؟ (**ويقول المعامل في تجارته: أما رأيتني كيف روّجت عليه الزائف**) أي الرديء المبرح، (**وكيف خدعته، وكيف غبنته في ماله، وكيف استحمقته؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر**) وتعظم، (**فان الذنوب مهلكات**) للعبد، (**وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها، فينبغي أن يكون في مصيبة وغم وتأسف بسبب غلبة العدوّ عليه**) فيا وقع فيه، (**وبسبب بعده عن الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه**) بل لا يزال مقيماً على مرضه.

(**ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله إياه ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالامهال إثماً فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله**) فالاغترار بستر الله والاستخفاف بحلمه وإن كان صغيرة لكنه يكبر لأنه يتسبب منه الامن من مكر الله وهو كبيرة، (**كما قال تعالى ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها**) أي يدخلونها (**فبئس المصير﴾**) مصيرهم.

ومنها: أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي أسدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الخبر: «كل الناس معافي إلا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه، وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة. وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:

(**ومنها: أن يأتي الذنب فيظهره بان**) يتحدث به و(**يذكره بعد اتيانه أو يأتيه في مشهد غيره**) أي حيث يشهده ويراه (**فإن ذلك جناية منه على الله الذي أسدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه**) إذ تحدث به (**أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فتغلظت به**) أي بهذا الانضمام، (**فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر، وفي الخبر «كل الناس معافى إلا المجاهرين**) الذين يجاهرون بالذنب والصول به والتظاهر وهذا من الطغيان (**يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه»**) هكذا هو في القوت. وقال العراقي: متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ «كل أمتي» وقد تقدم اهـ.

قلت: لفظ المتفق عليه «كل أمتي معافى إلا المجاهرين وان من الجناية أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عز وجل عنه». وفي رواية «وإن من الجهار» وبخط الحافظ: الإجهار.

وروى الطبراني في الأوسط من حديث أبي قتادة «كل أمتي معافى إلا المجاهرين الذي يعمل العمل بالليل فيستره ربه ثم يصبح فيقول: يا فلان إني فعلت البارحة كذا وكذا فيكشف ستر الله عز وجل».

(**وهذا لأن من صفات الله ونعمه أن يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر**)، وقد ورد ذلك في دعاء مأثور: يا من أظهر الجميل وستر القبيح يا من لم يهتك الستر، (**فالإظهار كفران لهذه النعمة**) وجهل بها وإيثار لضدها ويقال: كل عاص تحت كنف الرحمن فإذا رفع عنه يده انهتك ستره. (**وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان ولا بدّ فلا ترغب، غيرك فيه فتذنب ذنبين**) ولفظ القوت: فلا تحمل غيرك على الذنب فتكسب ذنبين وقد جعل الله ذلك وصفاً من أوصاف المنافقين، (**ولذلك قال تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض**

٦٧]. وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهوّنها عليه.

ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماداً متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه. وفي الخبر: « من سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً »، قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] والآثار ما يلحق من

يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾) الآية، فمن حمل أخاه على ذنب معه فقد أمر بالمنكر ونهي عن المعروف (**وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهوّنها عليه**) نقله صاحب القوت.

(**ومنها: أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه**)، وهذا (**كلبس العالم الإبريسم**) وهو الحرير الخام (**وركوبه مراكب الذهب**) والفضة، (**وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين**) ومن في معناهم، (**ودخوله على السلاطين وتردده عليهم**) في قضاء حوائجه أو حوائج غيره (**ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم**) فيما يظهر له من المنكرات الشرعية (**وإطلاق اللسان في الأعراض وتعديه باللسان في**) اثناء (**المناظرة وقصده الاستخفاف**) بحقوق أخيه المسلم (**واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً**) شائعاً (**في العالم آماداً**) أي أزماناً (**متطاولة**) وتبقى سيئات ذنوبه عليه ما دام يعمل به فيكون وزره عليه حتى ينقرض من عامليه، (**فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه**) ولم يؤاخذ بها بعده، وطوبى لمن لم يعد ذنبه غيره وقد يعيش العبد أربعين سنة ثم يموت فتبقى ذنوبه بعده مائة سنة يعاقب عليها في قبره إذا كان قد اتبع عليها إلى أن تندرس أو يموت كل من عمل بهائم يسقط عنه فيستريح منها، ويقال: أعظم الذنوب من ظلم من لم يعرفه ولم يره من المتقدمين مثل أن يتكلم فيمن سلف من أهل الدين وأئمة المتقين، وهذه المعاني كلها تدخل في الذنب الواحد وهي أعظم منه. (**وفي الخبر « من سنّ سنّة سيئة**) فعمل بها بعده (**فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً »**) وهو قطعة من حديث رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله، وقد تقدم في آداب الكسب والمعاش وفي ذلك (**قال**) الله (**تعالى ﴿ونكتبُ ما قدّموا﴾**) من الأعمال

الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل، وقال ابن عباس: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق. وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها.

وفي الإسرائيليات: أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم؛ قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار، فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والأخرى إخفاؤه وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم، وإن مال إلى التجمل مالت طباع

(﴿**وآثارهم**﴾) أي سننهم التي عمل بها بعدهم وإليه أشار بقوله: (**والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل. وقال ابن عباس**) رضي الله عنه: (**ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس ويذهبون بها في الآفاق**) نقله صاحب القوت، (**وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها**) ولفظ القوت ويغرق الخلق معها.

(**وفي الاسرائيليات: إن عالماً**) من علمائهم (**كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة**) فرجع إلى الله تعالى (**فعمل في الإصلاح دهراً**) أي إصلاح نفسه، (**فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له: إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك**) بالغاً ما بلغ، (**ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار**) نقله صاحب القوت قال: فأما استحلال المعصية واحلالها للغير فليس من هذه الأبواب في شيء إنما ذلك خروج عن الملة وتبديل الشريعة وهو الكفر بالله عز وجل ففي الخبر «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه». (**فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر**) جداً بخلاف غيرهم من العوام (**فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب**) مطلقاً مهما أمكنهم ذلك، (**والأخرى اخفاؤه**) إن قدر على ذلك (**وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب**) إذا ارتكبوها، (**فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا**)، وعمل بها بعدهم، (**فإذا ترك**) العالم (**التجمل والميل إلى الدنيا**) أي من التوسع فيها (**وقنع منها باليسير**) والبلغة (**و**) قنع (**من الطعام بالقوت**) قدر ما يسدّ به رمقه، (**ومن الكسوة بالخلق**) ومن المسكن ما يكنه من البرد والحر (**فيتبع عليه ويقتدى به العلماء**) من أمثاله (**والعوام**) المشاهدون أحواله، (**ويكون له مثل ثوابهم**) من غير أن ينقص من ثوابهم شيء، (**وإن مال إلى التجمل**)

من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك، فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران، وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها.

الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر:

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلاً بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شروط فلا بد من بيانها: **(أما العلم)** فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي. **(وأما الندم)** فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة

والتحفل **(مالت طباع من دونه)** لا محالة **(إلى التشبه به)** في أحواله **(ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين)** ومعاشرة أرباب الأموال **(وجمع الحطام من الحرام)** من حيث كان **(ويكون هو السبب في جميع ذلك)**، ويكون عليهم وزرهم **(فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالربح وإما بالخسران، فهذا القدر كاف في معرفة تفصيل الذنوب التي التوبة توبة منها)** والله الموفق بكرمه.

(الركن الثالث: في دوام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر:) يذكر فيه علامات صحة التوبة وطريق تمامها وكمالها.

اعلم انّا **(قد ذكرنا أن التوبة)** لها أركان أربعة وأنها **(عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً، وذلك الندم أورثه العلم)** فالعلم والندم والعزم والقصد هي أركانها الأربعة التي عليها أساسها **(بكون المعاصي حائلة بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط، فلا بد من بيانها)** بالتفصيل.

(أما) الركن الأوّل الذي هو **(العلم، فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وتقويته وكماله باسباب منها مجالسة الصالحين والمذكرين بالله والسؤال عن شؤم المعاصي وما رتب عليها من العقوبات العاجلة، وملازمة الشيخ أنفع من هذا كله فإنه الدرياق النافع وسيأتي)** بيان ذلك.

(وأما) الركن الثاني الذي هو **(الندم؛ فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب)** كما تقدم في أوّل الكتاب **(وعلامته)** أي علامة صحته وكماله **(طول الحسرة والحزن)** ورقة القلب **(وانسكاب الدمع وطول البكاء)** وذبول البدن وسكون القلب، وهذا هو الإخبات الآتي

بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعز عليه من نفسه وأي عقوبة أشد من النار وأيّ شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمي طبيباً أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه، لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع، وفي الخبر: «جالسوا التوّابين فإنهم أرق أفئدة»، ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة.

وفي الإسرائيليات: إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ـ وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال ـ وعزتي وجلالي لو شفع فيه

ذكره لأن حقيقة الإخبات الإدمان والانقياد للحق بسهولة، (**فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته**) من أقاربه وأخصائه (**قال عليه مصيبته وبكاؤه**) واشتد عليه حزنه وعناؤه. (**وأي عزيز أعز عليه من نفسه، وأي عقوبة أشد من النار، وأي شيء أدل من نزول العقوبة من المعاصي، وأي مخبر أصدق من الله ورسوله ولو أخبره انسان واحد يسمى طبيباً أن ولده المريض لا يبرأ**) من مرضه (**وأنه سيموت منه لطال في الحال حزنه**) وعظم وجده، (**فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم، ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار، فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب**) وذبول البدن (**وغزارة الدمع، وفي الخبر «جالسوا التوّابين فإنهم أرق أفئدة»**) هكذا في القوت. قال العراقي: لم أجده مرفوعاً وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة قال «جالسوا التوّابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب» وقال أيضاً: «والموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب» وقال أيضاً «التائب أسرع دمعة وأرق قلباً» انتهى.

قلت: سبق للمصنف قريباً أنه من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكن بلفظ «اجلسوا إلي التوّابين».

(**ومن علامته**) أي علامة صحته (**أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً من حلاوتها فيتبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة**) مع التلهف والتأسف والاحتراق.

(**وفي الإسرائيليات: إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله**) ذلك النبي (**قبول توبة عبد بعد ان اجتهد سنين في العبادة فلم ير قبول توبته فقال: وعزتي وجلالي**

أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه.

فإن قلت: فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها؟ فأقول: من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا؟ فإن قلت: لا، فهو جحد للمشاهدة والضرورة، بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضاً لشبهة به، فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان. ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة والتائبون، فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى متهاوناً بالذنوب مصرًّا عليها، فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم إلى الموت وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه، ولم يكن ضرر التائب

لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته، وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه) نقله صاحب القوت.

(**فإن قلت: فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع)** أي أن الانسان يشتهيها بموجب طبعه الذي جبل عليه، (**فكيف يجد مرارتها)** وكيف يتمكن من قلبه؟ (**فأقول: من تناول عسلاً كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه)** كما هي خاصية من يتناول السمومات، (**فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن)** تناول (**ذلك العسل أم لا؟ فإن قلت: لا)** تنفر (**فهو جحد للمشاهدة والضرورة)** أي إنكار لها، (**بل)** الحق أنه (**ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضاً لشبهه به، فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون، وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم، ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان. ولما عزّ مثل هذا الإيمان)** أي ندر (**عزت التوبة والتائبون)** وقلّ وجودها ووجود من يتصف بها، (**فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى متهاوناً بالذنوب مصراً عليها، فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم)** هذا الشرط (**إلى الموت وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل، كما يجد متناول السم في العسل النفرة عن)** شرب (**الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم، إذ لم يكن ضرره من العسل نفسه بل مما فيه)** وهو السم، (**ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه**

من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالى وذلك في كل ذنب.

وأما القصد الذي ينبعث منه؛ وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال؛ وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال. وله تعلق بالماضي؛ وهو تدارك ما فرط. وبالمستقبل؛ وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت.

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً ونفساً نفساً وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

من حيث أنه سرقة وزنا بل من حيث أنه مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب) على العموم.

(وأما) الركن الثالث الذي هو **(القصد)** أي الترك **(الذي ينبعث منه وهو ارادة التداول فله تعلق)** بالحال وبالماضي وبالاستقبال. اما تعلقه **(بالحال)** أي الحالة الراهنة، **(وهو موجب ترك كل محظور)** شرعي **(هو ملابس له)** والخروج عنه في الحال، **(وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال. وله تعلق بالماضي؛ وهو تدارك ما فرط)** منه فيما مضى من الزمان وله تعلق **(بالمستقبل، وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت)**.

(وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يردده فكره) من ساعة توبته **(إلى أول يوم)** غفلته منذ **(بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش على ما مضى من)** أحواله في **(عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً ونفساً نفساً ينطر إلى الطاعات ما الذي قصد فيه منها وإلى المعاصي ما الذي فارقه منها)** فيقابل كل سيئة بحسنة من جنسها.

(فإن كان قد ترك صلاة) من الخمس **(أو صلاّها في ثوب نجس)** أو بدن نجس أو مكان نجس **(أو صلاّها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية)** على ما ذكر في كتاب الصلاة **(فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن الذي يصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد)**.

وأما الصوم ؛ فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقض ؛ فيتعرّف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه.

وأما الزكاة ، فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أوّل ملكه ـ لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي ـ فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته ، فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضي جميع ذلك ، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً ، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء .

وأما الحج ، فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما

(وأما الصوم؛ فإن كان قد تركه في سفر أو لمرض) عرض له **(ولم يقضه أو أفطر عمداً)** أي متعمداً **(أو نسي النية بالليل ولم يقض)** بعد **(فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه)** ، وفي نسيان النية بالليل خلاف في مذهب أبي حنيفة ومالك كما تقدم في كتاب الصوم.

(وأما الزكاة؛ فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه) لذلك المال **(لا من زمان البلوغ، فإن الزكاة واجبة في مال الصبي)** خلافاً لأبي حنيفة كما تقدم في كتاب الزكاة، **(فيؤدي ما علم بغالب الظن انه في ذمته، فإن أداه لأعلى وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية)** المذكورة في القرآن، بل إلى بعضها كما هو مذهب أبي حنيفة **(أو أخرج البدل)** كما هو مذهب أبي حنيفة **(وهو على)** مذهب الإمام **(الشافعي)** رحمه الله تعالى، **(فيقضي جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلاً)** وتقدم التفصيل في كل من المسألتين في كتاب الزكاة، **(وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف)** واحتياط وافٍ **(ويلزمه)** مع ذلك **(أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من)** أفواه السادة **(العلماء)**ليعمل بموجب ما يرشدونه إليه.

(وأما الحج؛ فإن كان قد استطاع) الزاد والراحلة مع أمن الطريق **(في بعض السنين)** من عمره **(ولم يتفق له الخروج)** تهاوناً وتكاسلاً وتسويفاً **(والآن قد أفلس)** أي صار عديم المال **(فعليه الخروج)** إلى الحج، **(فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد)** والراحلة، **(فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من**

يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً قال عليه السلام : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً » والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج ، فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصي ؛ فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من

الزكاة أو الصدقات ما يحج به) ولا يسقط عنه الحج ، **(فإن مات قبل الحج مات عاصياً . قال ﷺ : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً »)** رواه البيهقي والدارقطني في حديث أبي أمامة بلفظ « من لم يمنعه من الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً » وقد تقدم في كتاب الحج ، **(والعجز الطارىء)** أي العارض **(بعد القدرة لا يسقط عنه الحج)** وقد تقدم الكلام عليه في كتاب الحج . **(فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها)** .

(وأما المعاصي : فينبغي أن يفتش من أوّل بلوغه) إلى وقت التوبة **(عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ، ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد)** . اعلم أن الترك المتعلق بالماضي الذي هو التدارك لما فرط من أمره هل تتوقف صحة التوبة على هذا وهذا هو الغاية المقصودة ، وأما من أجاز الصحة فيكتفي بالعلم والندم والعزم والترك في الحال ، والصحيح الذي مشى عليه المصنف أن فيه تفصيلاً ، لأن المعاصي المرجوع عنها إما أن تكون قاصرة الضرر على المذنب أو متعدية إلى غيره فالقاصرة منها ما يقبل القضاء كالصلاة والصيام والزكاة والحج وقد ذكرها المصنف ، ومنها ما لا يقبل القضاء إليه الإشارة بقوله : **(كنظر إلى غير محرم)** أو لمس **(وقعود في مسجد مع الجنابة)** أي اللبث فيه على غير طهارة **(ومس مصحف بغير وضوء)** ولا تيمم **(واعتقاد بدعة)** غير مخرجة من الملة **(وشرب خمر وسماع ملاهٍ وغير ذلك)** كإلقاء المال في البحر وإنفاقه في المعصية وما أشبه ذلك **(مما لا يتعلق بمظالم العباد)** ولا يقبل القضاء ، **(فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها)** والترك والعزم على أن لا يعود ، **(وبأن يحسب مقدارها من حيث**

حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذاً من قوله ﷺ: «اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، بل من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مس المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله وبأن يكتب مصحفاً ويجعله وقفاً، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه، وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة فإن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان

الكثرة ومن حيث المدة ويطلب لكل سيئة منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات مقدار تلك السيئات أخذاً من قوله ﷺ) لأبي ذر رضي الله عنه: (**«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها)** وخالق الناس بخلق حسن» رواه الترمذي وصححه وتقدم أوله في كتاب آداب الكسب، وبعضه في كتاب رياضة النفس، وبعضه في هذا الكتاب قريباً، (**بل من قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر)** والعلم، (**ويكفر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة)** بأنواعها، (**ويكفر مس المصحف محدثاً باكرام المصحف وكثرة القراءة منه وكثرة تقبيله)** ووضعه على العينين ورفعه في أشرف المواضع، (وبأن يكتب مصحفاً) بخطه (**ويجعله وقفاً**) على المسلمين يقرأون فيه، (**ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب** حلال هو أطيب منه وأحب **إليه)** بان يتصدق بشرب السكر مثلاً يجعله في كيزان ويسقي الناس في المجامع أو يقف به في ممر الناس في أوقات شدة الحر والعطش. (**وعدّ جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك طريق المضادة فإن المرض إنما يعالج بضده)** ليقاومه فيعتدل المزاج (**وكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور ارتفع إليها بطاعة من جنسها لكن تضادها، والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها، فإن البياض يزال بالسواد)** فإنه ضده (**لا بالحرارة والبرودة)** والحرارة تزال بالبرودة وبالعكس لا باليبوسة والرطوبة، (**وهذا التدريج من التلطف في تحقيق طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً في**

ذلك أيضاً مؤثراً في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال ﷺ : « مِنَ الذُّنُوبِ ذنوب لا يكفرها إلا الهموم » ، وفي لفظ آخر : « إلا الهم بطلب المعيشة » . وفي حديث عائشة رضي

المحو) وكذا إن فعل أنواعاً من العبادات ولكنها ليست من جنس المعاصي المرجوع عنها ، فإنها مؤثرة في المحو كذلك ، وقد روى الخطيب من حديث أنس « إذا كثرت ذنوبك فاسق الماء على الماء تتناثر كما يتناثر الورق من الشجر في الريح العاصف » . **(فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ، ويدل على أن الشيء يكفر بضده « إن حب الدنيا رأس كل خطيئة »)** كما ورد في الخبر وتقدم الكلام عليه ، **(وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها ، فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذا القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم)** أي يتباعد .

(قال ﷺ : « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهموم » وفي لفظ آخر : « إلا الهم بطلب المعيشة ») ولفظ القوت : أعلم أن الغم على ما يفوت من الدنيا والهم والحرص عليها من العقوبات ، والفرح والسرور بما نال من الدنيا مع ما لا ينال بما فرح من ذنبه من العقوبات ، وقد كان عقوبة الذنب ذنباً مثله وأعظم منه ، كما يكون ثواب الطاعة طاعة مثلها أو أفضل منها ، وقد يكون دوام العوافي وإتساع الغنى من عقوبات الذنوب إذا كانا سببين إلى المعاصي ، وفي إحدى الوجوه من معنى قوله : ﴿وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ [آل عمران : ١٥٢] قال : الغنى والعافية ، فقد صار الفقر والمرض رحمة من الله تعالى إذا كانا سببين للعصمة . وفي الخبر : « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة » وفي لفظ آخر : « الهموم » فالهموم والأحزان بالمباحات من حاجات الدنيا كفارات وهي على ما تقرر من قربات الآخرة للمؤمنين درجات وهي على حسب الدنيا والجمع منها والحرص عقوبات انتهى .

والحديث المذكور قال العراقي : رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية ، والخطيب في تلخيص المتشابه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ، وتقدم في النكاح انتهى .

قلت : لفظ الطبراني ، وأبي نعيم : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الوضوء ولا الحج ولا العمرة » قيل : فما يكفرها يا رسول الله؟ قال : « الهموم بطلب المعيشة » . وهكذا رواه ابن عساكر أيضاً وهو غريب جداً ، وفيه يحي بن يوسف بن يعقوب الرقي وهو ضعيف . وفي لفظ : « لا تكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج ويكفرها الهم في طلب المعيشة » . ورواه الخطيب في تلخيص المتشابه بنحوه من طريق يحي بن بكير ، عن مالك ، عن محمد بن عمرو بن علقمة ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة به وفي لفظ : « عرق الجبين » بدل « الهم » . وللديلمي من حديث أبي هريرة : « إن في

الله عنها: « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه »، ويقال: إنّ الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع.

فإن قلت: همّ الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة، فقد روي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له: كيف تركت الشيخ

الجنة درجة لا ينالها إلا أصحاب الهموم » يعني في المعيشة. وروى الخطيب في المتفق والمفترق عن أبي عبيد عن أنس رفعه: « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج يكفرها الهموم في طلب المعيشة ». قال الأزدي أبو عبيد عن أنس شبه لا شيء.

(وفي حديث عائشة رضي الله عنها: « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه ») ولفظ القوت: ولم تكن له من الأعمال ما يكفر ادخل إليه الهموم والغموم. قال العراقي: تقدم أيضاً في النكاح، وهو عند أحمد من حديث عائشة ابتلاه الله بالحزن انتهى.

قلت: ذكر هناك أن فيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، ولفظ أحمد في المسند: « إذا كثرت ذنوب العبد فلم يكن له من العمل ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه » قال المنذري: رواته ثقات إلا ليث بن أبي سليم. وقال الهيثمي: فيه ليث وهو مدلس وبقية رجاله ثقات، ولكن حسنه الحافظ السيوطي وكأنه رجح جانب التوثيق فيه والله أعلم.

(ويقال: إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب، والهم بها، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع) ولفظ القوت ويقال: إن الهم الذي يعرض للقلب في الوقت لا يعلم العبد سببه هو كفارة الهم بالخطايا، ويقال: هو حرز العقل عند تذكرة الوقوف والمحاسبة لأجل جنايات الجسد فيلزم العقل ذلك فيظهر على العبد منه كآبة لا يعرف بها سبب غمه.

(فإن قلت: هم الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة؟ فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة، فقد روي) في أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه: لولا ما سبق لك من علمي من عنايتي بك لجعلت نفسي عندك أبخل الباخلين لكثرة ترددك عليّ وطول سؤالك لي وتأخير إجابتك، ولكن من عنايتي بك أن جعلت نفسي في قلبك أني أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين، وقد سبقت لك عندي منزلة لم تكن تنالها بشيء من عملك إلا بحزنك على يوسف، فأردت أن أبلغك تلك المنزلة. وكذلك روي **(أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له)** يوسف:

الكئيب؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال: فما له عند الله؟ قال: أجر مائة شهيد. فإذن الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً، فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح

(يا أخي كيف تركت الشيخ الكبير) وفي نسخة الكئيب؟ **(فقال: قد حزن عليك حزن مائة ثكلى. قال)** يوسف: **(فما)** ذا **(له عند الله؟ قال: أجر مائة شهيد)** كذا في القوت.

قلت: أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم عن السدي قال: أتى جبريل عليه السلام يوسف عليه السلام وهو في السجن فسلم عليه وجاءه في صورة رجل حسن الوجه طيب الريح نقي الثياب، فقال له يوسف: أيها الملك الحسن وجهه الكريم على ربه، الطيب ريحه حدثني كيف يعقوب. قال: حزن عليك حزناً شديداً. قال: فما بلغ من حزنه؟ حزن سبعين مثكلة. قال: فما بلغ من أجره؟ قال: أجر سبعين شهيداً. قال يوسف: من آوى بعدي؟ قال: إلى أخيك بنيامين. قال: فتراني ألقاه؟ قال: نعم فبكى يوسف لما لقي أبوه ثم قال: ما أبالي ما لقيت إن الله أرانيه. وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ليث بن سليم نحوه. وأخرجه من طريق ليث عن ثابت البناني نحوه، عن ليث بن سليم نحوه من طريق ليث، عن مجاهد نحوه وعن عبدالله بن أبي جعفر نحوه. وأخرجه عبد بن حميد، وأبو الشيخ عن وهب بن منبه نحوه، وأخرجه ابن جرير عن عكرمة نحوه، وفيه أجر سبعين ثكلى. وعن الحسن وفيه وجد سبعين ثكلى وأجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل ولا نهار.

(فإذاً الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله) عز وجل، **(فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى)** والذي يقبل القضاء فتصح أيضاً توبته، ولكن يجب عليه قضاء ما فات لأن التوبة عبادة الوقت لوجوبها على الفور وقد قام بها ولا وقت لها معين والذمة مشغولة به، وهذا الحكم في المعاصي المتعدي ضررها إلى الغير وأجناسها ثلاثة: في النفس والمال والعرض، وفي كل واحد من هؤلاء حق لله وحق للعبد، أما حق الله فقد كفرته التوبة، وأما حق العبد فلا بدّ منه وإلى ذلك أشار المصنف بقوله:

(وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً) في آي كثيرة وأخبار صحيحة، **(فمتى تعلق به حق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل)** وبه تمت أركان التوبة، وقد أشار إلى كلها فقال: **(والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها)** أي المعاصي **(فيقابل إيذاء الناس)** أي إن كان

فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب، لأن ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه فيقابل الإعدام بالإيجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة، ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الإعراض أو القلوب أعني به الإيذاء المحض.

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول. وإن كان عمداً موجباً للقصاص

آذاهم **(بالإحسان إليهم، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق)** على الفقراء **(بملك الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين)** والصلاح **(وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله)** وبث ذلك بين الناس، **(ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء، إذا العبد مفقود لنفسه موجود لسيده فالإعتاق إيجاد)** أي بمنزلته **(لا يقدر الإنسان على أكثر منه)** إذ ليس في وسعه الإيجاد الحقيقي فجعل الإعتاق قائماً مقامه رحمة من الله على عباده ومنة منه عليهم **(فيقابل الإعدام)** الذي هو قتل النفس **(بالإيجاد)** الذي هو عتق الرقبة، **(وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة)** وهذا من الأسرار الإلهية التي يدركها الإخواص البشر، **(ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب. أعني به الإيذاء المحض)**.

(أما النفوس: فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية) وهي المال الذي هو بدل النفس **(ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول)** والخطأ قتل بمباشرة وهو أن يرمي شخصاً يظنه صيداً أو حربياً. فإذا هو مسلم. فهذا خطأ في القصد، أو يرمي غرضاً فيصيب آدمياً فهذا خطأ في الفعل ويلحق به ما يجري مجراه كان يكون في حالة النوم فتغلب على إنسان فقتله، والدية إثنا عشر ألفاً عند مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة عشرة آلاف، وعنده دية المسلم والذمي سواء. وقال مالك: دية الذمي ستة آلاف درهم. وقال الشافعي: دية الكتابي أربعة آلاف، ودية المجوسي ثمانية ودية المرأة نصف دية الرجل عند الكل **(وإن كان عمداً موجباً للقصاص)** بأن كان بسلاح ومشابهه في تفريق الأجزاء وإلا فهو شبه العمد. قال الشافعي: هو أن يتعمد للضرب بآلة لا يقتل مثلها غالباً كالعصا والسوط والحجر الصغير، ووافقه أبو يوسف ومحمد، وقال أبو حنيفة: شبه العبد أن يتعمد الضرب بما لا يفرق

فبالقصاص، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين، فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روي أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد

الأجزاء كالعصا والحجر واليد، ولهذا لو ضربه بحجر عظيم أو خشبة فهو عمد عندهم خلافاً له، ولو ضربه به بسوط صغير ووالى في الضربات حتى مات فهو عمد يقتص به عند الشافعي خلافاً لنا. (**فبالقصاص**) فتوبته بأن يقتص منه قال الله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ الآية [البقرة: ١٧٨] وللشافعي في موجب العمد قولان.

أحدهما: القصاص إلا إذا عفا الولي فله أن يختار أخذ الدية بغير رضا القاتل، لأن أخذ المال تعين سبباً لدفع الهلاك، فيجوز بدون رضاه كمن أصابته مخمصة فبذل له إنسان طعاماً بثمن المثل لزمه الشراء لأنه يملك ما يحيي به نفسه بعوض يعدله.

والثاني: القصاص أو الدية ويتبين ذلك باختيار الولي. وقال أبو حنيفة: موجب العمد القود وهو واجب عيناً وليس للولي أخذ الدية إلا برضا القاتل، إلا أن يعفو الأولياء إذ وجوب المال عند المصالحة برضا القاتل في ماله، فيجب بدل الصلح قليلاً أو كثيراً في ماله على ما اصطلحوا عليه من تعجيل أو تأجيل أو تنجيم وإن لم يذكر شيئاً كان المال حالاً كسائر المعاوضات عند الإصطلاح أو صلح بعضهم أو عفوه فيجب بقية الدية على العاقلة، (**فإن لم يعرف**) بالقتل (**فيجب عليه أن يعترف**) به (**عند ولي الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا، ولا يجوز له الإخفاء**) ومتى أخفي كان آثماً غير إثم القتل، (**وليس هذا كما لو زني**) بامرأة (**أو شرب**) خمراً (**أو سرق**) شيئاً ذا قيمة (**أو قطع الطريق**) على المسلمين (**أو باشر ما يجب عليه فيه حدّ الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه**) بين الناس (**ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى**) عنه، (**بل عليه أن يستتر بستر الله تعالى ويقيم حدّ الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب مع الندم وهو التأسف، فعفو الله في محض حق الله تعالى قريب من التائبين النادمين**) فإن من تاب إلى الله تعالى ونزع مما صدر منه يرجى أن يعفى عنه، (**فإن رفع أمره إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روي أن ماعز بن مالك**) الأسلمي رضي الله عنه قال ابن حبان له صحبة (**أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول**

ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني، فرده فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم، فكان الناس فيه فريقين: فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»،

الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني) أي بإقامة الحد **(فردّه، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت فردّه الثانية، فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم، فكان الناس فيه فرقتين فقائل يقول: لقد هلك ولقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أصدق)** وفي نسخة: أفضل **(من توبته. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قسمت بين)** وفي نسخة على **(أمة لو سعتهم»)** قال العراقي: رواه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب انتهى.

قلت: لفظ مسلم من حديث بريدة قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني. فقال: «ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه» فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني، فقال النبي ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «مم أطهرك»؟ فقال: من الزنا. فقال رسول الله ﷺ: «أبه جنون»؟ فأخبر أنه ليس بمجنون فقال: «أشربت خمراً»؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال، فقال رسول الله ﷺ: «أزنيت»؟ فقال: نعم، فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين قائل يقول لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول ما توبة أفضل من توبة ماعز إنه جاء إلى رسول الله ﷺ فوضع يده ثم قال: اقتلني بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال: «استغفروا لماعز بن مالك، فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قسمت بين امة لوسعتهم». وأخرجه أبو داود مختصراً.

ولمسلم أيضاً من حديث بريدة أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني فردّه، فلما كان من الغداة أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت فردّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال: «تعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعه حفر له حفرة ثم أمر به فرجم. وهذا السياق متصل بحديث الغامدية الآتي ذكره، والمصنف جمع بين البابين لما وجدهما من رواية صحابي واحد.

وروى أبو داود والنسائي عن عبد الرحمن بن الصامت أنه سمع أبا هريرة يقول: جاء الأسلمي نبي الله ﷺ فشهد على نفسه أنه أصاب امرأة حراماً أربع مرات كل ذلك يعرض عنه فأقبل في الخامسة فقال: «أنكتها». هذا لفظ أبي داود، ولفظ النسائي: «نكحتها» ثم اتفقا فقالا: قال نعم.

وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني! فردها فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن ترددني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى؛ فقال ﷺ: «أما الآن فاذهبي حتى تضعي» فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته قال: «اذهبي فارضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت: يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام! فدفع الصبي إلى رجل من

قال: «كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر» قال: نعم. قال: «فهل تدري ما الزنا»؟ قال: نعم أتيت منها حراماً ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «فما تريد بهذا القول»؟ قال: أريد أن تطهرني فأمر به فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه: انظروا إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى يرجم رجم الكلب فسكت عنهما، ثم سار ساعة حتى مرّ بجيفة حمار شائل برجله فقال: «أين فلان وفلان»؟ فقالا: نحن ذان يا رسول الله. قال: «أنزلا فكُلا من جيفة هذا الحمار» فقالا لا: يا نبي الله من يأكل من هذا؟ قال: «فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشد من أكلكما منه، والذي نفسي بيده إنه الآن في أنهار الجنة ينغمس فيها». وقد تقدم هذا الحديث في كتاب ذم الغيبة. وروى الترمذي وقال: حسن غريب من حديث علقمة بن وائل عن أبيه بلفظ: «لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم» وروى الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس بلفظ: «لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لقبلت منه» يعني ماعزاً. وقال الحافظ في الإصابة في ترجمة ماعز ثبت ذكره في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة، وزيد بن خالد وغيرهما، وجاء ذكره في حديث أبي بكر الصديق، وأبي ذر، وجابر بن عبدالله، وجابر بن سمرة، وبريدة بن الحصيب، وابن عباس، ونعيم بن هزال وأبي سعيد الخدري، ونصر الأسلمي، وأبي برزة سماه بعضهم وأبهمه بعضهم، وفي بعض طرقه أن النبي ﷺ قال: «لقد تاب توبة لو تابها طائفة من أمتي لأجزأت عنهم» وفي صحيح ابن عوانة وابن حبان وغيرهما من طريق أبي الزبير عن جابر أن النبي ﷺ لما رجم ماعز بن مالك قال: «لقد رأيته يتخضخض في أنهار الجنة ويقال: إن اسمه عريب، وماعز لقب انتهى.

ثم قال مسلم عقيب حديث ماعز قال: **(وجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني فردّها، فلما كان من الغد قالت: يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى قال: «أمالا»)** هكذا في نسخ مسلم وهو بفتح الهمزة وتشديد الميم بعدها لا نافية وفيه لغات ذكرتها في آخر شرح القاموس، ولغة النبي ﷺ بالإمالة فيه أمالي، ويوجد في سائر نسخ الكتاب الآن وهو غلط **(فاذهبي حتى تلدي» فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته. قال: «اذهبي فارضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت: يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل**

المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها فأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع رسول الله ﷺ سبه إياها فقال: «مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت».

من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها) حفرة **(إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل)** وفي لفظ فيقبل وهكذا في مسلم **(خالد بن الوليد)** رضي الله عنه **(بحجر فرمى رأسها فتنضح)** أي ترشش **(الدم على وجهه فسبّها، فسمع رسول الله ﷺ سبّه إياها فقال: «مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت»)**. قال العراقي: رواه مسلم من حديث بريدة وهو بعض الحديث الذي قبله انتهى.

قلت: ولم يخرج البخاري عن بريدة في هذا شيئاً ولا ذكر حديث هذه المرأة، وإنما ذكر حديث المرأة والعسير، ورواه أبو داود والنسائي مختصراً من رواية عبدالله بن بريدة عن أبيه: أن امرأة يعني من غامد، أتت النبي ﷺ فقالت: إني قد فجرت، فقال: «ارجعي» فرجعت، فلما كان الغد أتته فقالت: لعلك أن تردني كما رددت ماعز بن ماالك، فوالله إني لحبلى، فقال لها: «ارجعي حتى تلدي» فرجعت، فلما كان الغد أتته فقال: «ارجعي حتى تلدي» فرجعت فلما ولدت أتته بالصبي فقالت: قد ولدت، فقال لها: «ارجعي فارضعيه حتى تفطميه» فجاءت به وقد فطمته وفي يده شيء يأكله فأمر بالصبي فدفع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها فرجمت، وكان خالد فيمن يرجمها فرجمها بحجر فوقعت قطرة من دمها على وجهه فسبها فقال له النبي ﷺ: «مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له وأمر بها فصلى عليها ودفنت» وكذلك رواه أحمد. وحديث مسلم أتم من هذا يشتمل على قصة ماعز وقصة الغامدية. قال المنذري في مختصر أبي داود في إسناده بشر بن المهاجر الغنوي الكوفي وليس له في صحيح مسلم سوى هذا الحديث، وقد وثقه يحيى بن معين، وقال أحمد: منكر الحديث يجيء بالعجائب مرجيء متهم، وقال: في أحاديث ماعز كلها أن ترد يده إنما كان في مجلس واحد إلا ذاك الشيخ بشر بن المهاجر، وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه غيرها ولا عيب على مسلم في إخراج هذا الحديث، فإنه أتى به في الطبقة الثانية بعد ما ساق طرق حديث ماعز، وأتى به آخراً ليبين إطلاعه على طرق الحديث والله أعلم.

وروى مسلم، وأبو داود، والترمذي والنسائي من حديث عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت النبي ﷺ فقالت: إنها زنت وهي حبلى، فدعا النبي ﷺ ولياً لها فقال له رسول الله ﷺ أحسن إليها فإذا وضعت فجيء بها» فلما وضعت جاء بها فأمر بها النبي ﷺ فشكت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم أمرهم فصلوا عليها، فقال عمر: يا رسول الله نصلي عليها وقد زنت؟ قال:

وأما القصاص، وحدّ القذف: فلا بدّ من تحليل صاحبه المستحق فيه، وإن كان المتناول مالاً قد تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه

« والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جاءت بنفسها لله » لم يقل أبو داود عن أبان فشكت عليها ثيابها. وحكى أبو داود عن الإوزاعي قال: فشكت عليها ثيابها - يعني بشدة - ورواه كذلك أحمد وابن جرير، وذكر الحافظ أبو بكر الخطيب في كتاب المبهمات حديث الغامدية وقال: رواه عمران بن حصين، وقال لامرأة من جهينة واسم هذه المرأة سبيعة وقيل: آسية بنت الفرج وساق شاهدها وقد جاء في بعض طرقه بأنها القريشية، وليس بين هذه النسب اجتماع. وظاهر كلام الخطيب أنها امرأة واحدة، واختلف في نسبها هكذا نقله المنذري عن الخطيب.

قلت: آسية بنت الفرج جرهمية أورد ابن منده قصتها من طريق أيوب بنت الفرج امرأة من جرهم، وكان مسكنها الحجون بمكة فذكرها بطولها، وقيل: هي سبيعة بنت الحرث الأسلمية، وقيل هي امرأة من قريش وهي غير الأسلمية أوردها هبة الله في الناسخ والمنسوخ، وروى ابن منده من رواية عبيد بن عمير عن عائشة قالت: سمعت سبيعة القرشية قالت: يا رسول الله إني زنيت فاقم عليّ حدّالله فقال: « إذهبي حتى تضعي » فذكر الحديث. قال الحافظ في الإصابة: سنده ضعيف، وأخلق بها إن ثبت خبرها أن تكون هي سبيعة الأسلمية انتهى.

قال المنذري وذكر بعضهم أن حديث عمران بن حصين فيه أنه قد أمر برجمها حين وضعت ولم يستأن بها، وكذا روي عن علي أنه فعل بشراحة رجمها لما وضعت، وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأصحاب الرأي. وقال أحمد وإسحاق: تترك حتى تضع ما في بطنها ثم تترك حولين حتى تفطمه، ويشبه أن يكونا ذهبا إلى حديث بريدة، وحديث عمران أجود إسناداً. وقال بعضهم: يحتمل أن تكونا امرأتين إحداهما وجد لولدها كفيل وقبلها، والأخرى لم يوجد لولدها كفيل أو لم يقبل فوجب إمهالها حتى يستغني عنها لئلا يهلك بهلاكها، ويكون الحديث محمولاً على حالين ويرتفع الخلاف، والله أعلم.

(وأما القصاص، وحد القذف فلا بدّ من تحليل صاحبه المستحق فيه) فإن شاء اقتص وإن شاء عفا وكذا في حد القذف، **(وإن كان المتناول مالاً قد تناوله بغصب)** بأن استولى عليه عدواناً **(أو خيانة)** بأن كان أمانة عنده ففرط فيه **(أو غبن في معاملة بنوع تلبيس)** أي تخليط **(كترويج زائف)** أي المبهرج الرديء وترويجه تزيينه وتمشيته **(أو ستر عيب من المبيع)** سواء كان العيب خفياً أو ظاهراً **(أو نقص أجرة أجير)** استأجره بأن يعطيه أقل مما يعطي أمثاله **(أو منع أجرته)** مطلقاً **(فكل ذلك يجب أن يفتش عنه)** ويبحث **(لا من حد بلوغه**

لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به، إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أوّل يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة، وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإذا حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الإجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطليهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم، وهذه التوبة تشق على الظلمة على التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين. كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره. فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق

بل من أول مدة وجوده، فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيه) فإن ادعى الولي أنه أخرج ما يجب عليه من ماله وظهرت القرائن بصدقه صدق، **(فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به)** يوم القيامة **(إذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحبة والدانق)** أي القليل منه والأقل **(من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة)** بين يدي الله تعالى، **(وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه، فإذا حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الإجتهاد ممكن فليكتبه)** في جريدة، **(وليكتب أسامي أصحاب المظالم)** فيها **(واحداً واحداً، وليطف في نواحي العالم)** وأطرافها **(وليطلبهم)** بأعيانهم **(وليستحلهم)** أي يطلب منهم أن يحللوا له، **(أو ليؤد حقوقهم)** المرتبة بذمته، فإن لم يجدهم بأعيانهم فورثتهم الأقرب فالأقرب، **(وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم)** ولا المظلومين كلهم **(ولا على طلب ورثتهم)** في أقطار البلاد، **(ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه)** ويستطيعه، **(فإن عجز)** عن ذلك **(فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات)** في صحائف أعماله **(حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته)** تلك **(وتوضع في موازين أرباب المظالم)** كما ورد في الخبر وتقدم ذكره. **(وليكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئة أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره)** كما هو الخبر السابق ذكره، **(فهذه طريق كل تائب)** عن المظالم **(في رد المظالم)** ولا يخفى أن **(هذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول**

العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريباً؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات. هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً وما لا يعرف له مالكاً فعليه أن يتصدق به، فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالإجتهاد ويصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام.

وأما الجناية: على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم في الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة، وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته، فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو

مدة الظلم، فكيف وذلك مما لا يعرف، ربما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون تشمره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشمره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته) وفي عهدته.

(أما أمواله الحاضرة فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً وما لا يعرف له مالكاً) معيناً، **(فعليه أن يتصدق به)** على من يستحق من الفقراء، **(فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك القدر كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام فلا نعيده ثانياً)**.

(وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسؤهم) أي يحزنهم **(أو يعيبهم في الغيبة، فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم ومن مات)** منهم **(أو غاب)** غيبة طويلة، **(فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة)** عند المحاسبة، **(وأما من وجده وأحله بطيب)** قلب **(منه وانشراح)** صدر، **(فذلك كفارته وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له والاستحلال المبهم لا يكفي)** كما تقدم بيانه في كتاب ذم الغيبة، **(وربما لو عرف ذلك وتعديه عليه)** ورد في نسخة وكثرة تعديه عليه **(لم تطب نفسه بالاحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته، فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو**

أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شوفه به فقد انسدّ عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فإن هذا حقه، فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودّده وتلطفه سمحت نفسه بالإحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه، كمن أتلف في الدنيا مالاً فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم

ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو جارية **(أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه)** بحيث يعظم أذاه مهما شوّفه **(به، فقد أفسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها)** بلا تعيين جناية، **(ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب)**.

(فأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جناية وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمه عليه) في ذمته، **(فإن هذا حقه فعليه أن يتلطف به)** في القول **(ويسعى في)** قضاء **(مهماته وأغراضه)** الدنيوية، **(ويظهر من حب له والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإن الانسان عبد الإحسان)** كما هو المشهور على الألسنة، وفي معناه قولهم: الإنسان الاحسان أي يتقيد عند الإحسان فيحب المحسن إليه بطبعه، ويميل إليه بقلبه، وفي كلام علي رضي الله عنه: أحسن إلى من شئت تكن أميره أي يكون هو بمنزلة الأسير لك وأنت بمنزلة الأمير عليه، **(وكل من نفر)** عنك **(بسيئة مال)** إليك **(بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال)** لا محالة، **(فإن أبى إلا الإصرار)** على عدم السماح **(فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر وزاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في القيامة بحكم الله به عليه)** وهذا **(كمن أتلف في الدنيا مالاً)** لآخر، **(فجاء)** المتلف **(بمثله فامتنع من له المال عن القبول وعن الابراء، فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى)** رضي

أبي، وكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين.

وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذ انصف الطريق أتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب انه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتها كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»، وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل

أم كره، (**وكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين**) جلّ جلاله. (**وفي المتفق عليه من الصحيحين**) أي فيما اتفق على إخراجه البخاري ومسلم (**عن أبي سعيد الخدري**) رضي الله عنه (**أن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض**) أي أكثرهم علماً (**فدلّ على راهب فأتاه فقال: إنه**) يعني نفسه (**قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا . فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض**) أي أكثرهم عالماً ليذهب إليه فيستفتيه عن حاله (**فدلّ على رجل عالم فقال له: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة**) أي هل تصح توبته أو تقبل توبته؟ (**قال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا**) وسماها له (**فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذ انصف الطريق أتاه ملك الموت**) ولفظ مسلم «أتاه الموت» (**فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم**) ولفظ مسلم: فجعلوه بينهم (**فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتها كان أدنى**) أي أقرب (**فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته**) بها (**ملائكة الرحمة؟**) هذا لفظ مسلم. ورواه كذلك ابن حبان في صحيحه إلا أنه قال: «ومن يحول بينك وبين التوبة ائت أرض كذا وكذا» وفيه «ولا ترجع إلى أرضك» والباقي سواء (**وفي رواية**) لمسلم «أن رجلاً قتل تسعة وتسعين نفساً فجعل يسأل هل له من توبة فأتى راهباً فسأله فقال: ليس لك توبة، فقتل الراهب ثم

من أهلها » . وفي رواية : « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » ، فبهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال ، فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزماً جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصوّر أن تغلبه الشهوة في تأني الحال ، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصوّر أن يتم ذلك للتائب في أوّل أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال ، فإن كان له مال موروث حلال أو

جعل يسأل ثم خرج من قرية إلى قرية فيها قوم صالحون فلما كان في بعض الطريق أدركه الموت فناء بصدره ثم مات فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب (**فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها** ») ورواه البخاري نحوه . (**وفي رواية**) : « كان في بني اسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين انساناً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال : هل من توبة ؟ قال : لا ، فقتله فجعل يسأل فقال له رجل : ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره نحوها فاختصمت به ملائكة الرحمة وملائكة العذاب (**فأوحى الله إلى هذه ان تباعدي وإلى هذه أن تقربي**) هكذا لفظ مسلم ، ولفظ البخاري : فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وإلى هذه أن تباعدي (**وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه**) ولفظ الشيخين فوجداه (**إلى هذه أقرب بشبر فغفر له** » ، **فبهذا يعرف أنه لا خلاص**) هنالك (**إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة ، فلا بد للتائب من تكثير الحسنات . هذا حكم القصد المتعلق بالماضي**) .

(**فأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب**) بعينها (**ولا إلى أمثالها**) ، وعلامة صحته أن يحب أن يقذف في النار ولا يرجع فيما عنه خرج ، (**كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة**) الرطبة (**تضره مثلاً**) إذا تناولها لسرعة استحالتها في المعدة ، (**فيعزم عزماً جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه**) المانع من صحة معدته ، (**فإن هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصوّر أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصوّر أن يتم ذلك للتائب في أوّل أمره**) وفي نسخة أوّل مرة (**إلا بالعزلة**) عن الناس (**والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال ، فإن كان له مال موروث حلال**) أي ورثه من أحد

كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات؟ وقد قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها. وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يعد إليه أبداً. ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الإستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الإستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلاً، وليست هذه توبة مطلقة.

وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح، وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل، بل نقول لمن قال لا تصح: إن عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك؟ فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة

موروثيه، (**أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه، فإن رأس المعاصي أكل الحرام، فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه**) أي على الحرام (**ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات ما لم يقدر**) وفي نسخة من لم يقدر (**على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات**) فإن التوسع فيها غالباً يستدعي إلى تناول ما لا يحل له فإن الحلال ضيق؟ (**قال بعضهم: من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرات لم يبتل بها**) نقله صاحب القوت، (**وقال آخر: من تاب من ذنب واستقام عليه**) وفي نسخة وأقام عليه أي على توبته من ذلك الذنب (**سبع سنين لم يعد إليه أبداً**) نقله صاحب القوت، (**ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة**) على التوبة، (**وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب**) فقط، (**كالذي يتوب عن الشرب**) أي شرب المسكر (**والزنا واللواط والغصب مثلاً**) ولا يتوب عن غيرها، (**وليست هذه توبة مطلقة**).

(**وقد قال بعض الناس: إن هذه التوبة لا تصح**) وهو المحكي عن المعتزلة، وإلى هذا يشير قول ابن المبارك: إن من شرط التوبة الخروج عن مظالم العباد، فإن الظاهر أنه إن أراد الخروج عن مظالم العباد مطلقاً وإن كان الصحيح خلافه أنه في ذلك الذنب الذي تاب منه. (**وقال قائلون**): إنها (**تصح**) وهو المحكى عن أهل السنة والجماعة، (**ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل، بل نقول لمن قال لا تصح**) عن ذنب دون ذنب: (**إن عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطاك**) في هذا! (**فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب**) وفي نسخة العذاب (**وقلتها سبب لقلته**) ولا يتصوّر القلة

العقاب وقلتها سبب لقلته. ونقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ! بل النجاة والفوز بترك الجميع. هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم. وإنما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة؛ ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية فإن العلة شاملة لهما إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لأن توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوّتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصي دون البعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث أن المعصية في الخمرين واحدة وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذاً معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد

والكثرة فيها إلا بسبب التوبة. **(ونقول لمن قال تصح)** التوبة من ذنب دون ذنب **(إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضاً خطأ؛ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر)** المطابق للقواعد، **(ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو)** الله تعالى، **(فإن قال من ذهب إلى أنه لا تصح إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم)** إذ هو معظم أركانها. **(وإنما يندم)** العبد **(على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة، ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية فإن العلة شاملة لهما)** أي لكل من السرقة والزنا، **(إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين)** أو غيرها، **(لأن توجعه بفوات محبوبه سواءِ كان بالسيف أو بالسكين)** أو غيرهما، **(فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو بالزنا، فكيف يتوجع على البعض دون البعض؟ فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوّتة للمحبوب من حيث أنها معصية فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصي دون بعض، ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدفين دون الآخر، فإن استحلال ذلك من حيث أن المعصية في الخمرين واحدة، وإنما الدنان ظروف)** وآلات. **(فكذلك أعينا المعاصي)** كالقتل والزنا والسرقة **(آلات للمعصية)** وظروف لها، **(والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فإذاً معنى الصحة أن الله وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا**

التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم ولا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات، فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول نقول أن العقد لا يصح أي لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك، وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق، فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصوّر الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي، وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء.

فنقول: التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر، أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه، كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل مستحقراً للجناية على الدابة، والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى. وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الاعصار الخالية ولم يكن أحد

تنال إلا بالندم ولا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات دون بعض فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول، فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول يقال أن العقد لا يصح أي لا تترتب عليه الثمرة وهو الملك، ويحقق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمرة الندم تكفر ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها يكفرها، ولا يتصوّر الندم إلا لكونها معصية، وذلك يعم جميع المعاصي. هذا تقرير كلام المانعين من الصحة وبيان علة المنع، وهذا الكلام مفهوم يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء) عن وجه الحق.

(فنقول: إن التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة. اما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله واجلب لسخط الله ومقته، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها، فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفاً من الجناية على الأهل مستحقراً للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعداً عن الله تعالى، وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الاعصار الخالية) أي الماضية **(ولم يكن واحد**

منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً، ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً، فيتوب المريض بقبوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر.

الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن لإعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه، فهذا أيضاً ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر، لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي

منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة، والطبيب قد يحذر المريض) بتناول **(العسل تحذيراً شديداً ويحذره)** تناول **(السكر تحذيراً أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلاً فيتوب المريض بقبوله عن العسل دون السكر، فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم الشهوة ندم على أكل العسل دون السكر.**

الثاني: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله)، وهذا **(كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله)** من الذنوب **(يتسارع العفو إليه)** كما ورد في الخبر السابق ذكره، **(فهذا أيضاً ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلاً، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور)** كلها **(وأنه إذا)** شربها **(زال عقله)** وإذا زال عقله **(ارتكب جميع المعاصي)** كالزنا والقتل والسلب والنهب والاستطالة في العرض **(وهو لا يدري)**. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر انه سئل عن الخمر فقال: سألت عنها رسول الله ﷺ فقال «هي أكبر الكبائر وأم الفواحش من شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته». وأخرج عبد بن حميد ورسته في كتاب الإيمان عن شعبة مولى عباس عن ابن عباس رفعه «إذا شرب الخمر سكر وزنى ونرك الصلاة». وأخرج ابن المنذر عن سالم بن عبد الله التمار عن أبيه عن عبد الله بن عمر وقال: تحدثوا عن رسول الله ﷺ: «أن ملكا من بني إسرائيل أخذ رجلاً فخيّره أن يشرب الخمر أو يقتل نفساً أو يزني أو يأكل لحم خنزير أو يقتله فأبى فاختار شرب الخمر فإنه لما شربها لم يمتنع عن شيء أراده منه».

وهو لا يدري فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي.

الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم انها كبيرة، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر، فهو أيضاً ممكن ووجه إمكانه انه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً بتحريك العزم ولا قوياً عليه، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية، وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة مّا بالغيبة وثلب الناس والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك؟ بل يقول هذا الفاسق في نفسه، إن قهرني الشيطاني بواسطة غلبة

الحديث، (**فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل وندماً على الماضي**).

(**الثالث: أن يتوب على صغيرة أو صغائر وهو مصرّ على كبيرة يعلم أنها كبيرة، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه**) من الصغائر، (**وهو مصرّ على شرب الخمر فهو أيضاً ممكن، ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف على معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة**) والغرة بالله تعالى، (**وأسباب توجب قوّة الشهوة**) من السعة والفراغ وتمكن القوّة، (**فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون ملياً**) أي قادراً (**بتحريك العزم ولا قوياً عليه، فإن سلم عن شهوة**) هي (**أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها**) وكسر شهوتها، (**وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر**) أي لهجة وولعه بها (**فلا يقدر أن يصبر عنه**) أي عن شربها (**وتكون له ضراوة مّا بالغيبة وثلب الناس**) في الأعراض (**والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك، بل يقول: هذا الفاسق في نفسه إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا**

الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي، فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي. ولو لم يتصوّر هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصلي ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق، وهذا محال بأن يقول لله تعالى عليّ أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان، وأنا مليء في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه، وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصوّر هذا وهو حال كل مسلم؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا، وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي ﷺ: «الندم توبة» ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ولم يقل التائب من الذنوب كلها، وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل ان التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب

ينبغي أن أخلع العذار وأرخي العنان بالكلية، بل أجاهده في بعض المعاصي، فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي. ولو لم يتصوّر هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصلي ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح) أصلاً **(وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإن الأمر لله واحد)** وفي نسخة فان أمر الله فيه واحد، **(فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تتقرب إليه بترك الفسق وهذا محال، بل يقول)** الفاسق: **(لله تعالى عليَّ أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان، وأنا مليء)** أي قادر **(في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في)** الأمر **(الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي)** وغلبتها عليّ **(فكيف لا يتصوّر هذا وهو حال كل مسلم. إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله تعالى ومعصيته ولا سبب له إلا هذا، وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض** الذنوب **ممكن وجودها، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم، والندم يورث العزم، وقد قال النبي ﷺ «الندم توبة»)** قد تقدم ذكره قريباً، **(ولم يشترط الندم على كل ذنب)** بل هو مطلق. (وقال ﷺ «التائب من الذنب كمن لا ذنب له») تقدم ذكره قريباً، **(ولم يقل** التائب من الذنوب كلها، وبهذه المعاني يتبين سقوط قول القائل: إن التوبة عن بعض، الدناءات غير ممكنة لأنها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض لسخط الله تعالى. **نعم**

الخمر دون النبيذ لتفاوتها في اقتضاء السخط، ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى، كالمريض الذي حذره الطبيب من الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها، فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بدّ وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم، فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي.

فإن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طرئان العنة؟ فأقول: لا، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله، وما لا يقدر على

يجوز أن يتوب عن الخمر دون النبيذ لتفاوتها في اقتضاء السخط) وعدم تماثلها، **(ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيراً في كثرة العقوبة فيساعد العقوبة بالشهوة)** وفي نسخة فيساعد الشهوة **(بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى، كالمريض الذي حذره الطبيب)**تناول **(الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها، ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله، بل لا بدّ وأن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة، وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصوّر اختلاف حاله في الترك، فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب)** أصلاً، **(وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر والنواهي)**.

(فإن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنا الذي فارقه) أي ارتكبه **(قبل طرئان العنة)**؟ قال في المصباح: رجل عنين لا يقدر على اتيان النساء أو لا يشتهي النساء وامرأة عنينة لا تشتهي الرجال، والفقهاء يقولون به عنة، وفي كلام الجوهري: مـا يشبهه ولم أجده لغيره، ولفظه: عنّ عن امرأته تعنيناً بالبناء للمفعول إذا حكم القاضي عليه بذلك أو منع منها بالسحر، والإسم العنة، وصرح بعضهم بأنه لا يقال به عنّة كما تقوله الفقهاء فإنه كلام ساقط، والمشهور في هذا المعنى كما قال ثعلب وغيره رجل عنين بين التعنين والعنينة. وقال في البارع بين العنانة بالفتح. قال الأزهري: سمي عنيناً لأن ذكره يعنّ لقُبل المرأة عن يمين وشمال أي يعرض إذا أراد إيلاجه، وسمي عنان اللجام من ذلك، والعنة بالضم حظيرة من خشب تعمل للإبل والخيل. هذا ما وجدته، فقول الفقهاء: لو عنّ عن امرأة وزنى بأخرى مخرج على المعنى الثاني دون الأوّل أي لو لم يشته امرأة واشتهى غيرها؟ **(فاقول: لا)** تصح توبته لأن التوبة كما تقدم **(عبارة عن ندم يبعث**

فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه، ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإني أرجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وما حيا عنه سيئته، إذ لا خلاف في انه لو تاب قبل طرئـان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار ان ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فإذا لا يستحيل أن تبلغ قوّة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله.

والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين، أحدهما: حرقة الندم، والآخر: شدة المجاهدة بالترك في المستقبل. وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا أن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك

العزم على الترك) أي ترك الذنب **(فيما يقدر على فعله)** إن كان مقدراً عليه، **(وما لا يقدر على فعله انعدم بنفسه لا بتركه إياه، ولكن أقول: إذا طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو)** فرضنا إن **(كانت شهوة الوقاع)** أي الجماع **(به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها وتحثه)** على تركها، **(فإني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه)** الماضي **(وماحياً عنه سيئته)** التي سلفت، وهذا اختيار المصنف رحمه الله تعالى، **(إذا لا خلاف في أنه لو تاب قبل طرئان العنة)** عليه **(ومات عقيب التوبة كان من التائبين)** وهو ظاهر، **(وإن لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبـلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فإذاً لا يستحيل أن تبلغ قوّة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه، بل الظاهر أنه يقبله)** منه.

(والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين: أحدهما: حرقة الندم، والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل) أي فيما سيأتي من الزمان، **(وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا أن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد**

الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً.

فإن قلت: إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب، والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه، فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني: أن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة. وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة.

والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان:

إحداهما: أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوّة الدين، وأعني بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبعث

نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً.

فإن قلت: إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب) أي ترك الذنب وانكمش في الاستبدال فلم تكن نفسه تنازعه ولا تطالبه في الذنب، **(والآخر بقي في نفسه نزوع إليه)** أي ترك ذنباً وعمل في الاستقامة ونفسه تنازعه إليه، **(وهو ينازعها ويمنعها فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه، فقال)** الشاميون منهم أبو الحسن **(أحمد بن أبي الحواري)** الدمشقي من كبائر المشايخ، صحب أبا سليمان الداراني، وكان الجنيد يقول هو ريحانة الشام مات سنة ثلاث ومائتين **(وأصحاب أبي سليمان الداراني)** رحمه الله: **(إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد)** أي الذي تنازعه نفسه إلى الذنب وهو يجاهدها أفضل لأنه غلب منازعتها وله فضل مجاهدتها. **(وقال علماء البصرة: ذلك الآخر)** أي الذي سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمأنينة **(أفضل)** ومال إلى ذلك رباح بن عمرو القيسي وهو من كبار علماء البصريين قال: **(لأنه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة)** أي فلا يؤمن عليه الرجوع، وقد نقل صاحب القوت القولين وكأنه مال إلى قول البصريين، ولكن المصنف رحمه الله تعالى توسط بين المذهبين وقال: **(وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه)** ما نذكره، وهو **(أن الذي انقطع نزوع نفسه)** وسكن **(له حالتان)**:

(أحداهما: أن يكون انقطاع نزوعه إليها) أي إلى المعاصي وفي نسخة إليه أي الى الذنب **(بفتور في نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دلّ على قوّة**

بإشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين، فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً. وقول القائل: إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح، ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ. وهو كقول القائل: العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة، والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم، والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن المفلس لا عدوّ له والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العزفي الأخطار وأن العلوّ شرطه اقتحام الإغرار. بل هو كقول القائل: الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدي عليه، وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد.

يقينه واستيلاء) أي غلبة **(دينه على شهوته فهو دليل)** قوي**(قاطع على قوّة اليقين وعلى قوّة الدين، وأعني بقوّة الدين قوّة الإرادة التي تنبعث بإشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين، فهاتان قوّتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً**والسلامة مطلوبة من المكلفين بالمجاهدة لا بعدم القوى والغرائز، وأما **(قول القائل)** من البصريين **(إن هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ)** إذ لا يلزم من صحته أن يكون الأفضل، **(هو كقول القائل: العنين أفضل)** من الشهواني **(لأنه في أمن من خطر الشهوة)** لا تتحرك عليه شهوته فلا تحمله على ارتكاب مخالفة، **(والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم)** إذ لم يكتب عليه القلم، **(والمفلس)** أي عادم المال أفضل **(من الملك القاهر القامع لاعدائه لأن المفلس لا عدوّ له)** إذ لا مال له والعداوات إنما تنشأ بسبب الأموال غالباً **(والملك ربما يغلب عليه مرة وإن غلب)** على عدوّه **(مرات، وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في ركوب الأخطار، وأن العلو)** في المرتبة **(شرطه اقتحام الأغوار)** من البراري والقفار، ومن أمثالهم ما استنار بالعسل من اختار الكسل، **(بل هو كقول القائل: الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل من صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدي عليه وهذا خطأ، بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قوياً عالماً بطريق تأديبهما)** ورياضتهما على الوجه الذي ينبغي **(أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد)** التي هي غاية القصد له.

الحالة الثانية: أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل: ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد، فإن الجهاد ليس مقصوداً لعينه، بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر. ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم. ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب والضراوة والفرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد، ولقد زل في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق. وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال: هذا محال، فكذب

(**الحالة الثانية: أن يكون بطلان النزوع بسبب قوّة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ تبلغ مبلغاً**) وفي نسخة: إذ بلغ مبلغاً (**قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بآداب الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها، وقول القائل: ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد، فإن الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل**) تهذيب الأخلاق أو رياضتها، كما أن ليس المقصود من ضرب الدابة ألمها بل المقصود أدبها، ولهذا قال المصنف (**إن المقصود**) من الجهاد (**قطع ضرر العدوّ حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجرارك**) للشهوات (**فلا يصدك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر**. ومثاله كمثال **من قهر العدوّ واسترقه**) أي أسره فجعله رقيقاً له (**بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم. ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد**) ودربه على أخذ الصيد (**وراض الفرس**) وأدّبه (**فهما قائمان**) وفي نسخة ثابتان (**عنده بعد ترك الكلب الضراوة**) بلحم الصيد (**والفرس الجماح**) عند الركض (**بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد، ولقد زل في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى**) لذاته (**ولم يعلموا أن ذلك طلباً للخلاص من عوائق الطريق**) وموانعها، (**وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماطتها بالكلية مقصود**) لذاته (**حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه**) لصعوبته (**فقال: هذا محال فكذب**

بالشرع وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات، وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات.

فإن قلت: فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه، والآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه فأيهما أفضل؟ فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال

بالشرع) ورفض العمل بقواعده **(وسلك سبيل الإباحة واسترسل في اتباع الشهوات)** من حيث اتفقت، **(وكل ذلك جهل وضلال. وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس)** وتهذيب الأخلاق **(من ربع المهلكات)** فلا نعيده ثانياً.

وقد نقل صاحب القوت اختلاف علماء الشام وعلماء البصرة في التائبين المذكورين ثم قال بعد ذلك ما نصه: وقد اختلف العلماء أيضاً في عبدين سئل أحدهما بذل شيء من ماله في سبيل الله فأبت نفسه عليه وثقل ذلك علنها فجاهدها وأخرج ماله، وسئل آخر فبذل ماله مع السؤال طوعاً من غير منازعة نفس ولا ثقل عليها ولا بمجاهدة منه لها أيهما أفضل؟ فقال قوم: المجاهد لنفسه أفضل لأنه اجتمع له الإكراه والمجاهدة فحصل له عملان، وذهب إلى هذا القول أحمد بن عطاء وأصحابه. وقال آخرون: الذي سمحت نفسه بالبذل طوعاً من غير اعتراض ولا إكراه أفضل لأن مقام هذا في سخوات النفس والتحقق بالزهد أفضل، لأن جميع أعمال الأوّل من الاكراه والمجاهدة ومن بذل ماله على تلك الأحوال، ولأن الأوّل وإن غلب نفسه في الكرة لا يؤمن غلبتها له في كرة ثانية وثالثة إذ ليس السخاء من مقامها لأنها كانت محمولة عليه، وإليه ذهب أبو القاسم الجنيد وهو عندي ما قال. وسئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب عن الشيء فيراه أو يسمع به فيجد له حلاوة. فقال: الحلاوة طبع البشرية ولا بدّ من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى أو ينكره بقلبه ويلزم الانكار ولا يفارقه ويدعو الله أن ينسيه ذكر ذلك ويشغله بنفسه بغيره من ذكره وطاعته. وقال: فإن هو غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار ويحزن غاية الحزن فإنه لا يضره. وهذا عندي هكذا لأن التوبة لا تصح مع بقاء الشهوة فيكون العبد مراداً بالمجاهدة، وهذا حال المريدين ومحو الشهوة عن القلب وصف العارفين بدوام التولي اهـ.

(فإن قلت: فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه، والآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه فأيها أفضل؟ فاعلم أن هذا أيضاً قد اختلفوا فيه فقال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك) أي لا تنساه وهذا قول أبي محمد سهل التستري. قال القشيري في الرسالة: سمعت أبا حاتم يقول: سمعت أبا نصر السراج الصدفي يقول: سئل سهل بن عبدالله عن التوبة. فقال: أن لا تنسى ذنبك اهـ.

آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذهبين عندنا حق، ولكن بالإضافة إلى حالين.

وكلام المتصوّفة أبداً يكون قاصراً، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال، وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره، إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازلة أحواله، وقد يكون طريق العبد إلى الله

قلت: ويؤيده خبر «إن العبد يذنب فيدخله ذنبه الجنة» قيل: كيف يدخله ذنبه الجنة يا رسول الله؟ قال: «لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً».

(وقال آخر): وفي نسخة آخرون. **(حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك)**. قال القشيري في الرسالة: وسئل الجنيد عن التوبة: فقال: أن تنسى ذنبك اهـ.

واختلف في معنى نسيانه الذنب فقيل: معناه أن يخرج حلاوته من قلبه خروجاً لا يبقى له في سره أثر حتى يكون كمن لم يعرفه قط، وقيل: المراد به ترك العود إليه، وقد مال السري السقطي شيخ الجنيد إلى قول سهل، وردّ عليه الجنيد ذلك فيما قال القشيري أخبرنا أبو عبدالله الشيرازي قال: سمعت أبا عبدالله بن مفلح بالأهواز يقول: سمعت سمر بن رزين يقول: سمعت الجنيد يقول: دخلت على السري يوماً فرأيته متغيراً فقلت: مالك؟ فقال: دخل علي شاب فسألني عن التوبة. فقلت له: أن لا تنسى ذنبك فعارضني، وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك. فقلت: إن الأمر عندي ما قاله الشاب، فقال: لمَ؟ قلت: لأني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء فسكت اهـ.

وأراد بالجفاء الذنب وبحال الصفاء التوبة، وقريب من قول الجنيد قول رويم، فإنه لما سئل عن التوبة قال: هي التوبة من التوبة نقله القشيري عن أبي نصر السراج، والمعنى التوبة من رؤية كونه تائباً، فإنه لا يرى ذلك إلا إذا كان مفرق القلب ناظراً لنفسه وتوبته فينحجب بذلك، فكمال توبته دوام شغله بربه حتى ينسى توبته كما قال الجنيد، وقد قيل في تأويل كلام رويم وجوه أخر سيأتي ذكر بعضها في محالها. **(وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى حالين)** مختلفين.

(وكلام المتصوّفة أبداً يكون قاصراً) في حدّ ذاته غير شامل للأحوال كلها، **(فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط)** وذلك **(فيما أقامه الله تعالى فيه ولا يهمه حال غيره فتختلف الأجوبة)** منهم حين يسألون **(باختلاف الأحوال، وهذا نقصان بالإضافة إلى درجة العلم، فإن معرفة الأشياء على ما هي عليه أفضل وأعلى، ولكنه كمال بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه إلا أمره)** وفي نسخة لا يهمه أمر غيره **(إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازلة أحواله، وقد يكون طريق**

العلم فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية.

فأقول: تصوّر الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدىء لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق، ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف والوازع عن الرجوع إلى مثله. فهو بالإضافة إلى الغافل كمال ولكنه بالإضافة

العبد إلى الله العلم فالطرق إلى الله كثيرة) كما قيل بعدد أنفاس الخلائق، (**وإن كانت مختلفة في القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية**) . وبه ظهر أن كلام كل من السري والجنيد فيما ذهبا إليه صحيح، فمن قال التوبة أن لا تنسى ذنبك يقول: إنما الغرض من ذكر الذنب الحمل على الأعمال الجميلة، ولكن إذا حصل للعبد حال شريف واستغرق فيه فاشتغاله بذنبه حينئذ يفسد عليه ما هو فيه، فالسري كلم الشاب بما هو الأولى في حق التائبين، فإن ذكر ذنوبهم يهيج خوفهم ويحملهم على إصلاح أحوالهم، وكان الشاب ممن ارتفعت درجته في ذلك، فكلم السري بما يناسب حاله المستلزم باستغراق صاحبه فيه نسيان ذنبه فنبهه بذلك على مقام شريف في درجات التوبة، ولذلك اغتم وتغير لونه لإشكال الأمر عليه، وهذا شأنه تعالى يؤدب الكبار بالصغار ليعترفوا. ونقل القشيري عن أبي نصر السراج قال: أشار سهل إلى أحوال المريدين والمتعرضين تارة لهم وتارة عليهم، وأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين فإنهم لا يذكرون ذنوبهم مما غلب على قلوبهم من عظمة الله ودوام ذكره اهـ.

وقال صاحب القوت: فأما نسيان الذنوب وذكرها فقد اختلف قول العارفين في ذلك فقال بعضهم: حقيقة التوبة تنصب ذنبك بين عينيك، وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وهذان طريقان لطائفتين وحالان لأهل مقامين، فأما ذكر الذنب فطريق المريدين وحال الخائفين، ووجهة هؤلاء شهادة التوحيد ووجهة الأولين شهادة التوقف والتجريد وهي مقام في التعريف ففي أي المقامين أقيم عبد قام بشهادة وجهته وعمل بحكم حاله ومقام شهادة التوحيد أفضل عند العارفين من مقام شهادة التعريف، فكانت هذه أوسع وأكثر إلا أنها في أصحاب اليمين وفي عموم المقربين وشهادة التوحيد أضيق وأقل وأهلها أعلى وأفضل وهي في المقربين وخصوص العارفين اهـ. وقد توسط المصنف بين القولين وقرره بأحسن الوجهين فقال:

(**فأقول: تصوّر الذنب وذكره**) في خياله (**والتفجع عليه كمال في حق المبتدىء المريد**) وهو الذي لاحظه السري السقطي قدس سره قال: (**لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولأن ذلك**) أي تصوّره كذلك (**يستخرج عنه الحزن**) من مكامنه (**والخوف الوازع**) أي المانع (**عن الرجوع إلى مثله**) في الحال والمستقبل، (**فهو بالإضافة إلى الغافل**) الذي لم يشم رائحة السلوك (**كمال**) في الجملة، (**ولكنه بالإضافة**

إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق، بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك، فإن ظهر له مبادىء الوصول وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال. بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث أنه كان قد خرب جسره من قبل، فلو جلس على شاطىء النهر بعد عبوره يبكي متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع. نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله، فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه، وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك

إلى سالك الطريق نقصان) في المقام **(فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرج على غير السلوك)** ولا يلتفت لسواه، **(فإن ظهر له)** في سلوكه **(مبادىء الوصول)** وفتحت له الأبواب **(وانكشفت له أنوار المعرفة و)** بدت له **(لوامع الغيب)** وأصحاب البدايات في الترقي بالقلب في زمان سيرهم يرقبون ذلك فتكون لوائح ثم لوامع ثم طوالع، واللوامع أظهر من اللوائح وليس زوالها بتلك السرعة فقد تبقى وقتين وثلاثة، واللوائح كالبروق كلما ظهرت استترت فإذا لمع قطعك عنه وجمعك به لكنه لم يسفر نور نهاره حتى كرت عليه عساكر الليل. وهذه المعاني إذا ظهرت للسالك في أثناء سيره **(استغرقه)** ظهور **(ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله)** ولكنها تختلف بالقضايا، فمنها ما إذا فات لم يبق عنه أثر كالشوارق، وإذا أفلت ما يبقى أثره فإن زال وقته بقي ألمه، وإن غرب أنواره بقي آثاره فصاحبه بعد سكون غليانه يعيش في ضياء بركاته **(وهو الكمال، بل لو عاق)** أي حال **(المسافر عن)** سلوك **(الطريق إلى بلد من البلاد)** في عالم الملك **(نهر حاجز)** أي مانع **(طال تعب المسافر في عبوره مدة من حيث أنه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطىء النهر)** أي طرفه **(بعد عبوره يبكي متأسفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع. نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلاً فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار)** حاجزة و **(هو يخاف على نفسه أن يمرّ بها)** أي جسورها **(فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله، فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه، وهذا لا يعرفه**

ـ وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات ـ بل نقول: شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته، ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور، فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة، بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط، فذلك لا نظير له في الدنيا. فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركاً للشهوة، فالمبتدىء أيضاً قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك. ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام، فإن

إلا من عرف الطريق والمقصد والعائق وسلوك الطريق، وقد أشرنا إلى تلويحات) أي إشارات **(منه في كتاب العلم وفي ربع المهلكات)** فليراجع هنالك فظهر من ذلك أن تصوّر الذنب إنما يصلح للتائب الغافل حتى يتبين من نفسه الاجتهاد والمسارعة إلى التكفير، وأما السالك فربما يعوقه عن السلوك **(بل نقول: شرط التوبة)** وفي نسخة دوام التوبة **(أن يكون كثير الفكر في النعيم)** الذي أعده الله **(في الآخرة لتزيد رغبته)** في سلوكه، **(ولكن إن كان شاباً فينبغي أن لا يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور، فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة، فينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا، فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركاً للشهوات فالمبتدىء أيضاً قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك)**.

وقال صاحب القوت: اعلم أنه لا يؤمن على ضعيف اليقين تقوى النفس عند تذكرة الذنوب، فإن نظر القلب إليها بشهوة أو ميل النفس إليها بحلاوة فيكون ذلك سبب فتنته فيفسد من حيث صلح كما لا يؤمن على معتاد خطيئة بالنظر إلى سببها حركة النفس إليها، وإن كان الأفضل الاتفاق معه ما لم يكن الاتفاق معصية لأجل مجاهدة النفس بالصبر عنها إلا أن ذلك غرور وفيه خطر فترك الاجتماع وترك الأسباب حينئذ أسلم، وما كان أسلم للمريد فهو أفضل. وفي نسيان الذنوب الذكر لما يستقبل والانكماش مع ما يفوت من الوقت خوف فوت ثان، وقد كان بعض العارفين يكره للمريد أن يكون وسواسه الجنة أو تذكر ما فيها من النعيم واللباس والأزواج، ويستحب للمريد أن يكون وسواسه ذكر الله تعالى وخواطره وهمته متعلقة بالله تعالى لا بسواه. قال: لأن المريد حيث عهد بالتوبة غير معتاد لطول الاستقامة والعصمة، فإذا ذكر نعيم الجنة لم آمن عليه لضعف قلبه أن يشتهي مثله مما يشاهد في الدنيا من اللباس وأطيب الطعام والنساء، لأن هذا حظ عاجل وذلك آجل فتطلب نفسه مثل ما ذكر من نعيم الآخرة معجلاً في الدنيا. قال: فإذا كان همه الله تعالى كان أبعد له من زينة الدنيا وشهواتها ولم يجسر العدوّ بتمثيل ذلك له من العاجل إلا أن يقوى يقينه وشغل عادته وقدوم عصمته والمعنى لقائله.

قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم، فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنياً عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلاً للأمر على المريد، ولذلك قال ﷺ: « أما أني لا أنسى ولكني أنسى لأشرع » وفي لفظ: « إنما أسهو لأسنّ » ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة: أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال ﷺ للحسن: « كخ كخ » لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه؟ وما كانت فصاحته

(**ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود**) عليه السلام (**ونياحته**) على ذنبه، (**فإن قياسك نفسك على الأنبياء**) عليهم السلام (**قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم**) وهدايتهم (**فعليهم التلبس بما تنتفع أمتهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم**) ولفظ القوت: وقد يعترض المريد بقصة داود عليه السلام من تذكره ونوحه على خطيئته، فإن الأنبياء لا يقاس عليهم لمجاوزتهم حدود من دونهم، وقد يقلبون في أحوال المريدين ويسلك بهم سبل المتعلمين وذلك لأجل الأمة ليكون طريقاً للأئمة اهـ.

(**فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها، وقد كان مستغنياً عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس**) ورياضتها، (**ولكن تسهيلاً للأمر على المريد، ولذلك قال ﷺ: « أما أني لا أنسى ولكن أنسى لأشرع »**) قال العراقي: ذكره مالك في الموطأ بلاغاً بغير اسناد، وقال ابن عبد البر: لا يوجد إلا في الموطأ مرسلاً للاسناد له، وكذا قال حمزة الكناني: إنه لم يرد من غير طريق مالك، وقال أبو الطاهر الإنماطي: وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه الأئمة والحفاظ، فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به، وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسنداً. (**وفي لفظ: « إنما أسهو لأسنّ » ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواشي في كنف الرعاة**) وقد روى أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من حديث أبي هريرة « إنما أنا لكم مثل الوالد للولد أعلمكم » الحديث. وقد تقدم في كتاب سر الطهارة. (**أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير كيف ينزل إلى درجة نطق الصبي كما قال ﷺ للحسن**) بن علي رضي الله عنهما (**« كخ كخ »**) بفتح الكاف وكسرها وسكون المعجمة مثقلاً ومخففاً ويكسر منوّناً وغير

تقصر عن أن يقول: ارم هذه التمرة فإنها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته، بل الذي يعلم شاة أو طائراً يصوت به رغاء أو صفيراً تشبهاً بالبهيمة والطائر تلطفاً في تعليمه. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين. نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه.

منوّن كلمة ردع الطفل في تناول شيء، وهذا قاله (**لما أخذ الحسن تمرة من تمر الصدقة ووضعها في فيه**) فزجره به، (**وما كانت فصاحته**) ﷺ (**تقصر عن أن يقول له: ارم هذه التمرة فإنها حرام، ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته**)، وكان المراد بذلك ما كانت فصاحته تقصر عن الاكتفاء بكلامه الفصيح الظاهر، وهذا كان تمام الحديث في المتفق عليه عن أبي هريرة «ارم بها أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة» وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام، فقد جمع ﷺ بين اللكنة والفصاحة، (**بل الذي يعلّم شاة أو طائراً يصوّت به رغاء وصفيراً تشبيهاً بالبهيمة والطائر تلطفاً في تعليمه**). وروى ابن عساكر من حديث معاوية وقال: غريب جداً «من كان له صبي فليتصاب له». وإذا عرفت ذلك فاعلم أن قولهم شيئان عجيبان هما أبرد من بخ شيخ يتصابى وصبي بتشيخ ليس على إطلاقه. (**فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين**).

وأما كلام رويم، لما سأل عن حقيقة التوبة وقد سبق ذكره نقلاً عن القشيري وسبق الوعد بأنا نتكلم عليه، فاعلم أن المقصود من التوبة تقوى الله وهو خوفه وخشيته والقيام بأمره واجتناب نهيه، فيعمل بطاعته على نور من الله لا يريد بذلك غير الطاعة، فإن الطاعة والتوبة عز ظاهراً وباطناً، فلا يكون مقصوده العزة فمن تاب لأجله فتوبته مدخولة وسائر التوبة ثلاثة أشياء هذا أحدها، والثاني نسيان الجناية، والثالث التوبة من رؤية اليوم فإن رأى منة الإيمان والإسلام من نفسه وغفل عن منة الله عليه، فليتب من هذه الرؤية ولكن هذه الرؤية ليست التوبة ولا حيزها ولا شرطها، بل جناية أخرى حصلت له بعد التوبة فيتوب من هذه الجناية كما تاب من الجناية الأولى، فما تاب إلا من ذنب أوّلاً وآخراً، أو المراد التوبة عن نقصان اليوم وعدم توفية حقه، ووجه ثالث لطيف وهو أنه من حصل مقام الأنس بالله وصفاء وقته مع الله بحيث يكون إقباله على الله واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له حتى إذا نزل عن هذه الحال اشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها وسار مع الجناية واشتغل بها عن الله تعالى، فهذا نقص ينبغي أن يتوب إلى الله منه وهو توبة من هذه التوبة لأنه يزول من الصفاء إلى الجفاء، وهذا هو الذي لاحظه الجنيد حين خاطب شيخه السري، فالتوبة من التوبة إنما تعقل عن أحد هذه الوجوه الثلاثة، والله أعلم.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة:

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات.

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوّة، فهذا هو الاستقامة على التوبة، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة: التوبة النصوح. واسم هذه النفس الساكنة: النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، وهؤلاء هم الذين اليهم الإشارة بقوله ﷺ: «سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم

فصل

بيان أقسام العباد في دوام التوبة وانقطاعها

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن طبقات التائبين أربع**) أي الناس في التوبة على أربعة أقسام: في كل قسم طبقة وكل طبقة مقام.

(**الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي**) من جميع ما ارتكبه من المخالفات (**ويستقيم على التوبة**) والإنابة (**إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره**) فيما مضى (**ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه**) أيام حياته (**إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات، ومما لم يكن في رتبة النبوّة**) إذ صاحب هذه الرتبة معصوم عنها، (**فهذا هو الاستقامة على التوبة**) وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات، واسم هذه التوبة التوبة النصوح التي قال فيها سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ [التحريم: ٨]. (**واسم هذه النفس الساكنة المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية**) التي قال الله تعالى فيها: ﴿يا أيتُها النفسُ المطمئنّة ★ ارجعي إلى ربك راضية مرضيّة ★ فأدخلي في عبادي ★ وادخلي جنتي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] أي راضية بما أوتيت مرضية عند الله. (**وهؤلاء هم**) المفردون (**الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ: «سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أثقالهم فوردوا القيامة خفافاً»**) قال العراقي: رواه الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم.

قلت: لفظ الترمذي في ذكر الله يضع الذكر وفيه «فيأتون يوم القيامة خفافاً» وهكذا رواه الحاكم. ورواه الطبراني من حديث أبي الدرداء. وروى أحمد ومسلم وابن حبان من حديث أبي هريرة: «سيروا هذا ميدان سبق إليه المفردون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» وقد تقدم ضبط المفردون والمستهترون في كتاب الأذكار والدعوات.

أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم. وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه مليء بمجاهدتها وردها، ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الأنواع، وكذلك يختلفون من حيث طول العمر، فمن مختطف يموت قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة، ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته. وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء: إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى، واشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض. ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى

(**فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم**) وهي الذنوب التي كانت أثقلتهم، (**وأهل هذه الطبقة على رتب**) وأحوال مختلفة من شفوف بعضهم على بعض (**من حيث النزوع إلى الشهوات، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة**) وقوّة اليقين (**يفتر نزاعها**) أي سكن منازعتها إياه (**ولم يشغله عن السلوك صراعها**) أي مصارعتها، (**وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس**) ومصارعتها (**ولكنه مليء**) أي قادر (**بمجاهدتها وردها**) والغلبة عليها، (**ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة**) فمنهم من يكثر نزاعها له فيقابلها بالرد والكف، ومنهم من يقل (و) يتفاوت أيضاً (**باختلاف المدة واختلاف الأنواع، وكذلك يختلفون من حيث طول العمر**) وقصره، (**فمن مختطف**) مأخوذ به (**يموت قريباً من توبته**) لم يطل كثيراً (**يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة**) وإليه الإشارة بقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: طوبى لمن مات في بدوات الإسلام. (**ومن مهمل**) أي متروك (**طال جهاده**) للنفس (**وصبره**) عليها (**وتمادت**) أي طالت (**استقامته وكثرت حسناته**) فعاش في سعادة، (**وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة**) فأفضل السعادات طول العمر في طاعة الله، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » رواه أحمد وعبد بن حميد والترمذي من حديث عبدالله بن بشير (**حتى قال بعض العلماء: إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة، ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى، و**) لا يخفى أن (**اشتراط هذا بعيد وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض**) ووقع، (**ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في**

يتمكن ثم يطمع في الانكفاف، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه، ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته في الابتداء.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجويد قصد ولكن يبتلي بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها. وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة، إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد، وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل

الإنكفاف) عنها، (**فإنه لا يأمن خروج عنان الشهوة عن اختياره**) فلا يقدر على قمعها وقهرها (**فيقدم على المعصية**) قهراً عنه، (**وينقض توبته**) ويزل قدمه. (**بل طريقه الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه**) ولا يلتفت إليها (**ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه، فبه تسلم توبته في الابتداء**) وفي بعض النسخ بما يقدر عليه فيه لتسلم توبته في الابتداء.

(**الطبقة الثانية**): وهي تلي الطبقة الأولى في القرب منها (**تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات**) وأصولها بأن دام على العمل فيها من غير مرة (**وترك كبائر الفواحش كلها**) بأن اجتنبها لا يسعى فيها ولا يهم بها (**إلا أنه لا ينفك**) وفي نسخة ليس ينفك (**عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجديد قصد**) لها (**ولكن يبتلي بها**) أي بدخولها عليه (**في مجاري أحواله**) عليه (**من غير**) قصد منه إليها ولا (**أن يقدم عزماً على الإقدام عليها**) ويمتحن بالهم واللمم، (**ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف**) وحزن (**وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز عن أسبابها**) الباعثة عليها (**التي تعرضه لها و**) هذا من صفات المؤمنين ترجى له الاستقامة لأنه في طريقها، و (**هذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوّامة**) التي أقسم الله بها (**إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد**) وصاحبها من المقتصدين. (**وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى**) لكنها قريبة منها (**وهي أغلب أحوال التائبين**)، وصاحب هذا الحال داخل في وصف المتقين، (**لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه**)، وهذه الذنوب تدخل على النفس من معاني صفاتها وغرائز جبلاتها وأوائل إنشائها من نبات الأرض وتركيب الأطوار من

ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد. وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾ [النجم: ٣٢] فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه. قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ [آل عمران: ١٣٥] فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه، وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه عنه علي كرّم الله وجهه: « خياركم كل مفتن توّاب ». وفي خبر آخر: « المؤمن كالسنبلة يفيء أحياناً ويميل أحياناً » وفي الخبر: « لا بدّ للمؤمن

الأرحام خلقاً من بعد خلق، ومن اختلاق الأشباح بعضها ببعض، **(وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم﴾ فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه، وقد قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه، وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه: « خياركم كل مفتن تواب »)** أي كل ممتحن يمتحنه الله تعالى بالذنب ثم يتوب ثم يعود ثم يتوب. قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف اهـ.

قلت: رواه الديلمي وفي سند البيهقي النعمان بن سعد. قال الذهبي: كوفي مجهول. وروى أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس: « إن المؤمن خلق مفتناً تواباً ناسياً إذا ذكر ذكر » وفي رواية له: « إن المؤمن خلق ناسياً فإذا ذكر ذكر » وروى أحمد من حديث علي: « إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التوّاب ».

(وفي خبر آخر: « المؤمن كالسنبلة يفيء أحياناً ويميل أحياناً ») قال العراقي: رواه أبو يعلى، وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس، والطبراني من حديث عمار بن ياسر، والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلاً وكلها ضعيفة وقال: « يقوم » بدل « يفيء » وفي الأمثال للرامهرامزي إسناد جيد لحديث أنس اهـ.

قلت: حديث أنس رواه أيضاً البزار والضياء ولفظهم: « مثل المؤمن مثل السنبلة تميل احياناً وتقوم احياناً ». وأما حديث عمار عند الطبراني، فلفظه مثل لفظ حديث أنس بزيادة « ومثل الكافر مثل ارز تخرو لا تشعر » وقد روي من حديث جابر بلفظ: « مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة وتخر مرة ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزال مستقيمة حتى تخر ولا تشعر » رواه أحمد وعبد بن

من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » أي الحين بعد الحين، فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين. ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة. وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه. بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات

حميد والسائسي والضياء في المختارة وفي معناه ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة « مثل المؤمن كمثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفتها فإذا سكنت اعتدلت، وكذلك المؤمن يكفي بالبلاء ومثل الفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقسمها الله عز وجل إذا شاء » ومن حديث كعب بن مالك « مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة وتعدلها مرة، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انخفافها مرة واحدة ». وكذلك رواه أحمد أيضاً، وفي لفظ لأحمد من حديث أبي هريرة « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تكفئه ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة لا تستهز حتى تستحصد ». ورواه كذلك الترمذي وقال: حسن صحيح. وروى أحمد وأبو يعلى من حديث أم ولد أبي بن كعب عن أبي بن كعب مرفوعاً: « مثل المؤمن مثل الخامة تحمر مرة وتصفر أخرى والكافر كالأرزة ».

(وفي الخبر: « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » أي الحين بعد الحين). قال العراقي: رواه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة انتهى.

قلت: ولفظ الطبراني في الكبير: « ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة ». أو ذنب هو يقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا: « إن المؤمن خلق مفتناً تواباً إذا ذكر ذكر » وفي لفظ له: « ما من مسلم إلا وله ذنب يصيبه الفينة بعد الفينة إن المؤمن نساء إذا ذكر ذكر ».

(فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين) ولا يؤيس هذا عن درجة التائبين، **(ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناول من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار)** عليها **(و)** أيضاً **(كالفقيه الذي يؤيس المتفقة عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة)** والمراد بالتكرار إعادة ما يحصله في درسه مرة بعد أخرى حتى يرسخ في الذهن والتعليق أن يعلق ما يسمع من فوائد الشيوخ في أوراق، **(وذلك يدل على نقصان)** مقام **(الطبيب والفقيه)** جميعاً **(بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق من درجات السعادات بما**

المختطفات قال النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون». وقال أيضاً: «المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعة» أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم. وقال تعالى: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا

يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاء») بتشديد الطاء من أبنية المبالغة يقال: رجل خطاء إذا كان ملازماً للخطأ. قال الطيبي في شرح المشكاة: إن أريد بلفظ: «كل» الكل من حيث هو كل فهو تغليب لأن الأنبياء ليسوا بمبالغين في الخطأ، وأن أريد به الإستغراق وإن كان واحد واحد خطأ لم يستقم إلا على التوزيع كما يقال: هو ظلام للعبيد أي يظلم كل واحد واحد، فهو ظالم بالنسبة إلى كل أحد ظلام بالنسبة إلى المجموع وإذا قلت: هو ظلم لعبده كان مبالغاً في الظلم، (**«وخير الخطائين المستغفرون»**) أي الذين يستغفرون عن ذنوبهم ويرجعون إلى الله تعالى بالتوبة والإستغفار، ولا يؤتي العبد من فعل المعصية وإن عظمت وكثرت، وإنما يؤتي من ترك التوبة والإستغفار. قال العراقي: رواه الترمذي وابن ماجه، والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال: «التوابون» بدل «المستغفرون» قلت: فيه علي بن مسعدة ضعفه البخاري انتهى.

قلت: ورواه كذلك أحمد وعبد بن حميد وابن ماجه والدارمي والبيهقي، ولفظ الترمذي بعد أن أخرجه غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة انتهى.

قلت: علي بن مسعدة الباهلي أبو حبيب البصري، قال ابن حبان: لا يحتج به كذا قاله الذهبي، ورد على الحاكم تصحيحه وقال: بل فيه لين، وفي أمالي أبي زرعة حديث فيه ضعف، فكأنه تبع فيه والده، وقال الحافظ في التهذيب: صدوق له أوهام، وقد روى له البخاري في الأدب المفرد، والترمذي، وابن ماجه، ومال ابن القطان إلى تصحيح الحاكم وقال: ابن مسعدة صالح الحديث وغرابته إنما هي فيمن انفرد به عن قتادة

(**قال) ﷺ (أيضاً: «المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعة») قال العراقي**: رواه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف، وقالا: فسعيد بدل فخيرهم انتهى.

قلت: ورواه كذلك البزار والعسكري في الأمثال والطبراني في الصغير والأوسط كلهم من طريق ... بن خالد الخزاعي عن محمد بن المنكدر عن جابر به مرفوعاً بلفظ: «وسعيد من هلك على رقعه» وفي لفظ: فالسعيد. قال المنذري ضعيف. قال الهيثمي: سعيد بن خالد ضعيف. قلت: هو ... رجال أبي داود. قال أبو زرعة ضعيف (**أي واه**) لدينه (**بالذنوب راقع**) له (**بالتوبة والندم**) فكلما انخرق دينه بالمعصية رقعه بالتقرب. قال الزمخشري: شبهه بمن يهي ثوبه فيرقعه. وقد وهي الثوب إذا بلي. ومعنى من مات على رقعه أي من مات وهو راقع لدينه بالتوبة والندم ونحوه استقيموا ولن تحصوا أي لن تستطيعوا أن تستقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا، ومنه أيضاً يا حنظلة ساعة وساعة. (**وقال تعالى**) في وصف المؤمنين بما هي متابعة الذنوب وبترديف

ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ [القصص: ٥٤] فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً.

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يودّ لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها. هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة. وعند الفراغ يتندم ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم. فهذه النفس هي التي تسمى: النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ [التوبة: ١٠٢] فأمره

السيئة الحسنة في قوله عز وجل: ﴿ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ [القصص: ٥٤] وجعل هذا من نعوت العاملين الذين صبروا فقال: (**أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة**) فجعل لهم صبرين على الذنب وعلى التوبة فآتاهم أجرين، (**فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً**) فازدراء هذا العبد على نفسه ومقته عن معرفته بها وترك نظره إليها وسكون إلى خير إن ظهر عليها يكون من كفارات ذنوبه لأنه من تدبر الخطاب في قوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ [النجم: ٣٢].

(**الطبقة الثالثة**): وهي تلي من هذه الثانية في الحال (**أن يتوب**) عن الذنوب (**ويستمر بالإستقامة**) على توبته (**مدة ثم تغلبه الشهوة**) وفي نسخة شهوته (**في بعض الذنوب فيقدم عليها من صدق**) عزم (**وقصد شهوة**) فيذنب ثم يحزن عليه بقصده له وسعيه فيه وإيثاره إياه (**لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يوّد أن لو أقدره الله تعالى**) أي جعله ملياً قادراً (**على قمعها**) وكفها (**وكفاه شرها هذه أمنيته**) وتمام رجائه (**في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ**) منه (**بتندم**) ويتحسر (**ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب منه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم**) ويحدث نفسه بالإستقامة ويحب منازل التوابين ويرتاح قلبه إلى مقامات الصديقين ولم يأت حينه ولا ظهر مقامه لأن الهوى يحركه والعادة تجذبه والغفلة تغمره إلا أنه يندم خلال الذنوب ويعاود هذا المتقدم المعتاد (**فهذه النفس هي التي تسمى المسوّلة**) وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿بل سولت لكم أنفسكم﴾ [يوسف: ١٨] وتوبة هذا فوت من وقت إلى وقت (**وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً**) عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة: ١٠٢] قيل: خلطوا عملاً

من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين. فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس، فكما لا يصلح لمنصب الرئاسة والقضاء والتقدم بالعلم إلاَّ نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح للملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية

صالحاً هو الإعتراف بالذنوب والتوبة السابقة، وآخر سيئاً ما سلف من الغفلة والجهالة (**فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه**) من المعاصي والمخالفات (**مرجو**) له الإستقامة لمحاسن عمله وتكفيرها لسالف سيئاته، (**فعسى الله أن يتوب عليه**) فيستقيم فيلحق بالسابقين (**وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره**) فيخاف عليه الإنقلاب لأجل ذلك ومن حيث مداومة خطاياه، (**فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة**) وإنما كان مثل هذا مخطر لأن خفايا المكر والإلطاف دقيق لا إطلاع لأحد عليه، فهذا بين حالين (**فإن تداركه الله بفضله**) بأن نظر إليه بعين رحمته (**وجبر كسره**) وأغنى فقره (**وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين**) والمقربين لأنه قد سلك طريقهم، (**وإن غلبته شهوته وقهرته شهوته**) وهي وصف النفس (**فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل**) بأن يكون من أهل النار، فلو أنه تاب سبعين توبة لم ينقذه من النار (**لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلاً الإحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل**) والتعلم (**دلّ على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين، فكذلك ارتباط درجات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب**) جل جلاله (**كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس**) ليلاً ونهاراً، (**فكما لا يصح لمنصب الرئاسة والقضاء والتقدم بالعلم الأنفس صارت فقيهة بطول التفقه فلا يصلح الملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا قلب سليم**) من الغش (**صار طاهراً بطول التزكية**

والتطهير. هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب، ولذلك قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دسّاها﴾ [الشمس: ٧ - ١٠] فمهما وقع العبد في ذنب فصار لذنب نقداً والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان. قال ﷺ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس أنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها». فإذاً الخوف من الخاتمة قبل التوبة. وكل نفس فهو خاتمة ما

والتطهير) عن الأدناس المعنوية. **(هكذا سبق في الأزل** تدبير **رب الأرباب، ولذلك قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها﴾)** أي ومن سواها وتسويتها بورود الروح الإنساني عليها واقتطاعها من جنس أرواح الحيوانات **(﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾)** والمراد بالهامها إفهامها وتعريف حالها والتمكن من الإتيان بها **(﴿قد أفلح من زكاها﴾)** أي أنماها بالعلم والعمل **(﴿وقد خاب من دساها﴾)** أي نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق. **(فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً)** حاضراً **(والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان). (قال ﷺ: «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس أنه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر)** ثم يدركه الشقاء». وفي لفظ آخر: **(«فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»)** وقد دخلت التعريت في صالح أعماله من الحسنات، ثم أحبطها عنه في آخر عمله بسبق الكتاب بالشقاوة، فأما من لم يسبق له سوء الخاتمة ووهبت له التوبة النصوح لم يدركه الشقاء. قال العراقي: وروى مسلم من حديث أبي هريرة: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة» الحديث. ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة». وشهر مختلف فيه انتهى.

قلت: وتمام حديث أبي هريرة عند مسلم: «ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وأن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة». وقد رواه أحمد أيضاً. وروى الشيخان من حديث سهل بن سعد: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار» الحديث زاد البخاري: «وإنما الأعمال بخواتمها».

وروى الطبراني، وأبو نعيم من حديث أكثم بن أبي الجون «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وأنه لمن أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار وأنه من أهل الجنة تدركه الشقاوة أو السعادة عند خروج نفسه فيختم له بها».

وأما حديث أبي هريرة من رواية شهر ابن حوشب الذي أخرجه أحمد بلفظه: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى خان في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» وهكذا رواه أيضاً ابن ماجه.

قبله إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به فليراقب الأنفاس وإلاَّ وقع في المحذورات ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر .

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته. فهذا من جملة المصرين ، وهذه النفس هي النفس الأمّارة بالسوء ، الفرارة من الخير ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله ، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة ولا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده ، وأن

وروى أحمد أيضاً من حديث عائشة : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وأن لمكتوب في الكتاب من أهل النار فإذا كان قبل موته بحول فيعمل بعمل أهل النار » الحديث .

(**فإذاً الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس**) من الأنفاس (**فهو خاتمة ما قبله ، إذ يمكن أن يكون الموت متصلاً به فيراقب الأنفاس**) ويحافظ عليها ، (**وإلا وقع في المحذور**) أي الأمر الذي يحذر منه ، (**ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر**) .

(**الطبقة الرابعة**) : اسوأ العبيد حالاً وأعظمهم على نفسه وبالا وأقلهم من الله وصلاً هو (**أن يتوب**) العبد عن المعاصي (**ويجري مدة على الإستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب**) بأن يتبع الذنب ذنباً أو أعظم منه (**من غير أن يحدث نفسه بالتوبة**) ولا ينويها ، (**ومن غير أن يتـأسف على فعله**) ولا يعتقد استقامة ولا يرجو وعدا ليحسن ظنه ، ولا يرجو وعيداً للتمكن منه ، (**بل ينهمك إنهماك الغافل في إتباع شهواته ، فهذا**) هو حقيقة الإصرار وهو (**من جملة المصرين**) والعتاة المستكبرين ، وفي مثل هذا جاء الخبر « هلك المصرون قدماً إلى النار » . (**وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من**) الصالحات و(**الخير ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة**) لأنه في مقدمتها وسالك طريقها ولا يبعد عنه سوء القضاء ودرك الشقاء ، ولأن العاصي يريد الكفر ، كأن الحي يريد الموت ، وفي مثل هذا قيل : من سوّف الله تعالى بالتوبة أكذبه وأن اللعنة خروج عن الذنب إلى ما هو أعظم منه ، (**و**) هو في عموم المسلمين (**أمره في مشيئة الله**) ومن الفاسقين قال الله تعالى : ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ أي مرجون بحكمه ﴿إما يعذبهم﴾ بالإصرار ﴿وإما يتوب عليهم﴾ [التوبة : ١٠٦] بما سبق من حسن الإختيار ، (**فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين**) على قدر إيمانه ، (**ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا تطلع عليه**) لأن خفايا الألطاف دقيق لا إطلاع لا حد عليه ، (**كما لا يستحيل**

يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم. فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة، وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له، فالناس كلهم محرومون إلا العالمون، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعد عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين ـ وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله ـ فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين. والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة

أن يدخل الإنسان) موضعاً **(خراباً ليجد كنزاً فيتفق أن يجده، ولا)** يستحيل أيضاً **(أن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم)** والمعارف **(من غير)** سبق **(تعلم)** لها، **(كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم)** إذ علومهم وهبية افاضية، **(وطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار و)** طلب **(المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها)** أي المغفرة **(بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال)** وفسادها **(كطلب الكنوز في الموضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة، وليت من اجتهد تعلم، وليت من اتجر)** وركب البحار **(استغنى، وليت من صام وصلى غفر له، فالناس كلهم محرومون)** عن نيل السعادة **(إلا العالمون والعالمون محرومون إلا العاملون)** لله تعالى، **(والعاملون محرومون إلا المخلصون)** في أعمالهم لله تعالى قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠] **(والمخلصون على خطر عظيم)** وهو منتزع من كلام أبي محمد سهل التستري رحمه الله تعالى: الناس كلهم هلكى إلا العالمون والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون على خطر عظيم، وقد تقدم ذلك في آخر كتاب الغرور، **(وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعاً يزعم أنه ينتظر فضل الله)** تعالى **(بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب)** كان **(يعد عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر في الطاعة مصرّ على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين)** أي المدهوقين من غير جنون، **(والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة)** الصيغة أصلها الواو

حسنة إذ يقول: إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار، وإذ قيل له: إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ويقول: ما هذا الهوس؟ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب، هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً، وأنه قد أخبر إذ قال: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٩] فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا؟ وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا؟ وينسى قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات: ٢٢] فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلاً

كالقيمة وصيغة القول كذا أي: مثاله وصورته على التشبيه بالعمل والتقدير. (**إذ يقول: إن الله**) تعالى (**كريم**) أي موصوف بالكرم (**وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره**) وإنما شؤمها عليّ، (**ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار**) أي الأمور الصعبة (**في طلب الدينار، وإذا قيل له: إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك**) واسترح، (**فعساه**) أن (**يرزقك من حيث لا تحتسب، فيستحمق قائل هذا الكلام**) أي يعده حمقاً (**ويستهزىء به ويقول: ما هذا الهوس**) أي خفة العقل؟ (**السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب**) والسعي في الأسباب (**هكذا قدره رب الأرباب**) وفي نسخة مسبب الأسباب (**وأجرى به**) في العالم (**سنته ولا تبديل لسنة الله**) بنص القرآن، (**ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد، وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعاً، وأنه**) تعالى (**قد أخبر**) على لسان رسله (**إذ قال: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾**) وأن سعيه سوف يرى* (**فكيف يعتقد أنه تعالى كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا، وكيف يقول: ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب الحلال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد**) ولا مشقة (**في الآخرة، وهذا يمنعه مع شدة الإجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسى قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ فنعوذ بالله من العمى**) أي عمى البصيرة (**والضلال، فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل، وصاحب**

تحت قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رؤوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِم ربَّنا أبْصَرْنَا وَسمعْنَا فأرجِعْنَا نَعْمَلْ صالحاً﴾ [السجدة: ١٢] أي أبصرنا انك صدقت إذ قلت: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فأرجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب.

هذا جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم) إلى تحت **(عند ربهم)** أي في حضرة الربوبية يقولون: **(ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا)** إلى الدنيا ثانياً **(نعمل صالحاً)** فإنا لا نرى النجاة إلا لمن عمل صالحاً. وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ [فاطر: ٣٧] وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والإعتراف به، والإشعار بأن رجوعهم وإخراجهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح والآن تحقق لهم خلافه **(أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت)** في كتابك العزيز: **(﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ فارجعنا لنسعى)** في صالح الأعمال، **(وعند ذلك لا يمكن من الإنقلاب ويحق عليه العذاب)** أي يثبت، **(فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والإرتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب)** والله الموفق.

تنبيه:

تقدم في تقسيم المصنف طبقات التائبين إلى أربعة، وأشار فيها أن الطبقة الأولى أهلها هم السابقون بالخيرات، وأن الثانية أهلها هم المقتصدون، وأن الثالثة والرابعة هم الظالمون أنفسهم وأمرهم في مشيئة الله تعالى، وأشار في أثناء ذلك إلى النفوس الأربعة المطمئنة واللوامة والمسوّلة والإمارة وفي سياقه من أوله إلى آخره تلميح لطيف إلى قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ [فاطر: ٣٢] أما النفوس، فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز إياها بثلاثة أوصاف بالطمأنينة قال: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾ [الفجر: ٢٧] وسماها لوامة فقال: [ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾ [القيامة: ٢] وسماها إمارة فقال: ﴿إن النفس لامارة بالسوء﴾ [الفجر: ٢٧] وهي نفس واحدة ولها صفات متغايرة، فإذا امتلأ القلب سكينة خلع الطمأنينة لأن السكينة مزيد الإيمان، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظ اليقين، وعند توجه القلب إلى محل الروح وتوجه النفس إلى محل القلب، وفي ذلك طمأنينتها، وإذا انزعجت عن مقار جبلاتها ودواعي طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة فهي اللوّامة لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعملها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها إلى محلها الذي كانت فيه أمارة بالسوء، وإذا قامت في

محلها لا يغشاها نور العلم والمعرفة فهي على ظلمتها أمارة بالسوء، وقد تقدم شيء من ذلك في كتاب عجائب القلب، ولنتكلم على الآية المذكورة.

قال البيضاوي: ظالم لنفسه أي بالتقصير في العمل به، وقوله: مقتصد أي يعمل به في أغلب الأوقات، والسابق هو الذي يضم التعليم والإرشاد إلى العمل، ومثل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم، وقيل: الظالم المجرم، والمقتصد الذي خلط الصالح بالسيء، والسابق الذي ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة، وهو معنى قوله ﷺ: «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون في طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته» وقيل: الظالم الكافر على أن الضمير للعباد وتقديمه لكثرة الظالمين، ولأن الظلم بمعنى الجهل والركون إلى الهوى مقتضى الجبلة والإقتصاد والسبق عارضان انتهى.

قلت: وهذه الأقوال كلها مسندة، والحديث المذكور رواه الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ الآية. فإما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب، واما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم يلقاهم الله تعالى برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ إلى ﴿لغوب﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] قال البيهقي: إذا كثرت الروايات في حديث ظهر أن للحديث أصلاً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ الآية قال: هم أمة محمد ﷺ ورثهم كل كتاب أنزل، فظالمهم مغفور له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب.

وأخرج الطيالسي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة كلهم في الجنة».

وأخرج الطيالسي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، والحاكم، وابن مردويه عن عقبة بن صهبان قال: قلت لعائشة أرأيت قول الله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ الأية قالت: أما السابق فقد مضى في حياة رسول الله ﷺ فشهد له بالجنة، وأما المقتصد فمن اتبع أمرهم فعمل بمثل أعمالهم حتى يلحق بهم، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك ومن اتبعنا وكل في الجنة.

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود وقال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يحبسون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بالله فيقول الرب: ادخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، ثم قرأ هذه الآية.

وأخرج العقيلي ، وابن لال ، وابن مردويه ، والبيهقي من حديث عمر : سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له ، ثم قرأ عمر هذه الآية .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة عن عثمان أنه نزع بهذه الآية قال : إنا سابقنا أهل جهاد ألا وأن مقتصدنا ناج أهل حضرنا ألا وأن ظالمنا أهل بدونا .

وأخرج ابن مردويه والديلمي من حديث حذيفة : يبعث الله الناس على ثلاثة أصناف ، وذلك في قول الله تعالى : ﴿ فمنهم ظالم ، لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بلا حساب ، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ، والظالم لنفسه يدخل الجنة برحمته .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن الحنفية قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعطها أمة كانت قبلها . منهم ظالم لنفسه مغفور له ، ومنهم مقتصد في الجنان ، ومنهم بالمكان الأعلى .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد : فمنهم ظالم لنفسه قال : هم أصحاب المشأمة ، ومنهم مقتصدهم أصحاب اليمين ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله قال : هم السابقون من الناس كلهم .

وفي تفسير الكواشي وعن علي رضي الله عنه قال : الظالم أنا ، والمقتصد أنا ، والسابق أنا . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ظالم بمعصيتي ، ومقتصد بتوبتي ، وسابق بمحبتي . وفي الآية وجوه من الإشارات .

قال الجنيد : لما ذكر الخيرات دل على ان الخلق فيه عام وخاص وأن الميراث لمن هو أصلح قرباً وأصلح نسباً ، فتصحيح النسبة هو الأصل في رتبة القربة ، فالظالم الذي أحبه لنفسه ، والمقتصد الذي احبه له ، والسابق الذي أسقط مراده لمراد الحق فيه فلا يرى لنفسه طلباً ولا فرد الغلبة سلطان الحق عليه .

وقال النصراباذي : صحح النسب وخذ الميراث ولا يأخذ ميراث الحق إلا من نسب بالحق وإلى الحق دون الأسباب والوسائط . وقال جعفر الصادق : بدأ بالظالمين إخباراً بأنه لا يتقرب إليه إلا بمحض كرمه ، وأن الظلم يؤثر في الاصطفائية ثم بالمقتصدين ، لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لأنه لا يأمن أحد مكره ، ومنهم في الجنة بحرمة كلمة الاخلاص في الشهادة وقال غيره : يبدأ بالميراث بذوي الفروض ثم ما يبقى فللعصبة ، وإن كان صاحب الفرض أضعف استحقاقاً ، كذلك قال الله تعالى ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ فقدمه على المقتصد والسابق ، وتكلموا في الظالم ، فمنهم من قال : هو الأفضل وأراد به من ظلم نفسه بكثرة ما حملها من الطاعة ، والاكثرون على أن السابق هو الأفضل وقالوا : التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة يعني فهو من باب التدلي لا من طريق الترقي . ويقال : قرن باسم الظالم قرينة ، وهو قوله (**لنفسه**) وقرن باسم السابق قرينه وهو قوله (**بإذن الله**) فالظالم كان له زلة والسابق كان له صولة ، فالظالم رفع زلته بقوله (**لنفسه**) والسابق كسر صولته بقوله (**بإذن الله**) . ويقال : الظالم من زهد في دنياه ، والمقتصد من رغب في

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق:

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها كما ذكرنا طريقه، فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها.

فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل

عقباه، والسابق من آثر على الدارين مولاه، ويقال: الظالم من نجح كوكب عقله، والمقتصد من عظم بدر علمه، والسابق من أشرقت شمس معرفته. ويقال: الظالم من ترك الزلة، والمقتصد من ترك الغفلة، والسابق من ترك العلاقة. ويقال: الظالم من جاد بنفسه، والمقتصد من لم يبخل بقلبه، والسابق من جاد بروحه. ويقال: الظالم من له علم اليقين، والمقتصد من له عين اليقين، والسابق من له حق اليقين. ويقال: الظالم بترك المحرمات، والمقتصد بترك الشبهات، والسابق بترك الزيادات. ويقال: الظالم طالب النجاة، والمقتصد طالب الدرجات، والسابق طالب المناجاة. وفي الآية وجوه كثيرة غير ما ذكرتها.

فصل

في حال من عجز عن التوبة قال:

(بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق).

(**اعلم**) وفقك الله تعالى (**أن**) من وقع منه ذنب أو ذنوب، فإن (**الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه**) أنفاً، (**فإن**) عجز (**ولم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة**) بل قهرته نفسه وشهوته (**فقد عجز عن أحد الواجبين، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني**) ولا يعجز عنه، (**وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة**) أي يدفعها بها (**لتمحوها**) وتزيلها (**فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً**) وهو حال المقتصدين، (**فالحسنات المكفرة**) وفي نسخة المكفرات (**للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها**).

(**فأما القلب: فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى**) والابتهال إليه (**في سؤال المغفرة والعفو**) عن باطن قلبه دون حركة اللسان فقط ويتذلل) في نفسه (**تذلل العبد الآبق**) عن

العبد الآبق، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد، وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

وأما باللسان، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول: رب ظلمت نفسي وعلمت سوءاً فاغفر لي ذنوبي، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ـ كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار ـ.

وأما بالجوارح؛ فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوّاً أربعة من أعمال القلوب وهي: التوبة

مولاه، (**ويكون ذلك بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم**) فيرى الناس كلهم خيراً منه، (**فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على العباد**) والكبر والمعصية لا يجتمعان في قلب مؤمن، (**وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين كلهم والعزم على الطاعات إلى آخر العمر**.

(**وأما باللسان: فبالاعتراف بالظلم**) أي يعترف بظلمه (**لنفسه، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ [التوبة: ١٠٢] قيل: الاعتراف بالذنوب والاستغفار**) فقد ورد فضله في الكتاب والسنة (**فيقول**) ما ورد عن النبي ﷺ نحو قوله: (**« رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي »**) روى الديلمي من حديث ابن عباس: « من قال لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ». أو يقول « رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التوّاب الرحيم » رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث ابن عمر قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة فذكره. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وهذا لفظ أبي داود، وعند الثلاثة التوّاب الغفور. وفي رواية للنسائي « اللهم اغفر لي وارحمني وتب عليّ إنك أنت التوّاب الغفور ». (**وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار**) كسيد الاستغفار المروي عن شداد بن أوس: « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » رواه البخاري والترمذي والنسائي، (**كما أوردناه في كتاب الدعوات والاذكار**).

(**وأما الجوارح؛ فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات**) والاستكثار منها فاعله بذلك يزيد حسنته على سيئاته ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره★ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] (**وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا اتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوّاً**). ولفظ القوت: ومن أحسن ما يتعقب الذنب من الأعمال بعد التوبة وحل الاصرار مما

أو العزم على التوبة، وحب الاقلاع عن الذنب، وتخوّف العقاب عليه ورجاء المغفرة له.
وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة وتقول: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم

يرجى به كفارة الخطيئة ثمانية أعمال: (**أربعة من أعمال القلوب وهي:**) اعتقاد (**التوبة**) منه، (**والعزم على التوبة**) فإن العبد إذا عزم عليها فكأنه اعتقدها، ولم يذكر صاحب القوت هذه الزيادة، (**وحب الاقلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له**) ثم يحتسب على الله تعالى بحسن ظنه وصدق يقينه كفارة ذنبه، فهذه الأربعة من أعمال القلوب، (**وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن يصلي**) العبد (**عقب الذنب ركعتين**) وذلك بعد أن يتوضأ وإن اغتسل كان أكمل وإن أمكنه ان يغسل الثياب التي عصى الله فيها كان أكمل، فإن طهارة الظاهر عنوان طهارة الباطن، وإذا كانت الصلاة في موضع خال عن اشتغال وعن توهم الرياء والسمعة في بال كان أكمل، ويشترط أن يضع جبينه على الأرض لله والتراب لزيادة الخشوع عند الله وللتذكر إلى أصله ومرجعه، (**ثم يستغفر الله بعدها**) مع البكاء إن أمكن وإلاّ فبالتباكي وقلب حزين على ما سبق له من المعصية ويجعلها نصب عينيه (**سبعين مرة**). روى الديلمي من حديث أبي هريرة «من استغفر الله سبعين مرة في [دبر كل صلاة غفر له ما كتب من الإثم » الحديث. وروى الحسن بن سفيان من حديث أنس «من استغفر سبعين مرة غفر له سبعمائة ذنب» الحديث وروى ابن السني في عمل اليوم الليلة من حديث عائشة «من استغفر الله في كل يوم سبعين مرة لم يكتب من الكذابين» الحديث (**ويقول: سبحان الله العظيم وبحمده**) ولو (**مائة مرة**) فإن زاد أو نقص فهو بالخيار إن زاد في الاستغفار حتى صار مائة مرة فهو أفضل وأكمل، وكذلك ينبغي أن يكون مع التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير مائة لتجتمع الباقيات الصالحات، بل ويضم إليها لا حول ولا قوّة إلا بالله، كذلك ثم يرفع يديه ويحمد الله تعالى ويصلي على نبيه ﷺ ويدعو لنفسه ولوالديه ولجميع المسلمين.

روى ابن أبي شيبة وأحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث أبي هريرة من قال: «سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

وروى البيهقي من حديث ابن عمر «من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له ألف حسنة ومن زاد زاده الله».

وروى أحمد، ومسلم، وأبو داود والترمذي، وابن حبان «من قال حين يصبح ويمسي سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحداً قال مثل ذلك أو زاد عليه».

(**ثم يتصدق بصدقة**) سراً أو علانية ليلاً أو نهاراً ليدخل في قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم﴾ [البقرة: ٢٧٤] (**ثم يصوم يوماً**)

تصوم يوماً ، وفي بعض الآثار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين ، وفي بعض الأخبار : تصلي أربع ركعات . وفي الخبر : « إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها ، السر

فانه من جلة الحسنات المكفرات للسيئات . فهذه الأعمال قد وردت بها الآثار أنها مكفرة للزلل والعثار .

(**وفي بعض الآثار**) أنه يشترط أن يتوضأ و(**يسبغ الوضوء**) واسباغه بإكمال شروطه وأركانه وواجباته ، (**ويدخل المسجد ويصلي ركعتين**) فإن المسجد أفضل الأماكن وأشرفها ويشهد له بما عمل فيه . قال العراقي في هذه الآثار : إن من مكفرات الذنب أن يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصلي ركعتين . رواه أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق : ما عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له . هذا لفظ أبي داود ، وهو في الكبرى للنسائي مرفوعاً وموقوفاً ، فلعل المصنف عبر بالآثار لإرادة الوقف فذكرته احتياطاً وإلاّ فالآثار ليست من شرط كتابي انتهى .

قلت : وقد روى الطبراني في الأوسط من حديث أبي الدرداء « ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ثم يصلي ركعتين أو أربعاً مفروضة وغير مفروضةثم يستغفر الله إلا غفر الله له » .

وحديث أبي بكر رواه كذلك الطيالسي ، وابن أبي شيبة ، وأحمد والحميدي ، والعدلي ، وعبد بن حميد ، وابن منيع ، وابن السني في عمل يوم وليلة ، وابن حبان ، والبزار ، وأبو يعلى والدارقطني في الافراد ، والبيهقي والضياء كلهم من رواية علي عن أبي بكر ولفظهم جميعاً « ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر الله له » .

(**وفي بعض الأخبار يصلي أربع ركعات**) قال العراقي : رواه ابن مردويه في التفسير ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال : كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يهوى امرأة الحديث . وفيه « فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من أهله وحرك ذكره فإذا هو مثل الهدبة فقام نادماً فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك ، فقال له النبي ﷺ : صل أربع ركعات فانزل الله تعالى : ﴿أقم الصلاة طرفي النهار﴾ [هود : ١١٤] الآية » . واسناده جيد انتهى .

قلت : ورواه كذلك البزار ولفظهم جميعا « أن رجلاً كان يهوى امرأة فاستأذن النبي ﷺ في حاجة فأذن له فانطلق في يوم مطير فإذا هو بالمرأة على غدير ماء تغسل ، فلما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذهب يحرك ذكره فإذا هو كأنه هدبة فندم فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك ، فقال النبي ﷺ : صل أربع ركعاتت ، فأنزل الله : ﴿أقم الصلاة طرفي النهار﴾ الآية » .

وروى عبد الرزاق ، وابن جرير عن يحيى بن جعدة أن رجلاً أقبل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر ، فوجد امرأة جالسة على غدير ، فدفع في صدرها وجلس بين رجليها فصار ذكره مثل

بالسر والعلانية بالعلانية » ، ولذلك قيل : صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار . وفي الخبر الصحيح : أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض علي بحكم الله تعالى . فقال ﷺ : « أو ما صليت معنا صلاة الغداة ؟ » . قال : بلى ، فقال ﷺ : « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

الهدبة ، فقام نادماً حتى أتى النبي ﷺ فاخبره بما صنع فقال له : استغفر الله ربك وصل أربع ركعات وتلا عليه ﴿أقم الصلاة طرفي النهار﴾ الآية » .

(وفي الخبر « إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية ») قال العراقي : رواه البيهقي في الشعب من حديث معاذ فيه رجل لم يسم ، ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ بلفظ و« ما عملت من سوء فاحدث لله فيه توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية » الحديث انتهى .

قلت : ورواه ابن النجار من حديثه « إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة السر بالسر والعلانية بالعلانية » . ورواه أحمد في الزهد عن عطاء بن يسار مرسلاً « إذا عملت سيئة فاحدث عنها توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية » . وروى أحمد من حديث أبي ذر « إذا عملت سيئة فاتبعها بحسنة تمحها . قيل : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : هي أفضل الحسنات » .

(ولذلك قيل : صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار) . ولفظ القوت ويقال : صدقة الليل تكفر ذنوب النهار وصدقة السر تكفر ذنوب الليل . **(وفي الخبر الصحيح أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس)** يعني الوقاع **(فاقض عليّ بحكم الله تعالى . فقال ﷺ : « أوما صليت معنا صلاة الغداة » ؟ قال : بلى ، قال : « فإن الحسنات يذهبن السيئات »)** قال العراقي : متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله « أو ما صليت معنا صلاة الغداة » . ورواه من حديث أنس وفيه « هل حضرت معنا الصلاة » ؟ قال : نعم . ومن حديث أبي أمامة وفيه « هل شهدت الصلاة معنا ؟ » قال : نعم الحديث اهـ .

قلت : لفظ المتفق عليه من حديث ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها فأنزلت عليه ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ الآية . فقال الرجل : يا رسول الله ألي هذه » قال : « هي لمن عمل بها من أمتي » وقد رواه كذلك أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن حبان . وروى ابن حبان وحده بلفظ قال رجل : يا رسول الله إني رأيت امرأة في البستان فضممتها إليّ وقبلتها وباشرتها وفعلت بها كل شيء إلا أني لم أجامعها فمسكت رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿أقم الصلاة﴾ الآية . فدعاه رسول الله ﷺ فقرأها عليه ، فقال عمر : يا رسول الله أله خاصة ؟ فقال « للناس كافة » . ورواه عبد الرزاق ، وأحمد ومسلم والثلاثة : وهناد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم

وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة، إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله ﷺ: «الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر» فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات.

فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار، وفي الخبر: «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله» وكان بعضهم يقول:

والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب بلفظ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزقتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره فقال: «ردوه عليّ» فردوه فقرأ ﴿وأقم الصلاة﴾ الآية. فقال معاذ بن جبل: يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة؟

وأما حديث أنس في المتفق عليه فلفظه: كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً فأقمه عليّ، فلم يسأله عنه، وحضرت الصلاة فصلى مع النبي ﷺ، فلما قضى الصلاة قام الرجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً في كتاب الله. قال «أليس قد صليت معنا؟» قال: نعم. قال «فإن الله قد غفر ذنبك» رواه كذلك أحمد.

وقد روي مثل ذلك من حديث واثلة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول إني أصبت حداً فاقمه عيّ الحديث. وفيه فقال رسول الله ﷺ «هل توضأت حين أقبلت؟» قال نعم، قال «صليت معنا؟» قال نعم. قال «فاذهب فإن الله قد غفر لك». رواه ابن حبان.

وأما حديث أبي أمامة، فرواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن جرير والطبراني وابن مردويه: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقم فيّ حدّ الله مرة أو مرتين، فاعرض عنه، ثم أقيمت الصلاة قال: «أين الرجل؟» قال: أنا ذا قال «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً؟» قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك فلا تعد» وأنزل الله حينئذ على رسوله ﴿أقم الصلاة﴾ الآية. وقد روي مثل هذه القصة من حديث بريدة، ورواية عطاء بن أبي رباح وإبراهيم النخعي وزيد بن رومان وغيرهم.

(**وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة، إذ جعل الصلاة كفارة لذلك بمقتضى قوله** ﷺ «**الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر**») تقدم قريباً، (**فعلى الأحوال كلها ينبغي ان يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته**) فرداً فرداً ويلوم النفس ويوبخها، (**ويجتهد في دفعها بالحسنات**) على الطريق المتقدم ذكره.

(**فإن قلت: فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حل عقدة الإصرار، وفي الخبر «المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله»**) قال العراقي: رواه ابن أبي

أستغفر الله من قولي أستغفر الله، وقيل: الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وقالت رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير! فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ـ ذكرناها في كتاب الاذكار والدعوات ـ حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ [الأنفال: ٣٣] فكان بعض الصحابة يقول: كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا فنقول:

الدنيا في التوبة، ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ « كالمستهزىء بربه » وسنده ضعيف اهـ.

قلت: لفظ ابن أبي الدنيا « التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه، ومن آذى مسلماً كان عليه من الذنب مثل كذا وكذا » وفي سنده من لا يعرف. وروي مرفوعاً. قال المنذري: ولعله أشبه بل هو الراجح، وقد رواه البيهقي وابن عساكر من هذا الطريق.

(وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولي أستغفر الله) أي من غير توبة وندم بالقلب نقله صاحب القوت. **(وقيل: الاستغفار باللسان توبة الكذابين)** نقله صاحب القوت، وفي الرسالة قال ذو النون: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين قال وقال وبعضهم: توبة الكذابين على طرف لسانهم يعني قول أستغفر الله. **(وقالت رابعة)** بنت إسماعيل **(العدوية)** البصرية رحمها الله تعالى: **(استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار كثير)** وتوبتنا تحتاج إلى توبة أي في صحتها وإخلاصها من النظر إليها والسكون والإدلال بها نقله صاحب القوت. **(فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر)** والاستقصاء **(ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات، حتى)** أنه قد **(قرن الله تعالى الاستغفار)** للعباد **(ببقاء الرسول)** فيهم ودفع العذاب عنهم بوجوده فضلاً منه ونعمة، **(فقال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ نقله صاحب القوت. (فكان بعض الصحابة)** ولفظ القوت: وقد كان بعض السلف **(يقول: كان لنا أمانان ذهب أحدهما)** ولفظ القوت: فذهب أحدهما وبقي الآخر، **(وهو كون الرسول فينا و)** الذي **(بقي الاستغفار، فإن ذهب هلكنا)** قال العراقي: رواه أحمد من قول أبي موسى الأشعري، ورفعه الترمذي من حديثه « أنزل الله عليّ أمانين » الحديث، وضعفه. ورواه ابن مردويه في التفسير من قول ابن عباس اهـ.

قلت: لفظ الترمذي « انزل الله تعالى عليّ أمانين لأمتي ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة ».

وأما الموقوف من قول أبي موسى، فقد أخرجه أيضاً ابن جرير، وأبو الشيخ، والطبراني، وابن

الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله، وكما يقول إذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة. فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال ﷺ: «ما أصر

مردويه، والحاكم، وابن عساكر عنه قال: إنه قد مضى لسبيله، وأما الاستغفار؛ فهو كائن فيكم إلى يوم القيامة.

وأما قول ابن عباس بلفظ ابن مردويه: «إن الله جعل في هذه الامة أمانين لا يزالون معصومين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقي فيكم ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية». وهكذا رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ.

ورواه البيهقي في الشعب بلفظ «كان في هذه الأمة أمانان - يعني رسول الله ﷺ - وبقي أمان يعني الاستغفار» وروى أيضاً في السنن مثله، وقد روي نحو ذلك من قول أبي هريرة بلفظ «كان فيهم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ الآية».

وروى الديلمي من حديث عثمان بن أبي العاص رفعه «في الأرض أمانان أنا أمان والاستغفار أمان وأنا مذهوب بي وبقي أمان الاستغفار فعليكم بالاستغفار عند كل حدث وذنب».

وروى صاحب نهج البلاغة من طريق أهل البيت عن علي رضي الله عنه أنه قال «كان في الأرض أمانان من عذاب الله سبحانه فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. أما الامان الذي رفع فهو رسول الله ﷺ، وأما الامان الباقي فالاستغفار قال الله عز وجل ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾».

فنقول: الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة، كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله فيجري) على لسانه من غير أن يتعقل معناه أو يعمل بموجبه، **(وكما يقول: إذا سمع صفة النار)** وأحوال المعذبين فيها **(نعوذ بالله منها)** أو ما يشبهه **(من غير أن يتأثر به قلبه، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان)** في الظاهر **(ولا جدوى له، فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤاله المغفرة)** منه **(عن صدق ارادة)** وحضور طوية **(وخلوص رغبة، فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة)** وتمحى بها، **(وعلى هذا تحمل الاخبار الواردة في فضل الاستغفار)** مما تقدم ذكرها كتاب الأذكار والدعوات، **(حتى قال ﷺ «ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة»)** رواه أبو داود

من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب، وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها، ولذلك قال سهل: لا بد للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء، فإن عصى قال: يا رب استر عليّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تب عليّ. فإذا تاب قال: يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل قال: يا رب تقبل مني. وسئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال: أوّل الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش. وسئل أيضاً عن قوله ﷺ: « التائب

والترمذي وضعفه، وأبو يعلى والبيهقي وابن السني في عمل يوم وليلة والدارقطني في الافراد من حديث أبي بكر وقد تقدم في الدعوات. (**وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب**) مع اللسان لا بمجرد حركة اللسان، (**وللتوبة والاستغفار درجات، وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها، وكذلك قال**) أبو محمد (**سهل**) بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى: (**لا بدّ للعبد في كل حال من مولاه فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء فإن عصى يقول: يا رب استر عليّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تب عليّ، فإذا تاب قال: يا رب ارزقني العصمة وإذا عمل قال: يا رب تقبل مني**) نقله صاحب القوت.

(**وسئل**) سهل (**أيضاً**) رحمه الله تعالى (**عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب. فقال: أوّل الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، والاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق**) ولفظ القوت: وترك الخلق، (**ثم يستغفر من تقصيره الذي هو فيه، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه، ثم ينتقل إلى الانفراد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم الفكر، ثم المعرفة،** ثم المناجاة، **ثم المصافاة، ثم الموالاة، ثم محادثة السر وهو الخلة، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه، والذكر قوامه، والرضا زاده**) والتفويض مراده، (**والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله تعالى إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش**) هكذا نقله صاحب القوت. وفي الرسالة للقشيري وقال ابن عطاء: التوبة توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة، فتوبة الانابة أن يتوب إليه خوفاً من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرمه.

حبيب الله » فقال: إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى: ﴿التائبون العابدون﴾ [التوبة: ١١٢] الآية. وقال: الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه.

والمقصود أن للتوبة ثمرتين:

إحداهما: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

والثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيباً. وللتكفير أيضاً درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها. بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ [الزلزلة: ٧] صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر،

(**وسئل**) سهل رحمه الله تعالى (**أيضاً عن قوله ﷺ « التائب حبيب الله »**) كما تقدم في أوّل هذا الكتاب: متى يكون التائب حبيب الله؟ (**قال: إنما يكون حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكره الله في قوله ﴿التائبون العابدون الحامدون﴾ الآية كلها**) تمامها ﴿السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين﴾ فالعابدون هم المخلصون في عبادة الله، والحامدون على نعمة الإسلام، والسائحون هم الصائمون، والراكعون الساجدون أي المحافظون على الصلوات والحافظون لحدود الله أي أوامره ونواهيه أو معالم الشرع: (**وقال: الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه**) ولفظ القوت: ثم قال الحبيب لا يدخل إلا في شيء يحبه الحبيب.

(**والمقصود أن للتوبة ثمرتين**):

(**أحداهما: تكفر السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له**) وإليه الإشارة في الخبر التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

(**والثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيباً**) وإليه الإشارة في الخبر « التائب حبيب الله ». (**وللتكفير أيضاً درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعضه تخفيف له. ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالإستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار في أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها، بل عرف أهل المشاهدة**) بعجائب عالم الملكوت (**وأرباب القلوب**) والبصائر (**معرفة لا ريب فيها**) ولا تردد (**أن قول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾**) حق و(صدق وأنه لا تخلو ذرات من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في

كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات، وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول: أي غنى يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب؟ ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة، فإذاً التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً، بل أقول: الاستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصاً بالإضافة إلى عمل القلب، ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل. فقال: اشكر الله إذ استعمل جارحة من

الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها، ولكان لا يرجح الميزان بأجمال الذرات، وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخيرات) إذا جمعت إلى بعضها (**إلى أن يثقل فتشيل كفة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات**) وتستحقرها (**فلا تأتيها و**) تستصغر ذرات (**المعاصي فلا تتقيها، فتكون كالمرأة الخرقاء**) وهي التي إذا عملت في شيء لم ترفق فيه (**تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول: أي غني يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب**) أي ما قدره، (**ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا** كلها **إنما اجتمعت خيطاً خيطاً، وأن أجسام العالم مع إتساع أقطاره**) إنما (**اجتمعت ذرة ذرة، فإذاً التضرع والإستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً**) بل هي محسوبة له في ميزان الحسنات. (**بل أقول**): إن (**الإستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة**) من حضور القلب (**خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه** فيظهر **فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنما يكون نقصاً بالإضافة إلى عمل القلب ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان**) سعيد بن سلام (**المغربي**). قال القشيري في الرسالة: واحد عصره لم يوصف مثله قبله، صحب ابن الكاتب، وأبا عمرو، والزجاجي، ولقي النهرجوري، وابن الصائغ وغيرهم. مات بنيسابور سنة ٣٢٣، وأوصى أن يصلي عليه الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى: (**إن لساني في بعض الأحوال**) وفي نسخة: الأوقات (**يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل فقال: اشكر الله**) تعالى (**إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوّده الذكر،**

جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول. وما ذكره حق فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي. فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما تعود فقال: أستغفر الله. ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك! ومن تعوّد الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان: نعوذ بالله، وإذا تعوّد الفضول قال: لعنه الله، فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى: ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [التوبة: ١٢٠] ومعاني قوله تعالى: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ [النساء: ٤٠] فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان، حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول، هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة ﴿أكبر لو كانوا يعلمون﴾ [القلم: ٣٣] فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روّجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر، فأي خير في ذكرنا، باللسان مع غفلة القلب؟ فانقسم الخلق في هذه المكيدة

ولم يستعمله في الشر ولم يعوّده الفضول. وما ذكره حق) لا مرية فيه، (**فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع**) اللازم (**يدفع جملة من المعاصي، فمن تعود لسانه الإستغفار إذا سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما تعوّده فقال: أستغفر الله. ومن تعوّد الفضول سبق لسانه إلى أن يقول: ما أحمقك وما أقبح كذبك، ومن تعود الإستعاذة إذا حدث**) أي أخبر (**بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله**) أو عياذاً بالله أو العياذ بالله، (**وإذا تعود الفضول قال: لعنه الله**) أو قبحه الله أو قاتله الله، (**فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الإستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة، واللعن والفضول هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات، وتضعيف الآخرة ﴿أكبر لو كانوا يعلمون﴾**) قال تعالى: ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلاً﴾ [الأسراء: ٢١] (**فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك**) أي تضعف (**في العبادات، فإن هذه مكيدة روّجها**) أي زينها الشيطان (**بلعنته**) أي طرده عن حضرة القرب (**على المغرورين**) والحمقى، (**وخيل إليهم**) بأن ألقى في أذهانهم (**أنهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر فأي خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب**) وقد

إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.

أما السابق، فقال: صدقت يا ملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلاً، فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب، فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه.

وأما الظالم المغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فاسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل: وافق شن طبقه ★ وافقه فاعتنقه.

وأما المقتصد: فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير. فكان السابق كالحائك الذي ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتباً، والظالم المتخلف كالذي ترك

تتمكن فيهم هذه الوسوسة، (**فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات**).

(**أما السابق: فقال صدقت يا ملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلاً**) وهو تفويته عن الخير، (**فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك**) أي الصقها بالرغام وهو التراب (**من وجهين، فاضيف إلى حركة اللسان حركة القلب**) فيتواقفان، (**فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه**)، بل كان كمن أراد أن يصطاد فاصطيد.

(**وأما الظالم المغرور: فاستشعر لنفسه خيلاء الفطنة**) وعجب الإدراك (**لهذه الدقيقة، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعديد اللسان بالذكر فاسعف الشيطان**) بمراده، (**وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة**) وفي نسخة: المشاكلة (**والموافقة**) فكان (**كما قيل**) في المثل: (**وافق شن طبقة★ وافقه فاعتنقه**) الشن بالفتح وعاء من ادم يوضع فيه الماء وغيره، وطبقه غطاؤه أي وافق الشن غطاؤه هكذا فسره الزمخشري في الأساس، وقال الكلبي قولهم: أوفق من طبق لشن طبق: قبيلة من إياد، وشن من ربيعة، فأوقعت طبقة بشن فانتصفت منها، فقالوا: وافق شن طبقة، وأنشد في ذلك:

لقيت شناً أياد بالغنى ... ولقد وافق شناً طبقه

(**وأما المقتصد: فلم يقدر على إرغامه باشراك القلب في العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب، ولكن اهتدى بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير، فكان السابق كالحائك الذي**

الحياكة أصلاً . وأصبح كناساً ، والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لا أنكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس، فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ، ولذلك قالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ، فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث أنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه ، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد ، فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الابرار سيئات المقربين . فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي ، ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث ، رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحداً فلعله ولي الله تعالى وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه .

ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتباً ، والظالم لنفسه المتخلف كالذي ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً) يكنس الزبالات ، **(والمقتصد كالذي عجز عن الكتابة فقال: لا أنكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس، فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة، ولذلك قالت** رابعة العدوية) رحمها الله تعالى : **(استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير)** نظراً إلى ذلك ، **(فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث أنه ذكر الله)** تعالى **(بل)** هي **(تذم غفلة القلب، فهو محتاج إلى الإستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الإستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد ، فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل: الصادق حسنات الإبرار سيئات المقربين)** وهو من كلام أبي سعيد الخراز كما قاله ابن عساكر في ترجمته وقد تقدم ، **(فإن هذه أمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة ، بل ينبغي أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي ، ولذلك قال)** أبو عبدالله **(جعفر الصادق)** رحمه الله تعالى : **(إن الله خبأ ثلاثاً في ثلاث)** : خبأ **(رضاه في طاعته فلا تحقروا منها)** أي من الطاعات **(شيئاً فلعل رضاه فيه ، و)** خبأ **(غضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فلعل غضبه فيه ، و)** خبأ **(ولايته)** وفي نسخة: وليه **(في عباده فلا تحقروا منهم أحداً)** وفي نسخة: فلا تحقروا من عباد الله أحداً **(فلعله ولي الله)** ، وزاد رابعاً فقال: **(و)** خبأ **(إجابته في دعائه بأسمائه فلا تتركوا شيئاً منها)** وفي نسخة: فلا تتركوا الدعاء ، **(فربما كانت الإجابة فيه)** ، وبه تم الركن الثالث .

الركن الرابع: في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار:

اعلم أن الناس قسمان: شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «تعجب ربك من شاب ليست له صبوة». وهذا عزيز نادر.

(الركن الرابع في) بيان السبب الباعث على (دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار).

(اعلم) أرشدك الله **(أن الناس قسمان)**:

الأول: (شاب لا صبوة له) وهو الميل إلى هوى النفس بمقتضى السن **(نشأ)** من صغره **(على الخير واجتناب الشر، و) هذا (هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «تعجب ربك من شاب ليست له صبوة»)** والعجب: كون الشيء خارجاً عن نظائره من جنسه حتى يكون نظره في صفة، ويكون استعظام الشيء واستكباره لخروجه عن العادة وبعده، وذلك مما ينزه عن مثله الباري تعالى فيؤول بمعنى يعظم قدره عنده فيحيز له أجره، وإنما عبّر بذلك تقريباً لإفهام العرب. قال العراقي: رواه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر، وفيه ابن لهيعة اهـ.

قلت: وكذلك رواه أبو يعلى، وتمام في فوائده، والقضاعي في مسند الشهاب كلهم من طريق ابن لهيعة، حدثنا أبو عشانة، عن عقبة بن عامر مرفوعاً بلفظ: «إن الله ليعجب من الشاب ليست له صبـوة» وسنده حسن، وضعفه الحافظ ابن حجر في فتاويه لأجل ابن لهيعة.

وأما سياق المصنف فوجدته في تاريخ مصر لابن الربيع الجيزي قال: حدثني أبي، حدثنا أبو الأسود نصر بن عبد الجبار، وأسد بن موسى ح.

وحدثنا عبدالله بن نعمة، حدثني محمد بن قدامة، ويحيى بن عبدالله بن بكير، وعمر بن خالد قالوا: وهم خمسة: حدثنا، وعند بعضهم أخبرنا عن ابن لهيعة، عن أبي عشانة، وعند بعضهم حدثنا أبو عتانة قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكروه. وعند بعضهم «يعجب ربك تعالى» وعند بعضهم «عز وجل» وروينا في خبر أبي حاتم الحضرمي من حديث الأعمش، عن إبراهيم النخعي قال: «كان يعجبهم أن لا يكون للشاب صبوة».

تنبيه:

هل الأفضل شاب لا صبوة له لكونه لم يلابس كبيرة ونجا من ضررها وخطرها، والسؤال عنها في القيامة، أو من قارف الذنوب وتاب توبة نصوحاً لكونه أقلع عن الشهوات لله بعد إلفه لها وتعوّده لذاتها، ثم فارق لذته وشهوته لله؟ قولان. وكلام المحاسبي يقتضي ترجيح الأول، والله أعلم.

(وهذا عزيز نادر) الوجود لخروجه عن العادة وبعده عن العرف.

والقسم الثاني: هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب، ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين، وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه. فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلاّ مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله، ولا يبطل الشيء إلا بضده، ولا سبب للاصرار إلا الغفلة والشهوة، ولا يضاد الغفلة إلا العلم، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة. والغفلة رأس الخطايا. قال تعالى: ﴿وأولئك هم الغافلون* لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ [النحل: ١٠٨، ١٠٩] فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء، فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار، فإذاً لهذا الدواء أصلان: أحدهما: العلم، والآخر الصبر. ولا بدّ من بيانهما.

(**والقسم الثاني: هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب**) وملابستها، (**ثم هم ينقسمون إلى مصرين**) عليها، (**وإلى تائبين**) عنها. (**وغرضنا الآن أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار، ونذكر الدواء فيه فاعلم إن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على أصل الداء**) وحقيقته ومن أين مبدؤه (**إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء**) ومضارتها، (**فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب**) وفي نسخة لأجل ذلك السبب (**ورفعه**) وفي نسخة ودفعه (**وإبطاله، ولا يبطل الشيء إلا بضده ومناقضه، ولا سبب للإصرار إلا الشهوة والغفلة، ولا يضاد الغفلة إلا العلم والشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة**) وهي أسباب كثيرة تقدم ذكرها في كتاب كسر الشهوتين، (**والغفلة رأس الخطايا**) وأمها فإن منها تنشأ (**قال الله تعالى: ﴿أولئك هم الغافلون* لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾**) دل ذلك على أن خسرانهم في أرباح معاملات الآخرة إنما سببها الغفلة، فقد جعل الله أهل الغفلة في الدنيا هم أهل الخسران في العقبى، (**فلا دواء للتوبة إذن إلا معجون**) مركب (**يعجن**) من جزأي (**حلاوة العلم ومرارة الصبر كما يجمع في السكنجبين بين حلاوة السكر**) أو العسل (**وحموضة الخل**) مع تباين مزاجيهما، (**ويقصد بكل واحد منهما**) أي من السكر والخل (**وغرض آخر في العلاج بمجموعهما، فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء، فهكذا ينبغي أن يفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار، فإذاً لهذا الدواء أصلان**) بهما يتم تركيبه. (**أحدهما العلم**) وهو الجزء الأكبر، (**والآخر الصبر ولا بد من بيانهما**) ليتضح به المقصود.

فإن قلت: أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص؟ فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلب ولكن لكل مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة، ولكن يخص كل علة علم مخصوص، فكذلك دواء الإصرار فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم فنقول يحتاج المريض إلى التصديق بأمور.

الأول: أن يصدق على الجملة بأن للمريض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطب، فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك. وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة وللشقاوة سبباً هو المعصية. وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع: وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان.

الثاني: أنه لا بدّ أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب، فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا

(**فإن قلت: أينفع كل علم**) يتعلمه الإنسان (**لحل عقدة الإصرار أم لا بد من علم مخصوص**) فإن العلوم تتفاوت مراتبها؟ (**فاعلم أن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب، ولكن**) ليس كل فرد من أفراد العلوم ينفع لكل مرض من أمراض القلوب، فكما أن العلوم كثيرة، فكذلك أمراض القلوب كثيرة، بل لكل (**مرض علم يخصه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض**) البدنية (**بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص**) به يستعان على إزالة تلك العلة، (**فكذلك داء الإصرار، فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون ذلك أقرب إلى الفهم. فنقول: يحتاج المريض إلى التصديق بأمور**) أربعة.

(**الأول: أن يصدق على الجملة بأن للصحة والمرض أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الأسباب**) جل جلاله، (**وهذا هو الإيمان بأصل الطب فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بأصل العلاج ويحق عليه الهلاك**) أي يثبت، (**وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة، وللشقاوة سبباً هو المعصية، وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع، وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق**) وبرهان (**أو**) عن (**تقليد، وكلاهما من جملة الإيمان**) وهذا على صحة إيمان المقلد كما هو مذهب أهل السنة.

(**الثاني: أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه**) بصير بمسائله (**صادق فيما يعبر عنه**) ويرويه (**لا يلبس**) أي لا يخلط (**ولا يكذب**) فيما يقول،

الإيمان، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول ﷺ والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

الثالث: أنه لا بدّ أن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء، فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء، ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والاخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوّي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج.

الرابع: أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الإحتماء عنه ليعرفه أوّلاً تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه، فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص. ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة! وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم

(فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول ﷺ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف).

(الثالث: أنه لا بد وأن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه) الرطبة **(والأسباب المضرة على الجملة، حتى يغلب عليه الخوف في ترك الإحتماء)** عن المحذورات، **(فيكون شدة الخوف باعثاً له على الإحتماء)** منها. **(ووزانه)** مما نحن فيه **(ومن الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى)** والخشية، **(والتحذير من ارتكاب الذنوب وإتباع الهوى، والتصديق بجميع ما يلقي إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة)** وتردد **(حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج)**.

(الرابع: أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه بنفسه الإحتماء عنه ليعرفه أولاً تفصيل ما يضره من أحواله وأفعاله ومأكوله ومشروبه، فليس على كل مريض الإحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء، بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص. ووزانه) مما نحن فيه **(من الدين أن كل عبد فليس يبتلي بكل شهوة وارتكاب كل ذنب، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة، وإنما حاجته في الحال مرهقة)** أولاً **(إلى**

بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها.

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك، وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم، ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم، كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافة. وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيهاً متديناً يعلّـم الناس دينهم، فإن الخلق لا

العلم بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها في الدين، **ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها)** والضمائر كلها راجعة إلى الذنوب.

(فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء) عليهم السلام، كما هو في حديث أبي الدرداء عند أحمد، وأبي داود، والترمذي، وابن حبان. وفي حديث البراء عند أبي نعيم والديلمي وابن النجار. **(فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان)** العبد **(لا يدري أن ما يرتكبه ذنب، فعلى العالم أن يعرفه)** بأن الذي ارتكبه محظور وعاقبته مخطرة، **(وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم)** وهو فيه **(أو بلدة أو محلة أو مسجد فيعلم أهله دينهم)** أي أهل إقليمه أو بلدته أو محلته أو مسجده **(ويميز)** لهم **(ما يضرهم)** في الدين **(عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم، ولا ينبغي)** للعالم **(أن يصبر)** ويسكت **(إلى أن يسأل عنه، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإنهم)** أي العلماء **(ورثة الأنبياء)** والأنبياء عليهم السلام **(ما تركوا الناس على جهلهم، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم)** ونواديهم **(ويدورون على أبواب دورهم في الإبتداء ويطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم)** إلى طريق التوحيد والهداية، **(فإن مرض القلوب لا يعرفون مرضهم)** فيحتاجون إلى من يعرفهم، **(كما أن الذي ظهر على وجهه برص)** وهو لمع بيض **(ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره، وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيهاً متديناً يعلم الناس)** أمور **(دينهم، فإن الخلق لا يولدون إلا جهالاً)** وإنما العلم بالتعلم، **(فلا بدّ من تبليغ الدعوة**

يولدون إلا جهالاً فلا بدّ من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع. والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلاَّ سقيم. ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان، والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة والعالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيده بالسلاسل والأغلال يكف شره عن نفسه وعن سائر الناس، وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل.

إحداها: أن المريض به لا يدري أنه مريض.

والثانية: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن، فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه، وما بعد الموت غير مشاهد. وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلّت النفرة عن الذنوب وأن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال.

والثالث: وهو الداء العضال، فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى

إليهم في الأصل والفرع، والدنيا دار المرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم. ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان، والعلماء أطباء) يـداوون أولئـك المرضى، **(والسلاطين قوام دار المرضى، فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمي)** عن تناول المضرات، **(أو الذي غلب عليه الجنون)** يسلم **(إلى القيم)** بالمارستان **(ليقيده بالسلاسل والأغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس، وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل)**.

(إحداها: أن المريض به لا يدري أنه مريض) بخلاف مريض البدن، فإنه يظهر له مرضه.

(الثانية: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم) بل إنما يشاهدها في عالم الآخرة، **(بخلاف مرض البدن فإن عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت غير مشاهد، وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم فقلّت النفرة من الذنوب وأن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله تعالى في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال)** ولا ثقة بالله.

(الثالثة: وهي الداء العضال) المعطب **(فقد الطبيب، فإن الأطباء)** لهذا الداء **(هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة**

لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى اغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عمّ الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الاغواء فليتهم إن لم ينصحوا لم يغشوا وإن لم يصلحوا لم يفسدوا! وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالارجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة، لأن ذلك ألذ في الأسماع وأخف على الطباع، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله.

ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائناً أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه، فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادي العلة. أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية، فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال، وكذلك

في عموم غموض المرض حتى لا يظهر نقصانهم، فاضطروا إلى اغواء الخلق) وإضلالهم (**والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضاً، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا**) وهو رأس كل خطيئة كما ورد في الخبر، (**وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً**) واستكباراً (**من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج**) لغيركم (**وتنسون أنفسكم**) فلا تعالجونها فيكون سبباً لفضيحتهم بينهم؟ (**فبهذا السبب عمّ على الخلق الداء وعظم الوباء**) وفشا (**وانقطع الدواء**) وأيس منه (**وهلك الخلق بفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الأغواء**) وأنواع الأضلال. (**فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا، وإذ لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام**) من الناس (**ويستميل قلوبهم**) إليهم (**ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالارجاء وتغليب أسباب الرجاء**) على الخوف، (**وذكر دلائل الرحمة**) وأخبارها (**لأن ذلك ألذ في الإسماع وأخف على الطباع، فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ**) والتذكير، (**وقد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله**) تعالى وأمن من عذابه.

(**ومهما كان الطبيب جاهلاً أو خائناً أهلك بالدواء**) الذي يعالج خلقاً كثيراً (**حيث يضعه في غير موضعه، فالرجاء والخوف** دواءان، ولكن **لشخصين متضادي العلة. أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق**) من الأمور الثقال (**وضيق العيش على نفسه بالكلية فيكسر سورة إسرافه**) وجوران إفراطه (**في الخوف**

المصر على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت يعالج أيضاً بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. فأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء، وذلك من دأب الجهال والأغبياء، فإذاً فساد الأطباء هي المعضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلاً.

فإن قلت: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق؟ فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه. نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع.

الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار مثل قوله ﷺ: «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا! ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا! فيقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا» وفي بعض الروايات: «ليتهم تجالسوا فتذاكروا ما علموا!

بذكر أسباب الرجاء ليعود بذلك (**إلى الإعتدال**) المحبوب، (**وكذلك المصر على الذنوب**) الملازم عليها (**المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط**) من رحمة الله (**واليأس**) من روح الله (**استعظاماً لذنوبه التي سبقت**) كالذي قتل تسعة وتسعين نفساً واشتهى أن يتوب (**يعالج أيضاً بأسباب**) موصلة (**للرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب، فأما معالجة المغرور**) في أحواله (**المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء** فيضاهي **معالجة المحرور بالعسل**) مع حرارة طبعه (**طلباً للشفاء**) وأنى له ذلك. (**وذلك من دأب الجهال والأغبياء فإذاً فساد الأطباء هو الداء المعضل الذي لا يقبل الدواء أصلاً**.

فإن قلت: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق. فاعلم أن ذلك يطول) بيانه (**ولا يمكن استقصاؤه. نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع**).

(**الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين**) وهي كثيرة، (**وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار**) المرفوعة والموقوفة (**مثل قوله ﷺ: «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما ياليت هذا الخلق**) وفي نسخة الخلائق (**لم يخلقوا، ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا. فيقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا» وفي بعض**

ويقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا » وقال بعض السلف: إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها. وقال بعض السلف: ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن

الروايات: « ليتهم تجالسوا فتذاكروا ما عملوا، ويقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا) هكذا نقله صاحب القوت وقال: جمعناها من أخبار متفرقة. وقال العراقي: غريب لم أجده هكذا.

وروي الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر: « أن ملكاً ينادي في كل يوم وليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده » الحديث وفيه: « ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا » الحديث اهـ.

قلت: وبيان تلك الأخبار المتفرقة إن تقول أما قوله: « ما من يوم » فهو أول حديث لفظه: « ما من يوم طلعت شمسه. إلا يقول » الحديث وفيه: « وما من يوم إلا ينادي مناديان من السماء يقول أحدهما: يا طالب الخير أبشر يا طالب الشر أقصر، ويقول الآخر: اللهم اعط لمنفق خلفاً اللهم اعط ممسكاً مالاً تلفا » رواه البيهقي عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن أخنس مرسلاً.

ورواه الديلمي عنه عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس وزاد، وكذلك يقول في الليل.

وروي الديلمي من حديث أبي هريرة: «إن لله ملكاً بباب من أبواب السماء يقول: من يقرض اليوم يجازى غداً، وملك بباب آخر ينادي: اللهم أعط منفقاً خلفاً وعجل لممسك تلفاً».

وأما حديث ابن عمر فلفظه بعد قوله: « قد دنا حصاده. أبناء الستين هلموا إلى الحساب ماذا قدمتم وماذا عملتم. أبناء السبعين هلموا إلى الحساب ليت الخلائق لم يخلقوا » الحديث وفيه بعد قوله: « فتذاكروا وإلا أتتكم الساعة فخذوا حذركم ».

وقال صاحب الحلية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد بن الحسن البغدادي، حدثنا أحمد بن محمد بن الحسن المخزومي، حدثنا عبد الرزاق، حدثني بكار بن عبدالله عن وهب قال: فرأيت في بعض الكتب أن منادياً ينادي من السماء الرابعة كل صباح: أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده، أبناء الخمسين ماذا قدمتم وماذا أخرتم، أبناء الستين لا عذر لكم ليت الخلق لم يخلقوا. فساقه كسياق الديلمي.

وقال بعض السلف: إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات، فإن تاب) إلى الله تعالى **(واستغفر)** من ذنبه **(لم يكتبها عليه، وإن لم يستغفر كتبها)** نقله صاحب القوت.

(وقال بعض السلف: ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به

يسقط عليه كسفاً فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليَّ فاغفر له ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده﴾ [فاطر: ٤١]. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها. وفي حديث مجاهد: « القلب مثل الكف المفتوحة كلما

واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً) أي قطعاً **(فيقول الله تعالى للأرض والسماء: كفا عن عبدي)** أي امتنعا منه **(وامهلاه، فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليَّ فاغفر له، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده)** إنه كان حليماً﴾ عن معاصيهم ﴿غفوراً﴾ لمساوئهم نقله صاحب القوت إلا أنه قال: وفي خبر: « ما من عبد يعصى » فساقه. قال: وقيل في تفسير ذلك إن الله تعالى إذا نظر إلى معاصي العباد وغضب فترجف الأرض وتضطرب السماء فتنزل ملائكة السماء فتمسك أطراف الأرض، وتصعد ملائكة الأرض فتمسك أطراف السماء، ولا يزالون يقرأون ﴿قل هو الله أحد﴾ حتى يسكن غضبه، فذلك قوله سبحانه ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ وقال بعض السلف: إذا ضرب الناقوس في الأرض ودعي بدعاء الجاهلية اشتد غضب الرب، فإذا نظر إلى صبيان المكاتب ورأى عمار المسجد وسمع أصوات المؤذنين، وقيل: انظر إلى المتحابين في الله، والمتزاورين فيه حلم وغفر فذلك قوله: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾.

(وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه) كذا في نسخ الكتاب، والصواب: وفي حديث ابن عمر، وهكذا هو في القوت عن النبي ﷺ انه قال « **(الطابع)** بالكسر ما يطبع به **(معلق بقائمة من قوائم العرش)** » ولفظ القوت بساق العرش **(فإذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها »)** قيل: هو على سبيل المجاز والاستعارة. ذكره الزمخشري، وقال البغوي في شرح السنّة: والأقوى اجراؤه على الحقيقة لفقد المانع والتأويل لا يصار إليه إلا لمانع. قال العراقي: رواه ابن عدي، وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمرو وهو منكر اهـ.

قلت: ورواه أيضاً البزار في مسنده، والبيهقي في السنن، والديلمي ولفظهم جميعاً « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمة وعمل بالمعاصي واجترىء على الله بعث الله الطابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً » وقول العراقي: هو منكر لأن فيه سليمان بن مسلم الخشاب. قال الذهبي في الميزان: لا تحل الرواية عنه إلا للاعتبار، وساق من مناكره هذا الجزء وأعاده في محل

أذنب العبد ذنباً انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع ». وقال الحسن: إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها الخير.

والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين الا تحصى فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله ﷺ فإنه ما خلف ديناراً ولا درهماً. إنما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه.

النوع الثاني: حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق، مثل أحوال آدم ﷺ في عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل

آخر وقال: هو موضوع مفترى، ووافقه الحافظ ابن حجر في اللسان، ولكن اقتصر المنذري على تضعيف هذا الخبر، وزاد الهيثمي فقال فيه سليمان الخشاب ضعيف جداً.

وفي حديث مجاهد: القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنباً تقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع) هكذا هو في القوت فتشبك على القلب، وفي نسخة منه كما عند المصنف. قال العراقي: كأنه أراد به قول مجاهد، وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع، وقد روينا في شعب الإيمان للبيهقي من حديث حذيفة. **(وقال الحسن)** البصري رحمه الله تعالى: **(إن بين العبد وبين الله حداً من المعاصي معلوماً إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير)** نقله صاحب القوت.

(والاخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها) في سياق وعظه **(إن كان وارث رسول الله ﷺ فإنه)** ﷺ **(ما خلف ديناراً ولا درهماً)** قال العراقي: رواه البخاري من حديث عمرو بن الحارث قال: « ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا أمة ». ولمسلم من حديث عائشة « ما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً » اهـ.

(إنما خلف العلم والحكمة) هذا في حديث أبي الدرداء « إن الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم » الحديث وقد تقدم في كتاب العلم، **(وورثه كل عالم بقدر ما أصابه)** وقدر له من الأزل.

(النوع الثاني: حكاية الأنبياء) عليهم السلام **(والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب)** عامة **(الخلق مثل أحوال آدم عليه السلام في عصيانه)** عند مخالفة الأمر **(وما لقيه من الإخراج من الجنة)** والإهباط

عن جسده وبدت عورته فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه، فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحلّ الإكليل عن جبينه، ونودي من فوق العرش: اهبطا من جواري فإنه لا يجاورني من عصاني. قال: فالتفت آدم إلى حوّاء باكياً وقال: هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب.

وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً، وقيل: لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال: نعم ولم يفعل،

إلى الأرض، وهل هي جنة الخلد أو جنة كانت في الدنيا؟ فيه خلاف كثير بين العلماء أورده ابن القيم في أوائل كتاب مفتاح عنوان دار السعادة، (**حتى روي انه**) في بعض الاخبار (**لما أكل من الشجرة**) التي نهي عن أكلها (**تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته**) وكان قبل ذلك لا يراها. رواه ابن جرير عن قتادة، (**فأستحى التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه، فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل**) ميكائل (**الإكليل عن جبينه، ونودي من فوق العرش: اهبطا**) الضمير له ولحوّاء عليهما السلام (**من جواري، فإنه لا يجاورني من عصاني قال: فالتفت آدم إلى حواء باكياً وقال: هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب**) نفل صاحب القوت.

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عن مجاهد قال: أوحى الله إلى الملكين أخرجا آدم وحوّاء من جواري، فإنهما عصياني فالتفت آدم إلى حوّاء باكياً وقال: إستعدي للخروج من جوار الله. هذا أوّل شؤم المعصية، فنزع جبريل التاج وحلّ ميكائيل الإكليل عن جبينه وتعلق به عضو، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو العفو. فقال الله تعالى: فراراً مني، فقال: بل حياء منك يا سيدي، وقد اختلف في الحلل التي كانت على آدم وحوّاء عليهما السلام؟ فقيل: هي من حلل الجنة، وقيل: من الظفر، فلما أصاب الخطيئة سلب السربال فبقي في أطراف أصابعه. ويروى عنه كان لباس آدم الظفر بمنزلة الريش على الطير، فلما عصى سقط عنه لباسه وبقيت الأظفار زينة ومنافع. رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال: كان لباس آدم في الجنة الياقوت فلما عصى قلص فصار الظفر.

(**وروي ان سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوماً**) قيل: إنه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب ابنته فأحبها، وكان لا يرقأ دمعها جزعاً على أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها فيسجدون لها كعادتهن في ملكه، فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة وخرج باكياً إلى الفلاة متضرعاً، فالخطيئة تغافله عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل كان جائزاً حينئذ والسجود للصورة بغير علمه لا يضره كذا ذكره البيضاوي. (**وقيل: لأن المرأة سألته أن يحكم**

وقيل: بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها معه فسلب ملكه أربعين يوماً فهرب تائهاً على وجهه فكان يسأل الله بكفه فلا يطعم فإذا قال: أطعموني فإني سليمان بن داود شج وطرد وضرب. وحكي انه استطعم من بيت لامرأته فطردته

لأبيها. فقال: نعم ولم يفعل، وقيل: بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه) هكذا ذكره في القوت. وروى الفريابي، والحكيم، والحاكم وصححه عن ابن عباس عند قوله: ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ [ص: ٣٤] الآية. قال: إن امرأة يقال لها جرادة، وكلان بين بعض أهلها وبين قوم خصومة فقضى بينهم بالحق إلا أنه ودّ أن الحق كان لأهلها فأوحى الله إليه أن سيصيبك بلاء، فكان لا يدري يأتيه من السماء أم من الأرض. وروى ابن جرير عن السدي قال: كان لسليمان مائتا امرأة وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهي أحظى نسائه عنده وأحبهن، فجاءته يوماً من الأيام وقالت: إن أخي بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب ان تقضي له إذا جاءك. فقال: نعم ولم يفعل، **(فسلب ملكه أربعين يوماً فهرب تائهاً على وجهه)**. روى النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم بسند قوي، عن ابن عباس قال: أراد سليمان عليه السلام أن يدخل الخلاء فأعطى جرادة خاتمه وكانت جرادة امرأته ومن أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي فأعطته، فلما لبسه أتت الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيته سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت لست سليمان فجعل لا يأتي أحداً يقول أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عرف أنه من الله تعالى.

وروى عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: دخل سليمان الحمام فوضع خاتمه عند امرأة من أوثق نسائه في نفسه فأتاها الشيطان، فتمثل لها على صورة سليمان فأخذ الخاتم منها، فلما خرج سليمان أتاها فقال لها: هاتي الخاتم فقالت: قد دفعته لك، فقال: ما فعلت فانطلق سليمان هارباً في الأرض يتتبع ورق الشجر خمسين ليلة.

وروى عبد بن حميد عن ابن عباس قال: كان سليمان عليه السلام إذا دخل الخلاء اعطى خاتمه أحب نسائه إليه، فإذا هو قد خرج وقد وضع له وضوءه خرج إليه فأخذه فلبسه فدخل يوماً الخلاء، فدفع خاتمه إلى امرأته فلبث ما شاء الله وخرج عليها شيطان من صورة سليمان فدفعت إليه الخاتم فنهض به وألقاه في البحر فالتقمته سمكة، فخرج سليمان على إمرأته فسألها الخاتم فقالت: قد دفعته إليك فعلم سليمان أنه قد ابتلي فخرج وترك ملكه ولزم البحر فجعل يجوع، وروى ابن جرير عن السدي قال: ولما خرج سليمان من المخرج سألها أن تعطيه خاتمه فقالت: ألم تأخذه؛ قال: لا وخرج مكانه هارباً، **(فكان يسأل بكفه فلا يطعم، فإذا قال: أطعموني فإني سليمان بن داود شج وضرب وطرد)** كذا في القوت.

وبصقت في وجهه. وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين ـ أيام العقوبة ـ قال: فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال: لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحدكم في عذركم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بدّ منه.

وروى عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد قال: سليمان عليه السلام يستطعم فيقول: أتعرفوني أنا سليمان فيكذبونه. وروى الحكيم من طريق علي بن زيد وسعيد بن المسيب أن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثة أيام، فلم ينظر في أمورهم ولم ينصف مظلوماً من ظالم، وكان ملكه في خاتمه، وكان إذا دخل الحمام وضع خاتمه تحت فراشه فجاءه الشيطان فأخذه فأقبل الناس على الشيطان، فقال سليمان، يا أيها الناس أنا سليمان أنا نبي الله فدفعوه فسأله بكفه أربعين يوماً.

(وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته) في نسخة لامرأة **(فطردته وبصقت في وجهه)** ولفظ القوت: ولقد بلغني أنه استطعم من بيت فطرد وبزقت امرأة في وجهه **(وفي رواية)** قال: **(أخرجت)** ولفظ القوت فأخرجت **(عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه إلى أن أخرج الله له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين يوماً أيام العقوبة قال: فجاءت الطيور فعكفت على رأسه، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله، فاعتذر إليه بعض من كان خفي عليه، فقال: لا ألومكم فيما فعلتم من قبل، ولا أحدكم في عذركم ألا وأن هذا أمر كان من السماء ولا بدّ منه)** ولفظ القوت: فلما عرفه الصيادون غفروا بين يديه واعتذروا إليه مما كانوا طردوه وشجوه، فقال: لا ألومكم قبل فيما صنعتم ولا أحدكم الآن فيما تصنعون هذا أمر من السماء ولا بدّ منه اهـ.

وروى النسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: وكان سليمان عليه السلام يحمل على شط البحر بالآجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم فدعا سليمان فقال: تحمل لي هذا السمك؟ قال: نعم. قال: بكم؟ قال: بسمكة من هذا السمك، فحمل سليمان السمك ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه فلبسه فلما لبس دان له الجن والانس والشياطين وعاد إلى حاله.

وروى عبد الرزاق، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس قال: أربع آيات في كتاب الله لم أدر ما هي حتى سألت كعب الأحبار فذكرها وفيه: قال ابن عباس وسألته عن قوله تعالى: ﴿وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب﴾ [ص: ٣٤] قال شيطان أخذ خاتم سليمان الذي فيه ملكه فقذف به في البحر فوقع في بطن سمكة، فانطلق سليمان يطوف إذا تصدق عليه بتلك السمكة

فاشتواها فأكلها، فإذا هي فيها خاتمه فرجع إليه ملكه، وقال مجاهد: وكان سليمان عليه السلام يستطعم فيقول: أتعرفوني أنا سليمان فيكذبونه حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً فشق بطنه فوجد خاتمه في بطنه فرجع إلى ملكه أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن جرير. وقال قتادة: ولما لبس سليمان خاتمه أقبل فجعل لا يستقبله جن ولا طير إلا سجد له حتى انتهى إليهم أخرجه عبد الرزاق والمذكورون قبل.

وروى عبد بن حميد وابن المنذر عن علي رضي الله عنه قال: بينما سليمان بن داود عليهم السلام جالس على شاطىء البحر وهو يعبث بخاتمه إذ سقط منه في البحر وكان ملكه في خاتمه فانطلق وخلف شيطاناً في أهله فأتي عجوزاً فآوى إليها فقالت له العجوز: ان شئت ان تنطلق فتطلب وأنا أكفي عمل البيت، وإن شئت أن تكفيني عمل البيت وانطلق فالتمس. قال: فانطلق سليمان فأتى قوماً يصيدون السمك فجلس إليهم فنبذوا إليه سمكتين، فانطلق حتى أتى العجوز فأخذت تصلحه فسقطت بطن سمكة، فإذا فيها الخاتم فأخذته وقالت لسليمان: ما هذا فأخذه سليمان فلبسه فأقبلت إليه الشياطين والجن والانس والطير والوحوش وهرب الشيطان الذي خلف في أهله الحديث.

وقال سعيد بن جبير: لم انقضت أتى سليما ساحل البحر فوجد صيادين يصيدون السمك فصادوا سمكاً كثيراً فأنتن عليهم بعضه -فألقوه فأتاهم سليمان يستطعمهم فالقوا إليه انتن تلك الحيتان. قال: لا بل اطعموني من هذا قالوا: لا. فقال: اطعموني فأنا سليمان فوثب إليه بعضهم بالعصا فضربه فأتي إلى تلك الحيتان التي القوا فأخذ منها حوتين فانطلق بهما إلى الأرض يغسلهما فشق بطن احداهما، فإذا فيه الخاتم فأخذه فجعله في يده فعاد إلى ملكه، فجاءه الصيادون يسعون إليه فقال لهم: لكني قبل استطعمتكم فلم تطعموني وضربتموني فلم ألومكم إذ عاقبتموني ولم أحمدكم إذ أكرمتموني. أخرجه عبد بن حميد.

ويروى عن ابن عباس قال: لما ترك سليمان ملكه ولزم البحر فجعل يجوع فأتى يوماً على صيادين قد صادوا سمكاً بالأمس فنبذوه وصادوا يومهم سمكاً فهو بين أيديهم فقام عليهم سليمان فقال: أطعموني بارك الله فيكم فإني ابن سبيل غرثان فلم يلتفتوا إليه ثم عاد فقال لهم مثله، فرفع رجل منهم رأسه فقال: ائت ذلك السمك فخذ منه سمكة فأتاه سليمان فأخذ منه أذنى سمكة فلما أخذها إذا فيها ريح فأتى البحر فغسلها وشق بطنها فإذا بخاتمه، فحمد الله وأخذه وتختم به ونعق كل شيء حوله من جنوده، وفزع الصيادون لذلك فقاموا إليه وجعل بينهم وبينه ولم يصلوا إليه ورد الله إليه ملكه. أخرجه عبد بن حميد.

وقال الضحاك: دخل سليمان عليه السلام على امرأة تبيع السمك فاشترى منها سمكة فشق بطنها فوجد خاتمه فجعل لا يمر على شجر ولا على حجر ولا على شيء إلا سجد له حتى أتى ملكه.

وروي في الإسرائيليات: أن رجلاً تزوّج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم. قال: فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبياً في بني إسرائيل. وفي قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر عليه السلام: بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالى. وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديداً فكأنه أعجبه قال: فوضعته الريح فقال: لم فعلت هذا ولم آمرك؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله. وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا. قال: لقولك لإخوته: ﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ [يوسف: ١٣]

أخرجه ابن جرير. وذكر ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد حديث ابن عباس الذي رواه ابن أبي حاتم وقال: اسناده قوي وكأنه تلقاه ابن عباس عن أهل الكتاب ان صح عنه، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوّة سليمان عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه وفيه منكرات من أشدها. ذكر النساء والمشهور عن مجاهد وغيره من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله تشريفاً لنبيه عليه السلام، وقد رويت هذه القصة عن سعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة من السلف وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب والله أعلم.

(وروي في الاسرائيليات: أن رجلاً تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده يحملها إليه فراودته عن نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال: فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبياً في بني إسرائيل) ولفظ القوت: وروينا في الاسرائيليات أن رجلاً تزوّج امرأة من بلد ولم تنل يده حملها إليه فأمر عبداً له فحملها إليه فراودته نفسه وطلبته بها فجاهدها واستعصم قال: فنبأه الله فكان نبياً من بني إسرائيل، وفي نسخة فكان نبياً في بني اسرائيل.

(وفي قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر عليه السلام: بم اطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالى) نقله صاحب القوت وزاد فالجزاء إليه سبحانه أيضاً يجعله غاية العطاء لا على قدر العمل لكن إذا عمل له عبده شيئاً لأجله أعطاه أجره بغير حساب.

(وروي ان الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديداً فكأنه أعجبه. قال: فوضعته الريح فقال: لم فعلت هذا ولم آمرك؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله) ولفظ القوت: ولقد بلغني أنه كان في مسيره والريح تحمله في جنوده إذا نظر إلى قميصه نظرة وكان عليه قميص جديد فكأنه أعجبه فوضعته الريح في الأرض فقال لها: لم فعلت ولم آمرك؟ فقالت: إنما أطيعك إذا اطعت الله.

(وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام) ولفظ القوت: ولقد روينا في خبر غريب أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام **(أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا؛ قال: لقولك لأخوته ﴿إني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ لم خفت**

لم خفت عليه الذئب ولم ترجني، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟ وتدري لم رددته عليك؟ قال: لا . قال: لأنك رجوتني وقلت: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ [يوسف: ٨٣] وبما قلت: ﴿اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾ [يوسف: ٨٧]، وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك ﴿اذكرني عند ربك﴾ [يوسف: ٤٢] قال الله تعالى: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾ [يوسف: ٤٢].

عليه الذئب ولم ترجني) له، **(ولم نظرت إلى غفلة اخوته ولم تنظر إلى حفظي له)** كذا في القوت زاد عليه المصنف فقال: **(وتدري لم رددته عليك قال: لا . قال: لأنك رجوتني وقلت: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ وبما قلت)** ﴿يا بني **(اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾)** قال السدي: لما ذكر يعقوب بين يدي يوسف عليهما السلام قال: ومن يعقوب غضب روبيل وقال: أيها الملك لا تذكرن يعقوب فإنه سرى الله ابن ذبيح الله بن خليل الله، فقال يوسف: إنك إذن ان كنت صادقاً فإذا أتيتم أباكم فاقرأوا عليه مني السلام، وقولوا له: إن ملك مصر يدعو لك أن لا تموت حتى ترى ولدك يوسف حتى يعلم أبوك أن في الأرض صديقين مثله، ثم أنه أقام روبيل بمصر وأقبل التسعة إلى يعقوب فأخبروه الخبر فبكى وقال: يا بني ما تذهبون من مدة إلا تنقصتم واحداً. ذهبتم فتنقصتم يوسف، ثم ذهبتم الثانية فنقصتم شمعون، ثم ذهبتم الثالثة فنقصتم بنيامين وروبيل ﴿فصبرٌ جميلٌ عسى اللهُ أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم﴾ [يوسف: ٨٣] وقال: ما يكون في الأرض صديق إلا ابني فطمع وقال: لعله يوسف، ثم قال: ﴿يا بني أذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ بمصر ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ فإن من روح الله أن يرد يوسف.

وروى إسحاق بن راهويه في تفسيره، وابن أبي الدنيا في كتاب الفرج بعد الشدة، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والحاكم، والبيهقي في الشعب من حديث أنس: أتى جبريل إلى يعقوب عليه السلام وقال: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أتدري لم أذهبت بصرك وقوست ظهرك وصنع اخوة يوسف به ما صنعوا إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تعطوه منها شيئاً، فكان يعقوب إذا أراد الغذاء أمر منادياً ينادي: ألا من أراد الغذاء من المساكين فليتغد مع يعقوب، وإذا كان صائماً أمر منادياً فنادى: ألا من كان صائماً من المساكين فليفطر مع يعقوب، **(وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك ﴿اذكرني عند ربك﴾ قال الله تعالى ﴿فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين﴾)** ولفظ القوت بعد قوله: ولم تنظر إلى حفظي له فهذا على معنى قول يوسف ﴿اذكرني عند ربك﴾ قال الله تعالى ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ الآية. فهذا مما يغيب على الخصوص من خفي سكونهم ولمح نظرهم إلى ما سوى الله تعالى.

وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار وورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار؟ نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر، فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوّف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر، كما حكي في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه. قال ﷺ: « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ». وقال ابن مسعود:

(**وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر**) لكثرتها (**ولم يرد بها القرآن والاخبار وورود الأسمار**) أي الحكايات التي يسمر بها في المجالس، (**بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام**) مع جلالة قدرهم عند الله تعالى (**لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار**) فليعتبر بذلك العبد ويكون على غاية الوجل. (**نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة**) بما ابتلوا فيه في الدنيا (**ولم يؤخروا إلى الآخرة**) فهؤلاء هم السعداء، (**وأما الاشقياء**) المحرومون (**فإنهم يمهلون**) إلى الآخرة (**ليزدادوا إثماً**) على إثم (**ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر**) من عذاب الدنيا، (**فهذا أيضاً مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين**) على ذنوبهم، (**فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة إن شاء الله تعالى**).

(**النوع الثالث: أن يقرر عندهم**) ويودع في أذهانهم (**ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب في الدنيا، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب**) والبلايا (**فهو بسبب جنايته**) التي صدرت منه، (**فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة**) ويستخفه (**ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوّف به فإن الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر، كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام**) مما تقدم ذكر بعضها، (**حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بسب ذنوبه، وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه، قال ﷺ « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »**) كذا في

إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه، وهو معنى قوله عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً» وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاناً في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللعنة هي الطرد والإبعاد، فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين، بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون.

القوت. رواه ابن ماجه والحاكم واللفظ له وصحح اسناده إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان انتهى.

قلت: وفيه زيادة ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر، وقد رواه بهذه الزيادة أيضاً أحمد والنسائي وأبو يعلى وابن معين والروياني وابن حبان والطبراني والضياء، وأقر الذهبي تصحيح الحاكم. وقال المنذري: رجال النسائي رجال الصحيح. قال: المظهر اللام في الرجل للعهد والمعهود بعض الجنس من المسلمين، فلا يقدح فيه ما يرى من أن الكفرة والفسقة أعظم مالاً وصحة من العلماء، لأن الكلام في مسلم يريد الله رفع درجته في الآخرة فيصيبه من ذنوبه في الدنيا، وبه عرف أنه لا تناقض بينه وبين خبر: أن الرزق لا تنقصه المعصية، ولهذا وجه بعضهم الخبر بأن لله لطائف يحدثها للمؤمن ليصرف وجهه إليه عن اتباع شهوته والإنهاك في نهمته، فإذا اشتغل بذلك عن ربه حرم رزقه فيكون زجراً له إليه عما أقبل عليه وتأديباً له لأن لا يعود لمثله.

(وقال ابن مسعود) رضي الله عنه: **(إني لاحسب أن العبد ينسى العلم بذنب يصيبه)** ولفظ القوت. وكان ابن مسعود يقول فساقه إلا أنه قال بالذنب يصيبه، **(وهو معنى قوله ﷺ «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً»)** تقدم الكلام عليه. **(وقال بعض السلف: ليست اللعنة سواداً في الوجه ونقصاً في المال إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال، لأن اللعنة هي الطرد والابعاد، فإذاً لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد)** نقله صاحب القوت إلا أنه قال: وذلك لأن اللعنة هي الطرد والبعد، فإذا طرد من الطاعات فلم يتيسر له وبعد عن القربات فلم يوفق لها، فقد لعن. **(والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان)** ولفظ القوت: وقيل حرمان الرزق من الآخرة من قلة التوفيق للاعمال الصالحات، **(وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر)** ويجره إليه **(ويتضاعف فيحرم العبد به عن زرقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله فيمقته الصالحون)** وقال صاحب القوت؛ وفي الخبر الذي رويناه: أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه قيل يحرم الحلال ولا يوفق له بوقوعه في المعصية، وقيل: يحرم مجالسة العلماء ولا ينشرح قلبه لمحبة الخير وأهله، وقيل: يمقته الصالحون وأهل العلم بالله تعالى فيعرضوا عنه، وقيل: يحرم العلم

وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعاً ثيابه محترزاً عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين، فعندها يخوض في الذنوب خوضاً، وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر، ولذلك قال الفضيل: ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك. وقال بعضهم: إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري. وقال آخر: أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي. وقال بعض الصوفية بالشام: نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمرّ بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ بيدي فاستحييت منه فقلت: يا أبا عبدالله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار! فغمز يدي وقال: لتجدن عقوبتها بعد حين. قال: فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة. وقال

الذي لا صلاح للعمل إلا به لأجل إقامته على الجهل، ولا تكشف له الشبهات باقامته على الشبهات، بل تتلبس عليه فيجار فيها بغير عصمة من الله عز وجل ولا يوفق للأصوب والأفضل.

(وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعاً ثيابه محترزاً عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول) ولفظ القوت: وحدثت عن بعض أهل الاعتبار أنه كان يمشي في الوحل، وكان يتق وشيح ثيابه عن ساقيه ويمشي في جوانب الطريق إلى ان زلقت رجله في الوحل، فأدخل رجله في وسط الوحل وجعل يمشي في المحجة قال: فبكى. قيل له: ما يبكيك ؟ فقال: **(هذا مثل العبد لا يزال يتقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب)** منها **(وذنبين، فعندها يخوض في الذنوب خوضاً)** إلى هنا لفظ القوت، **(وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر، ولذلك قال الفضيل)** بن عياض رحمه الله تعالى. **(ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك)** نقله صاحب القوت وهو في الحلية لأبي نعيم. **(وقال بعضهم: إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري)** نقله صاحب القوت وفي معنى الحمار الفرس والبغلة. **(وقال آخر: أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي)** نقله صاحب القوت قال: ويقال نسيان القرآن بعد حفظه من أشد العقوبات والمنع من تلاوته وضيق الصدر بقراءته والاشتغال عنه بضده عقوبة الاصرار. **(وقال بعض الصوفية بالشام نظرت)** ذات يوم **(إلى غلام نصراني حسن الوجه، فوقفت أنظر إليه فمرّ بي ابن الجلاء الدمشقي)** هو عبد الله بن أحمد بن يحيى الجلاء بغدادي الأصل، أقام بالشأم صحب أبا تراب النخشبي، وذا النون المصري، وأبا عبيد البسري، وأبا يحيى الجلاء ترجم له القشيري في الرسالة، **(فأخذ بيدي فاستحييت منه، فقلت: يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار، فغمز يدي**

أبو سليمان الداراني: الاحتلام عقوبة. وقال: لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه. وفي الخبر: «ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم»؟ وفي الخبر: «يقول الله تعالى إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي». وحكي عن أبي عمرو بن علوان ـ في قصة يطول ذكرها ـ قال فيها: كنت قائماً ذات يوم

وقال: لتجدن عقوبتها) أي النظرة **(بعد حين)** أي بعد مدة من الزمان. **(قال: فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة)** هكذا هو في القوت قيل: هذه العقوبة أنه نسي القرآن بعد حفظه، وأورد القشيري في الرسالة هذه القصة لابن الجلاء في ترجمته من الرسالة ما لفظه، وقال ابن الجلاء: كنت أمشي مع استاذي فرأيت حدثاً جميلاً فقلت: يا استاذي ترى يعذب الله هذه الصورة؟ فقال: سترى غبه فنسيت القرآن بعده لعشرين سنة انتهى ويحتمل تعدد الواقعة.

(وقال أبو سليمان الداراني) رحمه الله تعالى: **(الاحتلام عقوبة)** نقله صاحب القوت، وقد تقدم للمصنف في كتاب النكاح. **(وقال)** أبو سليمان أيضاً **(لا يفوت أحداً صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه)** نقله صاحب القوت ولفظه: لا يفوت أحداً صلاة في جماعة إلا بذنب، **فدقائق** العقوبات على قدر جلائل الدرجات. قال: وحدثني بعض الأشياخ عن منصور الفقيه قال: رأيت أبا عبد الله السكري في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني في العرق حتى سقط لحم خدي، قلت: ولم ذلك؟ قال: نظرت إلى غلام مقبلاً ومدبراً. والعقوبة موضوعها الشدة والمشقة فعقاب كل أحد من حيث تشتد عليه فأهل الدنيا يعاقبون بحرمان رزق الدنيا من تعذر الاكتساب وإتلاف الأموال، وأهل الآخرة يعاقبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق للأعمال الصالحة وتعذر فتوح العلوم الصادقة ذلك تقدير العزيز العليم.

(وفي الخبر «ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم») قال العراقي: رواه البيهقي في الرقاق من حديث أبي الدرداء وقال: غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هانىء.

قلت: هو متهم بالكذب. قال ابن أبي حاتم: روى عن أبيه أحاديث بواطيل انتهى.

قلت: وكذلك رواه الطبراني في الكبير وابن عساكر وتمامه: «فإن يك خيراً فواها واهاً وان يك شراً فواهاً واها». وقال ابن عساكر: حديث غريب. **قال الذهبي في الديوان** عبد الله بن هانى بن أبي عبلة عن أبيه أتهم بالكذب وتركه أبو حاتم ولم يسمع منه، وأما أبو الزعراء عبد الله بن هانىء الراوي عن أبي مسعود فهو من رجال الترمذي والنسائي قال البخاري: لا يتابع عليه ووثقه العجلي، **(و)** قال: جاء **(في الخبر: «يقول الله تعالى إنّ أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي»)** وفي نسخة «لذة مناجاتي» ولفظ القوت «حلاوة مناجاتي» وقال العراقي: غريب لم أجده.

(وحكي عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها: وكنت) لفظ القوت. وقد حدثني بعض هذه الطائفة عن أبي عمرو بن علوان في قصة تطول قال فيها: وكنت **(قائماً ذات**

أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت إلى الأرض واسودّ جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام، وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث، فلقيت الجنيد وكان قد وجه إلي فاشخصني من الرقة فلما أتيته قال لي: أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى، فلولا أني دعوت الله لك وتبت إليه عنك للقيت الله بذلك اللون، قال: فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة؟

واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإن كان شقياً أخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار. والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره، بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته، فإن ابتلي بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى

يوم أصلي فخامر قلبي) أي خالطه **(هوى)** أي ميل نفساني **(طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجل)** وفي نسخة الرجال قال: **(فوقعت إلى الأرض واسود جسدى كله فاستترت في البيـ ، فلم أخرج ثلاثة أيام، وكنت)** في أثناء هذه الأيام **(أعالج غسله في م بالصابون)** والألوان الغاسلة، **(فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث)** لفظ القوت ثم انشكف عني بعد ثلاث فرجعت إلى لون البياض. قال: **(فلقيت)** أبا القاسم **(الجنيد)** رضي الله عنه **(وكان قد وجه إليّ فاشخصني من الرقة)** أي طلب شخوصي منها والرقة بلد بالعراق، **(فلما أتيته قال)** في أول مواجهتي له: **(أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى، فلولا أني دعوت الله لك وتبت اليه عنك للقيت الله بذلك اللون! قال: فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة)** وبينهما مسافة ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى.

(واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجه قلبه، فإن كان سعيداً ظهر السواد على ظاهره لينزجر، وإن كان شقياً أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار) ولفظ القوت بعد سياق قصة ابن علوان فذكر ذلك لبعض الأولياء فقال: هذا رفق من الله به وخيرة له إذ لم يسوّد قلبه وظهر السواد على جسده، ولو بطن في قلبه لأهلكه ثم قال: ما من ذنب يرتكبه يصر عليه إلا اسود القلب منه مثل سواد الجسم الذي ذكر، ولا يجلوه إلا التوبة، ولكن ليس كل عبد يصنع به صنع ابن علوان ولا يجد من يتيقظ له مثل أبي القاسم الجنيد رحمه الله تعالى. **(والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيرها)** كسقوط الجاه والمنزلة من عيون المسلمين، **(بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته، فإن أبتلى**

يتضاعف شقاؤه، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه. وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد، وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها، فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد أوصني يا رسول الله ولا تكثر عليَّ قال: « لا تغضب ». وقال له آخر: أوصني يا رسول الله. فقال عليه السلام: « عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصلِّ صلاة مودع، وإياك وما يعتذر منه ». وقال رجل

بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه، وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه) هذا حال العاصي. **(وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها، و)** تكون **(كل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته)**.

(النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد، وكل ذلك مما لا يمكن حصره) لكثرته **(وذكره مع غير أهله مثل وضع الدواء في غير موضعه، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق)** أي العارف البصير بفن الطب **(فيستدل أولاً بالنبض والسحنة)** أي ظاهر اللون، والنبض جس الطبيب عروق يده من الاوردة والشرايين، **(ووجوه الحركات على العلل الباطنة)** وهي التي في باطن البدن ولكل منها أحكام وقواعد معروفة في كتب الفن **(ويشتغل بعلاجها)** بعد الإستدلال عليها بما ذكر، **(فليستدل)** العالم **(بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد: يا رسول الله أوصني ولا تكثر علي. قال: «لا تغضب»)** رواه أحمد والبخاري والترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم الكلام عليه في كتاب ذم الغضب، **(وقال له آخر: «أوصني يا رسول الله. فقال: «عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصلّ صلاة مودع وإياك وما يعتذر منه»)** رواه العسكري في الأمثال من طريق القعنبي، حدثنا محمد بن أبي حميد، حدثني إسماعيل الأنصاري هو ابن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده أن

لمحمد بن واسع: أوصني؟ فقال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة. قال: وكيف لي بذلك؟ قال: الزم الزهد في الدنيا فكأنه ﷺ توسم في السائل الأول مخايل الغضب. فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل. وتخيل

رجلاً قال: يا رسول الله أوصني وأوجز فقال: «عليك باليأس» فساقه وفيه: «وصل صلاتك وأنت مودع».

ورواه الحاكم من طريق أبي عامر العقدي حدثنا محمد بن أبي حميد به مثله وصححه. ورواه ابن ماجه من طريق عثمان بن جبير عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني وأوجز قال: «إذا قمت إلى صلاتك فصل صلاة مودع ولا تكلم بكلام يعتذر منه واجمع اليأس عما في أيدي الناس».

ورواه ابن منيع والقضاعي من حديث ابن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله حدثني حديثاً واجعله موجزاً لعلي أعيه فقال ﷺ: «صل صلاة مودع كأنك لا تصلي بعدها وأيس عما في أيدي الناس تعش غنياً وإياك وما يعتذر منه». وقد تقدم هذا الحديث في كتاب الصلاة.

ومن هذا الباب ما أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند من طريق محمد بن عبدالله الطفاوي سمعت العاصي بن عمر وقال: خرج أبو الغادية حبيب بن الحرث وأم الغادية مهاجرين إلى رسول الله ﷺ فأسلما، فقالت المرأة أوصني يا رسول الله. قال: «إياك وما يسوء الأذن» وكذا أخرجه أبو نعيم وابن منده كلاهما في المعرفة وهو مرسل، فالعاصي لا صحبة له، بل قال الحافظ ابن حجر في بعض تصانيفه أنه مجهول، لكن ذكره ابن حبان ولم يذكر فيه جرحا وقال: سمع من عمته أم الغادية رواه عنه تمام. ورواية تمام عنه في هذا الحديث عند ابن منده في المعرفة، والخطيب في جامعه من طريقه عن العاصي عن عمته أم الغادية قالت: خرجت مع رهط من قومي إلى رسول الله ﷺ، فلما أردت الإنصراف قلت: يا رسول الله أوصني. قال: «إياك وما يسوء الأذن» وكذا أخرجه ابن سعد في الطبقات بزيادة ثلاث، وكذا رواه العسكري في الأمثال.

(وقال رجل لمحمد بن واسع) البصري رحمه الله تعالى **(أوصني فقال: «أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة». قال: وكيف لي بذلك؟ قال: «الزم الزهد في الدنيا»)** أخرجه أبو نعيم في الحلية قال: حدثني أبي، حدثنا أبو الحسن بن أبان، حدثنا أبو بكر بن عبيد، حدثنا الحسن بن يحي بن كثير الغزي، حدثنا خزيمة أبو محمد قال: قال رجل لمحمد بن واسع أوصني فساقه. **(فكأنه ﷺ توسم في السائل الأول مخايل الغضب)** أي مشابهه **(فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل)** وعدم حضور القلب في الصلاة وكثرة الإعتذار لإخوانه فنهاه عنها **(وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا)** فأمره بالزهد عنها.

محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا. وقال رجل لمعاذ: **أوصني، فقال: كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً، فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة. وقال رجل** لابراهيم بن أدهم: أوصني. فقال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بدّ من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء الياس. فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته، وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل. وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها: **أن اكتبي لي** كتاباً توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت إليه: من عائشة إلى معاوية: سلام عليك أما بعد؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله

(**وقال رجل لمعاذ بن جبل**) رضي الله عنه (**أوصني فقال كن رحيماً**) أي رقيق القلب (**أكن لك بالجنة زعيماً**) أي ضامناً وكفيلاً نقله صاحب القوت. وروى أبو نعيم في الحلية من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبدالله بن سلمة قال: قال رجل لمعاذ علمني. قال: وهل أنت مطيعي؟ قال: إني على طاعتك لحريص. قال: صم وافطر ونم واكتسب ولا تأثم ولا تموتن إلا وأنت مسلم وإياك ودعوة المظلوم، (**فإنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة**) فقال له ما قال.

(**وقال رجل لإبراهيم بن أدهم**) رحمه الله تعالى: (**أوصني قال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بد**) لك (**من الناس**) أي من مخالطتهم، (**فإن الناس هم الناس**) أي الكمل منهم هم الذين يخالطون، (**وليس كل الناس بالناس**) أي ليس كلهم يوصفون بكمال الإنسانية (**ذهب الناس وبقي النسناس**) بفتح أوله. قيل نوع من حيوانات البحر، وقيل: نوع من جنس الخلق يثب على رجل واحدة، وقيل: ياجوج ومأجوج كذا في المصباح، وكأنه أراد ذهب الكرام وبقي الأرذال. (**وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء اليأس**) أي أؤيس من خيرهم، **فلا فائدة** في خلطتهم وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة مطرف بن عبدالله بن الشخير من طريق مهدي بن ميمون عن غيلان بن جرير أن مطرفاً كان يقول: هم الناس وهم النسناس، وأرى ناساً **غمسوا في** ماء اليأس. (**فكأنه رحمه الله تفرس فيه**) أي في السائل (**آفة المخالطة**) بهم (**وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب**) عليه (**أذاه بالناس**) فنهاه عن خلطتهم ليسلم من شرهم أو يسلموا منه، (**والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل**).

(**و**) من ذلك (**كتب معاوية رحمه الله تعالى إلى**) أم المؤمنين (**عائشة رضي الله عنها** أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تكثري) وذلك حين تولى الإمارة (**فكتبت إليه**) أي أمرت بكتابته (**من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول من**

مؤنة الناس، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس » والسلام عليك. فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي تكون الولاة بصددها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم. وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ؛ فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام.

فإذاً على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان.

فإن قلت: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه

التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس والسلام عليك ») وقد اقتصرت على هذا الحديث الجامع المانع، **(فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التي يكون الولاة)** للأمور **(بصددها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم)** والحديث قال العراقي: رواه الترمذي والحاكم وفي سند الترمذي من لم يسم اهـ.

قلت: وكذلك رواه ابن المبارك في الزهد، وفي بعض نسخ الكتاب بتقديم الجملة الثانية، ومثله عند الترمذي، وابن المبارك. ورواه ابن حبان، وابن عساكر بلفظ من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ورواه أبو بكر بن لال والخرائطي في مساوىء الأخلاق بلفظ: « من التمس محامد الناس بمعاصي الله عاد حامده من الناس ذاماً ».

(وكتبت) رضي الله عنها **(إليه مرة أخرى أما بعد: فاتق الله فإنك إذا اتقيت الله كفاك الله الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً والسلام)**، وقد روي معناه من حديث واثلة وابن عباس وعلي، فحديث واثلة: من اتقى الله أهاب الله منه كل شيء ومن لم يتق الله أهابه الله من كل شيء رواه الحكيم في النوادر وحديث ابن عباس: من اتقى الله وقاه كل شيء رواه ابن النجار، وحديث علي: من اتقى الله عاش قوياً وسار في بلاده آمناً. وعند أبي الشيخ من حديث واثلة: من خاف الله أخاف منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء. وقد رواه كذلك الرافعي في تاريخه وعبد الرحمن بن محمد الكرخي في أماليه من حديث ابن عمر.

(فإذاً على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات) الباطنة **(الخفية وتوسم الأحوال اللائقة)** بالمقام والأشخاص **(ليكون اشتغاله بالمهم)** المقصود، **(فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد)** من الحاضرين **(غير ممكنة والإشتغال بوعظه بما هو مستغن عن الوعظ فيه تضييع زمان)** ووضع الشيء في غير موضعه.

(فإن قلت: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع) من الناس **(أو سأله من لا يدري باطن**

فكيف يفعل؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل.

ومثاله ما روي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري: أوصني، قال: عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان.

وقال رجل للحسن: أوصني، فقال: أعز أمر الله يعزك الله. وقال لقمان لابنه: يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاً،

حاله أن يعظه **فكيف يفعل؟ فاعلم إن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة**) وفي نسخة عامة (**الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة**) أي العامة منهم، (**والأدوية لأرباب العلل**) الباطنة، (**ومثاله ما روي أن رجلاً قال لأبي سعيد الخدري**) رضي الله عنه: (**أوصني. قال: عليك بتقوى الله عز وجل، فإنه رأس كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك في أهل الأرض، وذكر لك في أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان**) وقد روي ذلك مرفوعاً من حديث أبي سعيد بلفظ: «عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين، وعليك بذكر الله وتلاوة كتاب الله فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء، وأخزن لسانك الآمن إلاّ من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان» هكذا رواه ابن الضريس، وأبو يعلى، والخطيب. وعند أبي الشيخ من حديث بلفظ: «عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض، وعليك بطول الصمت فإنه مطردة للشياطين وعون لك على أمر دينك وقل الحق وإن كان مرّاً». ورواه كذلك أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبي ذر.

(**وقال رجل للحسن**) البصري رحمه الله: (**أوصني. فقال: أعز أمر الله يعزك الله**) وهذا قد روي مرفوعاً من حديث أبي إمامة، ورواه الديلمي في مسند الفردوس. (**وقال لقمان لابنه: يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك**) أي يبغضوك فتسقط من أعينهم، (**وخذ من الدنيا بلاغك**) أي قدر ما يبلغك للآخرة (**وانفق فضول كسبك**) أي ما فضل من مالك الذي اكتسبته (**لآخرتك**) أي في سبيل الخيرات، (**ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً**) أي عولة على الناس محتاجاً إليهم (**وعلى أعناق الرجال كلاً**) أي ثقيلاً (**وصم صوماً**

وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر بصلاتك. فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين.

وقال أيضاً لابنه: يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بني إن من يَرحم يُرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم. وقال رجل لأبي حازم: أوصني، فقال: كل ما لو جاءك

يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفيه، ولا تخالط ذا الوجهين) أي الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. وقد روي هذا الكلام عنه مفرقاً، فأخرج عبدالله بن أحمد في الزوائد، عن عبدالله بن عبد الوهاب المكي قال لقمان لابنه: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء، وقد تقدم في كتاب العلم.

وروي الطبراني والرامهرمزي في الأمثال بسند ضعيف عن أبي أمامة قال: قال لقمان لابنه: عليك بمجالسة العلماء واستمع للحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر.

وروي أيضاً مرفوعاً من حديث أبي أمامة بلفظ: «جالسوا العلماء وزاحموهم بركبكم فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء».

وروى ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب في تالي التلخيص عن أبي جعفر الخطمي أن حبه عمرو بن حبيب وكانت له صحبة أوصى بنيه فقال: يا بني إياكم ومجالسة السفهاء فإن مجالستهم داء إنه من يحلم على السفيه يسد بحلمه الحديث.

(وقال) لقمان **(أيضاً لابنه: يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير ارب ولا تسأل عما لا يعنيك)** أي لا يهمك، **(ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك. فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت)** روى أحمد في الزهد عن شرحبيل بن مسلم أن لقمان قال: اقصر عن اللجاجة ولا أنطق فيما لا يعنيني ولا أكون ضحاكاً من غير عجب ولا مشاء إلى غير ارب **(يا بني إن من لا يرحم يرحَم)** أي من يرحم الناس يرحمه الله. وروى الشيخان من حديث جرير: «من لا يرحم لا يرحم» وفي رواية: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله **(ومن يصمت يسلم »)** أي من الشر. رواه الترمذي من حديث عبدالله بن عمر «ومن صمت نجا **(ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم »)** وقد تقدم هذا في كتاب الصمت.

(وقال رجل لأبي حازم) سلمة بن دينار المدني التابعي الشهير بالأعرج **(أوصني، فقال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته**

الموت عليه فرأيته غنيمة فألزمه، وكل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه. وقال موسى للخضر عليهما السلام: أوصني، فقال: كن بساماً ولا تكن غضاباً، وكن نفاعاً ولا تكن ضراراً، وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعيّر الخطائين بخطاياهم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران، وقال رجل

مصيبة فاجتنبه) وروى أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمر بن عبد العزيز من طريق عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه قال: قال عمر بن عبد العزيز عظْني يا أبا حازم. قال: قلت اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة، فخذ فيه الآن وما تكره أن تكون فيه تلك الساعة فدعه الآن. وروى في ترجمة أبي حازم من طريق يعقوب بن عبد الرحمن عن أبي حازم قال: انظر الذي تحب أن يكون معك في الآخرة فقدمه اليوم، وانظر الذي تكره أن يكون معك ثم فاتركه اليوم، وقال أيضاً: كل عمل تكره الموت لأجله فاتركه ثم لا يضرك متى مت.

(وقال موسى للخضر عليهما السلام: أوصني، فقال: كن بساماً ولا تكن غضاباً، وكن نفاعاً ولا تكن ضراراً وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران) رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه. قال: قال الخضر لموسى حين لقيه انزع عن اللجاجة ولا تمش من غير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، والزم بيتك وابك على خطيئتك ورواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب وابن عساكر عن أبي عبدالله أظنه الملطي قال: أراد موسى أن يفارق الخضر، فقال له موسى: أوصني. قال: كن نفاعاً ولا تكن ضراراً، وكن بشاشاً ولا تكن غضاباً، وارجع عن اللجاجة ولا تمش من غير حاجة، ولا تعير امرأ بخطيئة، وابك على خطيئتك يا ابن عمران. وروى ابن أبي حاتم، وابن عساكر عن يوسف بن إسباط قال: بلغني أن موسى لما أراد أن يفارق الخضر قال له: ادع لي فقال له: يسر الله عليك طاعته.

(وقال رجل لمحمد بن كرام) بن عبدالله السجستاني الزاهد، جاور بمكة خمس سنين، ورد نيسابور وأحدث مذهباً منه أن الله جسم في مكان مماس لعرشه فوقه، وتبعه على ذلك خلق كثير بنيسابور وهراة، فحبسه طاهر بن عبدالله أمير خراسان، ثم انصرف إلى الشام، ثم عاد إلى نيسابور فحبس ثانياً، ثم خرج منها إلى القدس فمات بها سنة ٣٥٥. وكان يظهر التقشف والزهد، وسمع الحديث من علي بن حجر والطبقة، وصحب أحمد بن حرب الزاهد، وأكثر عن أحمد بن عبدالله الجويباري أحد الوضاعين، وممن روى عنه محمد بن إسماعيل بن إسحاق ومن مشهور أصحابه أبو يعقوب إسحاق بن محمشاة الزاهد الواعظ إمامهم في عصره، أسلم على يده من أهل الكتابين والمجوس نحو خمسة آلاف رجل وامرأة ومات سنة ٣٨٣. واختلف في ضبط والده، فالمشهور بالفتح والتشديد وهو لقب له. كان يحفظ الكرم بسجستان وقيل بالتخفيف وهو الذي كان يذهب إليه الحافظ ابن حجر ويدل له قول الشاعر:

لمحمد بن كرام: أوصني، فقال: اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك. وقال رجل لحامد اللفاف: أوصني، فقال: اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات. قال: وما غلاف الدين؟ قال: اترك طلب الدنيا إلا ما لا بدّ منه وترك كثرة الكلام إلا فيما لا بدّ منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بدّ منه. وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى، أما بعد؛ فخف مما خوّفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما في يديك لما بين يديك. فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه، فكتب إليه أما بعد؛ فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولا بدّ لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب، واعلم أنه من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فامسك. وكتب مطرف بن عبدالله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد؛ فإن الدنيا

والدين دين محمد بن كرام

وفيه تحقيق أودعناه في شرح القاموس: (**أوصني. فقال: اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك. وقال رجل لحامد اللفاف**) له ذكر في الحلية لأبي نعيم: (**أوصني. فقال: اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف كيلا تدنسه الآفات. قال: وما غلاف الدين؟ قال: ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لا بدّ منه وكتب الحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**إلى عمر بن عبد العزيز**) الأموي (**رحمه الله تعالى أما بعد؛ فخف ما خوّفك الله واحذر مما حذرك الله، وخذ مما في يديك** لما بين يديك، **فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن**) البصري رحمه الله تعالى (**يسأله أن يعظه، فكتب إليه أما بعد؛ فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات**) أي الشديدات (**أمامك ولا بدّ لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطف**) أي الهلاك، (**واعلم أن من حاسب نفسه**) في الدنيا (**ربح، ومن غفر عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع**) عن الزلة، (**وإذا ندمت فاقلع**) عن المعصية، (**وإذا جهلت**) في أمر (**فسل**) العلماء، (**وإذا غضبت فامسك**) والسلام. وروى صاحب نهج البلاغة عن علي رضي الله عنه أنه قال: من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف أمن، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم.

(**وكتب مطرف بن عبدالله**) بن الشخير من أقران الحسن البصري (**إلى عمر بن عبد**

دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء. وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن ارطأة أما بعد؛ فإن الدنيا عدوّة أولياء الله وعدوّة أعداء الله، فأما أولياؤه فغمتهم، وأما أعداؤه فغرتهم. وكتب أيضاً إلى بعض عماله أما بعد؛ فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام.

العزيز رحمه الله أما بعد؛ فإن الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده. فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء). روى أحمد والبيهقي من طريق زويد عن أبي إسحاق عن عروة عن عائشة مرفوعاً: «الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له». ورجال أحمد رجال الصحيح غير زويد وهو ثقة. ورواه أحمد أيضاً، والشيرازي في الألقاب، والبيهقي عن ابن منصور موقوفاً.

(**وكتب عمر بن عبد العزيز**) رحمه الله تعالى (**إلى عدي بن ارطأة**) الفزاري كان عاملاً لعمر بن عبد العزيز على البصرة، ونقل سنة إثنين ومائة، روى له البخاري في كتاب الأدب المفرد (**أما بعد؛ فإن الدنيا عدوّة أولياء الله وعدوّة أعداء الله. أما أولياؤه فغمتهم، وأما أعداء الله.فغرتهم**) أخرجه أبو نعيم في الحلية وفيه: فإن الدنيا عدوّة الله وعدوّة أولياء الله الخ. وقد تقدمت الإشارة إليه في شرح خطبة كتاب ذم الدنيا.

(**وكتب**) عمر بن عبد العزيز (**أيضاً إلى بعض عماله أما بعد، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك. واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، وأعلم إن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام**). أخرجه أبو نعيم في الحلية، ومن كتابه إلى بعض عماله أما بعد، فاتق الله فيمن وليت أمره، ولا تأمن مكره في تأخير عقوبته، فإنه إنما يعجل بالعقوبة من يخاف الفوت والسلام.

ومن كتابه إلى رجل أما بعد؛ فإني أوصيك بتقوى الله والإنتشار لما استطعت من مالك وما رزقك الله إلى دار قرارك، فإنك والله لكأنك ذقت الموت وعاينت ما بعده بتصرف الليل والنهار فإنهما سريعان في طي الأجل ونقص العمر مستعدان بمن بقي بمثل الذي أصابه من قد مضى، فنستغفر الله لسيء أعمالنا ونعوذ به من مقته إيانا على ما نلفظ به مما يقصر عنه قوانا.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أوصني. قال: أوصيك بتقوى الله وإيثاره تخف عليك المؤنة فيحسن لك من الله المعونة، وكتب أيضاً إلى رجل: أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها ولا

فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته، فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها، ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستسرى الفساد، وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون اسجاعاً وينشدون أبياتاً ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم، فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب، بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منها مدبر ومتخلف.

يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل وكتب إلى بعض عماله أما بعد: فكان العباد قد عادوا إلى الله ثم ينبئهم بما عملوا ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى فإنه لا معقب لحكمه ولا منازع في أمره ولا تقاطع في حقه الذي استحفظ عباده وأوصاهم به، وإني أوصيك بتقوى الله وأحثك على الشكر فيما اصطنع عندك من نعمه وآتاك من كرامته، فإن نعمه يمدها شكره ويقطعها كفره، وأكثر ذكر الموت الذي لا تدري متى يغشاك فلا مناص ولا فوت، وأكثر ذكر يوم القيامة وشدته فإن ذلك يدعوك إلى الزيادة فيما زهدت فيه والرغبة فيما رغبت فيه، وكن مما أوتيت من الدنيا على وجل فإن من لا يحذر ذلك ولا يخوفه يوشك الصرعة أن تدركه في الغفلة، وأكثر النظر في عملك في دنياك بالذي أمرت به ثم اقتصر عليه، فإن فيه لعمري شغلاً عن دنياك ولا تدرك العمل حتى تؤثره على الجهل، ولا الحق حتى تذر الباطل. فنسأل الله لنا ولك حسن معونته. وكتب إلى بعض عماله أما بعد: فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون. وقال لرجل أوصيك بتقوى الله فإنها ذخيرة الفائزين وحرز المؤمنين، وإياك والدنيا أن تفتنك فإنها قد فعلت ذلك بمن كان قبلك فإنها تغر المطمئنين إليها وتفجع الواثق بهات وتثلم الحريض عليها ولا تبقى لمن استبقاها ولا يدفع المتلف عنها من حواها لمناها مناظر بهجة ما قدمت منها أمامك لم يسبقك وما أخرت منها خلفك لم يلحقك.

(فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته، فهذه المواعظ مثل **الأغذية التي تشترك الكافة في الإنتفاع بها ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الإتعاظ)** أي انسد **(وغلبت المعاصي واستسرى الفساد وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعاً)** أي يزينون كلمات موزونة يتكلفون فيها **(وينشدون أبياتاً** بمناسبة **ما يوردوه، ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم وينشبون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم)** وهيبتهم، **(ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب)** فقد روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى أنه قال: الكلام الذي يصدر عن القلب يقع على القلب، **(بل القائل متصلف)** أي متكبر، **(والمستمع متكلف وكل واحد منها مدبر ومتخلف)** عن حلبة

فإذن كان طلب الطبيب أوّل علاج المرضى، وطلب العلماء أول علاج العاصين. **فهذا** أحد أركان العلاج وأصوله.

الأصل الثاني: الصبر: ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته وإما لشدة غلبة شهوته، فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة ـ وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس ـ وحاصله ان المريض إذا اشتد ضراوته لمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوّة الخوف على الألم الذي يناله في تركه، فلا بدّ على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته، فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرىء المخوّفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهي والنظر إليه وعلاجه الهرب والعزلة، ومن داخل تناول لذائذ

السباق، **(فإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى، وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله.**

(الأصل الثاني: الصبر. ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضة لتناوله ما يضره) من الأطعمة **(وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته، وإما لشدة غلبة شهوته فله سببان)** أي للمانع من التوبة سببان. أحدهما: الجهل بآفات الذنوب وما رتب عليها من العقوبات العاجلة والآجلة، **(فما ذكرناه هو علاج الغفلة)** وهو العلم لأن العلة تعالج بضدها **(فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها)** بالصبر لأن الصبر حبس النفس من المشتهى، وهذا يأتي في الكتاب الذي بعده **(قد ذكرناه أيضاً في كتاب رياضة النفس)** وتهذيب الأخلاق **(وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته بمأكول مضر فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره)** لئلا يتعلق القلب به، **(ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته)** أو خاصيته (ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه، **فلا بد على كل** حال من مرارة الصبر **فكذلك يعالج** الشهوة في المعاصي **كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه ولا حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته، فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرىء المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله** ﷺ، **فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة)** أي الباعثة **(لشهوته، ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهي)** بين يديه **(والنظر إليه وعلاجه الهرب والعزلة)** عن

الأطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم. وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم، وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى، فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى. وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى وإنما لله الآخرة والأولى.

فإن قلت: فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر

الخلق (و) مهيجها (**من داخل لذائذ الأطعمة وعلاجه الجوع**) في أكثر الأوقات (**والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع**) من أفواه الشيوخ (**وتقليد**) لهم، (**فأول الأمر حضور مجالس الذكر، ثم الإستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع، ثم التفكر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه، وإذا قوي الخوف**) وتمكن منه (**تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج**) للداخل والخارج (**وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك**) فلا يقدر له قدر فالمساعي أشتات مختلفة، (**فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء**) لأمور الطاعات (**واستشعر الخوف فاتقى**) المعاصي (**وانتظر الثواب وصدق بالحسنى**) أي بالكلمات الحسنى، (**وهي ما دل على حق**) ككلمة التوحيد (**فسييسره الله تعالى**) أي سيهديه (**لليسرى**) أي للخلة المؤدية إلى اليسر والزلف كدخول الجنة، (**وأما من بخل**) بما أمر به (**واستغنى**) بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى (**وكذب بالحسنى**) بإنكار مدلولها (**فسييسره الله للعسرى**) أي للخلة المؤدية إلى العسر والشدة بدخول النار، (**فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك**) أي مات (**وتردى**) حفرة القبر أو قعر جهنم، (**وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى**) أي الإرشاد إلى الحق بشرح صفائه أو بمقتضى حكمته، (**وإنما لله الآخرة، والاولى**) فيعطي في الدارين الذي يشاء أو ثواب الهداية للمهتدين، وفي السياق تلميح لقوله تعالى: ﴿إن سعيكم لشتى★ فأما من أعطى واتقى★ وصدق بالحسنى★ فسنيسره لليسرى★ وأما من بخل واستغنى★ وكذب بالحسنى★ فسنيسره العسرى★ وما يغني عنه ماله إذا تردى★ إن علينا للهدى★ وإن لنا للآخرة والأولى﴾ [الليل: ٤ - ١٣]..

(**فإن قلت: فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه**)

عنه، والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يكون إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان، فكان من أصر على الذنب لم يصر إلا لأنه غير مؤمن؟ فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان، بل يكون لضعف الإيمان، إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة، ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور.

أحدها: أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف ـ والعادة طبيعة خامسة ـ والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس، ولذلك قال تعالى: ﴿كلاّ بل تحبون العاجلة ★ وتذرون الآخرة﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١] وقال عز وجل: ﴿بل تؤثرون الحياة

على مرارته، (**والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف، والخوف لا يحصل إلا بالعلم، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب، والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان. فكان من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن؟ فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان**) من أصله، (**بل يكون لضعف الإيمان إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة، ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور**).

(**أحدها: أن العقاب الموعود**) على الذنب (**غيب ليس بحاضر**) في الحال، (**والنفس جبلت متاثرة بالحاضر**) في الحال وفي نسخة بحب الحاضر (**فتأثرها بالموعود**) الغائب (**ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر**) وهذا ظاهر.

(**الثاني: أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة**) أي مقتضية (**وهي في الحال**) أي الحاضر (**آخذة بالمخنق**) كمقعد العنق لأنه موضع الخنق، (**وقد قوى ذلك واستولى**) أي غلب (**عليها بسبب الإعتياد والألف و**) قد قالوا: (**العادة طبيعة خامسة**) زيادة على الطبائع الأربع، (**والنزوع عن العاجل**) في الحال (**لخوف الآجل**) في المآل (**شديد على النفس**) ثقيل عليها، (**ولذلك قال**) الله تعالى: (**﴿كلا بل تحبون العاجلة﴾**) أي الدنيا الحاضرة (**﴿وتذرون الآخرة﴾**) وهي الآجلة أي يتركونها بمقتضى الفهم للعاجلة (**وقال عز من قائل: ﴿تؤثرون الحياة الدنيا﴾**) ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ (**وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول**

الدنيا﴾ [الأعلى: ١٩] وقد عبّر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ». وقوله ﷺ: « إن الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها! فحفها بالشهوات ثم قال: اذهب فانظر إليها فنظر فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها. وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها فنظر فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفها بالمكاره. ثم قال: اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ». فإذاً كون الشهوة مرهقة في

الله ﷺ: **« حفت الجنة بالمكاره)** جمع مكرهة وهي ما يكره الإنسان ويشق عليه من القيام بحقوق العباد على وجهها وأصل الحف الدائر بالشيء المحيط، والمعنى أحاطت المكاره بنواحي الجنة فهي لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها **(وحفت النار بالشهوات)** أي أحاطت والشهوات كل ما يلائم النفس وتدعو إليه وهو تمثيل حسن معناه يوصل إلى الجنة بارتكاب المكاره من الجهد في الطاعة والصبر على الشهوة، كما يوصل المحجوب من الشيء إليه بهتك حجابه، ويوصل إلى النار بارتكاب الشهوات، ومن المكاره الصبر على المصائب بأنواعها، فكلما صبر على واحدة قطع حجاباً من حجب الجنة، ولا يزال يقطع حجبها حتى لا يبقى بينه وبينها إلا مفارقة روحه بدنه، وهذا من جوامع الكلم في ذم الشهوات. أخرجه أحمد ومسلم وعبد بن حميد والدارمي والترمذي وأبو يعلى وابن حبان من طريق ورقاء عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً. ورواه أحمد ومسلم والترمذي أيضاً من طريق ابن سلمة عن ثابت وحميد كلاهما عن أنس مرفوعاً. ورواه القضاعي من طريق إسحاق بن محمد الفروي، عن مالك، عن سمي، عن أبي صالح عن أبي هريرة كذلك. ورواه البخاري من طريق مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة لكن بلفظ: « حجبت النار بالشهوات وحجبت، الجنة بالمكاره، ورواه أحمد في الزهد عن ابن مسعود موقوفاً.

(وقوله ﷺ: « **إن الله**) عز وجل (**خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها**) فذهب (**فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها فحفها بالشهوات**) أي جعلها كالسور المحيط بها (**ثم قال**) له (**اذهب فانظر إليها**) فذهب فنظر إليها (**فقال: لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل**) عليه السلام: (**اذهب فانظر إليها**) فذهب (**فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفها بالمكاره**) أي بالشدائد والمكروهات (**ثم قال: إذهب فانظر إليها**) فذهب (**فنظر**) إليها (**فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد »**) قال العراقي: رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححاه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة اهـ.

الحال وكون العقاب متأخراً إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان، فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذباً بأصل الطب ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه، ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر.

الثالث: إنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات، وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكثير، فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان.

الرابع: أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالاً على فضل الله تعالى. فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

نعم. وقد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر، كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فإن

(**فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخراً إلى المآل سببان ظاهران في الإسترسال**) في المعاصي (**مع حصول أصل الإيمان**) وبقائه، (**فليس كل من يشرب من مرضه ماء الثلج**) أي المبرد به (**لشدة عطشه**) وكثرة لهبه (**مكذباً بأصل الطب ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه، ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز**) في الحال (**فيهون عليه الألم المنتظر**) في الحال.

(**الثالث: أنه ما من**) عبد (**مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع**) مستول عليه، (**فلا يزال يسوف بالتوبة والتكفير**) مرة بعد أخرى، (**فمن حيث رجاؤه توفيقه للتوبة**) وفي نسخة التوفيق للتوبة (**ربما يقدم عليه مع**) بقاء أصل (**الإيمان**).

(**الرابع: أنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب وينتظر العفو عنها إتكالاً على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان**) في كل منها.

(**نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس بقدح في أصل الإيمان**) ويخالفه (**وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر**)، وهو (**كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في**

كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر.

فإن قلت: فما علاج الأسباب الخمسة؟ فأقول: هو الفكر، وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأوّل وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وإن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال، إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال، بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده، ومفارقته للدنيا لا بدّ منها، فكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب

المرض، **فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب أو حاذق فيه فيكذبه أو يشك فيه، فلا يبالي به وهذا هو الكفر).**

(**فإن قلت: فما علاج الأسباب الخمسة**) المذكورة؟ (**فأقول**): علاجها الكلي (**هو الفكر**) أي استعماله، (**وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غداً للناظرين**) وفي نسخة لناظره (**قريب، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله**) كما في الصحيح من حديث عائشة: أن بلالاً لما وعك بالمدينة كان يرفع عقيرته ويقول:

كـل امـرىء مصبـح في أهلــه ... والموت أدنـى مـن شراك نعلـه

وهو تحقيق لكمال تقريبه، (**فما يدريه لعل الساعة قريب، والمتأخر إذا وقع صار ناجزاً ويذكر نفسه أنه أبداً في دنياه يتعب نفسه في الحال لخوف أمر في الإستقبال إذ يركب البحار**) والأوعار (**ويقاسي الأسفار لأجل**) تحصيل (**الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال، بل لو مرض وأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد**) مثلاً (**يضره**) في مرضه (**ويسوقه إلى الموت، وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه**) ولم يشربه، (**مع أن الموت ألمه لحظة**) واحدة (**إذا لم يخف ما بعده ومفارقته للدنيا لا بد منها فكم نسبة مدة وجوده في الدنيا**) وبقائه فيها (**إلى عدمه أزلاً وأبداً. فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزته على طبه، فيقول: كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء**)

لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له الأعوام الخلق ، وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا ؟ وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ؟ وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار ؟ وإذا كنت لا أصبر على زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟ وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لأن المسوف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء ، فلعله لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم ، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكد بالاعتياد ! فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق . وما مثال المسوّف إلا مثال من

عليهم السلام؟ (**والمؤيدون بالمعجزات**) الباهرة (**عندي دون قول نصراني طبيب يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق**) الذين لا عبرة بهم ، (**وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا**) كما أخبر به الله تعالى في كتابه العزيز ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة﴾ [الحج: ٤٧] (**وهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ، ويقول: إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل**) بالنسبة إلى العدم ، (**فكيف أقدر على ذلك أبد الأبد ، وإذا كانت لا أطيق ألم الصبر ، فكيف أطيق ألم النار ، وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كثرة همومها وكدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها . فكيف أصبر عن نعيم الآخرة**) مع سلامته من المنغصات؟ (**و**) أما (**تسويف التوبة**) أي تأخيرها من وقت إلى وقت (**فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف**) كما ورد ذلك في بعض الأخبار وتقدم ذكره (**لأن المسوف يبني الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء**) بلا فناء ، (**فلعله لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف**) وتزداد (**إذ تتأكد بالإعتياد ، فليس الشهوة التي أكدها الإنسان بالإعتياد**) عليها وفي نسخة بالعادة (**كالتي لم يؤكدها ، ومن هذا هلك المسوّفون لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبداً شاق**) أي شديد ، (**وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة**) من أصلها (**فرآها**

احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف.

وأما المعنى الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى، فعلاجه ما سبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل وقال: انتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار، فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة، وقد حكي في الأسمار أن مثل ذلك وقع فإنا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون.

وأما الخامس: وهو الشك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل

قوية) راسخة في لأرض **(لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت إزداد رسوخها)** في الأرض، **(وهو كلما طال عمره)** بعد الأربعين **(إزداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف، فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف)**.

(وأما المعنى الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ما سبق) قريباً **(وهو كمن ينفق جميع أمواله)** على الفقراء والمساكين **(ويترك نفسه وعياله فقراء)** حالة **(منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور)** أي الإطلاع على كنز في أرض قربة، فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان **(وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل وقال: انتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة على الظالم الناهب حتى لا يتفرغ إلى داري)** بل يشتغل عنها. **(أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار)** ولم يمكن من أخذ الأموال، **(فإن الموت ممكن والغفلة ممكنة، وقد حكي في الأسمار)** أي الحكايات عن الماضين ممن سمر بها **(أن مثل ذلك)** قد **(وقع فأنا أنتظر من فضل الله تعالى مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن، ولكنه في غاية الحماقة)** وقلة العقل **(والجهل، إذ قد لايمكن ولا يكون)**.

(وأما الخامس وهو الشك؛ فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك

وذلك يطول. ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة؟ فإن قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء، وإن قال: أنا شاك فيه فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه. وإن كان ألذ الأطعمة؟ فيقول: أتركه لا محالة لأني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب. وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد. فيقال له: يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء، بل جميع أصناف العقلاء ـ ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الألباب ـ عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضاً فيما يقول؟ فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة. فلا يبقى له توقف إن كان

يطول) بيانه، **(ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له)** وفي نسخة فيقول: **(ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول اعلم أنه محال كما اعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين)** مختلفين **(في حالة واحدة، فإن قال: اعلم استحالته)** كذلك **(فهو أخرق معتوه)** ذاهب العقل، **(وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء، وإن قال أنا شاك فيه، فيقال: لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه، فهل تأكله أم تتركه، وإن كان ألذ الأطعمة فيقول: أتركه لا محالة لأني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام)** اللذيذ **(والصبر عنه، وإن كان شديداً فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة)** في الدنيا **(والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد)** هول **(فيقال له: يا سبحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء)** عليهم السلام **(كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات)** والآيات الدالة على ما قالوا، **(وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء، بل جميع أصناف العقلاء)** من الأنس، **(ولست أعني بهم جهال العوام، بل ذوي الألباب عن صدق رجل واحد مجهول)** لا يعلم كيفاً **(لعل له غرضاً فيما يقول، فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثواباً وعقاباً)** على الطاعة والعصيان، **(وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض**

عاقلاً مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة وقدرنا طائراً يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئاً، فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد؟ ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعري:

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت اليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما

ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكاً: إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصت وهلكت! أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال.

فإن قلت: هذه الأمور جلية ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟ فاعلم أن المانع من الفكر أمران.

شهوات الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلاً مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة ذرة) وفي نسخة بالذرة **(وقدرنا طائراً يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص من أبد الآباد شيء، فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد، وذلك لا منتهى له، ولذلك قال)** أديب معرة النعمان **(وأبو العلاء)** أحمد بن سليمان التنوخي **(المعري)** تقدمت ترجمته:

(قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما)

فهذا كلامه مع منكر الحشر. **(وكذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكاً)** في أمر الآخرة، **(إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصت)** أنا **(وهلكت)** أنت وقد تقدم ذلك في كتاب ذم الغرور. **(أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال)**.

(فإن قلت: هذه أمور جلية، ولكنها ليست تنال إلا بالفكر، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلتها، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر لا سيا من آمن بأصل الشرع وتفصيله؟ فاعلم أن المانع من الفكر) في هذه الأمور **(أمران)**.

أحدها: أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة.

والثاني: أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخراً لشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك.

وأما علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه: ما أشد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألماً بذكره مع استحقار ألم مواقعته، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به؟ وأما الثاني: وهو كون الفكر مفوّتاً للذات الدنيا، فهو أن يتحقق فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها، ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر، وكيف وفي التوبة عن المعاصي والاقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة

(أحدها: أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم، وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب) كأنه يلدغه **(فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل التفرج)** والإنبساط **(والإستراحة)**.

(والثاني: أن الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات، وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته) أي أسرته، **(فصار عقله مسخراً لشهوته)** أي منقاداً لها **(فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك)** فهذا سبب استثقال القلوب الفكر.

(وأما علاج هذين المانعين؛ فهو أن يقول لقلبه ما أشد غباوتك في الإحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألماً بذكره مع استحقار ألم مواقعته، فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به؟ وأما الثاني وهو كون الفكر مفوّتاً للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن لذة الآخرة أشد وأعظم، فإنها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدثور) أي الذهاب والإنطماس، **(وهي)** مع ذلك **(مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر، وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال**

الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الانس به؟ ولو لم يكن للمطيع جزء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة؟ نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعدما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدناً كما كان الشر ديدناً، فالنفس قابلة ـ ما عودتها تتعوّد ـ والخير عادة والشر لجاجة.

فإذاً هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوّة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل في الحصر، فيصير الفكر موافقاً للطبع فيميل القلب إليه. ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق، إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة. وقد روي في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال

على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به، ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافياً) ولم يحتج فيه إلى ضميمة، **(فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة؟ نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة، ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة فقد صار الخير ديدناً)** أي عادة وطبعاً، **(كما كان الشر)** قبل ذلك **(ديدناً)** وطبعاً، **(فالنفس قابلة لما عوّدتها)** راغبة ما رغبتها، **(فتعوّد الخير عادة والشر لجاجة)** والعادة من العود إلى الشيء مرة بعد أخرى وأكثر ما تستعمل في المراجعة في الشيء المضر بشؤم الطبع من غير تدبر عاقبته ويسمى فاعله لجوجا. وروى الطبراني في الكبير عن ابن مسعود موقوفاً الخير عادة وروى ابن ماجه والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي، والقضاعي، وابن عساكر من طريق يونس بن ميسرة بن حليس عن معاوية بن أبي سفيان رفعه: «الخير عادة والشر لجاجة» زاد بعضهم فيه: «ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

(فـإذاً هذه الأفكار هي المهيجة) أي الباعثة **(للخوف المهيج لقوّة الصبر عن اللذات)** والشهوات، **(ويهيج هذه الأفكار وعظ الواعظ وتنبيهات تقع للقلب)** على سبيل ورود الواردات **(بأسباب تتفق)** في بعض الأحوال والأحيان **(لا تدخل في الحصر)** ولا في الضبط، **(فيصير الفكر موافقاً للطبع فيميل القلب إليه)** ومعنى موافقته للطبع الرجوع إلى الخير والإمتناع عن الشر، فيكون الفكر بمنزلة الحاكم والطبع محكوماً عليه، **(ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة)** ويقرب منه قول بعضهم هو جعل الله فعل عبده موافقاً لما يحبه ويرضاه، وقول بعضهم: هو الهداية إلى وفق

لعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني؟ فقال علي رضي الله عنه: بني على أربع دعائم: على الجفاء، والعمى، والغفلة، والشك. فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمي نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب. فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر، وهذا القدر في التوبة كافٍ، وإذا كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة فلا بدّ من بيان الصبر، فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى.

الشيء وقدره وما يوافقه ويعبر عنه أيضاً بالتسديد، **(وقد روي في حديث طويل)** يروى من طريق أهل البيت **(أنه قام عمار بن ياسر)** رضي الله عنه **(فقال لعلي رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني؟ فقال علي رضي الله عنه: بني على أربع دعائم: على الجفاء، والعمى، والغفلة، والشك. فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء)** أي أبغضهم، **(ومن عمي نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبداله من الله ما لم يكن يحتسب)** ولفظ القوت بعد قوله عن الرشد وغرته الأماني، فأخذته المساءة والندامة وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ومن شب تاه في الضلالة اهـ.

ورواه صاحب نهج البلاغة في حديث طويل عن علي رضي الله عنه قال فيه: والكفر على أربع دعائم: على التعمق، والتنازع، والزيغ، والشقاق. فمن تعمق لم ينب إلى الحق، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق، ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة وسكر سكر الضلالة، ومن شاق وعرت عليه طرقه وأعضل عليه أمره وضاق مخرجه، والشك على أربع شعب: على التماري، والهول، والتردد، والإستيلاء. فمن جعل المرء ديدناً لم يصبح ليله، ومن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه، ومن تردد في الريب وطئته سنابك الشياطين، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيها اهـ.

قلت: هكذا رواه قبيصة بن جابر والعلاء بن عبد الرحمن وغيرهما قالوا: كنا جلوسا عند علي بن أبي طالب إذ أتاه رجل من خزاعة فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الإسلام والكفر على ماذا بنيا؟ فساقوه بطوله. ورواه الحرث عن علي مختصراً.

(فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر) إذ جعل الغفلة أحد مقامات الكفر وقرنها بالعمى والشك، وأحال صاحبها عن الرشد ووصفه بالحيرة. **(وهذا القدر في التوبة كاف)** لذوي البصائر، **(وإذا كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة، فلا بد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى)**، وبهذا ينكشف لك سر الترتيب الذي رتبه

المصنف رحمه الله تعالى في هذا الكتاب فما أغزر علمه وأدق نظره، فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ويرحمنا فيما نعلم بمنه وسعة جوده، وبه تم شرح كتاب التوبة.

(خاتمة): في ذكر ما يتعلق من التنبيهات والاشارت في التوبة. قال أبو القاسم القشيري في الرسالة: إن للتوبة أسباباً وترتيباً وأقساماً، فأوّل ذلك انتباه القلب عن رقدة الغفلة ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة ويصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه بسمع قلبه، فإذا تمكن بقلبه سوء ما يصنعه وأبصر ما هو عليه من قبيح الافعال رسخ في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة والأخذ في جميع الرجوع والتأهب لأسباب التوبة، فأوّل ذلك هجران إخوان السوء، فإنهم هم الذين يحملون على رد هذا القصد ويشوّشون عليه صحة هذا العزم، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة على المشاهدة التي تزيد رغبته في التوبة وتوفر دواعيه على إتمام ما عزم عليه مما يقوى خوفه ورجاءه، فعند ذلك تنحل من قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعال، فيقف عن تعاطي المحظورات ويكبح لجام نفسه عن متابعة الشهوات، فيفارق الزلة في الحال ويبرم العزيمة على أن لا يعود إلى مثلها في الاستقبال، فإن مضى على موجب قصده ونفذ بمقتضى عزمه، فهذا الموفق صدقاً وإن نقض التوبة مرة أو مرات وتحمله إرادته على تجديدها، وقد يكون مثل هذا كثيراً فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء، فإن لكل أجل كتاباً.

حكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: اختلفت إلى مجلس قاص فأثرّ كلامه في قلبي فلما قمت لم يبق في قلبي شيء. فعدت ثانيا فسمعت كلامه فبقي في قلبي كلامه في الطريق، ثم زال عن قلبي، فعدت ثالثا فبقى أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي فكسرت آلات المخالفات ولازمت الطريق، فحكى هذه الحكاية ليحيي بن معاذ فقال: عصفور اصطاد كركياً أراد بالعصفور ذلك القاص وبالكركي أبا سليمان الداراني.

ويحكي عن أبي حفص الحداد أنه قال: تركت العمل كذا وكذا مرة فعدت إليه ثم تركني العمل فلم أعد بعد إليه، وقيل: ان أبا عمرو بن نجيد في ابتداء أمره اختلف إلى مجلس أبي عثمان فأثر في قلبه كلامه فتاب، ثم أنه وقعت له فترة فكان يهرب من أبي عثمان إذا رآه ويتأخر عن مجلسه فأستقبله أبو عثمان يوماً فعدا أبو عمر وعن طريقه وسلك طريقاً آخر، فتبعه أبو عثمان فما زال به يقفو أثره حتى لحقه، ثم قال له: يا بني لا تصحب من لا يحبك إلا معصوماً إنما ينفعك أبو عثمان في مثل هذه الحالة. قال: فتاب أبو عمرو وعاد إلى الإرادة وتعبد.

سمعت الشيخ أبا علي الدقاق يقول تاب بعض المريدين ثم وقعت له فترة فكان يفكر وقتاً لو عاد إلى التوبة كيف كان حكمه؟ فهتف به هاتف يا فلان أطعتنا فشكرناك ثم تركتنا فأمهلناك، فإن عدت إلينا قبلناك فعاد الفتى إلى الإرادة وتعبد، فإذا ترك المعاصي وحلّ عن قلبه عقدة الإصرار وعزم على أن لا يعود إلى مثله، فعند ذلك يخلص إلى قلبه صادق الندم فيتأسف على ما

عمله ويأخذ في التحسر على ما ضيعه من أحواله وارتكبه من قبيح أعماله، فتتم توبته وتصدق مجاهدته واستبدل بمخالطة العزلة وبصحبته مع إخوان السوء التوحش عنهم والخلوة، ويصل ليله بنهاره في التلهف، ويغتبق في عموم أحواله صدق التأسف، ويمحو بصبوب عبرته آثار عثرته، ويأسو لحبس توبته كلوم حوبته يعرف من بين أمثاله بذبوله، ويستدل على صحة حاله بنحو له ولم يتم له شيء من هذا إلا بأربعة. فراغه من ارضاء خصومه والخروج عما لزمه من مظالمه، فإن أقل منزلة في التوبة إرضاء الخصوم بما أمكنه فإن اتسع ذات يده لايصال حقوقهم إليهم أو سمحت نفوسهم بإحلاله والبراءة عنه، وإلاَّ فالعزم بقلبه إلى أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان والرجوع إلى الله بصدق الابتهال والدعاء لهم، وللتائبين صفات وأحوال هي من خصالهم يعد ذلك من جملة التوبة لكونها من صفاتهم لا لأنها من شروط صحتها، وإلى ذلك تشير أقاويل الشيوخ في معنى التوبة ثم ساقها.

فمن ذلك قول أبي علي الدقاق: التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتها، فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب ولا لرهبة من العقاب فهو صاحب أوبة. ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين، والإنابة صفة المقربين، والأوبة صفة الانبياء والمرسلين.

وقال الجنيد: سمعت الحرث يقول: ما قلت قط اللهم إني أسألك التوبة ولكن أقول أسألك شهوة التوبة. وسئل ذو النون المصري عن التوبة فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. وقال أبو الحسن النوري: التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عز وجل. وقال عبد الله بن علي التميمي: شتان ما بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات. وكان يحيى بن معاذ يقول: إلهي لا أقول تبت، ولا أعود لما أعرف من خلفي، ولا أضمن ترك الذنوب لما أعرف من ضعفي، ثم أني أقول لا أعود لعلي أموت قبل أن أعود. وسئل ابن يزدانيار عن العبد إذا خرج إلى الله عز وجل على أي أصل يخرج؟ فقال: على أن لا يعود إلى ما منه خرج، ولا يراعي غير من إليه خرج ويحفظ سره عن ملاحظة ما تبرأ منه، فقيل له: هذا حكم من خرج عن وجود، فكيف حكم من خرج عن عدم؟ فقال: وجود الحلاوة في المستأنف عوضاً عن المرارة في السالف. وقال ذو النون: حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، ثم لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك. وقيل لأبي حفص: لم يبغض التائب الدنيا؟ فقال: لأنها دار باشر فيها الذنوب، فقيل له: فهي دار أيضاً قد أكرمه الله فيها بالتوبة؟ فقال: إنه من الذنب على يقين ومن قبول التوبة على خطر. وقال رجل لرابعة: إني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي فلو تبت هل يتوب عليّ؟ فقالت: لا. لو تاب عليك لتبت. وقال يحيى بن معاذ: زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها. وقال أبو عمر الانماطي: ركب علي بن عيسى الوزير في مركب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: من هذا من هذا؟ فقالت امرأة، قائمة على الطريق: إلى متى

تقولون من هذا من هذا ؟ هو عبد سقط من عين الله تعالى، فابتلاه بما ترون، فسمع علي بن عيسى ذلك فرجع إلى منزله واستعفي من الوزارة وذهب إلى مكة وجاور بها إلى هنا كلام القشيري وقد اختصرت في سياقه.

وقال صاحب العوارف: توبة الاستجابة لمثلثي هي ان تستحيي من الله لقربه منك إذا تحقق بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله ويستغفر الله منه، وهي لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل:

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

وقال: وسئل أبو يعقوب السوسي عن التوبة فقال: التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم. قال: وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لم كوشف بصريح العلم لأنه لا بقاء للجهل مع العلم، كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس، وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام، وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن لتطهر الظاهر والباطن بأخس أوصاف التوبة وأعم أوصافها اهـ.

وقال صاحب القوت: قال أبو محمد سهل: ليس من الأشياء أوجب على الخلق من التوبة، ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة، وقد جهل الناس علم التوبة. وقال: من يقول ان التوبة ليس بفرض فهو كافر، ومن رضي بقوله فهو كافر. وقال بعض علماء الشام: لا يكون المريد تائباً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال معصية عشرين سنة. وكان إبراهيم بن أدهم يقول: منذ أربعين سنة أشتهي أن أشتهي لأترك ما أشتهي فلا اجد ما أشتهي، وإذا اتبع العبد الذنب بالذنب ولم يجعل بين الذنبين توبة خيف عليه الهلكة، لأن هذا حال المصر، ولأنه قد شرد عن مولاه بترك رجوعه إليه ودوام مقامه مع النفس على هواه، وهذا مقام المقت والبعد، فأفضل ما يعمله العبد قطع شهوات النفس أحلى ما يكون عنده الهوى، إذ ليس لشهواتها آخر ينتظر كما ليس لبدايتها أوّل يرتسم، فإن لم يقطع ذلك لم تكن له نهاية فإن شغل بما يستأنف من مزيد الطاعة ووجد حلاوة العبادة وإلاَّ آخذ نفسه بالتصبر والمجاهدة، وهذه طريق الصادقين من المريدين، ثم لا يتخذ التائب عادة من ذنب تتعذر عليه توبته، فإن العادة جند من جنود الله تعالى لولاها لكان الناس كلهم تائبين، ولولا الابتلاء لكان الناس كلهم مستقيمين، وآخر شيء على التائب تمكينه خاطر السوء من قلبه بالاصغاء إليه، فإنه سلب هلكته وكل سبب يدعو إلى معصية أو يذكر معصية فهو معصية، وكل سبب يؤل إلى ذنب أو يؤدي إليه فهو ذنب، وإن كان مباحاً فقطعه طاعة، وهذا من دقائق الأعمال وقد كان يقال: من أتى عليه أربعون وهو العمر وكان مقيماً على ذنب لم يكد يتوب منه إلا القليل من المتداركين، وقد اشترط تعالى على التائبين من المؤمنين شرطين وشرط على التائبين من المنافقين أربعة شروط لأنهم اعتلوا بالخلق في الأعمال فاشركوهم بالخالق في الإخلاص وضعف عليهم الشرط تشديد الشدة دخولهم في المقت واعتل غيرهم بوصفه فخفف عنهم شرطين فقال تعالى:

....

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا﴾ [البقرة: ١٦٠] فقوله ﴿تابوا﴾ أي رجعوا إلى الحق من أهوائهم ﴿وأصلحوا﴾ يعني ما أفسدوا بنفوسهم ﴿وبينوا﴾ فيه وجهان.

أحدهما: بينوا ما كانوا يكتمون من الحق ويخفون من حقيقة العلم، وهذا لمن عصى بكتم العلم وستر الحق بالباطل، وقيل: بينوا توبتهم حتى تبين ذلك فيهم وظهرت أحكام التوبة فيهم. وقال تعالى في الشرطين الآخرين ﴿إنَّ المنافقين في الدركِ الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً★ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦] لأنهم كانوا يعتصمون بالناس وبالأموال وكانوا يراؤن بالأعمال، فلذلك اشترط عليهم الاعتصام بالله والاخلاص لله. وقال بعض العارفين العامة يتوبون من سيئاتهم، والصوفية يتوبون من حسناتهم يعني من تقصيرهم في أدائها لعظم ما يشهدون من حق الملك العزيز المقابل بها، ومن نظرهم إليها وإلى نفوسهم بها وهي منة إليهم واصلة. قال: وإنما حرم بعض التائبين المزيد ولم يجدوا حلاوة التوبة لتهاونهم بحال الرعاية وتسامحهم بترك حسن القيام بشاهد المراقبة، وذلك من قلة احكام أمر التوبة ولعدم القيام بحكم التوبة من الذنب الواحد، وأحكموا حال ثواب الصادقين في التوبة لم يعدموا من الله المزيد لأنهم محسنون فهي في تجديد، قال الله تعالى ﴿وسنزيد المحسنين﴾ [البقرة: ٥٨] فإذا رأيتك مستقيماً على التوبة عاملاً بالصالحات، ولم تجدك على مزيد من ميراث يوجد حلاوة أو حسن خليقة أو عزوف زهد أو خاصية معرفة، فارجع إلى باب المراقبة أو موقف الرعاية فتفقدهما وأحكم حالها فمن قبلها أتيت. وقال بعض العلماء: من تاب من تسعة وتسعين ذنباً ولم يتب من ذنب واحد لم يكن عندنا من التائبين.

واعلم أن حقيقة التوبة من كل ذنب عشرة أعمال إلا أن يكون العبد توّاباً يحبه الله، ولا تكون توبته نصوحاً التي شرطها الله تعالى وفسرتها النبوّة إلا أن يحكم العبد عشر توبات من كل ذنب. أولها ترك العود إلى فعل الذنب، ثم يتوب من القول به، ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب، ثم التوبة من السعي في مثله، ثم التوبة من النظر إليه، ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به، ثم التوبة من الهمة به، ثم التوبة من التقصير في حق التوبة، ثم التوبة من أن لا يكون أراد إلا وجه الله خالصاً بجميع ما تركه لوجهه، ثم التوبة في النظر إلى التوبة والسكون إليها والإدلال بها. وهذا مطالعة التوحيد وعلو الإشراق بالمريد، ثم يشهد بعد ذلك تقصيره كله عن القيام بحق الربوبية لعظم ما يشهد من جلاله، فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته، ويكون استغفاره من توبته لما ضعف قلبه ونقص همه عن معاينة مشاهده لعلو مقامه ودوام مزيده واعلامه، ولكل مقام توبة، ولكل حال من مقامات التوبة توبة، ولكل مشاهدة ومكاشفة توبة. فهذا حال التائب المنيب الذي هو من الله مقرب وعنده حبيب، وهذا مقام مفتن تواب أي مختبر بالاشياء مبتلى بها توّاب إلى الله تعالى منها راجع إليه عنها ناظر إليه بها لينظر مولاه أو ينظر بقلبه إليه أو إليها، أو

يعتكف عليه أو عليها أو يطمئن بوجودها إليها أو إليه أو يطالب إياه هرباً منها أو إياها، فعليه من كل مشاهدة لسواه ذنب وعليه من كل سكون إلى سواه عتب كماله من كل شهادة علو، ومن كل إظهار في الكون حكم، فذنوبه وتوباته إلى الله تعالى لا تحصى انتهى.

وروى صاحب نهج البلاغة أن علياً رضي الله عنه قال لرجل قال بحضرته: أستغفر الله ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان. أولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدي حقها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول أستغفر الله اهـ.

وقال صاحب القاموس في كتاب البصائر، قال الله تعالى ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ [الحجرات: ١١] قسم العباد إلى تائب وظالم ومأثم قسم ثالث البتة، وأوقع الظلم على من لم يتب ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وبآفات أعماله. واعلم أن صاحب النظر إلى الوعد والوعيد يحدث له ذلك خوفاً وخشية يحمله على التوبة. الثاني: أن ينظر إلى أمره ونهيه فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة والإقرار على نفسه بالذنب. والثالث: أن ينظر إلى تمكين الله تعالى إياه منها بتخليه بينه وبينها وتقديرها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته ومغفرته وحلمه وكرمه، وتوجب له هذه المعرفة عبودية فهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها، ويعلم ارتباط الخلق والأمر والجزاء بالوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وان ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها في الوجود، وأن كل اسم مفيض أثره، وهذا المشهد يطلعه على رياض مونقة المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة ما يضيق عن التعبير نطاق الكلم، والنظر الرابع نظره إلى الآمر له بالمعصية وهو شيطانه الموكل به فيفيد النظر إليه اتخاذه عدواً وكمال الاحتراز منه والتحفظ والتيقظ لما يريده منه عدوّه وهو لا يشعر به، فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات بعضها أصعب من بعض. عقبة الكفر بالله ودينه ولقائه، ثم عقبة البدعة إما باعتقاد خلاف الحق واما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الرسوم المحدثة. قال بعض مشايخنا: تزوّجت الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة، فولدت بينهما خسران الدنيا والآخرة. ثم عقبة الكبائر وتزيينها له، وان كان الإيمان فيه الكفاية. ثم عقبة الصغائر بأنها مغفورة ما اجتنبت الكبائر فما زال يحببها إليه حتى يصر عليها، ثم عقبة المباحات فيشغله بها عن الاستكثار من الطاعات وأقل ما يناله منه تفويت الارباح العظيمة، ثم عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة يزينها له ويشغله بها عما هو أفضل وأعظم ربحاً، ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم والأكثرون قد ظفر بهم في العقبة الأولى، فإن عجز عنه في هذه العقبات جاءه في عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى على حسب مرتبته في الخير. قال: وورود التوبة في القرآن على ثلاثة أوجه.

الأول: بمعنى التجاوز والعفو، وهذا مقيد بعلى: ﴿فتاب عليكم﴾ [البقرة: ١٨٧] أو ﴿يتوب عليهم﴾ [آل عمران: ١٢٨] ﴿ويتوب الله على ما يشاء﴾ [التوبة: ١٥].

الثاني: بمعنى الرجوع والإنابة وهذا مقيد بالي: ﴿تبت إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣] ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ [البقرة: ٥٤] ﴿وتوبوا إلى الله﴾ [التحريم: ٨].

الثالث: بمعنى الندم على الزلة، وهذا غير مقيد لا بإلى ولا بعلى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾ [البقرة: ١٦٠] ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ [التوبة: ٣] ويقال: إن التوبة من طريق المعنى على ثلاثة أنواع: فالأول التوبة من ذنب يكون بين العبد وبين ربه وهذه تكون بندامة الجنان واستغفار اللسان، والثاني: التوبة من ذنب يكون بين العبد وبين طاعة الرب وهذه تكون بجبر النقصان الواقع فيها. والثالث: من ذنب يكون بين العبد وبين الخلق وهذه تكون بإرضاء الخصوم بأي وجه من الإمكان. ومن طريق اللفظ وسبيل اللطف على ثلاثة وثلاثين درجة. منها لا تكون مثمرة حتى يتم أمرها ولا تظن انك مزيد فيها، فإن أباك آدم كان مقدم التائبين، وإذا أردت التوبة فهو المريد لتوبتك، فإذا تاب فتوبته عليك جزاؤه بمحبته ولا تقبل توبة من يدخرها من الوقت، ومن توقف عن سلوك طريق الناس وسم جبين حاله بميسم الخائبين من الرجال لا يقعدهم على سرر السرور إلا التوبة ولا ينال مقام التوبة إلا بتوفيق الله، وإذا تاب المؤمن أقبل الله عليه بالقبول وكفل له نيل المأمول، ومن تاب كان في أمان الإيمان مصاحباً لسلاح الصلاح، ومن تاب وقصد الباب حصل له الفرج أفضل الأسباب إذا أقبل العبد على باب التوبة استحكم عقد إخوته مع أهل الايمان من أثار غبار المعاصي، واتبعه برشاش الندم غلبت الحكمة الإلهية طاعته على معصيته. من لاذ بحرم التوبة قبل القدرة عليه، فلا سبيل للايذاء عليه. وعلى هذا القدر وقع الاقتصار في ذكر ما يليق بالتوبة من الإشارات والتنبيهات والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، سيد المخلوقات، الشافع المشفع للمذنبين في العرصات، وعلى آله وصحبه الثقات ألا نجم الهداة.

كان الفراغ منه في الثاني عشر من رجب الفرد الحرام سنة ١٢٠٢، والحمد لله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تم الجزء العاشر ويليه إن شاء الله الجزء الحادي عشر وأوله
كتاب الصبر والشكر

فهرس الجزء العاشر من إتحاف السادة المتقين

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**